

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية: أصول الدين
قسم: الدعوة والإعلام والاتصال
تخصص: دعوة وثقافة إسلامية



جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة -
الرقم التسلسلي
رقم التسجيل

سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر
-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا-

أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د تخصص: دعوة وثقافة إسلامية

إشراف الدكتور:
د. وحيدة بوفدح بديسي

إعداد الطالبة:
نورة بركاني

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
أ.د/ مفيدة بلهامل	أستاذ	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة
د/وحيدة بوفدح بديسي	أستاذ محاضر - أ	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة
د/ حبيبة المانع	أستاذ محاضر - أ	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة
د/محمد الصديق قادري	أستاذ محاضر - أ	عضوا مناقشا	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
د/ فهيمة بن عثمان	أستاذ محاضر - أ	عضوا مناقشا	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
أ.د/ مقلاتي صحراوي	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة الحاج لخضر - باتنة 1

السنة الجامعية: 1447-1448هـ / 2025-2026م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

A decorative floral ornament is positioned to the left of the text, featuring a central flower with multiple petals and several leaves on a stem.

قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[النور/55].

شكر وتقدير:

الحمد لله ربّ العالمين، أحمده تعالى وأشكره أن منحني التوفيق والقوة والعزم لإتمام هذا العمل، رغم فترة الانقطاع الطويلة التي مررت بها، وأسأله جلّ في علاه أن يجعل ما أنجزته خالصاً لوجهه الكريم.

كما أتوجه بأسمى معاني الشكر والتقدير إلى أستاذتي المشرفة: وحيدة بوفدح باديسي، التي أعادت إليّ روح البحث من جديد، فكانت توجيهاتها السديدة، ودعمها المعنوي، انطلاقةً فعّالةً في مواصلة العمل واستكمالها.

فشكراً لك أستاذتي على إضافاتك المنهجية والمعرفية القيّمة، التي أثرت هذا البحث وأغنّته، سائلةً الله تعالى أن يجزيك خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر لأستاذي الفاضل: محمد البشير بن طبة، الذي كان عبر فضائه الأزرق العلمي؛ نافذةً أمدّني بالعديد من المراجع والمصادر التي خدمت هذا البحث.

ولا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة، لتفضلهم بقراءة هذا العمل ومناقشته.

كما أعبر عن بالغ الامتنان لكل من قدّم لي يد العون في إتمام هذا البحث، وأخص بالذكر زميلاتي الأستاذات: إيمان حسناوي، نادية جبار، وخلود بشارة، على دعمهنّ وتشجيعهنّ المستمر.

وأشكر كل من ساهم ولو بكلمة طيبة أو دعاء صادق في نجاح هذا الجهد العلمي، داعيةً المولى عزّ وجلّ أن يجزي الجميع خير الجزاء.



إلى أعز الناس و أقربهم لقلبي والديّ الكريمين حفظهما الله، اللذين وقفا
إلى جانبي وغمراني بوافر الدعاء.

إلى القلب الكبير أبي الغالي.

إلى رمز التضحية والحنان أمي العزيزة، التي كانت بحبها وعطاءها سندي
الحقيقي، فوهبتني أثمن أوقاتها في الأشهر الأخيرة، وكانت بطعامها الشهي
وعنايتها بأولادي؛ هدية السماء التي منحتني نعمة التفرغ والتركيز.

إلى زوجي الفاضل ياسين بوطارفة الذي دعمني وصبر عليّ طيلة مدة
البحث، وعائلته المحترمة.

وإلى رياحين حياتي، ابنيّ محمد أمين وعبد الودود، اللذين انتظرا بإحساس
طفولي جميل لحظة إتمام هذا الجهد، فكانا دافعاً لا يخبو.

إلى سندي المعنوي أختي الحبيبة زينب، وكل أشقائي تقديراً لمواقفهم
وتشجيعهم المتواصل.

إلى الدعاة في سبيل نشر دين الحق، والباحثين وطلاب العلم.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمرة جهدي المتواضع داعية المولى عز وجلّ أن
ينفعني وإياهم به.

مقدمة

لطالما سيطرت التفسيرات الأسطورية والخرافية على فهم البشر، للظواهر الكونية والأحداث التاريخية قبل نزول القرآن الكريم، الذي قدّم مفهوم "السنن" كقوانين تحكم حركة الحياة والأحياء، مثل هذا التحول نقلةً نوعية في الفكر البشري، حيث انتقل من التفسيرات الخيالية، إلى فهم القواعد الثابتة التي تضبط الكون والمجتمع، وقد جعل الله تعالى هذه السنن -باطرادها وثباتها وشمولها -وسيلة لتسخير الكون للإنسان، ومن أبرزها "سنن التمكين" التي تمثل الأساس لتحقيق الإنجاز الحضاري.

إذ تُعد مسألة تمكين الأمة الإسلامية واستعادة دورها الحضاري، من القضايا الجوهرية التي تشغل الفكر الإسلامي، وتمثل حلمًا يطمح إليه كل من يعمل في مجال الدعوة والإصلاح، وقد أكد الوحي الإلهي من خلال التأمل في آيات القرآن الكريم؛ أن التمكين لا يتحقق بالمصادفة، بل هو مرتبط بقوانين إلهية ثابتة، تُعرف بسنن التمكين، والتي تحكم مسيرة التاريخ بناءً على أسباب وشروط محددة، دون تمييز أو استثناء.

كما أثبتت تجارب الأمم أنّ النجاح لا يتحقق بالارتجال، ولا يقوم على الأمنيات، وإنما هو ثمرة وعيٍ بسنن الله في الكون والمجتمع، والأخذ بالأسباب التي رسمها الشرع لتحقيق مقاصد الاستخلاف في الأرض، وتُعدّ هذه السنن كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، خارطة طريق ربانية تهدي المؤمنين إلى مسالك الإصلاح والنهضة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور/55.

وفي ظلّ ما يشهده الواقع الدعوي من تحديات؛ فكرية وتنظيمية ومجتمعية جسيمة، تبرز الحاجة الماسّة للعودة إلى هذه السنن الإلهية، واستعادة الوعي بفقهاها، عبر الانتقال من الخطاب النظري، إلى التطبيق العملي المستنير بالنماذج التاريخية التي جسّدت سنن التمكين في الواقع، ولئن تعثّرت بعض الحركات الدعوية في مسيرتها، فذلك راجع إلى الاستعجال في قطف ثمار التمكين، دون استيفاء شروطه، أو بسبب غياب فقه السنن وأولويات هذه المرحلة، مما يجعل من دراسة هذه السنن ضرورةً ملحةً لتقويم المسار الدعوي.

من هذا المنطلق، تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ: "سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجًا"، محاولةً لتحليل تجربة إصلاحية رائدة في تاريخ الأمة الحديثة، إذ مثّلت جمعية العلماء نموذجًا عمليًا لفقه السنن في ميدان الدعوة، حيث نجحت في ظلّ واقع استعماري صعب، من بناء الإنسان وإحياء الهوية، وتحديد الخطاب الديني، مما مكّنها من أداء دور حضاري إصلاحي بارز.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن السنن والقوانين التي حكمت مسيرة الجمعية، واستكشاف العوامل التي أسهمت في نجاحها وتمكينها، مع تجاوز السرد التاريخي إلى التحليل السنني الذي يربط بين الوحي والواقع، والفكرة والتطبيق، إسهامًا في بناء رؤية متكاملة حول فقه سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر.

الإشكالية والتساؤلات:

لطالما شغلت قضية النهوض الحضاري والتغيير المجتمعي، حيزًا كبيرًا في فكر الإنسان، وتساءل المفكرون والمصلحون عن القوانين الضابطة لهذه المسيرة، وفي عالم تشتد فيه التحديات وتتعدد فيه الإشكاليات، تبرز الحاجة الماسة إلى منهجية رصينة لفهم سنن الله تعالى، التي أولاهها القرآن الكريم عناية كبيرة واهتمامًا بالغًا، حيث شغلت حيزًا كبيرًا من ثنايا سوره وسياقات خطابه، من أجل أن يوجه أنظارنا إلى قيمتها وضرورتها، فهي تهدف إلى فهم سيورة الكون، وحركة الحياة والتاريخ، وتفسير حاضر الأمور، واستشراف مستقبلها، باعتبار أن هذه السنن ثابتة مطردة، لا تحايي أحدا ولا تشفع لأحد، فلا تتخلف عن مسيرتها إلا وفق علم الله تعالى، وحكمه وحكمته.

ومن السنن الإلهية التي يقررها القرآن العظيم، والتي يجب أن تسترعي أنظار المسلمين عامة، ودعاة الإصلاح فيهم خاصة؛ سنن التمكين التي تُعتبر من السنن الإلهية التي دلّت عليها أساليب القرآن المتنوعة، في عرضها وإبراز جملة النتائج على شروطها، والمسببات على أسبابها، فهي كالموازين الثابتة، والمعايير والقواعد العامة، التي من خلالها يمكن أخذ الكثير من الدروس والعبر، فيها يسهل اكتشاف عوامل الهزيمة، ومقومات النصر وعناصر الثبات، وإلاّ اختلطت الرؤى وغابت الصورة، واهتزت المعالم وحلت الأهواء، فكانت الحاجة بذلك ماسة، إلى منهاج يحدد مراحل التمكين والاستخلاف الحضاري، لقيادة البشرية وفق منهج رباني.

فلا مناص من القول، أن التمكين من السنن الجارية، التي يتمناها كل عامل في حقل الدعوة إلى الله، فهي رجاء كل عبد من عباده؛ بأن يرى دستور الله حاكما، ومنهاجه سائدا، ولا يتحقق ذلك إلا إذا ما فقهوا واستثمروا هذه السنن، التي تُذهب عنهم غفلتهم، وضعفهم وانحزامهم، وتوصلهم إلى أرقى مراتب التمكين والاستخلاف، التي بلغها المسلمون في فجر الإسلام وتاريخه، ولعل أبرز من استفاد واستنار بهدي السنن الإلهية، تلك الأوساط والحركات الإصلاحية، التي كانت واضحة الرؤية في تحديد أهدافها ومعالمها، نحو الدعوة لبناء الفرد والمجتمع المسلم، بنشر قيم وتعاليم الإسلام ومبادئه.

وعلى الرغم من كثرة الجهود الدعوية المعاصرة، إلا أن الكثير منها يعاني من قصور النفس، أو ضعف التأثير أو الانحراف عن الأولويات، أو عدم القدرة على بناء مشروع حضاري متكامل، يعود ذلك في جزء كبير منه إلى

غياب فقه "سنن التمكين"، أو عدم القدرة على تنزيلها في الواقع المعاصر.

في حين تشكّل تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واحدة من التجارب الدعوية والإصلاحية البارزة في العصر الحديث، التي امتزج فيها العمل الديني بالاجتماعي والسياسي، في سياق تاريخي بالغ التعقيد، تمثل في الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، ومحاولات طمس الهوية العربية الإسلامية للجزائر.

في المقابل تطرح سنن التمكين في القرآن الكريم، نفسها كإطار نظري يحمل رؤية منهجية لعملية النهوض والبناء، فهي تقدم قوانين إلهية تحكم صعود الحضارات وسقوطها، وتقدّم الجماعات وتراجعها.

فجاءت بذلك هذه الدراسة لاستكشاف هذه السنن وتحليل تجلياتها، من خلال العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سعياً لوضع تصور منهجي يمكن للعمل الدعوي المعاصر، أن يستفيد منه في رحلته نحو التمكين والنهوض، مستلهمين من تجربة الجمعية الدروس والعبر.

وعليه تبرز إشكالية البحث الذي بين أيدينا في التساؤل الرئيسي التالي:

كيف تجلّت سنن التمكين في المشروع الدعوي الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟

ويندرج تحت هذا التساؤل مجموعة التساؤلات الفرعية التالية:

- ما المقصود بالسنن الإلهية وسنن التمكين تحديداً؟
- ما هي أبرز سنن التمكين التي يمكن أن تُطبّق في مجال العمل الدعوي؟
- ما هي التحديات التي تواجه تطبيق سنن التمكين؟
- كيف تعاملت الجمعية مع سنة الابتلاء وسنة الأخذ بالأسباب لتحقيق أهدافها؟
- كيف نفّذت الجمعية ومثّلت سنة التغيير الشامل وسنة التدافع الكامل؟
- ماهي التوصيات والآليات العملية لتفعيل سنن التمكين في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة؟
- أهمية الدراسة:

- إن تلمس موضوع سنن التمكين في كتاب الله موضوعٌ نفيسٌ، لارتباطه الوثيق بالوظيفة المقدسة التي أوكلها الله لعباده، إذ نجد تناول القرآن الكريم لهذه السنن واضحاً، فالله تعالى ما ذكر دعوة نبي إلا وبَيّن عوامل وأسباب تمكّنها، فسنن التمكين بمثابة أداة تحليلية لفهم التعقيدات والتفاعلات في الواقع الدعوي والاجتماعي، بدلا من القراءات العشوائية والانطباعية الخاضعة للعواطف.

- حاجة الأمة إلى إعادة تأصيل المفاهيم القرآنية وضبطها، والاهتمام بسنن التمكين على وجه الخصوص؛ لأنها تمثل بدورها مفاتيح مهمة لفهم مراد الله تعالى، وتصويب الرؤية للواقع والحاضر، وفق هذا المنهج السني؛ الذي دعا القرآن الكريم لفقه قوانينه واستثمار شروطه، لبناء الحضارة وتحقيق العمارة، وأيضا تكون أداة فعالة لاستشراف المستقبل وقراءته.

- المساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية في مجال " فقه السنن " وتطبيقاته في العمل الدعوي، من خلال تقديم إطار منهجي متكامل، يربط النظرية بالتطبيق، مما يُضيف بعدا تحليليا عميقا لفهم عوامل نجاح الحركات الإصلاحية أو إخفاقها.

- تقديم خارطة طريق عملية لترشيد الفاعلين، في الحقل الدعوي؛ دعاة، مؤسسات، حركات... لتجاوز العفوية والعشوائية، والانتقال إلى مرحلة التخطيط الاستراتيجي وتوقع التحديات والإشكاليات، بناءً على قوانين إلهية ثابتة، لا تميل لطرف دون آخر.

- استخلاص الدروس والعبر، من كيفية تطبيق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لسنن التمكين، بداية بسنة الابتلاء التي تمتحن صدقهم، وسنة الأخذ بالأسباب التي تستلزم الجمع بين التوكل والتخطيط، وسنة التغيير التي تبدأ من النفس البشرية، وسنة التدافع التي تحكم صراع الحق والباطل، لتكون هذه الدروس في النهاية مبادئ عملية قابلة للتطبيق في سياقات مختلفة.

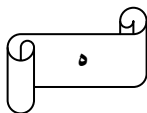
• سباب اختيار الموضوع:

من بين أهم الأسباب التي دعت لاختيار هذا الموضوع:

- الاستجابة لواقع الأمة الإسلامية وأزمة التأخر والركود الحضاري الذي تعيشه، مما يستدعي البحث عن سنن النهوض والتمكين، الكامنة في نصوص الوحي، التي تشخص أسباب الواقع الراهن وتفتح مسارات للتغيير انطلاقا من فهم هذه السنن.

- ندرة الدراسات التكاملية بين المنظور النظري والتطبيقي، فالدراسات التي تربط بين المفهوم النظري بالتطبيقات المعاصرة في مجال العمل الدعوي، لاتزال محدودة، فجاءت هذه الدراسة لتقديم نموذج تحليلي يربط الفقه النظري للسنن بالممارسة العملية.

- الحاجة المنهجية لترشيد العمل الدعوي، الذي يواجه تحديات وعقبات تتطلب الانتقال من الاجتهادات الفردية العفوية، إلى عمل مؤسسي قائم على رؤية استراتيجية واضحة، تقدمها سنن التمكين في إطار



منهجي رباني يضبط حركة ومسيرة هذا العمل الدعوي.

- التاريخ الإسلامي حافل بنماذج نجاح وإخفاق في التمكين، وهذا الموضوع يسمح بتحليل نموذج جمعية العلماء المسلمين، كتجربة مهمة ومؤثرة تحليلًا سننيًا، للوقوف على عوامل القوة والضعف، واستخلاص العبر والآليات، التي يمكن أن تستفيد منها باقي الحركات الدعوية المعاصرة.

- الحاجة إلى تجديد الخطاب الدعوي ووسائله، في ظل تحديات العصر ومستجداته، وفي الموضوع محاولة لكيفية تطبيق سنن التمكين في هذه السياقات الجديدة، مثل فضاء الدعوة الرقمية.

• أهداف الدراسة: نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

- تأصيل مفهوم السنن الإلهية وسنن التمكين.
- الكشف عن خصائص سنن التمكين وأهدافها.
- بيان أبرز سنن التمكين التي يمكن أن تطبق في مجال العمل الدعوي.
- الوقوف على أبرز التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت تطبيق سنن التمكين.
- استقراء واستنباط سنن التمكين التي تؤدي إلى نجاح وثبات العمل الإسلامي، وذلك من خلال هذه التجربة التاريخية الرائدة والمؤثرة.
- الاستفادة من تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعاملها مع سنة الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التغيير، والتدافع من خلال عملها الدعوي.
- تقديم التوصيات والآليات العملية لتفعيل سنن التمكين في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة.
- تقديم رؤية متوازنة تجمع بين الأصالة في فهم السنن الإلهية، والمعاصرة في تطبيقها، من خلال صياغة المبادئ والقواعد العملية التي حكمت نجاح مشروع الجمعية في عملها الدعوي.
- استخلاص نموذج عملي مستلهم من تجربة الجمعية، يمكن أن يسترشد به الدعاة والمؤسسات الدعوية، للتمكين الدعوي في العصر الحاضر، فيكون بمثابة خارطة طريق للمؤسسات الدعوية المعاصرة.

• ضبط المصطلحات:

من ضروريات البحث؛ تحديد المفاهيم والمصطلحات التي ترد فيه قبل الشروع في خطوات العمل، وذلك

لتسهيل المضي في البحث دون عوائق يؤدي إليها غموض المعنى لمصطلح ما، وأهم مصطلحات هذا البحث: سنن، التمكين، الدعوة، المعاصر.

1- السنن:

- **لغة:** إذا بحثنا في الدلالة المعجمية لكلمة "السنة" نجد معناها في اللغة العربية؛ مشتق من الفعل "سَنَ" بفتح السين المهملة وتشديد النون، أو من سَنَّ، فالسين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي أسنّه سنّا، ومما اشتق من السنّة، وهي السيرة، وسنّة رسول الله ﷺ: سيرته، قال الهذلي:

فلا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سَرَّهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مِنْ يَسِيرُهَا
وإنما سميت بذلك؛ لأنها تجري جريا، ومن ذلك قولهم: امضي على سَنَنِكَ وَسُنَّتِكَ¹.
فللسنة عدة معاني أبرزها:

- السيرة المستمرة والطريقة المتبعة المعتادة: وهذا المعنى للسنة هو الأصل والغالب، قيل: السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة²، ومنه قوله ﷺ: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها"³، فحسن السيرة والطريقة أو سوؤها، إنما يأتي على طريق الوصف والإضافة.

فالسنن جمع سنة، وهي في الأصل الطريقة والسيرة، سواء كانت مرضية أو غير مرضية، وللکلمة أصل صحيح بهذه المعاني، في كلام العرب والقرآن الكريم، ومن ذلك الدوام والثبات على الأمر، كما في قولهم سنّ الماء إذا دوام على صبه وسنّ الإبل بمعنى دوام على رعيها، والإحسان إليها⁴.

فشبهت العرب الطريقة المتبعة والسيرة المستمرة؛ بالشيء المصبوب، لتوالي أجزائه على نهج واحد.

وبهذا الإطلاق اللغوي جاءت كلمة السنة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿سُنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء/77.

- السنة بمعنى المثال المتبع: جاء في لسان العرب "سنّ فلان طريقا من الخير يسنّه، إذا ابتدأ أمرا من البر لم

¹ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر. بيروت، ط1، 1415هـ، ج3، ص60.

² - جمال الدين بن منظور الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414، ج13، ص22.

³ - رواه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، ج2، ص704، رقم1017.

⁴ - علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص122.

يعرفه قومه، فاستنوا به وسلكوه"¹، أي من ابتداء طريقة، وأصبح الناس يتبعونه فيها كان مثالا لهم.

-والسنة بمعنى الصقل والتزيين: يقال: سنَّ الشيء يسنه سنًّا، وسنَّه أي: صقله وزينه، فالسنة "الوجه لصقالته وملاسته، وقيل هو حُرُّ الوجه، وقيل دائرته، وقيل: الصورة، وقيل الجبهة والجبينان، وكله من الصقالة والأسالة.

-والسنة بمعنى البيان: يقال سن الأمر: أي بينه، وسن الله أحكامه للناس: بينها، فسنة الله: أحكامه، وأمره، ونهي، وسنَّ الله سنة أي بين طريقا قوما"²

فالسنة في اللغة العربية تحمل معنى الطريقة أو السيرة، سواء كانت محمودة أو مذمومة، لأنها تحمل العادات والمناهج الحسنة والسيئة على حد سواء، وتدل في مجملها على الطبيعة التي تمتاز بالثبات والديمومة.

-اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح، فلا ينفك مفهومها المصطلح عليه عند العلماء عن معناها اللغوي، ولذا نجد كثيراً من العلماء يمزجون في تعريفها اللغوي بعض مفاهيمها الاصطلاحية، فيقول الراغب الأصفهاني: "فالسُّنُّ جمع سُنَّة، وسُنَّةُ الوجه طريقته، وسنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحرها، وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته، نحو: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/23، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/43، فتنبه أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس وتشريحها للوصول إلى ثواب الله تعالى ومرضاته وجواره"³.

-وقال سيد قطب: "السنن هي القوانين الكونية التي أودعها الله هذا الكون؛ ليسير على وفقها، ويتحرك بموجبها، ويعمل بمقتضاها"⁴

-وعرفها عبد الكريم زيدان بقوله: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"⁵

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج13، ص225.

² - المرجع نفسه، ص224.

³ - أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ"الراغب الأصفهاني"، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، دط، دس، ج1، ص322-323.

⁴ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط12، 1406هـ، ج1، ص272.

⁵ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993، ص13.

ويستخلص من جملة هذه التعاريف: أن السنن لا تخرج عن وصفها طريقة ومنهج الله تعالى الثابت، في تدبير وتسيير شؤون خلقه، وهذا المنهج يُطبَّق وفق علم الله تعالى وحِكمته، لينتظم أمر هذا الكون من خلالها؛ بناءً على سلوكهم وأفعالهم وما يترتب على ذلك من نتائج.

2- التمكين:

- لغة: مصدر الفعل مَكَّنَ، وهو المزيد الثلاثي والأصل "مكن" في كتب اللغة، ولم تخرج عن أصل وضعها "فمكن" مكنه الله من الشيء، وأمكنه منه، واستمكن الرجل من الشيء وتمكن منه بمعنى، وفلان لا يمكنه النهوض: أي لا يقدر عليه.¹

وقد مكنت الضبة وهي مكون، وأمكنت وهي ممكن، إذا جمعت البيض في دجوجها، والمكنة التمكين، تقول العرب: إن بني فلان لذو مكنة من السلطة أي تمكن، وقال بن سيده: والمكانة المنزلة عند الملك والجمع مكانات، ولا يجمع جمع تكسير وقد مَكَّن مكانةً فهو مكين، والجمع مكناء. وتمكن من الشيء واستمكن ظفر، والاسم من كل ذلك المكانة.²

وخلاصة القول مما سبق: أن المعنى الجوهرى للتمكين في اللغة هو إعطاء المكانة والقوة والاستقرار، مما يؤدي إلى القدرة والثبات والسيطرة.

- اصطلاحاً: ورد مصطلح التمكين في القرآن الكريم أيضاً، حسب الاستخدام اللغوي له فجاء:

- التمكين بمعنى الملك والسلطان: قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا إِنَّ مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/84 أي آتيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ مِنَ التَّمْكِينِ.³

- والتمكين أيضاً: بمعنى المنزلة عند السلطان قال تعالى: مخبراً عن يوسف عليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يوسف/21. أي صيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر كذلك مكنا له في الأرض فجعلناه على خزائنها.⁴

¹ - زين الدين أبو عبد الله الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999، ص 297.

² - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 13، ص 412-415.

³ - إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419، ج5، ص 171.

⁴ - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار هجر للطباعة، ط1، 2001، ج 13، ص 64.

وقال سيد قطب في بيان معنى: ﴿وَلْيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ النور/55 " تمكين الدين يتم بتمكينه من القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها، فقد وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم، هو الذي يهيمن على الأرض، ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد ومن طاقة مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.¹

-وعزفه محمد الصلابي بقوله: هو دراسة أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحلها وأهدافه ومعوقاته من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس.²

وتأسيسا على ما سبق، نخلص إلى أن التمكين لا يعني مجرد الوصول إلى السلطة والسيطرة، بل هو عملية شاملة؛ ترتبط بعمارة الأرض وتحقيق العبودية، وهو مرحلة متقدمة من القوة، يمنحها الله للأمة أو الفرد، عندما يتحقق فيهم شروط التمكين، فيصبحون قادرين على أداء الرسالة وقيادة البشرية.

3- العمل الدعوي: والذي يهدف إلى نشر "الدعوة"، فالدعوة:

- لغة: بمعنى النداء والطلب، تقول: دعا الرجل دعوا ودعاء: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته³، ودعوت الله له وعليه أدعوه دعاء⁴، ودعا إلى الشيء حثه على قصده، يُقال دعا إلى الصلاة، ودعاه إلى الدين وإلى المذهب، حثه على اعتقاده وساقه إليه.⁵

فهي من دعى قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة/23، قال الفراء " وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ" يقول آهتكم استغيثوا بهم فالدعاء هنا بمعنى الاستغاثة، وقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الرعد/14، قال الزجاج جاء في التفسير أنها شهادة أن لا إله إلا الله وجائز أن تكون والله أعلم دعوة الحق أنه من دعى الله موحدا والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين والنبي ﷺ داعي الأمة.⁶

وبالتالي فالدعوة في اللغة تعني حمل الناس على اعتناق فكرة، أو الانضمام إلى أمر ما، عن طريق النداء

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2529.

² - علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، ط1، 2006، ص12-13.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج1، مج9، ص1386.

⁴ - الرازي، مختار الصحاح، مرجع سابق، ص105.

⁵ - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص286.

⁶ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج1، ص988.

والطلب والإقناع.

- **اصطلاحاً:** كلمة الدعوة من الناحية الاصطلاحية هي من الألفاظ المشتركة التي تطلق على الإسلام أو

الرسالة، وعلى عملية تبليغه ونشره بين الناس والسياق هو الذي يحدد معناها.

- فهي العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من

عقيدة وشريعة وأخلاق¹.

- وقيل هي الطلب بشدة وحث على الدخول في دين الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً ظاهراً وباطناً.²

- وعرفها البيانوني بقوله: بأنها طلب الناس وسوقهم إلى الإسلام وحثهم على الأخذ به، وهي كذلك: تبليغ

الإسلام للناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة³.

إذن، فالدعوة هي الإسلام من حيث المبادئ والقيام بنشره وجذب الناس إليه بالوسيلة المناسبة⁴.

وتأسيساً على ما تقدم فإن **العمل الدعوي**: هو عملية متكاملة تهدف إلى نشر تعاليم الإسلام، وقيمه

السمحة، ويمثل جهوداً منظمة لتبليغ هذا الدين بجميع مبادئه، وأحكامه وآدابه للناس كافة، بأساليب متنوعة

وحكيمة، مستفيداً من الوسائل والأساليب الجديدة، مع الالتزام بالتوابت الشرعية.

4- المعاصر:

- **لغة:** المعاصرة على وزن مفاعلة من العصر أعصر الرجل دخل في العصر والمرأة بلغت شباهها، وقيل أدركت

فهي معصر جمع معاصر ومعاصير والريح جاءت بالإعصار، عاصر معاصرة كان في عصره ولاذ به، تعاصرا

جمعهما عصر واحد، العصر وعصور الدهر والزمن ينسب إليه ملك أو دولة أو أي تطورات اجتماعية.

وهو الزمن مطلقاً يقسم الله به إذ تقع فيه حركات الناس وأعمالهم وقيل هو الوقت المعروف الذي تجب فيه

صلاة العصر وقيل هو قسم بصلاة العصر لفضلها⁵، وعاصر فلان لجأ إليه ولاذ به وعاش معه في عصر واحد

والذي يهمننا نحن معانيها هو الوقت والمعايشة.

¹ - أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1987، ص11.

² - محمود محمد حمودة، محمد مطلق عساف، فقه الدعوة وأساليبها، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2000، ص11.

³ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1995، ص16-17.

⁴ - عبد الله بن محمد آل موسى، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عالم الكتب، الرياض، ط1، 1985، ص27.

⁵ - محمد عتريس، المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم، مكتبة الأدب، القاهرة، ط1، 2006، ص609.

اصطلاحاً: هي المعيشة بالوجدان والسلوك للحاضر وللإفادة من كل منجزاته العلمية والفكرية وتسخيرها لخدمة الإنسان ورقية.¹

وعليه فمفهوم " المعاصر " في العمل الدعوي ليس مجرد مصطلح عابر، بل هو منهج عمل متكامل يجمع بين الأصالة والتجديد، يتطلب من الدعاة فهما عميقا للماضي وللواقع، ومرونة في الأساليب، والتزاما راسخا بالثوابت الشرعية.

ومن خلال تبني هذا المنهج يمكن للدعوة أن تظل مؤثرة وملهمة للأجيال الحالية والمستقبلية، وأن تساهم بفعالية في بناء مجتمعات أفضل.

وختاماً يمكننا الوقوف، على معنى سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، تعريفاً مركباً انطلاقاً مما سبق بيانه في معاني الكلمات، فكلمة سنة تدل على العادة المتبعة، والطريقة الماضية باطراد وثبات، وكان ورود الكلمة في القرآن، قد أكسبها بعض الصفات بالإضافة إلى دلالتها اللغوية، وذلك مثل العموم والشمول، وعدم التغير أو التبدل والتحول.

وكلمة التمكين تدل على المعطيات من التسلط والهيمنة والاقدار على التصرف، أو الاستقرار وعمارة الأرض، وتحقيق العبودية لله تعالى، والعمل الدعوي يراد بها ذلك الجهد المنظم، لتبليغ الإسلام وتعليمه وتطبيقه في واقع الحياة المعاصرة.

فالمراد بسنن التمكين أنها: قوانين الله المطردة في خلقه، ونظامه الحاكم المهيمن في أفعالهم، الذي إذا اتبعه عباده أقدرهم على التصرف في أرضه والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكيّنة في كيفية التعامل مع مفرداتها، وإحسان توظيفها²، خاصة في العمل الدعوي الذي يراد به نشر رسالة الإسلام وتعميمها وتمكينها في كافة الأقطار.

هذا وغيره يؤكد لنا أن سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر هي: جملة القوانين الإلهية الثابتة، المستمدة من الوحي وفهم السنن التاريخية، التي تنظم مسيرة العمل الدعوي وتضبط مراحله، وتكفل له الانتقال من طور الضعف والقلّة، إلى طور القوة والاستخلاف، مع تحقيق العبودية لله تعالى.

¹ - السيد محمد الشاهد، موسوعة المفاهيم الإسلامية العالمية، القاهرة، ط1، 2000، ص515.

² - رمضان خيس زكي الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، كلية المعلمين حائل، المملكة العربية السعودية، دط، دس، ص 8-9.

الدراسات السابقة:

يعتبر الاطلاع على الدراسات السابقة من ضروريات البحث العلمي وذلك لما له من أهمية كبرى في سير هذا الموضوع من حيث نتائجه ومجالاته فيبني الباحث عليها دراسته، ويمكن تقسيم الدراسات السابقة التي تم التوصل إليها، إلى محورين رئيسيين هما كالآتي:

1- المحور الأول: دراسات حول الإطار النظري: وهو "سنن التمكين"، وهذا المحور يتناول الدراسات التي نظرت لمفهوم "التمكين" وسننه في الفكر الإسلامي، وهي ضرورة لبناء الأساس النظري للبحث، ومن أبرز هذه الدراسات:

- دراسة بعنوان "تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم" أنواعه-شروطه وأسبابه-مراحل وأهدافه، لعلي محمد الصلابي، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط1، 2001.

إشكالية الدراسة: تدور حول حاجة الأمة الإسلامية إلى فهم فقه التمكين، للسعي إلى تحقيق آمالها وفق سنن الله الجارية، الواضحة المعالم في كتاب الله، والأمة بحاجة إلى من يرد ثقتها برها ويوقظ الإيمان في قلبها، ويرشدها للأخذ بأسباب التمكين وشروطه، ويبين لها طبيعة الطريق وكيفية السير فيه، ويوضح لها المعالم لتعرف كيف تعمل؟ وإلى أين تسير؟

ولتحقيق هذه الدراسة اعتمد الباحث منهج الرجوع إلى المصادر الأصلية، من الكتاب والسنة في تدعيم البحث، والحرص على التزام الأمانة العلمية في عزو الأقوال إلى قائلها.

ومن النتائج التي توصل إليها من خلال الدراسة أن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة من أهمها تبليغ الرسالة وهزيمة الأعداء وإقامة الدولة، ومن أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم تمكين الله تعالى للدعاة بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

فالكتاب تناول قضية التمكين تناولاً شاملاً من حيث الشروط والأسباب والمراحل والأهداف وتناول هذه المراحل تناولاً دعوياً، واهتم بتطبيق الحركات الإسلامية للتمكين.

- دراسة بعنوان: "سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم" لرمضان خميس زكي الغريب، كلية المعلمين حائل، المملكة العربية السعودية.

تحدثت إشكالية الدراسة عن حاجة المسلمين للتمكين، غير أن فكرة خضوع التمكين لقانون ثابت وسنة

ماضية؛ تجعل كثيرا من المسلمين يمضي على غير هدى، فيطلب النتائج من غير مقدماتها، فكانت هذه الدراسة تهدف إلى التركيز على فكرة خضوع التمكين لأسباب، وشروط محددة ذكرها القرآن وعني برصدها، حتى صار يخضع لسنة من سنن الله في خلقه، وهي سنة الله في التمكين فأنت الدراسة لإبراز هذه الأسباب والشروط والأهداف، التي تمثل قانونا لا يتخلف ولا يتأجل ولا يتحول، فكان السؤال الأساس لهذه الدراسة هو: ما سنة الله في التمكين؟

وبالنسبة لمنهج الدراسة فقد استخدم الباحث المنهج الوصفي الاستنباطي وكانت أدوات جمع الآيات ذات الصلة بالموضوع وتحليلها واستنباط الأساليب والشروط والأهداف المتعلقة بسنة التمكين اعتمادا على ما كتبه علماء التفسير واللغة.

وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها:

- أن المقصود من سنة الله في التمكين؛ قانون الله المطرد في خلقه، ونظامه المهيم على أفعالهم الذي إذا اتبعه عباده أقدرهم على التصرف في أرضه والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكيمة، في كيفية التعامل مع مفرداتها، وإحسان توظيفها.

- أن ألفاظ التمكين دارت في القرآن الكريم؛ ثمان عشرة مرة، ووردت بصيغ متعددة واستوعبتها السور المكية والسور المدنية.

- أن هناك ألفاظا مرادفة للتمكين كالغلب والاستخلاف، والهيمنة والنصر، ونحو ذلك ودارت في القرآن أيضا في السور المكية والمدنية.

- أن التمكين له أسباب ووسائل كالحفظ والأمانة والعلم والأخذ بالأسباب، وله شروط يكتمل بتحققها وجوده؛ كالإيمان العميق والترابط والوثيق، والعمل المتواصل، والربانية.

- أن التمكين له أهداف مثل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- دراسة بعنوان: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، لمحمد السيد يوسف، رسالة ماجستير من جامعة الأزهر الشريف، تناولت الدراسة معنى التمكين للأمة الإسلامية، ثم تحدثت عن مقومات التمكين، وذكر العوائق وقسمتها إلى داخلية وخارجية، ثم فصل الحديث عن سنن ربانية على طريق التمكين، وكانت الدراسة في ضوء القرآن الكريم، إلا أنه دعمها بالأحاديث النبوية.

ونراها الرسالة المناسبة كدراسة سابقة، تخدم الجانب النظري للدراسة الأصلية، لكن الباحثة لم تستطع

الحصول على هذه الدراسة.

- دراسات وكتب الطيب برغوث أبرزها سلسلة آفاق في الوعي السني، ومشروع المنظومة السننية الشاملة، والذي يرصد من خلالها كما هائلا من الكتب، التي تتناول قضايا حضارية واجتماعية ودعوية، وفق منهجية تحليلية واستقرائية، لفهم سنن الله وتطبيقها في التغيير الحضاري.
ومن بينها:

- الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة، المحمدية، الجزائر، ط1، 2004.
- التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سني كوني متوازن، برج الكيفان، الجزائر، دار النعمان، ط1، 2017.
- مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلايفية على ضوء نظرية التدافع والتجديد، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2004.

دراسة بعنوان: "فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية" دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي"، لهادف مصطفى، رسالة علمية نال بها درجة الدكتوراه من قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، بجامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012-2013.

وقد وقع اختياري لهذه الدراسة ضمن جملة كبيرة من الدراسات؛ التي سبقت وعُيّنت بدراسة السنن الإلهية، لارتباطها بالدعوة الإسلامية، وهو مجال بحث الدراسة التي بين أيدينا.

بداية دارت إشكالية الدراسة حول فقه السنن الكونية، في فكر وكتابات الشيخ الغزالي، والتي تحت الدعاة وكل العاملين في حقل الدعوة للتمسك بهذا الفقه، من أجل الانطلاق والاقلاع الحضاري، فالإشكالية التي تطرحها الدراسة هي ما مدى استفادة الدعاة والعاملين لدين الله تعالى، بمختلف مدارسهم ومناهجهم من فقه السنن الكونية؟

تناولت الدراسة رصدًا للسنن الإلهية المتمثلة في؛ سنة التدافع، وسنة التداول والأجل وقانون السببية، وسنتا التدرج والتغيير، وسنة الله في الاستبداد، وسنة التسخير، مع التأكيد على أهمية فقهها والتعامل معها بنقلها من الإدراك العقلي إلى التوظيف الفعلي، باستخدام المنهج الاستقرائي التحليلي "الوصفي"، في تتبع الجزئيات والكتليات التي ضمّنها الغزالي، في حديثه عن السنن الإلهية، وكذلك المنهج التاريخي في المواقف والأحداث التاريخية.

وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة نتائج أبرزها:

- مدى حاجة الأمة إلى فهم واسع للسنن الإلهية، بما يضمن لها الحصانة العقدية والمعرفية.
- أما على الجانب التطبيقي في دراسة هذه السنن، فقد وقفت الدراسة على عدد من السنن الإلهية التي تناولها الغزالي في الأمم والأفراد، مرة بإسهاب وتفصيل، وأخرى بإيجاز وتركيز.
- كانت سنة التدرج ميزة بارزة في مسار الرسالة القرآنية، وهي غاية الأهمية للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، فتطبيق الشريعة يجب أن يكون جزئياً بهدف الوصول إلى التطبيق الكلي، بما يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية.
- ومن السنن التي تناولها الغزالي سنة الأجل وهي قريبة من سنة التدرج، لأن استعجال أي فكرة أو دعوة أو مشروع، لا يمكنه النضج والنمو إلا من خلال سنة التدرج.
- أكد الغزالي على أهمية سنة التغيير في حياة الناس، وهي خاصية من خصائص المنهج الإسلامي؛ الذي لا يقبل التعايش مع واقع سيء، وقاعدة التغيير عند الغزالي تستمد شرعيتها من القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنهجه التغيير يدور حول مجالين؛ مجال داخلي يتعامل مع النفس والعقل والفكر، ومجال خارجي يتعامل مع الواقع دراسة وفهما وتطبيقاً، ولا يتحقق التغيير إلا بتكامل هذين المجالين.
- ومن سنن الله في الحياة الإنسانية قانون السببية، والذي حذّر فيه الغزالي من مغبة تعطيل الأخذ بهذه القوانين، وبيّن آثارها المدمرة لتعطيل قانون السببية، وأشار إلى سنة التداول التي لم تأخذ المكانة المقبولة، في حياة الأمة الإسلامية، لأن حقيقة هذه السنة وفقهها مرتبط بسنة النصر والتمكين.
- سنة التدافع مغيبة في عقول المسلمين وتفعيلها لا يكاد يذكر، فكانت دعوة الغزالي إلى أن نعرف عصرنا ونستوعب واقعنا، ندرك القوى والأفكار والنظريات والعلوم، التي تدور في هذه الحياة من أجل استغلالها لجلب المصالح ودرء المفاسد.

ومن الدراسات التي تناولت السنن الإلهية بمفهومها الشامل، أو إحدى هذه السنن دراسة:

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993.
- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، لشريف الخطيب، أطروحة دكتوراه، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، الدار العثمانية، مكتبة الرشد عمان، الأردن، 2004.

- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم" أصول وضوابط"، مجدي محمد محمد عاشور، دار السلام، مصر، ط3، 2013.
 - السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، لعمر حيدوسي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، رسالة دكتوراه، 2012.
 - سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، -دراسة موضوعية-، لخالـد الزهراني رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2007.
 - الأبعاد التربوية لسنة الابتلاء في ضوء الفكر التربوي الإسلامي، لمحمد إسماعيل سيد أبو سخيـل رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007.
- وكانت الفائدة من هذا المحور، أنها دراسات قدّمت الأساس النظري المتين لسنن التمكين، وأبرزت ضوابط فهمها وشروطها وخصائصها وأهدافها، كونها قوانين حاكمة للصعود والهبوط الحضاري، كما قدّمت نماذج تطبيقية للتمكين من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والتاريخ الإسلامي المجيد، وبعض الحركات الإسلامية في دول معينة.

2- المحور الثاني: دراسات حول النموذج التطبيقي: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا المحور يضم الدراسات التي تناولت الجمعية بالبحث والتحليل، أما بالنسبة للدراسات التي قدمت دراسة سننية لتجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فعلى حسب اطلاعي فهي نادرة، إذ لم نَحْظْ بالدراسة الكافية من هذا المنظور تحديداً، إلا في بعض المقالات التي تُشير إلى ذلك من خلال مؤسسها، فنجد مثلاً مقالا بعنوان: **معالم الوعي السنني في المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس**، لمصطفى مخلوف، وبدر الدين زواقة، مجلة الشهاب، كلية العلوم الإسلامية، المجلد 9، العدد 1، مارس 2023، جامعة الوادي-الجزائر.

تحدثت إشكالية الدراسة عن الرصيد العلمي والفكري الكبير، من خلال كتابات ومحاضرات ومنهجيات رائد الإصلاح والتجديد الحضاري؛ عبد الحميد بن باديس، مستفصرة عن معالم الوعي والفقه السنني في المشروع الإصلاحي الباديسي.

أما بالنسبة لمنهج الدراسة فقد اتّبع المنهج الوصفي التحليلي، مستندا على المنهج الاستقرائي في استقراء بعض مواقف ابن باديس من قضايا الإصلاح والتغيير.

ومن نتائج هذه الدراسة:

- أنها كشفت مكانة البعد السني في فكر ابن باديس، وعرضت جملة من السنن الإلهية التي نظّر لها الشيخ في كتاباته، مثل سنن التغيير والأسباب والمسببات، وسنة التدرج والمرحلية، وسنة الأجل والتداول والاستبدال، وسنة الابتلاء والحن.

- استحضار المنهج الإصلاح السني عند ابن باديس، قمين بإعادة بعثه وتفعيله في عمليات الإصلاح الحديثة للمجتمع والأمة، وأن فقه السنن الإلهية في الإصلاح والتغيير ضرورة منهجية؛ لتوجيه وترشيد مشاريع الإصلاح وتقصيد فاعليتها الحضارية.

وبالتالي بيّنت الدراسة كيف تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية، وأعملها في مشروعه الإصلاح، فكان لها ظهور متميز في الدعوة الباديسية؛ تنظيرا وإعمالا وممارسة.

أما الدراسات التي اهتمت بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحثا وتحليلا؛ فكتيرة أبرزها:

- تاريخ الجزائر الثقافي، للمؤرخ أبو القاسم سعد الله.
- الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، لعللي مراد.
- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، إعداد وتصنيف: عمّار الطالبي، وكذلك آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي.

كما وُجدت الكثير من الدراسات التي تناولت جوانب محدّدة من نشاط الجمعية، مثل:

- القضايا الوطنية من خلال صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "البصائر فؤدجا"، وهي دراسة لبوسعيد سومية، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس 2014-2015م.

- وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي دراسة لمفيدة بلهامل، رسالة ماجستير، معهد أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1996-1997م.

- الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين، وهي دراسة لشهرة شرفي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009م.

هذا بالإضافة إلى مجهودات أخرى حول جمعية العلماء المسلمين، كدراسات حول دور صحافة الجمعية في النهضة الجزائرية، ودراسات حول دور مدارس الجمعية في الحفاظ على اللغة العربية والهوية الإسلامية، أيضا دراسات حول الموقف السياسي للجمعية من الاستعمار الفرنسي...

وتمثلت الفائدة من هذا المحور، في كونها قدّمت المادة التاريخية والتوثيقية اللازمة، لتحليل تجربة الجمعية بشكل علمي وموضوعي.

وبعد استعراض جملة الدراسات السابقة، تظهر الفجوة البحثية المتمثلة، في عدم وجود دراسة شاملة، تربط بين سنن التمكين القرآنية، وتطبيقاتها في تجربة جمعية العلماء، أيضا قلة الدراسات التطبيقية التي تستخلص الدروس العملية، للعمل الدعوي المعاصر، بالإضافة إلى الحاجة لنموذج عملي قابل للتطبيق في السياقات المعاصرة.

أما ما تُضيفه هذه الدراسة، ويميّزها عن الدراسات السابقة، كونها تقوم بعملية تركيب ومواءمة بين المحورين؛ فهي لا تكتفي بالتنظير لسنن التمكين، ولا بسرد تاريخ الجمعية، بل تربط بشكل منهجي بين التنظير والتطبيق، حيث تستخدم تجربة جمعية العلماء المسلمين كمختبر تحليلي، لفهم كيفية تجسيد سنن التمكين في واقع المجتمع الجزائري، بهدف الخروج بنموذج عملي، ودروس قابلة للتطبيق من طرف الدعاة والحركات الدعوية المعاصرة.

• منهج الدراسة:

لتحقيق أهداف الدراسة والإجابة عن تساؤلاتها، اعتمدنا على منهج متكامل يجمع بين عدة مناهج نوعية، إذ "يعتبر منهج الدراسة من الخطوات الأساسية لأي دراسة أو بحث، وهذا الاختيار الدقيق والمحدّد للمنهج يعطي للدراسة أكثر موضوعية ودقة، ومصدقية للنتائج المتوصل إليها¹، وسبب هذا الاختيار هو طبيعة موضوع هذا البحث التاريخية التحليلية الاستنباطية، وتأسيسا على ذلك فالمناهج المتبعة هي كالآتي:

-المنهج الاستقرائي: وهو المنهج الأساسي في هذا البحث نظرا لطبيعة الدراسة وأهدافها فقد تم استخدام المنهج الاستقرائي؛ "الذي يعتمد على تتبع الجزئيات للتوصل إلى حكم كلي وهو أسلوب من أساليب الحكم المنطقي ويتشكل بفضل قراءة عدة حالات ومن ثم التعميم².

¹ - طه بدوي، منهج البحث العلمي، المكتب العربي الحديث، مصر، د ط، دس، ص 263.

² - منذر الضامن، أساسيات البحث العلمي، دار المسيرة، عمان، ط 1، 2007، ص 132.

وتطبيقه يكون من خلال تتبع أعمال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في مختلف المجالات التربوية، الإعلامية، الاجتماعية وحتى السياسية، لاستخلاص السنن التي كانت تحكم عملهم، مثل سنة الابتلاء، الأخذ بالأسباب، سنة التغيير سنة التدافع....

-المنهج التاريخي: وهو منهج يقوم على دراسة الماضي، لفهم الحاضر واستشراف المستقبل،" ويتعدى مجرد سرد ووصف الأحداث، ليحللها ويفسرها على أسس علمية دقيقة، بهدف التوصل إلى تفسيرات وتعميمات تساعدنا في تفسير الماضي، وفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل"¹، ولا غنى عن هذا المنهج في البحث، كونه متصل بظاهرة تاريخية، وهي النموذج المدروس " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي يتم رصد مسارها منذ التأسيس سنة 1931، مروراً بمراحل قوتها وتحدياتها وصولاً إلى تأثيرها الممتد حتى اندلاع الثورة.

وتطبيقه كان على النحو الآتي؛ أثناء الحديث أو الوقوف على الوقائع والأحداث التاريخية، والتي مرّت بها الجمعية في دعوتها وأثناء مواجهة تحدياتها لتجسيد سنن التمكين، من سنة الابتلاء وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التغيير.... وهكذا.

- المنهج الوصفي التحليلي: والذي يركز على وصف ورصد دقيق وتفصيلي لموضوع محدد ألا وهو التوصيف الدقيق للمشروع الإصلاحي، الذي تبنته الجمعية وفق منظور سنني، ويهدف هذا المنهج إلى تقويم وضع معين لأغراض عملية، وإن البحث لن يقف عند حد وصف إشكالية الدراسة ومظاهرها فحسب، بل يتعداه إلى تحليل وتفسير الأسباب والأبعاد المرتبطة بها، وذلك باستخدام المنهج التحليلي الذي يعرف بأنه أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة، عن ظاهرة أو موضوع محدد²، وتجسّد ذلك في تحليل الأدوات والوسائل، التي استخدمتها الجمعية لتحقيق أهدافها، كالتعليم، الصحافة، الخطابة، النوادي الثقافية، وتقييم مدى فعاليتها، بالإضافة إلى تحليل الوثائق وخطابات، ومقالات رجال جمعية العلماء المسلمين،" وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية وعملية ثم نقوم بتفسيرها بطريقة موضوعية بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة المدروسة.³

¹ - موفق الحمداني وآخرون، مناهج البحث العلمي-أساسيات البحث العلمي-جامعة عمان للدراسات العليا، عمان، ط1، 2006، ص93.

² - محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي، دار وائل، عمان، ط2، 1999، ص 46.

³ - سمير محمد حسين، بحوث الإعلام الأسس والمبادئ، عالم الكتب، د ط، دس، ص123.

- أما بالنسبة **لخطة البحث المتبعة**، فقد كانت مقسمة إلى؛ مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، جاء بعد المقدمة، الإطار المنهجي للدراسة الذي تضمن إشكالية البحث وأهميته، وأسباب اختيار الموضوع، وأهم الأهداف المراد تحقيقها، مع ضبط المصطلحات الواردة في البحث، وذكر لأهم الدراسات السابقة في الموضوع، وأخيرا ضبط منهج البحث.

- كان **الفصل الأول** مخصصا، للحديث عن الإطار النظري والمفاهيمي لسنن التمكين، وقسمناه إلى أربعة مباحث؛ درسنا بداية في المبحث الأول مفهوم السنن الإلهية وأنواعها، أما المبحث الثاني فعرضنا فيه مفهوم سنن التمكين وخصائصها، وبالنسبة للمبحث الثالث تناولنا فيه مصطلح التمكين في القرآن الكريم والسنة النبوية، وختمنا الفصل بمبحث رابع، يبين أهمية فقه سنن التمكين في العمل الدعوي.

- أما في **الفصل الثاني**، فصلنا القول فيه حول سنن التمكين الكبرى، وأثرها في العمل الدعوي، أين عرضنا في المبحث الأول سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي، وخصّصنا المبحث الثاني لسنة الأخذ بالأسباب، وأثرها في تمكين العمل الدعوي، فيما تضمن المبحث الثالث؛ حديثا حول سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي، أما المبحث الرابع والأخير؛ فعرضنا فيه سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

- وأدرجنا في **الفصل الثالث**، أبرز مقومات تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، حيث دار الحديث فيه بداية حول الشروط المعنوية والمادية لتفعيل سنن التمكين، وعرضنا في المبحث الثاني الأهداف العقدية والحضارية لتفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي، أما المبحث الثالث فتناول أبرز التحديات الداخلية والخارجية أمام تفعيل سنن التمكين، وختمنا هذا الفصل بمبحث رابع تحت عنوان أثر فقه سنن التمكين في ترشيد العمل الدعوي المعاصر.

- وبالنسبة **للفصل الرابع**، انتقلنا فيه للكلام عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأبرز مجالات التمكين التي حضرت من خلال عملها الدعوي، حيث خصّصنا المبحث الأول للتعريف بالجمعية وبأهدافها التي تسعى لتحقيقها، وفصلت المباحث الثلاثة الأخرى أبرز مجالات هذا التمكين، إذ تناول المبحث الثاني مجال التمكين الديني "العقدي" في العمل الدعوي للجمعية، أما المبحث الثالث فدار حول المجال الاجتماعي والثقافي، والمبحث الرابع تخصص في المجال السياسي.

- أما الفصل الخامس وهو آخر فصول هذا البحث، فكان دراسة تطبيقية لتجليات سنن التمكين في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقسمناه إلى خمسة مباحث؛ دارت المباحث الأربعة الأولى حول تجليات كل سنة من سنن هذا التمكين، فدرسنا في المبحث الأول تجليات سنة الابتلاء في مسار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعرضنا في المبحث الثاني، تجليات سنة الأخذ بالأسباب في عمل الجمعية الدعوي، وأشرنا في المبحث الثالث إلى تجليات سنة التغيير في تجربة الجمعية، وعرضنا في المبحث الرابع لتجليات سنة التدافع في مسار الجمعية، ووصمنا المبحث الخامس والأخير بتوصيات لتفعيل سنن التمكين في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة.

الفصل الأول:

الإطار النظري والمفاهيمي لسنن التمكين

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية وأنواعها.

المبحث الثاني: مفهوم سنن التمكين وخصائصها.

المبحث الثالث: مصطلح التمكين في القرآن الكريم والسنة النبوية.

المبحث الرابع: أهمية فقه سنن التمكين في العمل الدعوي.

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية وأنواعها:

قبل الخوض في غمار البحث والتفصيل في سنن التمكين، ارتأينا الوقوف للإشارة والتقديم بتعريف السنن الإلهية، ثم بيان أنواع هذه السنن؛ من سنن إلهية كونية متعلقة بالوجود المادي للطبيعة في عالم الآفاق، وسنن إلهية اجتماعية، متعلقة بالوجود البشري في عالم الأنفس؛ فردا كان أو جماعة أو أمة، وذلك لبيان موقع سنن التمكين من هذه الأنواع، لأنه بتحديد جنس السنن ومعرفة أنواعها، وموضوعاتها ومحتواها؛ يتحدد إطارها العلمي والعملية الذي تدور فيه، وتبرز الميادين والمجالات التي تتحرك في نطاقها والتي تعتبر مدار الدراسة ومجال البحث، وتفصيل ذلك كالاتي:

المطلب الأول: مفهوم السنن الإلهية لغة واصطلاحا:

1- لغة: من خلال الرجوع إلى معاجم اللغة العربية، وتتبع لفظة السنن نجد اختلافا، بين أهل اللغة في تعيين طبيعة لفظ "سنن" من حيث هو اسم جامد غير مشتق، أو هو اسم مصدر الفعل "سَنَ" والجاري بكثرة على السنة المفسرين والمعرّبين أن السُّنَّة اسم مصدر سَنَ، ولم يذكروا لفعل سن مصدرا قياسيا¹، فالسنن جمع مفردة سنَّة من الفعل الثلاثي "سَنَ" الذي نجد لمادته اللغوية "س.ن.ن" دلالات ومعاني مختلفة، من أهمها ما يلي:

- السنة بمعنى الطريقة: والسنن الطريقة يقال: استقام فلان على سنن واحد أي على طريق واحد² وسيرة معينة، ومنه حديث النبي ﷺ في زكاة المحوس "سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب" أي خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم، فمن اتَّبَعَ طريقة معينة في أمر ما قيل إن سنته كذا، وهو مشتق من سنن الطريق، يقال تنحَّ عن سنن الطريق وعن سنن الخيل أي عن طريقها³.

- السنة بمعنى الطريق: سَنَ الله سنة أي بيّن طريقا قويمًا، ويقال للطريق أيضا سنن، وهو طريق سنَّة أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم، وسَنَ فلانا طريقا من الخير يشنُّه إذا ابتدأ أمرا من البرّ لم يعرفه قومه فاستنوا به وسلكوه⁴.

¹ - محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، دط، 1984، ج4، ص96.

² - إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1990، ج5، ص2138.

³ - أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، لبنان، دط، 1987، ص273.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص2125.

- السنة بمعنى السيرة: والسنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة¹، قال ﷺ: "من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء"²
- السنة بمعنى جريان الشيء واطراده: السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة ويسر، والأصل قولهم سننت الماء على وجهي أسنّهُ سنّاً، إذا أرسلته إرسالاً³، ويقال سنّ الماء على وجهه: صبّه صبّاً سهلاً⁴، دلالة على جريان الماء وتتابعه.
- السنة بمعنى الصقالة والملاسة: يقال: سننت الإبل: أي أحسنت رعيها والقيام عليها... وأسننت الرمح: جعلته سنناً⁵، وقولهم سنّ إبله أي أحسن رعيها على أفضل طريقة، حتى حسنت بشرتها، فكأنها قد صقلت صقلاً⁶.
- السنة بمعنى الوجهة والقصد: والسّنن القصد، فيقال: امض على سننك: أي وجهك وقصدك، وسنن الرجل قصده وهيمته⁷، ويقال: ترك فلان سنن الطريق أي جهته⁸، ومنه قولهم في صورة الوجه: امض على سننك وسننك، أي على وجهك، وجاء من الخيل سنن علا يُردّ وجهه، وتنحّ عن سنن الخيل أي عن وجهه، وعن سنن الطريق وسننّه وسننّه ثلاث لغات.⁹

ومن الملاحظ بعد الاطلاع والبحث في تعريفات اللغويين للسنة ما يلي:

- يدور معنى لفظ السنة في الدلالة المعجمية اللغوية، على أصل دلالي جامع هو: الجريان والاطراد، ثم تفرعت منه أصول دلالية أخرى، ترجع كلها إلى أصل الجريان وهي: السيرة والطريقة والمثال، الاستقامة والدوام، التوالي والسهولة، الوضوح، والنهج والبيان، القصد والوجهة والابتداء، الطبيعة والعادة، الوجه والصورة والصقالة،

¹ - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ت: مصطفى حجازي، سلسلة التراث العربي، الكويت، ط1، 2001، ج 35، ص 230.

² - سبق تخريجه، ص12.

³ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج3، ص60.

⁴ - الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، وزارة الأوقاف، مصر، ط3، 1996، ج3، ص267.

⁵ - المرجع نفسه، ج3، ص267.

⁶ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج3، ص61.

⁷ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج13، ص220.

⁸ - الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج35، ص232.

⁹ - الجوهري، تاج اللغة، مرجع سابق، ج1، ص334.

الإحسان والرعاية، وهي معانٍ متقاربة تحمل طابع الحيوية والفعل والحركة الموجهة القاصدة، وإن غلب على اللفظ معنى الطريقة والسيرة.

- أن دلالة مشتقات الجذر "س ن ن" تدور حول الطريقة والعادة والسيرة المطردة، وهي الطريق المسلوك دون عناء أو تكلف، نتيجة اطراد وتتابع وجريان الفعل، على نهج واحد كالماء المصبوب، وقد أجاد رشيد رضا في بيان وجه الارتباط، بين استعمال اللفظة وأصلها اللغوي، فقال "فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد"¹.

- السنة هي الطريقة التي يسير وفقها الإنسان حسنة كانت أم سيئة، ويغلب في استعمالها على الجانب الإيجابي محمود والحسن، وهو الأكثر استعمالاً وتداولاً في كلام العرب.

- السنة هي جريان الشيء واطراده على نمط ونسق واحد، من الثبات والدوام، والتتابع على الأمر، فينتج بذلك وصف البيان والحسن والجمال، من الصقالة والملاسة في الوجه والصورة حسياً، وفي الرعي والصنع والسير في الطريق معنوياً.

- السنة هي القصد وابتداء أمر ما، وسلوكه بما لم يكن معروفاً من قبل، والسنة الوجهة التي يراد بلوغها وتحقيق الغاية من قصدها، ولا يتحقق ذلك إلا عن اطراد وجريان الفعل، المحقق للقصد والوجهة.

والملاحظ من خلال مجموع المعاني اللغوية لكلمة السنة؛ أن هناك تنوعاً وتبايناً من حيث مبنى الكلمات، لكن مضمون هذه المعاني يشكل علاقة طردية تلازمية، فيها من التداخل والترابط الوظيفي، ما يبرز التنوع والتعدد الدلالي للكلمة، ومفاد ذلك كالتالي:

السنة بمعنى الجريان والاطراد: وهو الأصل الأول لاشتقاق الكلمة.

- استعمل في كل ما يطرد ويتتابع ويدوم؛ فاستعمل في البيان والوضوح، من حيث إنه يجري على شكل واحد بَيِّن.

- استعمل في القصد والوجهة، لأن تحققهما لا يكون إلا عن اطراد، وجريان الفعل المحقق للقصد والوجهة.

- أضف إلى ذلك، فقد استعمل في السيرة والطريقة والمثال، لأنهما معانٍ دالة على توالي الفعل وجريانه على

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، المشتهر بتفسير المنار، دار المنار، مصر، ط2، 1937، ج4، ص140.

نُهج واحد، كالماء المصبوب.¹

أما السنة بمعنى الطريقة، وهي الأصل الثاني للكلمة فيها إشارة إلى أن هذه:

- الطريقة عند تكرارها تصبح في حالة من الرسوخ في الذهن، فيجري في تطبيقها التتابع والاطراد تُسلك في الحياة، فتصبح عادة وسيرة منتظمة، متعارفٌ ومتفقٌ عليها بين الناس.

- الطريقة عندما تتحقق فيها جملة الأوصاف السابقة؛ من اطراد وتتابع وثبات وانتظام، تظهر عليها أوصاف وملامح الحسن والجمال والزينة.

- الطريقة المحمودة الحسنة تكون صاحبة قبلة، ووجهة معروفة المعالم ليسير عليها المرء؛ في تتابع واطراد، بُغية بلوغ الهدف المنشود، والمقصد المرغوب، فالسنة إذن لها غاية وهدف ومقصد من الوجود.

وتأسيساً على ما سبق نخلص بذلك ختاماً إلى تعريف السنة لغة وهي:

- الطريقة الثابتة والسيرة المطردة، والمنهج المسلك، الهادف لتسيير شؤون الخلق ونظام الكون.

2- اصطلاحاً: إن استعمال كلمة السنة مجرّدة من أي إضافة؛ يتصل مباشرة بسنة النبي ﷺ، وما تتضمنه

من أقوال وأفعال وتقريرات وصفات، وبالتالي فتعريف السنة من الناحية الاصطلاحية له معان متعددة، بحسب الفن والمجال الذي ترد فيه، فتعريفها مثلاً عند الفقهاء والأصوليين، يختلف عن تعريفها عند أهل الحديث والتفسير، وإنّ ما يتناسب ويخدم موضوع الدراسة هو ما جاد وأفاد به العلماء المفكرون من خلال دراسة السنن الإلهية في الفكر الإسلامي.

حيث نجد أن مفهوم السنن الإلهية، حظي بكثير من المعاني في التراث الإسلامي، نتيجة كثرة التخصصات واختلاف المباحث وتنوعها، إلا أنها كانت إسهامات لم تفرد لها المؤلفات، كما هو الحال بالنسبة للعصور التي تلتها، حيث ظهرت العديد من الدراسات والكتب، التي تتناول موضوع السنن الإلهية، بإضافة السنة إلى الله تعالى، ومعناها:

- طريقة الله الثابتة المطردة في تسيير نظام الكون وجريانه، ومنهجه تعالى في معاملة عباده وتدبير كافة شؤونهم، وهذا ما يتوافق مع دلالة كلمة السنة ومعانيها لغة، فأصبحت كلمات ودلالات السنن علماً على قوانين

¹ - عزيز البطوي، سنن العمران البشري في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2018، ص49-50.

الله، التي تحكم الامتداد الأفقي والعمودي للحياة كلها.¹

ومن هذا المنطلق نجد معنى السنن الإلهية في تعريف العلماء المفكرين، يرتبط بهذا التعريف مع تعدد وتنوع في إطلاق وصف هذه السنن، كونها القوانين والنواميس والضوابط، العادات والنظم والشرائع، وأفعال الله وأحكامه....

وقد اعتمدنا في تعريف السنة اصطلاحاً، تقسيم عمر حيدوسي²؛ الذي بناه هو الآخر على تقسيم عبد العزيز برغوث، في تعريفه للسنة الإلهية لاعتبار كثرة التعريفات وتنوعها، فكان التقسيم بذلك منهجاً مبيناً ومنظماً، لدلالة جملة التعاريف التي صنفها إلى أربعة أبعاد، وبيان ذلك بإيجاز كالتالي:

- البعد الرباني للسنن الإلهية: ونراه الجانب الذي يضيفي الصبغة الشرعية لهذه السنن الإلهية، فيه يتأكد مصدرها وغايتها الشرعية، وتتضح فيها بجلاء مظاهر أفعال الربوبية، إذ يتضمن جملة التعريفات التي تستهدف وصف السنن الإلهية باعتبارها قرار إلهي، وفيه ممارسة لمعاني القوة والقدرة وتدبير الشؤون:

- فالسنة هي ما اطرد من فعل الله، في معاملة الأمم والأفراد، بناء على أفعالهم وسلوكهم ومواقفهم من شرع الله، وأثر ذلك في الدنيا والآخرة.³

- والسنة هي حكم الله في خليقته، وفق مجموعة القوانين التي سنّها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها.⁴

- البعد القانوني للسنن الإلهية: ونراه الجانب الذي يضيفي الصبغة النظامية لهذه السنن الإلهية، فيه يتأكد مدى حاكميتها وسريان قانونها، وقوة نفاذها تحت راية السلطة الربانية؛ النظامية العادلة، ويتضمن جملة التعريفات التي تستهدف وصف السنن الإلهية؛ كونها قواعد وضوابط، ونواميس لنظام إلهي ثابت محكم:

- فالسنة هي مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون، والتي يستفيد منها الكائن الإنساني بما يؤهله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة/31. فيسخرها ويستفيد منها، فهي نظم هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه المسيرة له

¹ - عادل بن بوزيد عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، دط، 2012، ص35.

² - عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، تخصص كتاب وسنة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012، ص162.

³ - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص36.

⁴ - أحمد محمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص52.

وفق ما أراده الخالق المبدع جل شأنه، مجالها الواسع: السماوات، الأرض، والحياة والكون والإنسان¹

- وهي القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها، فلا يشذ عنها مخلوق، وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة.

- كما أنها تلك النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله المطلقة، وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين.²

—وهي القانون الضابط المهيم، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتباً على سلوك البشر.³

—وهي مجموعة القوانين التي سنّها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها.⁴

والملاحظ من خلال جملة التعاريف السابقة:

- الشمولية: كون هذه السنن قوانين سارية في جميع عناصر الكون والوجود والحياة البشرية، مع الإشارة للإرادة والقدرة الإلهية المطلقة في تسيير وتفعيل هذه القوانين على اختلاف الألوان والأجناس والأنواع فهي أنظمة ربانية إلهية نافذة، لا تحايي أحداً على آخر.

- السببية: كون هذه السنن قوانين تبنى على مقدمات ومسببات، إشارة إلى قيامها على مبدأ السببية أين ترتبط النتائج بالمقدمات والأسباب بالمسببات.

- البعد المنهجي للسنن الإلهية: ونراه الجانب الذي يضيف الصبغة المقاصدية لهذه السنن الإلهية، فيه تتأكد الغاية والهدف من وجود هذه السنن، وأبرز الآثار والنتائج التي تخلفها، ويتضمن جملة

التعريفات التي تستهدف وصف السنن الإلهية، كونها الطريقة والمنهج والسير المتبعة.

- نبدأ بما أشار إليه رشيد رضا بقوله: "إن أمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من مصارعة الحق

¹ - إبراهيم بن علي الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري - دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر -، دار الشروق، القاهرة، ط 4، 1989، ص 7.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط 17، 1991، ج 6، ص 479.

³ - رمضان خميس زكي، سنة الله في إهلاك الأمم، ط 1، 2014، ص 20.

⁴ - أحمد كنعان، أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في خلقه، مرجع سابق، ص 52.

للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة، وغير ذلك قد جرى على طرائق قديمة، وقواعد ثابتة، اقتضاها النظام العام¹

فقيل: السنة طريقة الله في معاملته للبشر، بناءً على سلوكهم وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة.²

- وهي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين.³

- وهي منهج الله في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله تعالى في سير الحياة الإنسانية في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضاءه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله.⁴

فالملاحظ على جملة التعاريف السابقة، الانتقال من المفهوم النظري إلى المفهوم التحليلي، أين أصبحت السنة منهجاً لتحليل الواقع، وفهم حركة التاريخ والمجتمع، ومعرفة النتائج المترتبة على الأفعال.

- البعد الثقافي الاعتباري للسنن الإلهية: ونراه الجانب الذي يضيف الصبغة الواقعية لهذه السنن الإلهية، فيه يتأكد تعامل هذه السنن مع وقائع الحياة، حسب الظروف والمعطيات الجارية في الكون أو الفرد، وليس للخيال فيها مجال، فهي تتضمن جملة التعريفات التي تستهدف وصف السنن الإلهية، كونها المثال والعادة الجارية في معاملة الله للأقوام.

- فالسنة هي العادة التي تتضمن أن يُفعل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالاعتبار فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف/111⁵، فهي بذلك كالقصص في المماثلة بالفعل، وذلك لأخذ العبرة.

- وتُعرّف السنة أنها مثال فعل الله بالسابقين⁶، سواء حسُن هذا الفعل أو ساء، ومرجع فعل الجزاء يكون من

1 - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج4، ص140.

2- عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 13.

3- محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، ط3، 1988، ص73.

4- شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، أطروحة دكتوراه، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، الدار العثمانية، مكتبة الرشد عمان، الأردن، 2004، ج1، ص 9.

5- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء، ط3، 2005، ج13، ص20.

6 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ج10، ص304.

جنس العمل، فإما بالصلاح والفلاح أو الخيبة والخسران.

- السنة: هي أقدار الله تعالى وأحكامه القدريّة، والتكوينية التي جرت بها عاداته؛ في وقائع الاجتماع الإنساني، وأحوال العمران البشري وطبائعه: تداولاً وتدافعاً وتجديداً، بحسب تحقق الخلق - اختياراً - بمقتضيات الميثاق الإلهي، ومقومات التوحيد والاستخلاف والعمران، فيجازي بذلك - عدلاً بلا محاباة - من وافقها، ويعاقب من خالفها، ابتلاء للمؤمنين وهداية وتأييداً، واملاءً للكافرين استدراجاً وإهلاكاً.¹

وخلص الباحث من خلال كل ما تقدم من أبعاد، في تعريف السنة إلى تعريف جامع مفاهي؛ أن السنن الإلهية: هي تلك الأنساق القانونية التي بثّها الله عز وجل في كل المفردات الكونية لتخضع له سبحانه في اطراد وانتظام²

وبناء على ما تقدم، سنقف على محاولة لتعريف السنن الإلهية بمراعاة الأبعاد السابقة الذكر، التي تقدّمها كمنظومة متكاملة ومتفاعلة، معناها يشير إلى أنّ:

- السنن الإلهية هي المنهج الرباني الثابت، في تدبير شؤون الخلق وقوانين الكون، فتظهر الآثار وفق نسق وظيفي حضاري، يحفظ هوية الأمة ويوجّه سيرورتها التاريخية.

المطلب الثاني: أنواع السنن الإلهية وسياقاتها:

تجدر الإشارة بداية، إلى أن البحث في موضوع السنن الإلهية؛ يعد من البحوث المتأخرة المعاصرة، فكان فيه من التباين وعدم الاتفاق، في الاصطلاح على هذه السنن بين العلماء والمفكرين المجتهدين، لذا اختلفت آراء الباحثين - اختلاف تنوع - في بعض عناصر هذا الموضوع، ومنها الحديث عن أنواع السنن الإلهية.

وقبل الحديث عن أنواع السنن، نجد بداية اختلافاً في الاصطلاح عليها، بين من يسمي هذه السنن مرة بالسنن الإلهية، ومرة بالسنن الربانية³، وأخرى بالسنن الكونية أو التاريخية⁴ وغيرها...، لكنه اختلف لفظي لا أثر له في المعنى، لأن مآل ذلك واحد، فمصدر السنن والقوانين التي تحكم الأشياء؛ هو الله تعالى الذي ترجع إليه وتصدق فيه كل معاني الربوبية والألوهية.

1 - عزيز البطيوي، سنن العمران البشري في السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 99.

2 - عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 192.

3 - راشد سعيد شهبان، تأصيل علم السنن الربانية، مجلة القسم العربي، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، العدد 15، 2008، ص 52.

4 - السيّد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2011م، ص 48.

ومصدر الأشياء والأحياء التي تطبق عليها هذه السنن، واحد أيضا هو الله جل جلاله، ومن أمثلة ذلك سيد قطب الذي يفرّق بين تسمية السنن إلى نوعين:

فيقول: السنن الإلهية: وهي التي تحكم الحياة البشرية، والسنن الكونية: هي القوانين الطبيعية التي تحكم المادة، وأن الانتظام والانضباط موجود في كلا النوعين بمرتبة واحدة، لكنه يرى أن القوانين قد يخرقها الله لحكمة يريد بها، وكأنه بذلك يريد تفسير الخوارق والمعجزات، أما السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية فقد ثبتها الله، ومن ثم فلا تخضع لهذا الاستثناء¹، وغيرها الكثير من التبريرات لباقي التسميات.

أما بالنسبة لأنواع السنن فالملاحظ فيها جملة تفصيلات وتوضيحات؛ فمنهم من يجعلها قسمان سنن كونية وأخرى إنسانية²، أو سنن جارية وأخرى خارقة، وهناك من جعلها سننًا جبرية لا إرادية يشترك فيها الإنسان مع سائر الموجودات، وسننًا إرادية اختيارية تدخل تحت قدرة الإنسان وتحكمه³، ومنهم من فصل فجعل منها السنن الكونية والنفسية والاجتماعية والتاريخية⁴.

أضف إلى ما تقدم، نجد من يضيف إليها حزمة أخرى هي السنن التشريعية⁵، وتتواصل الجهود في جعل أنواعها، بين سنن الآفاق وسنن الأنفس وسنن الهداية وسنن التأييد⁶، وهناك تصنيف لهذه السنن بين سنن الغيب وسنن الشهادة ويشتمل كل نوع فروعاً مستقلة بذلك⁷.

وإن مرجع هذا التنوع في تصنيف السنن هو جودة البحث فيها، واختلاف الآراء والاجتهادات، فكل يقسّم حسب ما يوصل إليه فهمه واجتهاده، ويؤدي إليه تأمله، وما يراه أقرب للضبط في موضوع تقسيم السنن الإلهية.

وبناءً على ذلك فقد اعتمدنا في تقسيم أنواع السنن، على ما سبق التفصيل فيه عند العلماء المفكرين، نوعين من السنن؛ سنن كونية وسنن إنسانية، وقد جاء في التعبير القرآني بيان النوعين تحت مسمى؛ الآفاق

¹ - سيد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص 120.

² - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 12، شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، مرجع سابق، ج 1، ص 75.

³ - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص 18.

⁴ - مجدي عاشور، مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، مرجع سابق، ص 22.

⁵ - راشد سعيد شهبان، تأصيل علم السنن الربانية، مرجع سابق، ص 52.

⁶ - الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة، المحمدية، الجزائر، ط 1، 2004، ص 32.

⁷ - عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 256.

والأنفس، قال تعالى: ﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فصلت/ 53.

وبالتالي فالسنن الإلهية نوعان:

1- السنن الكونية: "سنن الآفاق" : ويتعلق هذا النوع بخضوع جميع الحوادث المادية، وجميع الكائنات الحية في وجودها المادي، وكذا خضوع كيان الإنسان المادي لهذه السنن؛ فالعالم بكل ما فيه ومن فيه من نبات وجماد وحيوان وإنسان وأجرام سماوية، وما يصدر عن هذه الموجودات وما يتعلق بها ويحل فيها، وما يقع من حوادث كونية، كنزول المطر وهبوب الريح، وثوران بركان وتعاقب الليل والنهار، وما يحصل للإنسان من أطوار خلقه، وتكوينه في بطن أمه، وما يحدث له وللأمة من شقاء وسعادة، ورفعة وسقوط وعلو وانحطاط، وقوة وضعف وبقاء وفناء، ونحو كل ذلك لا يقع صدفة، ولا خبط عشواء، وإنما يحدث وفق قانون عام دقيق ثابت صارم، لا يخرج عن أحكامه شيء، وهذا القانون لا يختلف في وجوده أهل العلم بهذه الأمور المادية.¹

فالسنن الإلهية هنا يراد بها التفسير والمعنى الكوني المبتوث في خلق الله تعالى، وفق أمره وقدرته وقضائه تعالى، وتمت الإشارة إلى هذا النوع في محكم التنزيل، تحت مسمى "الآفاق"، وهو العالم الذي يشكل الكون المادي، بمفرداته وعناصره الحيوية؛ التي تمنح الإنسان كل ما يحتاجه وجوده، واستمراره الحيوي ككائن عضوي مادي.

وهو المجال أو العالم الحيوي الأول، الذي لا غنى عنه للإنسان، إذ فيه معاشه، وأدوات تحصيله لهذا المعاش وتكثيره وتنويعه... وقد نظم بدقة شديدة، عبر قوانين وسنن ثابتة، تسهل على الإنسان عملية تسخير مفرداتها، لتلبية ضروراته وحاجاته الحياتية، الحيوية والتحسينية.

وقد وضعت هذه السنن مباشرة تحت سلطة؛ الفطرة والعقل، والتجربة والخبرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشفها وأن يتحكم فيها، ويستثمرها لتلبية احتياجاته، في معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، التي يجد نفسه في مواجهة مستمرة لتحدياتها المتلاحقة.²

فيتضح بجلاء انطلاقاً من هذا النوع؛ دلائل قدرة الله وعظمة إبداعه، في مظاهر الإعجاز الدقيق للوجود، وصور التناسق والانسجام، التي تسود كل تفاصيل مفردات هذا الجانب المادي، وتبرز النظام العام الذي تسير وفقه كل هذه الماديات الكونية، التي تعمل وفق إرادة ومشئئة إلهية مُحَكِّمة مدبّرة، وقوانين محسوبة ومنضبطة، تزيد

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 7.

² - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، مرجع سابق ص 64.

العبد قوة يقين وإيمان بالله تعالى، وإقرار بتوحيده في ألوهيته وربوبيته.

2- السنن الإنسانية (سنن الأنفس): وهنا يُراد بها التفسير والمعنى الاجتماعي المبثوث في الحياة الإنسانية، وفق أمر الله تعالى وقدرته وقضائه، في ضبط وتنظيم الأحكام الجارية على البشر؛ أفراداً وأماً وجماعات، في كل أحوالها وأوصافها، وقد تمت الإشارة إلى هذا النوع من السنن، في محكم التنزيل تحت مسمى "الأنفس" وهو العالم الذي يشكل الكون الاجتماعي الخاص بعالم الإنسان.

ومن هذا المنطلق، فإن "سُننُ الأنفس تشكّل الإطارَ التشغيليَّ لتحقيق الوظيفة الرسالية للإنسان، بصفته خليفةً في الأرض، حيث يُكلّف بمهمة عمارتها والانتفاع من خيراتها، ويتميز هذا المجال الكوني بدقة تنظيمه من خلال سُننٍ نفسية واجتماعية مطردة، تُمكن الإنسان من تسخيرها لتلبية احتياجاته الحيوية والفكرية والروحية المتأصلة في تركيبته الفطرية.

وإن هذه الاحتياجات تنبثق من طبيعة الإنسان العضوية والنفسية، كما تفرضها متطلبات وظيفته الاجتماعية والحضارية المتطورة، انسجماً مع مكانته المتميزة في الكون، وتخضع هذه المنظومة من السُننِ التسخيرية والاستخلافية، لسلطة الفطرة والعقل البشري، كما تخضع للتجربة والخبرة الإنسانية على نحو كبير، مما يمكن الإنسان من اكتشاف القوانين المنظمة لحركة التدافع والتداول والتجديد الحضاري وبذلك يصبح الإنسان قادراً على توظيف هذه السُننِ واستثمارها، وفقاً لمرجعياته العقدية ومستوى نضجه الفكري، وبما يتناسب مع حجم التحديات التي يفرضها سياق التدافع الحضاري في كل عصرٍ وزمان¹.

ولا بد من التأكيد على أن هذا النوع من السنن يرتبط ارتباطاً وثيقاً "بالقوانين الإلهية المنظمة لتغيّر أحوال الأمم وتقلباتها، وهي سنن تجري وفق ما تكسبه تلك الأمم من خير أو شر. فهذه التحولات الحضارية تقوم في جوهرها على مدى صلاح المجتمعات أو فسادها؛ إذ تسود الأمم التي تلتزم بشرع الله، وتتقيّد بتعاليم الوحي، وتجعل من هذه المبادئ إطاراً ناظماً لسلوكها وقوانينها، فتنهض وتتعرّز قوتها. وعلى النقيض من ذلك، تتراجع الأمم التي تعرض عن الهدى الإلهي وتستغني عنه.

وقد سنّ الله لهذه التحولات قوانين ثابتة تبدّل أحوال الأمم بمقتضاها قوةً وضعفاً، وصعوداً أو أفولاً، وهي سنن مشهودة في الواقع المائل، كما تؤكد شواهد التاريخ وقصص الأمم السابقة التي تحمل في طياتها عبرة لمن يتأمل².

¹ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن السيورة الاستخلافية، مرجع سابق، ص 64-65.

² - علي الأمين عوض الله، "مفهوم وخصائص السنن الإلهية في ضوء القرآن الكريم"، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم درمان الإسلامية، الخرطوم، السودان، ص 3-4.

أضف إلى ما سبق فإن الدارس لموضوع السنن في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ يلحظ أن هناك سننا عامة تشمل الإنسان كله؛ مؤمنه وكافره، فتحدّد للمؤمنين طريقهم، وعاقبتهم إذا استقاموا على الإيمان، وللكافرين أيضا طريقهم وعاقبة أمرهم، وتُبيّن الفرق الواسع بين كليهما¹، فيتضح بجلاء انطلاقا من هذا النوع؛ أن الحياة البشرية وأمور الناس، وأحوالهم المتراوحة بين كل الأسباب ومسبباتها، من السعادة والشقاء، السراء والضراء، الهدى والضلال، الكفر والإيمان، التقدم والتخلف، تسير وفق سنن ربانية شاملة.

وتأسيسا على ما سبق بيانه في أنواع السنن الإلهية نقول:

- أن السنن الإلهية نوعان: سنن كونية في عالم الآفاق، وهي القوانين الإلهية الثابتة والمطلقة، التي تحكم الكون المادي، فهي متعلقة بالأشياء المادية؛ من السماوات والأرض، وللإنسان إمكانية تسخير هذه الماديات، وما في هذا الكون للاستفادة منه، وفيها دلالة عظيمة على عظمة الخالق تعالى وإتقان صنعه.
- وهناك نوع ثان من السنن؛ وهي السنن الإنسانية في عالم الأنفس، والتي جعلها الله نظاما ثابتا، تحكم سلوك الإنسان، وحركة المجتمعات والتاريخ، وهي تمثّل طريقا إلى سعادة الإنسان، أو شقائه دنيويا وأخرويا، غايتها امتحان هذا الإنسان وبناء المسؤولية، وتحقيق الاستخلاف في الأرض وفق منهج الله.
- طابع السنن الكونية مادي طبيعي، أما طابع السنن الإنسانية فهو اجتماعي تاريخي حضاري.
- ارتباط السنن الكونية بحركة الكائنات، والمخلوقات الخاضعة لقوانين ثابتة ومطرّدة، أما السنن الإنسانية فهي مرتبطة بالإرادة الإنسانية، التي تنتج سلوكا في الحياة.
- السنن الكونية تظهر قضاء الله وقدرته، وسعة حكمه لهذا الوجود المادي، في صورة من الانسجام والتناسق وروعة الإبداع، أما السنن الإنسانية فهي تظهر آثارها في صورة الثواب والجزاء الإلهي؛ لمن وافق هذه السنن، أو العقاب والابتلاء لمن خالف وعارض هذه السنن.
- ويبرز بعض الباحثين الترابط الوثيق بين نوعي السنن؛ -الكونية العامة والاجتماعية الخاصة- مؤكدين أنّ العلم بسنن الله الكونية، يمهد لفهم سننه الخاصة في حياة المجتمعات البشرية، ويكشف مسار تقلباتها وتطورها والعوامل المؤثرة فيها، وكذلك مدى خضوعها للنواميس الإلهية، فالإحاطة بهذه السنن، بجانبها العام والخاص، تمثّل الأساس الذي يُبنى عليه توجيه الحياة الإنسانية وإدارتها في ضوء ما أودعه الله في الكون والمجتمع من طاقات وقوانين، تُفسّر الظواهر وأسبابها القريبة والبعيدة.

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، منبر التوحيد والجهاد، WWW.TAWHED.WS ص56.

وقد كان هذا الوعي بالسنن الإلهية أحد أهم الأسباب، التي مكّنت المجتمع الإسلامي في فترات ازدهاره من احتلال موقع الريادة في ساحة الحضارة الإنسانية¹.

وخلاصة القول فإنّ الكون بأسره يسير بنظام واحد؛ لكنه ينقسم إلى قسمين؛ نظام الآفاق "الكوني" وهو نظام الإلزام الذي يسير بالقهر الإلهي، ويخضع له الجميع بلا اختبار، ونظام الأنفس "الإنساني" وهو نظام الاختيار، الذي يسير بالشرع الإلهي، ويخضع له من يشاء باختياره، ولا تعارض بين القدر والأخذ بالأسباب، فالقدر هو حكم الله تعالى بالسنن، والأخذ بالأسباب هو فعل هذه السنن، فمن أراد النتائج في عالم الأنفس، كالنصر والتمكين والرخاء، وجب عليه فعل الأسباب التي وضعها الله لتحقيقها.

ولعل من نافلة القول التأكيد ختاماً، أنّ موضوع الدراسة وهو "سنن التمكين" تنتمي إلى نوع السنن الإنسانية الاجتماعية، في مجال "عالم الأنفس"، لأن التمكين ظاهرة مرتبطة بالإرادة البشرية الحرة والاختيار، وليس بالقوانين المادية الجبرية.

ويُعد الإنسان محور هذه السنة سواء كان فرداً أو جماعة، لأنه المؤهَّل الوحيد بما فُطر عليه من استعدادات نفسية، وقدرات عقلية، وما جُبِّل عليه من حرية، وإرادة في تحقيق وبلوغ هذه السنة، وأساسه سنن التمكين؛ الأخذ بمبدأ السببية القائم على وجود علاقة ترابطية قائمة بين الأسباب والمسببات، والنتائج والمقدمات في بلوغ غاية التمكين.

هذا التصنيف يضع المسؤولية كاملة على عاتق الأمة؛ فليس هناك حظ أو معجزة في التمكين، بل هو نتيجة حتمية لفعل الأسباب المشروعة، التي وضعها الله تعالى في سننه.

¹ - محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، الدار السعودية، ط3، 1984، ص8.

المبحث الثاني: مفهوم سنن التمكين وخصائصها:

المطلب الأول: مفهوم سنن التمكين وأبرز دلالاتها:

لقد سبق التفصيل في بيان مفهوم السنن، من الناحية اللغوية والاصطلاحية في المبحث الأول، وعليه يكون الانطلاق مباشرة في تعريف التمكين.

1- تعريف التمكين:

لغة: من خلال الرجوع إلى معاجم اللغة العربية، وتتبع لفظة التمكين نجد اتفاقاً بين أهل اللغة، في تعيين طبيعة لفظ "التمكين" من حيث هو مصدر الفعل المضَّعَف "مَكَّنَ" الذي نجد لمادته اللغوية "م.ك.ن" دلالات ومعاني مختلفة، من أهمها ما يلي:

- المكانة والمنزلة: فمن التمكين المكنة تقول العرب: إن فلاناً لذو مكنة من السلطان أي تمكَّن، والمكانة عند العرب هي المنزلة عند الملك والجمع مكانات، لا يجمع جمع تكسير، وقد مكن مكانة فهو مكين والجمع مكناء¹، والمكَّنة: التمكين والمكانة: تقول العرب إنَّ ابن فلان لذو مَكِنَةٍ من الناس: ذو مكانة عندهم.

- السلطة والقدرة: المَكْنَةُ: القدرة والاستطاعة، والقوة والشَّدة، ولفلان مَكِنَةٌ: قوة وشَّدة²، يقال: مكَّنْته من الشيء وأمكَّنْته منه فتمكَّن واستمكَّن؛ أي صارت له القدرة، ويقول المصارع لصاحبه: مكِّي من ظهرك، وأمكيني الأمر، فمعناه أمكيني من نفسه، وهو مكين عند السلطان، وهم مكناء عنده، وقد مكن له عنده، وهو أمكن من غيره، وضبة مكن ببيوض، وقد مكنت وأمكنت³.

ومكَّنْته من الشيء وأمكَّنْته منه فتمكَّن واستمكَّن⁴، ومكَّن في الشيء جعل له عليه سلطاناً وقدرة قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/84⁵.

يقال: مكَّنَّه الله من الشيء "تمكيناً" وأمكَّنْته منه بمعنى، واستمكن الرجل من الشيء "وتمكَّن" منه بمعنى،

1 - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 13، ص 414.

2- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص 882.

3- الزمخشري، أساس البلاغة، مرجع سابق، ج 2، ص 396.

4 - مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 8، 2005، ص 1235.

5- إبراهيم عبد الفتاح، القاموس القويم للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ط 1، ص 232.

وفلان لا يمكنه النهوض أي لا يقدر عليه¹، علامة بذلك على غياب القوة والقدرة والهيمنة.

- الثبات والاستقرار: ومكن مكانة فهو مكين، أي ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ المؤمنون/13، أي ثابت محفوظ يحفظ فيه وهو الرحم، ومكن الشيء ثبته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ القصص/ 57، أي حرما ثابت الحرمة، محفوظ المكانة، وأمكنه من عدوه: نصره عليه وحكمه فيه، قال تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/2.71 ومنه ما جاء في الحديث: " أقرروا الطير على مكناها": دَعُوها على بيضها، ولا تتطيروا بها بزجرها،³ حثا بذلك على دوام ثباتها واستمرار استقرارها.

وتأسيسا على المعاني اللغوية السابقة، نستنتج من كلام أهل اللغة أنّ التمكين يدور حول:

- السلطان والملك: وهو أصل دلالي جامع تفرعت منه أصول دلالية أخرى: المكانة والمنزلة، القدرة والقوة، النصرة والهيمنة، الثبات والاستقرار، ونراها معاني متقاربة تحمل طابع العلية والشموخ، كما تربط بين هذه المعاني علاقة ترابط، فالسلطان والملك إذا تحقق يضمن بذلك؛ منزلة ومكانة رفيعة، ويعطي بذلك قدرة وقوة مكيئة، فيحصل وينتج بذلك الاستقرار والثبات.
- الاستقرار والثبات: سواء كان هذا الثبات حسيا، كثبات الضبّ على مكنته، والطير على مكناها، أو ثباتا معنويا، كثبات الرجل في منزلته، وتمكنه من سلطانه، والظاهر كذلك أن الكلمة انتقلت من الاستعمال الحقيقي (مكن) ثبت في مكانه واستقر فيه، إلى المعنى المجازي (مكن) عند الناس أي صار مكيئا ذا مكانة وسلطان، ومنه قوله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يوسف/ 4.54

- القوة والقدرة على التصرف: فالتمكين تتحقق فيه معاني؛ الهيمنة والقوة والقدرة، وهي من شروط التمكين، فلا يتصور تمكين بضعف وعجز أو قلة حيلة، بل في معاني التمكين؛ هيمنة ونصر مع غلبة، وهو ما عبّر عنه بمقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنّه يرتقي من

¹ - الرازي، مختار الصحاح، مرجع سابق، ص 499.

² - إبراهيم عبد الفتاح، القاموس القويم للقرآن الكريم، مرجع سابق، ص 232.

³ - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص 882

⁴ - رمضان خميس زكي الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 7.

حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتّصل فقد حصل التمكين.¹

وختاماً يمكننا القول: أنّ لفظ "التمكين" مشتق من الجذر اللغوي (م ك ن)، والذي يحمل في طياته معاني: الثبات، الاستقرار، القدرة والقوة، ويدل هذا الأصل على أن التمكين هو إحكام الشيء وترسيخه، وإتاحة الفرصة للفرد أو الجماعة، للتحرك والتصرف بسلطة واقتدار.

- التمكين اصطلاحاً:

يعتبر التمكين من المصطلحات الواسعة الاهتمام في مجال الاصطلاح، حيث نجد له اطلاقاً في علم البديع، وفي علوم القرآن الكريم، وفي علم المعاني، وعند أهل التصوف، وقد قدّمت دراسة حذيفة تقي الدين الخطيب، بعنوان: التمكين أسسه وأساليبه - دراسة بلاغية تطبيقية، تفصيلاً لذلك نختصره كالآتي:

- يُعرّف التمكين في اصطلاح علم البديع بأنه إحكام الصياغة بحيث يهيئ الناثر لسجعة فقرته، أو يهيئ الشاعر لقافية بيته، تهيةً تجعل القافية مستقرة في موقعها، منسجمة مع اللفظ والمعنى، غير نافرة ولا متكلّفة، ولا مُدرجة بما لا صلة له بمضمون الكلام، حتى إن المنشد لو توقّف قبل القافية، لاستطاع السامع إتمامها تلقائياً، لما يجده من دلائل لفظية تؤدي إليها.

- أمّا التمكين في اصطلاح علوم القرآن الكريم، فيتفق في جوهره مع المعنى البلاغي السابق، مع استبدال مصطلح السجعة أو القافية بمصطلح الفاصلة. ومن أمثلته ما يظهر في قوله تعالى:

- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود/ 87، فقد جاء ذكر العبادة والتصرّف في الأموال مُمهّداً لورود وصفيّ الحليم والرّشد؛ إذ إن الحليم يدلّ على العقل الذي يُنَاط به التكليف، بينما يدلّ الرّشد على حسن إدارة المال والتصرّف فيه. وبهذا تحقّق التمكين القرآني في الفاصلة بما ينسجم مع سياق الآية ودلالاتها.

- التمكين في اصطلاح علم المعاني: تطرّق علماء المعاني إلى مفهوم التمكين ضمن مباحث الإسناد الخبري، وذلك في موضعين رئيسين:

- تقديم المسند إليه، ولا سيما إذا كان اسماً موصولاً.

- الخروج عن مقتضى الظاهر بوضع المضمّر موضع المظهر أو العكس.

¹ - الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص 70.

ومن أمثلة الحالة الأولى البيت القائل:

ثَلَاثَةٌ تَشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الضُّحَى، وَأَبُو إِسْحَقَ، وَالْقَمَرُ

- فقد أسهم تقديم المسند إليه "ثلاثة" في إثارة توق السامع إلى الخبر، لما في سياق العبارة "تشرق الدنيا ببهجته" من عنصر يدعو للتعجب، فإسناد إشراق الدنيا إلى هؤلاء الثلاثة يثير الفضول، لمعرفة من هم، مما يجعل الخبر حين يَرِدُ أثبت في النفس، وأرسخ في الوجدان، محققاً بذلك مقتضى التمكين البلاغي.

- التمكين في اصطلاح أهل التصوف: يمثل التمكين في الاصطلاح الصوفي أحد المقامين الأساسيين اللذين يمر بهما السالك، وهما التلويين والتمكين، ويُعدّ التمكين الغاية التي يصل إليها المريد بعد تجاوزه مقام التلويين.

فالتلويين هو صفة أرباب الأحوال، ويُقصد به تذبذب السالك بين حالي الصحو المثير، والشكر الماحي، بما يعكس انتقال قلبه بين التعلق بشؤون الدنيا وبين الانجذاب إلى أنوار المشاهدة الربانية، أمّا إذا رسخت قدّم السالك واستقرّت أحواله على المشاهدة، انتقل من التلويين إلى التمكين؛ فيغدو ثابتاً على حال من السكينة الروحية والاتصال بالله.

وبذلك يكون السالك ما دام في طريق السير إلى الله صاحب تلويين، يرتقي من حال إلى حال ومن وصف إلى وصف، فإذا بلغ غاية السير وحصل له الاتصال، تحقّق له التمكين بوصفه مقام الاستقرار الروحي التام¹.

ومن زاوية أخرى فإن التمكين في اصطلاح بحثنا: يختلف عن التعريفات السابقة، التي جاء بيان معناه؛ حسب المجال والفن الذي يدور حوله، فهو مصطلح يحمل في طياته مستويات عديدة، منها المستوى الفقهي أو الشرعي، المرتبط بجهة الأحكام التي تتعلق بأفعال المكلفين، حين يمارسون العمل الشرعي، ووصفها بالحل أو الحرمة أو الوجوب، ومنها المستوى السياسي والمتعلق بالنظام السياسي للحكم المراد تنفيذ برنامجه، أو فرض أفكاره، وهناك المستوى الاجتماعي لمفهوم التمكين، ويعني منح فئات معينة من أبناء المجتمع؛ مثل الشباب أو المرأة حقوقهم ومكانتهم، لممارسة دورهم في مختلف المجالات والميادين، وهناك المستوى الاقتصادي، أي كل الممارسات والأفعال، والأنشطة والإجراءات، التي تُفِيض إلى تنمية قدرات الأفراد بصورها المختلفة وحفزها، وخلق الظروف التي تجعلهم قادرين على أن يكونوا ناشطين ومساهمين حقيقيين في عمليات توليد الدخل، والثروة في المجتمع²، والذي يُعنى بتحقيق الرقي والازدهار، وتحقيق الاكتفاء المعيشي وبلوغ أعلى مراتب التصنيف والترتيب بين الدول.

¹ - حذيفة تقي الدين الخطيب، التمكين أسسه وأساليبه - دراسة بلاغية تطبيقية-، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009 ص 15-26 بتصرف.

² - مدحت كاظم القريشي، الاقتصاد الصناعي، دار وائل للنشر، الأردن، ط1، 2000، ص 13.

ولكن مقصود الدراسة يدور حول التمكين لدين الله تعالى وشريعته، من خلال دعوة الحركات الإصلاحية الإسلامية، التي ترمي لبلوغ حال من النصر للإسلام والمسلمين، بتطبيق قيم الإسلام ومبادئه، وترسيخ جملة الأخلاق والمثل العليا التي ينادي بها، مع الالتزام بجملة الأحكام والنواهي، التي ينص عليها في شتى المجالات، وجاء هذا التعريف مقسماً إلى ثلاثة أبعاد، وفي كل بعد جملة التعريفات الدالة عليه، وبيان ذلك كالآتي:

- البعد المنهجي للتمكين: يُعدّ البعد المنهجي للتمكين من المرتكزات الأساسية التي ينبغي أن تستند إليها مشروعات النهوض والإصلاح؛ إذ إن التمكين لا يتحقق بصورة عفوية أو ارتجالية، بل يستلزم رؤية منهجية واضحة وخططاً مدروسة تُراعي سنن الله الجارية في الاجتماع الإنساني، فالتخطيط الواعي، المبني على فهم عميق لهذه السنن، هو الضامن لابتعاد مسار التمكين عن مظاهر العشوائية والاضطراب، وهو كذلك السبيل لبلوغ وعد الاستخلاف وتحقيق الغاية من عمارة الأرض، ومن التعاريف التي نراها تتناسب وفق هذا المنظور:

- إن التمكين الفعلي والانتصار العظيم، والإعزاز الكريم عندما يتمكن منهج رب العالمين من نفوس أهل الإيمان، وإن كانوا قلة، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين، وإنما في صفاء المنهج الرباني، الذي يعتقده أولئك الأفراد، سواء قلة أم كثرة¹.

وهذا يعني هيمنة منهج الله في الأرض، على باقي المناهج، والقدرة على التصرف وفق هذا المنهج حساً ومعنى، وإن هذا المنهج الرباني الصافي إذا استقر في القلوب، أነع ثماراً طيبة، فالحق بطبيعته منيع، ولو لم يكن له من الأنصار إلا اليقين بالله.

- البعد الغائي للتمكين: يُعدّ البعد الغائي للتمكين أحد المحاور المركزية في فهم هذا المفهوم؛ إذ يُنظر إلى التمكين بوصفه غاية وهدفًا، يسعى الداعية والمصلح إلى تحقيقه من خلال الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب، فالتمكين لا يتحقق بمحض التمني أو الركون إلى الكسل، وإنما هو ثمرة التزام سنن الله تعالى، والأخذ بالأسباب الموضوعية المؤدية إليه، بما يمكن الفرد والأمة من بلوغ مقاصدهم المشروعة. ومن التعريفات الدالة على ذلك:

- التمكين هو السعي الجاد، من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه، من السلطة والنفوذ والمكانة، في دنيا الناس².

¹ - علي محمد الصلابي، نبي الله هود عليه السلام، www.alsalabi.com، تاريخ الولوج جويلية 2025.

² - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 17.

- وهو بلوغ حال من النصر، وامتلاك قدر من القوة، وحياسة شيء من السلطة والسلطان، وتأييد الجماهير والأنصار والأتباع، وهو لون من ألوان الترسخ في الأرض وعلو الشأن.¹

والملاحظ على التعريف بداية، استناده لجهود المفسرين، وأهل اللغة في ذكر دلالات التمكين لغة من السلطة والمكانة، ثم إبراز الهدف من التمكين، وهو رجوع السلطة والنفوذ، والمكانة للأمة ممّا يكسبها بذلك ثباتاً، واستقراراً ورسوخاً بين الأمم.

- البعد الوظيفي للتمكين: ويُقصد بالبعد الوظيفي للتمكين ذلك التصور الذي يربط عملية التمكين بمنظومة متكاملة من الوظائف والجهود البشرية، بحيث تتصافر الدعوة والحركة والتربية والبناء، بما تتضمنه من أسباب ومقومات وشروط ومعوّقات، في أداء وظيفة التمكين على نحو شامل. فلا يتحقق التمكين عبر جهود مجزأة أو في مجالات منفصلة، بل يقوم على تكامل المعطيات والفعاليات كافة، والتي تُفضي بتنسيق منهجي، إلى بلوغ غاية التمكين وتحقيق مقاصده، ومن التعريفات التي نراها مناسبة لذلك:

"وحتى يكون سلطان الدين الإسلامي على كل دين ونظام، والحكم بهذا الدين على البشرية كلها، جاء تعريف التمكين في الدعوة إلى الله، أن الله تبارك وتعالى يمكّن لدينه في الأرض، عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهذا التمكين يسبقه الاستخلاف، والملك، والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف".²

- التمكين أيضاً دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال التمكين، عن الأمة الإسلامية، والمقومات التي ترجع الأمة إلى التمكين، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين، ودراسة طبيعة الطريق إلى التمكين، وكذلك المبشرات على هذا الطريق، وذلك كله في ضوء القرآن الكريم، مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم ﷺ.³

والملاحظ على التعريف أنه يبحث في مجالات متنوعة للتمكين تبدأ بالأسباب ثم المقومات وأبرز العوائق وتنتهي بدراسة الطريق نحو بلوغ التمكين، مع التأكيد على مرجعية هذا التمكين وهو القرآن والسنة.

واستناداً إلى الأبعاد المنهجية والغائية والوظيفية، يمكن صياغة تعريف شامل للتمكين، يُبرز تكامله وامتداداته المختلفة، فنقول: إنّ التمكين الحقيقي هو ذلك الذي تتفاعل فيه منهجية سليمة مع وظيفة فاعلة في إطار غاية سامية، لأن إغفال أيٍّ من هذه الأبعاد من شأنه أن يخلّ بالمفهوم؛ إذ يؤدي فقدان البعد المنهجي إلى

¹ - فتحي يكن، "فقه سنة التمكين"، المجتمع، العدد 1249، 13 ماي 1997، الكويت، ص 44.

² - علي عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، دار الوفاء، المنصورة ط1، 1990م، ج 2، ص 713.

³ - محمد السيد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص 13، نقلاً عن: علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 18.

الفوضى، وانعدام البعد الوظيفي إلى جمودٍ عقيم، بينما يفضي غياب البعد الغائي إلى اختزال التمكين في صراعٍ دنيويٍّ ماديٍّ خالٍ من المقاصد العليا.

وبالتالي فالتمكين عملية منهجية مستمرة، قائمة على فهم السنن الإلهية، واعتماد الأسباب المشروعة، تنتقل من خلالها الذات الفردية والجماعية من حالة الضعف والقصور إلى مستوى القوة والفاعلية، بما يمكنها من أداء رسالتها في الحياة بأكمل وجه. ويهدف هذا المسار في جوهره إلى تحقيق الغاية الكبرى للوجود الإنساني؛ عبادة الله، وعمارة الأرض، وتحقيق الاستخلاف.

-أما مفهوم سنن التمكين:

فأول ما نبدأ به؛ تعريف رمضان خميس باعتباره عَرَفَ التمكين، كسنة من السنن الإلهية، حيث أشار في التعريف إلى أن: كلمة السنن تدل على العادات المتبعة والطرق الماضية التي تمضي باطراد وثبات، وكان ورود الكلمة في القرآن، قد أكسبها بعض الصفات بالإضافة إلى دلالتها اللغوية، وذلك مثل العموم والشمول، وعدم التغيير أو التبدل، أو الاستقرار وعدم الاضطراب.

فإن المراد من كلمة سنن التمكين: "قوانين الله المطردة في خلقه، وأنظمتها الحاكمة المهيمنة في أفعالهم، التي إذا اتبعها عباده أقدرتهم على التصرف في أرضه، وجعلت لهم مكانة مكيّنة، في كيفية التعامل مع مفرداتها وإحسان توظيفها"¹

والملاحظ على التعريف دقته وشموليته في إدراج أبعاد سنة التمكين، والإشارة إلى مدار هذه السنة وهو الإنسان، الذي وُهب حرية الإرادة في الفعل، لبلوغ مرتبة التمكين بحسن استغلال شروطه المسنونة في الكتاب المسطور.

وعليه سنقف في محاولة لبيان سنن التمكين والتي تستدعي: استحضار التعريفات المتعددة؛ لمفهوم السنن أولاً، ولمفهوم التمكين ثانياً، حيث يشير مفهوم السنن الإلهية إلى: المنهج الرباني الثابت، في تدبير شؤون الخلق وقوانين الكون، فتظهر الآثار وفق نسق وظيفي حضاري، يحفظ هوية الأمة ويوجّه سيرورتها التاريخية.

ومفهوم التمكين يشير إلى: عملية منهجية مستمرة، قائمة على فهم السنن الإلهية، واعتماد الأسباب المشروعة، تنتقل من خلالها الذات الفردية والجماعية، من حالة الضعف والقصور إلى مستوى القوة والفاعلية، بما يمكنها من أداء رسالتها في الحياة بأكمل وجه، ويهدف هذا المسار في جوهره إلى تحقيق الغاية الكبرى للوجود

¹ - رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 8-9.

الإنساني؛ عبادة الله، وعمارة الأرض، وتحقيق الاستخلاف.

واستناداً إلى ما سبق، يمكن القول إن سنن التمكين تمثل القوانين الإلهية الثابتة والمشروطة، التي تحكم عملية انتقال الأمة من حالة الضعف والتبعية، إلى حالة القوة والفاعلية والاستخلاف في الأرض، وتهدف هذه السنن إلى تمكين الأمة من أداء وظيفتها الحضارية الشاملة، بما يحقق الغاية العليا من وجودها؛ عبادة الله وعمارة الأرض.

ويمكن التعبير عن هذا المفهوم بصياغة أخرى مفادها: أن سنن التمكين تمثل المنهج الإلهي الذي يضمن انتقال الأمة، من القابلية للاستعمار إلى القدرة على الاستخلاف، شرط اختيار الأمة الطوعي للالتزام بهذه السنن واستيفاء شروطها، لتقوم بوظيفتها في الحياة، وتحقيق غاية وجودها.

وبناءً على ذلك، فإن سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر يُراد بها القوانين الإلهية الثابتة والمنهجية المنظمة لمسيرة العمل الدعوي، التي تمتد من طور الدعوة الفردية المحدودة إلى مرحلة التأثير المجتمعي الشامل، من خلال خطط استراتيجية مرنة تتفاعل مع واقع العصر وتحدياته، بهدف تحقيق غاية الدعوة الكبرى؛ إقامة دين الله في الأرض.

المطلب الثاني: خصائص سنن التمكين:

يُراد بخصائص سنن التمكين جملة السمات والمميزات التي تبرز طبيعتها الجوهرية وموقعها ضمن المنظومة السننية الإلهية، فهي الخصائص التي تُعرّف بها وتتميّز عن غيرها من السنن. وقد اعتنى القرآن الكريم بعرض هذه الخصائص في مواضع عديدة، ليلفت الأنظار إلى ضرورتها وأهميتها، وليحثّ على تدبّرها والسير وفق مقتضياتها تحقيقاً للعبودية، وتأسيساً لأسس العمران والاستخلاف، فسنن التمكين لا تمثل مجرد قواعد نظرية، بل هي منهج رباني متكامل للارتقاء الحضاري والإنساني.

وقد تعددت اجتهادات العلماء في تصنيف خصائص سنن التمكين وتسمياتها، وتباينت من حيث العدد والتعبير، إلا أنّها تجتمع عند أصل واحد هو الاعتماد على النص القرآني في استنباط هذه السمات. وبالاستناد إلى التعريفات السابقة لسنن التمكين يمكن إبراز أبرز خصائصها كما يأتي:

1-الربانية: تظهر أولى خصائص سنن التمكين في وصفها بالربانية؛ إذ إن نسبتها إلى الله عز وجل تضفي عليها معنى القداسة والعصمة من الخطأ، وتدّل على أنّ مصدرها إلهي خالص، فهي ليست نتاجاً لفكر البشر أو حصيلة تجاربهم القاصرة التي يدخلها النقص والهوى، ويُقصد بالربانية هنا أنّ هذه "السنن من خلق الله وتقديره وتشريع، وقد أودعها في نظام الوجود، لتكون جزءاً من العقيدة ومن مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر، ومن ثم

كان السير وفق هذه السنن تكليفاً وعبادة، تماماً كما هو الشأن في بقية التشريعات التي أمر الله بها وشرعها لعباده"¹.

ومما لا شك فيه، فإنّه لا حاجة لإثبات ربانية هذه السنن، فهو "خالق الكون ومدبر أمره، فما من قانون ينظم حركة الكون، أو عادة تسري في الخلق إلا وهو رهن بأمر الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى يظهر لنا قدرته من خلال هذه القوانين والسنن"²، وقد نصّ القرآن الكريم بوضوح على ربانية السنن في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/62، وقال: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء/77.

كما أنّ السنن التي نسبت إلى "الأولين" أو "من قبلكم" في سياق القرآن إنما تعود في حقيقتها إلى سنة الله فيهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأنفال/38، أي سنة الله في الأولين. وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ النساء/26، أي يهديكم سنن الله في الذين من قبلكم وغير ذلك من الآيات.

ولا حاجة إلى إقامة البرهان على ربانية السنن، إذ إن الله سبحانه هو خالق الكون ومدبره، فلا قانون يسير فيه إلا وهو خاضع لمشيئته، ولا نظام ينتظم حركته إلا وهو مظهر من مظاهر حكمته وقدرته، ومن ثم فإن كل عادة كونية أو اجتماعية هي في حقيقتها تقدير إلهي محكم.

وهكذا يتأكد لنا من هذه الخصيصة؛ أن السنن بجميع أنواعها، إلهية المصدر والمنهج، ربانية الغاية والوجهة، وأن خاصية الربانية هي الخاصية التي تركز عليها الخصائص كلها، وتنبثق منها، وأنها تبصرنا بحقائق كبرى، من أهمها اليقين على وحدانية الله، وتدييره لشؤون خلقه"³.

وإن ربانية سنن التمكين ليست سوى فرع عن حقيقة أن الكون كله من خلق الله، فهو خالق الكون ومدبر أمره قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف/54.

ولكن تجب الإشارة إلى أن ربانية سنن التمكين، لا تقتضي إضفاء طابع الكهنوتية عليها، ونزع صفة العلمية عنها، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الاعتاض، والاعتبار بها كنتيجة لتجربتها عن طابع السننية والقانونية،

¹ - حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، أطروحة دكتوراه، قسم كتاب وسنة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2003-2004، ص96.

² - عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ص200.

³ - راشد سعيد شهوان، تأصيل علم السنن الربانية، القسم العربي، عدد15، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، 2008، ص 40-41.

والله تعالى يؤكد على ربانية السنن، لأجل أن تزيد رابطة العبد بربه، وتبقى الصلة وثيقة بين العلم والإيمان، فكلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه، لأن الطريق المؤدي للإيمان يكون بالعلم لا الجهل.

واستخلاصا لما سبق بيانه حول خاصية الربانية يمكن قول ما يلي:

- ربانية سنن التمكين تصور مستمد من القرآن الكريم، الذي يوحى بأن مصدر هذه السنن رباني، تظهر فيه معاني ربوبية الله تعالى، باعتبارها دالة على أفعاله تعالى، وقدرته وحكمه، وتدبير كافة شؤون خلقه في الكون، فالمصدر الرباني هو تجل لحكمة الله تعالى وعدله في خلقه.

- كما أنّ ربانية سنن التمكين فيها جلاء للغاية التي تقصدها هذه السنن؛ ألا وهي غاية متسامية؛ تربط التمكين بغاية عليا هي تمكين الدين، تربية العباد، وبيان حقيقة وجود الإنسان، ودوره ومركزه في هذه الحياة، تحت حاكمية هذه السنن التي لن يفلت منها، ولن يخرج عنها بأي حال من الأحوال، بل إن تأملها والتدبر في ربانيتها، سبيل لإدراك غايتها، وهي زيادة الإيمان والاستقامة على عبادة الله وطاعته، وكذا الإقرار بوحدانيته تعالى، مما يرفع بذلك من مستوى الصراع المادي المحض، إلى مستوى الصراع من أجل تحقيق العبودية لله تعالى.

- إن خاصية الربانية تمنح سنن التمكين شرعية ومشروعية لمسار التمكين، وتجعله عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى.

2- الثبات والاطراد :

تجدر الإشارة إلى أن الثبات والاطراد من خصائص سنن التمكين، التي أشار إليها أيضا القرآن الكريم، والمقصود بالثبات هنا أنها "لا تتغير عن ماهيتها، وأن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيا لأحد أن يقلب تلك العادة، ولا أن يخالفها الله عز وجل بغيرها؛ لأنها مقتضى حكمته وعلمه، فلا تجري متعلقاتها إلا على سنن واحد"¹.

ولعل ذلك راجع إلى اعتبار هو أن سنن الله ربانية المصدر، وليست نتاج فكر بشري يعتريه النقص، فإنه من هذه الخصيصة تنبثق باقي الخصائص، فتكون سنة الله ثابتة لأنها تقتبس نورها من مشكاة ربانية، وثبات سنة الله يعني استقرارها ودوامها، فلا تتبدل ولا تتحول، قال تعالى: ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ الإسراء/ 77. وقال: "سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" الفتح/ 23، وكثيرا ما تقرر الآيات بين التبديل والتحويل، وممكن الفرق بينهما؛ أنه عند القول بعدم التبديل، حصل العلم بأن

¹ - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص 99.

هذه السنة لا تبديل لها بغيرها، وبعد التحويل حصل العلم بأن هذه السنة تخص صاحبها، ولا تتحول عنه إلى غير من يستحقها"¹.

وفي هذا الإطار فإن عدم التبديل والتحويل، لا يعني الجمود في قالب حديدي، وإنما يعني الحركة-التي تعتبر قاعدة في التصميم الكوني والحياة البشرية- في مضمار هذه الخصيصة حتى لا تسود الفوضى والحيرة في الكون، بل تلك الحركة الكونية، التي تدور في دائرة الثبات، تضفي عليها طمأنينة لا نظير لها، وتضمن للحياة البشرية؛ مزية التناسق مع النظام الكوني، المتناسق والمتماسك، ويقىها شر الفوضى واتباع أهواء البشر، التي لا يضبطها قانون سوى تحقيق مصالحها وطموحاتها الشخصية"².

ونجد في القرآن الكريم من الآيات التي تصرح بثبات السنن واطرادها الكثير منها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل/97. فدللت الآية أن العمل الصالح إذا اقترن بالإيمان الصادق أثمر أحسن ثمار وأكسب العبد أسمى جزاء في الدنيا والآخرة، وهي علامة على ثبات سنن التمكين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/22-23 إشارة إلى سنة الله الثابتة في نصر المؤمنين؛ متى تسلحوا بأسباب النصر على أعدائهم الكافرين، حيث يبشّر الله عباده المؤمنين؛ بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فارا مدبرا" لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" الأحزاب/65، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، وقوله: "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل؛ إلا نصر الله الإيمان على الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل الله تعالى يوم بدر؛ بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدّة المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعدّتهم"³.

ولا مناص من القول، أنه بثبات سنن التمكين واستمرارها تثبت النفس، وتطمئن ويحوطها الاستقرار، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر المبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماءه، فيحجم أو يقدم لمصيره ومآله في دنياه وأخراه.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ج14، ص360.

² - رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، كلية أصول الدين، جامعة القرويين، تطوان، دط، دس، ص8.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص193.

والهدف الثاني من ثبات السنن الإلهية وعدم تغييرها هو " في ردّ القول بالصدفة أو الطبيعة، فيما تعجز عنه القدرة العقلية البشرية، من إدراك الأسباب والعلل، إذ لو لم تكن هذه السنن ثابتة، لما استبعد المجال للعبثية، ولما تم رفض التفسيرات التي تنسب مجريات الكون والأحياء والنفوس إلى الصدفة العشوائية، بل كان النظام الإلهي في حركة الكون قائماً على حكمة ودقة محكمة تتجاوز الإدراك البشري"¹.

ولو لم تكن سنن الله عز وجل ثابتة على الحال المذكور، لما كان في هذا الكون توازن، ولا استقرار ولا استحالة استمرار الحياة، ولكانت الفوضى حينئذ؛ هي السمة السائدة، وهذا يتنافى مع الواقع المشهود، الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار²، التي تقود إلى تحقق الأمن واستمرار الحياة فيها، وإن في أحوال الأمم السابقة وأخبار الحضارات السالفة، الدليل الكافي والبرهان الشافي الذي لا يختلف فيه اثنان، على ثبات سنن التمكين وعدم تحولها.

وفي السنة النبوية ما يدل على ذلك، في قول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ حين أخبره بإخراج قومه له، واستغراب النبي ﷺ لذلك، مع ما اتصف به من مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال بقوله: (أو مخرجي هم): قال: نعم، "لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي"³. فهذا يؤكد لنا فقه ورقة بن نوفل للسنن الإلهية، وتجلي خاصية الثبات وعدم التبدل، ما توفرت الأسباب واتحدت الظروف.

وبالتالي: "فالأمر في حياة الناس لا تجري عشوائياً، والحياة على الأرض ليست عبثية، بل هناك نوااميس ثابتة لا تتغير ولا تتحول. ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة، ويعلم الناس إدراكها، ليمنعهم من النظر إلى الأحداث بمعزل عن سياقها، أو العيش في الحياة غافلين عن سننها الأساسية، محصورين في زمن قصير ومكان محدود. كما يرفع وعيهم بعلاقات الحياة واتصالاتها، ويبين لهم ارتباط سنن الوجود واستمرارية النوااميس الإلهية، موجّهاً إدراكهم دائماً إلى ثباتها واطرادها"⁴.

وفي المقابل فإن خاصية الاطراد، تُعد دليلاً على خاصية ثبات السنن وعدم تغييرها، لأن الاطراد معناه "التكرار والتتابع على نهج واحد، وطريقة واحدة لا تختلف ولا تتخلف، كلما وجدت الأسباب، وتوفرت

¹ - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص100.

² - أحمد محمد كنعان، أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، مرجع سابق، ص68-69.

³ - رواه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1311هـ،

كتاب: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج1، ص7، رقم:3.

⁴ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج5، ص2949-2950.

الشروط، وانتفت الموانع ولولا الاطراد لم يصح الاعتبار والاتعاظ بها"،¹ فحدوث الأمر وتكرره بصفة متماثلة، كلما وجدت أسباب ومقدمات معينة، دليل بذلك على الثبات.

وهذا ما اتضح جليا في عرض النصوص القرآنية لهاتين الخاصيتين، مع إبراز هذا التداخل بينهما ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/130-138

والملاحظ من خلال الآيات، أنها عرضت هذه الخصائص، وذلك بالوصف الدقيق لسنن الله تعالى حيث رسمت بداية الآيات صور الكافرين المنقرة بذكر جملة الأفعال المحرمة كالتعامل بالربا، علامة على ثبات سنة الله في عقاب المخالفين لشرع الله بالنار من جهة، واطراد هذه السنة واستمرارها من جهة أخرى فمتى وجدت آثار الخروج والحياد عن المنهج الإلهي وُجد العقاب والجزاء.

ثم أعطت الآية في تتمتها صورة محببة للمؤمنين، بذكر جملة الصفات الحسنة؛ كالعفو عن الناس، وكظم الغيظ، علامة على خاصية ثبات سنة الله في الجزاء والتّعيم، للمتقين والمحسنين بالجنة، وخاصية الاطراد حاضرة فمتى كان الالتزام بشرع الله والامتثال لأمره، كانت سنة الجزاء والثواب الحسن.

وبعد هذا الحضور الجميل لخاصيتي الثبات والاطراد، ختمت الآيات بالدعوة إلى إعمال النظر بالتأمل والفهم وأخذ الموعظة من ذلك.

ويُقصد باطراد سنن التمكين "تكرار وقوعها وتتابع تحققها وفق نسق ثابت، كلما توفرت شروطها وانتفت موانعها؛ إذ إن سنن الله تعالى ثابتة لا تتخلف. ويؤكد هذا الاطراد أن الله سبحانه قصّ في كتابه الكريم أخبار الأمم السابقة وما نزل بها، ليكون ذلك موضع اعتبار واتعاظ، حتى لا يسلك اللاحقون مسلك من قبلهم، فيصيبهم ما أصابهم، ولولا اطراد هذه السنن وانتظامها، لما أمكن الاتعاظ بها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص14.

أُولَى الْأَبْصَارِ الحشر/ 2¹، وهكذا نجد أن اطراد سنة الله، يعني أنها ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق.

ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية لنأخذ الدروس والعبر ونرجع إلى الصراط السوي حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت هناك دعوة للسير في الأرض، والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/2.

فهي سنن واقعة آتية من الأزل، باقية وماضية إلى الأبد، لا تهرم أبداً، ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين الوضعية وتزول.

فسنن التمكين مطردة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل، واطرادها لا يعني حتميتها، وهنا يمكن القول أنه بالرغم من ثبات سنة الله في الكون واطرادها، فالمشيئة الإلهية طليقة لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الإسلامي، وهو سبحانه وتعالى يبدع كل شيء ويخلقه بمجرد توجه مشيئته إلى إبداعه وخلقته.

فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض ملزم للمشيئة الإلهية في الفعل، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه والحاصل أن جريان سنن الله وتحقيقها يكون بقضاء الله وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية والخارقة.

وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئاً فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة، وأقداره الماضية في خلقه، "وتاريخ البشرية على هذه الأرض يشهد لهذه السنن بالثبات والاطراد، على أنها حقائق لا تقبل النقص، ولهذا فكل محاولة لخرق مصداقية هذه السنن، أو التنصل من آثارها فهو محاولة خاطئة خاسرة، لأنها مصادمة للمُسَلَّمات ومجابهة لطبيعة الأشياء"².

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 14.

² - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، دار الفضيلة، الرياض، دار الهدى النبوي، مصر، ط 2011، 2، ص 78.

واستخلاصا لما سبق حول خاصية ثبات سنن التمكين، واطرادها يمكن القول:

- أن ثبات السنن علامة على عدل الله تعالى المطلق، لأن فيها يعامل الله تعالى جميع الأمم، وفق معيار واحد ثابت، لا محاباة فيه ولا تفریق، ومن جهة أخرى يُتيح هذا الثبات إمكانية الدراسة والاستنباط، فقد أصبح من الممكن دراستها علميا كظواهر اجتماعية وتاريخية متكررة، والاستفادة منها في التخطيط الاستراتيجي.
- أن الله تعالى سننا ثابتة في هذه الحياة وهي غير قابلة للتبديل والتغيير، ولكن هذا لا يتعارض واختيار الإنسان وحرية، لأنه قد يتمكن من اكتشاف سنة من السنن فيكون مخيرا، إما بموافقتها أو معارضتها؛ فإذا كانت الأولى كان المستفيد من عطائها وتسخيرها، وإذا كانت الثانية كان الخاسر منها بوقوع الفساد والهلاك عليه جزاء الحيات عنها.

فالثبات عنصر فعال، ذو أثر كبير في بلوغ الأهداف والغايات، التي لا يحققها إلا الصابرون؛ الذين ثبتوا فلم يتعجلوا النتائج قبل أوانها، بل أدركوا الثمرة في وقتها.

ف نجد مثلا أن الله ينصر المؤمن المستقيم على شرع ربّه، المنقذ لأمره والملتزم بشرعه، وبالمقابل يعاقب المنحرف الغافل الذي يعصي أمره، المنغمس في شهواته وملذاته، دلالة بذلك أن النصر والعقاب سنن ثابتة دائمة مطردة، لا تبدل ولا تتغير ما تهيأت لها الظروف والأسباب.

- وإن دلالة ثبات سنن التمكين أيضا علامة على؛ إنكار القول بالصدفة والعشوائية، فلا مجال للعبثية في حركة الحياة البشرية، إذ تجري هذه السنن على المعاصرين، تماما كما جرت على الأقدمين، تماشيا مع قانون النتائج بمقدماتها، والأسباب بمسبباتها، فيكون فيها من العظة والعبرة للجميع.

- وإن إسقاط القول بالصدفة والعشوائية علامة على طلاقة المشيئة الإلهية المتوازنة مع ثبات سنن التمكين، فسنن التمكين إذن لا يمكن أن تتحول أو تتغير إلا بوجود قوة أعظم من ذلك هي قدرة الله جل جلاله، الذي يستطيع تغييرها وتبديلها دون معارض أو منازع، وهذا من كمال حكمه وعدله وسعة فضله تعالى.

3- الحتمية والنفاذ:

فمن خصائص سنن التمكين أنها نافذة بالضرورة، حتمية لا تتخلف، وقد دلّ عليها من القرآن الكريم آيات منها قوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران/47، وكذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ النحل/40.

فقد جاء في تفسير الآية الأولى، أن القضاء بمعنى الإرادة، فإنما يقول له كن فيكون، قالوا: إن هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته، والتصوير لسرعة حصول ما يريد، بغير ريث ولا تأخر¹، علامة بذلك أن سنن الله تعالى تجري بقضاء الله وقدره، ولن يحول دون هذا القضاء في السنن، أيُّ حائل أو مانع يجب نفاذها وحتميتها مهما أوتي من قوة، لأن قدرة الله وقوته قاهرة لجميع القوى.

فتكون بمثابة الوعد الرباني الذي لا يخلف أو يتأخر أبدا قال تعالى في سنن الجزاء مثلا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة/9 وقال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم/6 هذه الآية تدل على تحقق الوعد الإلهي الرباني بتغلب الروم وانتصارهم على الفرس بعدما غلبوا بادئ الأمر على مدار بضعة سنين.

وإن هذا لمن الأمور الغيبية المستقبلية التي أخبر بها الله تعالى وتحققت في الواقع، وهو نوع من أنواع الإعجاز في القرآن الكريم ألا وهو الإعجاز الغيبي، أين تجسد وعده الله النافذ، وسنته الحتمية القاهرة.

ولا مناص من القول، أن خاصية الحتمية والنفاذ، تتكرر كثيرا في القرآن الكريم، باعتبارها قاعدة هامة تلفت الأنظار والأبصار، وفي قصة ذي القرنين بيان لذلك قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ الكهف/98، فلما بنى ذو القرنين السد للناس، جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم، من العبث في الأرض والفساد، وإذا اقترب الوعد الحق " جَعَلَهُ دَكَّاءَ " أي: ساواه بالأرض، وهو وعد حق بمعنى كائن لا محالة².

هذا وغيره يؤكد لنا، أنّ سنن الله تعالى نافذة لا تتخلف، فمتى وجدت الأسباب كانت النتائج قاهرة ظاهرة، فلا يحول دون وقوعها ونفاذها قوة المجتمع أو الأمة، فقوة القوي أمام قوة الله عز شأنه هزيلة ضعيفة، فالله عز وجل لا يعجزه شيء ولا يحول دون إرادته شيء، وكم من أمة كانت متمكنة في الأرض صاحبة جيوش وقوة أهلكتها الله وأصبحت أثرا بعد حين³.

وتأسيسا على ما سبق بيانه، حول خاصية حتمية سنن التمكين ونفاذها يمكن القول:

—أنها تمثل قدرة الله تعالى القاهرة الغالبة، التي لا يحول دون تحققها قوة أو جيوش، كما أنه لا يردّها جهل أو

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج3، ص253.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج5، ص199.

³ -عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1975، ص114.

غفلة.

- أن نفاذها عام وصارم، لا يعرف المحاباة ولا يفرق بين مؤمن وكافر، فمن تعرض لها انطبقت عليه كائنا من كان.

- أنها تمثل كلمات الله عزو جل التي لا مبدل لها، فهي تمضي إلى هدفها في أجلها المحدود، ولا تقبل شفاعة ولا رجاء، ولو كان من نبي مرسل، لأن السنن من كلمات الله الكونية، التي لا يجاوزهن بار ولا فاجر كما نطق بذلك الصادق المصدوق ﷺ.¹

4- العموم والشمول:

فمن خصائص سنن التمكين أنها سنن "عامة وشاملة لجميع الأمم والشعوب، على اختلاف أعراقها وأجناسها وأديانها، وفي كل زمان ومكان؛ فلا استثناء فيها لأمة، ولا محاباة لجنس أو لون أو فئة. فالجميع قديماً وحديثاً، قوياً وضعيفاً يقفون على قدم المساواة أمام هذه القوانين الربانية، ويخضعون لآثارها في الخير والشر، والارتقاء والانحطاط، إذ لا يخرج أحد من نطاق السنن ولا يفلت من مقتضياتها".²

فهي بذلك تستوعب جميع البشر دون استثناء، أو محاباة بين المؤمن، أو الكافر مثلاً، والناظر في القرآن الكريم يجد هذا المعنى جلياً واضحاً، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ النساء/123.

فالقضية عامة سارية المفعول، والتطبيق يكون على الجميع دون محاباة أو استثناء فهنا تخصم أهل الأديان فقضى الله بين أهل الكتاب والمسلمين فقال: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله، واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام؛ ولهذا قال بعده: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ "كقوله" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة/7-8³.

ومن هذا المنطلق بينت الآيات الكريمة، أن الله لا يحابي مسلماً على يهودي أو نصراني، ولا يفضل ذكراً على أنثى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إن التقوى والإخلاص؛ هما أساس قبول الأعمال وزيادة القربى

¹ - حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص 198.

² - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 82.

³ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج 2، ص 417.

والصلة بالله تعالى، فلا الدين أو الجنس أو اللون، يؤثر في حدوث سنن التمكين أو تخلفها.

أضف إلى ذلك فإن عموم سنن التمكين، تدل على كونها محايدة، تستجيب لكل من أعمل عقله في تدبرها، واستقراء دلالاتها، ولم يتخلف عنها، ويحضرنا في هذا المقام مثال تطبيق الحدود في الإسلام، الذي لا تكون فيه وساطة أو شفاعة، لأن حق الله فيه غالب، وقدوتنا في ذلك نبينا محمد ﷺ؛ عندما بلغه شأن المرأة المخزومية التي سرقت، وأراد أهلها التوسط لإسقاط الحد عنها، فاستنكر النبي ﷺ ذلك، وبين أن سبب هلاك الأمم السابقة هو التمييز والتفريق بين الناس، في تطبيق العقوبات لقوله ﷺ: "فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"¹، تأكيداً بذلك على عموم وشمولية تطبيق العقوبة وأهمية المساواة بين الناس، فلا محاباة بين غني أو فقير، شريف أو وضعي أمام أحكام الله تعالى، وكذلك هو الحال بالنسبة لسنن التمكين، التي ينسحب عليها وصف حدود الله تعالى، وتتصل بها في عمومها وشموليتها، إذ تقع على الجميع كالقانون الذي يستوي أمامه الجميع، فلا يستثنى أحداً ولا يحايي طرفاً.

وقماشياً مع ما تم ذكره فسنن التمكين يسري حكمها على الجميع دون استثناء، لا تستحي من أحد ولا تحايي أحداً، بغض النظر عن كونه مؤمناً أم كافراً، أبيض أو أسود، عربياً أو أعجمياً، ذكراً كان أو أنثى يعيش في رقعة إسلامية أو غير ذلك، فالكل سواسية أمام حكمها، ذلك أن سنن الله "لا تنخرم في أمة من الأمم أو حال من الأحوال، بوجود فرد معين أو صفة خاصة فليس هنا قوم أو أمة معينة مستثناة من سنن الله فلا تتحقق فيهم سواء أكانت سنن ثواب أم سنن عقاب"².

وصدق الله تبارك وتعالى لما كذب زعم اليهود والنصارى بادعائهم ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فجاء الرد: "تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" البقرة/111-112، فهذه آية دالة على خاصية العموم بالنسبة للسنن؛ فليست الجنة حكراً لليهود والنصارى على حساب المسلمين، والقائل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء/88. فالله تعالى بين استجابته لدعاء نبيه يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، وأوضح أن هذه الاستجابة ليست مقتصرة أو مختصة بالأنبياء عليهم السلام

¹ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: ذكر أسامة بن زيد، ج5، ص23، رقم 3733.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2246.

وهم صفوة خلقه، بل لجميع الناس "إذا كانوا في الشدائد ودَعَوْنَا منيَّين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء"¹ إلا وتقع سنة الله في الاستجابة لهم، دلالة بذلك أن جميع الناس تحت ميزان سننه تعالى واحد.

وتأسيسا على ذلك فالقضية ليست مرهونة بانتماء، أو لغة، أو جنس أو غير ذلك، وإنما القضية قضية عمل وجزاء، فعل ورد فعل، وكان في ذكر أحوال الأمم الغابرة ترسيخ السنة في نفوس المؤمنين، وأن يفهم الناس أن الآخر سيفعل به ما فعل في الأول، حين يسير في طريقه، وكل القصص والأخبار تتلوها تعقيبات، تؤكد هذه السنة والقاعدة التي صارت علما.

فجدير بالذكر أنه لولا عموم سنة الله واطرادها، لما ذكرت لنا قصص الأمم السابقة، إذ ما يجري عليها يجري على غيرها في باقي الأزمان والأمصار، فأى أمة تنكبتها سنة الله، لقيت جزاءها عاجلا أم آجلا، وهذا ما سجله القرآن الكريم في غزوة أحد، لما تنكبوا سنن القانون الإلهي؛ فأخطأ الرماة وخالفوا الأوامر النبوية، لقوا جزاءهم ودفنوا ثمن خطئهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران/165 "فالصحابة رضوان الله عليهم وهم من خيرة المسلمين، لما غيَّبوا شروط النصر، ووقع التنازع والعصيان قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران/152 لحقتهم الهزيمة فيها، فلا محابة ولا تمييز أمام سنن الله تعالى.

ولا يفوتنا أن ننوه، بأن القرآن الكريم خصَّص جانبا كبيرا من سوره، لعرض قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم، من تغير أحوالها إيجابا أم سلبا، حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن، والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ هود/89.

وبناءً على ما سبق بيانه حول خاصية العموم، والشمول لسنن التمكين يمكن القول:

- أن سنن التمكين واحدة من السنن الإلهية، التي تجري عليها خاصية العموم والشمول، فهي لا تحابي أحدا دون آخر، بل تسري على الجميع دون تفریق أو تمييز، في الأصل أو الجنس، في الدين أو اللون، في العرق

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج5، ص368.

أو النسب، في الفرد أو المجتمع... بل الكل سواسية أمام ميزان الحكم الإلهي السنني، لكنّ هذا لا يعني أن يتساوى المسلم مع الكافر مثلاً، بل إن لكل واحد سننا يختص بها عن الآخر، وهي شاملة عامة في صنفه.

- كما أن المتأمل في التاريخ البشري، يقف على حقيقة مفادها أن تطبيق السنن من قبل أمة سابقة، يعطي صورة وتصوراً واضح الأبعاد والمعالم، لمن يأتي بعدها من الأمم اللاحقة، وهذا مظهر من مظاهر عدل الله تعالى وحكمته البالغة في الحكم بين عباده، فسنن التمكين عامة لا تتخلف، شاملة لا تتعطل، فيها تقترن النتائج بالمقدمات والأسباب بالمسببات، فيكون جزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ الليل/5-10، فهذا واحد من النماذج القرآنية التي تبين أن الأحوال تتبدل بين يسر وعسر استناداً إلى العمل، فالجزاء لا يكون بالأمني والأحلام، بل بالسعي واتخاذ الأسباب.

ولا بدّ في هذا السياق من التأكيد على أهمية استثمار مبدأ عموم وشمول سنن التمكين، وذلك من خلال فهمها فهماً واعياً، وحسن التعامل مع مقتضياتها، إدراكاً لما يترتب عنها من آثار إيجابية عند الالتزام بها، وما ينجم عنها من نتائج سلبية عند الإعراض عنها أو مخالفتها. فكلما أحسن الفرد أو الأمة الوعي بهذه السنن واستيعاب مجالات عملها، كان أقدر على توجيه جهوده توجيهاً صحيحاً، واستثمارها بما يحقق مكاسب عظيمة في الدنيا والآخرة.

ولهذا دعا القرآن الكريم إلى التدبر في مصائر الأمم السابقة، بوصفها شواهد حيّة على فاعلية السنن الإلهية واطرادها عبر التاريخ. فالفهم السليم لهذه السنن—ومنها سنن التمكين—يمنح صاحبه القدرة على الاستعداد لتتائجها وتحمل تبعاتها. وقد عبّر القرآن الكريم عن حال من جهلوا هذه السنن وندموا ساعة الحساب بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: 10.

ولا بدّ في هذا السياق، من التأكيد على أهمية استثمار مبدأ عموم وشمول سنن التمكين، وذلك من خلال فهمها فهماً واعياً، وحسن التعامل مع مقتضياتها، إدراكاً لما يترتب عنها من آثار إيجابية عند الالتزام بها، وما ينجم عنها من نتائج سلبية عند الإعراض عنها أو مخالفتها، فكلما أحسن الفرد أو الأمة الوعي بهذه السنن واستيعاب مجالات عملها، كان أقدر على توجيه جهوده توجيهاً صحيحاً، واستثمارها بما يحقق مكاسب عظيمة في الدنيا والآخرة¹.

¹ - رمضان خميس الغريب، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، دط، دس، ص50.

ولهذا دعا القرآن الكريم إلى التدبر في مصائر الأمم السابقة، بوصفها شواهد حيّة على فاعلية السنن الإلهية واطرادها عبر التاريخ، فالفهم السليم لهذه السنن-ومنها سنن التمكين-يمنح صاحبه القدرة على الاستعداد لتتائجها، وتحمل تبعاتها، وقد عبّر القرآن الكريم عن حال من جهلوا هذه السنن، وندموا ساعة الحساب بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك/10.

وعلى الجانب المقابل، يُبدي بعض الباحثين تحفظاً تجاه مبدأ شمولية السنن الإلهية، انطلاقاً "من اعتقادهم بأن المادة وحدها هي التي تخضع لقوانين صارمة يمكن ضبطها بصياغات رياضية دقيقة، بينما لا تنطبق هذه الصرامة في نظرهم، على النفس البشرية أو الحياة الاجتماعية، ويظنّ هؤلاء أن التحولات النفسية والاجتماعية تتم بطرائق غامضة أو خارقة، لا يمكن إخضاعها لقوانين ثابتة أو تفسيرها تفسيراً سننياً محكماً.

ويرجع هذا التصور إلى الاختلاف الجوهرى، بين الواقع الإنساني والواقع الكوني المادي؛ فسنن الكون المادي أكثر انضباطاً وثباتاً، ما يجعل الكشف عنها يؤدي إلى معرفة يقينية تُعين الإنسان على تسخير الطبيعة والتعامل معها بفعالية، أما الواقع الإنساني فيتميز بتداخل العناصر الروحية، وتعدّد البنى النفسية، وامتلاك الإنسان لإرادة حرة، مما يجعل الظواهر السلوكية والاجتماعية أقل خضوعاً للصرامة نفسها، وأكثر اتصافاً بالغموض والتشابك في دوافعها وأسبابها.

ويزداد هذا التعقيد لأن الإنسان ذاته هو أداة التحليل ومحلّه في آن واحد؛ فهو يدرس ظواهر تنبع من ذاته، وتتفاعل مع إرادته، وتسهم عوامل متعددة في تشكيلها، ولذلك يصعب الوصول فيها إلى المعرفة القطعية التي يمكن تحقيقها في مجال المادة، وإن أمكن الكشف عن سنن عامة تحكم مسارها وتوجّه حركتها"¹.

لكن هذا لا ينفي خاصية العموم والشمول لسنن التمكين، التي تسري على الوجود الإنساني البشري، بناء على غياب المفارقات والامتيازات التي حدثت، وتحدث لأفراد وأمم دون غيرها، بل المتأمل فيها يبصر شمولها وعدم محسوبيتها، لجهة مقابل أخرى، ما جعل من هذا الوجود يعيش في أمن وانتظام خالياً من الفوضى والعشوائية. وبناءً على ما سبق يمكن القول أن:

- خاصية الحتمية والنفاذ ارتباط لا انفكّاك له، فالعلاقة بين السبب والنتيجة في سنن التمكين حتمية، عند تحقق الشروط، وإن هذه السنن تنفّذ في الجميع دون استثناء، في المؤمن والكافر، القوي والضعيف، فمن حقق شروط التمكين ملك نتائجه، حتى لو كان كافراً.

¹ - أحمد كنعان، أزمّتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، مرجع سابق، ص 61.

- انطلاقاً من هذه الخاصية تنتفي العشوائية، وتكون الثقة في النتيجة، إذ تولّد ثقة راسخة بأن النتيجة مضمونة، مسبقاً لمن التزم بالمنهج، وأن أي أزمة أو هزيمة ليست قدراً محتوماً، بل هي دليل على فهم السنن أو تطبيقها.
- ونقطة أخرى نود الإشارة إليها، قبل إغلاق قوس الكلام عن خصائص سنن التمكين، وهي جملة الخصائص الأخرى التي تنسب إلى هذه السنن والمتمثلة في:
 - الواقعية: فسنن التمكين سنن واقعية تتماشى مع الواقع الذي يعيشه الإنسان، وليست مجرد أوهام وأحلام وخيالات بعيدة التطبيق والتحقيق، وما نزول القرآن الكريم منجّماً على مدار ثلاث وعشرين سنة إلا دليلاً على واقعيته ومسايرته للأحداث والوقائع الجارية.
 - وواقعيته تنعكس على كل ما حواه هذا الكتاب، بما في ذلك السنن الإلهية التي تعايش واقع الإنسان وحياته في شتى المجالات والميادين، لتكون له نبراساً ونوراً يهتدي به في حياته.
 - مسخرة للإنسان: فنجد أن هذه الخاصية تتصل بالواقعية، فلولا واقعيته لما أمكن تسخيرها والاستفادة منها من قبل هذا المخلوق الذي سُخِّرَ له ما في السماوات والأرض لخدمته، وهو مظهر من مظاهر التكريم الرباني للإنسان الذي يشكل وجوده ركناً محورياً في فهم حقيقة السنن، وتحقيق دوره الاستخلافي بكامل إرادته.
- فكثيراً ما تتكرر في القرآن الكريم الإشارة لخاصية تسخير السنن، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجاثية/13، وذلك باعتبارها من القواعد الهامة والمهمة في الحياة، تستدعي إعمال العقل في تدبر وتفكر سنن الله المسطورة والمنظورة، وما تحمله من دلالات تسخيرية، "فيعي الإنسان قوانين هذه السنن وقواعد حركتها ما يجعله قادراً على تسخيرها في الاتجاه الذي يريد، فالكون كله بما فيه السنن مسخر من الخالق سبحانه"¹،
- ونجد من يزيد على ذلك خاصية الحكمة والعدل: فمن "خصائص سنن الله سبحانه وتعالى أنها تتسم بالحكمة والعدل لأنها من فعله عز وجل، وفعل الله هذه صفته دائماً، لأن من أسماء الله الحسنى "الحكيم" و"العدل" فهو عز وجل حكيم في أفعاله بل أنه عز وجل له الغاية والكمال الأتم في ذلك"².
- وقد أشار عمر حيدوسي في حديثه عن خصائص السنن الإلهية، إلى أن السمات المتقدمة يمكن اختزالها في خمس خصائص رئيسة، تتفرع عنها مجموعة من الأوصاف الثانوية، فالربانية تُعدّ أساس حاكمية السنن ومصدر نفوذها، كما تعبّر في الوقت نفسه عن الغاية المقصودة منها، بما يبرهن على أنها سنن محكمة منضبطة، لا تتحرك

¹ - رمضان خميس الغريب، مفهوم السنن الربانية، مرجع سابق، ص 5.

² - أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: فضلة شحادة، دار الشروق، بيروت، ص 130-131.

عشوائياً، بل تجري وفق قدرة الخالق وحكمته، أما اطرادها فيجسد ما تتسم به من الحتمية والسببية والصرامة، وهي خصائص تمنح الوجود توازنه وانسجامه ونظامه.

وُتَكسب قابليتها للكشف والتسخير هذه السنن بُعداً إنسانياً واجتماعياً واقعياً، يُعزّز فاعلية الإنسان ودوره في نطاق السنن التسخيرية، ويُبرز انسجامها مع حرية الإرادة البشرية في حدود ما قُدّر لها.

كما أنّ صفات الثبات والعموم والشمول، تمنح السنن قدراً إضافياً من الاستقرار والحياد، وتؤكد امتدادها عبر الزمان والمكان دون محاباة أو استثناء، غير أنّ خفاءها الناجم عن قصور المعرفة البشرية أو بطء آثارها، يقتضي مزيداً من النظر والتأمل لاكتشاف حقيقتها واستيعاب مجالات تأثيرها، رغم كونها مدموغة في الوعي الإنساني العام ومؤصلة في نظام الوجود¹.

وبناءً على ما سبق، يمكن التأكيد على النقاط الجوهرية التالية كخصائص لسنن التمكين وهي:

- تمتاز سنن التمكين بربانية المصدر والغاية، فهي صادرة عن الله تعالى وليست من صنع البشر، وتستهدف في مقصدها الأعلى تحقيق التوحيد وعبادة الله، والاعتراف بقدرته المطلقة وحكمته في تدبير شؤون الخلق.
- تتصف سنن التمكين بالثبات والديمومة، فلا يطرأ عليها التغير أو التحول بتغير الأزمنة أو الأماكن، وهي تسير وفق نسق مضطرد كلما تهيأت أسبابها وشروطها.
- تطرد سنن التمكين فلا تتخلف أو تتأخر عن التحقق، باعتبارها قوانين إلهية ثابتة، ويستلزم انتظامها ضرورته التأمل والاعتبار للاستفادة من عطاياها.
- يدل نفاذ هذه السنن وحتميتها على حكم الله وقضائه العادل، حيث لا تتخلف النتائج عن مقدماتها، ولا الأسباب عن مسبباتها.
- تتميز سنن التمكين بالعموم والشمول، فهي تخاطب كل الناس والأمم على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ولغاتهم، دون محاباة أو تمييز، كما أنها تتحقق بالعمل الجاد لا بالتمنيات والأهواء.
- وفي الختام يمكن القول، أن هذه الخصائص لا تعمل بمعزل عن بعضها البعض، بل تتداخل لتشكّل نسقاً متكاملاً؛ فالربانية هي التي تعطي الغاية والمعنى، والثبات هو الذي يعطي الضمان واليقين، والحتمية هي التي تعطي المنهج والوسيلة، فهذه الخصائص معاً تشكّل إطاراً نظرياً متيناً، يفسّر لماذا تنجح أمم، وتفشل أخرى، وتضع أمة الإسلام أمام مسؤوليتها التاريخية، في النهوض ببناءً على قوانين إلهية ثابتة.

¹ - عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 196-197.

المبحث الثالث: مصطلح التمكين في القرآن الكريم والسنة النبوية:

المطلب الأول: دلالة مصطلح التمكين في القرآن الكريم.

يعد الاستعمال القرآني لمصطلح "السنن" عميقا وشاملا، حيث لا يذكر القرآن الكريم عبارة " سنن التمكين" صراحة، لكنه يصورها ويجسدها من خلال قصص الأمم، وصيغ الوعد الإلهي، وتحليل أسباب الصعود والهبوط.

ويمكن رصد الاستعمال القرآني لكلمة "التمكين" التي وردت بتصرفات متعددة، ودارت في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، بصيغ مختلفة هي كالآتي:

يوسف / 21، يوسف / 56، الكهف / 94، " لأعراف / 10، وجاءت في قوله: " الأحقاف / 26، وفي " الأنعام / 6، الحج / 41، الكهف / 84، القصص / 57، وفي القصص / 6، وقال النور / 55، الأنفال / 71، يوسف / 54، وفي المؤمنون / 13، الرسائل / 21، وفي قوله: " التكوير / 21، اشتملتها سور مكية وأخرى مدنية.¹

1- وردت بصيغة الماضي "مَكَّنَّا"، "مَكَّنَاهُمْ"، "مَكَّنِي"، "أَمَكَّنْ"، وجاءت في عشرة مواضع هي كالتالي:

وردت في سورة الأنعام وهي سورة مكية مرتين في نفس الآية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ الأنعام/6.

ويراد بالتمكين هنا: تحصيل الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود²

ووردت في سورة الأعراف وهي من السور المكية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ الأعراف/10، " فالحديث عن تمكين الجنس البشري في الأرض يرتبط بما أودعه الله تعالى في الكون من خصائص وقوانين منسجمة، تُهيئ للإنسان عوامل الحياة والاستقرار، والقدرة على الاستخلاف، كما يرتبط بما أودع في الإنسان ذاته من مقومات واستعدادات فطرية، تتناغم مع نظام الكون، وتمكّنه من إدراك نواميسه والتفاعل معها، وتسخير طاقاته وإمكاناته وموارده المختلفة، وبهذا التكامل بين

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، دط، 1364هـ، ص 672.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج3، ص 240.

خصائص الكون وخصائص الإنسان، يتحقق شرط التمكين الإلهي للبشر على وجه الأرض¹.

- ووردت اللفظة في سورة الأحقاف وهي سورة مكية مرتين في نفس الآية بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي مَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الأحقاف / 26.

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "ولقد مكَّنَّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وأعطيناهم ما لم نعطيكم مثله ولا قريباً منه"².

فيمكن القول من خلال ما سبق، أن التمكين جاء بمعنى تسخير نعم الدنيا، وملذاتها وشهواتها، من أموال وأولاد وجاه، للإنسان من عند الله تعالى.

- ووردت في سورة الأنفال وهي سورة مدنية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِن يَعلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/ 70-71، ومعنى الآية أنه "أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين بيد حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم"³. وهذا علامة على أن التمكين ورد بمعنى النصر، والفوز والغلبة للمؤمنين على الكفار.

- ووردت لفظة التمكين في سورة يوسف وهي من السور المكية ثلاث مرات:

الأولى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف / 21، ومعنى هذه الآية؛ "وكما أنقذناه من إخوته، ومن الجب فكذلك مكنا له؛ أي عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه، حتى تمكن من الأمر والنهي، في البلد الذي الملك مستول عليه، في أرض مصر"⁴، فجاء التمكين هنا بمثابة مقدمة وتهيئة لتمكين أعظم، عندما أنقذ يوسف من القتل وأُخرج من الجُبِّ، وعلم بتفسير الرؤيا كانت بذلك تمهيدا له لتحقيق مكانة على خزائن الأرض من هذا الطريق.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1246-1247.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج 7، ص 288.

³ - الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط4، 1997، ج3، ص 379.

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج9، ص 160.

والثانية أين تحقق التمكين الكلي ليوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/ 56. أي "أقدرناه على ما يريد"،¹ "إذ يتخذ من مصر منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار؛ فأعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد مما حوَّله من التصرف والنفوذ في الدنيا".²

ومن مظاهر هذا التمكين الكلي ليوسف، ما أشار إليه سيد قطب بقوله أنه: "تمكن بسيطرته من الدعوة لدينه، ونشره في مصر في أيام حكمه،... فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف، ومن إعجاب الملك به، ومن الاستجابة له فيما طلب... على هذا النحو مَكَّنَّا ليوسف في الأرض وثبتنا قدميه، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً"،³

- كما وردت الكلمة في سورة الكهف، وهي من السور المكية مرتين الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الكهف/ 84، قال ابن كثير: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم.⁴

- ووردت في الموضع الثاني من السورة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ الكهف/ 94-95، ومن الآية يتضح صلاح ذو القرنين عفة وديانة وقصدا للخير باستغناؤه عن تمكين العباد، فمعنى "مَكَّنِّي" هنا أن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه".⁵

- وجاءت لفظة التمكين بهذا المعنى أيضاً، في سورة الحج وهي من السور المدنية بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/ 41، إذ دل التمكين هنا على معنى الملك، فهو شرط شرطه الله عز وجل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁶، فالذي حباه

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج 9، ص 217.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج 4، ص 396.

³ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج 4، ص 2013-2014.

⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج 5، ص 189.

⁵ - المرجع نفسه، ص 196.

⁶ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج 12، ص 73.

الله بملك وجب عليه أداء وحفظ هذه الأمانة، التي يسأل عنها أمام الله بأداء فضيلة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في تحقيق الأحكام الشرعية، وهي ثمرة من ثمرات التمكين وأهدافه.

وعليه يمكن القول أنّ التمكين حمل معنى المنزلة والسلطان والملك، وهي معاني تدل على القوة، إذ تعطي للإنسان قدرة على التصرف والنفوذ.

2- وورد التمكين بصيغة المضارع: "تُمْكِّنُ"، "لَيُمْكِّنَنَّ" في أربعة مواضع:

جاءت الكلمة في سورة النور وهي من السور المدنية في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ النور/ 55

قال سيد قطب: "يتم تحقيق تمكين الدين، من خلال ترسيخه في القلوب والنفوس، إلى جانب تطبيقه في إدارة شؤون الحياة وتنظيمها، وقد وعد الله المؤمنين بأن يُمَكِّنَ لهم في الأرض، ويجعل دينهم -الذي ارتضاه لهم - هو المهيمن على حياتهم العامة والخاصة، وهذا الدين يدعو إلى الإصلاح الشامل، ويحث على إقامة العدل، والتغلب على شهوات النفس ومغريات الدنيا، كما يحث على عمارة الأرض والاستفادة مما أودعه الله فيها من ثروات وموارد وطاقات، مع توجيه كل جهد وعمل فيها لخدمة المقاصد الإلهية وابتغاء مرضاة الله"¹، فهذا هو مقصد التمكين وغايته؛ هيمنة دين الله وشرعه في الأرض، ونشر الإصلاح والعدل بين الناس لعمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف.

وجاءت أيضا في سورة القصص وهي سورة مكية في موضعين الأول في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيْدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَتُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ القصص/ 5-6، وقد ورد بيان معنى التمكين هنا بوصف القدرة، أي يجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر²

- والموضع الثاني من السورة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص/ 57 ومعنى الآية أو لم نوطئ لهم بلدا حرمنا على الناس سفك الدماء فيه، ومنعناهم من أن يتناولوا سكانه فيه بسوء، وأمنا على أهله من أن يصيبهم بها غارة، أو قتل، أو

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2529.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج 13، ص 249.

سبأ" ¹، فالتمكين جاء بمعنى التهيئة والإعداد.

- والموضع الأخير سبقت الإشارة إليه في سورة الأنعام/6.

3- ووردت بصيغة الصفة: "مَكِين" في أربعة مواضع:

-وردت في الموضع الثالث من سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يوسف/54. أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة. ²

"قال إنك اليوم لدينا مكين، فلما كلمه تحقق له صدق ما توّسمه، فإذا هو يطمئنّه على أنّه عند الملك ذو مكانة وفي أمان،...فهو مكين وليس هو المتهم المهذّب بالسجن، إنما هو أمين، وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك" ³.

وجاءت في سورة التكوير وهي من السور المكية في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ التكوير/ 19-21، بنفس المعنى السابق الذي يشير إلى كون التمكين منزلة ومكانة ⁴، اختص بها جبريل عليه السلام.

ووردت أيضا في سورة المرسلات وهي من السور المكية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ المرسلات/20-22. فالكلام هنا حديث عن حقيقة الخلق الذي يتشكل في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء ⁵، فجعلنا الماء المهين في رحمٍ استقرّ فيها فتمكن ⁶، فدل بذلك التمكين هنا على معنى الاستقرار والثبات والرسوخ، للجنين في رحم أمه إلى مدة يقدرها، ويحددها الله تعالى.

ووردت بنفس المعنى في سورة المؤمنون وهي من السور المكية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ المؤمنون/ 13. فالوصف بأنه مكين؛ علامة على التهيئة للاستقرار، لأنه مكن لذلك، وهياً له ليستقرّ فيه

¹ - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2000م، ج19، ص601.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص395.

³ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2005.

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج19، ص240.

⁵ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج8، ص299.

⁶ - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج24، ص132.

إلى بلوغ أمره الذي جعله له قراراً.¹

يلاحظ من خلال الحصر لورود كلمة "التمكين" في القرآن الكريم عدد من الأمور منها ما يلي:

- أن اللفظة وردت بصيغة الماضي "مكننا"، "مكنهم"، "مكني"، "أمكن"، ووردت بصيغة المضارع: "نمكن"، "ليمكنن"، ووردت بصيغة الصفة: "مكنين"، كما وردت منسوبة إلى "نا" الفاعلين و"نا" العظمة: "مكنناهم"، "مكنناكم" "نمكن"، وإلى المفعول: "مكني"²، ولم ترد اللفظة بصيغة الأمر حيث لا أمر بالتمكين لأنه إمداد رباني غيبي.

- غلب ورود لفظة التمكين في السور المكية على المدنية، بمعدل تسعة سور مكية هي على الترتيب: الأنعام، الأعراف، يوسف، الكهف، المومنون، القصص، الأحقاف، المرسلات، التكويد، وتكرار خمسة عشرة موضعاً، أما بالنسبة للسور المدنية فقد تكررت فيها لفظة التمكين في ثلاثة مواضع الأولى في سورة الأنفال، والثانية في سورة الحج، والثالثة في سورة النور، رغم أن التمكين للأمة الإسلامية كان في الفترة المدنية، ولعل تبرير ذلك كون السور المكية تتضمن ذكراً لقصص الأنبياء والأمم السابقة، حيث كثرت نماذج التمكين فيها مثل قصة يوسف، ذي القرنين...

- توافق المفسرين وأهل اللغة عموماً، في بيان دلالة لفظة التمكين، حيث جاءت كلمة التمكين عند المفسرين، ترادف معنى النصر والفوز والغلبة للمؤمنين على الكفار، كما حملت معنى المنزلة والسلطان والمكانة، وأيضاً معنى الرسوخ والاستقرار والثبات، وجاء فيها معنى القدرة والقوة والنفوذ وكلها معاني أقرتها وأشادت بها معاجم اللغة العربية، والتمكين بمعنى إقامة الدين وتطبيقه، وجاء بمعنى تسخير نعم الدنيا وملذاتها، وأخيراً بمعنى التهيئة والإعداد لحصول التمكين.

- نسبة التمكين إلى الله تعالى في كل مواضع ورود المصطلح حسب السياق القرآني، ذلك أن الله تعالى هو مصدر هذا التمكين، ومصرفه للعباد كيف يشاء، حسب مشيئته وإرادته الفاعلة وقدرته الهائلة، بكل الأشكال والأنواع سواء كان فردياً أو جماعياً، مادياً أو معنوياً، إذ يتحقق هذا التمكين وفق شروط وأسباب معينة تُعد أداة تحركها الإرادة والمشيئة الإلهية المطلقة.

- ترابط وتلازم دلالات معنى التمكين ببعضها البعض؛ إذ يدل بلوغ المنزلة والسلطان والمكانة، على تحقيق

¹ - المرجع نفسه، ج 19، ص 16.

² - رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 15

- النصر والفوز والغلبة، وإن تحقيق النصر والفوز والغلبة، معاني تعطي الإنسان شعوراً بالقوة والقدرة والنفوذ.
- وإن من ثمرات هذا التمكين والنصر والقوة، تسخير نعم الدنيا وملذاتها خدمة للإنسان وانتفاعاً بها، في مجالات عدة من الحياة، شرط إقامة دين الله وتطبيق شرعه.
- يحمل التمكين في معانيه صفة لازمة له، هي صفة الثبات الدالة على الاستقرار والرسوخ، وعدم التبديل والتحول عن السلطة، والمكانة والمنزلة التي بلغها المتمكن؛ نتيجة قوته وقدرته النافذة.
- يُعد مفهوم "التمكين" من المفاهيم المحورية التي أولاهها القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، حيث تناول ظاهره التمكين بجميع أبعادها وصورها، وعند مقارنة أي مفهوم قرآني، لا بد من تحليله من خلال بعده الجوهريين: البعد المعرفي والبعد النفسي.
- "فأما البعد المعرفي فيتمثل في الشبكة الدلالية التي يحملها المصطلح، والتي تتجاوز الدلالات الجزئية لتشكل قضايا كلية ومبادئ عليا، بل وقد تتبلور لتشكّل أصولاً عقدية ومنهجية في بعض الأحيان، فالمصطلح القرآني لا يعبر عن معنى محدود فحسب، بل غالباً ما يكون عنواناً شاملاً لمشروع فكري أو منهجي متكامل.
- وأما البعد النفسي فيكمن في القدرة التأثيرية الكامنة في المصطلح، والتي تثير المشاعر وتحرك الهمم، فتُهيئ النفس لاستقبال المعاني المقصودة واستيعابها بعمق، كما تستحث الإرادة لتجسيد هذه المعاني في الواقع المعاش، ويتم تحقيق هذا التأثير عبر بلاغة الصياغة القرآنية وروعة بناءها الدلالي"¹.
- وعليه، فإن قضية التمكين كما تطرحها النصوص القرآنية ترتبط ارتباطاً جوهرياً بكلا البعدين: النفسي والمعرفي معاً، مما يجعلها من المفاهيم المركزية في الرؤية القرآنية للوجود، وذلك نابع من صلتها المباشرة بالوظيفة الأساسية التي استخلف الإنسان من أجلها، وهي تحقيق عمارة الأرض وفق المنهج الإلهي.
- التمكين ليس هدفاً منشوداً، وليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة لتمكين الدين، وتحقيق العبادة الخالصة: وقد يكون تمكين رضا أو تمكين استدراج، والفرق بينهما أن "الأول يمتنّ به الله تعالى على المؤمنين، وهو ممتد حتى يغيّر الناس ما بأنفسهم، ويحيدوا عن الطريق المستقيم، فيزول عنهم التمكين، أما الثاني وهو تمكين الاستدراج الذي

¹ - مصطفى النجار، ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإنسانية، مفهوم مصطلح الشهادة على الناس في القرآن وأبعاده الحضارية، الرباط، 1996، ص 19.

يغتر به الكافرون، وهو تمكين مؤقت مهما طال مدته، ينتهي بالدمار"¹

- كما يعد مصطلح التمكين في القرآن الكريم، محورا أساسيا في فهم الرؤية الإسلامية لمستقبل الأمة ودوره في العالم، فهو ليس مجرد مفهوم ديني مجرد، بل هو وعد إلهي، وغاية كبرى تتطلب جهودا بشرية عظيمة، ومواجهة تحديات جسيمة، يرتبط هذا المفهوم بين الاستقرار الديني، والرفعة الأخروية في تمسكها بقيمها ومبادئها.
- أضف إلى ما تقدم، فإن الآيات القرآنية أظهرت؛ بأن معنى التمكين يتجاوز المعنى اللغوي، للقوة والسيطرة؛ ليلامس جوهر إقامة الدين والعدل في الأرض، فهو حالة شاملة تتضمن الاستخلاف في الأرض، وإقامة الشريعة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وضمان العيش الكريم للأفراد.
- لم يسم القرآن الكريم " سنن التمكين " بالاسم المركب، لكنه أقام دليلها، وحدد شروطها، وسرد قصصها؛ ووعد بتحققها، مما يجعلها بذلك حقيقة قرآنية راسخة، وقانونا إلهيا يحكم حركة التاريخ والأُمم والمجتمعات.

المطلب الثاني: دلالة مصطلح التمكين في السنة النبوية:

إن لفظ التمكين من الألفاظ المركزية في المشروع الإسلامي، ويحمل دلالات عميقة أشار لها القرآن الكريم، وفيما يلي محاولة لرصد وتتبع لفظ "التمكين" في السنة النبوية، لفهم أبعاده الشرعية وتحليل دلالاته في مختلف السياقات، ومن خلال الاستقراء تبين أن اللفظ الصريح للتمكين، لم يرد في السنة النبوية بصفة متكررة، فهناك استعمالات لفظية مباشرة، وأخرى استعمالات ضمنية، واستعمالات أيضا في سياقات التمكين المتعددة، وفيما يلي بيان ذلك:

- التمكين قوة واستقرار في الأرض: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئِ وَالرَّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا فِي الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)²،
- ففي الحديث إشارة إلى التمكين، كقوة للاستقرار في البلاد والنصر، وهذا لا يعني فقط السيطرة السياسية أو العسكرية، بل يشمل أيضا القدرة على إقامة مجتمع آمن ومزدهر.

¹ - محمد أنحزوم، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 2011، مج1، ص528-529.

² - رواه أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، مسند الأنصار، حديث: أبي العالية الرجائي عن أبي بن كعب، ج35، ص124، رقم: 21221.

التمكين ملك وحياة: فعن ثوبان قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ)¹، في الحديث بيان قدرة الله البالغة، وأن الإسلام غالب وسيملاً الآفاق، ويصل للشرق والغرب، وتناله الكنوز والخزائن.

فسياق الحديث يدل على البشارة بتمكين الأمة الإسلامية، واتساع ملكها، فعلى الرغم من غياب لفظة التمكين في الحديث، إلا أن دلالاته واضحة في " البلوغ والملك " وهو وعد إلهي تحقق جزئياً في عهد الصحابة والخلافة الراشدة، وهو مرتبط ببقاء الأمة على منهج الحق.

التمكين بالدعاء والطلب: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو: (رَبِّ أَعْيِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي الْهَدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ ..)². فيه: أن الدعاء باستنزال النصر من دأب الأنبياء والصالحين، فلا يعتمد فقط على الأسلحة المادية والاستعداد البشري، بل ثمة أسباب إيمانية ومعنوية لا بد من استنهاضها واستعمالها.

وتماشياً مع ما تم ذكره فإن الحديث يدل على أن التمكين بيد الله تعالى، فهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يقدر ويمكن.

التمكين بمعنى الرفعة والمكانة: فعن البراء بن عازب ؓ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحُفْرِ الْخُنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخُنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَ ثَوْبَهُ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ - فَأَخَذَ الْمَعُولَ فَقَالَ: (بِاسْمِ اللَّهِ)، فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأُبْصِرَ قُصُورَهَا الْخُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا " ثُمَّ قَالَ: " بِاسْمِ اللَّهِ ". وَضْرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأُبْصِرَ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرَ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ". ثُمَّ قَالَ: " بِاسْمِ اللَّهِ ". وَضْرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأُبْصِرَ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا)³، فيه بيان ما سيؤول إليه حال المؤمن المحاصر في الأحزاب، وأن الله مظهر هذا الدين، وستصبح تلك الأمم الكبيرة منقادة لدين الله بأهلها وثوراتها.

¹ - رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ج4، ص2215، رقم: 2889.

² - رواه محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب: الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، ج5، ص517، رقم: 3551.

³ - رواه أحمد، المسند، مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب ؓ، ج30، ص626، رقم: 18693.

ففي الحديث إشارة إلى المكانة والرفعة التي ينالها المسلمون، وهي ثمرة من ثمرات التمكين.

التمكين بمعنى القدرة والسلطان: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (تَكُونُ الثُّبُوءُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ الثُّبُوءِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مَلَكًا عَاضًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مَلَكًا جَزِيئَةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونُ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ ثُبُوءِ ¹). فيه أن الأيام دول، وأن الأمة المنصورة مُبتلاة، تمحيصا وتهذيبا، وأن وعد الله لها بالخلافة والتمكين حق واقع، ولن يرث الله الأرض حتى يبلغها مبلغها، ويعليها سؤدها.

وفي نفس المعنى ما أشار إليه حديث خباب رضي الله عنه، عند شكواه لرسول الله، وفيه قال ﷺ: «وَاللَّهِ لَيُيَمِّنَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَإِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»²، فيه أن الدين غالب منتصر، وسيتمه الله، ولن تحول قوة دونه وتمكينه، وسيعم الأمن من خلاله، وما ذاك إلا لصدق مبادئه، وتوقيع الناس له، وانشراحهم بأحكامه.³

وفي الختام يمكن القول أن دراسة الاستعمال النبوي للفظ التمكين، تكشف عن حقيقة مهمة، ومفهوم عميق متعدد الأوجه، يتجاوز مجرد القوة المادية، ليشمل الاستقرار الروحي والعقائدي والاجتماعي، فالتمكين الحقيقي هو هبة ربانية ووعد إلهي، للأمة التي تلتزم بالإيمان والعمل الصالح، وهو ابتلاء يختبر الأمة وإيمانها، وثمره طبيعية لتحقيق الاستخلاف في الأرض، وبهذا الفهم الشمولي للتمكين يساعد الأمة على استعادة مكانتها وتحقيق نهضة شاملة، تنعكس استقرارا وعدلا وقوة في الأرض.

المطلب الثالث: الألفاظ المرادفة لمصطلح التمكين في النصوص الشرعية.

إن القارئ المتأمل لكتاب الله تعالى، يجد من الكلمات والألفاظ التي تشترك مع التمكين في حيز مفهومه، فتشكّل حقلا دلاليا متقاربا معه، وهذه المفاهيم وإن بدت مستقلة في ظاهرها، إلا أنها ترتبط بقوة مع التمكين، الذي يعد المحور الذي تدور حوله وتتحقق من خلاله هذه المعاني العظيمة، وعليه سنقف على جملة المصطلحات المقابلة للتمكين كالآتي:

¹ - رواه أحمد، المسند، مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ، ج 30، ص 355، رقم: 18406.

² - رواه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، كتاب: الجهاد، باب: في الأسير يكره على الكفر، ج 3، ص 47، رقم: 2649.

³ <https://ar.islamway.net/article>، <http://iswy.co>، تاريخ الولوج: 2024/10/3.

1- النصر: إن دلالة مصطلح النصر تشير إلى تركيزها على نتيجة الصراع والمواجهة المباشرة، مع عدو مرئي، وهو الانتصار في المعركة،

وبالوقوف عند لفظة " النصر " ومشتقاتها في القرآن الكريم، نجد أنها وردت " مائة وثمانين وخمسين مرة، في سبع وأربعين سورة، منها إحدى وثلاثين سورة مكية، وست عشرة سورة مدنية"¹ ولعل الإكثار من ذكر كلمة النصر، وبصيغ مختلفة يدل على أهمية هذا المفهوم في القرآن الكريم، لما يحمله من بشارات تشفي الصدور، وتذهب غيظ القلوب.

تعريف النصر: لغة: "النون والصاد والراء أصل صحيح، يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: أتاهاهم الظفر على عدوهم، ينصرهم نصراً".²

والنصر: إعانة المظلوم، "نصره على عدوه ينصره، ونصره بنصرة نصراً، والنصير: الناصر، والأنصار: أنصار النبي ﷺ، غلبت عليهم الصفة فجرى مجرى الأسماء، وانتصر الرجل: إذا امتنع من ظالمه، وانتصر منه: انتقم".³ والنصر العطاء، "ونصر الأرض: أي غاثها، ونصرت الأرض: أي أمطرت".⁴

والنصرة: حسن المعونة، ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الحج/15.⁵

وقيل النصر: ضد الهزيمة ومقابلها، وأصل النصر: العون والمنع، وأصل الهزيمة من الهزم: وهو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم، فهي بمعنى الحطم والكسر.⁶

- اصطلاحاً: النصر فوز في المعارك على أعداء الإسلام، وتحقيق العزة والغلبة، وإعلاء راية الإسلام، لقول الشوكاني: "النصر هو التأيد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم، والاستعلاء عليهم".⁷

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص796-798.

² - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج5، ص423.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج5، ص210-212 بتصرف.

⁴ - الجوهري، تاج اللغة، مرجع سابق، ج2، ص829.

⁵ - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط1، دار مكتبة الهلال، ج7، ص108.

⁶ - الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ج1، ص543.

⁷ - محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007م، ج30، ص1663-1664.

وتجدر الإشارة إلى أن النصر له عدة معاني، ذكر أشهرها في كتاب الله تعالى وهي:

- الأول المنع، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة/ 86.

وفي سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ الشعراء: 92-93، أي يمنعوكم من عذاب الله،

- والثاني العون: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج/ 40، وفي قوله: "وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" الحشر/ 11، وفي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد/ 7.

- والثالث: الظفر: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/ 250، ومثله في قوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران/ 147.

- والرابع الانتقام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الشورى/ 41. وفي قوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيُنَظَّرَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ محمد/ 4، وفي قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ القمر/ 10

وتأسيسا على ما تقدم ذكره، يتضح لنا من خلال المعاني اللغوية للنصر؛ أن "النصر ليس له صورة خاصة ومعنى واحد، بل أي صورة وأي معنى تحقق في عالم الواقع، حسيا أو معنويا، فإنه يعدّ نصرا، وصاحبه منصورا، خصوصا في جانب المؤمنين، وإن بدا لأكثر الناس خلاف ذلك"¹، وقد ينصرهم بمنعهم من أعدائهم، وقد يكون "بالعون على الأعداء وقد يكون بالظفر المادي والتمكين، وقد يكون -بالانتقام من أعدائهم الكافرين"²، كما يكون النصر في الدنيا والآخرة.

وعليه فإن التمكين صورة من أعظم صور النصر المحققة، إذ "يمكن الله تعالى للمؤمنين في الأرض، بعد أن يشبثوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر، بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له، وتطلعهم إليه في زمن الشدة،

¹ - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم، مرجع سابق، ص 255-256.

² - شريف أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، مرجع سابق ص 596.

وتوكلهم عليه مستيقنين من نزول نصره، بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعا، من صبر وتقوى وإعداد¹.
وتماشيا مع ما تم ذكره، يمكن القول في العلاقة بين النصر والتمكين، أنها علاقة الثمرة بالجدور، فالنصر عطاء رباني، وفتح إلهي عظيم، ولحظة حاسمة ونتيجة جزئية، وثمره مرحلية للتمكين، لأن عملية التمكين عملية بناء شاملة، طويلة الأمد؛ إيمانيا، اجتماعيا، اقتصاديا، عسكريا، والنصر هو حصاد مرحلي لتلك العملية، وقد كان النصر في غزوة بدر ثمرة لتمكين سابق، تمكين إيماني تجلّى في ثبات المؤمنين، وتمكين تنظيمي، في طاعتهم للنبي ﷺ، وتمكين استراتيجي ظهر في حسن اختيار مكان المعركة.

أضف إلى ما تقدم، فإن النصر مؤشر على صحة مسار التمكين، فعندما تأتي الانتصارات متوالية، فهذا دليل عملي على أن الأمة تسير وفق السنن الإلهية الصحيحة للتمكين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن النصر يعمل كحافز نفسي ومعنوي، يعزز عزيمّة الأمة، ويدفعها لمواصلة البناء، بكل فعالية، فقد كان فتح مكة نصرا عظيما، مهّد لتمكين أكبر وأشمل، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية.
وختاما نخلص إلى نقطة مهمة، مفادها أن النصر ليس مرادفا للتمكين، فيمكن أن تتحقق جملة انتصارات، دون وصول إلى حالة التمكين الكامل، وإن النصر ضروري على طريق التمكين، لكنه ليس كافيا لتحقيقه، فالتمكين الحقيقي هو الذي يحوّل الانتصارات العابرة إلى دولة راسخة، وأمة فاعلة، وحضارة مستدامة.

2- الغلب: إن مصطلح الغلب أو الغلبة تشير دلالاته إلى القوة، والسيطرة والعلو على الخصم، فهي علامة دالة على التفوق في أي مجال تنافسي، ولهذا نجد لها من الألفاظ المقاربة للفظ التمكين، وقد وردت في القرآن الكريم ثلاثين مرة²، وذلك بصور متعددة؛ منها الماضي والمضارع، والمصدر واسم الفاعل، وقد وردت اللفظة في السور المكية، والمدنية وحفلت بذكر معالم الغلب وملاحمه ومنها :

- أن الغلب لله ورسوله وعد من الله تعالى، والله تعالى منجز وعده: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة/ 21.

- أن القلة والكثرة ليست هي المقياس في الغلب: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة/ 249.

- أن من كتب الله له النصر فلا يغلب: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ آل عمران/ 160.

¹ - أنور صالح أبو زيد، عوامل النصر والهزيمة في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 676-677.

² - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 503-504.

- أمر الله ماض لا يرده شيء، ولا يعجزه أحد: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف / 121

تعريف الغلب:

لغة: غلبه يغلبه غلبا وغلبا: قهره، ووردت في القرآن الكريم على أربعة معان، هي:

- القهر: " قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف / 21.
- القتل: قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ آل عمران / 12.
- الظهور: قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ الكهف / 21
- الهزيمة: قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ الروم / 2-3

وتماشيا مع ما تم ذكره، يتضح أنه قد ترتب على نصره المؤمن لله، ورسوله والمؤمنين؛ الغلبة، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة / 56.

وإن جذر " غ ل ب " في اللغة له دلالات حسية كثيرة، تدل على أنّ في "الغلبة قوة ناتجة عن الالتفاف والعظم، ولهذا استعملها القرآن في مواضع الجهاد، وتحقيق النصر، وفي مواضع بيان قدرة الله وهيمته.

وإن من منافع الغلبة: القتل والأسر والذل والهوان، حيث شاهد الكفار أنفسهم مقهورين، في أيدي المؤمنين ويقابل ذلك نصر المؤمنين وشفاء صدورهم، وإذهاب غيظ قلوبهم".²

وفي هذا الإطار يمكن القول؛ بأن معاني الغلب تدور حول البعد المعنوي لمظاهر القوة، بيد أن التمكين يحمل هذا البعد المعنوي من القوة، إضافة إلى البعد المادي المتمثل في تحصيل المكانة، والسلطة والمنزلة والقدرة، التي تثبت بذلك درجة النصر والغلب.

بالإضافة إلى ذلك فإن التمكين قائم على الشرعية، أما الغلبة فقد تقوم على القوة فقط، وقد يتحقق التمكين بالتراضي، والقبول الاجتماعي، بينما الغلبة تعني الهيمنة والاختضاع، ما يدل بذلك على أن مجال التمكين هو العمارة وبناء المؤسسات، أما الغلبة فتركز على الهدم وكسر شوكة الخصم.

¹- رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 16.

²- عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم، دراسة دلالية، مجلة آداب الرفادين، العدد 23، ص 131، 172 موقع الألوكة، 8 مارس 2022.

وجدير بالذكر في بيان الفرق بين التمكين والغلبة، أن التمكين شامل، أما الغلبة فهي أحادية الجانب، إذ يشمل الأول الجوانب الثقافية، الاقتصادية، بينما الغلبة تركز على الجانب الخشن والقوة، وفي الختام فإن الغلبة تُعد إحدى أدوات التمكين في مراحل الصراع، ولكنها لا تضمن استمراريته.

3- الفوز: إن دلالة هذا اللفظ تشير إلى معنى النجاة والفلاح، وتحقيق المطلوب والنجاة من المكروه، وهو أعم من النصر، وقد ورد لفظ الفوز في القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة، وكان ورودها بصيغة الماضي، والمضارع، والمصدر واسم الفاعل¹.

وحملت الفظة دلالات متعددة منها:

- أن الفوز الحقيقي في زحزحة المرء عن النار إلى الجنة.
- أن الفائز الحقيقي هو من يطيع الله ورسوله.
- أن الفوز العظيم يكون بالخلود في الجنة ورضا الله تعالى.
- أن الفائز من يصرف الله تعالى عنه عذابه
- أن رحمة الله تعالى هي الفوز العظيم²
- تعريف الفوز: الفوز لغة: الفاء والواو والزاي كلمتان متضادتان، فالأولى: النجاة، والأخرى الهلاك.
- فمن الأولى قولهم: فاز يفوز، إذا نجا، وهو فائز، وفاز بالأمر: إذا ذهب به وخلص، ويقال هذا لمن ظفر بخير وذهب به، والكلمة الأخرى قولهم: فوز الرجل إذا مات وهلك³
- اصطلاحاً: الفوز هو "الظفر بالخير مع حصول السلامة"⁴
- ومن هذا المنطلق، فالفوز من المعاني التي يغلب على دلالتها حسب ورودها في القرآن طابع الجزء الأخروي، الذي يؤكد حسن الفعل في الدنيا، ليكمل بحسن الجزء في الآخرة، عند الفوز بالجنة ونعيمها.
- وإن التمكين يهدف إلى تحقيق هذه المرتبة من الفوز في الدنيا، عند الظفر بالمكانة والثبات، والاستقرار

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 527.

² - رمضان خميس، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 16.

³ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج 4، ص 459.

⁴ - الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، مرجع سابق، ج 1، ص 647.

على الملك، وأعلى درجات هذا الفوز عند التمكين لدين الله تعالى، وإقامة شرعه، ليتحقق بذلك الفوز الأخروي، بجنان النعيم وحسن الجزاء والثواب.

وتماشيا مع ما تم ذكره، نقف على بعض الفروق الفاصلة بين التمكين والفوز، فنقول أنّ التمكين مرتبط بالغاية العليا، والمقصد الأسمى من الوجود وهو الاستخلاف، أما الفوز فقد يكون دنيويا؛ في تجارة أو منافسة ومنصب، كذلك فإن التمكين عملية ومسيرة شاملة، من الإنجازات والانتصارات، أما الفوز فهو نتيجة وحصيلة الوصول للهدف، ما يعني بذلك أن الفوز نتيجة من نتائج التمكين، وليس جوهره.

4- الاستخلاف:

وهو الغاية النهائية من الوجود الإنساني، والتي تعني تولية الأمة منصب الخلافة في الأرض، لعمارها بالعدل وإقامة دين الله.

ولقد وردت لفظة "الاستخلاف" في القرآن الكريم، على صيغة استخلف، يستخلف بصيغة الماضي والمضارع، وخليفة ومُستخلف، وخلائف وخلفاء، وغيرها من المشتقات التي لا تعني هذا المفهوم، مثل لفظ خُلف، الخوَالف، وخِلاف وغيرها¹.

والآيات التي تشير إلى معنى قريب من التمكين خمسة هي؛ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الأنعام/133.

﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/129.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رِئَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ هود/57.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور/55.

ودارت الكلمة على المعاني الآتية:

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 239-240.

- أن الله يستخلف من يشاء من عباده، ويمكن لمن حقق شروطا معينة منها؛ الإيمان والعمل الصالح.
- ووردت على لسان نبي الله هود، وهو يهدد قومه بأنهم إن تولوا استخلف قوما غيرهم، ولا يضررونه شيئا، فإن الله على كل شيء حفيظ.
- ووردت في حديث نبي الله موسى وهو يعظ قومه ويذكرهم بسنة الله في الاستخلاف، "فيرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله، واستخلاف الصابرين المستعنين بالله وحده، فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجري بهم سنة الله إلى ما يريد، وهو يعلمهم أن استخلاف الله لهم؛ إنما هو ابتلاء لهم، ... إنه استخلاف للامتحان: "فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"¹
- مفهوم الاستخلاف:

لغة: الخاء واللام والفاء في خلف، بمعنى أن يجيء شيء بعد شيء فيقوم مقامه، فالخلف-بفتح أوله ووسطه- ما جاء بعد الشيء، يُقال: هو خَلَفُ صدق من أبيه، أو هو خَلَفُ سوء من أبيه، فإذا لم يذكر في الكلام خيرا، ولا سوء قيل للجيد: خَلَفُ، وللرديء خَلَفُ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ مريم/59.²

اصطلاحا: هو القدرة على عمارة الأرض والإصلاح فيها، لا القدرة على الهدم والفساد، وقدرة على تحقيق العدل والحق والأمان، والطمأنينة في الأنفس والمجتمع، لا القدرة على الظلم والقهر، والترويع، وهو القدرة على السمو الروحي والرقى الاجتماعي المادي والمعنوي³.

إن حقيقة الاستخلاف في الأرض ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله؛ على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخلقته أكرمها الله⁴.

وجدير بالذكر أن الاستخلاف " يعني تشريف الإنسان الخليفة، من خلال المهمة الجليلة التي أُسندت له، وأُنيطت به وحده من بين سائر مخلوقات الله تعالى على كثرتها وتنوعها"⁵، فيه تتحدد؛ العلاقة بين المستخلف "الله

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1356.

² - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ص309.

³ - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص293.

⁴ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2529.

⁵ - الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1996، ص88.

تعالى"، والمستخلف "الإنسان" والمستخلف فيه وهو "الكون"، وثمره هذا الاستخلاف هي تسخير عالم الشهادة، لأن الكون كله محل شواهد، وأدلة وآيات تدعو للنظر والتأمل والبحث فيها للاستفادة منها، وتسخيرها بما يخدم الإنسان.

أضف إلى ذلك، ففي مفهوم الاستخلاف يتحقق إظهار الإنسان لربوبية الله تعالى، وألوهيته في الأرض، ذلك أنّ "خلافته في الأرض مشروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه، فيستقيم هذا الكائن على هدى الله ومنهجه وشريعته، وأن يخلص العبودية له، وألا يدّعي شيئاً من خصائص الألوهية، وأن يجعل سعيه كله لله الذي استخلفه في هذا الملك العريض، وأن يحكم منهج الله في ذاته وفي حياته، وإلا تعرضت حياته كلها للفساد، وتعرضت أعماله كلها للبطلان"¹، فيتضح بجلاء، شروط الخلافة على الأرض، وأن من استخدم نعم الله في الظلم، سلب هذه النعم والخيرات، ونزع سلطانه، وأعطى هذا الملك من يقوم مقامه، ويخلفه بين الناس وينشر العدل والإصلاح، ويتبع هدى الله ومنهجه في الحياة.

لكن الاستخلاف ليس علامة دالة على الصلاح عكس التمكين، فقد يستخلف الله في الأرض المظلومين غير الصالحين، وإن رجعوا وتابوا أتاهاهم الله بالتمكين، قال تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأعراف/ 129، ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/ 129، فالآية القرآنية تتحدث عن قهر فرعون لبني إسرائيل، وما تعرضوا له من بطش وظلم وإذلال، ثم جاء الأمر على خلاف ما أراده بنصرهم، وإذلاله واغراق جنده.

وتأسيساً على ما تقدم، نستخلص بعض الفروقات بين التمكين والاستخلاف، رغم التلازم الواضح بينهما، لأن "الخلافة تتضمن معنى التمكين في الأرض، والسيطرة عليها والهيمنة على مافيهما، والقدرة على التصرف في أمورها، كما تتضمن كذلك عمارتها"²، فالتمكين ثمرة من ثمرات غاية الاستخلاف العظيمة، كما أن التمكين عملية بشرية تحتاج إلى العمل واتخاذ الأسباب، بينما الاستخلاف هو الوعد الإلهي الذي يتحقق عندما تستكمل الأمة شروطها، "فإذا تحقق الاستخلاف وفق سننه وشروطه الصحيحة، كان ذلك عاملاً وسنة من سنن التمكين في الأرض، وقد جاء التمكين كنتيجة مطردة وقضية حتمية بعد الاستخلاف"³.

1 - سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 1997م، ص369.

2 - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص37.

3 - محمد هيثور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص293.

5- الإرث: يشير هذا اللفظ إلى تملك الأرض والسلطة، والمقومات المادية والمعنوية بعد زوال أهل الباطل والظلم.

وقد ورد لفظ الإرث في القرآن الكريم مرات متعددة بألفاظ متباينة، وورد بالمعنى الذي يدل عل القريب من التمكين سبع عشرة مرة¹، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ النمل/16، وورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مريم/40، وورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/105، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الأعراف/100، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ الأحزاب/27، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الأعراف/137، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الدخان/28، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الشعراء/59، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف/128.

- تعريف الورث:

- لغة: هو الانتقال، فورث فلانا المال، ومنه، وعنه، يَرِثُهُ ورثا، وورثا، وإرثا ووراثته: صار إليه ماله بعد موته، ويقال ورث المجد وغيره.²

- اصطلاحا: انتقال المال من المورث إلى وارثه، بسبب من أسباب الإرث، وهو ما جاء في تفسير: "أورثكم أرضهم" بمعنى: ومَلَكَكُمْ بعد مهلكهم أرضهم، يعني مزارعهم ومغارسهم وديارهم، يقول: ومساكنهم وأموالهم، يعني سائر الأموال غير الأرض والدور³.

واستعمل القرآن هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الأعراف/137، في نزول قوم ديار قوم بعدهم بما صبروا، وجاءت هذه الآية مقابلة لقول موسى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/128-129، فلما بين الله تعال إهلاك القوم بالغرق

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص748.

² - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص1024.

³ - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج20، ص250.

على وجه العقوبة بين ما فعله بالمؤمنين من الخيرات، وهو أن الله تعالى أورثهم أرضهم وديارهم، فتحقق الوعد بالاستخلاف، وورد اللفظ أيضا في قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها﴾ الأحزاب/ 27، للدلالة على أخذ المؤمنين أموال بني قريظة بعد حربهم وإجلاتهم عن المدينة المنورة وإذا كان الله قد جعل المستضعفين يرثون الأرض فقد منّ عليهم بأن جعلهم أئمة في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص/5

وتماشيا مع ما تم ذكره، فمفهوم الإرث في القرآن الكريم، يتصل بفكرة الخلافة على الأرض، حيث يرث الإنسان الأرض ويُعهد إليه عمارتها وتحقيق العدل فيها، مع العلم الكامل واليقين التام، بأن "الأرض ليست رهن تصرف الملوك والزعماء، والأمم والدول بقدرتها الذاتية فتدوم لها، فإنما هي لله تعالى، وله سبحانه سنة في سلبها من قوم، وجعلها إرثا ممكنا لقوم آخرين، بمحض مشيئته وحكمته، وسلطانته وعلمه"¹.

ولعل من نافلة القول التأكيد على كون التمكين يبني قوة ذاتية مستقلة، مما يجعله حالة مستقرة ومستدامة، أما الإرث فقد يكون هشاً وعرضة للزوال، لأنه لم يبن على أسس متينة، ومن حيث الدلالة القرآنية، فالتمكين يرتبط غالبا بوصف المؤمنين العاملين الصالحين، أما الإرث فيرتبط بوصف المستضعفين، الذين ينقلهم الله إلى موقع القيادة، بعد زوال الطغاة.

ونقطة أخيرة نود الإشارة إليها، وهي التحذير من خطر مفاده؛ انتظار إرث الأرض، دون بذل جهد التمكين الذي يوهل له، فقد يرث الجيل الذي لم يعيش معاناة التمكين دولة قوية، فيسيء إدارتها ويفقدها، لأنه لم يبذل الجهد الذي بذله الآباء المؤسسون، لذلك فإن الإرث فرصة وامتحان، وليس ضمانا للخلود، والتمكين هو الضمانة الحقيقية لاستمرارية هذا الإرث وتثميته.

وتأسيسا على ما تقدم بيانه، حول مرادفات لفظ "التمكين" وما ينبثق عنه من ألفاظ مقاربة، يمكن القول أن التمكين هو المفهوم الأساسي الذي يدل على القدرة والسيادة، التي تهيئ الأرض للفوز والنصر، والظفر والغلبة، إنه يتضمن التفويض الإلهي المتمثل بالاستخلاف، ويتصل أيضا بتوارث السلطة أو المكانة من خلال الإرث، هذه المفاهيم ليست مجرد كلمات متفرقة، بل هي منظومة متكاملة تشير إلى ديناميكية العلاقة، بين الإرادة الإلهية والجهد البشري، في إعمار الأرض وتحقيق العدل.

وختاما يمكن القول، أن التمكين في الفكر الإسلامي، ليس مجرد مفهوم واحد، بل هو نسيج من المعاني

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج9، ص482.

المتشابهة، التي تؤسس لإطار عمل شامل للإنسان في الأرض، هو منطلق القوة، أساس للنصر، وسبيل لتحقيق العدل والاستخلاف، والذي يؤول في النهاية إلى إعمار الأرض وبناء حضارة إنسانية راشدة، هذه المفاهيم تبرز أن القوة والسلطة الحقيقية، لا تكمن في الجوانب المادية فحسب، بل في الارتباط الوثيق بالمنهج الإلهي والالتزام بالقيم والأخلاق الفاضلة.

المبحث الرابع: أهمية فقه سنن التمكين في بناء العمل الدعوي.

تعتبر سنن التمكين من المفاهيم الأساسية في العمل الدعوي المعاصر، حيث تلعب دوراً محورياً في توجيه الجهود الدعوية، نحو تحقيق أهداف سامية تتعلق بنشر الإسلام، وتعزيز قيمه في المجتمعات، وبالتالي فإن دراسة سنن التمكين تكتسي أهمية بالغة وعظيمة، وذلك بالنظر إلى مدى تأثيرها في العمل الدعوي، فهي قوانين يخضع لها الوجود البشري، وتحكم أفعاله وتصرفاته، ويمكن النظر إلى الأهمية التي تكتسبها دراسة سنن التمكين باعتبارها تحقق فائدة من ناحيتين؛ الأولى نظرية معرفية، والثانية عملية وظيفية.

المطلب الأول: الأهمية النظرية والمعرفية:

تُعَدُّ الأهمية النظرية والمعرفية لدراسة سنن التمكين بمثابة الإسهامات الفكرية والعلمية التي تُثري العقل المسلم، وتُمدُّه بأطر منهجية لفهم سنن الله في الكون والمجتمع. وتتجلى هذه الأهمية في عدة جوانب، من أبرزها: تُشكِّل معرفة السنن مدخلاً لمعرفة الله تعالى، وتُعَدُّ من أشرف العلوم لارتباطها بمعرفة الخالق من خلال أفعاله وأحكامه وسننه في خلقه، مما يجعلها علماً محموداً يستحق البحث والاستقصاء، كما أن بناء مشروع حضاري إسلامي معاصر يتوقف على إصلاح منهج التفكير لدى المسلمين، وتحريره من العوائق الذاتية التي أعاقته عن التفكير السببي، ليصبح المنهج السنني مفتاحاً لحل إشكاليات الأمة وتخليصها من أزمتها الفكرية والعملية، حتى عدَّ بعض العلماء من "الواجبات الدينية؛ لدوره في تبصير المسلمين بالسلوك القويم، وتحذيرهم من الوقوع في الخطأ والغرور"¹.

ولا يقتصر دور الوعي السنني على "الوقاية من الأزمات قبل وقوعها، بل يتعداه إلى كونه دليلاً للتعامل معها، وإدارتها بعد حدوثها، بما يوفره من عبر ودروس تُعين على فهم كيفية تتجاوز التحديات"²، وبالتالي فإن نخضة الأمة اليوم، في جميع مجالاتها تتوقف على امتلاك واستحضار هذا الفهم السنني، مع محاولة تنزيله في واقع الحياة الإنسانية بوعي، لإعادة بناء الإنسان روحياً عقائدياً، وأخلاقياً سلوكياً، ليكون مؤهلاً بذلك لإقامة مجتمع صالح، يخلو من الآفات والانحرافات والأزمات، بفضل هذا المنهج الأخلاقي القيمي الرباني.

ومن هذا المنطلق فالعلم بالسنن يعيد للتفكير الإسلامي؛ النظر في منهجية التعامل مع الوحي الإلهي، كما يصحَّح النظرة إلى الذات، فيدرك أن الجزء من جنس العمل، وأن الريادة والقيادة الحضارية لها أسباب وشروط

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات، مرجع سابق، ص 16-17.

² - عمر عبيد حسنة، المنهج السنني أفق حضاري متجدد، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان، ط1، 2009، ص30.

مقتنّة، "فالعلم بالله وبصفاته وأفعاله هو معراج الكمال الإنساني، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني أنه أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء".¹

كما لا يفوتنا أن ننوّه بأن وجود هذه السنن؛ دليل على وجود خالق عظيم لهذا الكون، فالحياة لا تسير عبثاً أو صدفة، بل إنّ لها نظاماً دقيقاً يحكمها ويوجّه سيرها، ومن ثمّ فإنّ إيمان العبد يزداد كلما زاد تعرّفه على هذه السنن وإدراكه لأبعادها المختلفة وأسرارها المتنوعة، وفي السياق ذاته فإنّ من الثمرات التي نجنّها من فهمنا لطبيعة السنن ثمرة الإيمان، بأن ندرك مثلاً؛ أن هذا الكون ما كان له أن يقوم، على هذه الصورة البديعة من التناسق والجمال، والتوازن والاستقرار، لو لم يكن خالقه ربّاً واحداً، حكيماً، عالماً، مريداً خبيراً، قوياً، عظيماً، محيطاً بكل شيء، وقادراً على كل شيء.²

ولعل ما يزيد هذه السنن أهمية كونها مبثوثة في كتاب عظيم، هو القرآن الكريم الذي يدعونا لتأمل هذه السنن وتدبرها والعمل بها، وبالتالي فإن معرفة هذه السنن يزيد من فهمنا للقرآن الكريم وإشاراته لموضوع السنن المتكررة، الذي يعد إعجازاً يضاف إلى أنواع الإعجاز الأخرى، كيف لا؟ وإنّ القرآن يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا في الحياة، "فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبّع النواميس، فإذا هم درسوا وأدركوا مغايرتها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيّن لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبّعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على شعار الإسلام دون حقيقته لينالوا النصر والتمكين".³

بالإضافة إلى ذلك فإن السنن لها دور كبير في تجلية معالم المستقبل وفق منظور قرآني، لأنها تعطينا صورة تفسيرية لما حل بالأمم السابقة، لاعتبار أن حركة التاريخ تخضع لقوانين ثابتة تحكمها، نستطيع من خلالها تفسير الأحداث والوقائع، بإدراك أسباب قيام الحضارات وسقوطها، ما يعني بذلك التفسير السنني لتاريخ الأمم، بما فيها تاريخ الأمة الإسلامية التي احتلت الصدارة وكانت لها القيادة على سائر الأمم، وكيف سقطت من عليائها وأوج

¹ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج7، ص500.

² - أحمد كنعان، أزمنا الحضارية، مرجع سابق، ص 105.

³ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج1، ص478.

حضراتها، وما آلت إليه من أوضاع متردّية تستوجب البحث، والتقصي لفهم مواطن الخلل، واستدراك أمثل السبل لإعادة دورها الحضاري.

وتأسيساً على كل ما تقدم بيانه في أهمية العلم بالسنن الإلهية عامة، نخلص إلى جملة من النقاط المهمة في بيان الأهمية النظرية المعرفية، لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر. وهو محور دراستنا، فنقول أنّ سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر تشكّل أهمية نظرية ومعرفية بالغة، حيث تقدّم إطاراً شاملاً لفهم كيفية تحقيق التأثير الفعّال والمستدام للدعوة، في المجتمعات الحديثة، ومن الجوانب الأساسية لهذه الأهمية النظرية المعرفية ما يلي:

- تأسيس إطار معرفي ومنهجي شامل للدعوة وإثراء الفكر الدعوي: تساعد سنن التمكين على تحليل البيئة الدعوية بكل تعقيداتها؛ من تحديات العولمة، التكنولوجية، الإعلام...، وكذا تجاوز الجانب الوعظي لتشمل الجوانب الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية والثقافية، فتقدّم إطاراً نظرياً متكاملًا لفهم آليات التمكين وتفسير ظواهر النجاح أو الفشل في العمل الدعوي، عبر تحليل السنن الإلهية؛ كالابتلاء، التغيير، التدافع، وبالتالي فهي تُعين على تحديد الأولويات، وصياغة استراتيجيات تتناسب مع سياق التمكين، فلا يكفي مجرد الوعظ، بل يتطلب الأمر بناء مؤسسات، وتأهيل كوادر وتفعيل طاقات المجتمع، مع التركيز على التخطيط طويل المدى.

- فهم أعمق للعلاقة بين النص والواقع وتوجيه العمل الدعوي: تُعتبر السنن التمكين استنباطات من النصوص الشرعية، وسير الأنبياء والمصلحين، مما يعزّز الاعتماد على المنهج الرباني في فهم الواقع، وتوجيه العمل الدعوي، إذ يتمكن الدعاة من تفسير الفتن والتحديات بفهم أعمق، بناءً على سنن إلهية ثابتة، فيقفون على نقاط الخلل على مستوى التطبيق المعاصر لأساليب الدعوة ووسائلها، ويسعون لتوجيهها وتصحيحها، وتحديد الأولويات المناسبة للمشروع الدعوي.

- مواجهة التحديات الفكرية وبناء الرؤية الاستراتيجية: إن سنن التمكين من شأنها أن تقدّم نقداً بناءً للنظريات الوضعية، بمنظور سنني شرعي، وتقدّم بديلاً معرفياً يستند إلى الثوابت الشرعية؛ المتمثلة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، مع مرونة في التطبيق، تُحلّل من خلالها عوامل القوة أو الضعف التي تعيشها، وعاشتها الأمة عبر سنين، لتقييم الأداء الدعوي وتصميم خطط دعوية طويلة المدى؛ وفق سنن التدافع والتداول الحضاري.

- تعزيز فعالية الخطاب الدعوي وبناء الكوادر المؤهلة: تُسهم سنن التمكين في بناء خطاب دعوي، لا يكتفي بالوعظ بل يقدّم خططا عملية للمشكلات المجتمعية، ويلامس احتياجات الواقع ومتطلباته، ومن جهة أخرى تمكّن الدعاة من تطوير قدراتهم ومهاراتهم، بما يتناسب مع متطلبات التمكين، سواء على مستوى الأفراد؛

بالصبر واليقين والتوكل وطلب العلم، أو على مستوى الجماعة؛ بالتنظيم والتخطيط والشورى وبناء المؤسسات، وهذا ما ينعكس إيجاباً على تنمية حس المسؤولية تجاه المجتمع وقضاياه، فلا تنحصر الدعوة في الجانب الروحي الفردي فقط، بل تمتد لتشمل الإصلاح الشامل والمتكامل للمجتمع.

- ترسيخ الوعي بمنهج الأنبياء والمرسلين والحماية من الانحرافات: تقدم سنن التمكين تطبيقاً عملياً للمنهج النبوي في بناء الأمة وتغيير الواقع، وتعزز الإيمان بأن التمكين ليس مجرد أمنيات، بل هو نتيجة حتمية وطبيعية للأخذ بسنن الله الكونية والاجتماعية، وهذا ما يساعد الدعاة على مواجهة اليأس والإحباط عند تأخر النصر أو غيابه، فهو ليس مجرد حدث عشوائي عارض، بل هو حصيلة جهد وتوافر مجموعة شروط منها المادية والمعنوية.

وخلاصة القول في بيان الأهمية النظرية المعرفية، لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، أنها تعتبر بمثابة عدسة تحليلية ومنهجية لبناء عمل دعوي مستنير، فعال ومستدام وقادر على مواجهة تحديات العصر، واغتنام الفرص لتبليغ رسالة الإسلام، فهذه السنن تهدي الدعاة إلى فهم مختلف لواقعهم ومهمتهم، فتزودهم بالأدوات اللازمة لإحداث تأثير إيجابي على الأفراد والمجتمعات.

المطلب الثاني: الأهمية العملية والوظيفية:

يمثل الوعي بسنن التمكين - التي تجمع بين البعد الرباني والبعد العملي - مدخلاً أساسياً لفهم حكمة الله تعالى وعظمته في تديبره للوجود الإنساني. فكل آية في الكون تشهد على وحدانية الخالق وسعة علمه، وتُعد إرثاً معرفياً للإنسان. وهذا الوعي يمكن من توظيف هذه السنن في القياس على تجارب الأمم السابقة، والاستعانة بها في فهم الحاضر واستشراف المستقبل وشروط التمكين فيه. "فسنة الماضين - وفق المنظور القرآني - تمثل دعماً للبشر وعوناً لهم في تجنب تكرار الأخطاء، حيث تشكل التجارب البشرية الممتدة عبر العصور والأُمم تراثاً من العبر لجميع الناس"¹، مما يساهم في بناء أمة قوية صالحة تتبوأ مكانتها في المصاف الحضاري.

ومن هذا المنطلق، " فإن الحركة الدعوية للأنبياء تشكّل -عبر المسار التاريخي- نسقاً مترابطاً، ومستمرّاً يهدف إلى بناء الوعي الإنساني في بعده الجوهريين؛ الأول يتعلق بإدراك مكانة الإنسان ومسؤوليته في الكون "دورته الوجودية"، والثاني يرتبط بفهم موارد التسخير الإلهي، الموضوعة تحت تصرفه لتمكينه من أداء وظيفة الاستخلاف في الأرض على النحو الذي يحقق المقاصد الربانية"².

¹ - جودت سعيد، حتى يغيّروا ما بأنفسهم، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ط8، 1989، ص128.

² - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 2004، ص46.

وبالتالي فإن هذه السنن تُضفي المعنى والغاية للوجود الإنساني، فتحول الحياة من وجود عشوائي إلى مسار هادف، محكوم بحكم إلهية، وتحدد الأدوار والمسؤوليات بشكل واضح، فيفهم الإنسان دوره كخليفة في الأرض، لا مجرد الوجود السلبي، وإدراك مسؤولية التعمير والبناء كجزء من المنهج الإلهي.

ومن زاوية أخرى، "تُظهر الدراسة التحليلية أن الانزياح عن استقرار سنن التمكين الكونية، وإغفال التفاعل معها منهجياً - فهماً وتطبيقاً - يؤدي إلى حالة يمكن توصيفها بـ"العمى السُّنني"، التي يتمثل مآزقها في التناقض بين التسليم النظري بوجود هذه السنن من ناحية، وغياب السعي المنهجي لاستكشافها وتسخيرها في الواقع العملي من ناحية أخرى، وقد أودع الله تعالى هذه السنن في الكون لتكون أداة مساعدة للإنسان في تحقيق التقدم على المستويات المعرفية والروحية والعمرائية، وتمكينه من أداء مهمة الاستخلاف في الأرض، وفتح آفاق التعمق في ملكوت السماوات والأرض، من خلال سلطان الوعي بالسُّنن المستنير بمداية الوحي. وبامتلاك هذا الوعي السُّنني، ينتقل الإنسان من حالة الانقياد لفوضى القوى الطبيعية، ومن تجاوز حدود الذاتية، إلى حالة الفاعلية المسؤولة"¹ المنظومة الكونية

وقماشياً مع ما تم ذكره فإن العمل الدعوي، يتطلب فهماً عميقاً للسنن الإلهية وكيفية تطبيقها في السياقات المعاصرة، حيث يجب أن يكون هناك وعي بأهمية التمكين كوسيلة لتحقيق الأهداف الدعوية، مما يتطلب استراتيجيات فعالة تتماشى مع أبرز التغيرات الثقافية، الاجتماعية، السياسية..

كما تجدر الإشارة إلى أن التفریط في سنن التمكين، وإغفال معرفتها والتدبر فيها، سبيل لاستنزاف الكثير من طاقات المسلمين، وضياع المزيد من الجهود وتعرُّر الخطوات نحو طريق البناء الفكري والشهود الحضاري، حيث تشير التحليلات الموضوعية إلى أن أحد "الجزور العميقة للأزمة الحضارية للأمة يتمثل في القصور المنهجي في فهم سنن الله الكونية والاجتماعية والاستفادة منها، وفقاً للمنهج الاستقرائي التجريبي الذي أكدّه القرآن الكريم وسيرة النبوة، وقد أدى هذا القصور إلى حالة من الضعف الشامل جعلت الأمة فريسة للهيمنة الاستعمارية التي ما تزال تُخيم بظلالها عليها.

وإذا كانت الأمة قد واجهت هذه الهيمنة عبر مقاومة عسكرية وسياسية، فإن الجانب الأكثر خطورة - وهو المعركة الفكرية والمنهجية - بعيداً مُعَيَّناً، فانهيار البنى الفكرية، وتراجع الوعي المنهجي، وغياب التبصّر بالسُّنن الإلهية، يشكل جميعاً البيئة الخصبة التي تُمكن لاستمرار الهيمنة بصورها المعاصرة.

¹ - عبد العزيز برغوث، "ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، إسلامية المعرفة، العدد 49، السنة 13، 2007، ص 21.

وليس الخروج من هذا المأزق الحضاري ممكناً إلا بالعودة إلى منهجية الوحي، ودراسة القوانين والسنن الإلهية التي تضمنها، وإعادة قراءة التاريخ والتراث قراءة نقدية تستخلص الدروس من مراحل الاضمحلال والانحلال. فالتصور الذي ظن أن المواجهة العسكرية والسياسية -دون رؤية منهجية شاملة - كافية لتحقيق النهضة، كان تصوراً قاصراً لم يأخذ في الحسبان شمولية السنن الإلهية في بناء الحضارات وتداولها¹.

وبالتالي فإن تحقق التمكين للأمة الإسلامية، وعودتها إلى موقعها القيادي والريادي، مرهون بتطبيقنا لسنن الله المسطورة في القرآن الكريم، أين توجب علينا دراسة هذه السنن والتدقيق في فهم معانيها لتخطي واقع العجز والضعف والوهن الذي تتخبط فيه، ووصف الدواء المناسب لهذا الداء العضال، قصد عودة الأمة بذلك إلى فاعليتها الأولى بصلاحها أولاً، ثم إصلاح من حولها في كل المجالات، لأن إدراك سنن التمكين يبعث على العمل والاجتهاد، والإنتاج لا الهزيمة والكسل والانتكاس، وإن العمل الدعوي المعاصر يتطلب خطاباً قوياً ومؤثراً، فتشكّل سنن التمكين بذلك مفاتيح القوة والتأثير لنشر رسالة الإسلام في كافة الأنحاء.

وإضافةً إلى ما سبق، فإن الإحاطة بسنن التمكين تمثل مفتاحاً أساسياً لتحقيق الاستخلاف، إذ تُعدّ السبيل الأقوم لعمارة الأرض عبر حسن توظيف هذه السنن وفهم آليات عملها، فالعلم بالقوانين الإلهية النازمة لحركة الأحداث والوقائع، والوعي بمساراتها ومقتضياتها، بمنح الإنسان قدرة أكبر على التعامل معها، والسيطرة على مخرجاتها، وتسخيرها في أداء الأمانة التي كُلف بحملها، وبهذا يصبح الوعي بالسنن وسيلة عملية للارتقاء بالإنسان والمجتمع نحو تحقيق مهام الاستخلاف والقيام بواجبات إعمار الأرض على الوجه الأكمل²، وأداء واجب الشهود في العالمين قال تعالى: ﴿سَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت/53.

تبليغ الدعوة وتمكينها في القلوب وبناء مجتمعات إسلامية واعية وفاعلة تسعى إلى التجديد والتغيير الشامل، فيكون هناك حكم إسلامي راشد يسود الحكم والنظام العام، ويتحقق الأمن في الأوطان بتطبيق شريعة الله على أرضه في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية....

إن النظر والتأمل في السنن؛ يجعل الإنسان قادراً على التعامل مع سنن الكون والحياة، ومعرفة أسباب البقاء وعوامل الفناء، من خلال تقصي تجارب الأمم السابقة والاستفادة منها، "ولعل من أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه، أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فيهمّل

1 - محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن؟، نخبة مصر، مصر، ط7، 2005، ص52-53.

2 - رمضان خيس الغريب، مفهوم السنن الربانية، دراسة في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص6.

نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس، على أساس السنن المودعة فيها"¹، وهذا مكن الضرورة بالنسبة لسنن التمكين في العمل الدعوي، أين ترصد نقاط القوة والضعف من تجارب الأولين، فتتحدى بالأولى وتتحدى عن الثانية، لبلوغ أهداف الدعوة وتحقيق مكاسبها.

ونقطة أخرى نشير إليها في هذا السياق وهي مسألة جوهرية تتعلق بأهمية السنن، "ومؤداها أنّ اكتشاف القوانين الإلهية وفهم آليات عملها هو العامل الحاسم الذي منح الأمم المتقدمة القدرة على النهوض والتحكم في مسارات التطور، وفي المقابل، فإنّ غفلة المسلمين عن هذه السنن كانت من أبرز أسباب التراجع والانحطاط، إذ انتقلوا من موقع الفاعلية والتسخير إلى موقع المفعولية والخضوع، وما كان ذلك إلا يوم ابتعدوا عن منهج القرآن.

فالقرآن الكريم والدين الإسلامي ليسا مسؤولين عن حالة الضعف والتخلف، بل إنّ الحقيقة تؤكد أنّهما يشكّلان مصدراً للقوة والفاعلية متى فُهما على الوجه الصحيح، وتمّ التعامل مع سننهما بالتدبر والعمل. ولو استعاد المسلمون وعيهم بهذه السنن، واستثمروا ما فيها من قواعد للهداية والبناء والعمران، لامتلكوا من عناصر القوة والعزة ما يؤهلهم للقيام بدور الشهادة على الناس وقيادة مسيرة الحضارة"².

وفي الختام يمكن القول أنّه عندما تطبق سنن التمكين بفاعلية، فإنّها ترفع من مكانة الدعوة الإسلامية، وترسخ قواعدها في المجتمع، ويتحقق ذلك من خلال الممارسات العملية مثل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الأعمال ليست مجرد شعائر، بل هي تجليات للاستقامة التي تضمن استمرار التمكين، وتُظهر صحة المنهج الدعوي، كما أن هذه السنن تمكّن من تشكيل عقلية منهجية لدى الدعاة، تمكنهم من التخطيط السليم، واختيار الأساليب الدعوية المناسبة، والتغلب على التحديات والمعوقات.

أضف إلى كل ما تقدم أن سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، بمثابة البوصلة الإلهية التي ترشد الدعاة والعاملين في سبيل الله نحو النجاح والاستدامة، فهي ليست مجرد قائمة من القواعد، بل هي منهج حياة متكامل يتطلب الإعداد المستمر، والتخطيط الدقيق، والصبر على المحن والعمل الجماعي المتقن، ليكون العمل الدعوي فاعلاً ومؤثراً وقادراً على إحداث التغيير الإيجابي المنشود.

¹ - رمضان خميس الغريب، مفهوم السنن الربانية، دراسة في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 39.

² - هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية - دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي -، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، تخصص دعوة وإعلام، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012-2013، ص 88-89.

وختاماً يمكن القول، أن سنن التمكين ضرورية في العمل الدعوي المعاصر، فهي تشكل إطاراً معرفياً وتطبيقياً حيويًا له، حيث توفر منهجاً إلهياً متكاملًا لتحقيق النصر، ونشر الدعوة الإسلامية، فهذه السنن المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية، ليست مجرد نظريات مجردة، بل هي آليات ربانية تصف الشروط والأسباب التي تؤدي إلى تمكين دين الله في الأرض، وتطبيقها يمكن الدعاة من التعامل بفعالية مع تحديات العصر، وصياغة خطط عمل استراتيجية، لتجنب الانتكاسات التي قد تنجم عن الرؤى العشوائية والسطحية.

ولعله من المناسب أن نقف في نهاية هذا الفصل، الذي كان تحت عنوان: "الإطار النظري والمفاهيمي لسنن التمكين"، والذي يُعدّ لبنة أساسية في الدراسة، على خلاصة جامعة لما ورد في مباحثه الأربعة المتكاملة، فنقول:

- تناول المبحث الأول من هذا الفصل؛ تأصيل المفهوم العام للسنن الإلهية، باعتبارها المناهج والقوانين والنواميس الثابتة التي أودعها الله تعالى، لتدبير شؤون الخلق وقوانين الكون، فهي تحكم مسار الظواهر والأحداث، لتنعكس الآثار وفق نسق وظيفي حضاري، يحفظ هوية الأمة ويوجّه سيرورتها التاريخية، كما تم تصنيف هذه السنن إلى أنواع رئيسية، شملت السنن الكونية في عالم الآفاق، وللإنسان إمكانية تسخير هذه الماديات، وهناك نوع آخر وهي السنن الاجتماعية في عالم الأنفس، غايتها امتحان هذا الإنسان، وتحقيق الاستخلاف في الأرض وفق منهج الله.

- انطلق المبحث الثاني من المفهوم العام للسنن الإلهية إلى التركيز على مفهوم سنن التمكين كفرع خاص منها، مع التركيز على أنها المنهج الإلهي الذي يؤدي - عند تطبيقه - إلى نيل القوة والعزة في الأرض، تنتقل من خلاله الأمة من حالة القابلية للاستعمار إلى القدرة على الاستخلاف، لأنها تفي بشروط التمكين، وتحقق غاية وجودها في الحياة، ثم أسقطنا هذا التعريف على العمل الدعوي المعاصر، لنجدها جملة القوانين الإلهية الثابتة، والمنهجية التي تنظم مسيرة العمل الدعوي، من طور الدعوة الفردية المحدودة، إلى طور التأثير المجتمعي الشامل، وذلك من خلال خطط استراتيجية مرنة، تتفاعل مع واقع العصر وتحدياته، لتحقيق غاية الدعوة؛ بإقامة دين الله في الأرض.

وتميزت هذه السنن بخصائص أساسية كالربانية، الثبات والاطراد، الحتمية والنفاذ، العموم والشمول، وغيرها من الخصائص كالواقعية، التسخير، الحكمة والعدل.

- أشار المبحث الثالث بعد تتبع دلالة مصطلح "التمكين" في المصدرين الأساسيين للتشريع: القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث تبين ورود المفهوم بصيغ مرادفة مثل؛ النصر، الغلب، الفوز، الاستخلاف، الإرث، وكشف التحليل أن التمكين في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية يتجاوز المعنى اللغوي، للقوة والسيطرة ليلامس جوهر إقامة الدين، والعدل في الأرض، فهو حالة شاملة تتضمن الاستخلاف في الأرض، وإقامة الشريعة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وضمان العيش الكريم للأفراد، أضف إلى ذلك فإن "سنن التمكين" بالاسم المركب، لم تُذكر تصريحاً في القرآن الكريم، لكنّ الله تعالى أقام دليلها، وحدّد شروطها، وسرد قصصها، ووعد بتحققها، مما يجعلها بذلك حقيقة قرآنية راسخة، وقانوناً إلهياً يحكم حركة التاريخ والأمم والمجتمعات.

ختمنا المبحث الرابع بتأسيس الرابط الجوهرى، بين الفقه النظري لسنن التمكين وتطبيقه العملي في مجال الدعوة الإسلامية، حيث تم إبراز الأهمية النظرية التي تمنح الدعاة إطاراً منهجياً لفهم حركة التاريخ، وتصحيح مسار العمل الدعوي. كما تم تسليط الضوء على الأهمية العملية، التي تتجلى في تشكيل عقلية منهجية لدى الدعاة، تمكنهم من التخطيط السليم، واختيار الأساليب الدعوية المناسبة، والتغلب على التحديات والمعوقات للاستقامة على الطريق الذي يضمن استمرار التمكين.

- وفي ختام هذا الفصل، نقول أنّ بناء أي مشروع دعوي معاصر؛ فاعل ومؤثر، لا يمكن أن يتم بمعزل عن الفقه العميق لسنن التمكين. فهي تشكل الخريطة المنهجية والبوصلة الاستراتيجية التي تضبط مسار العمل الدعوي، وتزيد من فرص نجاحه واستدامته، وتحوّله من عمل عشوائي يراهن، إلى عمل مؤسسي منهجي يراهن على سنن الله الثابتة في تحقيق النتائج، وبذلك يكون هذا الفصل قد هيا الأرضية النظرية اللازمة لتطبيقات عملية في المباحث اللاحقة.

الفصل الثاني:

سنة التمكين الكبرى وأثرها في العمل الدعوي

المبحث الأول: سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

المبحث الثاني: سنة الأخذ بالأسباب وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

المبحث الثالث: سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

المبحث الرابع: سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

تكشف دراسة سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر عن منهج إلهي متكامل ومحكم، يضيء الطريق نحو بلوغ النصر والاستخلاف وعمارة الأرض، فالتمكين لا يعد مجرد حدث عارض أو نتيجة حتمية لأسباب مادية صرفة، بل هو ثمرة حتمية لتطبيق جملة من السنن الإلهية الثابتة والمطردة. ويُعتبر التمكين بحد ذاته سنة ربانية كبرى، تتفرع عنها مجموعة من السنن الفرعية المتلازمة التي تشكل في مجموعها حلقات متصلة كحبات العقد، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. فلا يُدرك التمكين إلا بعد تجاوز المقدمات السننية الأساسية، المتمثلة في سنن الابتلاء، والأخذ بالأسباب، والتغيير، والتدافع، والتداول؛ والتي تمثل في مجملها أسباباً متكاملة لتحقيق السنة الأم "سنة التمكين".

وتجدر الإشارة إلى أن مشيئة الله تعالى قد اقتضت خضوع حركة الأفراد والمجتمعات لسنن ثابتة لا تتخلف، كالابتلاء، والأخذ بالأسباب، والتدرج، والتغيير، والتدافع، والتداول، والتجديد. ومدى تحقق التمكين والاستخلاف في الأرض مرهون بقدرة الاستيعاب والاستثمار المتوازن لهذه السنن، وفق الرؤية القرآنية الشاملة، وبالتالي فإن "أصالة الفعل الحضاري وفعاليته واستمرارية ديناميته عبر التداول والتجدد، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى قدرة الجماعات البشرية المتنافسة على توظيف منظومات السنن التسخيرية الأربع توظيفاً واعياً ومنهجاً، فموقع هذه الجماعات في سلم النفوذ والتمكين والريادة الحضارية، أو ما قد يصيبها من تراجع ووهن وهامشية، إنما يتحدد تبعاً لمدى ما تحققه من استثمار نوعي وكمي في هذه السنن، دون أن يُستثنى من ذلك أيّ جهد بشري ممكن"¹.

وكما أكدنا آنفاً فإن معنى التمكين، كسنة من السنن الإلهية مرتبطة ارتباطاً تلازمياً، وظيفياً مع عدة سنن إلهية كبرى، تشكل دعائم أساسية للقيام عليها، اخترنا منها نماذج للدراسة والبحث؛ تتمثل في سنة الابتلاء، سنة الأخذ بالأسباب، سنة التغيير، سنة التدافع، ذلك أن مسيرة التمكين طويلة وصعبة، بدايتها الابتلاء الذي يمهّد للتمكين، ثم الأخذ بالأسباب وهو شرط له، ويليه التغيير الذي يبدأ بالنفس أولاً، وإن التدافع هو طريق الوصول إليه بالتداول، فالتمكين الحقيقي للعمل الدعوي، لا يتحقق بالأمان والأحلام، بل هو نتيجة حتمية للتفاعل الواعي مع سنن الله في الكون والمجتمع.

¹ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد، مرجع سابق، ص 47-48.

المبحث الأول: سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

أوجد الله تعالى الإنسان في رحلة الحياة هذه، ليعيش ألوانا شتى من المحن والابتلاءات، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الملك/2، وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم يقف على حقيقة متجسدة في واقع الناس وحياتهم، تتمثل في أن سنة الابتلاء تحيط بالإنسان في كافة شؤونته ومراحلها، فهو عرضة للابتلاء بالخير والشر، بالسراء والضراء، بالصحة والسقم، بالغنى والفقر... قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾ الإنسان/2، فالإنسان وُجد وُحِّلَ للابتلاء في هذه الحياة الدنيا، ما يدل بذلك على أن الابتلاء ظاهرة رافقت الإنسان منذ نشأته، فهي سنة ربانية ثابتة مطردة، جارية على جميع البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، أبيضهم وأسودهم، عريهم وعجميهم، على حد سواء دون تمييز أو استثناء، لاختبار الإنسان وتمحيصه وضبط حركته في هذا الكون لأداء وظيفة الاستخلاف على الأرض.

ولهذا نجد تنبيه الطيب برغوث على أهمية وانعكاسات هذه السنة، على كافة جوانب الحياة الإنسانية بقوله: "إن الموقف من كلية قانون الابتلاء، بوصفه قانونًا كليًا حاكمًا لمسار الوجود الإنساني، يترك آثارًا بعيدة الغور على مختلف مجالات حياته بصورة حاسمة. ولذلك أولى القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة الشريفة هذا القانون عناية بالغة، على المستويات العقدية والمعرفية والتربوية والاجتماعية، ضمانًا لبقاء وعي الإنسان وسلوكه متصلين به ومنضبطين بفقهه، وكلما اضطرب هذا الوعي أو تراجع، اضطرب تبعًا لذلك الوعي التوحيدي، ثم انعكس الخلل على الوعي والأداء العبادي، ليتمدد لاحقًا إلى الوعي والفعل العمراني الحضاري، وصولًا إلى الوعي المتصل بالاستعداد للمصير الأخروي، وبذلك يتضح أن الأثر الإيجابي أو السلبي للموقف من هذا القانون يمس جميع أبعاد الحياة الإنسانية، الدنيوية والأخروية على السواء"¹.

المطلب الأول: تعريف سنة الابتلاء وأهميتها:

سبق التفصيل في التعريف بالسنة في الفصل الأول، وقد خلصنا إلى تبني تعريف السنة:

لغة كونها: الطريقة الثابتة والسيرة المطردة، والمنهج المسلول، الهادف لتسيير شؤون الخلق ونظام الكون.

أما اصطلاحًا: هي المنهج الرباني الثابت، في تدبير شؤون الخلق وقوانين الكون، فتظهر الآثار وفق نسق وظيفي حضاري، يحفظ هوية الأمة ويوجّه سيرورتها التاريخية.

¹ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، مرجع سابق، ص53.

1- تعريف سنة الابتلاء

لغة: الابتلاء في اللغة مأخوذ من مادة (ب ل و) التي تدل على نوع من الاختبار، ويكون البلاء بالخير والشر، والله عز وجل يبلي العبد بلاء حسنا وبلاء سيئا، وذلك راجع إلى معنى الاختبار؛ لأنه بذلك يختبر صبره وشكره، وبلوته تأتي أيضا بمعنى جزيته¹.

وجاء في لسان العرب: بلوثُ بلوثًا وبلاءً، وابتليته: أي اختبرته، وبلاه يبلوه بلاءً: إذا جرّبه واختبره... وقال الأعرابي: أبلى بمعنى أخبر، وابتلاه الله: امتحنه، والاسم: البلوى والبلية والبلاء، ويؤلي بالشيء بلاءً².

وقال الفيروز آبادي: "وابتليته: اختبرته، وابتليت الرجل فأبلايني: استخبرته فأخبرني، وامتحنته واختبرته، كما بلوته بلاءً وبلاءً، والاسم: البلوى والبلية والبلاء: الغم كأنه يبلى الجسم، والتكليف بلاءً، لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار، والبلاء يكون منحة ويكون محنة"³

وقد أكد هذا المعنى الأخير من الابتلاء الراغب الأصفهاني، في كونه يكون منحة ويكون محنة، بقوله: "اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالحنة مقتضية للصبر والمنحة أعظم البلاءين"⁴

فيتضح من خلال ما سبق أن الابتلاء يدور معناه اللغوي حول: الاختبار والامتحان بالخير أو الشر، وقد يكون هذا الابتلاء منحة أو محنة، كما يحمل معنى مبالغة الجهد في الأمر، وكلها معاني متقاربة

اصطلاحاً: يمكن تحديد المعنى الاصطلاحي للابتلاء انطلاقاً من أقوال العلماء والمفسرين التي تدور حول:

-الابتلاء بمعنى الامتحان والاختبار، لقول الطبري: "أصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف/168، يقول: اختبرناهم⁵.

وجاء الابتلاء بمعنى النعمة، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ الدخان/33، أي نعمة

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج4، ص472.

² - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج14، ص84.

³ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص1264

⁴ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، ص145.

⁵ - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق، ج2، ص49.

ظاهرة أو اختبار ظاهر لنظر كيف يعملون.¹

ورد في معنى الابتلاء أيضا: التعبد بالشرائع، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد / 31، أي نَتَّبِعْكُمْ بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور، وقيل: ﴿لِنَعْلَمَ لَكُمْ مَعَامِلَةَ الْمُحْتَبَرِينَ﴾²

وتأسيسا على ما سبق فإن معنى الابتلاء اصطلاحا لا يبتعد عن المعنى اللغوي، فهو اختبار وامتحان بالخير أو الشر للإنسان من الله تعالى، ليظهر من خلاله مدى تعبده لخالقه.

وقد أشار عبد الكريم زيدان إلى بيان معنى الابتلاء بقوله: هو "الاختبار والامتحان للإنسان في الشدة والرخاء، وكذلك لفظ البلاء مع زيادة في المعنى الذي نريده بلفظ "البلاء" وهو الحادث الذي فيه شدة ومشقة وينزل بالمرء لغرض اختباره وامتحانه به"³

وفي الأخير نخلص إلى بيان مفهوم الابتلاء كسنة من السنن الإلهية الاجتماعية التي لا تنفك عن حياة كل إنسان فهي: "القاعدة الإلهية الثابتة المطردة (المتابعة، المستمرة)، التي تكون بموجبها حركة الإنسان بما تتضمنه من أنشطة وممارسات؛ اختبارا للإنسان وتمحيصا له"⁴

كما تمثل سنة الابتلاء: "تجليا لحكمة الله ومقاديره الجارية في الكون والحياة ومسار التاريخ، إذ ترتبط بأفعال الإنسان وتصرفاته ارتباطا محكما، وتمتاز بخصائص الاطراد والعموم والثبات. وليست الابتلاءات في جوهرها مجرد عقاب أو خزي، بل هي في الأصل امتحان إلهي يهدف إلى تطهير الإنسان وتهذيبه، وإعداده لتحقيق التمكين والاستخلاف في الأرض"⁵.

والملاحظ على هذه التعاريف أنها شاملة، لاعتبارها تجمع سريان قانون الابتلاء السنني؛ على عناصر الكون والحياة والوجود، بالإضافة إلى بيان خصائص سنة الابتلاء من اطراد وعموم وثبات، والإشارة كذلك إلى مقصد وغاية هذه السنة؛ من تمحيص وتهذيب وتنقية وتمكين في الأرض.

¹ - أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ج13، ص124.

² - محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج6، ص213.

³ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص81.

⁴ - محمد إسماعيل سيد أبو سخييل، الأبعاد التربوية لسنة الابتلاء في ضوء الفكر التربوي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007، ص13.

⁵ - كريمة بلعربي، سنة الابتلاء والتمكين في القرآن الكريم "نظرات في الغايات والأهداف" مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص8.

وعلى هذا الأساس، فإن سنة الابتلاء تعد قانوناً إلهياً جارياً يختبر الله به حياة الإنسان، مؤمناً كان أو كافراً، من خلال ما يعرض له من خير أو شر، وسراء أو ضراء، ليطهر الصادق من المنافق، ويكشف ما تحتزنه النفوس من إيمان أو كفر، وصبر أو جزع.

2- أهمية سنة الابتلاء:

إن الابتلاء إرادة إلهية وقانون ثابت ماضي في النفوس البشرية، فلا يمكن للمؤمن أن يتجنب الابتلاء ويتحاشاه، لأنه سنة ثابتة في حق المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت/2، وهذا ما يؤكد أن المحنة من أهم عوامل التكوين والاختبار في الإسلام... وقد لا يكون للتكوين النظري قيمة ما لم تشترك فيه عوامل الشدة والبلاء... وتفضيل النفس البشرية السلامة وعزوفها عن الخطر، يستلزم في كثير من الأحيان تعريضها للصعاب والمكاره، حتى تكتسب مناعة وقوة، تمكنها من الصمود في وجه العوادي والنائبات¹.

وبالتالي فالابتلاء جزء لا يتجزأ من طريق الإيمان، وأن الله يبتلي عباده ليختبر صدق إيمانهم وصبرهم، وليلمحخص المؤمنين ويقوي عزائمهم، فالشدائد تكشف معادن الرجال وتصلق شخصياتهم، وتريدهم قوة وثباتاً على الحق.

وتجدر الإشارة إلى أن سنة الابتلاء تشكل محكماً أساسياً في المنظومة الكونية، التي تحكم حركة الأمم والمجتمعات، وتسري بحيادية على جميع الكيانات البشرية دون استثناء، فالأمة الإسلامية - باعتبارها جزءاً من هذا النسيج الحضاري - تخضع بدورها لهذه السنة الإلهية الثابتة التي لا تتأثر بالخصوصيات أو الامتيازات.

ويُعد الابتلاء تجلياً من تجليات القانون الإلهي الشامل الذي يحكم مسيرة الحياة بجميع تجلياتها، بل ويشمل حتى مسارات الرسل والرسالات. فالنبي محمد ﷺ - في هذا الإطار - لم يكن حالة شاذة عن هذه القاعدة الكونية، بل كان امتداداً طبيعياً لمسار النبوة العام الذي لا يتحقق إلا عبر اختبارات الابتلاء ومقاساة التحديات. واللافت للانتباه، أن المكانة الرسالية المتميزة التي حظي بها النبي ﷺ، لم تشكل حاجزاً أمام تطبيق هذه السنة الكونية، بل على العكس من ذلك، فقد تحمل - في سياق بلوغ هذه المنزلة - أقصى درجات المسؤولية وأثقل أعباء الدعوة، مما يؤكد أن عمق الابتلاء يكون متناسباً مع عظم الأدوار ومستوى المسؤوليات².

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط16، 1996، ص18.

² - محمد السيد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص240-241، نقلاً.

ولهذا نجده ﷺ قد ربّى صحابته تحت أمواج الحن، فخرج من أعماقها رجال؛ اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ بعد اختبار وتمحيص دقيق، لأنهم الرعيل الأول من حملة هذه الرسالة العظيمة والدعوة الصحيحة، التي يراد تمكينها في النفوس والعقول.

إن سنة الابتلاء مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان، في مسار حركته الاستخلافية، إذ تمثل "القانون الأساس أو المدخل لحركة الحياة البشرية كلها، كما نبّه إلى ذلك القرآن"¹ هذا المخلوق الذي أوجده الله تعالى لغاية عظيمة هي عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56، وتحقيقاً لهذه العبودية فإن الله تعالى يختبر عباده بالابتلاء، وفي المقابل فإن واجب الإنسان الفهم الصحيح لهذا الوجود وما يعقبه من مصير، وبفهم هذه الحقيقة يحصل للإنسان الاستقرار والتوازن في الحياة، فيتفاعل بكل إيجابية مع سنة الابتلاء، لأنه يملك الإرادة الكاملة بالطاعة أو المعصية، بالصبر والرضا أو بالسخط والجزع، فمن اختار الطريق الأول نجح في اختبار سنة الابتلاء، ومن سار في الطريق المعاكس كان له الخيبة والخسران.

تحتل سنة الابتلاء مكانة عظيمة على مستوى آفاق الصيرورات الحضارية البشرية، لأن "الوعي بكلية الابتلاء الحضاري الشامل ومقتضياته، هي كلية مركزية في الوعي الاستخلافي البشري، ينعكس الموقف منها على طبيعة وهوية الحركة الاستخلافية البشرية برمتها، وعلى مآلاتها الدنيوية والأخروية معاً"²، فهي تترك آثاراً عميقة على الفرد والمجتمع، إذ تهدف إلى تحقيق غايات ومقاصد سامية، من أبرزها "بث الطمأنينة والأمن الروحي، ودرء الأزمات والمصاعب، والوقاية من العجز والركود. كما تسهم في تمكين الإنسان من فهم حركة التاريخ وتفسير الظواهر الاجتماعية، وإدراك دروس الماضي وتصويب الحاضر، واستشراف المستقبل وتقدير أبعاده، مع تحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل اللازمة للعمل العمراني. وبذلك تصبح سنة الابتلاء وسيلة لتزكية النفس، وتربيتها، وتمحيصها وتنقيتها من خلال التجارب والامتحانات التي يمر بها الإنسان"³، فسنة الابتلاء تربي النفس والمجتمع على الصلاح والإصلاح، بتزكية الأخلاق وطهارة المجتمع وتماسكه ليكون قوة موحدة قادرة على الصمود في وجه التحديات، لا تهزه محن ولا ابتلاءات.

إن سنة الابتلاء واحدة من محطات إصلاح الله تعالى لنفوس عباده المؤمنين، وتقييم ردة أفعالهم بعد هذا الابتلاء، فالنفس لا تصلح إلا بالسراء والضراء، وبالشدة والرخاء وبالعسر واليسر، فتستقيم إن انحرفت وترجع إن

¹ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، مرجع سابق، ص 49.

² - الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 46.

³ - كريمة بلعربي، سنة الابتلاء والتمكين في القرآن الكريم "نظرات في الغايات والأهداف" مرجع سابق، ص 3-4.

خرجت وتنبه إن غفلت، فقد يُنزل الله البلاء والحن على عبده المؤمن لتكون له سببا في رده وإنابته إليه، فالكثير من الحن التي تتعرض لها قد تكون منحا ربانية، تُظهر رحمة الله بعبده وسعة فضله عليه، لقول ابن القيم: "فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية الحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعثوا، والله تعالى إذا أراد بعبد خيرا سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هدّبه ونقاه وصفاه أهله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته"¹، فهذه سنته تعالى في خلقه يأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ الأعراف/94، وقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأنفال/168، فلو عود الله عباده الخير والعافية ودوام النعم من غير بلاء وامتحان، لطغت نفوسهم وتكبرت وتجبرت في الأرض، فكانت سنة الابتلاء بذلك محطة لإصلاح النفس وتربيتها، وتهذيبها وفق الهدي الإلهي الرباني.

وفي ذات السياق فإن سنة الابتلاء دواء لداء الذنوب والخطايا، لأنها تطهر وتكفر كثرة المعاصي التي ينغمس فيها العبد، فإذا ما ابتلاه الله بالأحزان والأمراض والحن والشدائد -التي تصيب العبد في دنياه-، فصبر عليها وسلم أمره لقضاء الله وقدره بغير شكوى ولا ضجر، تحولت تلك الابتلاءات لرحمة به لا غضبا عليه، وحباً فيه لا كرها له، وشفقة به لا نقمة عليه، فالله تعالى يخلصه ويطهره من كل الذنوب والخطايا، ويمحو عنه آثارها وعواقبها السيئة في الآخرة ليرجع كيوم ولدته أمه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكفر عنه خطاياها، قال ﷺ: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)²، فالمؤمن الذي يتحمل البلاء بصبر ورضا واحتساب، يُجازى خير الجزاء في الدنيا والآخرة، وهذا ما يُعطي الداعية أيضا قوة معنوية كبيرة، تُشعره بأن ما يمرّ عليه من صعوبات في سبيل الله تُكسبه أجرا وثوابا عظيما.

ولا مناص من القول أنّ سنة الابتلاء تُنبه العبد من غفلته، وتُقرّبه إلى خالقه باللجوء إليه ودعائه، وانكسار قلبه والتذلّل بين يديه حال نزول الابتلاء به، فهي لحظة فارقة تصوّر جانبنا من التقصير وآخر من التذكير بنعم الله، التي لا تُعد ولا تُحصى على عبده، فسنة الابتلاء درس عظيم في التوكل على الله تعالى، فعند انقطاع الأسباب

¹ - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور بـ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تخرّيج وتعليق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996، ج4، ص179.

² - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، ج7، ص114.

المادية يشعر الإنسان بالعجز، ليكون اللجوء إلى الله تعالى بكل قلب صادق خالص، هذا التوكل يُقوي الإيمان بالله تعالى ويعزز الثقة به، فهو وحده القادر على رفع هذا البلاء، وتغيير حال العبد من سيء لحسن.

وأخيراً يمكن القول أن سنة الابتلاء طريق إلى الجنة، لأنه قدر لازم على المؤمنين، وقد كان الأنبياء أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد/31، فسنة الابتلاء ليست عقاباً دائماً، بل هي وسيلة لتربية النفوس، وتقوية العزائم وإعداد المؤمنين وتمحيصهم للمهام العظيمة، وقد جعل الله تعالى هذه السنة كسبب لرفع الدرجات وتكفير السيئات، وعاملاً من عوامل تماسك المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار فيه، " وقد التزمت القيادة في ظل العمل المكي بالصبر الإيجابي، الذي يزاول العمل في إخلاص مع التحمل لشدائد الأمور، كونه السلوك المطابق للمبادئ الإسلامية، ولتنقية الدعوة في صورتها العملية من أدنى شائبة، لإبراز معالم الدعوة وحقيقة الإسلام، التي يجسدها الفرد المسلم مرآة هذا الإسلام"¹

المطلب الثاني: أنواع سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

1- أنواع سنة الابتلاء:

الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، وقد تعددت أنواع سنة الابتلاء في القرآن الكريم وصوره، حسب ما تقتضيه إرادة الله وحكمته البالغة، في هذه الحياة التي تدل كل تفاصيلها أنها دار ابتلاء من بدايتها إلى نهايتها، والملاحظ في أنواع الابتلاء عند الكتاب والباحثين، عدّة اعتبارات في التقسيم، ولكننا صنفنا هذه الابتلاءات إلى ثلاثة أنواع صرح بها القرآن الكريم وهي: الابتلاء بالخير والسراء، الابتلاء بالشر والضراء، الابتلاء بالتكاليف الشرعية، وفي الأسطر الموالية بيان وتفصيل لذلك:

- الابتلاء بالخير والسراء:

وهو اختبار بالنعم والغنى والصحة والقوة، وقد يعتبر أخطر من ابتلاء الشر، لأنه قد يوصل صاحبه إلى الفتنة والطغيان ونسيان شكر الله تعالى، ومن صورته كثرة المال والأولاد، والجاه والشهرة والسلطان، وغيرها من النعم التي تحبها النفس وتتعلق بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ التغابن/15، والسر في خطورة هذا النوع من الابتلاء كونه ابتلاء خفي، فالكثير من الناس يظنّه مظهرًا من مظاهر

¹ - رؤوف شليبي، الدعوة الإسلامية التجربة. الأخطاء. الحل، مطابع روز اليوسف، القاهرة، دط، دس، ص248.

تكرم الله تعالى للعبد، ويجهل حقيقة مفادها أن " الرخاء ابتلاء آخر، كابتلاء الشدة، وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلي بالرخاء، كما يبتلي بالشدة، يبتلي الطاعين والعصاة سواء، بهذه وبذاك، والمؤمن يبتلي بالشدة فيصبر، ويبتلي بالرخاء فيشكر، ويكون أمره كله خير".¹

النعم التي يُعِدُّها الله على عبده، قد تكون ابتلاءً واختباراً له، إذا قابل العبد ما يناله من الخير والسرور بالجوهر والنكران، لا بالحمد والشكر والامتنان، " فالإمداد بالمال والبنين لا يعني هنا دلالة خير وإكرام للإنسان، بل هو ابتلاء كما تقدم، فالإنسان إذا ما امتحنه بالنعم والغنى (فأكرمته) بالمال وأفضل عليه، (ونعمته) بما أوسع عليه من فضله (فيقول ربِّي أَكْرَمَنِي) فيفرح بذلك، ويقول ربِّي أَكْرَمَنِي بهذه الكرامة"²

ومن الأمثلة القرآنية الواضحة في بيان ذلك، قصة قارون الذي استعلى وطغى بماله وجاهه وسلطانه، فكان من المفسدين في الأرض، المستكبرين على الخلق، الجاحدين لأنعم الخالق عليه،: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ القصص/76-78، ونتيجة لذلك الغرور والتكبر والفخر كانت عاقبته الخسف، فقد انشقت الأرض وابتلعتة وداره وماله، الذي لم يُغن عنه شيئاً.

وفي المقابل نجد أن القرآن الكريم يحذّر الأمم من فتنة النعم، لما لها من النتائج والمآلات، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل/112.

- الابتلاء بالشر والمكارة:

وهو اختبار بالضراء والبأساء، وما يصيب الإنسان من "مصائب وشدائد وآلام، ومن صورته؛ المرض، وفقد الأعزة وتلف الأموال"³، وكذلك الخوف الشديد، أو إيذاء العدو، وقد يكون نتيجة بعض ذنوبهم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ "البقرة/155، ومن أشهر وأبلغ النماذج والقصص التي يُضرب بها المثل في هذا الصدد؛ ابتلاء سيدنا أيوب

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص1090.

² - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مرجع سابق، ج12، ص572.

³ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص351.

العليه السلام، الذي كان من أشد أنواع الابتلاءات وأعظمها، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص/41-44.

"فقد كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام، والعبيد، والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران، وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب من ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه"¹

فلا مناص من القول أن جملة هذه الأنواع من الابتلاءات؛ في الجسد والمال والأولاد، والأهل والأصحاب، مع طول مدة الابتلاء، قد تدفع بصاحبه إلى فقد الأمل والسخط والجزع وعدم الرضا، لكن سلاح سيدنا أيوب عليه السلام كان الصبر، الصبر الإيجابي الجميل المقرون بالثقة التامة في فرج الله، مع استمرار لسانه وقلبه في ذكر الله وشكره ودعائه، تأدبا مع خالقه تعالى، فجاء الفرج الإلهي والثواب الرباني، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ الأنبياء/84.

وختاماً يمكن القول أن قصة نبي الله أيوب عليه السلام نور يهدي الحائرين، وعزاء لكل مبتلى بالشدائد والمكاره، لأن الفرج من بعدها آت لا محالة إذا حضر معها الصبر، وإن تحقيق العبودية الحقّة لله تعالى تظهر عند الشدائد والحن بالشكر والصبر.

1-الابتلاء بالتكليف الشرعي:

وهو اختبار الله تعالى لعباده بالتزام الأوامر والطاعات، أو اجتناب النواهي والمعاصي والمنكرات التي يشقُّ على النفوس فراقها، "وقد يكون في تراحم محبوبات الرب مع محبوبات النفس، فإذا أثر محبوبات الله عز وجل على محبوبات النفس، اجتاز هذا الامتحان وإلا رسب وفشل"²، فالله تعالى يختبر مدى التزام الإنسان بهذه التكليف، ومدى طاعته وصدق إيمانه في ذلك، فالعبادات مثلاً تحمل هذا الوصف بكونها ابتلاءات، فالصلاة في وقتها وبشرطها ابتلاء، لأن الله يختبر مدى انضباط العبد المؤمن وخشوعه في تواصله مع ربه، والزكاة فيها ابتلاء واختبار

¹ - ابن كثير، قصص ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1968، ص361.

² - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص351.

لمدى كرم وسخاء العبد وتطهير ماله، كما نجد أن الصيام ابتلاء للتحكم بالرغبات والشهوات، وضبط النفس عنها، وأخيراً فإن الحج ابتلاء جسدي ومالي كبير، فالله تعالى يختبر قدرة العبد على تحمل المشاق والتضحية في سبيل الله، وإن كل المعاصي والمحرمات كشرب الخمر، والزنا والسرقة... في تركها وحجب النفس عنها ابتلاء عظيم لتحقيق التكليف الإلهي.

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم حافل بالعديد من الأمثلة الدالة على الابتلاء بالتكاليف الشرعية، والتي تهدف دوماً إلى اختبار إيمان العباد وطاعتهم لله تعالى، فنجد في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مثال في الابتلاء قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ البقرة/ 124، وكان من بينها ابتلاء عظيم وشديد بالتكليف، تمثل في ذبح ابنه إسماعيل، وهو أعظم اختبار يمكن أن يواجهه أبٌ، فيذبح فلذة كبده وابنه الذي جاءه بعد عمر طويل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الصافات/ 102.

لقد اختبر الله تعالى مدى طاعة إبراهيم المطلقة وتسليمه الكامل له، واستعداده للتضحية بأعز ما يملك في سبيل مرضاة الله، وكذلك مدى طاعة واستجابة إسماعيل هو الآخر، فكان كلا منهما عبداً شاكراً طائعاً لربه مستجيباً لأوامره، لقوة وثبات إيمانهما، حيث نجحنا في هذا الاختبار وفداه الله بذبح عظيم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الصافات/ 103-107.

وبناء على ما سبق يمكننا القول أن النجاح في ابتلاء التكاليف الشرعية مرتبط بالاستسلام والخضوع التام لأمر الله تعالى، وقد كانت الابتلاءات التي شملت حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ تحييص ورفع لدرجته، حتى أصبح خليلاً لله تعالى، وأصبح للمؤمنين إماماً وأسوة لهم، قال تعالى: "وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، لأنه وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه"¹

وفي الختام يمكن القول أن سنة الابتلاء في القرآن الكريم سنة شاملة لا تستثني أحداً، وهي جزء من حكمة الله البالغة في تدبير خلقه، وإن نجاح الإنسان في هذا الابتلاء مرهون بفهمه لنوع الابتلاء وطبيعته؛ سواء بالخير والسرء، أو بالشر والضراء، أو بالتكاليف الشرعية، وكذلك تسلّحه بالصبر والإيمان والاستعانة بالله، لاستخلاص

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج2، ص422.

العبر والدروس المبثوثة في قصص الأمم السابقة، وابتلاءات الأنبياء والرسل.

2- أثر سنة الابتلاء في تمكين العمل الدعوي:

إن سنة الابتلاء واحدة من السنن الإلهية الثابتة، التي لا تتبدل ولا تتخلف، وهي جزء من مسيرة الإنسان في الحياة البشرية، لأنه يواجه ابتلاءات مختلفة؛ سواء كانت في النفس، المال، الأهل، أو في الدعوة إلى الله تعالى، وهذه السنّة تدل على حكمة إلهية عظيمة تهدف إلى تمحيص النفوس، ورفع الدرجات وتمييز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق في سياق العمل الدعوي، فسنة الابتلاء ليست مجرد اختبار فردي، بل هي محكٌ حقيقي يُظهر ثبات الدعاة على مبادئهم، ومدى إيمانهم برسالتهم، وصبرهم في سبيل تبليغها والمضي بها قُدما في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

تعد سنة الابتلاء من أهم السنن الربانية التي يمر بها المؤمنون والدعاة، وهي مرحلة بنائية أساسية وجب على الدعاة فهمها قبل تحقيق التمكين، لأنها بمثابة دروس تربوية توجيهية لتحمل الصعاب، وخوض غمار الدعوة بكل فاعلية، لأن "طور البلاء لا بد منه قبل التمكين، لتخرج الدعوة والدعاة بعد هذا الطور أصلب عودا وأقوى مما كانت عليه، فتنتقل لتحطيم عروش الطغاة وتبديد الظلام لتبني حياة إسلامية صحيحة راشدة"¹، فعن هذا الابتلاء يترتب وعد الله ومشيعته في التمكين، وفي المقابل فإن جهل المصلحين والدعاة بسنة الابتلاء يشكل خطرا كبيرا في ظل الواقع الصعب الذي تعيشه الأمة الإسلامية، إذ يعرقل السير نحو النهوض والتمكين، بسوء فعل المسلمين وسوء ظنهم بالله تعالى وافتقارهم لأهلية التمكين التي وعد الله بها عباده الصالحين، فالأمة عامة والدعاة خاصة بحاجة ماسة لاستيعاب سنة الابتلاء، وفقه معانيها وأبعادها وتبصّر كافة جزئياتها، لاستخلاص العبر والدروس التي تسهّل الطريق نحو التمكين، ودون هذا الفهم؛ الذي يُعد واجبا دينيا وضرورة حتمية اجتماعية، تبقى الأمة الإسلامية والجماعة المؤمنة حبيسة الابتلاء، أسيرة التخلف والركود والتعثر الحضاري.

إن طريق الدعوة إلى الله تعالى، ونشر تعاليم الإسلام ومبادئه مخفوف بالابتلاءات، لأن القيام بأي عمل يحتاج إلى إعداد وتأهيل، وخاصة لمن حمل أمانة الله في أرضه بالدعوة إلى دينه، "فإذا كان الابتلاء مما قضت به سنة الله في الحياة، فإن ابتلاء الدعاة إلى الله، مما جرت به السنة الإلهية أيضا، فهم مبتلون بأذى الكفرة والمارقين، بالقول والكيد واليد"²، وقد جعل الله تعالى الابتلاء طريقا لتربية وإعداد رسله وأنبيائه، والصالحين من الدعاة من بعدهم، قبل أن ينصرهم ويمكّن لهم، "ولا يمنع ذلك بطبيعة الحال من أن يكون مصير بعض الأفراد في فترة

¹ - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص318.

² - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص351.

الابتلاء، أو فترة التمحيص التي تمر قبل التمكين، هو مصير سحرة فرعون، أو مصير أصحاب الأخدود، فطريق الدعوة لا يخلو من شهداء يقدمون أنفسهم رخيصة في سبيل الحق"¹

لأن سنة الابتلاء جارية على عباد الله الصالحين الداعين لأمره وحكمه، رغم قدرته تعالى في أخذ الطاعنين للدين والمفسدين له، فمن خاض معركة الدعوة والإصلاح عليه دفع ثمن التمسك بالحق بوقوع الابتلاء عليه.

وخير مثال وأوضحه في ذلك؛ ما تعرض له خير خلق الله من الأنبياء والمرسلين من آدم عليه السلام إلى محمد عليه السلام، في دعواتهم لأقوامهم من الأذى والابتلاء، وكانت العاقبة بالنصر والتمكين بعد جملة هذه الابتلاءات لعباد الله وأوليائه ورسله، الذين ثبتوا وصبروا على هذه الابتلاءات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنعام/ 34.

وعلى هذا الأساس فإن من نتائج سنة الابتلاء؛ التمحيص والتمييز لتحقيق بعدها سنة التمكين، وهو" قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت/ 2-3، وبالتالي فإن" فتنة المؤمنين تتم في نار الابتلاء، التي تصهرهم، فتخرج الخبث من نفوسهم، من شهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله، متجردين له، صالحين من ثم لحمل الأمانة التي قدر الله أن يحملها الإنسان"² ولهذا فقد اقتضت مشيئة الله وحكمته أن يبتلي عباده المؤمنين، ليمحصهم ويميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإذا ما اجتازوا هذه المحن بصبر وثبات كانت لهم العاقبة بالظهور والتمكين، ومن النماذج التي يمكن إبرازها في هذا المقام، السيرة النبوية الشريفة التي عرضت أعظم الأمثلة وأوضحها على دور الابتلاء في تمكين الدعوة الإسلامية، فقد تعرض النبي عليه السلام وصحابته الكرام لأشد أنواع الأذى والابتلاء والاضطهاد، كالاتهام والتكذيب والسخرية والإيذاء والتضييق للدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنعام/ 34.

ورغم قسوة الابتلاء فقد ظلوا ثابتين على مبادئهم، صابرين على ما أصابهم، لا يصرفهم عن ذلك صارف ولا يردهم راد، مما أدى إلى تقوية إيمانهم وزيادة تماسكهم، فكان هذا الثبات والصبر سببا رئيسيا في انتشار الدعوة وتمكينها، لأن الناس رأت في ثبات المؤمنين دليلا على صدق دعوتهم وقوة إيمانهم، فالابتلاءات التي مرّ بها

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص 122

² - المرجع نفسه، ص 117

المسلمون الأوائل لم تُضعف عزيمتهم، بل زادت قوة وإصراراً وتصميماً على المضي في طريق الدعوة ونشر الحق، وكانت هذه المحن والابتلاءات بمثابة وقود دفع الدعوة إلى مزيد من الظهور والانتشار.

وتماشياً مع ما تم ذكره فقد بين الصلابي محورية العلاقة بين سنة الابتلاء والتمكين، ومدى الارتباط والتلازم الوثيق الذي يجمع بينهما، ذلك أنّ " الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار"¹

-التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون إلا بعد المحنة والابتلاء والصبر عليها، فالصبر هو الخلق الأساس الذي يدفع المؤمن للاستمرار في طريق الدعوة، مهما واجه من صعوبات وعقبات لأنه مفتاح الفرج والنصر والتمكين، وقد كان الأنبياء والرسل خير مثال يقتدى به؛ في الصبر والرضا بقضاء الله وقدره إزاء ما يحلّ عليهم من شدائد ومحن وابتلاءات، كانت هي الأشد من نوعها مقارنة بغيرها، وذلك لعلو مكانتهم ودرجتهم عند خالقهم، قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلَ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَرْخُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»².

وإنّ لقصة يوسف ﷺ وما لاقاه من ابتلاءات منذ صغره، تجسيد لأبرز معالم سنة الابتلاء التي كُلت وكانت سبباً في تحقيق أعظم تمكين على أرض مصر، فقد تتالت عليه الابتلاءات من حسد إخوته له وإلقائه في الجُبِّ، إلى بيعه كعبد، ثم اتهامه وسجنه بالباطل زوراً وافتراءً، لكن هذه الابتلاءات لم تزده إلا قوة وثباتاً، وكانت سبباً في تمكينه حتى أصبح عزيز مصر، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» يوسف/56، فصبر يوسف الجميل على شتى أنواع المحن والابتلاءات التي أصابته، رسم طريقاً له نحو التمكين؛ بدايته كانت بالإيمان والدعوة إلى الله، ثم المحنة والابتلاء، ثم الصبر والثبات والتوجه إلى الله، لتكون النهاية بالرفعة والمكانة والسلطان والتمكين في الأرض، وهي سنة الله الثابتة

1 - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص311.

2 - رواه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، ج4، ص203، رقم 2398.

التي لا تتغير ولا تبدل، فمن أقام دين الله وشرعه فلا بد أن يبتليه، فإن هو صبر وشكر، نال بشارة النصر والتمكين.

وتماشيا مع ما تم ذكره فإن سنة الابتلاء تُعد قاسما مشتركا عند جميع الأنبياء والرسل والدعاة، لما أصابهم من الأذى والحن والابتلاء، ولم يبلغوا التمكين وإقامة الدين ونشر دعوة الإسلام، إلا بعد صبر طويل على صنوف شتى من الأذى والحن في سبيل إعلاء كلمة الحق والتوحيد، فكان الابتلاء بالنسبة لهم ليس نهاية المطاف، بل هو بداية لمرحلة جديدة من التمكين والاستخلاف على الأرض، وقد سُئل الإمام الشافعي: أيها أفضل للرجل، أن يُمكن له أو يُبتلى؟ فقال: لا يمكن الرجل حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمدا - عليهم السلام- فلما صبروا مكّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة"¹

- تعمل سنة الابتلاء على تنقية الصفوف من المنافقين، وتمحيص الصادقين من الكاذبين، مما يزيد من تماسك وقوة إيمان الدعاة، وصقل شخصياتهم، كما أنها تساهم في تماسك الجماعة الدعوية، وزيادة تناصرها وهذا ما يكشف صدق الدعوة وجاذبيتها للناس، فالابتلاءات اختبارات إلهية تهدف إلى إعداد الدعاة، وتشكيل فهم واستيعاب سليم لحقيقة هذه السنة، ليتعاملوا مع كافة التحديات والعقبات بروح إيجابية، وطاقة روحانية، تتحول معها كافة الصعوبات إلى فرص للبناء والنمو والتطور، فالابتلاء يُقوي الوازع الديني ويعمّق اليقين بالله، ويُعدّ الأمة لمواجهة التحديات الكبرى، فسنة الابتلاء تُسهم في بناء دُعاة مؤهلين لحمل رسالة الإسلام، لأنها تعلّمهم كيفية التعامل مع الحن والابتلاءات؛ بالصبر والمصابرة والاحتساب والتوكل على الله، وبهذا الفهم والعمل تصبح سنة الابتلاء طريقا ممهّدا نحو تمكين العمل الدعوي في كل زمان ومكان.

وفي الختام يمكن القول أن سنة الابتلاء ليست مجرد قدرٍ محتوم، بل هي جزء أساسي من المنهج الإلهي لتمكين الدعوة الإسلامية، فالابتلاءات بمختلف أشكالها تعمل كأدوات فعّالة لتمحيص النفوس وصقل الشخصيات ورفع الدرجات وتعزيز التوكل على الله تعالى، وهذا ما أثبتته سيرة المصطفى محمد ﷺ، وسير الأنبياء والرسل السابقين الذين صبروا وثبتوا برسوخ في وجه المِحْن، فنالوا بذلك النصر والتمكين.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن:

- تعريف الابتلاء من الناحية اللغوية يتفق مع التعريف الاصطلاحي له، فهو الاختبار والامتحان بالخير أو الشر، بالسراء أو الضراء، بالمنح أو الحن

¹ - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1973م، ص208.

- سنة الابتلاء سنة إلهية ثابتة دائمة في خلق الله تعالى، لا تتغير ولا تتبدل على مدار الزمان، وهي ليست حالة عابرة تقع من باب الصدفة، بل تصيب المؤمنين ليزدادوا إيماناً ونقاءً وتمحيصاً، وقدرة وسلطاناً وتمكيناً، وهي للكافرين تذكير وفتنة وعذاب.

- إن سنة الابتلاء تزيد قلوب المؤمنين الصابرين إيماناً، وتجعل أصحابها متمسكين بجبل الله في النصر والفرج القريب، فسنة الابتلاء درس عملي تتجسد فيه أسمى معاني الصبر في هذه الحياة، فلن نقوى على ترك الباطل إلا بالصبر على معصية الله، ولن نسير في طريق الحق إلا بالصبر على أقدار الله علينا.

- وجددير بالذكر أن الابتلاء أنواع؛ ابتلاء بالخير والسرّاء، وابتلاء بالشر والضراء، وابتلاء بالتكاليف الشرعية، في شتى مجالات الحياة، فما يصيب الإنسان من خير أو شر، من نعم أو مصائب، من أوامر ونواهي شرعية، هي امتحان من الله تعالى لعباده يكشف مدى صبرهم وثباتهم على الحق، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء/35.

- إن سنة الابتلاء سنة عامة شاملة لجميع أفراد الأمة دون استثناء أو محاباة، فقد اشتملت خير خلق الله من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ذلك أن حياة الإنسان كلها ابتلاءات إما بالسرّاء وإما بالضراء، وواجب العبد المؤمن اتجاهاها إما؛ بالحمد والشكر والثناء في السرّاء، والصبر والرضا والدعاء في الضراء، ومن علامات رحمة الله بعباده وسعة فضله بهم، أن جعل الابتلاء على قدر إيمان الإنسان وتحملّه، فكان الأنبياء والرسل أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل.

المبحث الثاني: سنة الأخذ بالأسباب وأثرها في تمكين العمل الدعوي.

تشغل سنة الأخذ بالأسباب دائرة ومساحة واسعة في القرآن الكريم، بل إن معظم السنن الإلهية ذات صلة وثيقة بسنة الأخذ بالأسباب، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بما في ذلك سنن التمكين التي ترتبط معها بعلاقة مباشرة، ما يستدعي بذلك على الأفراد والجماعات المشتغلة في ميدان التمكين لدين الله والدعوة له، فهم واستيعاب هذه السنة لتطبيقها والعمل بها، لأن سنة الله في الأخذ بالأسباب هي أصل النتائج المترتبة على أفعال الخلق وتصرفاتهم.

"إن الله تعالى في نظام التكوين والابداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، ولا تتبدل ولا تتحول محابة لأحد من الناس، وأنها عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد تكرر ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور"¹، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أهمية هذه السنة، التي تُعد محور التغيير والبناء الحضاري، كيف لا؟ و"إن الله - سبحانه وتعالى - جعل التمكين في الحياة يمضي بالجهد البشري، وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول، فمن يقدم الجهد الصادق ويخضع لسنن الحياة يصل على قدر جهده وبذله، وعلى قدر سعيه"².

المطلب الأول: تعريف سنة الأخذ بالأسباب وأهميتها:

1- تعريف سنة الأخذ بالأسباب:

السبب: لغة: كل شيء يتوصل به إلى غيره، والجمع أسباب، وكل شيء يتوصل به إلى الشيء فهو سبب"³، وهذا المعنى اللغوي للسبب ورد في قوله تعالى: (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (84) فَأَتَّبَعَ سَبَبًا) الكهف/85. فالمعنى آتاه الله من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها، فأَتَّبَعَ واحدا من تلك الأسباب، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) غافر/37، أي لعلّي أبلغ الأسباب والذرائع الحادثة في السماء فأَتَّوَصَّلُ بها إلى معرفة ما يدّعيه موسى"⁴

وجاء في القاموس المحيط: "والسبب الحبل، وما يُتَوَصَّلُ به إلى غيره، وجمعه أسباب"⁵

اصطلاحاً: يعرف السبب اصطلاحاً بأنه: "ما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه".⁶

ويعرفه الفيومي بأنه: "ما يتوصل به إلى الاستعلام، ثم استعير لكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور، فقليل

1 - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج1، ص198.

2 - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص254-255.

3 - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص458.

4 - الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج3، ص159.

5 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص96.

6 - الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص49.

هذا سبب هذا، وهذا مسبب عن هذا"¹

وهو "الوصف الظاهر المنضبط الذي دلّ السمع على كونه معرّفاً للحكم الشرعي، كجعل دلك الشمس معرّفاً لوجوب الصلاة"

كما عرّفه الغزالي على أنه: "الموجب لا لذاته ولكن يجعل الشارع إياه موجبا"²

ومن خلال هذه المعاني اللغوية والاصطلاحية للسبب يمكن القول:

- أن مدار المعاني اللغوية في معنى السبب ما جاء في اصطلاح القرآن الكريم، وهو ما يتوصل به إلى غيره، فالسبب واسطة يتم من خلالها تحقيق المقصود.

- السبب قد يكون ماديا وقد يكون معنوياً.

- السبب وسيلة من الوسائل يتوصل بها إلى المطلوب والمراد.

وختاماً يمكن القول أنّ سنة الأخذ بالأسباب معناها؛ بذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيق مطلب دنيوي أو أخروي، مع الاعتقاد الجازم أن النتيجة بيد الله تعالى، والسبب مجرد وسيلة لا قدرة ذاتية فيه.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم اهتم بهذه السنة، وعرضها في الكثير من ثنائيه، مشيراً إلى طبيعة سنة الأخذ بالأسباب، فهي سنة إلهية كونية وشرعية في آن واحد، كونية لأن الله تعالى جعل لكل مسبب سبباً، قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الأعراف/57، فالشمس تشرق بسبب، والمطر ينزل بسبب، والنبات ينمو بسبب...، وهي سنة شرعية لأن الله تعالى أمر عباده باتباع الأسباب المشروعة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/60، فالصلاة سبب للطمأنينة، والصدقة سبب لزيادة المال..

كما نجد الله تعالى يأمر أنبياءه ورسله باتخاذ الأسباب، فقصّة نوح عليه السلام وبناء السفينة دليل على ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ المؤمنون/27، وفي قصة يوسف عليه السلام وتدبيره لأزمة الغذاء عمل بالأسباب، قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ يوسف/47.

ولعله من المفيد التأكيد على أن الله تبارك وتعالى بلغ من تقريره لهذه السنة؛ ورودها في الكثير من الآيات القرآنية حيث يربط بين الأسباب ومسبباتها، والنتائج ومقدّماتها أن حتّى على طلبها في الأمور المكفولة مثل الرزق، الأكل، وفي أمور الثواب والعقاب الأخروي، كما راعى هذه السنة حتى في الخوارق ليظل قانون السببية عالقا بذهن المكلف، ومرتبطة بحركة هذا الكون، والأمثلة في ذلك كثيرة منها ما حصل للسيدة مريم حيث أمرها الله تعالى بهز جذع النخلة، وهي في حالة ضعف قال تعالى: ﴿وَهْزِي إِلَيْكَ الْجَذْعَ النَّخْلَةِ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ مريم/25.

فالله تعالى قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب رغم ضعفها ووهنها، ومرّد ذلك أنّه " لما كان قلبها فارغاً فرّغ الله جارحتها عن التّصب، فلما ولدت عيسى عليه السلام، وتعلق قلبها بحبه، واشتمل

¹ - الفيومي، المصباح المنير، مرجع سابق، ج1، ص262.

² - أبو عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتي، ط1، 1994م، ج2، ص6.

سرّها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلّق بالأسباب في عباده"¹.

2- أهمية سنة الأخذ بالأسباب:

جرت سنة الله في الكون أن يحدث كل شيء بسبب، لأن قانون السببية قانون ثابت وعام لا يحايي أحدا، ولا يميل لطرف دون آخر، فهو يشمل كل الخلق بغض النظر عن انتماءاتهم، لغاتهم، ألوانهم، وأنسابهم، وهذا ما يساعدنا في فهم الواقع وإعطاء تفسيرات لجملة الأحداث والوقائع المحيطة بنا، فهي بمثابة قانون يستحيل خرقه، فيه تتوافق الأسباب مع مسبباتها والعلل مع معلولاتها، والنتائج مع مقدّماتها، لذلك تبرز أهمية سنة الأخذ بالأسباب من خلال:

- فقه سنة الأخذ بالأسباب والعمل بمقتضاها أساس تشكّل الآثار؛ إما تقدما وارتقاء أو تخلفا وانتكاسا، فسنة الله في الأخذ بالأسباب بمثابة " القانون الإلهي العام الذي يقوم على الأسباب والمسببات، وربط النتائج بالمقدّمات، على نحو في غاية الدقة والصرامة والاطراد، والإنسان - وهو جزء من هذا الكون - يخضع لهذا القانون في جميع حركاته وسكناته وتقلبات أحواله، كما تخضع له أيضا الأمم في علوها وانخفاضها، وسعادتها وشقائها، عزّها وذلّها، وبقائها وهلاكها، وهذا الخضوع من الأفراد والأمم في جميع أحوالهم لهذا القانون الرهيب يساوي بالضبط خضوع الأحداث الكونية المادية لهذا القانون، فكما أن سقوط تفاحة من شجرة هو نتيجة حتمية لأسباب معيّنة أدت إلى هذا السقوط، فكذلك يعتبر سقوط دولة أو هلاك أمة نتيجة حتمية لأسباب معينة أدت إلى هذا السقوط"².

وبالتالي فالأمة التي تتجاهل سنة الله في الأخذ بالأسباب، وتُعرض عن تنزيلها في واقعها، أمة معرضةٌ لشتى أنواع الفشل والتخلف والانحيار، أما الأخذ بالأسباب فهو السبيل لتحقيق التقدم في الدنيا والآخرة، وهو ضروري لإعمار الأرض وتحقيق المصالح، يقول ابن القيم: " فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والأوامر والنواهي والحل والحرم، كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، فالشرع كله أسباب ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها، فالأسباب محل الشرع والقدر، والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المائدة/105، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الأعراف/39، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ﴾ الحج/10، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الشورى/30، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج11، ص95-96.

² - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والأفراد والمجتمعات، مرجع سابق، ص23-24.

الحاقة/ 24، ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ النبأ/ 26 " 1

وتأسيسا على ما سبق تتضح بجلاء الأهمية الاجتماعية والحضارية لسنة الأخذ بالأسباب، فهي تدفع عجلة التقدم والبناء، لأنها المحرك الأساسي للعلوم، والصناعة والطب والزراعة وكل مجالات الإعمار في الأرض، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/ 61، كما أنها تحقق مبدأ الاستخلاف، فالله تعالى يستخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، وهذا لا يتم إلا بالسعي والأخذ بالأسباب، ما يعني مكافحة كل مظاهر التواكل والفساد.

ومن المناسب الحديث ونحن بصدد بيان أهمية سنة الأخذ بالأسباب أن عقيدة المسلمين تقتضي وتوجب أن يصطنع المسلم الأسباب التي خلقها الله وبسطها في الكون، وفي ذات الوقت لا يتوجه المؤمن لهذه الأسباب بالعبادة معتقدا أنها مستقلة بالفعل، إذ ليس من الضرورة أن تفضي بهم هذه الأسباب إلى نتائجها، فنظام هذا الكون وترتب مسبباته على أسبابه أمر إلهي وضعه الله تعالى وأرشد إلى ضرورة اتباعه، فمن اهتدى إليه أفلح ومن حاد عنه خاب وخسر، ومسؤولية الإنسان تحمله ضرورة السعي والعمل كجزء من خلافته في الأرض، مما يتطلب منه بذل الجهد في كل ما يصبو إليه.

وهنا تبرز الأهمية العقدية والفكرية لسنة الأخذ بالأسباب، أين تصحح مفهوم التوكل من مفهوم سلبى يجمع بين التراخي والكسل والاستسلام وانتظار المعجزات، إلى مفهوم إيجابي فعال يجمع بين السعي والاعتماد على الله تعالى، ولهذا نجد أن الغزالي يؤكد على ضرورة تلازم قانون السببية مع التوكل على الله، لأن "التوكل لا يחדش قانون الأسباب والمسببات، ولا يمس القوى التي وهبها الحق مختلف العناصر، لأجل ذلك يجب التوكل على الله، والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقبة لكل سعي، مرهونة بمشيئته وحده"².

كما تجسّد هذه السنة مبدأ الإيمان بقدرة الله وحكمته في تسخير هذه الأسباب والاعتراف بقدرته المطلقة.

وفي الختام يمكن القول أن سنة الأخذ بالأسباب منهج حياة متكامل، أرسنه نصوص الوحي، وهي تمثل الجسر الذي يربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بين قضاء الله وقدره وبين سعي الإنسان وكسبه، وإن فهم هذه السنة وتطبيقها يؤدي إلى إيجاد فرد متوازن، مجتهد في عمله ومتوكل على ربه، قوي في إيمانه، ما جعل محمد الغزالي يؤكد على ضرورة توفير الأسباب واعتبر الغفلة عنها جريمة عظيمة، "فلو طرد المسلمون اليوم من أماكن القيادة العالمية، فلم يكن

¹ - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، دط، 1978م، ص188.

² - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص226.

ظلمنا نزل بهم، بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام، في مجال العلم والعمل على حد سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأمان والأحلام، لكن هيهات هيهات¹، فهذه السنة أساس بناء المجتمع الحيوي المنتج، المبدع المتقدم، القائم على العدل والعمل، لتتشكل بهذا الفرد والمجتمع أمة راشدة تستعيد دورها الحضاري، من خلال الجمع بين الإيمان العميق والعلم النافع والعمل المنتج.

المطلب الثاني: أقسام سنة الأخذ بالأسباب وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

في رحاب العمل الدعوي، حيث تتجلى حكمة الله تعالى في سننه الكونية، تقف سنة الأخذ بالأسباب كمنهج رباني متكامل يجمع بين صدق التوكل على الله وإحكام التخطيط والعمل، فهي ليست مجرد خطوات عملية، بل هي عبودية لله تعالى تستلهم هدي الوحي، وتستنير بحكمته سبحانه في تحقيق التمكين للدعوة، وفيما يلي بيان لأبرز أقسام هذه السنة، وآثارها في تمكين العمل الدعوي.

1- أقسام سنة الأخذ بالأسباب:

تنقسم سنة الأخذ بالأسباب إلى قسمين: أسباب مادية وأخرى معنوية، وقد فصلنا في مبحث شروط التمكين للعمل الدعوي جملة من هذه الشروط المتمثلة في؛ الإعداد المادي وما يدخل ضمنه، والإعداد المعنوي وما يندرج تحته، والتي يمكن إدراجها أيضا في أقسام هذه السنة، وفي "الإعداد لا بد من استخدام القدرات الذاتية الكامنة في الأنفس، والأدوات الكامنة في عالم الأشياء الذي هو تحت تصرف الإنسان، واستخدام كل ما لا يتعارض مع مبادئ القرآن وأحكامه وتوجيهاته، التي امتدت لتشمل كافة أطراف الحياة الدنيا والآخرة، وكافة أبعاد النفس الإنسانية، وتستخدم القوة المادية الغيرية وفق سنة التسخير والتوازن"².

وفي هذا الإطار فإن الإعداد المادي والمعنوي، يشكلان ترابطا وتكاملا واضحا في سبيل تحقيق سنة الأخذ بالأسباب، وفيما يلي بيان وتفصيل ذلك:

الأسباب المادية: والمقصود بها جملة الإجراءات الظاهرة والملموسة التي يجب اتخاذها لتحقيق هدف معين، وهي الأسباب التي تمكن الأمة من مواجهة التحديات الخارجية، وتحقيق الاكتفاء الذاتي والتقدم الحضاري، وكما حفل القرآن " بكثير من الآيات التي تحض المؤمنين المجاهدين على الثبات والاعتصام والتوكل، والصبر ووحدانية الصف،

1 - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 231.

2 - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص 276.

فقد جاءت آية جامعة مانعة صريحة؛ في الإعداد بكل أشكاله ومستوياته وأدواته، والذين لا يقيمون وزناً للإعداد الحسي، واهمين بأن النصر يهبط من السماء، من غير تملك للأسباب وأخذ بالمسببات، فهم من الضالين المتأمرين على الإسلام والمسلمين¹، وقد أشار الصلاحي بتفصيل إلى هذه الأسباب، وتشمل الاهتمام بمبدأ التفريغ والتخصص، ومراكز البحث، والتخطيط المنهجي والإداري، والاهتمام بالقوة الاقتصادية، والإعداد الإعلامي.

فهي بذلك تمثل الأسباب والوسائل التي يسعى الإنسان لاستثمارها في تحقيق أهدافه، "وتشمل كل ما يمكن قياسه وتطبيقه عملياً في الواقع، إذ إن الإنسان يسعى باستمرار، بقصد أو بغير قصد، إلى ربط الأسباب بمسبباتها لتحقيق غاياته في سلوكه اليومي، ويُعدّ هذا الربط من سمات الطبيعة الإنسانية وقوانين الحياة التي يمارسها يومياً، إذ يدرك يقيناً أنه بدون هذا الترتيب والتوظيف المنهجي للوسائل، يستحيل تحقيق أي هدف. فعلى سبيل المثال، من يريد بناء منزل، لا بد له من توفير الموارد المالية والقدرات الفنية اللازمة لإنجازه، فهي بذلك أسباب وأدوات يذللها الإنسان لتحقيق أهدافه، وتشمل بذلك كل ما يمكن قياسه وتطبيقه في الواقع"².

فالقيادة الحكيمة تتطلب التخطيط المنهجي مثلاً، بما في ذلك من وضع خطط واضحة مدروسة وتحديد الأهداف، وتقييم الموارد المتاحة، وأيضاً بذل الجهد العملي بالاجتهاد وتنفيذ المهام واستخدام الوسائل، بغية اكتساب المعارف والقدرات لتحقيق الأهداف والغايات، ناهيك عن إعداد القوة التي تكون بإعداد العدة وتوفير الأدوات اللازمة، والتجهيز بالإمكانات المادية والبشرية اللازمة، وقد أكد النص القرآني على ضرورتها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/ 60.

وقد كانت شخصية ذي القرنين؛ بما توفّرت فيه من صفات العلم والمعرفة، وأسباب القوة والمنعة والتخطيط، نموذجاً بارزاً في العمل بسنة الأخذ بالأسباب المادية الملموسة عند بناء السدّ، لقوم كانوا مهددين بإفساد يأجوج ومأجوج، حيث شرع في "تعليمهم النشاط والعمل، والكسب والسعي، فقال لهم: "فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَلْجَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا" الكهف/ 95، فالقيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجّر طاقات المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة، وإنّ المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، لتتجه بها نحو خير الأمة ورفعته"³.

¹ - فتحي يكن، أبعاد التصور الحركي للعمل الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط12، 1997، ص126-127.

² - عبد الكريم الشامسي، السببية ودورها في حياة المسلم، دار البيارق، بيروت-لبنان، ط1، 1996، ص38.

³ - محمد علي الصّلاحي، سنة الله في الأخذ بالأسباب، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص27.

وفي هذا الإطار فإن الأسباب المادية لها انعكاسات إيجابية، لأن "القوة المادية لها تأثير في النفوس، نفوس المؤمنين والكافرين على حد سواء، ومن هذا التأثير الإحساس بزيادة القوة لدى الفريق الذي يرى أنه أكثر قوة مادية من الفريق الآخر، فيتصرف ضد خصمه في ضوء هذا الإحساس والشعور"¹

ومن الأمثلة التي يمكن أن نعرضها في هذا القسم تخطيط النبي ﷺ، واستعداده للحرب بإعداد القوة، والتي تمثلت في "إعداد الجند المدرب إعداداً إيمانياً على أساس معاني العقيدة الإسلامية، وإعدادهم إعداداً مادياً على استعمال الأسلحة وفنون القتال"²، على حسب واقع بيئته ﷺ، فعلى الرغم من علو مكانته ومقامه ﷺ عند خالقه تعالى، إلا أنه في غزوة بدر مثلاً لم يكتف بالدعاء والتوكل على الله، بل أعد الجيش وخطط للمعركة، ووضع الرماة في مواقع استراتيجية، وفي غزوة الخندق أيضاً أخذ بالأسباب عندما أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة، الأمر الذي قبله النبي ﷺ ونقده المسلمون، ليكون حاجزاً يمنع الأعداء من اقتحام المدينة، وبالتالي فإن هذه الأمثلة تدل على أن النجاح العسكري يتطلب تخطيطاً دقيقاً واستعداداً مادياً كاملاً.

بالإضافة إلى ذلك فإن الهجرة النبوية كانت مثلاً واضحاً، في عمله ﷺ بسنة الأخذ بالأسباب، كونها لم تكن مجرد رحلة عشوائية، بل كانت عملية مخطط لها بعناية فائقة، بدأت من الاستعانة بغير المسلمين في بعض المهام، وتغيير المسار المعتاد، وصولاً إلى اختيار توقيت مناسب للمغادرة، فكل هذه التفاصيل تؤكد أن النبي ﷺ لم يترك أي مجال للصدفة في تحقيق هدفه، بل اتخذ جميع الأسباب المادية المتاحة، مع اليقين التام بأن النتيجة النهائية بيد الله تعالى.

وقد بين أبو حامد الغزالي أن الأسباب ارتبطت بالمسببات، بتقدير الله ومشئئته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف، فإذا انتظر المرء أن يخلق الله شعباً بدون أكل، أو ولداً بدون زواج، أو زرعاً من غير بذر، فهذا جنون؛ لأن هذه المسببات مقطوعة في النسبة بينها وبين مسبباتها، فمسبب الأسباب أجرى سنته بربط الأسباب بالمسببات إظهاراً للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة لكم بحكم الله كسائر الأسباب"³.

أما الأسباب المعنوية: فهي تتعلق بالجوانب الروحية والنفسية والإيمانية، التي تدعم الإنسان وتوجهه نحو النجاح، وتمنحه القوة الداخلية لمواجهة التحديات والصعوبات، فتتمثل في الإيمان والتوكل على الله تعالى، الإخلاص والصبر، دعاء الله والاستعانة به، وهو ما يسهل إعداد الأفراد والقيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول

¹ عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 57.

² - المرجع نفسه، ص 68.

³ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق: محمد بن عبد الملك الزغبى، دار الغد الجديد، القاهرة، ط 1، 2011، ج 4، ص 454.

الوحدة والاتحاد والاجتماع، ما يحقق بذلك دعما معنويا وتقوية للروابط الاجتماعية والإنسانية، التي تُثمر بناءً قويا متماسكا للأمة من داخلها.

وإن هذه الأسباب المعنوية هي بمثابة الروح التي تحرك الإنسان، وتمنحه إمكانية الصمود أمام كافة العقبات والحن والابتلاءات، والقرآن الكريم حافل بالنماذج التي يأمر الله تعالى فيها عباده بالتزام سنته، في ربط الأسباب بمسبباتها المعنوية، والقيام بها على أحسن وأكمل وجه، ومن نماذج ذلك ما جاء في حث المؤمنين على اتخاذ أسباب النصر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد/7.

فنصرة الله تعالى لعباده مرهونة بقدر إيمان العبد له، وطاعته والتزام أوامره واجتناب نواهيه، وهذا باب من أبواب نصر الله وتثبيتته وتمكينه لعباده المؤمنين، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران/125-126، فالله تعالى علّق النصر بالصبر كسبب من الأسباب المعنوية في ذلك، فالنصر محقق للمؤمن على قدر صبره، بعد عون الله وتأييده.

وكان لدعاء أهل الإيمان من أصحاب طالوت، بأن يفرغ الله عليهم صبورا ويثبت أقدامهم، عند لقاء العدو من أصحاب جالوت وهم كثرة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/ 250، أثرا وسببا من الأسباب المعنوية، التي حققت لهم استجابة الدعاء بالنصر والثبات والظفر على العدو، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة/151.

"فالصبر تاج الأسباب المعنوية، وركن ركين في النصر، وهو قبل الأسباب ومعها؛ إذ كل سبب لا بد في تحقيقه من التحلي بالصبر، ولا بد من اجتماعها من الصبر على لأواء الحرب، وشدتها، ومصابرة العدو حتى ينفذ صبره وتخور عزيمته، وإلا ذهب كل شيء وبطل كل جهد"¹

وتماشيا مع ما تم ذكره، يمكن القول أنّ الإيمان والتوكل على الله تعالى، بالثقة المطلقة بأن الله هو مسبب كل شيء، وأن النتائج بيده وحده، مفتاح القوة والروح المعنوية، لأن التوكل "وظيفة من وظائف الجانب القلبي الاعتقادي، في الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، وليس وظيفة من وظائف الطاقات المادية، والقدرات الجسدية والأعمال التخطيطية والتنفيذية في المسلم، ومتى تحقّق هذا الإدراك للتوكل على الله في الجانب القلبي الإيماني، كان مددا بقوة معنوية عظيمة، تُضاعف القوى المادية العاملة أضعافا كثيرة"².

¹ - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، مرجع سابق، ص265.

² - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الاستعمار، دار القام، دمشق، ط8، 2000م، ص265.

وكذلك اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء والاستعانة وطلب العون والتوفيق في كل الأعمال، مع إخلاص النية والصبر على الشدائد والمحن والعقبات، ومداومة ذكر الله وشكره على نعمه، مفاتيح أرشد إليها القرآن الكريم في سنة الأخذ بالأسباب المعنوية.

كما لا يفوتنا أن ننوّه بالترايط والتكامل، الذي يجمع بين القسمين؛ من الأسباب المادية والأسباب المعنوية، لأنها السبيل في تحقيق التوازن بين السعي الجاد والاعتماد على الله تعالى في كل أمور الحياة، والدليل على ذلك أنه " إذ لم تكن في الأرض طائفة منظمة متصفة بكل من الأخلاق الأساسية والأخلاق الإسلامية وهي تستخدم -مع ذلك- الوسائل والأسباب المادية، فلا بد أن يسلم زمام القيادة والسيادة في العالم إلى طائفة تكون أكثر جمعا واحتيازا للأخلاق الأساسية الإنسانية، والأسباب المادية من غيرها، وذلك بأن قد جرت مشيئة الله أن يبقى نظام هذا العالم جاريا مطردا على كل حال، فمن ثم يفوض أمر إدارته وتسيير دفة شؤونه إلى أعظم الطوائف المعاصرة قدرة وأكثرها كفاءة"¹

وتأسيسا على ذلك سنعرض مثالا في وجوب الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية لتحقيق التمكين والنهوض الحضاري للأمم، وهو ما جاء في قصة ذي القرنين التي جسدت أنموذج ربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، فقد مكّن الله له في الأرض وأعطاه سلطانا عظيما، ويسّر له مفاتيح الحكم والقيادة والبناء بكل عدل وفاعلية ليس من العدم والصدفة، بل من خلال سعيه في اتخاذ الأسباب.

فكانت بداية رحلته في اتخاذ الأسباب عمله على معرفة "أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، ووقف على أسباب التردّي، ووسائل التمكين في الأرض، فوضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر الموارد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز، وبذلك استكمل الأسباب المادية التي توصله إلى ما يريده مع ما فيه من التقوى والصلاح، فاكتملت لديه الأسباب المادية والمعنوية المكلف بها كل مؤمن ليوافق الحياة ويسير وفق سننها ونظامها الذي وضعه الله قانونا لها ولمن يريد أن يتعامل معها.

فقصة ذي القرنين أنموذج لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، وليتيقن كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة إنما يتحصل بأسباب ووسائل سواء المادي منه أو المعنوي،... وقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتباعها واستقصاها، حتى إن القرآن يلح

¹ - أبو الأعلى المودودي، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، دار الفكر، بيروت، دط، دس، ص30.

على ذلك ويبيّنه ويكرر التزامه في العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات حيث يقول تعالى: "فَأَتَّبَعَ سَبَبًا" الكهف/85، وبعدها يكرر: ﴿ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/89-92 وقرن ذو القرنين ذلك بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح في قوله "قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا" الكهف/98".¹

وتأسيسا على ما تقدم، فإن قصة ذو القرنين في سورة الكهف، تمثل نموذجا للحاكم المسلم العادل، الذي أنشأ إحدى أكبر إمبراطوريات الإسلام في العالم، لأنه توفر على أسباب التمكين أولها المشيئة الإلهية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الكهف/84، مما يدل على أن التمكين هو هبة من الله تعالى ولا تأتي صدفة، ثم إن الأخذ بالأسباب والعمل بها عامل آخر من أسباب التمكين، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتَّبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف/84-85، إشارة إلى استغلاله كافة الأسباب والوسائل والأدوات التي تحقق المقاصد والغايات، وكان العلم والقوة يمثلان جناحا التمكين، والتغلب لأي سلطة في الأرض، فقصة ذي القرنين تبين أن الإيمان والتوحيد والصلاح أمور لا تغني عن الأسباب المادية والمعنوية للتمكين، لذا وجب الأخذ بالأسباب والوسائل التي تمكن من تحقيق الأهداف، فالعلم هو أساس التقدم والرقي، والقوة هي التي تحمي الحق وتدفع الباطل.

فبالأسباب ترتبط ارتباطا وثيقا بمسبباتها، حيث أن طلب المسببات من غير أسبابها أمر مذموم، وإنكار الأسباب لأن تكون موصلة لغاياتها أمر مرفوض، "وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي، ولا استكملت شرائطها، ولا تنتف موانعها، فلا تقع مسبباتها، شاء المكلف أو أبي؛ لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره، وأيضا فإن الشارع لم يجعلها أسبابا مقتضية لمسبباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سببا شرعيا، سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا، فالثمرة واحدة"²، وكذا الإعداد المادي والإعداد المعنوي أسباب ضرورية لتكوين قوة يعين بها الله عباده على النصر، بعد أداء واجبه في السعي والطلب لهذه الأسباب.

¹ - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص166.

² - إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م، ج1، ص345.

2- أثر سنة الأخذ بالأسباب في تمكين العمل الدعوي:

إن العمل الدعوي مهمة جليلة تهدف إلى تبليغ رسالة الإسلام، وهداية الناس إلى سبل الرشاد، ويتطلب نجاحه تطبيقاً حكيماً لسنة الأخذ بالأسباب، والتي تبرز في جوهر المنهج الإسلامي كركيزة أساسية لا غنى عنها في جميع جوانب الحياة، ولا سيما في العمل الدعوي، فهي ليست مجرد دعوة للعمل، بل هي منظومة متكاملة تربط بين الجهد البشري المخلص والتوكل الصادق على الله تعالى، وهذا المبدأ الحيوي يضمن أن تكون الدعوة إلى الله قوية ومؤثرة ومستمرة، بعيداً عن الكسل أو الاتكال السلي.

ومن هذا المنطلق فتمكين العمل الدعوي لا يمكن أن يتم بمعزل عن بذل الجهد المنظم المدروس، إلى جانب الاعتماد الصادق على الله تعالى، وهذا التكامل يضمن تحقيق النتائج المرجوة والاستدامة في طريق الدعوة،

وبالتالي فسنة الأخذ بالأسباب تتصل بقوة مع سنن التمكين تأثراً وتأثيراً، وهي واحدة "من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين، ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها، وإنزالها على أرض الواقع"¹.

لأن فقه سنة الأخذ بالأسباب طريق لتنمية حس المكلف، نحو معرفة آثار الأعمال التي يتسبب فيها، وهذا يعتبر استشرافاً للمستقبل؛ بمعرفة انعكاسات الفعل مع استحضار السنة أو الغفلة عنها، فالأخذ بالأسباب لا يقتصر تأثيره على كونه مجرد واجب شرعي، بل يتعداه ليكون عاملاً حاسماً في تمكين العمل الدعوي، وتحقيق أهدافه على المدى البعيد، وإن من أبرز الآثار التي تخلفها سنة الله في الأخذ بالأسباب على التمكين مايلي:

- العمل بسنة الأخذ بالأسباب مصدر لمعرفة مقومات النهوض: وتشكيل قوة الأمة الإسلامية بشتى أنواعها، والتمكين مظهر من مظاهر هذه القوة، وبالتالي فإن "أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتّم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة، وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوة بمفهومها الشامل، وقد قال الأصوليون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"².

ومن هذا المنطلق، فالعمل بهذه السنة واجب شرعي لبلوغ الأمة نهضتها واستجماع عناصر قوتها، للتوجه نحو ميدان التغيير والبناء لاسترجاع قيادتها وريادتها أمام باقي الأمم، تحقيقاً بذلك لمهمة الاستخلاف الحضاري

¹ - علي محمد الصلاحي، سنة الله في الأخذ بالأسباب، مرجع سابق، ص 16.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج 2، ص 919.

المنوطة بها، لذلك " أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الأنفال/ 60، ويعني الإعداد في حقيقته الأخذ بالأسباب، وهو هنا إشارة إلى شمولية الإعداد، إذ جاءت كلمة "قوة" نكرة في سياق الأمر، لتشمل مختلف أبعاد القوة، سواء قوة العقيدة والإيمان، أو قوة الصف والتلاحم، أو القوة المادية المتمثلة في السلاح واليد العاملة وبهذا، تفتح الآية الكريمة آفاق الفكر الإسلامي نحو إعداد شامل ومتعدد المستويات؛ يشمل البعد المعنوي والمادي، والعلمي والفقهية، على مستوى الفرد والجماعة، إضافة إلى الإعداد التربوي والسلوكي، والإعداد المالي والإعلامي والسياسي والأمني والعسكري"¹.

وتأسيساً على ما سبق فإن العمل بسنة الأخذ بالأسباب تعزز فعالية الدعوة وتوضح الرؤية، لأن تبني الدعوة لمنهج الأخذ بالأسباب، يؤدي إلى تنظيم العمل الدعوي ووضع خطط واضحة، لصياغة استراتيجيات دعوية محكمة، تحدد الأهداف، الجماهير المستهدفة، والوسائل المناسبة للوصول إليها، وهو ما يقلل بذلك من العشوائية ويزيد من كفاءة الأداء الدعوي.

وجدير بالذكر أن رفع كفاءة الأداء الدعوي هذه، تكون بتوفير الوسائل المناسبة والمجالات الملائمة، حيث يصبح العمل الدعوي أكثر احترافية وتأثيراً، مستفيداً من كل التقنيات والأساليب في تبليغ الرسالة الدعوية، لجذب أكبر عدد من القلوب والعقول، لأن الدعوة المنظمة والمدعومة بالأسباب المادية والمعنوية تصبح أكثر جاذبية وإقناعاً، لما يراه الناس من الجدّة والاحترافية في منهج الدعوة.

وبالتالي فإن الدعوة إلى الله تعالى وتمكين أحكام شرعه بين الخلق، مظهر من مظاهر القوة، التي يجب على علماء الأمة ودعاتها السهر على تحقيقها في أوسع المجالات؛ الثقافية والاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، وذلك بالتزام الفهم والتطبيق لسنة الله في الأخذ بالأسباب، لأنها السبيل إلى تحقيق الأهداف وتجنب الإخفاق، والدعوة الفعالة تتطلب تخطيطاً استراتيجياً محكماً يحدد الأهداف، ويضع الخطط ويوزع الأدوار، وهذا التخطيط يتيح للدعاة استثمار طاقاتهم ومواردهم بشكل أمثل، وتجنب العشوائية التي قد تؤدي إلى الإخفاق، وعندما يتبع الداعية منهجاً منظماً، فإنه يعزز من فعالية الدعوة ويزيد من فرص وصول رسالته وتأثيرها.

أضف إلى ما تقدم، فإن الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية شرط أساسي؛ لتحقيق التمكين في العمل الدعوي ونصرة دين الحق خصوصاً، كيف لا؟ وإن الأخذ بالأسباب دليل على صحة العقيدة الإسلامية وسلامة الإيمان، وإخلاص العمل، وصدق التوكل على الله، والوعي بأهمية هذه السنة مؤثر من مؤشرات الإنجاز والفعالية

¹ -علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص185-186.

في الدعوة إلى الله، وعماراة الأرض، فمفهوم الأخذ بالأسباب يتجاوز مجرد التنظير ليلامس الجوانب العملية والتطبيقية في مسيرة الدعوة، كإعداد الأفراد وصناعة القدوات، فسنة الأخذ بالأسباب تؤكد على أهمية التربية والتأهيل لإعداد أفراد متميزين قادرين على حمل رسالة الدعوة، وهذا الإعداد يشمل الجوانب المعرفية والمهارية والأخلاقية، ليكون الداعية قدوة حسنة في سلوكه وعمله، ما يضمن بذلك استمرار الدعوة وتأثيرها.

وفي هذا الإطار فإن سنة الأخذ بالأسباب تساهم في بناء الثقة والصمود أمام التحديات، فتتقوى بذلك شوكة العمل الدعوي من خلال تعزيز ثقة العاملين بالدعوة، فعندما يرى الدعاة أن جهودهم المبذولة بطرق منظمة وسليمة مع الاستعانة بالله تعالى، يزداد يقينهم بأن عملهم سيثمر، مما يعزز عزيمتهم ومثابرتهم لتجاوز العقبات ومواجهة التحديات والمعوقات، عند العمل بسنة الأخذ بالأسباب؛ التي تهيب الداعية نفسيا لمواجهة الصعاب والثبات في العمل الدعوي، لأن قلب الداعية تعلق بذكر الله وشكره، وقطع سبيل الطمع في البشر، فيكون هذا البناء الروحي مكملًا للبناء المادي للدعوة، ويجعلها صامدة أمام الأزمات.

- إن النصر والتمكين لا يتحقق دون الأخذ بالأسباب، والدليل على ذلك ما نجده في كتاب الله تعالى واضحا من سيرة الأنبياء والرسل، الذين مكّن الله تعالى لهم ولدعوتهم جزاء ما بذلوه من أسباب، تدل على التخطيط البشري وما يلازمه من توكل إلهي، وهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وبناء المجتمع الإسلامي ونشر الدعوة فيه، خير مثال على السعي لتوفير بيئة متكاملة للنجاح، فالأخذ بالأسباب يخلق بيئة متوازنة بين العمل الدنيوي والسعي الروحي، مما يضع المشروع والبرنامج الدعوي في أفضل حالاته لتحقيق التمكين.

وجدير بالذكر الإشارة إلى الهجرة النبوية، وما تضمنته من تخطيط محكم وتوكل عظيم عملا بسنة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، والتي تجسدت في التخطيط المسبق، حيث اختار النبي ﷺ أبا بكر رفيقا له، وأعدّ راحلتين، واستأجر دليلا خبيرا بالطريق رغم كونه مشركا للاستفادة من خبرته، "هو عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هاديا خريتا-ماهرا بالطريق-، وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلمنا إليه راحلتيهما، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما،... كما أتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة، وأخذ بهم الدليل-عبد الله بن أريقط- على طريق الساحل"¹، فكان التخفي وتضليل الأعداء، عبر الطريق الغير مألوف الذي سلكه مع صاحبه، ومكوئتهما في غار ثور لعدة أيام، وترتيب من يأتيهما بالطعام والأخبار، مثل عبد الله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر، ومن يمحو آثارهما وهو عامر بن فهيرة، كلها أسباب مادية، لم تغنه ﷺ عن الاستعانة والتوكل على الله تعالى الذي كان أساس

¹ - صفى الرحمان المبار كفوري، الرحيق المختوم، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ط1، 2006، ص193.

الأسباب المعنوية، فعندما قال أبو بكر للنبي ﷺ: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا" أجابه بكل ثبات ويقين: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ قال تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة/40.

وفي المقابل فإن التكاسل، والتواكل والتفريط في الأخذ بالأسباب، سبيل الركود والعجز والهوان، والتخلف في ركب الأحلام والأوهام، وترك الأخذ بالأسباب يُعد تعطيلاً لشرع الله ومصالح الدنيا، فالمؤمن الحقيقي مطالب بالجمع بين العمل الدؤوب والتوكل الصادق، لنيل حسن الجزاء في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، والعلاقة بينهما تكميلية لا تعارضية، فالمسلم يبذل قصارى جهده في الأخذ بالأسباب المتاحة، ثم يترك النتائج لله مع الثقة الكاملة في قدرته وحكمته، قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة/105، وهذا يدل على أن العمل والسعي مطلوب، مع الإيمان بأن التوفيق من عند الله تعالى.

وبناءً على هذا الفهم المتكامل يتحقق التوازن لدى المسلم بين الإيمان بالقدر وأهمية الأخذ بالأسباب، وهو من أبرز وأجمل خصائص العقيدة الإسلامية. فالمتوكلون على الله حقاً لا يكتفون بالاعتماد على الإرادة الإلهية، بل يحرصون على الأخذ بالأسباب المشروعة، وإلا أصابهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان في الأرض. وعلى النقيض من ذلك، فإن الجاهلية الأوروبية الحديثة تمارس الأخذ بالأسباب منقطعة عن الله وقدره، ما قد يثمر إنتاجاً مادياً هائلاً، لكنها تعيش في قلق واضطراب نفسي وعصبي، وقد تصل إلى الانتحار أو الضياع، إذ إنها تفتقد الطمأنينة الروحية التي يجدها المؤمن المتوكل على الله والواعي لقدره.

أضف إلى كل ما تقدم، فإنّ فقه سنة الأخذ بالأسباب سبيل لفهم الواقع وإبصار المستقبل، بقراءة مستقبلية نحو بناء مشروع حضاري متكامل تتجسد فيه معاني التمكين، لأننا ندرك من خلال هذه السنة أن الجزاء من جنس العمل، وأن بلوغ القيادة والريادة خاضع لمنهج سنني، يتضمن أسباباً ثابتة وشروطاً مطّردة، وليس وليد الصدفة والفوضى والعشية، "وتؤدي الطبيعة المنتظمة والثابتة للسُنن الإلهية الحاكمة لحركة التاريخ والمجتمعات إلى إيجاد وعي منهجي مُستنير لدى المسلم. هذا الوعي يدفعه إلى دراسة هذه السُنن وتحليل مساراتها التي تُحدّد حركة الأمم -صعوداً وهبوطاً، تقدماً وتأخراً، قوةً وضعفاً- بهدف فهم المسار التاريخي لأمتة واستشراف مستقبلها.

وإن هذا الوعي ينبثق من الإيمان بحتمية السنن واطرادها، مما يمكّن المسلم من التفاعل مع التاريخ بمنطق السببية والقوانين الثابتة، متجنباً تفسير الأحداث عبر منظور العشوائية أو المصادفة العشوائية أو الخرافة. كما يحول

هذا المنهج دون الانخراط في السجلات الفلسفية المفرطة حول "نهايات التاريخ" أو "ما بعد الحداثة" وما شابهها من مقولات، مركزاً بدلاً من ذلك على تحليل الواقع وفق المنظور التأسيسي الذي تقدمه السنن الإلهية.

وبذلك، يُشكّل هذا الفهم الإدراكي أساساً متيناً للتعامل مع الواقع، حيث يجمع بين الثبات المنهجي - المستمد من ثبات السنن الإلهية - والمرونة في التعاطي مع المستجدات والمتغيرات¹، فتدبر سنة الله في الأخذ بالأسباب طريقاً للصالح في الحال والفلاح في المآل.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فإن فقه سنة الأخذ بالأسباب وقاية من الأمراض والأزمات التي تلحق بالمجتمعات: فهي تشكل دليلاً ومنهجاً وقائياً احترازياً للتعامل مع المشكلات الطارئة على المجتمعات، حتى قبل حدوثها، وذلك بإعمال وحشد الأسباب التي تمنع ذلك، أما في حال وقوع هذه الأزمات فإنها تُحسن إدارتها والتعامل معها وتسعى لإيجاد حلول لتجاوزها، فالعمل بسنة الأخذ بالأسباب تمكين للمجتمع بتفادي المشكلات وفق منهج قيمي سنني رباني، يضمن للمجتمع الأمن والأمان والعيش بسلامة واطمئنان.

ونقطة أخرى نود الإشارة إليها، هي أن الأخذ بالأسباب من صميم العبودية، ذلك أن الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، فهو من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، لقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/ 60، وهذا يدل على أن الإعداد والتخطيط والأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، هو جزء لا يتجزأ من منهج التمكين.

وفي الختام يتبين أن سنة الأخذ بالأسباب ليست مجرد وصية سطحية، بل هي منظومة متكاملة وعميقة تضرب بجذورها في أصول الشريعة الإسلامية، وهي تجسيد لمفهوم العبودية الشاملة، حيث يجمع المسلم بين الجهد البشري المتقن والتوكل القلبي الصادق على الله تعالى، لتؤكد هذه السنة أن التكاسل والتقاعد لا يجتمعان ولا يتفكان مع روح الإسلام، بل إن الأخذ بالأسباب هو السبيل لتحقيق النجاح والتوفيق في الدنيا والآخرة، وهو يعكس وعي المسلم بدوره كخليفة في الأرض، يعمل بما أمره الله تعالى به، ويثق في تديره وحكمته.

- ومن خلال ما سبق يمكن القول أن:

- يؤكد القرآن الكريم أن الله خلق الكون بنظام، وجملة من القوانين والسنن لا تتبدل ولا تتغير، فتعمل في نظام ثابت لتنظيم سيره، وضبط حركته، ومنها سنة الأخذ بالأسباب، أين ترتبط الأسباب بالمسببات والعلل

¹ - محمد عبد الفتاح الخطيب، "قيم الإسلام الحضارية: نحو إنسانية جديدة"، كتاب الأمة، العدد 139، السنة 30، قطر، 2010، ص 178-179.

بالمعلولات، والنتائج بالمقدمات ارتباطا وثيقا، وأصل العمل بها هو احترام لباقي السنن في التعامل معها بوعي.

- سنة الأخذ بالأسباب هي مبدأ إسلامي يجمع بين ضرورة بذل الجهد والسعي العملي لتحقيق الأهداف، مع الثقة التامة والكاملة في التوكل على الله، وهذا التوازن يُحوّل دون التواكل السلبي أو الاعتماد المطلق على الأسباب المادية فقط، فهي سنة تحث على التخطيط الجيد والاجتهاد في العمل، وعدم انتظار النتائج دون بذل الجهد، فسنة الأخذ بالأسباب تحفّز على الإيجابية والفعالية، نحو تحقيق المصالح الفردية والمجتمعية.

- إنّ سنة الأخذ بالأسباب معناها؛ بذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيق مطلب دينوي أو أخروي، مع الاعتقاد الجازم أن النتيجة بيد الله تعالى، والسبب مجرد وسيلة لا قدرة ذاتية فيه.

- تنقسم سنة الأخذ بالأسباب إلى قسمين مترابطان؛ أسباب مادية وأخرى معنوية، تشمل الأسباب المادية التخطيط وتوفير الموارد والطاقت واستخدام التقنيات...، بينما تركز الأسباب المعنوية على الإيمان والإخلاص، الدعاء والصبر التوكل والاستعانة بالله... وإن كلاهما ضروري لتحقيق النجاح والتمكين.

-إن سنة الأخذ بالأسباب منهج حياة متكامل، يوجّه الإنسان المسلم نحو الجمع بين الجهد البشري والاعتماد الكلي على الخالق، وهذا ليس مجرد توصية بل هو سنة كونية تؤكد أن الله أقام هذا الكون على نظام محكم تحكمه قوانين وسنن تربط الأسباب بالمسببات، فالنصر والتمكين سواء في أمور الدين أو الدنيا، لا يتحققان بمجرد التمني والتواكل، بل يتطلبان سعيا جادا وعملا دؤوبا مع إيمان راسخ بأن النتائج بيد الله وحده لا شريك له.

-إن أساس تمكين العمل الدعوي، هو تطبيق سنة الأخذ بالأسباب، وهو ما يؤدي إلى تنظيم وفعالية هذا العمل الدعوي، وتعزيز ثقة الدعاة وتقليل العشوائية، مما يسهم بذلك في تحقيق أهداف الدعوة بشكل مستدام ويواجه التحديات والعقبات بكفاءة ومرونة.

-لقد جسد النبي ﷺ سنة الأخذ بالأسباب في جميع جوانب حياته، بدءا من التخطيط للهجرة، مرورا بإعداد الجيوش في المعارك، ووصولاً إلى تدبير شؤون حياته اليومية، فقد كان ﷺ يتخذ جميع الأسباب المتاحة له، ثم يتوكل على الله في تحقيق النتائج، وهذا المنهج يغرس في المسلم روح المبادرة والإيجابية، ويبعده عن السلبية والكسل، مع التذكير الدائم أن عمل الإنسان وقوته لا يغنيان عن عون الله وتوفيقه.

المبحث الثالث: سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

إن تغير أحوال الأفراد والأمم والمجتمعات من حال إلى حال ومن وضع لآخر، واقع مشهود نعيشه وظاهرة يستحيل تغييبها أو التغافل عنها، ذلك أن هذه المجتمعات مثلاً بطبعها دائمة التغير؛ من قوة وتقدم وازدهار إلى ضعف وتأخر وانحطاط، ومن سعادة ورخاء إلى حزن وشقاء، ومن أمن واطمئنان إلى قلق وخوف وحرمان، ومن نصر وعزّ وتمكين إلى هزيمة وذل وتغييب... ناهيك عن جملة واسعة من حلقات وصور التغيير الاجتماعي المستمرة، فدوام الحال من المحال.

ومما لا شك فيه أن هذا التغيير للحوادث ومجريات الأمور، ليس وليد الصدفة والعشوائية، لأن كل شيء عند الله تعالى بمقدار، وبالتالي فإن له قانوناً يضبطه وسنة إلهية مطردة منتظمة تحكمه؛ هي سنة الله في التغيير، وهي سنة ثابتة لا تحيد ولا تميل، سارية على الجميع في كل عصر ومصر، على الأمم والجماعات في صيغة قانون شامل لا يتخلف ولا يحابي طرفاً على آخر، فهي جارية في أي زمان ومكان، تشمل المؤمن والكافر، الأبيض والأسود لا يعترها تبديل ولا تحويل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/ 11، فتغيير الله تعالى لواقع الناس نتيجة حتمية لتغيير البشر ما بأنفسهم سلباً أو إيجاباً، لأن التغيير يبدأ من النفس أولاً.

وبالتالي فإذا وجدت الأسباب فالنتائج تتبعها، لأن سنة الله تعالى في التغيير اقتضت أن تظهر النتائج في البشر عامة، بناء على تصرفاتهم وسلوكياتهم ووفق إرادة الله وحكمته، وفي القرآن الكريم الكثير من القصص الذي يجسد سنة التغيير، منها ما تناولته سورة سبأ حول قصة أقوام كفروا النعمة فظلموا أنفسهم، إذ استعانوا بنعم الله على معصيته، فكذبوا رسل الله وأعرضوا عن اتباع أوامر الله، وعبادته وشكره وحمده على نعمه، فكان مآلهم مما لا يحمد عقباه؛ حيث غير الله حالة النعم والرفاهية واتساع الرزق والرخاء الذي كانوا عليه، وبدّلها بشقاء وعسر وشدة، فكانوا أفقر الناس بعد غنى وأذل الناس بعد عزّ جزاء ما كسبته أيديهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَتَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ سبأ/ 15-17.

لذلك فمن الأهمية بمكان القول، أنّ السلوك البشري الفردي والمجتمعي تضبطه سنة ثابتة مطردة، تدل دلالة قاطعة على العدل الإلهي في إقامة العمران، وتحقيق وأداء أمانة الاستخلاف.

المطلب الأول: تعريف سنة التغيير وأهميتها:

1- تعريف سنة التغيير:

- لغة: يدل لفظ التغيير لغة على وجهين اثنين:

- "تَغَيَّرَ الشيء عن حاله: تَحَوَّلَ، وَغَيَّرَهُ: حَوَّلَهُ وَبَدَّلَهُ كَأَنَّهُ جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ"¹.

فالتغيير: هو التبدل والتحويل، وهو يحدث على وجهين، أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال غيرت داري إذا بنيتها بناءً غير الذي كان، والثاني لتبديله بغيره، نحو غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتها بغيرهما²

وقال الفيروز آبادي: "تَغَيَّرَ عن حاله: تَحَوَّلَ، وَغَيَّرَهُ: جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ، وَحَوَّلَهُ وَبَدَّلَهُ"³

وقيل: التغيير إحداث شيء لم يكن قبله، والتغيير هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى⁴

وخلاصة القول أنّ مدار كلمة غَيَّرَ في اللغة كالتالي:

- إحداث شيء لم يكن قبله.

- انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى.

- اصطلاحاً:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للتغيير عن نطاق المعنى اللغوي، تغيير الله لحالة الناس لا يكون نتيجة حتمية لتغيير كافة الناس لحالتهم، بل قد يحصل التغيير الإلهي بسبب التغيير الحاصل من بعضهم دون بعض، كما جاء في تفسير القرطبي لآية: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير إما منهم، أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال ﷺ: وقد سئل أهلك وفينا الصالحون قال: (نعم إذا كثرت الخبث)⁵

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 5، ص 41.

² - الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ج 2، ص 477.

³ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص 453.

⁴ - الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص 63.

⁵ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قيمة يأجوج ومأجوج، ص 929.

⁶ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج 9، ص 294.

وليس بالضرورة أن يكون التغيير من حالة حسنة لحالة سيئة، أو من حالة سيئة لأخرى حسنة، بل قد يكون من حالة حسنة إلى حالة أحسن منها، أو من حالة سيئة لحالة أسوأ منها، كما كان الحال بالنسبة لكفار قريش وقوم فرعون" وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفارا ولم تكن حالهم مرضية، فغيروا تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها؛ من تكذيب الرسل والمعاندة والسعي في إبطال آيات الله، فغيّر الله تعالى ما كان من النعم عليهم وعاجلهم ولم يمهلهم¹

وجدير بالذكر أن سنة التغيير لا تختص بقوم دون آخر، ولا بأمة دون سواها، بل هي عامة وشاملة لكل الأقوام والأمم دون أي تخصيص، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، صالحين أو فاسدين، متقدمين أو متخلفين، ذلك أن ميزان السنن الإلهية يلقي كافة الفوارق، فلا يحابي أحدا ويميل لكفته، فالجميع يُحكم بميزان العدل والمساواة دون أي تفرقة، على أساس الدين والأصل مثلا أو الجنس واللون، وهو حال اليهود والنصارى الذين ادعوا أفضليتهم على سائر الأمم، فناقش القرآن الكريم هذا الانحراف ورد عليه من خلال قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المائدة/18، وهو أيضا واقع الأمة الإسلامية التي اغتر البعض منها بشرف النسب لرسولها خير خلق الله محمد ﷺ، وأنها من خير الأمم التي أخرجت للعالمين، فلا ينبغي أن يحل عليها عقاب أو حساب، بل تتقلب في الحيرات والنعم وتعيش لملك والسيادة على باقي الأمم، فجاء القرآن الكريم مصححا لهذه الأفكار، مخاطبا المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبُكُم عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ التوبة/39.

فسنة التغيير سنة عامة، تنطبق على جميع الأفراد والأمم والجماعات، دون تمييز أو استثناء، لأن دلالة لفظ "بقوم" من الآية القرآنية" تعني الجمع أو الجماعة التي يطلق عليها أمة أو مجتمع"². وهي "انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان"³.

وخلاصة القول مما سبق فإن: سنة التغيير تعني: عادة الله الثابتة والمطرّدة بتغيير أحوال الأفراد والجماعات من حال حسنة محمودة إلى حال سيئة مذمومة أو العكس، بناء على فعل هؤلاء الأفراد والجماعات أولا، وما يحدثونه من تغيير على المستوى العقدي، الفكري، السلوكي، الأخلاقي.

¹ - محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط، دار الفكر، ط2، 1978، ج5، ص507.

² - جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، مرجع سابق، ص38.

³ - المرجع نفسه، ص27.

2- أهمية سنة التغيير:

لعل سنة التغيير من أعظم وأهم السنن الواردة في القرآن الكريم، كيف لا؟ وإن إرسال الرسل وإنزال الكتب جاء لتحقيق غاية ومقصد عظيم، هو تغيير المجتمعات ودعوتها للرجوع إلى عبادة الله وحده، وبالتالي إخراجها من ظلمات الجهل وطلاسم البدع والشرك والوثنية، إلى نور الإسلام وهداية الإيمان بأصول العقيدة، والاستقامة على منهج الله، وذلك مفتاح التغيير

وفي هذا الإطار نجد في القرآن الكريم دعوة واضحة وصريحة تدعو لضرورة الاعتبار من سنن السابقين في إحداث التغيير، وتحويل واقع مجتمعاتهم من حال لحال، والذي لم يكن وليد الصدفة أو العشوائية بل وليد جملة شروط وأسباب وقواعد لا تحابي طرفاً على آخر، ولا ترجح لكفة دون أخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فالتغيير الاجتماعي يخضع لسنن ربانية ثابتة مطردة.

ولا مناص من القول أن الحديث عن سنة التغيير هو حديث عن منهج القرآن كله في التغيير، كونه نزل على قلب محمد ﷺ ليغير حياة الناس الذين طالما تعطشوا للتغيير والإصلاح، وضاقوا من الفساد الذي عثّش في حياتهم، فالقرآن منهج لا يرضى الفساد والتعاش مع واقع سيء يسود كافة المجالات في حياة الأفراد والمجتمعات، فالتغيير ضرورة حياتية وحاجة إنسانية في سبيل البناء الأخلاقي وبقاء المجتمعات ونموها، وللتكيف والتوازن مع متطلبات الأفراد وحاجياتهم المتجددة، وللتغيير أثر عظيم على مصالح الناس الدنيوية والأخروية.

وجدير بالذكر أن للتغيير أثر ووقع شديد على النفس، لأن الإنسان مفطور بطبعه على الأُنس بما اعتاد عليه وألفه وتعايش معه، والدليل على ذلك معارضة وعناد الكفار لدعوة أنبيائهم ورد دعوة التغيير لهم بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف/ 23، لكن القرآن الكريم رد على هذه الانحرافات وناقشها بالدليل، ليكشف أن التغيير مطلب ضروري، لانتشال النفس من ضعفها وشهواتها، بهمة عالية وإرادة واثقة تُكسب النفس قوة العمل والبناء، لتغيير حال المجتمع والنهوض بالأمة إلى عزّها ورفعته وإعادتها إلى مكانها بين مصاف الأمم.

ومن المناسب الحديث عن أهمية سنة التغيير في الهدى النبوي، والتي كانت مصدر إشعاع لكل إصلاح في عصر النبوة، فقد كان ﷺ دائم السعي لإحداث التغيير في جملة العادات والمعتقدات والموروثات الفاسدة والمنتشرة في واقعه، بواسطة تغيير ما في النفوس أولاً، وهو ما تجسد في دعوته خلال المرحلة المكية؛ أين تمثل قيم الإسلام ومبادئه في نفسه الطيبة ونفوس صحابته الكرام ﷺ ثم توسع بعدها في دائرة التغيير المجتمعي لبناء وإقامة دولة

إسلامية جديدة، نابضة بدين الحق والهدى.

تتضح أهمية سنة التغيير كونها تُعد شرطاً ضرورياً لبعث كل بناء حضاري، وأساساً لإحداث أيّ نهضة، ومفتاحاً لبلوغ كل تطوّر وازدهار وتقدم، فالأُمم والمجتمعات بطبيعتها تنشُد التغيير وتروم الإصلاح والتجديد والانتقال من حال لآخر، لكن تحقيق ذلك مقيد بمدى فهمها وفقهها للتغيير؛ كونه قانون ثابت وسنة إلهية مطّردة، لها جملة من الشروط والوسائل والمقدمات الواجب استحضارها، والسير على نهجها واتباع كافة متطلباتها، قصد استكشافها واستثمارها في حسن تفعيلها لإحداث التغيير المنشود لواقع الأمم والمجتمعات، على كافة المستويات.

كما لا يفوتنا أن ننوّه بأهمية التغيير الشامل، الذي يكفل تحقيق الأهداف والغايات الكبرى، وما يشترط لذلك التغيير من مناخ وظروف مناسبة، من شأنها رعاية هذا التغيير والتقدم به نحو الأهداف المنشودة، وهذا ما يوجبه العمل الدعوي الذي ينطلق من ثوابت وأصول، تسعى لإحداث نقلة على شتى المستويات العقدية، والفكرية والاجتماعية والسياسية... لإنجاح مشروع التغيير والإصلاح، وهذا ما تجسّد في النموذج النبوي الذي قاد المجتمع نحو ذروة الإصلاح، ونشر الدعوة في كل الأمصار مجسداً سنة التغيير للامتداد بها نحو التمكين.

المطلب الثاني: مقومات سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

إن سنة التغيير الإلهية تمثل أحد المحركات الأساسية لمسيرة البشرية، وهي سنة ماضية لا تتخلف ولا تبدل، تقوم على حكمة بالغة وغايات سامية. وفي سياق العمل الدعوي، تبرز هذه السنة كمنهج متكامل يضع الأسس والضوابط اللازمة لتحقيق التحول الإيجابي في الأفراد والمجتمعات، وتمكين رسالة الدعوة في الواقع.

فالتغيير الحقيقي ليس مجرد تعديل في الشكل أو تحول سطحي، بل هو عملية عميقة وجوهرية تمس أعماق النفس البشرية وبنى المجتمعات، وتستند هذه السنة إلى مقومات راسخة، تبدأ من تغيير النفوس وصولاً إلى تغيير الواقع والمجتمعات وفق منهج الله تعالى، ومن خلال التفاعل الواعي مع هذه السنة، يتحول العمل الدعوي من ردود الأفعال إلى صناعة الأحداث، ومن الجهود الفردية إلى الحراك المجتمعي المؤثر، مما يضمن له الاستمرارية والثبات، ويؤهله لتحقيق التمكين المنشود، الذي تجسده قيادة الأمم وهداية الشعوب إلى صراط الله المستقيم.

وفيما يلي بيان لأهم مقومات سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

1- مقومات سنة التغيير: لا تتحقق سنة التغيير على مستوى الأفراد والجماعات إلا إذا تحققت جملة

عوامل أساسية ومفتاحية، بها يتيسر المشروع التغيير في عملية البناء الجديدة، ومن المناسب أن نستهل الحديث عن:

- العقيدة: تُعد العقيدة الصحيحة ومفتاحها الإيمان بالله وتوحيده؛ شرطا أوليا ومحركا أساسيا لتحقيق سنة التغيير، ذلك أن " الركيزة الأساسية في منهاج التغيير الإسلامي هي الإيمان بالله عز وجل إيمانا حيا نابضا، وما يتبع ذلك من توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، ثم الإيمان ببقية أركان الإيمان من إيمان بالملائكة وبالكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، ثم ما ينتج عن هذا الإيمان من تصور صحيح عن الكون والإنسان والحياة، وإن هذه المعرفة ضرورية لأنها هي التي تدفع للتغيير وهذا الاستيعاب كان أساس كثير من الحركات الإسلامية"¹ فتعد العقيدة طاقة روحية باعثة على التغيير وتحقيق الحضارة، والعمل الصالح الذي يترجم هذا الإيمان إلى سلوك هو صمام الأمان للحفاظ على هذه الحضارة.

وبما لا يدع مجالا للشك فإن كل منهج دعوي إصلاحي لا يعتمد في التغيير على تصحيح جملة الأفكار الخاطئة والموروثات والعقائد الباطلة، فهو لا يعد بالأساس منهجا تغييريا صحيحا، وهذا ما يؤكد حرص النبي ﷺ الشديد في مشروعه التغييري عند بداية الدعوة الإسلامية على تثبيت وترسيخ مفاهيم عقائدية صحيحة، تخرج الفرد من جهالته وانحرافاته وشهواته الدنيوية لتحليه وتزكيه بجملة القيم والمبادئ الأصلية الفاضلة التي تهدب النفس وتربي العقل

فكانت أولى خطواته ﷺ في الدعوة إصلاح ما تلطخت به العقول؛ من معتقدات ضالة وأفكار منحرفة، ويرسخ في المقابل للناس شهادة " أن لا إله إلا الله " تصديقا جازما بوجود الله تعالى وما يجب له من التوحيد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ثم تدرج لتثبيت باقي أصول العقيدة بما يشكّل لدى الإنسان رؤية واضحة صحيحة عن الله والإنسان والحياة والكون، لإصلاح الاعتقاد أهم وأول ما ابتدأ به الإسلام، لأن الإنسان يقاس بروحه لا بجسمه، فإذا صلح اعتقاده أمكن تغييره.

فلا يفوتنا أن ننوه بأهمية العقيدة الإيمانية في سنة التغيير، كونها ليست أمرا منعزلا عن واقع الحياة الإنسانية، بل إن الإيمان بالله علامة على سلامة الفطرة الإنسانية، وحيوية في البنية البشرية، والإيمان بالله تحرر من عبودية هوى النفس وعبودية العبيد، وهو السبيل الذي يجعل الإنسان أقدر على النجاح بعمارة هذه الأرض وخلافتها خلافة راشدة ترتسم فيها معاني سنة التغيير، فقد جعل الله تعالى أحوال الناس بين الصلاح والفساد مرتبطة بما في نفوسهم وقلوبهم من المبادئ والمعتقدات؛ فإذا صحت وصلحت عقيدة الإيمان صلحت أحوالهم، وأما إذا فسدت عقيدتهم ومبادئهم، فسدت وساءت أحوالهم وأوضاعهم.

¹ - أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، مرجع سابق، ج2، ص530.

لذلك فمن الأهمية بمكان القول أن "البعد العقدي هو ركيزة المشروع التغييري، الذي جاءت الدعوة الإسلامية به لكي تصلح أوضاع الإنسان عامة على امتداد الزمان والمكان،... ذلك لأن أمر العقيدة يتجاوز مجرد حفظ مفرداتها، إلى تقريرها في النفس والفكر، والعناية المستمرة بتغذيتها حتى تظل حية متوثبة في أعماق الضمير، فلا يخبو وهجها وإشراقها بفعل ضغوط الواقع المعاش"¹

وختاماً فإن سنة التغيير تركز على أن يكون منطلق التغيير جوهرياً عقائدياً باطنياً، لا مجرد تغيير شكلي سطحي ظاهري، فيه تتشكل ملامح البناء الجديد للإنسان صاحب العقيدة الصحيحة السوية، والمبادئ القويمة والشخصية الإسلامية القوية، لأن مصدر الأقوال والأفعال والسلوكيات ما هو إلا ترجمة حيّة لما وقر واستقر في القلب وترسخ في معتقد الإنسان، فالعقيدة هي الدافع والوازع الذي يحرك الإنسان للتغيير وإقامة النفس على أمر الله وهديه وفطرته التي فطر الناس عليها.

لذلك فمن الأهمية بمكان القول أنّ تصحيح التصور الاعتقادي من شوائب الجهل بأصول العقيدة وأركانها، -الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره- ومخاطر التقليد الأعمى لموروثات الآباء والأجداد، وأفكار الغلو والتطرف، والانغماس في الشهوات والملذات، وما نتج عنها من هزيمة نفسية وضعف إرادة وانحسار وعي الفرد المسلم، يحتل مقام الصدارة لتحقيق مسيرة سنة تغيير النفوس والأفكار والعلاقات، بإقامة الإسلام على أصوله ومبادئه الصحيحة من غير إنكار ولا جحود هو الطريق الصحيح لإقامة سنة التغيير.

-الإنسان: خلق الله الإنسان وكرّمه على سائر المخلوقات، وجعله خليفة في الأرض فقال تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" الإسراء/ 70، وكان العقل أعظم ميّزة وخاصية تجلّ بها هذا الإنسان ليحقق به الغاية من وجوده، فعلمه البيان، وهده لسبيل الرشاد من خلال قوانين ثابتة قائمة على أسباب ونتائج لا تحايي أحداً من خلقه، ما يستوجب بذلك على الإنسان معرفة هذه السنن وحسن التعامل معها للاستفادة منها.

وقد تكرر ذكر الإنسان في ثنايا القرآن الكريم، باعتباره دعامة ضرورية لقيام سنة الله في خلقه؛ هي سنة التغيير، فمن غير الممكن تحقيق أي تغيير اجتماعي، في ظل غياب الكتلة البشرية القادرة على إحداث التغيير، والتي تشكل بذلك أرضية خصبة، تهيئ المناخ الملائم لبرنامج ومشروع التغيير، في ظل الواقع المشهود نحو بلوغ التمكين.

¹ - الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، مرجع سابق، ص 245.

ولا مناص من القول، أن بناء الحضارة بصفة عامة يبدأ ببناء الإنسان، فهو المحور الأساسي لأي مشروع حضاري تغييري، كما بيّن ذلك مالك بن نبي في الكثير من كتاباته، فالإنسان كائن يحمل أفكارا وقيما وأخلاق بها يحوّل المادة "التراب" والوقت إلى إنجازات حضارية، وبالتالي فإن تأهيل الإنسان في شتى مجالات الحياة هو مفتاح التغيير، "وتغيير النفس معناها إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، بتوفير الدافع الداخلي الذي يجعلها تنتصر على ما أصابها من خمود"¹، وعلى هذا الأساس أولت سنة التغيير اهتمامها وعنايتها بالإنسان عامة وبمحتواه الداخلي خاصة؛ تربية وتعبئة وتوجيها وتهذيبا وترشيدا.

إنّ "البنى الداخلية للفرد - من قيم ووعي وأخلاق - تشكّل الأساس الجوهرى الذي تُبنى عليه حركة التاريخ. فالهياكل الاجتماعية العلوية بمختلف مكوناتها - من أنظمة وعلاقات وأفكار - ما هي إلا انعكاسات وتحليلات لتلك البنى الداخلية، وتخضع في تطورها وتحولها لتغير تلك الأسس النفسية والفكرية.

فكما أن المبنى يتأثر بأساسه، فإن التحولات الاجتماعية الكبرى لا تحدث إلا عندما تطرأ تغييرات جوهرية على البنية الداخلية للإنسان. وبالمقابل، فإن استقرار هذه البنية وثباتها يؤدي إلى استقرار الأنظمة والعلاقات الاجتماعية واستمرارها.

وبذلك يمكن القول إن عملية التغيير الحضاري تبدأ من الداخل، حيث يُعد تحول الوعي الفردي والقيمي الشرط الأساسي لأي تحول مجتمعي حقيقي، بينما تبقى محاولات التغيير الخارجي - دون مساس بالبنى الداخلية - مجرد تعديلات سطحية لا تلبث أن تزول بزوال مؤثراتها"².

وتماشيا مع ما تم ذكره فإن منطلق سنة التغيير هو تغيير الفرد وصولا بعد ذلك إلى الجماعة، فإذا تغيّرت النفس وصلحت أمكن بعد ذلك نقل هذا التغيير إلى المجتمع وإصلاحه، وإذا صلحت نفس الإنسان صلح عقله وتفكيره، فيصبح شخصا مثقفا وفعّالا في محيطه، فالإنسان هو ذلك الشخص الذي يصنع التغيير انطلاقا من نفسه وقدراته وإيمانه بقيمته وسط مجتمعه، فإذا تحرك نحو الهداية والإصلاح والإصلاح تحرك معه المجتمع، وإذا غرق في الضلال والفساد والمنكرات غاب الإصلاح واستحال التغيير.

ولعل من نافلة القول التأكيد على كون فاعلية الإنسان تتحقق من ثقافته والتي يعتبرها مالك بن نبي "ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب"³، بقدر ماهي تشكيلة لعناصر مختلفة تتداخل

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط5، 1986 مرجع سابق، ص54.

² - محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، مرجع سابق، ص 111-112.

³ - مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، دط، 1979، ص148.

فيها الأخلاق والذوق الجمالي والعلم أو الصناعة، فيقول: "إن الثقافة تشتمل على أربعة فصول: فصل أخلاق، وفصل جمال، وفصل منطق عملي، وفصل علم"¹، فتفاعل هذه الفصول مع بعضها لتجعل هذه الثقافة مصدر تغيير للمجتمع.

كما لا يفوتنا أن ننوّه بأن فاعلية الإنسان وحضوره على الساحة الاجتماعية الخارجية مرهون بمحتواه الداخلي - النفسي والروحي والفكري - وما يتضمنه من قيم ومثل عليا أرشد إليها القرآن الكريم، ذلك أن ظاهر الإنسان وخارجه مرآة عاكسة لباطنه وداخله، وهو ما ارتكزت عليه سنة التغيير ليكون محورا لها نحو البناء والتجديد الذي يتطلب سعيًا وجهداً، يولج الإنسان القيادة والريادة في عالم النهضة والتطور الحضاري بين الأمم وبالتالي جني ثمرة التغيير المنشود.

فالإنسان محور التغيير ولّبه، باعتباره اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، ويلزمه جملة شروط تؤهله لإقامة هذا التغيير، منها وأهمها تركية نفسه أولاً وتربيتها على جملة المبادئ والقيم السامية والمعايير والمثل العليا التي نزل بها الوحي في الخطاب القرآني، لأن تغيير ما بالنفس هو الذي ينتج أنواع السلوك الأخرى، وتُعرف عملية تغيير النفس، في إطارها الجوهري، بأنها تمكين الفرد من تجاوز واقعه الراهن والارتقاء فوق حالته المألوفة، ولا يندرج هذا التحول ضمن نطاق علم الكلام التقليدي، بل يستلزم تطوير حقل معرفي مستقل يمكن تسميته "علم تجديد الصلة بالله"، الذي يهدف إلى إعادة بناء العلاقة الوجودية والمعنوية بين العبد وربّه.

ويتمثل الدور المركزي لهذا العلم في بناء واقع داخلي أصيل لدى أفراد المجتمع، يستجيب لحاجتهم النفسية والروحية العميقة إلى تحوّل قلبي جوهري، وعليه فإن التحدي الحقيقي لا يكمن في الإثبات المجرد لوجود الله - وهو أمر مُسلّم به في الإطار العقدي - بل في تحويل هذا الإيمان إلى تجربة شعورية حية تملأ كيان الإنسان، وتُستثمر كمصدر دائم للطاقة المعنوية والدافعية نحو التغيير الإيجابي².

فتعتبر بذلك المرحلة الروحية للإنسان صافرة انطلاق لكل تغيير فكري ثقافي، واجتماعي وسياسي... وإن كل تغيير يعالج المظاهر، دون اجتثاث أسبابها وجذورها تغيير فاشل عقيم.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية الإنسان في سنة التغيير، أين تتضح معالم تغيير الأفكار والمعتقدات، والعادات والسلوكيات بدافع التقوى والإيمان، والطاعة والانقياد لطريق الهداية والإسلام، لأن الارتقاء بسلوك الإنسان وتنمية

¹ - المرجع نفسه، ص152.

² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص54.

علاقاته يكون نتيجة الارتقاء الروحي والمعرفي، كما تعتبر حياته ﷺ قدوة حسنة ومثالا واقعيا عمليا لسنة التغيير؛ بما حملته نفسه الشريفة من أخلاق وآداب عالية، وما زرعه فأثمر في صحابته تغييرا جذريا لما في النفوس والعقول.

فكان سعيه ﷺ منذ بداية الدعوة إحداث تغيير داخلي في النفوس البشرية -لما تكبدته من آثار معتقدات وعادات ضالة عطلت الفكر وشوّمت الفطرة السليمة-، فكان يفرغ صحابته من كل محتوى جاهلي يتناقض مع أحكام الإسلام، ثم يملأهم بمحتوى إسلامي جديد يغيّر أفكارهم وسلوكهم وعلاقاتهم، وكان تركيز جهده ﷺ على "النفس" وداخلها، فلم يلق بالا لمجموع الأوثان والأصنام المحيطة بالكعبة، بل كان همه إصلاح باطن النفس وتحطيم الصنم الفكري المتغلغل فيها، وكانت نفسه الشريفة خير مثال وقدوة لمن أراد التزقي في مدارج التغيير نحو العبودية لله تعالى، لأنه ﷺ ترجم القرآن في حياته قولاً وعملاً، فكان قرآنا يمشي على الأرض وهو وصف عائشة رضي الله عنها له، وأثبت ذلك القرآن الكريم بوصفه، قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" القلم/4.

وتأسيسا على ما تقدم فإن سنة التغيير تتخذ من الإنسان دعامة أساسية في مشروعها التغييري، لأن الوجود الإنساني هو محور عملية التغيير، وتسعى هذه السنة لتحقيق مستوى استخلافي قيادي راق له في الأرض، من خلال فهمه الصحيح للوجود والمصير، والوعي الجيد لأمانة التكليف، وهو ما ينعكس على النفس الإنسانية أولا فتعيش في طمأنينة واستقرار نفسي، وعلى السلوك ثانيا فيلتزم الاستقامة ويتعد عن الانحراف والجريمة، وهذا كفيل للإنسان بالنجاح والتفوق في ميادين ومستويات عديدة، تحققت بفضل الإيمان بالله والعقيدة الإسلامية الصحيحة، التي غيرت منهج هذا الإنسان وحياته لتسير وفق سنن الله في خلقه.

-فهم الواقع:

إن فهم الواقع الاجتماعي والإحاطة بملاساته ومستجداته محطة بالغة الأهمية في طريق سنة التغيير، فالفهم بالواقع أولوية بالغة وجب إدراكها في طريق التغيير عامة، وفي طريق تمكين العمل الدعوي خاصة، ذلك أن سنة التغيير لا تحدث فجأة أو عن طريق الإكراه والإجبار، فتكون نتائجها مؤقتة بأثر رجعي قريب المدى، بل إنها سنة تنطلق من فهم الواقع ودراسة الظروف المحيطة به، ومعرفة شروط هذا التغيير وبيان وسائله، وكذا الإحاطة بأبرز معوقات هذا التغيير، فكلها عوامل أساسية لإنضاج عملية التغيير في المجتمع، والذي يتطلب فترة زمنية كافية حتى يؤتي ثماره يانعة.

ومما لاشك فيه فإن سنة التغيير تعتبر الحجر الأساس في العمل الدعوي، لأن الغاية منه تحقيق التغيير على مستوى الأفراد والمجتمعات، بإقامة الدين ونشر تعاليمه وحفظ مقاصده ووكلياته، " وهذا لا يتم له إلا إذا فهم هذا الواقع فهما دقيقا، وتوافرت له باقي الشروط الموضوعية الأخرى التي تمنحه القدرة على إنجاز التغيير المطلوب، ولكي يفهم هذا الواقع فهما موضوعيا سليما، يجب عليه أن يدرسه جيدا، ويحاول التعرف على كل ماله صلة تأثيرية فيه

أو تأثيرية به، من غير تحيز أو تحكم أو تجزيئية له، وحتى يدرس هذا الواقع، ويعرف طبيعة تركيبه وتفاعل مكوناته، لابد أن يجمع عليه معلومات ميدانية كافية، بواسطة وسائل جمع المعلومات الممكنة، مثل: الملاحظة، الاتصال، المراسلات، والاستعانة بالدراسات السابقة، والاستعانة بذوي الخبرة العملية المتصلة بالظواهر موضع الاهتمام.¹

وفي هذا الإطار فإن سنة التغيير توجب دراسة كاملة شاملة ومتوازنة، وأيضا منسجمة مع الواقع المراد تغييره، وذلك باستحضار المعطيات والحقائق الثابتة، لأن معرفة حقيقة الواقع الحسن أو السيئ أولى خطوات التغيير والتقدم نحو الأمام، والحياد عن ذلك يعني الغرق في دوامة التيه والضلال، والعيش في أحلام وأوهام بعيدة عن الواقع، يتأخر معها التغيير أو يغيب أصلا.

ومن المناسب الإشارة إلى سنة التغيير كونها سنة إلهية تقتضي من باب الضرورة الشرعية دراسة الواقع وفهمه، لأن الدين ليس مجرد آيات تتلى، أو شعارات تُرفع، أو طقوس وعادات تمارس في أوقات معينة، بل كان نزول القرآن منهج حياة للناس وتطبيق في واقعهم، ودليلا لتنظيم حياتهم وحل مشاكلهم، واستيعاب كافة جزئياتهم، وعليه وجب فهم الواقع للتعايش معه وإحداث التغيير المناسب له، وإلا عمت الفوضى وساد الاضطراب، ومن باب الخطأ وزيادة الوزر السعي للتغيير دون استيعاب وإلمام لواقع الفرد والمجتمع، " فإنه لا يجوز لأي مسلم يسعى للمساهمة في دعم عمليات التغيير الإسلامي المنشود، أن يضع الحلول والمناهج - وأن يقتبس التجارب الفنية - مغفلا مكان مجتمعه ومركزه وظروفه... بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها مجتمعه.

فسنة التغيير بحاجة إلى جهد كبير ووقت محدد لتظهر آثارها وتُقطف ثمارها، بتوظيف الوسائل والأدوات المناسبة لكل عصر، واستثمارها فيما يخدم الدعوة، والأمثلة الذي يمكن أن نعرضها في هذا الشأن؛ قصة نوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما داعيا إلى الله تعالى، وساعيا لتغيير عقائدهم الباطلة، وقصة يوسف عليه السلام وصبره على تحقيق التغيير وبلوغ التمكين، خير دليل على أن طريق التغيير طويل، وحاف بشت أنواع الصبر والمجاهدة، وأيضا دعوة النبي ﷺ ومراعاته لخصوصية البيئة الجاهلية المكلف بدعوتهم، حيث مكث ما يقارب الثلاث عشرة سنة في مكة يمارس سنة التغيير على صحابته الكرام؛ بتربيتهم على التوحيد والدين القويم، مع مراعاة نفوس المدعويين وواقعية طرحه.

هذا الطرح كان موافقا لحال الإسلام وتشريعاته التي تدرجت في النزول حسب الوقائع والأحداث، بكل

¹ - الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مرجع سابق، ص 386-387.

مرونة في إطار فهم شامل للواقع الإنساني المراد تغييره بتدرج، وحتى يمهّد الطريق أمام الأفراد لتسكن نفوسهم لهذا الواقع الجديد، ولهذا وجب " على الدعاة الذين يعرفون الناس بالإسلام أن تكون لهم قدرة على التخطيط والتنظيم، وحسن الإدارة، ولا يتحقق هذا الجانب إلا بدراسة الواقع وفهمه، وبغياب هذه الدراسة الواعية للواقع، فإننا نعيش في أجزاء مضطربة من التناقض الاجتماعي والنفسي والفكري، وفي أجواء من التشتت والضياغ والحيرة، والإرباك والمفاجآت والذهول"¹

كما لا يفوتنا أن ننوّه بنزعة النبي ﷺ الواقعية، خلال مسيرته الدعوية المتناسقة مع الفطرة الإنسانية والمتوافقة للمرجعية الإسلامية، فكان رده مثلاً على جماعة المتشدّدين الذين تقالوا عبادته ﷺ بقوله: " ...أما والله إنّي أخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّي فليس مني"²، فهنا تتضح منهجيته ﷺ في التعامل مع الواقع الإنساني، أثناء ممارسته لسنة التغيير في العمل الدعوي بكل مرونة، دون تشدّد أو غلو للانتقال بالأفراد من حالة الاختلال السيّئة إلى حالة التوازن السليمة.

وتعظم حاجة الداعية في العمل الدعوي إلى فهم الواقع؛ لأن من أسباب تخلف الأمة في عصرنا الحاضر جهلها بواقعها، أو الرضا بهذا الواقع ومسايرة انهزامه وتراجعها، وما يعين الأمة على تغيير حالها والعودة لعزها ومجدها العناية بهذا الجانب أشد العناية من غير إفراط ولا تفريط، فبقدر إدراك الواقع يسهل الحكم على الأحداث والتعامل معها، والنظر في عواقبها ومآلاتها، والتمييز بين شر الأمور وخيرها في ترتيب أولوياتها.

وقد نجحت دعوة الإسلام وانتشرت كونها تلامس وتراعي فقه الواقع، فهي دعوة تنظم علاقة الفرد بخالقه، وعلاقته بنفسه وكذلك بمحيطة، والداعية الناجح وهو يمارس سنة التغيير في عمله الدعوي يتحرى فقه واقع المجتمع الذي يواجهه بالدعوة، وهذا ما يزيده فاعلية وتأثيراً، فقد " يعظم قدر الداعية الذي يفقه واقعه ويعرف مجتمعه لأنه يتحدث إلى شرائح متنوعة في المجتمعات، ويتعرض لمواقف كثيرة ونوازل ومستجدات عظيمة، فهو يعرف ماحقة التقديم، وما حقه التأخير، ويعرف خير الخيرين، وشر الشرير"³.

وخلاصة القول مما سبق فإن سنة التغيير توجب عناية فائقة لفقه الواقع الإنساني المعاش، للسمو والارتقاء بأحوال هذا الواقع من سيّء إلى حسن، ومن حسن لما هو أحسن منه، لأن التعرف على الوضع الاجتماعي ومراعاة كافة جزئياته، يشكّل صورة مجملّة عنه لتحديد المنهج المناسب والإمكانات المطلوبة لإنجاح سنة التغيير في

¹ - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 247.

² - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، ج 7، ص 2، رقم: 5063.

³ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص 187.

الحياة الإنسانية بكل فعاليتها، والارتقاء بها روحياً وسلوكياً وثقافياً وحضارياً، نحو آفاق جديدة مناسبة لفطرة الإنسان وطبيعته.

2- أثر سنة التغيير في تمكين العمل الدعوي:

لعله من المناسب أن نستهل الحديث عن الوضع الحالي للأمة الإسلامية، وما يلزمه من تغيير جذري يعيد لها بريقها ويخرجها من غفلتها وعثرتها، فيرجع لها التمكين في الأرض بإظهار الدين وهيمنته على كافة ميادين الحياة، ويكون لها من القوة والسلطان والسيادة والقيادة على باقي الأمم، ولن تتحقق هذه الغايات إلا من خلال الاستجابة لسنة التغيير بكل مستوياتها؛ من تغيير روحي عقائدي وتغيير اجتماعي وتغيير أخلاقي وآخر ثقافي وسياسي... والتي تنقل الإنسان من مرحلة الضعف إلى القوة، ومن مرحلة السلبية إلى الفاعلية.

ولا مناص من القول أن سنة التغيير ليست مجرد آيات تتلى بل إنها منهج حياة كاملة، تمنح الإنسان طاقة كافية لمجابهة الحياة وثغراتها، وذلك من خلال فهم ماهيتها والكشف عن أسرارها ووسائلها، بغية تطبيقها واستثمارها في بناء الفرد والمجتمع، ويكون هذا البناء طبعاً موافقاً للشرعية الإسلامية، لأن الغاية الحقيقية لتغيير أي مجتمع ينبغي أن تكون موافقة لشرع الله تعالى، وكل تغيير محايد عن المنهج الرباني فهو إلى سقوط وزوال لا محالة، ولذلك فسنة التغيير في العمل الدعوي إقامة شرع الله وتطبيقه في أرضه، لتحقيق أسباب القوة والسلطان، والعمران الحضاري للإنسان، وهو الهدف الذي يحرص عليها كل قائم في مجال العمل الدعوي.

ولا يفوتنا أن ننوه عند القيام بعملية التغيير بأهمية التهيئة النفسية في سبيل حمل أمانة الدعوة؛ كونها من الشروط الضرورية لبداية أي تغيير، وهذا ما أقرّه طه جابر العلواني بقوله "فإن مما ينبغي الوعي عليه أن بداية التغيير والتجديد لا بد أن تعتبر إلزاماً بالأمانة التي أئتمن الله الإنسان عليه، ألا وهي الأمانة الفكرية والنفسية والعقلية التزاماً يتناول شتى المجالات، فإذا هيا الإنسان نفسه وعقله وفكره لهذا الالتزام، وانعكس هذا التهيؤ في ثوب جماعي يعتبر قادراً على تحقيق التغيير والتجديد، لأنه أقوى من التوجهات الإصلاحية، وأعمق من تحولات الأفكار التنويرية، وأكثر فاعلية من سائر التنظيمات، أما الحشد الكمي لجملة من أبناء الأمة وعناصرها دون اعتماد فكر أو منهج ودون إحداث تغيير في الداخل الإنساني فهو حشد يخشى أن يعتبر أنه من أجل السلطة والتسلط"¹.

¹ - طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية ومنهج التغيير، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهدى، لبنان، ط1، 2003، ص209.

وبالتالي فإن باطن النفس الإنسانية، وما تحتويه من التزام بروح المسؤولية اتجاه أمانة التغيير هو سر التمكين والبناء الحضاري للمجتمع.

ولعله من المفيد التأكيد على أن يكون خطاب سنة التغيير في الدعوة خطابا واقعيا، يلامس العقول فيقنعها والقلوب فيحرك وجدانها ومشاعرها، مع مراعاة الفئات العمرية المختلفة في الدعوة واختيار اللغة المناسبة لهم، بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن الجدال والتشدد والغلو، ما يسهم بذلك في إعطاء صورة حسنة للدين والإسلام، فتنشر الدعوة على أوسع نطاق، فسنة التغيير من السنن التي تؤدي إلى تمكين الدعوة وتحقيق مقاصدها بمهذبة الناس وإقامة الحجة عليهم.

وبالإضافة إلى هذا، فإن وعي الأمة وطموحها لتحقيق مستقبل أحسن من حاضرها، وحال أفضل من حالها لا يتأتى إلا بالتعرض لسنة التغيير، والأمة أو المجتمع الذي لا يقبل تغيير واقعه يكون أبعد عن التمكين، لأن التغيير سنة تمهيدية تحضيرية لبلوغ التمكين وتحقيقه، من خلال سعيها لأن يكون التغيير إيجابيا نحو الأفضل، وموافقا للشرع ومقاصده، بالإضافة إلى تحقق سنة التدرج ضمن هذا التغيير، ومراعاة فقه الواقع وأولوياته، فسنة التغيير ليست مجرد سنة إلهية ثابتة، وقانون عام مطرد، بل هي منحة ربانية لكل فرد أو مجتمع للنهوض من حالة الضعف إلى القوة، ومن الانحراف إلى الهداية والاستقامة، وفقه هذه السنة وحسن تطبيقها واستثمارها؛ سبيل لانتشار الدعوة وتأثيرها على الناس.

كما تجدر الإشارة إلى أن سنة التغيير في العمل الدعوي ترتبط بمجالات عديدة وجب مراعاتها، وعلى رأس ذلك تغيير النفس؛ الذي ينتج عنها نماذج لدعاة قادة صالحين ومؤثرين في غيرهم، فاعلين قادرين على التجاوب مع شتى المتغيرات، وأيضا تغيير وتحديد في الخطاب الدعوي، الذي يوسع من دائرة المخاطبين المتلقين والمتأثرين بهذا الخطاب، -المحافظ على ثوابه وأصوله المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة-، وكذلك تغيير في الواقع حيث تولد بيئة تحتضن الدعوة، وتمهد الطريق لانتشارها في شتى الأمصار، مع ترتيب الأولويات وفق حاجة المجتمع وطبيعته.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية سنة التغيير، كيف لا؟ وهي بمثابة المنفذ الرئيسي لتمكين العمل الدعوي، والتطبيق العملي لما سبقت الإشارة إليه من سنن، فالابتلاء والأخذ بالأسباب كانت ثمرته إحداث التغيير، وهذا التغيير الإيجابي في النفس والمجتمع هو المدخل الطبيعي لتحقيق التمكين على الأرض، وخصوصا في ميدان العمل الدعوي، الذي لا يثمر إلا بالتفاعل مع التغيير المتوازن بأصول المرجعية الشرعية، نحو تحقيق الوظيفة التسخيرية في حياة الإنسان بكل أصالة وفاعلية وتكاملية.

وفي الختام يمكن القول أن:

- سنة التغيير سنة إلهية ثابتة في تاريخ المجتمعات البشرية منذ بداية الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهي بمثابة القانون الثابت الحتمي، وهي لا تختص بقوم دون غيرهم لأنها عامة شاملة لكل الأقوام دون تخصيص سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، صالحين أو فاسدين.

- تستمد سنة التغيير فاعليتها انطلاقاً من مرجعيتها القرآنية، فهي مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم باعتبارها سنة الله في خلقه، من سار على هداها وتلّمس آثارها والتزم شروطها؛ ظهرت آثارها ونتائجها، وهي سنة مضى عليها السابقون حسب التصريح القرآني، ففي القصص القرآني توثيق لعدة نماذج وتجارب، خاصة بالأمم السابقة التي تعرّضت لهذه السنة، ما يوجب على الإنسان بذلك حسن التعامل مع هذه السنة والاستفادة من تجارب السابقين فيها للتقليل من نسبة الأخطاء المستقبلية، فسنة التغيير تربط عواقب الأمور بمقدّماتها في الصلاح والفساد.

- إنّ المدلول القرآني لسنة التغيير يحمل وجهان إما تغيير إيجابي؛ ويكون من الأسوأ إلى الأحسن، أو من الحسن لما هو أحسن منه، وقد يكون التغيير سلبياً بتبديل حال حسن إلى أسوء، أو من سيء إلى أسوء منه، وإن هذا التغيير لا يكون عشوائياً أو طارئاً، بل هناك علاقة تلازم بين تغيير القوم لأنفسهم وتغيير الله تعالى لهم، فحدوث أحد التغييرات نتيجة حتمية للتغيير الآخر، وفي الآية إشارة واضحة على إحداث القوم للتغيير ابتداءً حتى ينالوا تغيير الله تعالى لهم بمعنى أن "التغيير الذي ينبغي أن يحدث أولاً، هو التغيير الذي جعله الله مهمة القوم وواجبهم، بإقدار الله تعالى لهم على ذلك، وإن حدوث أي تهاون في الخلط بين التغييرين، وإدخال التغيير الذي يحدثه الله بالتغيير الذي يقوم به القوم، أو العكس، يفقد الآية فعاليتها، وتضيع فائدة السنة الموجودة فيها"¹

- إن مضمون سنة التغيير الواردة في السياق السنني هو: عادة الله الثابتة والمطرّدة بتغيير أحوال الأفراد والجماعات من حال حسنة محمودة إلى حال سيئة مذمومة أو العكس، بناءً على فعل هؤلاء الأفراد والجماعات أولاً، وما يحدثونه من تغيير على المستوى العقدي، الفكري، السلوكي، الأخلاقي.

- إن ملمح سنة التغيير في القرآن الكريم هو تعلّقها "بالغالبية" أي من عموم الناس، وليس من آحادهم، لأن تغيير واقع الأمم والجماعات لا يتحقق من آحادها وأفرادها، بل يتأثر بتغيير جماعي منتشر بين عموم الأمة، وأبلغ دليل على ذلك أوامر التغيير الواردة في القرآن الكريم، ودعوته كانت موجهة للجماعة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال/54، وقال: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" الرعد/11.

- جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، مرجع سابق، ص 46.

- ومن زاوية أخرى تجدر الإشارة إلى أن الإيمان بسنة التغيير الشامل، بإصلاح ومعالجة كافة القضايا قد لا يُستطاع تحقيقه عادة، ومن هنا تأتي أهمية سنة التدرج والمراحلية، في التغيير وتقديم الأولويات في العمل الدعوي، وهي خطوة مهمة لكل عمل يراد به الاستمرار والفعالية، لأن التدرج يتماشى وحال الأمة وظروفها.

- أضف إلى ذلك فالتدرج أمر موافق لفطرة النفوس وطبيعتها، فالتحول أو الانتقال من حال إلى حال مفاجئ فرضاً، أو دون قناعة لن يثمر ويحقق أهدافه، بل قد تكون له من الآثار السلبية الجانبية، ولعل أبرز نموذج يضرب به المثل في التدرج نحو التغيير ما كان من أمر تحريم الخمر في كتاب الله تعالى، وقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم في أمة مغرمة عاشقة للخمر، بلغ بها الحال إلى الاحتفال به وتخليده في أشعارها وصفا وترغيباً ودعوة لمعاقرته، ولو كان تحريمه دفعة واحدة لكان من أشق الأمور وأصعبها تغييراً على النفوس، وكذلك الشأن في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي دامت ثلاثة وعشرين سنة، وهو يعلم صحابته الكتاب والحكمة، ويُرَكِّي نفوسهم على نور القرآن وقيمه.

- وجدير بالذكر أن التغيير السنني يقوم على ثلاثة مقومات بنوية متكاملة؛ أولها العقيدة الصحيحة التي تُعيد تشكيل النسق المعرفي والأخلاقي للداعية، وتحدد منظومة قيم تضبط سلوكه وممارساته، وتُكسبه هذه العقيدة القدرة على المبادرة، والثبات، وحسن الموازنة بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب، وهو ما يعزز فاعلية العمل الدعوي، أما المقوم الثاني فهو الإنسان الذي يمثل محور عملية التغيير وركيزة نجاحها، إذ لا يمكن تحقيق تحول دعوي دون إعداد فرد يمتلك الوعي الرسالي، والكفاءة العلمية والخلق الرفيع، وكل ضعف في بناء هذا الإنسان ينعكس مباشرة على هشاشة المشروع الدعوي، ويأتي فهم الواقع باعتباره المقوم الثالث، حيث يمكن الداعية من قراءة محيطه قراءةً موضوعية، وتشخيص تحدياته وفرصه، واختيار الوسائل المناسبة لمقتضياته المتغيرة.

- أضف إلى كل ما تقدم فإن الالتزام بهذه المقومات ينعكس على تمكين العمل الدعوي بصورة مباشرة، إذ يحقق انسجاماً بين الغايات والوسائل، ويرفع مستوى الكفاءة الخطابية والتنظيمية، ويُنشئ قاعدة بشرية مؤهلة قادرة على حمل رسالة الإصلاح، كما يعزز القدرة على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، ويؤسس لمسار إصلاحي متدرج ومستدام، وبالتالي فإن سنة التغيير تمثل شرطاً محورياً في تحقيق التمكين الدعوي، لأنها تُهندس التحول الداخلي وتضبط آلياته، وتمنح الدعوة قابلية أكبر للتأثير والصمود والامتداد في الواقع المجتمعي.

المبحث الرابع: سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

من السنن المهم فقهما في مسار سلسلة سنن التمكين، سنة التدافع التي يلمح الإنسان أثرها في كل مكان وزمان، والتمكين ما هو إلا نتيجة المدافعة بمعناها العام بين قوى الحق والباطل، فهي حراك اجتماعي وثقافي وحضاري، ومفتاح من المفاتيح الضرورية لفهم تدفق الحياة والوجود، اقتضت مشيئة الله تعالى في خلقه مدافعة بعضهم بعضا من أجل الاختبار والتمحيص للفئة المؤمنة على الكافرة، التي تدافع عن الحق وتنتصر للعدل على حساب حجب الباطل ودفن الظلم.

ومما لا شك فيه، فإنه بقدر تمكّن أي أمة من فهم وتسخير واستثمار سنة التدافع والاستفادة منها، تكون لها المكانة والصدارة على الأرض، فهي سنة من السنن التي تستقيم بها حياة البشرية، وتتوجّه بهم إلى مسالك الخير والصالح بعيدا عن منطق الصدام والصراع، الذي ينتهي بالقضاء الكلي على الآخر مقابل بسط منطق الأحادية والانفراد بالهيمنة.

فهي سنة تكون المدافعة فيها بين أهل الحق وأهل الباطل، أهل الصلاح وأهل الفساد، أي بين المؤمنين وغيرهم، في محاولة لإظهار هذه المعاني من قبل كل فريق، في جو تنافسي تسابقي يبرز التعارض والتزاحم والتنازع الحاصل بينهم لبلوغ التمكين والاستخلاف الحضاري.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه السنّة في مواضع من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج/40.

المطلب الأول: تعريف سنة التدافع وأهميتها:

1- تعريف سنة التدافع:

- لغة: إن لفظ التدافع مشتق من الفعل "دَفَعَ" والذي يعني الإزالة بقوة، دَفَعَهُ يَدْفَعُهُ دفعاً ودَفَاعاً، ودَفَعَهُ ودَفَعَهُ فاندَفَعَ وتَدَفَّع وتَدَفَّعَتِ القوم أي دَفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ورجُل دَفَّاعٌ ومَدَفَّعٌ: شديد الدَّفْع، ..ومن كلامهم، ادْفَعِ الشَّرَّ وَلَوْ إِصْبَعًا، وتَدَفَّعُوا فِي الْحَرْبِ: دَفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وتَدَفَّعُوا الشَّيْءَ: دَفَعَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ نَفْسِهِ¹

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج 8، ص 89..

وجاء معنى التدافع في المعجم الوسيط: دَفَعَ إِلَى فُلَانٍ دَفْعًا: انتهى إليه، ويُقال: طَرِيقٌ يَدْفَعُ إِلَى مَكَانٍ كَذَا: ينتهي إليه، ودفع عن الموضع: رحل عنه، ودفع الشيء: نَحَاهُ وأزاله بقوة، ودفع القول، رَدَّهُ بالحجة، ودفع فلانا إلى كَذَا: اضطرَّه. دافع عنه مدافعة ودفاعا: حامى عنه وانتصر له، ودافعه: زاحمه، ويقال هو سيّد قومه، غير مدافع: أي غير مزاحم، وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضا".¹

أما الزبيدي فقد أشار إلى تنوع معنى مادة "دفع" بحسب الحرف المصاحب لها، فقال: إِذَا عُدِّي الدَّفْعُ بِأَلْيٍ اقْتَضَى معنى الأمانة، كقوله تعالى: ﴿... فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ...﴾ النساء/6، وَإِذَا عُدِّي بَعْنٍ اقْتَضَى معنى الحماية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الحج/38²

والخلاصة من جملة هذه الاستعمالات الدلالية، واشتقاقاتها الواردة في التعاريف اللغوية لمادة "دفع"، يمكن القول أن:

المدافعة في اللغة يراد بها: إزالة الشيء بقوة، وكذلك دفع الآخر بشدة، ورد الأذى أو رد الأمانة.

والتدافع لغة هو تبادل طرفين أو أكثر الدفع، وإسراع كل طرف لمزاحمة غيره في نيل واحتلال موقعه، أو حمايته أو منعه عنه.

-اصطلاحاً:

تجدر الإشارة إلى أننا في تعريف التدافع، وجدنا اتجاهات متناقضة في بيان مفهوم التدافع، وذلك حسب النظرة لمجالاته ومقاصده، وتبعاً لاختلاف دوافعه وأسبابه، فهناك من تناول مفهوم التدافع من منظور سلبي تصارعي، قوامه إلغاء الآخر وإفناؤه والهيمنة عليه كلياً، وقد تكون هذه المدافعة على أشياء دنيوية مادية، واتجاه آخر يرى مفهوم التدافع بنظرة إيجابية، قائمة على إبقاء الآخر مع التزاحم معه نحو التوازن والتآلف والتفاعل معه، وكان توجهنا بين ذلك، أن لا نقف على المعنى الذي يراد به الصراع والبقاء للأقوى، في محاولة إلغاء الآخر وإفناؤه بشتى الطرق والأساليب، وهذا من المعاني والأفكار المسلّم بها في المنظومة الغربية، أين يستعمل التدافع كمضمون صدامي استئصالي، يسوده اعتقاد الصراع المشحون بالكراهية والحقد والعدوانية، من أجل الغلبة والسيطرة بين الأمم، الأفراد والجماعات، الحضارات.. وهذا ما جاء في كتابات مثل "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما، وصدام الحضارات "لصموئيل هنتنغتون"...

¹ - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج1، ص289.

² - الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج20، ص553.

وبالتالي اعتمدنا في تعريف التدافع التصور الإسلامي؛ كونه سنة إلهية برؤية قرآنية ترى في المدافعة سنة الحياة الجارية، ومقصدها التزاحم والتسابق لتحقيق التوازن والتعارف في الحياة، فجعلت من قول الله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾** الحجرات/13 شعاراً يمهّد لسنة التدافع في أوسع صورها، وهذا التدافع أيضاً يقبل "سنة الاختلاف" التي أقرها القرآن الكريم، لأن التدافع الذي أمر به الله تعالى لا يعني إلغاء الطرف الآخر، بل يسعى إلى ترشيده وتصويب وجهته بالتي هي أحسن، لتحقيق المصالح والمنافع ودرء المضار والمفاسد "فإن الله تعالى يدفع الناس الذين يباشرون أسباب الشرّ والفساد ببعض آخر منهم، وهم الذين يكفونهم عن ذلك ويردونهم عنه، وهذا الفساد الذي يندفع بسبب إقرار سنة المدافعة، هو الفساد بمعناه الأعم، فساد الأرض بالشرك والكفر والظلم الموجب لهلاك الحرث والنسل، فما دونه من أنواع الفساد التي لا يمكن حصرها".¹

ومن جملة هذه التعريفات:

التدافع هو عملية تفاعل إنساني تقتضيها طبيعة العمران والاجتماع البشري، وهو سنة ربانية ثابتة مستمرة في العباد؛ حفظاً لاستقامة حال العيش، واعتدالاً لميزان الحياة، "فالمدافعة بين الخير والشر هي سنة الحياة وسبيل النمو والارتقاء، وإن الشر من لوازم الخير، وأن الفعل التاريخي وامتداد الحياة هو ثمرة للضرب بين الحق والباطل، قال تعالى: **﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ﴾** الرعد/17، وأن هذه المدافعة هي من رحمة الله بعباده، والتمكين لإظهار الحق واستمراره، وسبيل من سبل الحيلولة دون الفساد واستمرار الإفساد"²

فالتدافع بالمنظور الإسلامي: "حراك واستباق يعدّل الخلل الفاحش بين الفرقاء المختلفين، ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى التوازن الوسطي العادل، وبذلك ينتفي "سكون الموات" بين الفرقاء المتعددين، وتنجو التعددية من موات "الصراع" الذي يصرع به طرف غيره من الأطراف"³

فالتدافع لا يعني الصراع والصدام والإلغاء والفناء والإزهاق والنفي بقدر ما يعني الصراع للبقاء دون إقصاء الطرف الآخر، صراع تنظّمه تعاليم الإسلام وقيّمه الإنسانية، فالتدافع إذن غايته التنوع والتعدد والتسابق، والتضييق والتفريق من دائرة الشر مقابل التوسيع والمد من دائرة الخير، لتحقيق التوازن الكوني والسعي لبلوغ النمو والارتقاء والصالح والإصلاح.

¹ - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، مرجع سابق، ص230.

² - عمر عبيد حسنة، على طريق الشهود، دار المكتب الإسلامي، بيروت، دط، 1422هـ، ص167.

³ - محمد عمارة، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، 2007، ص156-157.

وفي المقابل نجد أن سنة التدافع في القرآن الكريم، وردت بصفة عامة في مواطن عديدة، أما التصريح بها فقد جاء في موضعين من كتاب الله؛ الأول من سورة البقرة حيث ورد بيان معنى "الدفع" كلفظ قرآني في التفسير، مايلي: قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة/251، قال سيد قطب: "وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات...ومن ورائها جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف.

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعض لولا دفع الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكونات مذخورة"¹

وجاء معنى الآية في تفسير ابن كثير: "أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داوود لهلكوا...أي الله ذو من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم ببعضهم بعضا، وله الحكم والحكمة والحجة على جميع أفعاله وأقواله"².

أما الموضع الثاني لسنة التدافع فقد ورد في سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج/40،

حيث جاء في تفسير الآية ما يدل على أن التدافع بين الحق والباطل وما يترتب عليه من قتال، في بعض الأحيان قد يكون مقصدا ضروريا لجلب المصالح، ودرء المفاسد" فلما أذن الله للمسلمين بالدفاع بين حكمته، وأتمهم مظلومون لا ظالمون، وأنه لولا هذا الدفاع لغلّب أهل الشرك والباطل والخرافات والمنكرات، على أهل الإيمان والحق والعدل والفضائل، وهدموا بيوت الله تعالى لإبقاء هياكل الأصنام وبيوت الأوثان مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولين له بأنه دفاع عن الحق والدين ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين، وليس هو دفاعا لنفع المسلمين خاصة"³

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص270.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، مج1، ص407-408.

³ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مرجع سابق، ج10، ص58.

وتأسيساً على ما تقدم فإن آية البقرة قد قرّرت سنّة التدافع بعد انتصار بني إسرائيل، بإحقاق الحق واندفاع الفساد، أما آية الحج فقد قرّرت هذه السنّة كونها سبيل ووسيلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، " ونكتة تقرير سنّة المدافعة في سياق آيات الجهاد والإذن به، أن المدافعة بالمقاتلة والمحاربة أبين صور المدافعة وأكثرها مشقة...وتسبق هذه الصورة العليا صور من المدافعة لا تخصى بالأقوال والأفعال"¹.

فالآيات بيّنت أن التدافع بين أهل الحق والباطل قانون كوني دقيق، ولولا هذا التدافع لفسدت الأرض، ما يعني أن دفع أهل الإيمان للباطل بكل صوره وأشكاله، ليس دفعا غرضه الإهلاك والإفساد والإفناء، بل هو من قبيل الدفع بالتّي هي أحسن، دفع دون إقصاء ولا إعدام لأنّه مقيد بقيم الإسلام وتعاليمه، فالتدافع في الإسلام لا يعني بالضرورة أن يكون عدوانا وإرهابا، بل هو دفع للعدوان والإرهاب والظلم والفساد، بالصبر والعدل والصلاح والتعاون.

وإن كان الجهاد أحد ركائز سنة التدافع، فإن الغزالي يؤكد على هذه "الفريضة ويضعها في مكانها الطبيعي، لتحقيق غايتها المرجوة، فهو ينظر إلى الجهاد بمعناه الواسع، بحيث لا يقتصر على القتال، وحتى هذا القتال لم يُشرع إلا في حالات الضرورة القصوى؛ ككف الأذى ورد العدوان والظلم، فالجهاد بمعناه الشامل أرحب وأوسع، لأنه يغطي المساحة كبيرة في مجالات الحياة، بدءاً بجهاد النفس إلى أرقى مراتب الجهاد، وهو خدمة الدين وقيمه التي ترقى بإنسانية الإنسان، وتكرمه عن باقي المخلوقات"².

وتأسيساً على ما سبق يمكن القول أن: "جلّ استعمالات كلمة "الدفع" و"التدافع" الواردة في السياق اللغوي أو الاصطلاحي أو القرآني أفادت معاني متعددة، تتقارب فيما بينها من حيث الدلالة، تكاد تجتمع في كونها: حراكا واستباقاً اجتماعيا وثقافيا وتنافسا وتسابقا بين الحضارات، والاندفاع والمزاومة بشدة فيما بينها من أجل احتلال المواقع الريادية، دون صراع أو مصارعة بين هذه الأطراف المتدافعة، وتعديل الخلل بين الفرقاء المتغايرين المختلفين، والعمل على تحويل المواقع من العداوة والبغضاء، إلى الصداقة الحميمة، ودفعه إلى التعاون نحو الإنجاز الحضاري الذي يعود بالخير والنفع للبشرية كافة. وهذا هو السبيل الوحيد المؤدي إلى نجاة البشرية من حروب ونزاعات دامية، قد تسهم في صرع الإنسان والقضاء عليه، وهذا يخالف أمر الطبيعة الإنسانية التي وجدت للتعمير لا للتدمير"³.

¹ - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، مرجع سابق، ص235.

² - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص177.

³ - بوعبيد صالح الأزدهار، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، دار الكلمة، مصر، ط1، 2014، ص47.

وفي الأخير نخلص إلى تعريف التدافع باعتباره سنة إلهية-وهو المطلوب-، فسنة التدافع: هي طريقة الله تعالى الثابتة في توجيه الحراك والتفاعل بين أطراف متعدّدة القوى، في محاولة لتأثير كل طرف على الآخر، إيجاباً أو سلباً لخلق التوازن بداية، ثم تحقيق رغبات الغالب منهما وإرساء قوانينه.

2-أهمية سنة التدافع:

إنّ المتأمل في سنة التدافع يدرك أنّها سنة إلهية أساسية في الحياة الإنسانية، خاصة في هذا الوقت الذي مازالت فيه الأمة الإسلامية تعاني من أزمات خانقة، ومشاكل متتالية أغرقتها في هزائم متعاقبة، نتيجة جهلها وعدم مراجعتها لسنن الله في التمكين، التي تُرجع لها مكانتها القيادية للركب الحضاري، ومن ذلك سنة التدافع الحضاري الجارية، منذ خلق أب البشرية آدم عليه السلام، إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها، وتستند هذه السنة إلى منظور دفع الباطل بالحق، الشر بالخير، وهذا الصراع بين الخير والشر ليس عبثاً، بل لحكمة عظيمة تُثبت حكمة الله في الخلق قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/ 251. وإنّ الوعي بمفهوم المدافعة الحضارية الشاملة وبمقتضاها، يمثل إطاراً ناظماً للمسارات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، وفق سنن موضوعية ثابتة لا تتخلف فكلّما اتّسمت المدافعة الحضارية بالأصالة والفعالية والتكامل والاطراد، ازداد نصيب الأمة من التمكين الحضاري تبعاً لذلك. أما إذا ضعفت عناصر هذه المدافعة أو تراجع مستوى فاعليتها، انعكس ذلك مباشرة في تراجع القدرة الحضارية وتقهقرها بالقدر نفسه¹.

وعليه تبرز أهمية هذه السنة من خلال ما يلي:

إنّ سنة التدافع بين الناس تكفل للواقع التوازن الدائم بين قواه، لأن التدافع يمنع طغيان قوة واحدة، فيحفظ التوازن الكوني والاجتماعي، ويتحقق للحياة استقرارها وفاعليتها وحيويتها، فيها تُزال المنكرات والفواحش، ويحارب أهلها ومروجوها، وبسنة التدافع يأمن طريق الدعوة إلى الله، فتُزال كافة العقبات التي تحدّ من انتشار الدعوة الإسلامية، وتمنع إقامة دين الله وشرعه في الحياة، وهي سنة السابقين من الأنبياء والمرسلين، الذين بلّغوا الرسالة بمدافعة الباطل وأهله ونشر الحق وقيّمه.

وجدير بالذكر أنّ سنة التدافع فيها تمحيص للناس، وتمييز للخبيث من الطيب وللصادق من المنافق، لأن التدافع اختبار إلهي يحص به القلوب، ويميّز به الجاد في إيمانه من المتذبذب، والصابر من المستعجل، قال تعالى:

¹ - الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص46.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران/179، فسنة التدافع بهذا المنظور مدرسة ربانية يبرز منها الرجال، تُحرم فيها الأهواء والشهوات، ويتمحص فيها الحق من الباطل، لأنها تحلّص الأمة من عناصر الضعف الداخلية قبل أن تقضي عليها قوى الباطل الخارجية، وقد كانت غزوة أحد ميدان تمحيص للمؤمنين عن المنافقين.

لأن المسلمين لما نالوا في غزوة بدر النصر والسلطان والظهور، دخل معهم في الإسلام ظاهرا من هم ليس معهم باطنا، فشاءت أقدار الله وحكمته أن تكون الهزيمة في غزوة أحد سببا لتمييز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق والكافر، وعرف المؤمنون أنّ لهم أعداء داخل صفّهم، ما أوجب عليهم مدافعتهم وإخراجهم والاحتراز منهم، لقول سيد قطب: "ولو شاء الله لانتصر من الكافرين بالطوفان والصيحة والريح العقيم، أو من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين أن يتليهم ويؤتيهم ويصلحهم، فليس أكرم من النفس أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله فتقتل وتقتل، ويظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد والتطلع إلى رضا الله"¹، وما على المسلم إلا أن يستعد لهذا الامتحان الإلهي بكل إيمان صادق، وعلم نافع وعمل جاد، حتى يكون من الطيبين الثابتين على الحق، لا من الخبيثين الذين يرتدون وينكصون على أعقابهم عند أول محنة.

كما تعتبر سنة التدافع من أبرز عوامل نخوض الأمة ومراجعة أحوالها، كما تعمل على "توجيه علاقات الناس وضمائم تفاعلاتها الإيجابية، بما يحقق الصلاح والاستمرار في الدنيا والتمتع الكبير بخيراتها والفوز برضا الله في الآخرة، وهي علاقات مبنية على العدل والإحسان والتضامن الإنساني، في دفع كلّ ما يضر الإنسان، وجلب كل ما من شأنه أن ينفعه، ففكرة تفاعل الإنسانية في النظام المعرفي الإسلامي مبنية على منظومة الخيرية للبشرية جمعاء، بخلاف تفاعل الإنسانية في الرؤية الأخرى الوضعية، فهي مبنية على النزعة الفردانية والقهرية والقوة"².

فالكثير من العلل والأمراض التي أصابت الأمة الإسلامية، سببها الغفلة عن فهم مجموعة السنن التي تحكم هذه الحياة، والحياد عن تطبيق منهج الله السنني في التدافع، فهو سبيل يهدي إلى سبل القوة والنجاح، ودفع عجلة التقدم والارتقاء، فالتدافع والصراع بين الحق والباطل، يدفع أهل الحق لتعزيز إيمانهم وإصلاح أدواتهم، ليكونوا طاقة فاعلة مُحَرَّكة وقَائِدَة، تُحَقِّق الصلاح في وجه الفساد، وتنشُر الحق في وجه الباطل، وتخطو خطاها نحو التقدم مقابل التخلف والضعف والهوان.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص3286.

² - محمد علوش، أهمية الحوار في تحقيق التدافع، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، دط، 2014، ص3.

أضف إلى ما تقدم فإن " المنكر الذي تفضي في واقع الأمة الإسلامية، يوجب عليها النهي عنه، والعمل لتمكين كلمات الحق والعدل والتكافل، ولن تقوى على القيام بهذه المهمة العظيمة، إلا إذا توحدت كلماتها، وإرادتها وقواها، وترجمة هذه المعاني لا يتحقق إلا بإحياء سنة التدافع، المنبثقة من رؤية واقعية، تتفاعل مع المتغيرات والمستجدات الحاصلة"¹

ولا مناص من القول أنّ سنة التدافع تحفيز لطاقت الأمة نحو العمل، وشحن للهمم صوب الإصلاح، فهي بمثابة أداة اختبار للإنسان لبيان مستوى طاقته في دفع الشر، ومُعدّل همته نحو إحقاق الخير، فعلى الرغم من قدرة الله في فعل ذلك بقدرته وعظمته سبحانه، إلا أن حكيمته الإلهية اقتضت جعل الإنسان فاعلا باختياره، تذكيرا له بتطبيق سنة الأخذ بالأسباب نحو العمل على تغيير الواقع الذي يعيشه، فيستجمع كل القوى الكامنة فيه لمواجهة الخطر من حوله، بكل طاقته فيدفعه دفعا لإحقاق النصر، وهذا النصر ليس بالأمان بل بالاستعداد والعمل.

ولا بدّ من التأكيد على أنّ سنة التدافع تحقّق صلاح أحوال المسلمين، واستقامة أمور دينهم ودنياهم، بحفظ حقوقهم ورفع المظالم والمفاسد عنهم، فلو أراد أهل الحق الانعزال عن الباطل وأهله، فإنهم لن يقبلوا بذلك لأن أهل الباطل لا يرضون بوجود الإيمان وأهله على الأرض أصلا، فتصبح المدافعة فرضا على المسلمين لإثبات وجودهم في هذه المعركة وصلاح أحوالهم، لأن "في ترك الدفع من جهة أهل الحق سواء بالجهاد، أو كل ما يحل محله، فيه من المفاسد وتضييع مصالح الأمة، وفيه تقوية للباطل وغلبة لأهله، وإذلال للمؤمنين وذهاب قوتهم وزوال دولتهم، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة/ 195، فالواجب عليهم الاهتمام بالجهاد؛ فهو طريق النصر والعزة، وإظهار دين الله، ومحق الباطل وأهله"².

أضف إلى كل ما تقدم، فإنّ لسنة التدافع أهمية عملية عميقة في حياة الأفراد والمجتمعات والأمم، فهو يعتبر " كوظيفة عملية لازمة لتحقيق غايات ومقاصد الابتلاء، وكمحرك معياري أساس للتربية والمعايرة والفرز والجزاء والتكريم، والاستمتاع بنعم الله التي يزخر بها عالم الشهادة، وبقية عوالم المراحل التالية من الدورة الوجودية للإنسان"³، وبها أيضا نفهم سنن التغيير والصراع، بمعنى إدراك أن الصراع بين الحق والباطل سنة طبيعية، وليس مؤشرا على ضعف الحق وأهله، والتغيير ليس حالة طارئة مفاجئة تصادف الأفراد أو الأمم والجماعات، بل هو تدافع وتزاحم نحو التحول والتبدل من حال سيئة سابقة إلى حال حسنة جديدة.

¹ - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 117.

² - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 63-64.

³ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، مرجع سابق، ص 53.

- كما أن معرفة هذه السنة وفقهها، يمنح للمرء سعة في النظر، وترك العَجَلَة في تحصيل النتائج، فقد تستغرق هذه السنة وقتاً، كي تتحقق نتائجها في ظهور الحق وزهوق الباطل، بحكم وعلم ولطف من الله تعالى، الذي قد يطيل أمد المدافعة، فلا يشهد بعض الناس نهايتها، لكنها متحققة لا محالة على مر التاريخ.

وفي الأخير يمكن القول أن الأمة التي تفهم سنة التدافع وتعامل معها بحكمة، هي الأمة التي تتمكن من أداء دورها ورسالتها في الحياة، فتكون خير أمة أخرجت للناس بتحقيق معاني العبودية لله تعالى، وإعلاء كلمة الحق ودفع الباطل والفساد عن الأرض، فالغرب اليوم يوظف سنة التدافع، لكن بوجه آخر خلاف ما سبق، " إذ يفرغها من مضمونها الإيجابي، ويعطيها بعداً صراعياً، يجرداها من كل قيمة خيرية إنسانية، فيرفض قبول الآخر ولا يعترف به، ولا يقبل حتى الحوار معه، لأن رؤيته قائمة على ممارسة القوة والقهر، ويفترض دوماً وجود عدو يحاربه، وهذا ما تحقق من خلال ممارساته التعسفية الظالمة للإسلام والمسلمين"¹

المطلب الثاني: مظاهر سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

في عالم تتعارض فيه الحقوق وتتصارع فيه الرؤى، تبرز سنة التدافع الإلهية كمنظومة حكيمة تحفظ توازن الحياة وتصون مسار الدعوة. فهذه السنة الكونية التي تجعل الصراع بين الحق والباطل محركاً للتغيير ومساراً للتمحيص، ليست قدراً مطلقاً يُسلم له، بل هي مجال للفعل والتفاعل، يستلهم فيه الدعاة حكمة الله في خلقه، فالتدافع ليس صداماً عشوائياً، بل هو عملية حيوية تتفاعل خلالها إرادة الخير مع تحديات الشر، لتُخرج العمل الدعوي من دائرة التنظير إلى فضاء التطبيق العملي. ومن خلال هذه المعانقة الواعية لسنة التدافع، يتحول التحدي إلى فرصة، والضغط إلى دافع، والمعوقات إلى سلم للارتقاء، فينمو العمل الدعوي ويتعمق تأثيره، ويبلغ مراتب التمكين التي أرادها له الله تعالى.

وفيما يلي بيان لأبرز مظاهر سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي:

1- مظاهر سنة التدافع:

خلق الله تعالى الخلق وقدر بينهم الاختلاف والتنوع، نتيجة تعدد الأديان واختلاف الآراء والأفكار والطباع، فالاختلاف سنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ هود/ 118، فلو شاء الله لكان الناس أهل ملة واحدة ودين ومعتقد وفكر واحد، لكنهم اختلفوا وتنوعوا، وما دام هذا الاختلاف بين الناس واقعا، فسيظل التدافع بينهم باقيا، وذلك راجع إلى أن " الفلسفة

¹ - هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 176.

العامة التي تحكم عملية الدفع تقوم على أمرين أساسيين؛ الأول كون النفس البشرية تنزع بطبيعتها إلى الشر في أغلب الأحيان، والثاني مركزية قيمة الصراع في الحياة الاجتماعية والعلاقات الدولية، حيث شاء الله تعالى أن يظل الناس في تهاجر وتصارع وتدافع، حتى قيام الساعة¹، ولهذا نجد من الناس المؤمن الصالح، ونجد منهم من فضل الكفر والطغيان، فانقسموا إلى أهل الحق والخير، وأهل الباطل والشر، وعليه فقد ولد هذا الاختلاف التدافع كنتيجة حتمية طبيعية، لأن "الضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقل إضعافه، ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، فلا يُتصور إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعة"²

ومن هذا المنطلق فسنة التدافع تُشير إلى ذلك القانون الإلهي الثابت، الذي يحكم الجدل والصدام المستمر بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، وبين الخير والشر، وإن هذا التدافع في جوهره ليس صراعا سلبيا عشوائيا، بل إنه عملية إلهية منظّمة ومتكاملة، تهدف إلى إرساء التوازن والاستقرار، ومنع الفساد والطغيان على الأرض، وعليه تتشكل رؤية واضحة لمظاهر سنة التدافع والمتمثلة في: التدافع بين الإيمان والكفر، التدافع بين الحق والباطل، التدافع بين الخير والشر، وفيما يلي تفصيل وبيان ذلك:

-التدافع بين الإيمان والكفر:

إن محور التدافع بين الإيمان والكفر يمثل واحدا من أبرز مظاهر سنة التدافع، حيث يشهد صراعا مستمرا بين المؤمنين دُعاة الحق والاستقامة والصلاح، وبين الكافرين حُماة الباطل والانحراف والفساد، وهذا التنافس لا يقتصر على الجانب العقائدي فحسب، بل يشمل جملة الأفعال والسلوكيات الصادرة عن كلا الفريقين، تدافع قيم متناقضة مثلت معركة طويلة، بدايتها انطلقت مع أول خلق الله نبيّنا آدم عليه السلام ضد إبليس، ونهايتها ممتدة لقيام الساعة، فهي "معركة بين معسكرين لا يجتمعان، الأول: معسكر الإيمان وجنوده الأنبياء من آدم عليه السلام، ثم ذريته من المؤمنين وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، والمعسكر الآخر: معسكر الكفر، يقوده إبليس ومعه ذريته ومن تبعه وأضلّه من البشر، تدافعا مستمرا بين الإيمان والكفر في صور متعددة وأشكال متنوعة، منها الباطن ومنها الظاهر، منها المباشر ومنها غير المباشر"³

1 - هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 98.

2 - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 46.

3 - خالد الزهراني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، -دراسة موضوعية-، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2007، ص 107-108.

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم سجّل في الكثير من آياته سنة التدافع بين الإيمان والكفر، وكان لها حضور واسع، خاصة في عرض قصص الأنبياء والرسل الذين جاءوا جميعاً بالهداية والإيمان، لأقوام طغى عليها الكفر والعدوان، فكل الأنبياء دعوا إلى توحيد الله والإيمان به والتحلي بالقيم ومكارم الأخلاق، ويبتنوا ضلال الكفر وخطر الشرك بالله في صورة تدافع أزلي واضح بين الرسلتين، فنبى الله نوح عليه السلام -وقد كانت دعوته أطول دعوة، حيث دامت ألف سنة إلا خمسين سنة- مثلاً واجه قومه الذين كذبوه وسخروا منه واستكبروا عن عبادة الله وتوحيده، وآثروا عبادة الأصنام والتمسك بها، فنالوا العقابة الوخيمة بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر والضلال.

كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن التدافع الذي واجهه نبي الله نوح عليه السلام كانت له صور متعددة؛ بدايته ذلك الصراع الفكري العقدي، وامتد ليشمل الاستهزاء الاجتماعي والنفسي، وانتهى بصراع مادي، فلما بلغ التدافع بين نوح عليه السلام وبين المشركين أشده، واستنفذ نوح عليه السلام كل الوسائل والأساليب في الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، فاستنصر ربه بكلمات كان بها أهلاً للنصرة والمدافعة، فحسم الله تعالى هذا التدافع بهلاك الكافرين بطوفان عظيم لم تُعصم منه قمم الجبال الشاهقة، وجرت فيه سفينة الفئة المؤمنة في سلام وأمان، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ الْقَمَرُ 9-12، فأنجى الله نوحاً والذين آمنوا معه برحمة منه، مصداقاً لسنة التدافع وتحقق وعد الله بنصر عباده المؤمنين على الكافرين المفسدين، ولو طال الأمد.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فإن قصة نوح عليه السلام بكل تفاصيلها، من طول دعوته وصبره إلى رفض قومه واستهزائهم، إلى الطوفان وما نتج عنه من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، مثال حي لسنة التدافع بين الإيمان والكفر، وتأكيد على أن الله يمتحن عباده ليظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

وبالإضافة إلى هذا المثال؛ فإن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، تجسّد مثلاً حياً للتدافع بين دعوة الإيمان والحق التي جاء بها، ضد شرك كفار قريش وعدوانهم وجاهليتهم الأولى، فكان هذا التدافع مثلاً في الكثير من الغزوات، ومنها غزوة بدر الكبرى، أين ارتفعت راية الإيمان والتوحيد عالية، ونُكّست راية الكفر والشرك معلنة الفوز والنصر والعاقبة للإسلام، رغم قلة العدد والعدّة ضد الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آل عمران/123.

ولا بد من التأكيد على أن كل صراع بين الحق والباطل، العدل والظلم، الخير والشر يعود في جنوره إلى العقيدة، فهو صراع بين رؤيتين متناقضتين؛ الأولى رؤية الإيمان والثانية رؤية الكفر، والفرق واسع شاسع بينهما،

فهو ليس مجرد خلاف فكري ثقافي، أو اجتماعي سياسي، بل هو تدافع بين مشروعين متضادين يهدف إلى مقاصد وغايات عظيمة؛ منها الابتلاء والتمحيص للمؤمن الصادق في إيمانه من الكاذب المنافق، ومن هذا التدافع أيضا تظهر قوة الحق، فعند اصطدام الإيمان بالكفر والانتصار عليه، تبرز قوته وعظمته الكامنة للناس.

وختاما فإن التدافع بين الإيمان والكفر فيه إقامة الحجة على أهل الكفر، لأن الله لا يعذب أهل الباطل إلا بعد رفضهم للحق ومحاربتهم، فهذا التدافع جزء من إقامة الحجة عليهم.

وتأسيسا على ما سبق فإن التدافع بين الإيمان والكفر تدافع بين طريقين؛ أحدهما مضيء ومشرق ومعبد للسائرين فيه بخطى الطاعة والإيمان، والتقوى والإحسان، والثاني طريق مظلم شائك ووعر، يتيه فيه الضالون المنحرفون، الذين كفروا بالله وانغمسوا في المحرمات من الفواحش والكبائر.

- التدافع بين الحق والباطل:

اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته البالغة أن يخلق في النفس البشرية الشيء ونقيضه، كما وُجد في هذا الكون الفسح مجموعة متناقضات جعلته في حالة صراع دائم، لتضفي على الكون حالة من التدافع والتزاحم فيما بينها، كي تمتع فساد الكون واختلاله، " ويحتفل التفسير الإسلامي احتفالا خاصا بصراع الحق والباطل، ويتبعه تتبعاً دقيقاً خلال التاريخ، كما يتتبع آثاره على واقع البشر، إذ يسجل هذه الصراعات ويعطيها حجمها ووزنها الذي تساويه، بميزان القيم الحقيقية التي يقررها المنهج الرباني"¹.

ومن هذا المنطلق فإنه من قضاء الله وقدره، خلق الحق والباطل، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ الرعد/17، "فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا يُنتفع به هو الباطل"²، دلالة بذلك أن الحق يتميز بالثبات والبقاء، عكس الباطل الذي يتميز بالزوال والاضمحلال، فالحق كالماء ثابت نافع أصيل وباقي، أنزله الله من السماء لتنتفع به الأرض، والباطل كزبد السيل الذي يعلو ويرتفع قليلا، ثم يذهب ويزول فلا ينتفع به أحد.

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص115.

² - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج16، ص406.

ونجد القرآن الكريم غني بالقصص التي تجسد سنة التدافع بين الحق والباطل، نستحضر ما لاقاه الأنبياء والرسول وهم أهل حق، من تكذيب وصد لدعوتهم، ومن تزييف وتشويه لهذا الحق رغبة في نشر باطلهم وتزيينه للناس، فكان التدافع بين الأنبياء ومن تبعهم من جهة، وبين المشركين من أقوامهم من جهة سنة جارية ثابتة، حرص فيها الباطل على إفناء الحق وأهله ولو بالقوة، والحق يشمل كل ما رغب وأمر الشرع به، لكن مشيئة الله وحكمته قضت بغلبة أهل الحق على الباطل، الذي يشمل كل ما رهب ونهى الشرع عنه، وإن التفسير الإسلامي يؤمن بأن الغلبة في صراع الحق والباطل، تكون للحق في نهاية الطاف¹ وهذه النتيجة كانت لصبرهم وثباتهم وإعدادهم المادي والمعنوي في بلوغ النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء/18.

ولعل من نافلة القول التأكيد على مدافعة الله للذين آمنوا في الحياة الدنيا وولايتهم لهم، بحسب ما كانوا عليه من القوة أو الضعف، من القلة أو الكثرة، من التمسك بالحق أو الحياد عنه، وليس لمجرد الإيمان فقط، ذلك أن دفاع الله عن المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا سنة ثابتة، مطردة، كلما تدافع الحق والباطل، لا استثناء فيها، اللهم إلا أن يكون أهل الحق دون مستوى النصر، لأي سبب من الأسباب، وحينئذ تبقى للسنة صفة الثبات والاطراد، ويكون تخلف النصر لأسباب موضوعية مؤكدا لهذه السنة لا ناقضا لها².

وفي هذا الإطار قص القرآن الكريم العديد من قصص الأنبياء، التي تكشف التدافع بين الحق والباطل، وتبين أن العاقبة للحق مهما تطاول عليه الباطل، ومن أبرز الأمثلة تكرار قصة موسى عليه السلام مع فرعون، والتي اعتبرت مواجهةً لأكبر طاغية مدعي للربوبية في التاريخ، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف/ 115-118.

وكما أشرنا آنفاً، فقد تمثل الحق في دعوة نبي الله موسى عليه السلام وأخاه هارون، والتي كانت على شقين؛ الأول دعوة فرعون لعبادة الله وتوحيده، أما الشق الثاني من الدعوة فتمثل في تحرير بني إسرائيل من عبوديتهم لفرعون وطغيانه، أما الباطل فمثله فرعون بقوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات/24، فلقد أصبح فرعون وملؤه عقبة تحول بين الناس وبين الحق، نظرا لما كانوا عليه من الملك والمال من جهة، ومن الكفر والطغيان من جهة

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص115.

² - حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، مرجع سابق، ص241.

أخرى، كما استخدم فرعون كل وسائل البطش والقتل والترهيب، والاتهام لموسى بالسحر والجنون.

وقد كان ميدان التدافع بين هذا الحق والباطل يوم الزينة، أين اجتمعت قوى فرعون وسحرته لمواجهة موسى ودعوته أمام الملأ، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم فخيّل للناس أنها تسعى، وألقى موسى عصاه فابتلعت كل ما صنعوا، فظهرت دعوة الحق وسقطت دعوة الباطل في هذا المشهد الذي يمثل ذروة التدافع، قال تعالى: ﴿قَالَ هُمْ مُوسَى أَتَقُولُوا مَا آتَانِي هَٰذَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافَّةُ الْعَذَابَاتِ أَمْ لَا أَعْلَمُ﴾ (43) فَأَلْقُوا حَبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الشعراء/44-47، وكانت العاقبة للفئة المؤمنة التي حملت الحق ودافعت عنه بالبلاغ والبيان والجهاد بالكلمة، لإقامة الحجة عليهم ودفع الفساد عن الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء/65-67.

وهكذا تسير قافلة الحق قُدّما، لتُخلف وراءها قافلة الباطل، لأن عادة الله جرت أن يثبت الله الحق الذي جاء به أنبياءه ورسله، بالوحي أو المعجزات، أو القرآن...، ويمحو الباطل ويُضعف أهله، وتلك هي سنة الله الثابتة في إقرار الحق وإزهاق الباطل، "وإن انتصار الحق في موقف السحرة من فرعون، هو قمة من قمم الانتصار في التاريخ البشري، وإن كانوا لم يَمَكَّنُوا في الأرض بأشخاصهم، إنما كان الانتصار، أنهم استعلوا على الباطل والطغيان كله، وأعلنوا كلمة الحق التي يريد الطاغوت، أن يطمسها ويمحوها، كما استعلوا في داخل نفوسهم على الخوف وعلى رغبة الحياة، فأعلنوا أن الحق أثمن من الحياة"¹

ولا يفوتنا أن ننوه بأن التدافع بين الحق والباطل جوهر سنة التدافع، فالحق بطبيعته يسعى لبلوغ أعلى الركب ظهورا وانتشارا، بينما يحاول الباطل بكل ما أوتي من قوة أن يُزيح ويقمع هذا الحق ويُغنيّه، ليُضِلَّ الناس عنه وتحلو الساحة له، وهذا ما يدفع أصحاب الحق إلى الدفاع عنه وبذل كافة الأسباب والوسائل الممكنة لنشره، لأنه مواجهة فكرية وعملية بين من يؤمنون بالحق ويرفعون شأنه، ومن ينكرونه ويتآمرون عليه، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال/60.

وبالتالي فسنة التدافع تتطلب جهدا بشريا وعملا فعّالا، فلا يمكن لأهل الحق أن يلغوا المقدمات والمسببات، ويكتفوا بانتظار النتائج والأسباب في بلوغ الغايات والأهداف، فهي سنة تُوجب الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية لنصرة طريق الحق وتوسيعه، ضد تحجيم طريق الباطل وحصره، ولهذا نجد مالك بن نبي يؤكد على

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص117.

ضرورة التركيز على الأسباب، بدلا من مجرد انتظار النتائج في سياق التدافع، فالجتماع لا يمكن أن ينهض دون بذل جهد، وتخطيط وعمل جاد مستمر، فالخمول والاستسلام للقدر دون عمل ينافي مفهوم التدافع، ولهذا يقول "إن هدف التخطيط واضح: إنه خلق الشروط الدينامية الاجتماعية، وبعد ذلك نحدد الوسائل التي ستؤتي تسيير تلك الدينامية الاجتماعية، فنحن لا نستثمر ما نريد بل ما نستطيع، ولا نستثمر بوسائل الغير، إنما بالوسائل التي تقع بالفعل تحت أيدينا"¹

ومن زاوية أخرى فقد يعلو صوت الباطل حيناً من الدهر، فتكون له جولة غلبة على الحق، لكنها لن تستمر لأنها مجرد مرحلة مؤقتة تزول على المدى القصير، لأن سنة التدافع تقتضي أن تكون النتيجة النهائية لكفة الحق، فهو الأبقى والأقوى والأعز والأعلى، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء/81. "فالباطل يمكن أن ينتفش في الأرض فترة من الوقت، ويستعلي على الحق حسب سنة من السنن الربانية، هي الإملاء للباطل قبل تدميره، لكن انتفاش الباطل مع وجود الحق، وقيام جماعة المؤمنين بالصراع من أجله، ليس دلالة على هزيمة الحق، وليس هو النتيجة النهائية لصراع الحق والباطل، فالله يملئ للباطل حتى يزداد طغيانا، ويرى نصره المؤقت فيزداد غرورا وطغيانا، ليكون أهلا للعذاب في الدنيا والآخرة"² وقد تتأخر نتيجة التدافع فلا تكون محسومة من البداية، إلا أنها ترجح لأهل الحق على المدى البعيد، ما دامو قائمين مدافعين عليه، فالتمكين يتطلب وجود قوة تسعى لرفع الحق، وهذا لا يتأتى إلا من خلال مزاحمة وحراك مستمر ضد الباطل.

وخلاصة القول مما سبق يمكن القول أن سنة التدافع هي الساحة التي أمر الله أن يجري الحراك والصراع بين الحق والباطل، ليس لينتصر الباطل، بل ليمتحن أهل الحق ويظهر زيف الباطل وتحقق في النهاية غلبة الحق كقانون إلهي ثابت لا يتبدل ولا يتحول.

-التدافع بين الخير والشر:

تعتبر سنة التدافع وسيلة أساسية لاختبار البشرية، لأن الله تعالى يمنح الإنسان حرية الاختيار بين دروب الخير والشر، فيمتحن صبره على الثبات والالتزام بالمبادئ الصحيحة، ليمحص الصادق من الكاذب المخادع، فهذه السنة بمثابة معركة دائمة بين أهل الخير، الذين جعلهم الله كالغيث أينما وقعوا نفعا، من خلال سعيهم إلى الإصلاح ونشر الإصلاح، وبين أهل الشر الذين رهب الله من أتباعهم ومصاحبته، لأنهم يميلون إلى الإفساد ونشر الظلم والعدوان، فيدفع الله أهل الخير لمواجهة أهل الشر؛ لمنع انتشار الفساد في الأرض.

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص115.

² - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص116.

وجدير بالذكر أنّ "التدافع بين الخير والشر سنة إلهية دائمة مستمرة لا تتوقف ما بقي على وجه الأرض عاقل يدعوا إلى ما ينفع، وسفيه يدعو إلى ما يضر، لذا فإن الدعوة إلى ما ينفع العبد عمّا يضر ليس بالضرورة أن تنطلق من خلفية دينية، بل ربما يكون المحرك لها والدافع إليها تحكيم العقل في اختيار الأفضل، والوقوف على نتائج الشر وآثاره"¹، ولعل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُعدّ منهجا عمليا لمواجهة الشر والدفاع عن الخير، سواء باليد أو اللسان أو القلب كأضعف إيمان في التغيير.

ولا مناص من القول أن التدافع بين الخير والشر قديم قدم البشرية، وتمتد جذوره إلى ابني آدم عليه السلام قابيل وهابيل؛ أين انطلقت أولى نقاط الصراع بين الخير والشر في تاريخ البشرية على وجه الأرض، هي قصة تحدت فيها معالم الخير التي مثلها "هابيل"، بما يحمله في نفسه من إخلاص وتقوى وخشية من الله، فعندما قدّم كل واحد منهما قربانا، اختار هابيل أفضل ما عنده تقربا إلى الله، وكان ردّه على أخيه حين هدّده بالقتل: ﴿لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة/ 28، فموقفه لم يكن ضعفا، بل كان ورعا وخوفا من الله تعالى.

وفي المقابل نجد أن معالم الشر مثلها "قابيل"، بما يحمله في نفسه من حسد وكبر وعدوان، فعندما لم يُقبل قربانه، دفعه حسده وطمعه لارتكاب أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة/ 30، وعلى الرغم من أن نتيجة التدافع بين الخير والشر، قد كانت لكفة الشر ظاهريا بقتله للخير، إلا أن النتيجة الحقيقية على المدى البعيد كانت؛ خسارة قابيل الأبدية لكونه رمز للعدوان والندم والشر، أما هابيل فقد أصبح رمزا للخير والتقوى والمظلومية.

ولا يفوتنا أيضا أن ننوّه بأن دائرة التدافع بين الخير والشر قد تكون ضيقة، على الصعيد الفردي؛ مجالها النفس البشرية وما تتخبط فيه من أهواء ونوازع، تتردّد تارة بين الخير وأخرى بين الشر، بين الاستقامة وبين الانحراف، ويدفع وعي الإنسان بهذه السنة إلى مجاهدة نفسه وتركيتها، فصراع الخير والشر داخل النفس يحتم على الفرد الاختيار الواعي بين طريق الهدى والضلال، وهذا التدافع يشكّل محركا للنمو الروحي والأخلاقي.

وبالإضافة لما سبق، فقد تتوسع دائرة التدافع بين الخير والشر أيضا لتشمل الاجتماع البشري، فالتدافع في المجتمعات يبقى قدرا ربانيا، بين قوى ومبادئ مختلفة، وهو تدافع الخير والشر الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر، امتنانا من الله على عباده، ولأنّ "طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا

¹ - خالد الزهراني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 111.

عليه؛ وأن يصبح سهلاً يجترئ عليه كل من يهمل به... وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه... عندئذ ينزوي الشر وتنحسر دوافعه، وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه، وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد ومجموعات يطاردها المجتمع ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة. ولا تصبح هي الطابع العام.

والمنهج الإسلامي يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق، وحساساً تجاه الاعتداء عليه؛ ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي است حفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء... ولا يخافون لومة لائم، سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالمال؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى، فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه علواً أم سفلاً سواء¹

وتأسيساً على ما تقدم؛ فإن لسنة التدافع بين الخير والشر تأثير عميق على البناء المجتمعي، حيث تبرز هذه السنة كآلية لضمان صلاح المجتمع واستقراره، فعندما يتدافع أهل الخير مع أهل الشر، فإن هذا التدافع يمنع الفساد من الانتشار والسيطرة، مما يسهم بذلك في مواجهة الظلم وانتشار الأخلاق الفاضلة، وتشكيل وعي جماهيري لبناء مجتمع صالح وقوي، قائم على الإصلاح والعدل وتكافئ الحقوق.

وفي الختام يمكن القول إن سنة التدافع بين الخير والشر جزء لا يتجزأ من السنن الإلهية التي لا تتبدل، هدفها الأسمى هو تحقيق الصلاح والاستقرار، وتمكين أهل الخير من إقامة العدل وتحقيق الأمن، كما أنها ضمانٌ للخير بأن لا يُقمع، وتأكيد للشر بأن لا يطغى ويظهر بالكامل، مما يحافظ بذلك على ديناميكية الحياة وفعاليتها.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص948.

وخلاصة القول مما سبق حول مظاهر سنة التدافع يمكن القول أن:

- سنة التدافع قانون كوني أوجده الله ليحكم حركة الحياة على الأرض، جوهرها قائم على دفع الصراع المستمر بين القوى المتناقضة، ليحقق توازنا واستمرارية في الحياة تمنع عنها الفساد، وعلى رأس هذه القوى المتضادة؛ تدافع الإيمان والكفر، وتدافع الحق والباطل، وأيضا تدافع الخير والشر.

- هناك نوعان من التدافع ليس بينهما تعارض، والاكتفاء بأحدهما لا يغني عن الآخر، والتمسك بهما ضروري لقطف كل ثمار الدفع، وحصد ما زرع في سبيل تحصيله والإبقاء عليه؛ الأول هو الدفع المادي الذي يعني امتلاك الأمة أو الدولة القدرات المادية التي توصلها لردع أعدائها، أو إجبارهم على التراجع حين يهاجمونها، أما الثاني فو الدفع الروحي (المعنوي) في الإسلام، وهو ما يتضمنه من مبادئ وقيم وأخلاق، ومثل وفضائل، وهي بحاجة إلى قوة رادعة تضمن لها البقاء والنماء، فلا يمكن لأمة أن تحقق نجاحا وفوزا كاملا بقوة عسكرية، فلا بد من وجود قوة روحية معنوية إلى جانب القوة العسكرية والعلمية الثقافية.

- سنة التدافع بين الإيمان والكفر هي جوهر الصراع البشري، كما يصوره القرآن الكريم، وهي المحور الذي تدور حوله قصص الأنبياء وجهادهم في تبليغ دعوة الإيمان، مقابل ردّ شرك الكافرين وعبادتهم للأوثان، والتمسك بجاهليتهم الأولى، فكان من أسمى ثمرات هذا التدافع حفظ مقصد عظيم من مقاصد وكليات الشريعة الإسلامية؛ هو حفظ الدين من خلال نشر دعوة التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، وكسر شوكة الشرك والكفر والعقائد الفاسدة، وعملا بسنة التدافع في إعلاء دين الله على باقي الأديان؛ فإن الله تعالى يسخر من عباده المؤمنين من ينصر دينه وينشر دعوته ويحكم شرعه بين الناس، لدفع شرك المشركين وكفرهم، وانحراف عقائدهم وفتنتهم للدين.

- في التدافع بين الحق والباطل؛ إظهار للحق وإزالة للباطل، ذلك أن الحق ثابت راسخ مستمر، يُقذف به الباطل فيزهقه، لأن الباطل ضعيف مضمحل وبطبيعته زائل، لكنه يحتاج إلى من يدفع به ويزيله من الوجود، وهذا الدور يقوم به أهل الحق، ومن أسمى ثمرات هذا التدافع استخلاف أهل الحق في الأرض، بإصلاحها ونشر العدل فيها، ورفع الظلم والفساد منها.

- إن التدافع بين الخير والشر مستمر لأن يرث الله الأرض ومن عليها، فهذه السنة جزء أصيل من طبيعة الوجود البشري، لضمان توازن الحياة، يتزاحم فيها كلا الطرفين فلا يسيطر أحدهما على الآخر سيطرة مطلقة، فالتدافع إذن يمنع استقرار الشر بشكل دائم مستمر، لأن هناك قوة الخير تدفعه وتمنع استبداده.

2- أثر سنة التدافع في تمكين العمل الدعوي:

إن التمزق الذي أصاب الأمة الإسلامية، والتخلف عن اللحاق بركب الأمم المتحضرة، واقع يفرض عليها التصدي له في المرحلة الراهنة، باتخاذ الأسباب والسعي لتمكين الدعوة الإسلامية بنشر الدين وتعاليمه، ولن تقوى على ذلك إلا بإحياء سنة التدافع بالرؤية القرآنية العميقة، ذلك أنّ "حركة المدافعة الحضارية التي حثّ عليها القرآن وجعلها محور السعي الإنساني في دار التكليف تصب في تحقيق سنن المداولة الحضارية، إذ الوصول إلى التمكين والريادة يمر عبر نجاح السعي في سنن المدافعة، وهذا حتى يكون سعي الإنسان في منظومة المدافعة محققاً لغرضه"¹.

وبالتالي فسنة التدافع تهدف إلى بلوغ الريادة الحضارية انطلاقاً من مبارحة الواقع لدائرة التخلف والاستضعاف التي يعيشها، والتفاعل مع النوازل والمستجدات الراهنة لتصحيح الأمة وجهتها، وتحرك هذا الواقع بدفعه نحو مركز القيادة الفعالة، وتجاوز حالة التخلف والركود الحضاري بين باقي الأمم، ولهذا حكم الطيّب برغوث بأن "حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمها باستمرار نظرية أو معادلة أو سنة" المدافعة والتجديد"، فالموقف الفكري والعملية للأفراد والمجتمعات، من معطيات ومقتضيات هذه المدافعة والتجديد، الناطمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، هو الذي يحدد طبيعة ومسار، وأفق المداولة الحضارية، ومداها التاريخي بشكل مستمر لا يتغير"².

ومن هذا المنطلق فإن "سنة التدافع متعلقة بالتمكين تعلقاً وطيداً، فالله تعالى يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو- مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة- فإذا مجرد نمو الخير يشكّل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بدّ أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة... فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً"³.

وجدير بالذكر أن الأمة التي تقوم على واجب الدعوة إلى الله ونشر الدين، بحاجة إلى تجميع كافة قواها وطاقاتها، وتوفير كل استعداداتها ووسائلها، لأداء هذه المهمة، والتي تسعى من خلالها لبناء مجتمع صالح، تغيب

¹ مراد بلخير، منظومة سنن المدافعة والتجديد في القرآن الكريم وأثرها في النهضة الحضارية، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، مج29، العدد 2، 2025، ص267.

² - الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص48.

³ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص742.

فيه مظاهر الظلم والفساد والمنكر والشر، لأن طبيعة المجتمع الصالح تحقق الشر وتنفي اتساعه، وتحسر الفساد فتعدُّ انتشاره، من خلال مدافعته بقيم الخير والعدل والحق والصالح، ما دفع بمحمد الغزالي " للحديث عن هذه السنة، بإخراجها من دائرة التعريف والتأصيل، وإدماجها في دائرة الفعل والتوظيف، والاستفادة منها، وتفعيلها في واقع المجتمع الإسلامي، ليحقق كسبا وإنجازا هاما للقضية الإسلامية رغم الضعف والتبعثر"¹

وبالتالي فالمدافعة سبيل لبناء القوة المعنوية والمادية للدعوة، لأن المواجهة تحفز المسلمين لتطوير إمكانياتهم وأدواتهم معنويا؛ بتقوية الإيمان والتوكل على الله والرضا، والصبر، كما حدث في غزوة الأحزاب، وأيضا ماديا بالإعداد العلمي والعسكري، والاقتصادي، كما أمر الله تعالى في قوله: "وأعدوا لهم... قوة: الأنفال /60، وبالإضافة إلى هذه القوة فإن سنة التدافع تُفرز قيادات دعوية مؤهلة، لأن التحديات والمحن تُظهر الكفاءات القادرة على القيادة في الأزمات، والمرونة في تطوير أساليب الدعوة، لتحقيق التمكين السياسي والمجتمعي؛ ذلك أن انتصار الحق على الباطل في هذه المدافعة يُفضي إلى تمكينه وانتشاره واستمراره في الأرض، ومن أمثلة التمكين السياسي تأسيس دولة " المدينة" بعد صراع طويل مرير مع قريش، وانتشار العدل الاجتماعي بعد فتح مكة كنموذج للتمكين المجتمعي الذي حققته هذه المدافعة.

جعل الله تعالى سنة التدافع قانونا ساريا بين الناس، لا يحايي طرفا دون آخر، إلا في حالة ما إذا كان هذا التدافع لإعلاء كلمة الحق، ونشر الدين وتبليغ الدعوة، فقد جاء الاستثناء الرباني لهذه الطائفة بالمدافعة عنهم والتمكين والاستخلاف لهم، فبالتالي هناك علاقة تلازم بين الأمرين، الأول يوجب دفع الدين والدفاع به والمدافعة عنه، لاستحقاق مدافعة الله عنهم، بالنصر والتأييد والمدد الإلهي لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ الحج/ 38.

وهذه الدائرة من التدافع ما زالت مستمرة باستمرار الوجود الإنساني، فمتى وُجدت الجماعة المؤمنة التي تسعى لمناصرة الحق والتمكين لدين الله بكل الأساليب والوسائل المتاحة، كان لها - بسعة فضلٍ وعدلٍ ورحمةٍ - من الله تمكين وسلطة وقدرة، والتمكين هنا لا يعني الحكم والملك والغلبة للآخرين، بل هو استخدام له من أجل استخدامه في الحق ضد الباطل، والإصلاح ضد الإفساد، لإعلاء كلمة الله في الأرض وتطبيق منهجه الذي ارتضاه للعباد.

¹ - هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 96.

إن مفهوم سنة التدافع يمثل ركيزة أساسية في الفهم الإسلامي للعلاقات بين الحق والباطل، وكيف تتجلى هذه الدينامية في العمل الدعوي، فتشير هذه السنة الإلهية لوجود تنافس وتزاحم دائم بين قوى الخير والشر، حيث يسعى كل طرف للظهور على الآخر أو إزاحته، وإن هذا التدافع ليس مجرد صراع سلبي، بل هو آلية ضرورية لحفظ توازن الحياة وضمان بقاء الحق ومنع انتشار الفساد، وفي سياق العمل الدعوي يكتسب فهم هذه السنة أبعاداً عميقة، فهو يمد الدعاة بالبصيرة اللازمة لمواجهة التحديات، ويؤجّه خططهم نحو تحقيق أهداف الدعوة العليا.

سنة التدافع ليست مجرد صراع عابر، بل هي آلية كونية تُسهم بشكل جوهري في تمكين العمل الدعوي وترسيخ وجوده، وذلك من خلال خلق مساحات للوجود الدعوي، فالتدافع يمنع هيمنة القوى المعادية للإسلام، ما يُفسح بذلك المجال لانتشار الدعوة، فصلح الحديبية مثلاً رغم شروطه الظالمة فتح الباب لانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، والهجرة كانت مظهراً من مظاهر سنة التدافع؛ حيث كان اضطهاد المشركين في مكة دافعا للمسلمين إلى الهجرة نحو الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة ثانياً، أين تحولت تلك التحديات والصراعات إلى فرص للنماء والارتقاء، فالثبات في وجه التحديات وتكرار مواجهة الباطل، يفضي في النهاية إلى تعزيز مكانة الحق وتمكينه، هذا التمكين لا يعني بالضرورة السيطرة المطلقة. بل يعني ترسيخ القيم الإيجابية، وبناء مجتمعات صالحة.

وفي الختام يمكن القول أنّ التدافع وسيلة إلهية لترسيخ الدعوة، باعتباره يزيل العوائق المادية أمامها، ويبني شخصية الداعية القادر على مواجهة التحديات بكل مرونة لتحقيق التمكين الفكري، فالتأثير المجتمعي، والتغيير السياسي، وبالتالي فهم هذه السنة يجعل الدعاة يعدّون العدّة لكل مرحلة، ويتقنون بأن كل مزاحمة ومغالبة تُدار بحكمة هي خطوة نحو التمكين

-وخلاصة القول مما سبق يمكن القول، أنّ سنة التدافع تُعد قانوناً إلهياً ثابتاً، لا تقتصر على الصراع بين الحق والباطل، بل هي دينامية أساسية لتشكيل واقع الحياة والعمل الدعوي، ففهم هذه السنة يسلّح الداعية بالبصيرة اللازمة، ويعزّز من صموده ويُعزّز خطاه لتحقيق أهداف الدعوة، فسنة التدافع ليست معركة سلبية بل هي محرّك للتفاعل والنمو، وتُسهم في إرساء الحق والعدل وتمكين العمل الدعوي.

وتأسيساً على ما سبق بيانه يمكن القول:

-تعددت وتنوعت تعاريف التدافع، لتشمل معنى التدافع الإيجابي التكميلي، وأيضاً جانب التدافع السلبي التصادمي حسب السياقات والمضامين التي ترد فيها، وبالتالي فهي تشترك وتتفق في معنى عام يدور أولاً حول

التزاحم بين الخير والشر، الحق والباطل، الصلاح والفساد، العدل والظلم، وثانيا حول المغالبة بين الأقوياء والضعفاء، الأغنياء والفقراء، بين الأفراد والأفراد وبين الجماعات والجماعات، وأيضا بين الأمم والأمم، فالله تعالى لم يجعل الخلق كلهم مؤمنين، ولم يجعلهم أيضا كفارا ملحدين، بل وُجد الإيمان والكفر، الخير والشر، الحق والباطل، العدل والظلم حتى تتحقق سنة التدافع في الأرض، وإلا لفقدت الحياة لذتها لأن دفع الباطل بالحق من أعظم ميادين الدعوة إلى الله تعالى.

- سنة الله في التدافع سنة إلهية ربانية جارية، في هذا الكون الفسيح بصفة عامة وفي الحياة الإنسانية بصفة خاصة، فهي سنة اجتماعية أرشد الله تعالى إلى ضرورة فهمها واستثمارها، لما لها من أثر واضح على حياة الإنسان وتفاعلاته في كل مكان وزمان، إذ تُسهم في توجيه التفاعل بين القوى المتعددة، ليؤثر كل منها على الآخر إيجابا أو سلبا، والأمة الإسلامية إذا أغفلت هذا الفقه لسنة التدافع، تردت أحوالها.

- إنَّ سنة التدافع مرت على جميع الرسل، من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وستظل ماضية إلى نهاية الكون، غايتها ضمان استمرار توازن الكون، فالتدافع يبقى قدرا ربانيا بين قوى متزاحمة، - تدافع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الصلاح والفساد، بين العدل والظلم-، وظهوره ضرورة إنسانية في حياة الناس، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يسود المجتمعات الإنسانية التعدد والتنوع والاختلاف، حتى يتم التسابق والتدافع والتزاحم والتعارض، فينتج عن ذلك التعارف والتعايش والتعاون، لا التصارع والتصادم والالغاء والانفراد.

- سنة التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل وانتصار أحد الطرفين، لا علاقة له بخيرية الأمة الإسلامية، بل بمباشرة الأسباب المؤدية لتحقيق النصر والتمكين، فهي لا تحايي طرفا دون آخر فترجح وتميل لكفة دون أخرى،" فأمر المدافعة والمداولة الحضارية على المستوى الديني، مبذولة أسبابه لجميع الناس دون حظر أو تمييز؛ بسبب العرق أو اللون أو الموطن أو الدين أو الثقافة أو الوضع الاجتماعي، بل سنن الله متاحة لكل الناس ليعرفوها وليستثمروها كما يريدون، في الخير أو الشر، لأن الله تعالى كفل للإنسان حرية الإرادة والاختيار والمسؤولية"¹، فإذا اجتمع الإيمان مع الحق، وصاحبه الأخذ بالأسباب ضمن التمكين والنصر والاستخلاف، بالإضافة إلى أن وجود هذه السنّة مشروط بوجود الظلم والبغي والشر والفساد بين الناس، ولا تظهر دون ذلك.

- سنة التدافع آلية حكيمة لحفظ توازن الحياة، وهي دافع لإصلاح طاقات الأمة وعدم الاستسلام واليأس، كونها تعزز في النفس والجماعة روح المسؤولية في نصرة الحق، مع الثقة في نصرة الله لعباده الصالحين المصلحين،

¹ - الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص55.

وهي أيضا مظهر من مظاهر تكريم الإنسان بإعطائه دورا فاعلا في الصراع بين الحق والباطل.

ولعله من المناسب أن نقف في ختام هذا الفصل الموسوم بـ: سنن التمكين الكبرى وأثرها في العمل الدعوي، على خلاصة جامعة لما ورد في مباحثه الأربعة، فنقول أنّ سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، هي بمثابة خارطة طريق واضحة المعالم، لكل من يسعى إلى نشر الدعوة الإسلامية، فقد شكّلت سنة الابتلاء وسنة الأخذ بالأسباب وسنة التغيير وسنة التدافع؛ سننا متكاملة مترابطة وظيفيا، لا تناقض إحداها الأخرى، ولا يستغني بعضها عن بعض، بصورة تعكس تناسقا وتناغما جماليا، يدل على قدرة الله وبديع خلقه في سننه، والتي تؤدي وظيفة التمكين الحضاري للأمة مجتمعة.

تناول المبحث الأول سنة الابتلاء كونها سنة إلهية لا تتبدل ولا تتخلف، فهي قانون كوني يحكم حياة البشر منذ خلقهم، فمنذ أن خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه، كان الابتلاء جزءًا لا يتجزأ من وجوده على الأرض، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/2، ومن الحقائق القرآنية الثابتة حول هذه السنة، أنّه يترتب عليها التمكين باعتباره وعد الله المحقق وقضائه وحكمته الربانية، فالابتلاء ليس عائقا أمام التمكين بل هو إحدى مقدّماته ومراحلته الضرورية، التي لا بد منها لإعداد الأمة بصفة عامة والدعاة بصفة خاصة لتحمل أعباء التمكين.

ومما لا شك فيه فإن التمكين لا يتحقق بالتمني، بل يتطلب الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، والعمل الجاد المخطط له، فالإسلام دين العلم والعمل، ولا يرضى الكسل والتواكل، ولهذا تعد سنة الأخذ بالأسباب من أهم السنن التي تحقق التمكين للعمل الدعوي، فهي تمثل الجسر الذي يربط بين التوكل على الله، مع بذل الجهد والإعداد، وبها يرتقي العمل الدعوي من العشوائية إلى الاحترافية، وهذا ما كان مضمون المبحث الثاني.

أضف إلى ذلك، فقد دار الحديث في المبحث الثالث حول سنة التغيير، التي تُعدّ بمثابة قانون سماوي ينظم سيرورة المجتمعات، وميزان إلهي يحكم تطور المجتمعات، وهو ليس مجرد شعارات أو تغيير في المظاهر والعبادات، بل هو مشروع شامل، مركز ثقله هو الإنسان، وانطلاقاته التغيير الداخلي؛ العقدي الروحي، والفكري الثقافي للفرد، لينعكس إيجابا على التغيير الخارجي السلوكي والأخلاقي، السياسي والاقتصادي للمجتمع.

وختمنا الفصل بمبحث رابع، حول سنة من سنن التمكين الكبرى؛ هي سنة التدافع، العامة والمبثوثة في صفحات الكون عامة، والأفراد والأمم والجماعات خاصة، وهي ليست صراعا عشوائيا، بل هي نظام إلهي محكم لتحقيق غايات منها صلاح البلاد والعباد، وانتفاء الفساد والهلاك، وإيجاد حراك دائم يدفع الأمة للتطور والتوازن،

وإنّ التدافع الحاصل بين الأفراد أو الأمم والجماعات، قدر حاصل من الله تعالى عليهم، رغم كونهم المباشرين له، ومنه المحمود كدفع أهل الإيمان لأعدائهم، والمذموم كمدافعة الكفار لأهل الإيمان، والتدافع بين الحق والباطل سنة كونية، والتمكين يأتي ضمن هذا التدافع؛ بدفع الله الناس بعضهم ببعض، فالباطل لا يزول إلا بالمدافعة والمزاومة.

الفصل الثالث:

مقومات تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر

المبحث الأول: الشروط المعنوية والمادية لتفعيل سنن التمكين.

المبحث الثاني: الأهداف العقدية والحضارية لتفعيل سنن التمكين.

المبحث الثالث: التحديات الداخلية والخارجية أمام تفعيل سنن التمكين.

المبحث الرابع: أثر فقه سنن التمكين في ترشيد العمل الدعوي المعاصر.

تمثل سنن التمكين في الكون منهجاً ربانياً، لإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهداية والإيمان، وهي ليست حكراً على أمة دون أمة، بل هي سنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير، لمن سار على دربها وأخذ بأسبابها، وفي سياق العمل الدعوي المعاصر، يبرز التفاعل الواعي مع هذه السنن كضرورة حتمية لتحقيق النجاح والاستمرارية، في ظل متغيرات معقدة وتحديات متسارعة.

ففقهاء سنن التمكين لا يقتصر على المعرفة النظرية فحسب، بل يتعداها إلى التطبيق العملي، الذي يجسد الشروط اللازمة لتفعيل هذه السنن، ويستحضر الأهداف الاستراتيجية التي تسعى إليها، ويتعامل بوعي مع التحديات التي قد تعترض مسارها. كما أن الارتقاء بفقهاء السنن يمثل ركيزة أساسية لترشيد المسيرة الدعوية، وضبط توجهاتها، وتحقيق التوازن بين متطلبات الواقع وثوابت الشرع، مما يضمن للعمل الدعوي النضوج والفعالية.

المبحث الأول: الشروط المعنوية والمادية لتفعيل سنن التمكين:

المتأمل في هذه الحياة بصفة عامة يجد أن النجاح فيها يكون قيد شروط تحققه، لا جملة الأوهام والأحلام التي قد يستغرق فيها، كذلك الأمة الإسلامية التي تتطلع إلى تمكين عملها الدعوي، وتريد أن تكون لها الدولة بين الأمم، فتتولى زمام القيادة والريادة، لتنشر ضياء الدعوة، ونور الشريعة، تحتاج إلى الالتزام بشروط، كثيراً ما أشار إليها القرآن الكريم.

وما سورة الأنفال إلا أوضح مثال وبرهان، على الإرشاد لجملة الشروط التي يجب اتخاذها، في مواجهة الأعداء ورد عدوانهم، وتحقيق الغلبة عليهم؛ بنشر رسالة الإسلام العادلة، حتى لا يعتقد المسلم أنه معفى عن المطالبة بكل الشروط، المادية منها والمعنوية لتحقيق التمكين، فهي سنن يظهر فيها الترابط الوثيق بين الجانب الإيماني والعملي، وهذا ما أشار إليه؛ محمد الصادق عرجون، في هذا الصدد ردّاً على من يتمنى ويتأمل النصر والتمكين بمجرد الإيمان بقوله: "يجب أن يُحمل على إرادة الإيمان بحوافزه وشرائطه، لأن مجرد الإيمان من غير إعداد نفسي وفكري؛ بالعمل الصالح والعلم النافع، ودون إعداد مادي بالقوة المرهبة للعدو، لا يتفق مع سنن الله تعالى في إنزال نصره على المجاهدين في سبيله".

المطلب الأول: الشروط المعنوية الروحية:

إن الشروط المعنوية هي جملة العوامل والمعايير المعنوية، ذات التأثير البالغ في تحقيق التمكين، ولها قوة أكبر وأشد من العوامل المادية العملية الأخرى، "فلا يُعدّ التفوق المادي معياراً حقيقياً للقوة؛ إذ إن القوة المادية المجردة من القيم قد تتحوّل — بل كثيراً ما تتحوّل — إلى وسيلة للطغيان في الأرض بغير حق، وأداة لإشاعة الفساد

والظلم فكيف يمكن لها، وهي على هذا النحو، أن تنهض بمهمة تقويم الإنسان أو إصلاحه؟¹.

لهذا تظهر بجلاء أهمية الشروط المعنوية، لأن مكمن السر في ذلك أن هذه العوامل مرتبطة بمركز ثقل عناصر التمكين، ألا وهو الإنسان، الذي يُعدّ اللبنة المحورية في عملية التمكين وجوهره، فهذه الشروط تُشكّل مناعة داخلية للدعاة، وتمثّل القوة الدافعة والمحفزة للاستمرار في طريق التمكين، كما أنّ الشروط المعنوية مرتبطة ببناء المنظومة العقدية الروحية، الفكرية للإنسان، أين تتحقق الطمأنينة والراحة والاستقرار النفسي، والصبر لبلوغ غاية التمكين، ثمّ تنعكس إشعاعات تلك الطاقة الإيمانية العقدية الروحية، إلى بناء منظومة أخلاقية سلوكية موجهة نحو التمكين.

ولقد كان لقوة المسلمين المعنوية الأثر الكبير والفعال في نفوس أعدائهم، حيث كانوا يهابون لقاء المؤمنين، وإن كانوا قلة، "ولهذا تعطي دول العالم اليوم 75% للمعنويات، و25% فقط للأمور المادية في جيوشها، لذلك ركّز الإسلام على الروح المعنوية، وجعل أتباعه يقولون لقائدهم ﷺ: "والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك"²، وهذا ما أقرّه القرآن الكريم أيضاً في ثنايا الآيات القرآنية التي تحدثت في ذات الصدد.

ومن هذا المنطلق فإن التمكين في أرض الله وإظهار دينه، ونشر دعوة الإسلام في أصقاع المعمورة، وعد من الله تعالى؛ متى ما حقق المسلمون شروطه، والشرط: "تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني، وقيل الشرط ما يتوقف على وجوده وجود الشيء، ويكون خارجاً عن ماهيته ولا يكون مؤثراً في وجوده، وقيل الشرط ما يتوقف ثبوت الحكم عليه، وفي اللغة عبارة عن العلامة ومنه أشرط الساعة"³.

ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح وجلالة؛ أنّه يشترط لتحقيق سنن التمكين "توفر إيمانٍ كاملٍ، يتبلور في عمل صالح شامل، بينما يقتزن استمرار هذا التمكين بالالتزام العملي بأركان الإسلام، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ، مما يجسد الترابط العضوي بين مقومات التمكين وضوابط استمراره في المنظور الإسلامي"⁴، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور/55.

1 - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص 137.

2 - شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1979، ص 17.

3 - الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ج 1، ص 166.

4 - علي محمد الصّلاحي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 187.

وبناء على ذلك فقد أشارت الآية القرآنية إلى شروط سنن التمكين، لكننا وقبل التفصيل فيها، ارتأينا أن نقف على أسباب نزول هذه الآية، التي تعد الحجر الأساس في بيان الشروط المعنوية للتمكين.

وقد جاء في بيان ذلك ما يلي " مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، بعدما أوحى الله إليه خائفا هو وأصحابه؛ يدعون إلى الله سبحانه سرا وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا خائفين يصبحون في السلاح ويمسسون في السلاح فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح، فقال رسول الله: لن تلبثوا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم، مُحْتَبِياً ليست فيهم حديدة، وأنزل الله إلى آخر الآية، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح، وآمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه، فكانوا كذلك في إمارة أبي بكر، وعمر وعثمان رضي الله عنهم، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف وغيروا فغَيَّرَ اللَّهُ بِهِمْ ¹."

وتأسيسا على ما سبق، فإن تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، يشكل ضرورة حتمية لتحقيق التأثير والإنجاز، ويتطلب توفر مجموعة من الشروط المعنوية، التي تشكل الأساس الذي تُبنى عليه باقي المرتكزات، وفي الصفحات التالية سنعرض جملة من الشروط المعنوية للتمكين، وهي شروط تحمل في طياتها بعدا روحيا وأخلاقيا، وتمثل في:

1- قوة الإيمان والعقيدة الصحيحة:

يمثل الإيمان العميق المصدر الأساسي للطاقة الروحية المستدامة، ولقد بين الله تعالى لعباده حقيقة الإيمان الذي يقبل الله به الأعمال، ويتحقق به وعد الله تعالى للمؤمنين، فمن شروط التمكين في الأرض؛ تحقيق الإيمان بكل معانيه، والالتزام بشروطه، والابتعاد عن نواقضه، وقد فصل القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع الإيمان، وأركانه وشروطه ولوازمه، فكان أمر الله لكافة رسله بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء/25.

وقد أقرّ العلماء حقيقة الإيمان، فقالوا الإيمان "قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح"²، فمعنى الإيمان هنا اشتمل التصديق القولي، والعمل الجازم؛ الذي تتوثق معانيه في أعماق القلب، فتتشكل جملة الأفكار التي توجه السلوك الإنساني بالتزام شرع الله، وامتنال أوامره وترك نواهيه.

¹ - أبي الحسن الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط5، 1993، ص272.

² - شيخ الإسلام ابن تيمية، الإيمان، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت دمشق-عمان، ط5، 1996م، ص291.

فلا مناص من القول، أنَّ استقرار الإيمان في القلب واللسان والجوارح، يبعث على استقامة العقيدة وثباتها، لتكون العقيدة بذلك إطاراً منهجياً، يوفر الرؤية الواضحة والمنهج الصحيح للدعوة، فتتحدد الأهداف والغايات المراد بلوغها بكل دقة وفعالية، وتضبط مسار الدعوة نحو التمكين وتمنع عنه كل الانحرافات، باعتبارها مجموعة من الأحكام التي يصدق بها الإنسان تصديقاً جازماً، حتى تثبت منه في الأعماق، ويحملها قناعات توجه مفاهيمه، وتحدد تصوره للأمور، لدرجة تتحكم معها في سلوكه، وتقرر نسق حياته، بل تسري في مشاعره، وتتجلى في ذوقه ومزاجه.

"وإن المتأمل في تاريخ الحضارات يلحظ أنها نشأت على أسس عقديّة واضحة، انبثقت عنها منظومات من التصورات الفكرية، والأنظمة العملية، والفضائل الأخلاقية التي استقرت في المجتمع واستمدت مشروعيتها من اندراجها في صلب العقيدة ذاتها، وكما أن لكل حقيقة برهاناً، فإن أثر العقيدة يتجلى في قوة الفرد النفسية، وتماسك البنية الاجتماعية، متى قامت بدورها التربوي والحضاري؛ إذ يلتزم الإنسان حينئذ بما يؤمن به، ويطابق بين معتقده وسلوكه، وفكره وتصرفاته."¹

ومن زاوية أخرى فإن الوقوع في المعاصي، والجهل بأصول العقيدة الصحيحة ومعانيها، أو التقليد الأعمى لموروثات الآباء والأجداد، أو التعصب والغلو في الدين، والانغماس في الملهيات والشهوات الدنيوية، أسباب تؤدي إلى ضعف الوازع الديني وقلة الإيمان، وبالتالي انحراف العقيدة الإسلامية الصحيحة، وغياب الرؤية للمنهج الدعوي، وهذا يقود إلى وقوع الاستضعاف بدل التمكين.

ومما لا شك فيه، فالإيمان يُعدّ الركيزة الأساسية التي تمنح الداعية الطاقة الروحية والمعنوية اللازمة، لمواصلة مسيرته الدعوية، فهو بمثابة "اليقين الجازم الذي يستقر في القلب فيمنحه الطمأنينة والسكينة، ويجعله في منأى عن الخوف والتردد"²، ومن هذا المنطلق، يتحتم على الداعية أن يتسلح بهذا الإيمان ليتمكن من أداء رسالته على الوجه الأكمل، ساعياً إلى ترسيخه في نفوس المدعوين، وموضحاً لهم أصول الدين، مصححاً ما قد يشوب اعتقادهم من شوائب، مستنداً في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، اللذين يمثلان الضمانة الحقيقية لتحقيق التمكين والعزة للأمة، ووقايتها من الذل والهوان.

وفي هذا السياق، يبرز الوعيد الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة/5، مؤكداً أن الإيمان هو شرط قبول الأعمال، وأن من ينخلع من مقتضياته فإن أعماله

1 - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص 186-187.

2 - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ص 622.

تبوء بالبطلان، ومصيره إلى الخسران.

لذلك فمن الأهمية بمكان، مراعاة جملة الصفات التي أخبر الله تعالى عنها في حصول التمكين لعباده، ممن توفرت فيهم كل مقتضيات الإيمان ولوازمه؛ من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41

ولعله من المفيد الإشارة إلى التوحيد والإخلاص لله تعالى، كواحدة من أجل مقتضيات الإيمان؛ فتوحيد الله والإخلاص له، شرط أساس من شروط التمكين المعنوية، لذا يستوجب توحيد الله تعالى، بمعنى إفراجه بالعبادة، فلا يشرك به نبيا مرسلا، ولا عبدا مقربا، ولا وليا صالحا، بل عبادة الله وحده لا شريك له، والتوجه له في ذلك بكل محبة وخوف ورغب.

وهذا ما جاء في تعريف الإخلاص لغة فإن: " الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه¹، ومنه خَلَصَ يخلص خلوصاً أي: صفا وزال عنه شوبه، ويقال: خلص من ورطته: سلم منها ونجا، ويقال: خلّصه تخلصاً: أي نجّاه، والإخلاص في الطاعة ترك الرياء"².

أما اصطلاحاً فهو "صرف العمل والتقرب به إلى الله وحده، لا رياءً ولا سمعة، ولا طلباً للغرض الزائل، ولا تصنعاً، وإنما يرجو ثواب الله ويخشى عقابه، ويطمع في رضاه، والإخلاص في حياة الداعية؛ أن يقصد بإراداته، وأعماله، وأقواله وسائر تصرفاته، وتوجيهاته وتعليمه وجه الله تعالى لا شريك له ولا ربّ سواه"³.

ومن هذا المنطلق فالإخلاص في تمكين العمل الدعوي، أساسه القيام بأعباء الدعوة تقرباً إلى الله وحده لا شريك له، ونيل مرضاته والفوز بجناته، وليس طلباً للرياء والسمعة، ولأجل هذا كان التوحيد هو الغاية المشتركة بين كافة الرسالات السماوية، وإليه نادى جميع الأنبياء والرسل أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء/25.

فلا مناص من القول، أنّ الداعية المتتبع لسنة نبيّه ﷺ، السالك سبيله وسبل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام قبله، يدعو إلى الله وحده فلا يدعو إلى نفسه أو طائفته ومنهجه، وإنّما يقصد وجه ربّه خالصاً، فيكون همّه إقامة هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، فالإخلاص في حياة الداعية، ضرورة ولازمة من أعظم

¹ - ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج2، ص208

² - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج1، ص249.

³ - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقومات الداعية الناجح، ص271-272.

اللوازم، التي تجب على الدعاة التحلي بها، لأنهم يرجون بدعوتهم وجه الله تعالى، وغايتهم تحقيق السعادة في الدارين بإصلاح العباد وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وجدير بالذكر أن التوحيد والإخلاص لله تعالى؛ يشكّلان حجر الزاوية في بناء الشخصية الإسلامية الثابتة، حيث يمنحان الداعية الطمأنينة النفسية والثبات الفكري في مواجهة التحديات، "وقد تجلّى هذا المنهج عملياً في ثبات النبي ﷺ وصحابته الكرام، حيث تحملوا في سبيل الدعوة أنواع الأذى والمحن، وتخلّوا عن ممتلكاتهم وأوطانهم في سبيل الله، مما شكّل نموذجاً حياً للثبات على المبادئ، ولما بلغوا ذروة الصبر والإخلاص، حقق الله لهم سنن التمكين، فأنزل نصره وأيد دعوتهم، وهذا يؤكد أن التمكين في الأرض مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بتحقيق شروط الإيمان والعمل الصالح، والثبات على منهج التوحيد"¹.

وخلاصة القول فإن التوحيد مطلب هام في سبيل تحقيق التمكين، لاعتباره واحداً من العبادات التي تقرب العبد إلى الله، ويعلم صاحبه الإخلاص قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ البيّنة/5، وإنّ أساس كل ذلك ووعاؤه هو القلب، هذه المضغة التي بصلاحها يصلح الجسد كله، وبفسادها يفسد الجسد كله.

وفي هذا الإطار فإنّ تمثّل الداعية للإيمان الصادق؛ قولاً وعملاً، والحرص على سلامة عقيدته وصحتها، أمر واجب لأنه يصبو إلى مقام عظيم ومنزلة عالية، وهذا ما يمنحه المصدقية والتأثير في القلوب، ويبني الثقة بينه وبين المدعويين، ولا يبلغ هذا الحال إلا صاحب الإيمان الصحيح العميق، وقدوة الداعية في ذلك فعل النبي ﷺ؛ الصادق الأمين، الذي كان شديد الحرص على تثبيت العقيدة الإسلامية في نفوس الصحابة، والحديث على أخلاقيات لا إله إلا الله؛ التي كان يجسدها في كل أقواله وأفعاله.

ولهذا كان لزاماً على الداعية لدين الله وشرعه، حتى يُمكن له في نشر رسالته وبلوغ أهدافها، أن يكون عالماً بالإيمان وأصوله وكافة مقتضياته، "فالعلم الذي ينهض عليه التمكين الحقيقي هو ذلك العلم المتولد في فضاء الإيمان، المستنير بهديه، والمتقيّد بمنهجه، والفاعل في الواقع وفق قيمه ورؤيته، فهو علم يصوغ التمكين صياغة حضارية إيمانية، لا استجابةً لشهوة عابرة أو نزوة طارئة، ومن ثمّ فليس كل ارتفاع في مراتب القوة أو امتلاكٍ لمقدّرات الأرض يُعدّ تمكيناً؛ إذ قد يكون مجرد علوّ في الأرض، وقد فُرق المنهج الإلهي بين التمكين المستند إلى الحق، وبين صور العلو التي تستبدّ بالخلق وتقوم على بغي لا نهوضٍ حضاري."²

¹ - عاطف عبد العزيز الفيومي، المنهج السلفي معالم على طريق الدعوة والتمكين، مكتبة طريق المصلحين، ط 1، 2010، ص 46-47.

² - رمضان خيس زكي الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 23-24.

ولهذا نجد النبي ﷺ يجعل من الإيمان إطاراً منهجياً للدعوة، ومنهجاً قوياً تتحدد فيه أهداف العمل الدعوي، ومثال ذلك وصيته ﷺ، لمعاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن فقال: " ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تُؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم"¹، وفي هذا بيان منه ﷺ لمنهجه في الدعوة مع أصحابه، فكان البدء بتعليم الإيمان كأولى الأولويات، ثم التدرج في تعليم باقي الأحكام.

وفضلاً على كل ما سبق؛ فقد حوى القرآن الكريم، الكثير من النصوص الدالة على أن التمكين لدين الله، مشروط بالإيمان والعقيدة الصحيحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الصافات/ 171-173، " فيعتبر وعد الله تعالى لنصرة رسله وأتباعهم من جنوده؛ سنة إلهية ثابتة، تتحقق بغلبتهم على أعدائهم وتمكينهم في الأرض، وقد جاءت الآيات الكريمة مؤكدةً هذه السنة الجارية، حيث بدأت بالوعد الصريح بنصر الرسل على مكذبيهم، وحثمت ببشارة المؤمنين باستمرار تحقق هذه السنة فيهم، ما داموا يحملون صفات الجندية الحقيقية لله عز وجل.

وتتجلى هذه الغلبة في مستويين: علوي معنوي ومادي في الدنيا من خلال قوة الحجة والبيان في المجادلة، والتفوق في ساحات القتال، وعلوي أخروي يشمل الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهذا الوعد الإلهي -على كونه خيراً- يصلح للاستدلال به على سنة النصر والتمكين، إذ أن تحققه مشروطاً بامتلاك المؤمنين لصفات الإيمان الخالص والعمل الصالح، مما يجعل هذه السنة الإلهية مرتبطة ارتباطاً وجودياً بتحقيق شروطها ولوازمها في الواقع"².

وقد وصف رمضان الغريب هذا الإيمان بقوله: "والإيمان الذي نطمح إليه ونسعى إلى ترسيخه ليس ذلك الإيمان الخامل الذي يركن إلى السكون، ويظل حبيس النفوس في حالة سبات، لا يتفاعل مع ما يجري حوله، ولا يحرك صاحبه قولاً ولا فعلاً، بل المقصود هو الإيمان الذي يبعث الحياة في الواقع، ويدفع حركة الوجود إلى الأمام، مسهلاً مسيرتها لا معيقاً لها، إنه الإيمان القوي الفاعل، الذي يمتد أثره، ويشع نوره في القلوب، ويترسخ مجراه في أعماق النفوس"³.

¹ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، ج2، ص104، رقم: 1395.

² - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص393.

³ - رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص43.

هو الإيمان الحي الذي يصوغ العمل خالصاً لوجه الله تعالى، ويحوّل الممارسات اليومية إلى عبادات ذات أثر، "إنه إيمان يرتقي فيه العبد من مجرد النطق بالشهادة إلى الإحساس العميق بوجود الله ووحدانيته، إحساس يبلغ درجة اليقين المماثل لمرتبة الرؤية والمشاهدة؛ رؤية لآثار الحقيقة الإلهية في أغوار النفس، وفي آفاق الكون المفتوح، رؤية جليّة وشهوداً واعياً مطمئناً"¹.

أضف إلى كل ما تقدم، فإن الإيمان القوي والعقيدة الصحية، بمثابة الناظم الأساسي للتفاعل الواعي مع سنن التمكين، فالإيمان يمنح الرؤية الشمولية للسنن، ليراه كمنظومة متكاملة مترابطة، يسعى لإدراك الحكمة الإلهية الكامنة وراءها، والعمل على تسخيرها في أداء مهمته الاستخلافية على الأرض، فالعقيدة الصحيحة تضبط تفسير الأحداث، دون الوقوع في تفسيرات الصدفة والعشوائية، لأنها تربط النتائج بالأسباب ضمن الإرادة الإلهية.

وإن المتأمل لآيات الله القرآنية، يجد حتمية مفادها؛ أن شرط النصر والتمكين لجماعة المؤمنين هو الإيمان الخالص، وهو من أعظم شروط التمكين المعنوية للدعوة الإسلامية، بل إنه الشرط الأساس والمفتاح الرئيس لذلك، وقد وصفه الصلابي "بالإيمان الذي من آثاره أن يؤلّد الإيمان في نفس الداعية قوةً معنويةً هائلة، تتجلى في العزم الثابت والإقدام الواثق، مدعوماً بالصبر والثبات في مسيرة الدعوة، والاستعانة بالتوكل على الله، والسعي نحو المعالي ابتغاء مرضاة الله تعالى، وينبع هذا الثبات من يقينه بأن قوة الله - مالك السماوات والأرض - تسانده، مما يمنحه رسوخاً وصلابةً تضاهي الجبال الراسية، ولا يملك الكفر والشرك مصادرَ مماثلةً لهذه القوة الإيمانية؛ التي تُهيئ العبد ليكون جندياً فاعلاً في مشروع تمكين دين الله وتحكيم شرعه"².

وتأسيساً على ذلك، فإن الإيمان يمنح الداعية الطاقة الروحية، والأخلاقية اللازمة للاستمرار، فيزوّده بالثبات في مواجهة التيارات المضادة، مع الحفاظ على الاتزان في الأزمات، وهذا الإيمان بمثابة منبع للصبر والاحتساب واليقين، كما يعزّز قدرة الداعية على الصبر، وقت الحن والشدائد والابتلاءات، ويمنحه القوة والقدرة لمواصلة الطريق رغم الصعاب والتحديات.

ومن جهة أخرى ينعكس الإيمان على الجانب والبعد الأخلاقي، فيكون ضابطاً للسلوك والتصرفات، من خلاله يراقب الداعية نفسه وفعله في السر والعلن، ويضبط ردود أفعاله في المواقف الصعبة، مما يُسهم بذلك في حفظ العمل الدعوي من الانحرافات السلوكية.

¹ - سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص 192.

² - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 209.

زد على ذلك فإن هذا الإيمان يصبح مصدرا للمصداقية والتأثير، إذ يجعل الداعية قدوة عملية في سلوكه، ويمنحه القبول والثقة لدى الجميع، وهذا ما يعزز من تأثير الرسالة الدعوية، ويسرع من انتشارها، من خلال تجسيدها العملي، فالإيمان منهج يوجه الدعاة للتعامل مع الآخرين، بكل رفق ولين، لإبلاغ الدعوة وفهم احتياجات الناس وظروفهم، وكذا التعامل مع الاختلافات بحكمة وبُعد نظر.

وبالتالي فإن تجسيد الإيمان في البعدين الروحي والأخلاقي، يُعد الضمان الحقيقي لنجاح العمل الدعوي وتمكينه، فهو الذي يحول الدعاة من مجرد ناقلين للرسالة إلى نماذج حية، تجسد القيم التي يدعون إليها، مما يمنحهم القوة والتأثير والقدرة على تحقيق الأهداف المرجوة.

كما لا يفوتنا أن ننوه، بهدي المصطفى ﷺ، الذي كان شديد الحرص على التعبئة الروحية الأخلاقية لصحابته الكرام، ومن يكون معه في صفوف جيشه، لإدراكه ﷺ أن الإيمان القوي هو عامل النصر الرئيس، وكان ﷺ يحرص على إبعاد كل ما يشوب الإيمان، في نفوس صحابته وأمرائهم وسراياهم، فلا يولي إمارة سرية أو ما فوقها، من يعلم فيه حرصا على الإمارة أو استشرافا لها، وما ذلك إلا لكيلا يختل شرط النصر، فينتقص الإيمان وتتوجه النية إلى الشرف أكثر من توجهها لنصرة دين الله، والإخلاص لإعلاء كلمته سبحانه¹.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية الإيمان، كشرط من الشروط المعنوية لتفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، فسنن التمكين لا يحققها الله تعالى إلا لمن آمن به، والتزم شروط الإيمان، أما من خالف نهجه، وقعت عليه سنن العقاب، ولو كان نبيا مرسلا، أو عبدا مقربا، فليس مجرد الإيمان من الجماعة المسلمة، كافيا لحصول التمكين والنصر من الله تعالى، فقد تهزم جماعة المؤمنين من قبل الكافرين الظالمين، رغم توفر الإيمان لديهم، وبالتالي قد نجد للكافرين تمكينا وعلوا، ونصرا في الأرض، لكن ذلك من قبيل الإملاء والاستدراج، وعلامة من علامات غياب المنهج الرباني والشرط الإيمان في واقع الحياة.

ومن الأمثلة التي يمكن إيرادها في هذا الباب، المصيبة التي حلت بالمؤمنين في غزوة أحد رغم توفر الإيمان لديهم، ورغم حضور أفضل الخلق وخاتم النبيين محمد ﷺ معهم، وكان السبب في ذلك مخالفة أمره ﷺ، وعصيان توجيهاته من قبل طائفة الرماة، الذين تنازعوا حبا في الدنيا، والذي ترتب عليه أُول نجم الفوز، ونور النصر والتمكين الذي ظهر بادئ الأمر، ليتحول النصر إلى هزيمة، والثبات إلى فرار، ناهيك عن الجراح والآلام التي خلفتها؛ كموت سيد الشهداء حمزة، وشج وجه النبي ﷺ، وكسر رباعيته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ

¹ - جميلة المصري، درة اليقين في أسباب النصر والتمكين، دار البيان، الإسكندرية، ج 1، ص 93-94.

إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بَادِنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ آل عمران/ 152،

وعلى العكس من ذلك في غزوة حنين، أين نرى هزيمة المؤمنين بداية، ثم انتصارهم وتمكينهم بعد ذلك، حيث ربطت أسباب الهزيمة بالانشغال، والإعجاب بكثرة العدد والعدة، وعدم تجرد الإيمان وصفائه، والانشغال بالأسباب عن المسبب تعالى، في حين رُبط النصر والتمكين؛ بصدق الإيمان وكماله، في شخص الرسول ﷺ والمؤمنين الذين ثبتوا حوله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُوتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ التوبة/ 25- 26.

كما لا يخفى على أحد، أن تاريخ التمكين للأمة الإسلامية ومواقف انتصاراتها، كان رهن الإيمان والعقيدة الصحيحة، وما يقتضيه توحيد الله، وعبرة "لا إله إلا الله" و"الله أكبر"، وقد أشار سيد قطب إلى ذلك بقوله: "وقد تحقق وعد الله تعالى للأمة الإسلامية مرة، وظل متحققا وواقعا، مادام المسلمون على شرط الله؛ الإيمان والعمل الصالح والعبادة، ووعد الله تعالى مذخور لكل من يقوم على الشرط، من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين، لتخلف شرط الله الذي شرطه على الأمة الإسلامية"¹، ولهذا نجد أن غاية الحروب في الإسلام كانت غاية سامية، هدفها إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإزالة العقبات من طريق الدعوة، ورفع الظلم عن المظلومين، بدافع الإيمان بالله تعالى، والذي يُعد مطلباً أساسياً من أجل تحقيق النصر والتمكين"².

وختاماً يمكن القول أنّ قوة الإيمان والعقيدة الصحيحة، تمثل حجر الزاوية في البناء المعنوي للعمل الدعوي، حيث تشكّل المنطلق الأساسي، والطاقة الدافعة لتحقيق التمكين، فالإيمان مصدر للطاقة، إذ يُمدّ الداعية بالقوة الروحية اللازمة لمواجهة التحديات، ويسلّحه بالصبر والثبات عند المحن والشدائد، للاستمرار في طريق الدعوة، كما تشكّل العقيدة الصحيحة إطاراً منهجياً، توضّح الرؤية ومنهج العمل، وتحدّد الأهداف والغايات الكبرى للتمكين، مما يضبط بذلك مسار الدعوة ويبعدها عن كل الانحرافات، أضف إلى ذلك فالإيمان يترك أثراً في الواقع الدعوي، إذ يمنح المصدقية والتأثير في القلوب، ويبني الثقة بين الدعاة والمدعوين، كما يعدّ هذا الإيمان إطاراً للتفاعل مع

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص 2529-2530.

² - أحمد أبو شهاب، مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، شركة أبناء شريف الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ط1، 1991، مج 1، ص 44.

سنن التمكين، يفهمها ويُحسن التعامل معها، ليسخرها في هذا الوجود بما ينفعه في الدنيا والآخرة.

وبناء عليه ففكرة الإيمان والعقيدة الصحيحة، مع التوحيد والإخلاص لله تعالى في العمل، ليست مجرد شعارات، بل هي قوام العمل الدعوي، وضمان استمراريته، وبدونها يتحول العمل الدعوي إلى مجرد أنشطة شكلية تفتقر إلى الروح والتأثير والفعالية.

2- العمل الصالح:

يمثل العمل الصالح ثمرة الإيمان والجوهر العملي له، فهو الوسيلة الأساسية لتحقيق التمكين في العمل الدعوي، حيث يجسد القيم النظرية إلى واقع ملموس، باعتباره يشمل العمل المرضي عند الله تعالى، وهو "الجامع لشيعين؛ الأول أن يكون موافقاً للشرع الإسلامي، والثاني أن يكون مقصده مرضاة الله وطاعته"¹، وهو كل قول أو فعل يرضي الله تعالى، ويتوافق مع تعاليم الإسلام، ويهدف إلى تحقيق الخير والصلاح، مع النية الصادقة للتقرب إلى الله تعالى، فهو بذلك يتجاوز الأداء الشكلي لممارسة العبادات، ليشمل كل جوانب الحياة، من التعاملات الاجتماعية إلى الجهود الدعوية.

وانطلاقاً من الآية ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾ النور/55، الدالة على أن التمكين لا يُمنح اعتباراً، بل هو نتيجة مباشرة للإيمان الراسخ والعمل الصالح المقبول، وبالتالي فهو يعتبر ثاني شرط من شروط الإعداد المعنوي للتمكين بعد الإيمان، وبعد استقراء وتدبر الآيات القرآنية التي ذكر فيها الإيمان، والعمل الصالح معاً ما يزيد على سبعين موضعاً²، فإن جميع المواضع التي ورد فيها الإيمان مقترناً بالعمل الصالح، كان العمل الصالح معطوفاً فيها على الإيمان ومتربباً عليه، مما يعني أنّ الإيمان أصل للعمل الصالح وسابقٌ عليه، وأنّ منهج القرآن الكريم في بناء العبد السوي؛ يوجب الانطلاق ببناء الجانب الإيماني أولاً، وهو ما يتعلق بالمستوى العقدي الروحي، وينتقل لبناء الجانب العملي، ذو البعد السلوكي الحركي ثانياً.

"فالعمل الصالح قرين الإيمان كما جاء في كثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة/277، فمن حقيقة الإيمان في الآية عمل الصالحات على عمومها، وخصصت اثنتين منها بالذكر، وهما

¹ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 2002م، ص39.

² - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص81-86.

الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عملياً من الإيمان"¹.

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ الإيمان إذا تغلغل في القلب بكل صدق ويقين؛ أثمر عملاً صالحاً طيّباً، يجمع كل فعل حسن، حتّى عليه الشرع الحنيف، فيشمل جملة الأحكام والمعايير والمبادئ والقيم، التي تنظم علاقة الإنسان بخالقه أولاً، وبنفسه ثانياً، وبمجتمعه ثالثاً، وفق نسق استخلافي مترابط، وبالتالي فالعمل الصالح يحقق أبعاداً متكاملة؛ أولها البعد العبادي الذي يقرب العبد إلى الله تعالى، والبعد الأخلاقي الذي يحسّن التعامل مع الخلق، والبعد الاجتماعي الذي يخدم المجتمع ويصلحه.

ولعل من نافلة القول التأكيد على شروط قبول العمل الصالح، وبالتالي تفعيل سنن التمكين، فهناك شروط أساسية لا بد من توفرها، أولها **الإخلاص** وهو كما أكدنا آنفاً أفراد الله تعالى بالقصد في الطاعة، وقصد نية العمل لله تعالى، فلا يبتغي العبد من عمله إلا الأجر والثواب منه وحده لا شريك له، دون أي شائبة من الرياء أو البحث عن رضا البشر، أو تحقيق مكاسب دنيوية، فالإخلاص هو المحرك الذي يمنح العمل الدعوي قيمته الحقيقية، ووزنه عند الله تعالى.

بالإضافة إلى ذلك فإن العمل الصالح يجب أن يكون **موافقاً لما جاء به النبي ﷺ**، بلا زيادة فيه ولا نقصان، وإن أي عمل يخالف سنة وهدى النبي ﷺ، يعتبر مردوداً وغير مقبول، ولعل هذا الشرط يضمن للعمل الصالح السير على منهج صحيح وثابت، "فالاقتداء بالرسول ﷺ أمر واجب على الدعاة إلى الله أشدّ الوجوب، لذا ينبغي عليهم أن يتبعوا خطاه في دعوته، وأن يهتجوا نهجه في وسائل الدعوة وأساليبها، ويتأسسون به ﷺ في التغلب على معوقات الدعوة والصبر على القيام بها، وبهذا يصبح الاقتداء فكراً وعملاً وتخطيطاً"²، وثالث هذه الشروط هي البصيرة، التي تشمل العلم الشرعي العميق، ومعرفة أحوال المدعوين وظروفهم، وفهم السبيل الأمثل للوصول إليهم، بالحكمة والموعظة الحسنة، مما يُمكن الداعية من توجيه جهوده بفعالية، نحو تحقيق الهدف المنشود، وإن هذه الشروط تعمل متكاملة ليكون العمل الصالح قوة جماعية موجهة لتحقيق غايات التمكين الرباني.

وتجدر الإشارة إلى أن العمل الصالح في الدعوة المعاصرة، يغطي نطاقاً واسعاً من الأنشطة، ففي المجال الدعوي التعليمي، يكون من خلال نشر العلم النافع وتعليم القرآن الكريم، وإقامة حلقات الذكر والمواظ، وتأسيس المؤسسات التعليمية التربوية لذلك، وفي المجال الاجتماعي الخيري مثلاً، تكون صور هذا العمل الصالح في كفالة اليتيم ورعاية الفقراء، ومساعدة المحتاجين في تفريج كرباتهم... ولعل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن

¹ - علي محمد الصّلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 189.

² - جامعة المدينة العالمية، أصول الدعوة وطرقها، دط، 2008، ج 1، ص 292.

المنكر، باب عظيم من أبواب العمل الصالح الذي يتناسب مع العمل الدعوي، إذ ينبع من إيمان صادق، ومعتقد ثابت وتوحيد راسخ، وإن تغيير المنكر له مراتب ثلاث، أشار إليها الحديث في قول النبي ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"¹.

ولا مناص من القول أنّ ممارسة هذه الشعيرة، يثمر مجتمعا ناجحا، تسود فيه الأعمال الصالحة، والقيم الفاضلة، والأخلاق النبيلة، فيتغلب فيه الخير على الشر، والحق على الباطل، والفضيلة على الرذيلة، لتكون حاكمة لعلاقات الأفراد، مما يشد بذلك عضد المجتمع، ويزيد قوته، فيكون مجتمعا مؤمنا متماسكا، مؤهلا لأداء رسالته الإصلاحية الفاعلة، نحو الاستخلافة الراشدة، فتكون له الغلبة والظهور، ولأهله المكانة والتمكين، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يلعب دورا فعالا في بقاء التمكين ودوامه.

وتأسيسا على ما سبق سنعرض لنماذج من الآيات القرآنية التي تربط بين العمل الصالح والتمكين في القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الكهف/ 30

وفي نفس السورة: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ الكهف/ 88.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ القصص/ 67.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ مريم/ 60.

فالملاحظ من خلال هذه الآيات، بيان علاقة العمل الصالح بالتمكين، وهي علاقة سببية، فبلوغ التمكين سببه العمل، وليس أي نوع من العمل؛ بل الذي يمتاز بالصلاح والفعالية والإحسان والإتقان، ليكون له من الأثر النافع في تحقيق التمكين للأمة، على مستوى المنظومة العقدية؛ بالرجوع إلى مصادر الوحي، من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وعلى مستوى المنظومة الفكرية؛ بترك الغلو والتعصب والتقليد الأعمى، واتباع أصول العقيدة الإسلامية الصحيحة ومبادئها، وعلى مستوى المنظومة الأخلاقية؛ بنشر مجموعة المبادئ والأخلاق والمثل العليا التي نزل بها الوحي، لتحديد علاقة الانسان بنفسه ومحيطه وخالفه.

وهذا ما أكد عليه رمضان خميس في صور التمكين عند حضور شرط العمل الصالح، " فافتقران الإيمان بالعمل الصالح يشكّل ركيزة مركزية في نهضة الأمة وإصلاح شؤونها، كما يعدّ عاملاً حاسماً في قدرتها على تجاوز

¹ - رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ج1، ص69، رقم: 49.

التحديات التي تواجهها، ويمنح هذا الارتباط الأمة أهلية نيل سنّة الاستخلاف في الأرض، وتحقيق التمكين للدين الذي ارتضاه الله لها، وبسط الأمن والطمأنينة في المجتمع. كما أن للإيمان المقرون بالعمل الصالح أثرًا بالغًا في جلب الخير ودفع الشر على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، بل وعلى مستوى الأمة الإسلامية بأسرها¹.

ونقف على نماذج وأمثلة ضربها القرآن الكريم، لجماعات وأمم وأفراد جمعت بين الإيمان القلبي والعمل الصالح العملي، فاستحقت بذلك تمكينًا في الأرض، وكانت نماذج حية لتجسيد سنن الله في تحقيق النصر والاستخلاف، أما النموذج الأول فهو لأصحاب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ النور/55، فمن مظاهر هذا التمكين إقامة الدولة الإسلامية في المدينة، وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وفتح مكة وتحطيم رموز الشرك، والنموذج الثاني لطالوت وجنوده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ البقرة/247، كانت صور هذا التمكين متمثلة في الانتصار على جالوت وجيشه، وتحقيق الوحدة بين صفوف بني إسرائيل، واستعادة المكانة والهيبة، ونختم بنموذج "يوسف الصديق ﷺ؛ الذي مكّن الله له في الأرض يتبوا منها حيث يشاء، وعلمه من تأويل الأحاديث، صورة حية من صور الإيمان، الذي يصل بصاحبه - عن طريق إقامة العدالة، ورعاية أمر الرعية والسهر على راحتها - إلى التمكين المنشود، فقد سخر يوسف ﷺ علمه وخبرته، بدافع من دينه وإيمانه في خدمة الشعب"².

ولعل أبرز الدروس المستفادة من هذه النماذج، هي الترابط العضوي بين الإيمان والعمل، حيث يوجه الإيمان العمل ويضبطه، فيجسد هذا العمل الإيمان ويظهره، كما اشتركت هذه النماذج في شروط التمكين المتمثلة في الإيمان العميق بالله تعالى، والعمل الصالح المتواصل، وكذلك الصبر على الطاعة والابتلاء، فكان جزاء ذلك بلوغ التمكين السياسي، الاجتماعي، والاقتصادي، حيث تحقق العدل والمساواة، وانتشر الأمن والاستقرار وتحققت الرفاهية وال عمران.

وتأسيسا على ما تقدم فإن العمل الصالح في الدعوة هو الوسيلة التي يترجم بها الإيمان إلى واقع ملموس، فعندما يلتزم الدعاة والأفراد بشروط العمل الصالح، فإنهم لا يؤديون الواجبات الدينية فحسب، بل يشاركون في عملية بناء حضاري شاملة، تهدف إلى إصلاح الأرض ودفع الفساد، ومن جملة الأعمال الصالحة مثلا، التي يمثلها الداعية في دعوته، والتي تنبع من الإيمان، وتسعى لحفظ تماسك الأمة، وجلب التمكين لها: شعيرة الأمر بالمعروف

¹ - رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص54.

² - المرجع نفسه، ص44.

والنهي عن المنكر، وهذا هو حال المؤمنين في علاقتهم ببعض ابتداءً، ما جعل الأمة الإسلامية بذلك تستحق وصف "الخيرية"، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران/110، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ التوبة/71، فهي أمة حاملة لأعظم رسالة سماوية، تدعو إلى القيم والمبادئ الإيمانية الفاضلة، ما يؤهلها إلى أرقى منازل التمكين.

وقد استحققت الأمم السابقة لعنة الله تعالى لهم، باستغنائها وتركها لهذه الشعيرة قال تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ المائدة/79.

ومن هذا المنطلق تجدر الإشارة إلى أثر العمل الصالح، في بناء المجتمع وتقوية الدعوة، ذلك أن تأثير العمل الصالح يتجاوز الفرد، ليطال المجتمع بأكمله، فعندما يلتزم أفراد المجتمع بالعمل الصالح ينعكس ذلك إيجاباً على قوته، ويساهم في بناء مجتمع متماسك، من خلال تعزيز قيم الأخوة والتعاون والتكافل، بين أفراد المجتمع، مما يجعله أكثر قدرة على مواجهة التحديات والصعوبات، كما يساهم كذلك في التربية والإعداد، فالعمل الصالح يُعد أساساً لتربية الأفراد والقادة، الذين يمتلكون البصيرة والعزيمة لقيادة الأمة نحو التمكين.

أضف إلى ذلك فإن هذا العمل الصالح يساهم في بناء السمعة للمؤسسة الدعوية، فيعزز مصداقيتها في المجتمع ويكسبها ثقة كبيرة، كما ينمي من قدرات الكوادر المتخصصة، ويعزز روح العمل الجماعي، وكلها آثار تساهم في توسيع القاعدة الجماهيرية للحركة الدعوية، بجذب فئات جديدة وتوسيع دائرة التأثير، مما يزيد بذلك من فعالية الدعوة، كما يساهم العمل الصالح في تجديد الخطاب الدعوي، من خلال ربطه بالواقع، ليكون ملبياً لاحتياجات العصر، ومتوافقاً مع التحديات المعاصرة، وأخيراً فإن العمل الصالح يساعد في تحقيق التوازن الدعوي، فهو يوازن بين الجانب النظري والعملي، ويجمع بين الروحانية والإيجابية، ويدمج بين الأصالة والمعاصرة.

وفي الختام يتبين لنا أن العمل الصالح ليس مجرد عنصر ثانوي في العمل الدعوي المعاصر، بل هو شرط معنوي أساسي لتفعيل سنن التمكين الإلهية، فالإخلاص لله تعالى والمتابعة لسنة النبي ﷺ والبصيرة، أدوات وأركان يقوم عليها العمل الدعوي المقبول، وعندما تطبق بصدق وحكمة، يتشكل نسيج متكامل من النتائج التي تعزز وجود الدعوة وتأثيرها، وتضمن استمراريتها وتوسع دائرة تأثيرها، لتكون سبباً في بناء مجتمعات قوية ومتماسكة، وإعداد أفراداً وقادة ربانيين يحققون التمكين في الأرض.

3- الصبر والتقوى:

إن من شروط التمكين المعنوية، التحلي بصفة الصبر وخلق التقوى، " فالصبر ضروري لكل إنسان في هذه الحياة، وإلا صار هشاً سريع الانكسار أمام الأحداث، وما أكثرها في الحياة، فإنها مملوءة بالمنغصات والمشقات والصعاب، فإذا لم يلقاها بشيء من الصبر انكسر وتفتت وتمزقت شخصيته"¹ خاصة في طريق التمكين لدين الله، وإن المتأمل في الآيات القرآنية، يجد ارتباط كلا المظهرين ببعضهما، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/90، ما جعلنا نقرن بينهما في ذلك، حيث وصف الغزالي هذه الآية " بالقانون المادي في علم الطبيعة أو الكيمياء، فهي تشير إلى أن الفرد الذي يستجمع هاتين الخلتين من معنى الإحسان، لابد أن يدركه التوفيق وتلحظه العناية، وينجح في حياته حيث يخفق الآخرون، الذين يقصرون في هذا المضمار"² وتماشياً مع ذلك تظهر العلاقة والارتباط الوثيق بين كلا المقامين، لأن "الصبر يشتمل التقوى ويزيد، فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور"³، وعليه فالتقوى هي

الملكة التي تجعل الإنسان يُقدم على فعل الطاعة، واجتناب المعصية، لأنها " جعل النفس في وقاية مما يخاف، وفي الشريعة هي حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحذور، وبعض المباحات"⁴ وهي وصية الله إلى الأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ النساء/131، كما جاء في معنى الصبر أنه حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الحدود، وشق الثياب ونحوها، وهو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنه، وقوام أمرها"⁵.

إن الصبر خلق المرسلين أوصى به رب العالمين، قال تعالى واصفاً نبيه أيوب الذي اجتمعت فيه أشكال الابتلاء، فصار مثلاً لذلك: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص/44، وناهيك عن ذلك فقد تعرض الرسول ﷺ مع أصحابه، لشتى أنواع الأذى من المشركين الكفار، فكان الأذى اللفظي والنفسي المعنوي، وكذا الأذى المادي، ومن صور ذلك أنهم اتهموه ﷺ بالجنون، وبالسحر، والكذب والكهانة، كما رموا فوق رأسه سلا

1 - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص350.

2 - محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، نخبة مصر، مصر، ط6، 2005م، ص68.

3 - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص415.

4 - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ج2، ص539.

5 - ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 2007، ص21.

الجزور، وهو ساجد يصلي، إضافة إلى فعل أبي جهل القبيح الذي أراد أن يعتدي على النبي ﷺ، ليعقر وجهه في التراب، ولكن الله حماه منه، وردّ كيده في نحره.

وإن المتأمل لخلق النبي ﷺ، في مواجهة كل هذه المواقف، يجد التقوى والدعاء، الصبر والثبات، واحتساب الأجر في ذلك عند الله، بالنصر والتأييد والتمكين لدينه، وإظهار دعوته. حتى جاء بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستنصره، ويسأل منه الدعاء والعون، لرفع الظلم والأذى، ولكن النبي الكريم كان واثقا بنصر الله وتأنيده، لأن العقابة للصابرين المتقين.

فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدّة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"¹

وتفسيرا لذلك فإن النبي ﷺ قد جعل مكسب التمكين لدين الله وإعلاء كلمة الحق والتوحيد، ونصرة الدعوة قرين الصبر والتقوى، فنهى بذلك عن استعجال النصر.

ومن جهة أخرى، تُعدّ التقوى شرطاً معنوياً جوهرياً في البناء الروحي والأخلاقي الداعم للتمكين؛ إذ تتبوأ موقع المركز والقيادة بين مختلف الفضائل الخلقية والمناقب السلوكية، وتشكل الأصل والأساس الذي تُبنى عليه الأخلاق، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم " لإحكام صلة الإنسان بخالقه، وتنظيم علاقته بالخلق، حتى تستقيم العلاقات الاجتماعية على مبدأ العدل والمساواة، من غير خلل ولا ضعف، فحقيقة التقوى أن يجتهد الإنسان في اجتناب ما يجزّ ضرراً على نفسه، أو يلحق أذىً بغيره، ليبقى البناء الاجتماعي متماسكاً، فإن اختل ذلك انعكس خلله على الدين ذاته"².

أضف إلى ما تقدم فإن الله تعالى جعل التقوى معيار التفاضل والتمييز بين الناس، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات/ 13، فهي ملكة نفسية كبرى، ينبثق منها كل سلوك مستقيم وعمل صالح، ولهذا كان النبي

¹ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، ج9، ص20، رقم: 6943.

² - مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط9، 1973، ص 100-101.

ﷺ، يوجّه ويحث على الصبر والتقوى في كل مجالات الحياة، فقال لامرأة تبكي على صبي لها: "اتق الله واصبري"¹، والصحابه الكرام ﷺ أيضا أدركوا أهمية التقوى في بلوغ التمكين، والنصر والغلبة على العدو، فكانوا شديدي الحرص على التحلي بذلك في المعارك، فهو مفتاح النصر والفوز على العدو.

فلا مناص من القول أن من "شروط التمكين المهمة تقوى الله عزّ وجل، لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة، وهذه الثمرات تظهر على الأفراد، ومن ثمّ على الجماعة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه"²، وإنّ الدعاة اليوم على أمر بالتزام صفة التقوى والصبر، وتعهّد القلوب بها، لطيب أثرها النافع، ولأن طريق الدعوة محفوف بالمكاره والفتن، وجب الصبر لأتته سنة الله الجارية في أصحاب الرسالات، وأتباعهم الداعين بدعوتهم، وهم أشد الناس تعرضا للأذى والحزن، فلا رادّ لذلك كلّ إلا بالصبر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنعام 34.

وفي هذا الإطار فقد أمد الله المؤمنين في غزوة بدر ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ آل عمران/124، ثم وعد لهم الزيادة بشرط؛ الصبر والتقوى، حثا لهم عليها وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران/25، فالظاهر من الآية الكريمة أن الله تعالى أيد المؤمنين في هذه الغزوة، بمشاركة الملائكة القتال معهم، وجعل من الزيادة في ذلك ما كان رهين أمرين؛ هما الصبر والتقوى، فقد علّق الله النصر والتمكين بالصبر أولا والتقوى ثانيا.

وبما لا يدع مجالا للشك، فإن هذه صورة من أعظم صور التمكين للمؤمنين، حيث أظهرهم الله على العدو المشرك، رغم قلة عددهم وعدّتهم، وأيدهم بنصره وتأنيده، بامتثال شرطي تقوى الله تعالى، والصبر على أمره، بالإضافة إلى ذلك فقد أخبر الله تعالى، عن العاقبة المحمودة لأهل التقوى فقال عزّ وجل: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف/128، فكما أكدنا آنفا أن ميراث الأرض ومصيرها، واستخلاف قوم موسى لها كان عاقبة حسنة جزاء الصبر والتقوى، الذي تحلوا به أمام بطش فرعون، وعلوّه في أرض الله التي ملأها جورا وظلما وطغيانا.

¹ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الصبر عند الصدمة الأولى الصبر عند الصدمة الأولى، ج2، ص83، رقم1302.

² - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص238.

وزيادة على ذلك؛ فقد كانت العاقبة الحسنة أيضا لخاتم المرسلين محمد ﷺ بالتزام وصية ربه عز وجل بالصبر، فقال: **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾** هود/ 49، والصبر هنا موجه للمتقين دون غيرهم من أصناف المؤمنين، وفيه من التنبيه أن الصبر جزاؤه ومآله التمكين والنصر للقوم، وجاء في بيان تفسيرها ما يؤكد ذلك بالقول "فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك، ونحطوك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بإخوانك المرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم"¹

وجدير بالذكر أن صفتا التقوى والصبر تُكسبان صاحبها معية الله تعالى للعبد: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** البقرة/ 194، وقال تعالى: **﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** الأنفال/ 66، فالمعنى أن الله معك يحفظك ويحميك في نفسك، أهلك، ومالك، وولدك، كما يتعدى ذلك إلى نصره العبد، وتأييده وإعانتته على نشر الدعوة، وتحقيق التمكين.

ومما يعضد هذا الاتجاه في التقوى، ما لفت إليه النظر محمد الصادق عرجون، في اعتبار التقوى سبب من أسباب الفتح والإنعام الرباني، "حيث يضمن الاعتصام بحبل الإيمان والاستمسك بالتقوى والاستقامة على منهج الحق نزول البركات الإلهية من السماء وخيرات الأرض. وقد جاء البيان القرآني مصداقاً لهذه السنة الإلهية في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾**²، مما يؤكد العلاقة الجدلية بين تحقيق التقوى وبين تفتح خيرات السماء والأرض، وهي صورة واضحة لسنة الله تعالى في تمكين عباده المؤمنين المتقين.

كذلك الحال بالنسبة للداعية، الذي يصبو إلى "تسخير التمكين في الدعوة إلى الله، وإقامة الحجة عليهم، يحتاج إلى ما يوازيه ويمثله من إقبال على الله، واعتصام بحبل الله، وتجرد لله، ومحاسبة صارمة للنفوس، وتحصين لها من مداخل الفتن والأهواء، وعلى أساسها يكون النجاح والثبات على التمكين، أو الفشل والسقوط"³، فلتفعيل سنن التمكين في الدعوة ونشر مبادئها، وإحداث حركة حضارية فعالة بهذه الرسالة، وجب على الدعاة التحلي بجملة هذه الصفات، فهي خير زاد وأفضل عتاد في طريق طويل، حافل بالعقبات والابتلاءات، فمن كان مراقبا لله في السر والعلن، حافظا حدود الله في الرضا والغضب، صابرا على شتى أنواع المحن، متقيا الله في الشدة

¹ - ابن كثير، تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج4، ص328.

² - محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، مرجع سابق، ص14.

³ - فتحي يكن، فقه سنة التمكين، مرجع سابق، ص45.

والرخاء، كان وعد الله فيه حقا بالنصر والتمكين والإظهار.

وجدير بالذكر أن قدوتنا في ذلك خير خلق الله من عباده؛ الأنبياء والمرسلين، فقد كان تمكين الله لدعواتهم سنة جارية لهم، ما تَبَتُّوا قلوبهم على الصبر والتقوى، وما يوسف عليه السلام إلا واحدٌ من الذين مَكَّنَّ الله تعالى لهم في الأرض، تمكيناً عظيماً جرَّاء صبره وتقواه، على ما لحقه من حقد إخوته، وكيد امرأة العزيز، وسنين السجن قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/90

وتأسيساً على ما سبق، فإن الصبر والتقوى شرطين أساسيين في البناء المعنوي للدعاة، في ظل التحديات المعاصرة التي تواجه العمل الدعوي، فهما يشكّلان مناعة داخلية و طاقة روحية لتحقيق التمكين، إذ يُسهم الصبر في مواجهة الاختلافات الداخلية أولاً، والتحديات المالية، كقلة الإمكانيات والموارد والضغوطات المالية التي قد يتعرض لها العمل الدعوي، والتصدي أيضاً لكافة التحديات الفكرية، كالحرب الإعلامية المضادة، ونشر الشبهات والأباطيل حول مصداقية الدعوة، من قبل التيارات المنحرفة.

أضف إلى ذلك، فإن التقوى أيضاً تُسهم في تمكين العمل الدعوي، من خلال مراعاة الضوابط الشرعية، والتوكل على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب، عند التخطيط والتنفيذ لكل مرحلة من مراحل العمل الدعوي، بالإضافة إلى التحلي بالصدق والأمانة، وروح النصائح والتقويم، في العلاقات الداخلية بين أفراد الأسرة الدعوية، ولها دور أيضاً في المواجهة الخارجية، أين ترسم طريق الثبات على المبادئ، والحكمة في الرد على المخالفين والعدل مع الخصوم.

ومما لا شك فيه فإن كلا من الصبر والتقوى، يَخْلُفُ آثاراً تمكينية على مستوى الفرد الداعية؛ بتحقيق الطمأنينة النفسية، وتعزيز الثبات والاستمرار، وزيادة الإنتاجية والفاعلية، وكذلك على مستوى الجماعة الدعوية؛ أين يتحقق التماسك الداخلي وبناء الثقة بين الدعاة، وتعزيز العمل الجماعي، كما تخلف آثاراً على مستوى العمل الدعوي، وذلك باستمراره وتحقيق البركة في الإنجازات والأهداف، وجلب النصر وتأيد الرباني.

وخلاصة القول مما سبق بيانه، فإنّ الصبر والتقوى يمثلان وقود العمل الدعوي، لأنهما يمنحان الدعاة القوة الروحية والمناعة النفسية، اللازمة لمواجهة التحديات، وتحقيق الاستمرارية في العمل، حيث تتحول من خلالهما هذه التحديات إلى فرص، والعقبات إلى سلام للارتقاء والنجاح في تبليغ الدعوة.

المطلب الثاني: الشروط المادية العملية:

إلى جانب الشروط المعنوية، تبرز الشروط المادية العملية كركن أساسي، في تفعيل سنن التمكين، فهي لا تقل أهمية عن الأولى، بل تؤكدها وتوافقها، وتحصر عليها أشد الحرص، لأنها تمثل الإطار التنفيذي الذي يترجم الأفكار إلى واقع ملموس، ويحقق التفاعل الواعي مع السنن الإلهية في الكون والحياة.

والدليل على ذلك أنّ القرآن الكريم، كثيرا ما يجمع بين الشروط المادية والمعنوية، لتحقيق التمكين للإسلام ودعوته، "فالتمكن ليس أمنية ينالها الكسالى، الذين لا يُعَدُّون للمواجهة غدتها، والمتواكلون الذين لا يلبون نداء الله، وهو يدعوهم إلى الإعداد" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، ثم يزعمون توكلهم على الله، وهم بذلك معطلون لسننه، ولهذا ينبغي الأخذ بأسباب الإعداد المادي، ضمن الحد الأقصى المستطاع، الذي يقتضيه الواجب الشرعي، وتحقيق الأهداف المنشودة"¹ أو يشير في ثناياه لكل جانب على حدى، ذلك أن الإسلام دين واقعي، يعيش الواقع فلا يغفل عن قوة الإعداد المادي وتأثيره، وهذا ما كان واضحا من هدى المصطفى محمد ﷺ، وهو المؤيد بالوحي؛ في حياته ودعوته وهجرته مثلا، أين أَمَّن الدليل، واستعان بالرفيق في الطريق، وأَمَّن الزَّاد، ومأحي الآثار، وأيضا من يتحرى أخبار كفار قريش وذلك كله مع تمام السرية وأخذ الحذر والحيلة، ثم التوكل على الله حق التوكل، أين اتَّضحت معالم سنة الأخذ بالأسباب التي ترتبط أشد الارتباط بصور الإعداد المادي عامة، ولتمكين طريق الهجرة في بناء الدولة الإسلامية المباركة خاصة، وعليه فإن الشروط المادية لها من المكانة والأهمية، في تمكين العمل الدعوي، وبيان ذلك كالآتي:

1- إعداد القوة الشاملة:

إن إعداد القوة الشاملة أحد الشروط المادية العملية، التي لا بد منها لتحقيق سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، إذ لا يمكن للدعوة أن تنهض أو تؤثر، ما لم تمتلك عناصر القوة في جوانبها الفكرية والإيمانية والعملية والتنظيمية والمادية، فالدعوة في مفهومها الشامل تحتاج إلى إعداد واع ومتكامل، يوازن بين القوة الروحية والإيمانية، والقوة المادية العملية، حتى تتحقق فيها السنن الإلهية التي وعد الله بها عباده المؤمنين بالنصر والتمكين.

ومن هذا المنطلق نشير إلى أنّ الإنسان، كان ولا يزال يشكل العنصر الحاسم والفعال، في تحقيق التمكين لشرع الله تعالى، لذا أرشد القرآن الكريم هذا الإنسان إلى ضرورة إعداد القوة الشاملة لتمكين هذا الدين، وبسط نفوذ شرعه. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

¹ - فتحي يكن، فقه سنة التمكين، مرجع سابق، ص44.

وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ الأنفال/60.

فالآية صريحة واضحة في بيان الحث على اتخاذ الأسباب، والإعداد المادي لتشكيل القوة؛ التي تنصر الحق وتعزّده فيتحقق التمكين، حيث قال ابن كثير: "ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم، حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ما أمكنكم، (مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)¹، فالله أمر عباده المؤمنين بالاستعداد وأخذ الحيلة، وأسباب القوة الظاهرة لنصرهم وتمكينهم، بعدما كانوا مأمورين بالصبر على الأذى، ممنوعين من رد الاعتداء سابقا.

وتأسيسا على ذلك فإعداد القوة للأمة الإسلامية، فرض من الفروض الواجب امتثالها، من قبل حكامها، بموجب صريح لفعل الأمر "وأعدوا" الذي يفيد الوجوب، فلم يبق للمسلمين بعدها عذر في التكاسل عن إعداد القوة بجميع أشكالها، لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين، كما صرحت به الآية.

ومشايها مع ما تم ذكره، فقد "دلّ استقراء سنن الله في الكون وفي مسار الأمم على أن المبادئ والقوة المادية لا ينفصلان إذا أُريد لتلك المبادئ أن ترسخ وتؤثر وتمتد في الأرض، سواء أكانت مبادئ هدى أم مبادئ ضلال، كما أن الصراع بين منظومة القيم الإسلامية ومنظومات الكفر والطغيان صراعٌ متواصل، وكان للسلاح عبر التاريخ دورٌ في حَسْم كثيرٍ من مراحلهِ. وتشهد سيرةُ الرسل وأتباعهم على أن التخلف عن امتلاك أسباب القوة الممكنة يورث الذلّ والمهانة، ولو كان أصحابه على الحق؛ وهو ابتلاءٌ إلهي يُمتَحَن به المؤمنون لبيذلوا وسعهم في نصرة دين الله ورفعته كلمته

ولهذا كان لا بدّ أن تقترن القوة الروحية المتمثلة في الوحي، بالقوة المادية التي تحفظ للدعوة مكانتها وهيبتها، إذ لولا ذلك لاستخفّت القوى الباغية برسالة الحق وحملتها. فمن لا يمتلك القدرة على ردع عدوّه، يُعرّض نفسه لأن يكون هدفاً لسطوته، وهذه من السنن التي لا تتخلف"².

وفي هذا الإطار، وجب على الداعية وهو المجاهد في سبيل الله، أن يسعى إلى تحقيق مقاصده وأهدافه، بكل ما أوتي من وسائل القوة الشرعية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ الأنفال/52، والقوة الشاملة في المنظور الدعوي، تعني امتلاك الدعوة لكل مقومات التأثير والتمكين، من عمق الإيمان وقوة العقيدة، التي تُثمر زادًا روحيًا وتعبئة معنوية كبيرة، ومفاد هذا الإيمان العميق؛ "يقتضي استيقان حقيقة أن الإسلام

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج4، ص80.

² - عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، دار المنارة، جدة، ط2، 1992، ج1، ص515.

الذي يدعو إليه يمثل الهدى الإلهي الخالص، وأن ما سواه من المناهج يمثل الضلال المبين، وهذا اليقين الراسخ يمنح الداعية مناعةً فكريةً وثباتاً نفسياً، فيظل صامداً أمام المحن والتحديات، وغير مبالي بفارق القوة المادية بينه وبين خصومه، إذ يستمد ثباته من قوة إيمانه وصدق عقيدته، مما يجعله في منأى عن الزعزعة والتردد¹.

أضف إلى ذلك، فالعمل الدعوي بحاجة إلى قوة الفكر والعلم، " فيجب على الداعي أن يكون على بصيرة وعلم، بما يدعو إليه، وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه، فإذا فقد هذا العلم المطلوب وقع في الخطأ، والخلط والقول على الله ورسوله بغير علم"²، وبالتالي فهذه القوة العلمية تمكّن من الفهم العميق للدين الإسلامي، والوعي بالواقع ومتطلبات العصر، كذلك تشمل هذه القوة؛ قوة التنظيم والتخطيط للمؤسسة الدعوية، حيث يهدف التخطيط للعمل الدعوي إلى "وضع التصورات والخطط والأنظمة المنظمة له، بما يجنبه مظاهر الفوضى والارتجال التي تؤدي إلى القصور وغياب الفاعلية. ومن أبرز الضوابط التي ينبغي مراعاتها في هذا التخطيط أن يتولاه أهل الخبرة والاختصاص وأصحاب الكفاءة العلمية، وأن يتم بصورة جماعية واعية، بعيدة عن ردود الأفعال والانفعالات العاطفية. كما يجب أن يقوم على مبدأ التوازن بين الواجبات والإمكانات المتاحة، وأن يظل منضبطاً بأحكام الشريعة ومقاصدها"³.

زد على ذلك تحتاج الدعوة إلى قوة في الموارد، البشرية والمالية والتقنية والإعلامية، فكل هذه الأبعاد تندرج ضمن " القوة المادية العملية" التي تُفعل سنن التمكين، لأن العمل الدعوي لا يقوم على الإيمان المجرد، بل على إيمان منظم وقوة فاعلة مدروسة.

أضف إلى ما تقدم، فإن القوة الاقتصادية والتمويلية، تلعب دوراً هاماً في إيجاد القوة العسكرية، وكذلك الموارد الذاتية للدعوة، أين يتمكّن العمل الدعوي من الاستقلالية والاستمرار، " فتشكّل القوة الاقتصادية الدعامة الأساسية للقدرات العسكرية، حيث ترتبط الموارد المالية ارتباطاً عضوياً بالإمكانات الدفاعية. فالقدرات التسليحية والاستعدادات القتالية تتوقف على مدى توفر السيولة المالية الكافية، مما يجعل الاقتصاد أداة استراتيجية في الصراع، بل أهم أركان القوة الوطنية، ويتمتع الدولة ذات الاقتصاد القوي والمستقر بمرونة إنفاقية تمكنها من تمويل برامج التسليح الحديث دون اللجوء للاقتراض الخارجي، مما يحفظ سيادتها ويحميها من التبعية السياسية والاقتصادية، بينما تظل الدول المثقلة بالديون عرضة للضغوط والتدخلات الخارجية، مما يحد من حريتها في اتخاذ القرارات الاستراتيجية"⁴.

1 - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص 333.

2 - المرجع نفسه، ص 326.

3 - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 306-308. بتصرف.

4 - أحمد أبو الشهاب، مقومات النصر في ضوء القرآن الكريم والسنة، مرجع سابق، ص 306.

وكذلك الأمر بالنسبة للدعوة، التي تتسلح بأحدث الوسائل والتقنيات الحديثة، بفضل هذه القوة المالية التي تُسهم في بناء موارد ذاتية للعمل الدعوي، عبر مشروعات وقفية وتنموية مستقلة، وكذا توظيف الزكاة والصدقات في دعم برامج الدعوة، مما يسهم بذلك في تحقيق الاكتفاء المالي، الذي يضمن حرية القرار الدعوي، واستقلاله عن جملة الضغوطات السياسية أو المصلحية.

ومما لا شك فيه، فقد كان جنود الدعوة من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين غرس الإيمان في قلوبهم حب التضحية، في سبيل نشر الدعوة وتمكينها، نماذجاً عظيمة في البذل والعطاء، فنجد من هاجر إلى المدينة وترك ماله في أيدي المشركين، رغم الحاجة الماسة إليه، دليل بذلك على صدق إيمانهم حتى أثنى القرآن عليه، بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ البقرة/207، وكان المقصود صهيب بن سنان.

وتأسيساً على ما سبق، فإن الآية القرآنية "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" حددت مسؤولية الأمة الإسلامية، في وجوب امتلاكها لقوة مادية شاملة، تمكنها من الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة، هي أن تُؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم، دون إكراه كي لا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها، ويكون مصدر هذه القوة من داخل المجتمع المسلم، ولهذا

القوة الداخلية تأثير كبير في تمكين المجتمعات، لأنها ترهب أعداء الدين وخصومهم، الذين يعملون على إطفاء نور الإسلام، وتجريد المسلمين عن دينهم، وسلخ عقيدتهم، وإخماد شوكتهم، فهذه القوة تجعلهم لا يفكرون في الاعتداء على الإسلام والمسلمين.

وفي الإطار ذاته أكد النبي ﷺ، على الإعداد المادي بقوله ثلاثاً وهو على المنبر: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي" ¹ حثاً بذلك على ضرورة الإعداد واستجماع القوة.

"فالحديث الشريف فيه لفظة نبوية وتوجيه رباني، إلى أمر ثابت في أصل القوة في الحروب المختلفة على مرَّ العصور، ألا وهي الرمي المطلق، الذي يختلف نوعه وطريقته وكيفيته من عصر لآخر، وذلك أن رمي العدو عن بُعد بما يقتله، أُسْلِمَ من مصالوته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وهو يشمل أيضاً كل ما يرمي به العدو من سهم، أو قذيفة منجنيق، أو طائرة أو مدفع، وغير ذلك، وإن لم يكن في عصره ﷺ، فإن اللفظ يشمله والمراد

¹ - رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، ج3، ص1522، رقم: 1917.

منه يقتضيه"¹، فكان الآية الكرمة ترسم مبدئاً عسكرياً هاما مقررًا عند كبار القادة العسكريين وهو؛ إضعاف العدو بقوة الرمي أولاً، ثم الهجوم عليه ثانياً للقضاء عليه.²

ولا مناص من القول، أن رسول الله ﷺ كان الأسوة والقُدوة الحسنة، فكان في جهاده لنشر الدعوة يُعدّ أسباب القوة، ويأخذ بالأسباب الموجودة في عصره، فقد لبس الدرع يوم أحد، وحفر الخندق يوم الأحزاب، وأخذ السلاح وأعد الجنود القادة وربّاهم لإعلاء كلمة الله، فكان يعمل بكل أسباب القوة الممكنة في عصره، لكن تبقى القوة بيد الله القوي العزيز، واهب النصر والتمكين، وما على العبد إلاّ اتّخاذ الأسباب، وحسن التوكّل على الله تعالى، والإقبال عليه في تحصيل هذه القوة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق/3.

يتبيّن من خلال ذلك ضرورة ضبط العلاقة بين الإعداد والتوكّل، وهو ما نبّه إليه الطيب برغوث عند حديثه عن منهج النبي ﷺ في إدارة شؤون الدعوة ومعالجة التحديات، فقد كان ﷺ يبذل أقصى درجات الإعداد والاحتياط في مواجهاته مع أعداء الدعوة، فلا يترك وسيلة تعزّز القدرة العسكرية إلا سبيلًا يحقق القوة إلا أخذه، فإذا استنفد الوسع في الإعداد واتّخذ كل ما تسمح به سنن الآفاق والأنفس والهداية، رفع يديه إلى السماء مستعيناً بسنن التأييد متضرعاً: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، وهكذا جمع بين كمال الإعداد وكمال التوكّل، من غير خوفٍ يشلّ الإرادة ولا اغترارٍ يوقع في التهاون.

وقد ورث الصحابة والتابعون عنه هذا الفقه الحركي المتوازن، فكان لمنهجهم أثرٌ بالغ في مسار الحياة البشرية، لما اتسمت به «دورته الإنجازية» من أصالة وفاعلية وانتظام ومصادقية³.

ومن نماذج إعداد القوة الشاملة، في سبيل تمكين العمل الدعوي التي اخترنا الوقوف عليها، غزوة الأحزاب أين تجسدت ملاح الإعداد بوضوح، فقد حفر النبي ﷺ الخندق مع أصحابه، ليُشكّل حاجزاً بينهم وبين عدوهم، ويُعد ذلك أسلوباً جديداً في القتال والحرب، لم يكن معهوداً عند العرب، وأسفرت عن إحباط مسعى الخصوم؛ المشركين المتّحدين في اقتحام المدينة، وشنّ هجمة على الإسلام وأهله.

¹ - مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص371.

² - عبد الحميد محمود طهماز، أسباب النصر في سورة الأنفال، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1992، ص76.

³ - الطيّب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مركز الـراية للتنمية الفكرية، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ط1، 2006، ص242-243.

فأخذ النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ بأسباب الإعداد، فأعدوا ما استطاعوا من قوة مادية لحفر الخندق، فشمروا على سواعد الجّد ووصلوا الليل بالنهار في نقل التراب وتجهيز الخندق، وعندما اشتدت عليهم صخرة استعانوا به ﷺ، أين بشرهم بالنصر والتمكين، وظهور دين الإسلام رغم شدة المخاوف والابتلاءات.

فلا مناص من القول، أن للقوة المادية الشاملة تأثير كبير في النفوس، حيث تعطى شحنة إيجابية، من الثبات والصمود في وجه العدو، لتحقيق الغلبة والنصر، وهو ما أشار إليه عبد الكريم زيدان بقوله أنّ "التفوق المادي يُنتج شعوراً بالقوة والثقة لدى الطرف المتفوق، مما يدفعه إلى التصرف وفقاً لهذه القناعة في مواجهة خصومه، وهذا الواقع يفرض على الأمة الإسلامية -على مستوى الأفراد والجماعات -ضرورة امتلاك مقومات القوة المادية المتعددة في العصر الحاضر، لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع الخصوم وضمان القدرة على حماية مصالحها وتحقيق أهدافها"¹.

ومفاد القول أنّه يجب الأخذ بهذه التوجيهات الربانية والنبوية الكريمة، في بناء قوة للعمل الدعوي المعاصر، وهذا ما يزيده قدرةً وتأثيراً وفعالية، من خلال تأصيل هذا العمل الدعوي، تأصيلاً علمياً وفقهياً يستند إلى مقاصد الشريعة، وسنن الله في التغيير للتمكين، وكذلك العمل على تطوير المناهج الدعوية، لتواكب التحولات الفكرية والاجتماعية المعاصرة، مع الحفاظ على الثوابت العقدية، ناهيك عن إعداد الدعاة المثقفين الواعين بواقع الأمة، وحاجات العصر، إذ يخاطبون الناس بلغة متجددة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

أضف إلى ما تقدم، يحتاج العمل الدعوي إلى قوة تنظيمية وإدارية، تسهر على بناء المؤسسات الدعوية، المرنة والفعالة، وتعمل على إعادة هيكلة العمل الدعوي على أسس من الكفاءة، والمساهمة في إعداد قيادات شبابية مؤهلة، تجمع بين الإيمان والمهارة الإدارية، والفكر الدعوي الراشد، مع ضرورة المراجعة والتقييم المستمر للعمل الدعوي.

وفي إطار التطور التكنولوجي الإعلامي الذي نشهده، يحتاج هذا العمل الدعوي أيضاً إلى قوة إعلامية، كحاجة ملحة يستطيع من خلالها توظيف الإعلام الرقمي بكفاءة، لنشر الرسالة الدعوية بأساليب عصرية جذابة، دون إهمال للمحتوى الدعوي الرقمي، الذي يجب أن يوازن بين العمق العلمي ذو المرجعية الشرعية، وبين الجاذبية الإعلامية، وكذا تكوين فرق عمل إعلامية دعوية متخصصة، في إدارة الحملات الدعوية التوعوية الإرشادية.

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص 57.

والخلاصة التي نختتم بها، هي أنّ هدف الإعداد والقوة الشاملة في الإسلام أساساً، هو إظهار دين الإسلام، دين الحق والفترة التي يولد عليها الإنسان، دين العزة والسلام قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصّف/9، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم، فلا يخشون أحداً سوى الله عز وجل، وإن إعداد القوة الشاملة في العمل الدعوي ليس ترفاً تنظيمياً، بل هو واجب شرعي وسني لتحقيق التمكين، وبناء هذه القوة يقتضي موازنة دقيقة بين الإيمان والإعداد، بين الفكرة والتنظيم، وبين الأصالة والتجديد، فالدعوة التي تُحمل إعداد القوة، تفقد أهليتها للتمكين، بينما التي تستكمل جوانب القوة الفكرية والمادية والإعلامية والتنظيمية تسير في طريق التمكين الحقيقي.

2- إعداد القيادة المؤهلة:

إن إعداد القوة الشاملة لا يراد به قوة السلاح، والعتاد والتجهيز فقط، ذلك أنّ السلاح وحده لا يصنع نصراً ولا تمكيناً، بل يبقى مجرد أداة يستعين بها الإنسان، لتحقيق النصر والتمكين الذي يريده، ويبقى الإنسان وحده هو العنصر الأساس الذي يعول عليه، في تحقيق التمكين للعمل الدعوي، فهو المخلوق الذي كرمه الله تعالى وفضّله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء/70، وجعله خليفته على هذه الأرض لعمارها فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة/30، "وهذا يدفعنا إلى أن نقدر للإنسان قيمتين: قيمته كإنسان، وقيمه ككائن اجتماعي يصنع المجتمع ويصنعه، ومن الواضح أن المعادلة الأخيرة، هي التي تحدّد فعالية الإنسان في الحضارة، فالإنسان في جميع الحضارات، وفي جميع أطوار التاريخ لا يتغير فيه شيء، ولكن تتغير فعاليته من طور إلى طور"¹.

فهو من أبرز عناصر القوة التي تحقق التمكين على الأرض، خاصة إذا التزم بهذه الوظيفة الوجودية في الحياة، والتي يرقى من خلالها إلى مدارج القيادة، باعتبار أنّ "مركز القائد في الإسلام هو مركز النائب عن الأمة، لا المتسلط عليها، في تنفيذ شرع الله، حيث يضطلع القائد بمهمة تطبيق الأحكام الشرعية وجعلها قانوناً نافذاً. وتستمد شرعية الطاعة للقائد من التزامه بالحدود الشرعية، فطاعته واجبة في المعروف ضمن إطار الشريعة، بينما تنتفي هذه الطاعة بمجرد مخالفته للشرع، بل يتحتم على الأمة مقاومة انحرافه وفق الضوابط الشرعية"².

وما لاشك فيه، فالقيادة ضرورة حتمية في كل التجمعات البشرية عامة، كونها " فن معاملته الطبيعة

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص27.

² - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص173.

البشرية، والتأثير في السلوك البشري، وتوجيهه نحو هدف معين، وبطريقة تضمن بها طاعته وثقته واحترامه¹، وتتضمن شخصيته بذلك جملة " سمات وقدرات فائقة، تمكن القائد من التأثير في الآخرين، لتحقيق أهداف مشتركة، وفق رؤية ملهمة في إطار موقف محدد"²، ولتبليغ الدعوة الإسلامية؛ من الضروري أيضا أن يبرز قادة، يفعلون سنن التمكين لتوجيه الدعوة، صوب غايات وأهداف معينة، لاعتبارهم يتوفرون على جملة هذه السمات والمهارات، والقدرات والكفاءات المميّزة، التي تؤهلهم لإبراز طاقاتهم، والتأثير بكل فاعلية لنشر الدعوة الإسلامية، فالقيادة عصب الأمة الإسلامية، وصلاحها ينعكس على صلاح الأمة أو فسادها.

ومما لا شك فيه، فإن توفر هذه الصفات والطاقات والقدرات في القيادة، تعني بالضرورة أنها تجعلهم قدوة، وهو شرط لازم للقيادة،" فقد أثبتت التجارب الاجتماعية والتاريخية أن القدوة أو القيادة الحضارية لا تستطيع أن تحدث أثرا كبيرا، إلا إذا كانت أفكارها ذات مضمون عقيدي أو اتجاه ديني، وسارت بالشعوب على منهج رباني، يحمل تعاليم الوحي في أرقى القيم، وأصح الأفكار والمبادئ"³.

وقد أشار الكثير من الباحثين إلى جملة وعدد من صفات القيادات الدعوية-على اختلاف مواقعها- بمجموعة من الخصائص الأساسية، ولا سيما في مرحلة التعريف بالدعوة، ومن أبرزها الالتزام الدقيق بأحكام الإسلام في مختلف جوانب الحياة، بما يعكس صورة عملية متكاملة للمنهج الإسلامي.

امتلاك فقهٍ راسخ للإسلام في مجالات العقيدة والعبادة والمعاملات، استنادًا إلى الكتاب والسنة ومصادر الفهم المعتبرة.

القدرة على التواصل الفعال مع الناس ومخاطبتهم، مع استيعاب طبائعهم وظروفهم المختلفة امتلاك مهارة التأثير الإيجابي في الآخرين، واستقطابهم نحو الخير، وإلى العمل الإسلامي، وإلى المشاركة في الجهد الجماعي المنظم. التحلي بقبالية عالية لمحبة الناس والتودد إليهم، بما يعزز الثقة ويهيئ المناخ المناسب للتأثير والدعوة"⁴.

ولعل أبرز الجوانب التي اخترنا الوقوف عليها بشيء من التفصيل، والتي يجب توفرها في القيادة الصالحة، لتفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي ما يلي:

1 - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص75.

2 - أحمد بن عبد الله الكبير، القيادة الأخلاقية من منظور إسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 2016، ص41.

3 - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص169.

4 - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ص654-655.

- **التربية الإيمانية:** يُعدّ إعداد القيادة الدعوية المؤهلة من الشروط الأساسية لنهضة الأمة وتفعيل سنن التمكين في الواقع المعاصر؛ إذ لا يمكن تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية ما لم يُصغ القائد الدعوي في بوتقة تربية إيمانية تُزكي نفسه، وتُهدّب سلوكه، وتُنمّي قدراته على القيادة الراشدة القائمة على الإيمان والعمل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: 11، وهو تأكيد قرآني على أن التغيير الحضاري والتمكين الدعوي؛ يبدأ من التربية الإيمانية الداخلية للنفس.

وفي هذا الإطار، تُعد التربية الإيمانية شرطاً أساسياً يتقدم مؤهلات القيادة، لتمكين العمل الدعوي، وهي عملية متكاملة تستهدف بناء الإنسان من الداخل، عبر غرس العقيدة الصحيحة، وتنمية المعاني الإيمانية كالحوف من الله، والرجاء، والتوكل، والإخلاص، وترجمتها إلى سلوك عملي يعكس الإيمان في الحياة الفردية والجماعية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/9-10. وهذا يدل على أن صلاح القيادة يبدأ من تركية النفس، وهذه التربية تجعلهم مستعدين لمواجهة الفتن والابتلاءات، التي يتعرضون لها في سبيل نشر الدعوة، بكل صبر وثبات، وهذا ما يتطلب تربية روحية عميقة، وغرس اليقين بوعده الله بالتمكين، فثسهم هذه التربية في جعل الإنسان قائداً ربانياً.

وتجدر الإشارة إلى التعريف بهذا القائد الرباني، كونه "الإنسان الذي يمزج بين العلم والعمل فيكون فقيهاً عالماً بدينه، عاملاً بما فيه من أوامر ونواهي، وهذه تدل على الصلة الوثقى بينه وبين ربه عز وجل، مصدر التمكين ومصدر التوجيه والإرشاد"¹، ووصف سيد قطب "الربانيون" بأنهم الموصولون بالله، العائشون بالله والله، الذين ليس في قلوبهم وليس في حياتهم إلا الله، الذين فرغت قلوبهم من حظ أنفسهم"²، وقد أرشد الصلابي لهذه التربية كخطوة أولى في إعداد الإنسان الرباني، الذي إذا ما التزم بجملة تلك الصفات، فقد خطى خطوة طيبة في الأخذ بشرط مهم من شروط التمكين.

تشكّل هذه التربية قاعدةً منهجيةً رصينةً لتأهيل القادة، وهي تجسيدٌ "للمنهجية التي خطّطها الرسول ﷺ في بناء الأفراد وتكوينهم تكويناً ربانياً؛ مما يفرض على قادة الحركات الإسلامية وزعمائها الالتزام بنفس النهج النبوي، الذي يمثّل في جوهره تجسيداً عملياً للمبادئ والقيم الواردة في القرآن الكريم"³، وعليه يبرز تأهيل الداعية الملتزم، وتنشئة القيادة المؤمنة، كأمرٍ بالغ الأهمية، يحظى بالأولوية في بناء الكوادر القادرة على قيادة عملية لتمكين الدعوة الإسلامية.

¹ - رمضان خيس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 55.

² - سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص 194.

³ - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 266.

وفي هذا الإطار فإن وصف "الرباني" يحمل دلالات عدة، تعكس جملة المبادئ الأخلاقية والمعايير القيمية، التي يتحلى بها الداعية القائد في الجانب الروحي، الفكري، السلوكي والاجتماعي، فيصبح الإسلام جوهر ومنهج حياته، نتيجة لتلك التربية الإيمانية، والتي تنتج آثاراً منها سلامة العقيدة، الإخلاص في العمل والتفاني فيه، والتوكل على الله، الصدق والأمانة، الأخوة والتضامن، العفو والتسامح، الورع والتقوى، الصبر والحلم، الصدق والكفاءة، العدل والطاعة، التواضع والإرادة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الصفات التي تجعل من هذا الإنسان الرباني أهلاً للقيادة؛ قيادة الأمة، وقيادة الدعوة التي تستدعي هذه الصفات.

فلا مناص من القول أنّ التربية الإيمانية تعتبر "من أهم أسباب التمكين، إذ يتولى أمور الدعوة وقيادة المسلمين قيادة ربانية، من جرى الإيمان في قلبه، وعروقه وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله، وسكناته وأحواله"¹، لتؤتي بعدها هذه القيادة ثماراً يانعة وقطوفاً مزهرة، تحمي الدعوة ممن يريد التطاول عليها، لترسخ في كيان الأمة قلباً وقالباً، وتعيش الإسلام قولاً وعملاً.

وتأسيساً على ما سبق، فإن تفعيل سنن التمكين لا يتحقق إلا عبر إعداد قيادات، مؤمنة مؤهلة تمتلك رصيلاً إيمانياً، يمكنها من الصبر والثبات، وكانت هذه التربية هي "الوسيلة التي استخدمها المربي الأعظم وهو النبي ﷺ، من تعميق للإيمان بالله واليوم الآخر، وتعميق الصلة بالله، وتعويد النفوس على الحياة في معية الله، والتدريب على ممارسة السلوك الإيماني، في عالم الواقع ثم تعميق الوعي بالوسائل التي تؤدي إلى تعميقه"²، فكان بذلك قائد المسلمين الأعلى رسول الله ﷺ؛ مثلاً رائعاً لشخصية القائد المتميز الفذ، لما تمتع به من خبرة، وقدرة على الاستمالة وتغيير القيم والمعتقدات، لتوجيه الدعوة الربانية الحقّة وما تميّزت به من مشروعية الأهداف والوسائل، ما جعل من أتباعها يستجيبون ويدعون لها.

ولا يفوتنا أن ننوه بدوره ﷺ على بناء المنظومة الإيمانية العقدية، كركيزة في نشر الدعوة الإسلامية، حيث ربّى أصحابه تربية إيمانية قائمة على جملة المبادئ والقيم، التي أهلتهم ليكونوا من زمرة صحابته ﷺ، وفي دائرة المجاهدين معه لنشر رسالة الإسلام، وتمكين دين الحق في كل الأمصار، فكانوا قادة متميزين مصلحين كالغيث أينما وقعوا نفعوا، ولما كان حال الأمة كذلك، على هذه "التربية المثالية عاشت لله، فالغنائم لم تُعدّ تزلزل مواقفهم عن مواطن الجهاد، فأعطيت ثواب الآخرة، وزيادة على ذلك غنائم الدنيا كتحصيل حاصل بعد المعركة، لذلك إن

¹ - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 276

² - سيد بن حسين العفاني، تثبيت أفئدة المؤمنين بذكر مبشرات النصر والتمكين، دار ماجد عيسري، دط، دس، ص 542.

مالت النفوس إلى الغنائم تكون الهزائم.¹

وتأسيساً على ما سبق، فقد كان النبي القائد محمد ﷺ، مثالا في القيادة، حيث وصفه علي رضي الله عنه بقوله: "كنا في المعارك إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق واشتد القتال كنا نتقي برسول الله، ولم يكن أحد أقرب إلى العدو منه، لذلك قال بعض الصحابة: كان أشجعنا خلف رسول الله²، وقد أثر عنه ﷺ يوم حنين، لما خاف الناس وهربوا، بقي النبي ﷺ في ساحة المعركة يقاتل أعداء الله دون خوف أو وجل، وهو على بغلته البيضاء، وأبو سفيان ابن الحارث يمسك بلجامها والنبي ﷺ يقول: "أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب"³.

ما يدل بذلك على ثبات وشجاعة النبي ﷺ كقائد، في وقت الحرب، وعند اشتداد البأس، فكان حقا له أن يكون مرجعا معتمدا لدى الناس والأتباع، الذين أصبحوا يحبون الموت ويتنازلون عن الحياة، فيعيشون هم الإسلام والدعوة إلى الله، لصلابة قاعدتهم الإيمانية وقوتها.

وبناءً على ما تقدم، فإن القيادة المؤهلة هي التي تمتلك توازنا بين الإيمان العميق، والكفاءة العملية، بين الزاد الروحي والبناء المهاري، فالقائد الدعوي لا يُقاس فقط بقدرته على الخطابة أو التنظيم، بل بقدرته على تجسيد الإيمان في الميدان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة/24، ذلك أن الإيمان ليس مجرد شعور، بل هو دافع للحركة والبذل والتضحية، "فالدعاة في حاجة ملحة إلى التفاعل العميق مع الإسلام وتصوراتها، لما لذلك من أثر مباشر في تجسيد مبادئه وأفكاره وسلوكه في الواقع العملي. فبقدر ما يلتزم الداعية بتطبيق المنهج الإسلامي تظهر حياته تعبيراً صادقا عن معانيه، وصورة ناطقة بقيمه ومقاصده"⁴.

أضف إلى كل ما تقدم، فإن لهذه التربية الإيمانية إسهامات في تفعيل سنن التمكين وذلك من خلال؛ غرس الإيمان كدافع داخلي للتمكين، فالإيمان طاقة عمل منظم، يحرك الإرادة ويقوي العزيمة، ويجعل القائد والداعية يعملان من منطلق عبودي لله تعالى، لا طلبا للشهرة أو السلطة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/90، فالتربية الإيمانية تُخرج القائد الملتزم بمنهج الله في الإصلاح والبناء، القائد المحسن الصابر، الذي يسير في طريق التمكين بثقة وصبر طويل، دون استعجال النتائج، الأمر الذي فعله النبي ﷺ في مكة، إذ كانت مرحلة الإيمان والتربية قبل مرحلة الدولة والتمكين.

¹ - شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، مرجع سابق، ص23.

² - المرجع نفسه، ص22.

³ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، ج5، ص153، رقم: 4316.

⁴ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص68.

ونقطة أخرى من جملة هذه الاسهامات، أين تحقّق هذه التربية التوازن بين الغاية والوسيلة، لأن الإيمان يضبط الوسائل الدعوية، فلا تكون الغاية مبرراً لتجاوز السنن، أو مخالفة القيم، فالداعية القائد المؤمن يلتزم بمنهج الله في التغيير، قال تعالى: ﴿اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل/125، فالتربية الإيمانية تجعل الدعوة تسير بالحكمة لا بالعنف، وبالموعظة الحسنة لا بالخصومة، فتفعل بذلك سنة التدرج في التغيير كمنهج في التمكين الدعوي.

ومما لا شك فيه، فإن هذه التربية الإيمانية تعمل على تثبيت الداعية أمام الابتلاءات، التي يتعرض لها في طريق الدعوة، فتختبر مدى صدقه وثباته، وبالتالي تعمل هذه التربية على تزويد الداعية بقدرة عالية على الصبر والتحمل، لأنها تربطه بالله لا بالنتائج، وهذا الصبر كما أكدنا سابقاً، هو مفتاح استمرارية العمل الدعوي، نحو بلوغ التمكين الحقيقي.

ونقطة أخيرة تسهم بها التربية الإيمانية في تفعيل سنن التمكين، من خلال بناء روح الجماعة والتعاون، فمن سنن التمكين أن تكون الدعوة جماعية لا فردية، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ المائدة/2، فالتربية الإيمانية تعلّم القادة العمل بروح الفريق، وتغرس فيهم قيم التواصل، وحب الآخرين، ونبذ الأنانية، مما يسهل بذلك في وحدة صف الدعاة للتعاون في العمل الدعوي، وهي ركيزة تمكينية أساسية.

وفي الختام يمكن القول أن لهذه التربية الإيمانية في الواقع الدعوي المعاصر آثاراً مهمة، لذا وجب الحرص على تحقيقه كقاعدة صلبة قبل الانطلاق في مشروع الدعوة، فمن هذه الآثار أنها تحصّن الداعية من الانبهار بالواقع، أو الانكسار أمامه، كما تجعله يتعامل مع الوسائل الحديثة، بروح مؤمنة منضبطة، فيوظفها للحق لا للباطل، وتعمل كذلك على توحيد صفوف العاملين للدعوة، تحت راية العقيدة بدل الانقسام التنظيمي الحزبي، وهكذا تُسهم التربية الإيمانية في تفعيل سنن التمكين ببناء الإنسان القائد الدعوي المؤمن العامل، قبل بناء المؤسسة الدعوية، لأن تمكين الإنسان المؤمن هو المدخل والأساس لتمكين الدعوة.

إذن فالتربية الإيمانية ليست مجرد بعد معنوي بل هي شرط مادي عملي لإعداد القيادة المؤهلة القادرة على تفعيل سنن التمكين في الواقع الدعوي، فالقائد المؤمن يجمع بين الإيمان والعمل، بين المنهج والتطبيق، فيتحوّل الإيمان إلى سلوك تمكيني فاعل.

-التربية العقلية العلمية:

تعد التربية العقلية العلمية، من أهم ركائز إعداد القيادة الدعوية المؤهلة، في العصر الحديث؛ إذ تمثل أحد الشروط المادية العملية، لتفعيل سنن التمكين في الواقع الدعوي، فالإسلام دين العقل والعلم، والدعوة الناجحة لا تقوم

على العاطفة وحدها، بل على الفكر الراشد والعلم المنهجي، والتحليل الواعي للواقع والتحديات المفروضة، "ويُجمع العارفون على أنَّ تحقيق الاستقامة والحكمة في الداعية، مرهونٌ بالتمكن من العلم الشرعي، الذي يجب أن يرافقه بشكل متصل منذ بداية مسيرته الدعوية حتى نهايتها، ويحذرون من أن انقطاع هذا الشرط الأساسي يؤدي إلى انحراف المسار عن جادة الصواب، ويشكل عائقاً مصيرياً دون بلوغ الهداية والفلاح"¹.

فجدير بالذكر أنه من ضمن مؤهلات القيادة التي يحتاجها الداعية في العمل الدعوي، إضافة إلى جانب التربية الإيمانية، جانب التربية العلمية العقلية، لملكة العقل التي تُعد ركناً محورياً، للقيام بأعباء القيادة ومسؤوليات الدعوة، "فالعقل كذلك يحتاج إلى ما يغذي نموه ونضجه وأثرانه، فإن القائد بحاجة إلى رصيد معرفي متنوع يثري تفكيره ويوسع مداركه. ولا يكفي في هذا السياق الاختصار على الثقافة الإسلامية وحدها، بل يتطلب الأمر مستوى رفيعاً من الثقافة العامة والاطلاع الواسع، مع متابعة مستمرة لمستجدات الحياة السياسية وأحداثها، فذلك كله يمكنه من تحمّل المسؤولية، ومواجهة التحديات، وقيادة الجماعة قيادة رشيدة واعية"².

وتجدر الإشارة إلى أن العقل منبع العلم والفهم الصحيح، وهو وسيلة السعادة في الدارين، وشرط أصيل من شروط التمكين، ويمكن تعريف "التربية العقلية العلمية في الإطار القيادي بأنها مجموعة متكاملة من الكفاءات الفكرية التحليلية التي تُمكن القائد من صياغة تصور استراتيجي شامل. يجسّد هذا التصور رؤية منهجية قادرة على قيادة عمليات التغيير والتطوير في العمل الدعوي، بما يتضمن مواجهة التحديات والمعوقات، ومعالجة نقاط الضعف، والاستثمار الأمثل للفرص المتاحة.

ويتطلب تحقيق هذه الرؤية فهماً عميقاً للسياق القيادي بجميع أبعاده، من خلال تحليل البيئة الداخلية للمجتمع المستهدف، ودراسة الإطار الخارجي المحيط بالعمل الدعوي، ورصد كافة العوامل المؤثرة -المباشرة وغير المباشرة - في مسار تحقيق الأهداف"³.

وبالتالي فالتربية العقلية العلمية، تنمية لقدرات الإنسان العقلية والفكرية، وفق منهج إسلامي متوازن، يربط بين الوحي والعقل، وبين العلم والإيمان، ويهدف لإعداد قيادات قادرة على التفكير السليم، واتخاذ القرار الصائب، وفهم سنن الله في الكون والمجتمع، تساعد القيادة الدعوية في رسم خارطة طريق، يشق بها صعوبات وتحديات العمل الدعوي المحيطة به، "وقد تكرر "أولي الألباب" في القرآن الكريم نحو خمس عشرة مرة، وفي كل

¹ - سعيد القحطاني، مقومات الداعية الناجح، مرجع سابق، ص 11-12.

² - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص 77.

³ - أحمد بن عبد الله الكبير، القيادة الأخلاقية من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص 43.

موضع كان السياق يضم مجموعة من الشمائل، أو يشير إلى حُلة من الخلال التي يعلو بها قدر الإنسان فكراً وخلقاً معاً، فأولو الألباب هم أهل الخطاب وموضع الثقة، وعليهم المعول في قيادة الدنيا بالدين¹

بالتالي إعطاء رؤية كاملة وتصور عام لطبيعة التغيير المراد إحداثه، مع رصد نقاط الضعف التي تقف كعقبات في مسار هذه الدعوة، فيكون القائد بذلك واسع الأفق مبصراً للغاية التي يقصدها، وهو يسعى لتأسيس الوعي الحضاري للأمة.

ولا يفوتنا أن ننوه، بأن أساس هذه التربية العقلية العلمية؛ هو "الواقعية" لا الخيال أو الأوهام والأحلام، فتمكين الدعوة يكون بالانطلاق من واقعها وما تعيشه من أوضاع وظروف، فالقائد الدعوي "مطالب شرعاً بتحصيل البصيرة في دعوته، وهذا إنما يتأتى بمعرفة واقع المجتمعات وأفرادها، وهيئاتها ومؤسساتها، كما يتحقق بالاطلاع على وسائل العصر، وأساليبه المتجددة، التي تخدم الدعوة وتدفع بها قدماً للأمام"²، فتعظم بذلك حاجة الداعية القائد إلى فهم الواقع، خاصة إذا علم أن من أسباب تخلف الأمة في عصرها الحاضر جهلها بالواقع، وما ينفع هذه الأمة الإسلامية ويعينها على تحقيق التمكين والعزّ والمجد هو الفقه بالواقع.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فالقائد الدعوي الذي يدرّب عقله على التفكير العلمي، والتحليل الواقعي للأحداث من حوله، يدرك كيفية التعامل معها، ويشكل نظرة حول عواقب الأمور ومستقبلها، فيكون أقدر على تشخيص أزمات الأمة، ورسم خطط دعوية واقعية، لإدارة العمل الدعوي وفق منهج الأسباب والسنن، لأن "التخطيط السليم والإدارة الناجحة في العمل الإسلامي من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى، والتخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل"³.

وقد أرشد إلى ذلك الطيب برغوث، فالواقعية في التفكير والعمل تُعد شرطاً أساسياً للبناء المستمر للقدرات الحضارية الذاتية للأمة، "وتستلزم هذه الواقعية مراعاة كافة مكونات الدورة الإنجازية وعناصرها، بدءاً من مرحلة الإعداد وصولاً إلى مرحلة الاستعداد، مع الالتزام بالأولويات المحددة، ومراعاة طبيعة الظروف المحلية والدولية، وتقييم أثرها -الفعلي أو المحتمل- في حركة المسلمين وتوجهاتهم"⁴.

وفي سياق ما تقدّم، يلفت النظر أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: «اقرأ»، إشارةً إلى أن القراءة هي الأساس الذي يُبنى عليه العلم، وأن العلم هو الذي تُشَيّد عليه الأعمال، فالممارسة العملية من دون علمٍ راسخ ليست سوى ضربٍ من الاضطراب والارتجال، بينما يمثل العلم غير المترجم إلى عمل نمطاً من الترف الفكري

1 - محمد الغزالي، الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، القاهرة، دط، دس، ص30.

2 - محمد يسري، معالم في أصول الدعوة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2003، ص58.

3 - علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص326.

4 - الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مرجع سابق، ص280.

والإسراف الثقافي الذي لا ينهض بحضارة ولا يشيد خلافة، ولا يملك أمة من الإمساك بمقاليد الريادة والسيادة. ومن ثم، فإن الحضارة التي ينشدها المسلم لا بد أن تقوم على قاعدة العلم؛ فهو الذي يرسخ دعائمها، ويعلي بنائها، ويجعلها ثابتة راسخة كالصروح الشاهقة، لا تهتز أمام شبهات المضللين، ولا تتراجع تحت ضغط التصورات الضعيفة المنهزمة¹.

وإن الناظر في القرآن الكريم، يجد أن العلم تكرر مرات متعددة في صور تعبيرية شتى، ومن هذه الصور ما كان فيه العلم؛ مؤهلاً من مؤهلات الاصطفاء والقيادة لنيل التمكين، فقال تعالى في شأن طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/ 247.

وقال على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مَنْ قَبْلَهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ النمل/ 42.

ووصف به يوسف عليه السلام، الذي مكن الله له في الأرض أيما تمكين، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/ 22.

فالتأمل في الآيات السابقة، يقف على حقيقة مفادها؛ ضرورة توفر شرط العلم، وهو أساس التربية العقلية في من أيدهم الله تعالى لقيادة أتباعهم وجماعاتهم، فكان لهم الحظ الوافر من التمكين، فعندما يتصف قائد التمكين بالعلم يكون ذلك سبباً في استمرار التمكين وتحقيقه، ولا يراد بالعلم شقّه النظري المعرفي فقط؛ بل يتجاوز ذلك إلى الجانب التطبيقي العملي؛ فذلك أساس بناء الأمم والحضارات ورفي الأفراد والمجتمعات، ومن قصص السابقين ما دلّ على ذلك؛ " فالناظر في حياة يوسف يجد أن العلم صفة أساسية من صفاته، أخرجته من الحن التي مرّ بها واحدة بعد الأخرى، لقد أخرج علمه بالله من محنة امرأة العزيز، وأخرجه علم التعبير من محنة السجن، وأخرجه علم التخطيط وأخرج شعب مصر بأكمله، ومن حوله من سنوات عجاف، لا تبقي ولا تذر²، فالعلم كان سبباً مباشراً في تمكينه؛ إذ امتلك العلم الإداري، والتدبير الاقتصادي الذي حفظ الأمة من المجاعة، فجمع بين الإيمان والعقل والعلم، وهو شرط أساس في كل تمكين دعوي.

أضف إلى ما تقدم، نجد القرآن الكريم عرض في ثناياه، نماذج عدة لقادة دعاة، مكّنه الله لعلمهم، فقد

¹ - يوسف القرضاوي، الحياة الربانية والعلم، دار الفرقان، ط1، 1996، ص 70-71.

² - رمضان خيس الغريب، صفات جيل التمكين في المنظور القرآني، حولية كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد 18، ديسمبر، 2007.

اختار الله طالوت ملكا على بني إسرائيل، لقيادتهم نحو قتال العدو وتحقيق النصر، لما توفر فيه من مؤهلات قيادية عسكرية؛ كان في مقدّمها العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة/247، وبالتالي فقد اختاره الله للقيادة، لا لماله أو نسبه، بل لعلمه وقوته، أي جمع بين الكفاءة العلمية والبدنية، وهما شرطان ماديان للتمكين.

ونغوذج آخر نشير إليه، لسليمان عليه السلام الذي كان نموذج القيادة؛ العلمية التكنولوجية والحضارية، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الأنبياء/ 79، وقال تعالى: ﴿عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ النمل/16، هنا نرى أن العلم كان أساس التمكين الحضاري لسليمان، حيث مكّنه الله من علوم متعدّدة؛ الحكم والمنطق، الإدارة والتقنية.

ونختتم بالنموذج النبوي، أين أمر الله نبيه بأمرين؛ بالعلم أولا ثم بالعمل ثانيا، فجعل العلم أصلا والعمل تابعا له، والداعية إلى الله تعالى مأمور بالإعداد العلمي، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ محمد/19، فدّل ذلك على أن مرتبة العلم "فَاعْلَمْ"، مُقدّمة على مرتبة العمل "وَاسْتَغْفِرْ"، فالعلم شرط في صحة القول والعمل والدعوة، مما يعني ذلك أنّ القيادة التي تسمو لتمكين دين ربها، وجب عليها التحلي بالعلم الصحيح، والقول على بصيرة لأن كل دعوة لا تقوم على أساس العلم دعوة ناقصة، تُوقع في الخبط والخلط، فتُفسد أكثر مما تُصلح، ولهذا فقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية العلم، في بلوغ الخير والتمكين في الدنيا والآخرة، بقوله (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين).¹

وتمشيا مع ما تم ذكره، تبرز مجالات التربية العقلية في إعداد القيادة الدعوية، من خلال عدة أبعاد، أولها البعد الفكري التحليلي، الذي ينمي عند القائد الدعوي مهارة التفكير النقدي، في قراءة الواقع والنصوص، وكذلك البعد العلمي المعرفي، الذي يمكن القائد من الإحاطة بالعلوم الشرعية، والإنسانية الاجتماعية الحديثة، وأيضا البعد التخطيطي والإداري، أين يتعلم أسس القيادة الاستراتيجية، والإدارة

الفعالة، ويتحكم أيضا من خلال هذه التربية على البعد التقني والإعلامي، الذي يدمج من خلاله أدوات العصر، في الإعلام الرقمي للتواصل الدعوي.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية التربية العقلية العلمية في القيادة الدعوية، فهي تحقق التوازن بين العاطفة والعقل في الخطاب الدعوي، كما ترفع من كفاءة القيادة في اتخاذ القرارات الصائبة الصحيحة، وتسعى لتطوير الخطط

¹ - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ج1، ص25، رقم: 71.

الدعوية، على أسس علمية واقعية، لإيجاد خطاب دعوي معاصر يواكب تحولات الفكر العالمي، ويخاطب العقول لا المشاعر فقط.

وفي الختام يمكن القول، أنّ النماذج والصور القرآنية السابقة، كانت صريحة في بيان أهمية التربية العقلية العلمية، التي تُعد من السنن العملية في إعداد القيادات الدعوية المُمكنة، ذلك أن تمكين الأمة يبدأ من تحرير الفكر، وتنمية الوعي العلمي، وإن القيادة المؤمنة العاقلة هي التي توازن بين الإيمان، والعلم في إدارة الدعوة، وغياب هذه التربية العقلية يؤدي إلى ضعف الرؤية، وتكرار الأخطاء الدعوية.

إذن فالتربية العقلية العلمية ليست ترفاً ثقافياً في العمل الدعوي، بل هي شرط مادي عملي لتفعيل سنن الله في تمكين العمل الدعوي، فالله تعالى لم يجعل النصر لمجرد الإيمان، بل للإيمان الذي يترجم إلى عمل منظم وعلم نافع، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة/11.

أضف إلى كل ما تقدم، فإن إعداد القيادة المؤهلة؛ يحتاج إلى جملة شروط أخرى كالقدرة البدنية، القدرة الحركية، القدرة الإنتاجية، ولو نقف عليها بالتفصيل لخرج البحث بذلك عن مساره، وما لا يدرك كله لا يترك جله، ولهذا اكتفينا بالتركيز على أهم وأولى تلك الشروط المتمثلة في التربية الإيمانية، ثم التربية العقلية العلمية، لأن كلا نوعي التربية ذات معاني شاملة، فكل نوع منها يتضمن جملة شروط أخرى، فتدل عليها بالضرورة، فالتمكين الذي ينشأ في رحاب الإيمان أولاً والعقل والعلم الصحيح ثانياً، هو التمكين الحضاري الذي ينشده العمل الدعوي، والأمة الإسلامية جمعاء، بإظهار دعوة الإسلام واستقراره، ونشر أنواره في أوسع آفاق الوجود الإنساني.

-تحقيق الوحدة والتكامل:

تُعد الوحدة والتكامل بين مكونات الأمة الإسلامية من أعظم مقومات القوة، ومن الشروط المادية لتحقيق سنن التمكين، التي وعد الله بها عباده المؤمنين العاملين، فكما أن قوة الإيمان والعقيدة شرط معنوي للتمكين، فإن الوحدة التنظيمية والتكامل العملي، هما شرط مادي عملي لتحقيق فاعلية الدعوة وانتشارها، ولهذا نجد من اعتبر من وحدة المسلمين وتكاملهم " مطلباً شرعياً، ومقصداً عظيماً من مقاصد الشريعة، يأمرنا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم".¹

¹ - محمد علي الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 308.

فالوحدة من المطالب الأساسية والعوامل المهمة في تحقيق التمكين والنصر، " لأنها قدر العالم الإسلامي ومصيره، طال على ذلك الزمان أو قصر، وواتت الأسباب أم فاتت، وكثر الأعداء أم قلوا، والوحدة الإسلامية هي قمة التغيير، كما أنها هي التي تدعم بقاء المسلمين متمسكين بشرع الله، ماضين في طريق الحق"¹، فمن المستحيل إذن تصور بلوغ التمكين على الأعداء، وحال الأمة الإسلامية في تحبط وشتات، مفككة تسودها أجواء العصبية الطائفية، وتحكمها أهواء وشهوات وأطماع شيطانية، تشيع فيها أجواء التناحر والتباغض والتحاسد، وغيرها من الأمراض المستعصية.

أضف إلى ذلك فإن التكامل في العمل الدعوي، يُراد به " قيامه على أساس الاهتمام والاعداد الكليين، في نطاق التحضير لمواجهة الواقع الجاهلي، وتحقيق التغيير الإسلامي، فلا ينحصر في جانب من جوانب العمل أو جزئية من جزئياته"²

ومن هذا المنطلق فإن مفهوم الوحدة والتكامل في ضوء السنن الإلهية، يراد به توحيد الجهود والغايات، بين العاملين في الدعوة، ضمن منهج رباني مشترك في " الاعتصام بأصول أهل السنة والجماعة، والاجتماع على صحة المعتقد، والالتقاء على ما سبق من أصول الدعوة، وتبنيها علميا وعمليا"³، أما التكامل فهو " أن يجتمع في الدعوة إلى الله؛ على تعدد تخصصات أربابها وتنوع اهتماماتهم، الدعوة إلى الإسلام بشرائعه وتنظيماته كافة، عقيدة وشرعية، دينا ودولة"⁴، فمن خلال هذا التكامل يتم توزيع الأدوار، وتكامل الاختصاصات بم يحقق المقاصد الكبرى للدعوة، بعيدا عن التنازع والاختلاف، الذي يؤدي إلى الفرقة وهي من أبرز المشكلات والمعضلات التي يعيشها العالم الإسلامي، التي تزيد من تمزق قلب الأمة وتقطع أوصالها، وإشاعة الانهزام والإحباط في نفوس المسلمين، المنتظرين لتحقيق الوحدة الإسلامية، كونها البديل الذي تتوجه إليه الأنظار بين كافة الأقطار والأمصار في العالم الإسلامي.

فجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم أرشد أيضا إلى ضرورة تحصيل القوة والمنعة، والحصانة التي تتيح التمكين، وسبيلها في ذلك تحقيق الوحدة الإسلامية " فالقوة مطلب ضروري من أجل البقاء إذ ليس للضعفاء مكان في هذا العالم، الذي تتخنه الصراعات والحروب، والوحدة تُفضي إلى هذه القوة ولو على باطل، فكيف إذا كانت مبنية على أساس الإسلام، وعليه فإن الوحدة واجبة على المسلمين في كل زمان ومكان، وعلى كل حال لأنها سبب

1 - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ج1، ص66.

2 - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص27.

3 - محمد يسري، معالم في أصول الدعوة، مرجع سابق، ص80.

4 - المرجع نفسه، ص76.

من أسباب القوة والمنعة والاستقرار، وحبل من حبال الله المتينة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران/ 105¹ وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران/ 103، وقال تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال/ 46.

فانطلاقاً من هذه الآيات، يتضح فيها أمر الله تعالى بالوحدة والتكامل، وترك التفرق بالاختلاف والتنازع، لأن ذلك مدعاة لاندثار التمكين، وإبطال فاعلية القوة المادية والمعنوية للأمة، وحلول الغلبة والانحزام والتشتت والضياع، وإن التمكين الإلهي لا يتحقق إلا باتباع سنن الله؛ الاجتماعية والكونية، التي جعلها الله تعالى شرطاً للنصر ومن أبرزها سنة الاجتماع والوحدة والتكامل.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فإن الآيات القرآنية السابقة تقرّر؛ أنّ الاجتماع ووحدة الصف والتكامل، أصلٌ من أصول التمكين، لا يجادل في ذلك أحد، وتوجّه التعاليم الإسلامية أفراد الأمة - كلٌّ حسب موقعه - إلى "الاعتصام بحبل الله جميعاً، واجتناب أسباب التفرق والخلاف التي أدت إلى هلاك الأمم السابقة، كما تحثُّ على التعاون في أعمال البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، والحذر من التنازع الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب القوة فالفرد -بحسب هذا التصور -محدود القدرة بمفرده، عظيم الأثر بجماعته، فاليد الواحدة لا تصفق، الصوت المنفرد لا يُسمع، وقد بيّنت النصوص أن القوة في الاتحاد، مهما قلّ العدد، وأن الضعف في الاختلاف، مهما كثر الأتباع.

وعليه، فإن تحقيق الأهداف الكبرى للأمة -من تحرر ووحدة ونهضة، وتطبيق للإسلام داخلياً ونشره خارجياً -مرهون بالعمل الجماعي البناء، وما لا يتحقق الواجب إلا به، فهو واجب"².

وتأسيساً على ما سبق، فإن مظاهر الوحدة والتكامل بين صفوف المسلمين، في العمل الدعوي تتضح من خلال الوحدة الفكرية المنهجية، أين يكون الاتفاق على الثوابت العقدية والمرجعية، مع سعة الصدر في الفروع الاجتهادية، ذلك " أن طريق التمكين لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف ليس لها سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقهم إلى يوم الدين"³.

¹ - أحمد أبو شهاب، مقومات النصر في ضوء القرآن الكريم والسنة، مرجع سابق، ص 295 - 312.

² - يوسف القرضاوي، جيل النصر المنشود، مرجع سابق، ص 30.

³ - علي الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، مرجع سابق، ص 310.

بالإضافة إلى ذلك فإن الوحدة التنظيمية، القائمة على توحيد الرؤية والخطط بين المؤسسات الدعوية، مظهر من مظاهر هذه الوحدة، مما تسهم في تنسيق الجهود لمواجهة التحديات، وكذلك التكامل الوظيفي أين تتوزع الأدوار بين العلماء والدعاة والمفكرين والإعلاميين، بحيث يكمل كل منهم الآخر، بدل أن ينافسه، وهذه المظاهر تحقق وحدة وجدانية روحية، تترسخ فيها معاني "الحب في الله والبغض في الله، دون أن تتدخل في ذلك أية عوامل شخصية، أو أهواء نفسية، ومن شأن هذا الأساس أن يطلق دوائر الجماعات الإنسانية، ويأخذ بأيدي الناس إلى الوحدة العالمية، التي تعتمد على وحدة الفكر، ووحدة الهدف، ووحدات أخرى ذات ارتباط بالنظم عامة"¹؛ روح الأخوة والتعاون وتجاوز العصبية المذهبية والحزبية.

وإن الناظر في سنة المصطفى ﷺ، وهدى أصحابه؛ يدرك ضرورة عملهم بكل أسباب تحقيق الوحدة والتكامل، لأن ذلك مفتاح التمكين وأساس النجاح في تبليغ الدعوة، والدليل على ذلك أنه "كان ﷺ قبيل غزواته يكرر: أشيروا علي أيها الناس، فهذا الالتحام بين القيادة والشعب جعل الجبهة الداخلية صفا واحدا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ الصف/4.

وجدير بالذكر أنه لأهمية وحدة الصف؛ جعل الله عز وجل سورة في القرآن العظيم عنوانها "الصف" أي الصف الواحد، الذي وصفته آية في السورة نفسها: بالبنين المرصوص، فجبهة داخلية مفككة هي في انهمام داخلي قبل انهمامها العسكري الأكيد، وأمة هي بنیان مرصوص أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة"²

فالله تعالى يحب التنظيم المتكامل، والتآزر في العمل، وهو الأساس المادي في القوة.

أضف إلى ما تقدم، فإن أصحاب النبي ﷺ، لما تحققت فيهم سنة الوحدة الوجدانية، والأخوة القلبية بعد الهجرة، قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح/18، فكانت وحدة المهاجرين والأنصار، ومبايعتهم على طاعة الله سببا في تمكينهم، ونزول السكينة والتأييد الإلهي، فتحولت جماعة صغيرة إلى أمة مُمَكَّنَة.

وبما لا يدع مجالا للشك، فإن وحدة الصف الإسلامي للمؤمنين، شرط أساس لبلوغ التمكين، ورسم طريق العز والنصر لهم، وقد نبّه الرسول ﷺ إلى مظاهر هذه الوحدة، في تشبيهه البليغ للمؤمنين، فهم في وحدتهم كالجسد الواحد إذا تألم فيه عضو، اشتكى وتفاعلت معه سائر الأعضاء بالمرض والحمى، فالواجب على المسلمين

¹ - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص.732.

² - شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، مرجع سابق، ص.20.

أن يعتصموا بحبل الله جميعاً من غير تفرق أو اختلاف، وإلا فإن مصيرهم إلى تخلف وانحيار، قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)¹، فالأخوة والترابط والتراحم والتعاطف بين المؤمنين ثمرة من ثمرات وحدة صفهم، ولازمة من لوازمه.

وكذلك الأمر بالنسبة للعمل الدعوي، فإن هذه الوحدة والتكامل تمثل أحد الشروط العملية المادية لتحقيق سنن التمكين الدعوي، فلا يمكن للدعوة أن تؤدي رسالتها إلا بتضافر جهود أبنائها، وتنسيق طاقاتهم في إطار مشروع واحد متكامل، فالعمل الدعوي في جوهره عمل جماعي مؤسسي، لا فردي انفعالي، وهذا من شأنه أن يزيد من فاعلية الدعوة، وذلك من خلال كون الوحدة مصدر القوة الجماعية، فهي تجمع الجهود الفردية في قوة واحدة مؤثرة، وتحول الطاقات المتفرقة إلى منظومة متكاملة، قادرة على التغيير، وإن هذا التكامل يحقق التوازن في العمل الدعوي، فكل ميدان من ميادين الدعوة؛ العلم، التربية، الإعلام، السياسة...، يحتاج إلى بقية الميادين، فيمنع هذا التكامل التضارب، ويوزع الجهود على أساس الكفاءة العلمية والتخصص، فيتحول العمل الدعوي بذلك من ردود فعل عشوائية، إلى مشروع حضاري منظم، تتوزع فيه المهام وتتكامل الجهود بدل تكرارها.

وفي هذا الإطار نشير أيضاً، إلى أن الوحدة والتكامل تحقق سنة التداول الحضاري، فمن سنن الله في الاجتماع البشري، أن الأمم المتحدة فيما بينها، تستحق البقاء والسيادة، أما الأمم المتفرقة فمآلها الزوال والانهيار قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ آل عمران/105، فالأمة التي تضيّع الوحدة تضيع معها أسباب النصر، والدليل على ذلك أن "المسلمين كانوا لقمة سائغة سهلة في فم القياصرة، ثم تحولوا باتحادهم ووحدهم، إلى قوة أخذت على عاتقها تخليص البشرية من الظلم، فراحت تصدر للعالم الأمن، والأمان والطمأنينة، بعد أن غرقت في غياهب الروم والفرس والأحباش أزمنة الخوف والظلام والانكسار"²، لذلك فإن الوحدة الدعوية ليست فقط مطلباً دينياً، بل شرط حضاري لنهضة الأمة، فكل حركة تفقد تكاملها الداخلي تفقد فاعليتها الخارجية.

ومن نافلة القول التأكيد على أن الوحدة والتكامل مظهر من مظاهر التنظيم والتخطيط الدعوي، فالتنظيم الموحد من أبرز صور التمكين؛ لأنه يجعل العمل الدعوي مبنياً على المؤسسة لا الارتجال، فالوحدة التنظيمية تتيح ترشيد الجهود، وضبط الأولويات، وإن التكامل الوظيفي بين المؤسسات الدعوية، والعلمية والإعلامية، يؤدي إلى

¹ -رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاذهم، ج4، ص1999، رقم: 2586.

² - فوزي سمارة، بشائر النصر في القرآن والسنة، مؤسسة الطريق، عمان، ط1، 2006، ص 70-72.

انتشار الدعوة في كل الميادين بشكل متناسق، ومن ثمّ تصبح الأمة قادرة على مواجهة التحديات الفكرية، والثقافية من موقع القوة.

كما يمكن اعتبار هذه الوحدة والتكامل، شرط من شروط الإعداد الحضاري، لأن الإعداد لا يتحقق إلا بوحدة الجهود، وتكامل الوسائل، فإعداد القوة الفكرية، والعلمية، والإعلامية والتقنية، لا يمكن أن يتم بجهود فردية، ومن هنا تصبح الوحدة والتكامل؛ من أهم أشكال الإعداد العملي للمادي للتمكين الدعوي، وصفة هذه الوحدة والتكامل تكون "عن طريق تحقيق وحدة قلبية صادقة بين العاملين، ملؤها المحبة والمودة والتواصل، ووحدة فكرية واضحة الضوابط، يلتقون عليها ويتحاكمون إليها، فإن اتفقوا تعاونوا على تحقيق أهدافهم، وإن اختلفوا يعذّر بعضهم بعضا فيما يجوز فيه الخلاف"¹.

أضف إلى كل ما تقدم، فإن الوحدة والتكامل لها أثر كبير في ترسيخ القيادة الدعوية الراشدة، لأن الوحدة الداخلية تولّد الثقة بالقيادة، وتمنحها الشرعية الجماعية، مما يسهل اتخاذ القرار وتطبيق السنن العملية، أما التنازع فيضعف القيادة ويُفقد الدعوة قدرتها على التوجيه والإقناع، فالوحدة ليست فقط أداة تمكين، بل هي بيئة القيادة الراشدة، التي تحفظ العمل الدعوي من الانقسام، كما تعمل أيضا على مواجهة التحديات الخارجية، ففي زمن العولمة والتحديات الفكرية والسياسية، تحتاج الدعوة إلى جبهة موحّدة، قادرة على الدفاع عن قيم الإسلام بأساليب متكاملة، فالتكامل بين العلماء والمفكرين والإعلاميين والاقتصاديين والسياسيين؛ يجعل الرسالة الدعوية أكثر تأثيرا في الواقع.

وتأسيسا على ما سبق، فإن هذه الوحدة والتكامل بين الدعاة في تبليغ العمل الدعوي، من شأنه أن يولّد روح الجماعة والانتماء، مما يعزّز الصبر والثبات في مواجهة الصعاب، كما ينمّي التكامل روح المسؤولية المشتركة، فتقلّ بذلك ظاهرة الأنانية الدعوية، كما تهبّي الأجيال الدعوية على العمل الجماعي والتعاون، بدل الفردية والانغلاق، وإن غياب هذه الوحدة يؤدي إلى؛ تشتت الطاقات الدعوية وضياع الرسالة.

وفي الختام فإن الوحدة والتكامل من شرطان ماديان عمليان، لتحقيق سنن التمكين في العمل الدعوي، فحين تتوحد القلوب، وتناسق الجهود، ويتكامل الأداء، تتحقق في الأمة سنة الله في النصر والتمكين والاستخلاف الحضاري، وهذا الاستخلاف لا يتحقق إلا بأمة موحّدة في عقيدتها، متكاملة في مؤسساتها، عاملة بسنن الله في التمكين، والدعوة المعاصرة تحتاج إلى وحدة فكرية، وتكامل مؤسسي، وتنسيق عالمي لتستعيد

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 364.

مكانتها في التغيير الحضاري.

وخلاصة القول مما سبق بيانه، في شروط تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، تبين أن هذا التمكين يقتضي تكامل الشروط المعنوية والمادية، لأن التمكين وعد إلهي مشروط بالإيمان والعمل معاً، ومن أبرز النتائج المستخلصة ما يلي:

إنّ تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي يبدأ من بناء الجانب المعنوي في شخصية الداعية والفئة الحاملة للمشروع الدعوي.

- قوة الإيمان تمثل الأساس في تحريك الطاقات وبعث الهمة والثبات، إذ بالإيمان تتحقق الثقة بوعده الله والاطمئنان إلى نصره، والعقيدة الصحيحة هي الركيزة التي تُوجّه العمل الدعوي نحو التوحيد الخالص، وتمنح القائد حرية من التبعية لغير الله.

- العمل الصالح هو المظهر العملي للإيمان، وبه يستحق المؤمنون وعد الاستخلاص في الأرض، لأن الإيمان بلا عمل لا يُثمر تمكيناً. ومن أبرز شروط هذا العمل الصالح الإخلاص والنية الصادقة هما روح العمل الدعوي، وبدونهما يفقد الفعل الدعوي بركته وتأثيره، كما أن الصبر والثبات، من أعظم وسائل بلوغ التمكين.

- الصبر والثبات شرط لبلوغ النصر، فسنن الله تقتضي المرور بمرحلة الابتلاء والتمحيص قبل التمكين، ولا يثبت في طريق الدعوة إلا الصابرون، التقوى تجمع هذه المعاني كلها، فهي ضمان الاستقامة في السلوك، ومفتاح الرزق والنصر والتيسير، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من كل ضيق.

- إن هذه الشروط المعنوية تمثل الإطار الروحي والقيمي الذي يهيئ النفوس لاستحقاق سنن الله في النصر والاستخلاص، فلا تمكين بلا إيمان، ولا نصر بلا تقوى وصبر وعمل صالح.

- أما بالنسبة للشروط المادية العملية، فهي الوسائل الواقعية التي تترجم القيم الإيمانية إلى إنجازات ملموسة، فهي الجانب التطبيقي الذي به تُفعل السنن الإلهية في الواقع الدعوي.

- إن إعداد القوة الشاملة واجب شرعي وشرط عملي لقيام الدعوة بدورها الحضاري، ويشمل الإعداد الإيماني والعلمي والتنظيمي والإعلامي والاقتصادي، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/60.

- إنّ إعداد القيادة الواعية العاملة يمثل ركيزة أساسية للتمكين، لأن العلم والفكر الراشد؛ هما اللذان يوجهان

القوة نحو المقاصد الصحيحة.

-إنّ التربية الإيمانية تمثل الأساس في إعداد القيادة الدعوية المؤهلة، إذ تغرس الإخلاص، والصبر، واليقين، وتمنح العمل الدعوي روحه الربانية التي تحفظه من الانحراف.

-إنّ التربية العقلية والعلمية ضرورية لفهم الواقع، وإدارة العمل الدعوي، وفق فقه الأولويات والموازانات، مما يجعل المشروع الدعوي قادراً على التفاعل مع التحديات الفكرية والحضارية.

-إنّ التخطيط والتنظيم والإدارة الرشيدة تمثل المظهر العملي لتفعيل السنن الإلهية، إذ إن السنن لا تحامل من يهمل الأسباب، والعمل العشوائي لا يورث تمكيناً.

- إنّ الوحدة والتكامل من أعظم شروط التمكين، فالتنازع سبب الفشل وذهاب الريح، بينما التعاون والتنسيق المؤسسي يعززان الفاعلية الدعوية ويؤسسان للتمكين الجماعي.

-أنّ تحقيق التوازن بين الجانب المعنوي (الإيمان، العمل الصالح، الصبر) والجانب المادي (إعداد القوة، القيادة المؤهلة، الوحدة والتكامل) هو مفتاح النجاح في العمل الدعوي، فالإيمان يوجّه العمل، والعمل يترجم الإيمان إلى واقع.

-أنّ التمكين الدعوي لا يتحقق إلا ببناء الإنسان المؤمن العالم العامل، وإرساء العمل المؤسسي المتكامل، وترسيخ الوحدة الفكرية والتنظيمية، مع الالتزام بسنن الله في الإعداد والتغيير.

-وفي ضوء هذه المعاني يتضح لنا أن سنن التمكين ليست وعداً بلا شروط، بل هي قانون إلهي قائم على الإيمان الصادق، والعمل المنظم، "وتشكّل المقدرة على الجمع بين الإيمان العميق والفاعلية العملية معياراً حاسماً لاستحقاق وراثة الأرض، وفق السنن الإلهية التي تحكم حركة التاريخ، فالأمة التي توفق إلى التكامل بين هذين العنصرين تضمن تحقيق الوعد الرباني بالتمكين، في حين أن انفصام العروة بينهما يؤدي إلى اختلال الميزان الحضاري، وقد يفضي إلى تفوّق القوى المادية التي تُحسن توظيف الوسائل والإمكانات، ويحدث هذا الاختلال تحديداً عندما يفرغ الإيمان من مضمونه الفاعل، ويغدو شكلياً غير قادر على تحفيز العمل المنتج، أو دفع عجلة العمران، أو الاضطلاع بمتطلبات الخلافة التي استخلف الله عليها الإنسان. ومن ثمّ، فإن المخرج الوحيد لاستعادة الدور الحضاري يتمثل في إحياء الإيمان الحي الذي يثمر عملاً صالحاً، ويقود إلى النهوض بمسؤوليات الاستخلاف، مما يمهد لتحقيق وعد الله وجريان سنته في الأرض"¹.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2400.

المبحث الثاني: الأهداف العقدية والحضارية لتفعيل سنن التمكين:

إن معرفة الأهداف أمر مهم في الوجود، ذلك أن قيمة وواجهة كل فعل أو حركة مرهون بذلك الهدف المنشود، والغاية المراد تحقيقها، وكذلك سنن التمكين في العمل الدعوي، تعمل هي الأخرى على تحقيق جملة أهداف مرحلية عامة؛ هي الدعوة إلى الإسلام، وتطبيقه؛ عقيدة وشريعة وأخلاقاً، ولها أهداف خاصة مسطرة وواضحة، جمعتها وأشادت بها الآية القرآنية من سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41.

فهي أهداف كبرى تشير إلى غايات عظمى، تُحقق من قبل هذا الإنسان الخليفة، فهذه السنن لا تقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة، بل تمتد لتشمل الأبعاد العقدية التشريعية، الاجتماعية الحضارية، وتكامل هذه الأهداف في سياق العمل الدعوي المعاصر، سعياً لاستعادة مكانة الأمة، وتطبيق مبادئها السامية في جميع مناحي الحياة.

المطلب الأول: الأهداف العقدية والتشريعية:

تعد الأهداف العقدية والتشريعية حجر الزاوية في سنن التمكين، لأنها تركز على تعزيز العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتطبيق المبادئ الإلهية في جميع جوانب الحياة، فهي تهدف بذلك إلى بناء فرد؛ ذي عقيدة صافية، ومجتمع يطبق شرع الله تعالى.

تجدر الإشارة بداية إلى أنّ إقامة الحجة وتعزيز الإيمان، هي الغاية الكبرى من العمل الدعوي، أين يتم تبليغ رسالة الإسلام كاملة، ليكون كل إنسان على بَيِّنَةٍ من أمره، ويعرف حقيقة الإسلام، ولا يقتصر هذا التبليغ على إيصال المعلومات، بل العمل على تقوية الإيمان وترسيخ التوحيد في القلوب، وتنقية العقيدة من شوائب الشرك والبدع والخرافات في العصر المعاصر، ويعني ذلك مواجهة الشبهات الفكرية والعلمانية المنتشرة، وتقديم الإسلام كحل شامل لتحديات الحياة.

وتجدر الإشارة إلى أن تحكيم شرع الله تعالى، هو المقصد الثاني بعد معرفة حقيقة الإسلام، لأن التمكين لا يكتمل إلا بوصول الأمة إلى تطبيق شرع الله تعالى، في كافة المجالات؛ الاجتماعية، الأخلاقية، السياسية، الاقتصادية، ولعل إقامة الفروض الإسلامية، هي الركن الأساس في تحقيق التمكين العقدي والتشريعي.

1- إقامة الفروض:

تُعَدّ إقامة الفروض من المقاصد العقدية والتشريعية الكبرى، التي تقوم عليها سنن التمكين الإلهي، إذ أن التمكين في الأرض ليس غاية في ذاته، وإنما وسيلة لإقامة دين الله وتحقيق العبودية الخالصة له، فقد جعل الله سبحانه إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، علامةً فارقةً على تحقق التمكين الحق؛ إذ لا قيمة لسلطة أو سيادة ما لم تكن خادمةً للدين ومقيمةً لشرع الله في حياة الناس.

وفي هذا الإطار، فإن إقامة الفروض تمثل الغاية العقدية للتكليف الإلهي؛ لأنها تعبر عن إخلاص العبودية لله وحده، وتحرير الإنسان من عبودية الهوى والخلق، وهي الأساس الذي تُبنى عليه كل صور الإصلاح الدعوي والاجتماعي، وإن إقامة هذه الفروض ليست مجرد أداءٍ شكليٍّ للعبادات، بل هي إقامة منظومة إيمانية تشريعية تُصلح الفرد والمجتمع معاً؛ فإقامة الصلاة تربي الضمير وتزكي النفس، وإقامة الزكاة تحقق التكافل الاجتماعي، وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ نقاء المجتمع من الانحراف، وهذه كلها تمثل مرتكزات تمكينية، تُعين الدعوة على تحقيق مقاصدها، لأن "من بركة العبادة إذا أحسن العبد أدائها مظهرها وجوهاً، إنما تستخلص النفس البشرية من ترايبيتها، وتعمل على تركيتها وتطهيرها والسمو بها في معارج الكمال والربانية"¹.

فلا مناص من القول، أن التمكين الإلهي مرتبط بمقدار استجابة الأمة لهذه الفروض؛ فكلما أقامت الدين ظاهراً وباطناً، وفق منهج الله وشريعته، كان ذلك سبباً في دوام النصر والتأييد، فالآية القرآنية: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41، تُظهر أن التمكين وعدٌ مشروط بإقامة دين الله وتحقيق العمل الصالح، أي بإقامة الفروض والشرائع التي تترجم الإيمان إلى واقع حي، والملاحظ في تفسير الآية أنها بيّنت فعل أصحاب رسول الله ﷺ إذ نصرهم الله على أعدائهم" قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ"، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: "ربنا الله"، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتيناهم الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي"²، فلما قهروا مشركي مكة وغلبوهم وتمكّنوا عليهم؛ بإظهار دعوة الحق والجهر بها، كانت وجهتهم وقبلتهم بعدها إلى طاعة الله وعبادته بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقماشياً مع ما تم ذكره، فإن الدعوة المعاصرة حين تسعى إلى التمكين، من غير إقامة الدين في النفوس

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص188.

² - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج5، ص436.

والاجتمعات، تقع في خلل منهجي؛ لأن سنة الله لا تبدل ولا تحابي أحدًا، فالإعداد العقدي والتربوي للأفراد، الذي يجعلهم يقيمون الفروض طاعة لله، هو الأساس الذي يُبنى عليه كل تمكين اجتماعي أو سياسي أو حضاري لاحق، فيتبين أن إقامة الفروض تمثل الهدف المركزي للأهداف العقدية التشريعية، إذ بها تُصان هوية الأمة، وتحقق عبودية الله في الأرض، وتُستجلب سنن التمكين.

إن هذا الهدف المركزي يشكل غاية الوجود وجوهره، وأسمى مقاصد وأهداف الرسالات السماوية كافة، لأنها جاءت بجملة إرشادات، وتوجيهات على رأسها تحقيق التوحيد الخالص، الذي يُعد أول مقاصد التمكين، وأساس دعوة الأنبياء جميعًا، إذ لا تمكين بلا إخلاص العبودية لله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل/36، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء/25.

فالتوحيد هو الغاية العقدية الأولى التي تُبنى عليها الدعوة والتمكين، لأنه يحرّر الإنسان من عبودية الخلق والهوى، ويُعيد بناء التصور الإيماني الذي يُنتج القيادة الممكنة الراشدة¹، فهو جوهر العقيدة الإسلامية، فيه نبذ لكل مظاهر الشرك والوثنية، التي تُبعد الإنسان عن رسالته وأداء دوره الاستخلافي، وذلك للرقى به في مدارج العبادة على هذه الأرض.

وجدير بالذكر أن إقامة الفروض والشعائر؛ هي الترجمة العملية للإيمان، وعلامة على تحقق التمكين الإلهي؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41، فهذه الآية تُبين أن التمكين الحقيقي، إنما يُقاس بمدى إقامة الصلاة لسمو الروح، وإيتاء الزكاة لنشر التكافل الاجتماعي، والأمر بالمعروف لتحقيق الخير والرقى، والنهي عن المنكر لمكافحة الشر والفساد، قال سيد قطب: "يحقق الله النصر ويثبت الأمر للذين "أَقَامُوا الصَّلَاةَ" فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين، "وَأَتَوُا الزَّكَاةَ" فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاييج، وحققوا لهم صفة الجسم الحي، "وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ" فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس، "وَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ" فقاوموا الشر والفساد"¹

وتماشيا مع ما تم ذكره؛ فإن الداعية الذي يمكن الله له في دعوته، وجب عليه أن يدرك عظم وضرورة

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج 4، ص 2427-2428.

الأخذ بحظ وافر من التعبد، والتقرب إلى الله تعالى، بشتى أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، في تركية وصلاح نفسه أولاً وإصلاح غيره ثانياً، ولا يكون ذلك إلا بإقامة الفروض كما أمر الله تعالى، والإكثار من النوافل، والتبتل لله، وكذا الاشتغال بالأذكار والأوراد وتلاوة القرآن الكريم آناء الله وأطراف النهار.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية العبادة كغاية؛ بُعث وأُرسل لتحقيقها كافة الأنبياء والرسل، فهي " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهد للكفّار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك؛ من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك: من العبادة"¹.

وإنّه من جملة تلك العبادات المأمور بها حال التمكين، والتي يصبو إليها الداعية في العمل الدعوي، ما أرشدت إليه الآية القرآنية؛ من صلاة وزكاة في سورة الحج، إذ تمثّل فريضتنا "الصلاة والزكاة مظهرًا مركزيًا لصلّة العبد بربه من خلال امتثال ما افترضه الله تعالى عليه، كما تعكسان صلتته بالمجتمع عبر ما تحقّقانه من معاني التكافل والتضامن. فهاتان العبادتان تجمعان بين طاعة الله والإصلاح الاجتماعي، وتؤسسان لمنظومة أخلاقية تُبعد الفرد عن الرذائل، وتسهم في إزالة مظاهر الفساد. كما تربطان الإنسان بربه برابطة مستمرة لا تنقطع، تتجدّد في كل يوم وليلة، وبذلك تؤديان دورًا أساسيًا في بناء الشخصية المؤمنة والمجتمع الصالح"².

وعلى هذا الأساس، فإن التمكين يهدف في جوهره إلى تحقيق العبودية لله تعالى في جميع مجالات الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ فلا تمكين لمجتمع لم يُقم قيم الإيمان في كل شأن من شؤونه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام/162، فهذا المفهوم الشمولي للعبودية هو الذي يجعل التمكين وسيلة لإقامة الحق لا غاية للسلطة.

وفي الصفحات التالية سنعرض لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، باعتبارهما فريضتان تجسدان أهم معالم التمكين العقدي التشريعي في الإسلام، فهما الركيزتان اللتان يقوم عليهما بناء المجتمع المؤمن الممكّن، إذ ترتبطان بعقيدة التوحيد، وتُترجمانها إلى واقع عملي يُجسّد الخضوع لله في شؤون الحياة كلها.

¹ - عبد الحليم ابن تيمية، العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار الأصاله، الإسماعيلية، ط3، 1999، ص 19.

² - أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها..ومعالمها، مكتبة غريب، القاهرة، دط، دس، ص 196.

- إقامة الصلاة باعتبارها مظهرًا للعقيدة ومنطلقًا للتمكين:

الصلاة هي المظهر الأبرز لتمكن العقيدة في القلب؛ فهي الفريضة التي تُمثل الصلة الدائمة بين العبد وربّه، وهي التي تحفظ هوية المؤمن وتمنحه السكينة والاستقامة. وقد قرن الله تعالى بين الإيمان وإقام الصلاة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ المؤمنون/1-2، وإن إقامة الصلاة في سياق التمكين، تعني تحويلها من مجرد شعيرة فردية، إلى نظام قيم يوجّه الحياة العامة نحو الطاعة والانضباط؛ فهي مدرسة للتركية والقيادة والالتزام، لأنها "تُسهّم في ترسيخ القيم الأخلاقية وتطهير السلوك الفردي والجماعي، حيث تعمل على اجتثاث الأفعال المنحرفة والممارسات المنكرة، ويؤدي انتشار الالتزام الديني إلى تحوّل مجتمعي يتميز بسموّ القيم وعلوّ صوت الحق، وارتفاع راية التوحيد في مختلف المجالات، وعندما يتوحد المجتمع حول الشعارات الإيمانية مثل "الله أكبر"، تتحول هذه الوحدة إلى قوة متماسكة تذوب فيها الفوارق، وتتغزّز فيها القدرة على مواجهة التحديات دون خوف أو تردد، مما يحقق المنفعة الاجتماعية والاستقرار الحضاري"¹.

كما أن إقامة الصلاة في الأمة هي مقياس لمدى حضور الدين في المجتمع، ولذلك كان أول ما يُنظر إليه في حال الأمم هو مدى تمسكها بهذه الشعيرة الجامعة. وهي في السياق الدعوي ركيزة في تربية الدعاة والقيادات على الانضباط والإخلاص، فمن ضيّع الصلاة وأهمّلها فهو لما سواها أضيع، وبها يكتمل البناء الروحي للقيادة الممكنة، التي تستمد قوتها من صلتها بالله تعالى.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فقد كانت أولى العبادات فرضية؛ هي إقامة فريضة الصلاة، صلة ولقاء بين العبد في الأرض والرب في السماء، زاد لا ينفد، وباب لا يُغلق قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة/186.

فالصلاة تعرّف في اللغة بأنها "الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة/103.

شرعا: هي قرينة فعلية ذات إحرام وسلام، وسجود وركوع.²

وباستحضار النموذج النبوي؛ نجد الأمر الرباني للرسول ﷺ، والإرشاد الإلهي نحو الإعداد والتزود

¹ - أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها... ومعالها، مرجع سابق، ص 195-196

² - الحبيب بن طاهر، فقه الصلاة على المذهب المالكي، مؤسسة بن عاشور، تونس، دط، دس، ص 79

بالبطاعات والعبادات، لحمل أعباء الدعوة والتمكين لها، في بداية الرسالة، فقال الله تعالى مخاطباً نبيه محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ المزمّل/1-5.

وبما لا يدع مجالاً للشك فإن التمكين العقدي، يحتاج إلى هذا الزاد العظيم والجهد الكبير، لضمان استمراره " فقيام الليل في وقت ينام فيه الناس، والابتعاد عن صخب الحياة اليومية وشواغلها، والاتصال بالله تعالى اتصالاً خالصاً، يفتح للعبد أبواب الفيض الإلهي والنور الرباني، ففي لحظات الخلوة والسكون، حين يُرَتَّل القرآن والكون من حوله هادئ ساكن، تبدو الآيات كأنها تنزل من الملاء الأعلى، وتتردد أصدائها في جنبات الوجود، ليغدو القلب أكثر قابلية لتلقي إشرافاتها وإحياءاتها، ويُعدّد هذا المقام الروحي زاداً أساسياً لتحمل «القول الثقيل» الذي كُلِّف به الرسول ﷺ، ولكل من يحمل رسالة الدعوة عبر الأجيال؛ إذ يمنح القلب نوراً يهديه في الطريق الشاق الطويل، ويحصّنه من وساوس الشيطان، ويجنبه الضلال وسط الظلمات التي قد تكتنف مسيرة الدعوة"¹

وتأسيساً على ما تقدم، يمكن القول أنّ إقامة الصلاة؛ من أعظم الشعائر التي بها يقوم الدين، وتُستجلب نُصرة الله وتمكينه لعباده المؤمنين، فهي ليست مجرد عبادة فردية، بل هي مظهر عقدي وتشريعي وسلوكي، يعكس مدى تحقق الإيمان في واقع الأم، ومن هنا كانت إقامة الصلاة؛ من المقاصد العليا في سنن التمكين، إذ لا يتحقق النصر والتمكين إلا بقيام الأمة على أسس العقيدة الصحيحة، والعبودية الخالصة لله، وفي مقدمتها إقامة الصلاة.

إن البعد العقدي لإقامة الصلاة، يظهر من خلال كونها ترجمة عملية لشهادة التوحيد، فهي إعلان متجدد للعبودية لله وحده لا شريك له، وخضوع له في كل يوم وليلة، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه/14، فالأمر بالصلاة جاء بعد تقرير التوحيد مباشرة، مما يدل على ارتباطها الوثيق بالعقيدة، أما البعد التشريعي لإقامة الصلاة، فيتضح من خلال كونها أحد أركان الإسلام الخمسة التي يُبنى عليها الدين، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: " بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان"²، فهي تكليف جماعي وفردى في آن واحد، فإقامتها شعيرة مجتمعية تُظهر هوية الأمة الإسلامية وتحقق تماسكها الروحي والاجتماعي.

وإن المتأمل في دعوة كل الأنبياء والرسل السابقين، ممن بعثوا قبل خاتم النبيين محمد ﷺ، يلاحظ تركيزهم في دعوة أقوامهم وأهلهم إلى الصلاة؛ فهي عماد التمكين وأساسه، ومقصد تشترك فيه كافة الشرائع السماوية، لذا وجب الحرص عليها وإقامتها، لأن في ذلك إقامة للإيمان والإسلام والدين كله، قال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام:

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص3745.

² - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم، ج1، ص11، رقم8.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ إبراهيم/40، ووصف فعل إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ مريم/55، وأمر الله بها نبيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه/14، ووصف الله عبده زكريا بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ﴾ آل عمران/39، ولقمان عليه السلام يوصي بها ابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لقمان/17، فقد نادى كل الأنبياء والرسل وهم صفوة الدعاة بدعوة الصلاة، لأنها قاعدة التوحيد وأساس في صلاح النفس أولاً، ثم صلاح المجتمع وتغييره ثانياً.

كذلك أمر التمكين شرطه الطاعة والعبادة، ولضمان استمرار هذا التمكين وتواصل حلقاته، جاء الأمر بإقامة الصلاة، ففي الآية السابقة 41 من سورة الحج، إشارة وتأكيد على "أن وعد الله للمسلمين بالاستخلاص والتمكين ليس مطلقاً، وإنما هو مقيد ومشروط، وأنه لن يتحقق إلا للمسلمين الصالحين، المنقذين لأوامر الله، ودليل ذلك أنه تحقق للمسلمين السابقين، الملتزمين بشرع الله، وسيأتي مسلمون قادمون صادقون ملتزمون، ينالون موعود الله".¹

وفي هذا الإطار فإن إقامة الصلاة بمثابة مدخل لتحقيق سنن التمكين، كيف لا؟ وإن إقامة الصلاة علامة على الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النور/55-56، فالآية تربط بين الإيمان العملي وإقامة الدين، وإقامة الصلاة من أبرز صور العمل الصالح الذي هو شرط التمكين.

أضف إلى ذلك فإن إقامة الصلاة تحقق سنة الإصلاح الداخلي قبل الخارجي، فلا يمكن للأمة أن تحقق التمكين الواقعي، وهي مقصورة في إقامة الفروض، فالصلاة تصلح القلب والسلوك، ومن ثم تصلح المجتمع، فهي المحرك الداخلي لبناء الإنسان الممكن القادر على حمل أعباء الدعوة، لأنها تبني علاقة العبد بربه، فتزيده صلة بخالقه؛ ليعيش في راحة وطمأنينة واستقرار نفسي عميق، "فإقامة الصلاة توثق العلاقة بين العبد وربّه، فييسّر له دوام التمكين ويمن عليه باستمراره، ولو عاش العبد فقه الصلاة لعاش فقه العلاقة بينه وبين ربه، وساعتها تدوم عليه نعمة التمكين والاستقرار"²، تظهر فيه صور الشكر لموجد هذا التمكين ومصدره.

1 - صلاح الخالدي، وعود القرآن بالتمكين للإسلام، منبر التوحيد والجهاد، دط، دس، ص 189

2 - رمضان خيس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 68.

كما تحقّق الصلاة أيضا سنة الطاعة والاتباع، إقامة الصلاة تعبير عن الطاعة المطلقة لله ولرسوله، وهي مظهر من مظاهر تحقيق العبودية .وبقدر ما يتحقق في الأمة من طاعة واتباع، يكون نصيبها من النصر والتمكين. ولا يفوتنا أن ننوّه أيضا، بجملة من التجليات الدعوية المعاصرة لإقامة الصلاة، إذ تُسهم أولا في بناء الشخصية الدعوية، لأن الداعية الذي يحافظ على صلاته يعيش في صلة دائمة بربه، فيستمد قوته الروحية وثباته الدعوي منها، وهي مصدر طاقة إيمانية تقيه الانحراف والضعف أمام التحديات الفكرية والإعلامي، كما يظهر تأثيرها ثانيا في المجتمع الدعوي، لأن إقامة الصلاة جماعةً تُجسّد وحدة الصف الدعوي، وتبني الروابط الأخوية التي هي أساس التمكين الاجتماعي، كما تُعدّ وسيلة تربوية جماعية، لغرس القيم الإسلامية في الأجيال، كما يجب أن تعود الصلاة إلى مركز الخطاب الدعوي، ليس بوصفها شعيرة شكلية، بل باعتبارها منهج حياة يُصلح الفرد والمجتمع، ومن التجليات العملية لذلك؛ تفعيل دور المساجد كمراكز تربية وتمكين، وغرس مفهوم إقامة الصلاة في المناهج التربوية والدعوية، وربط القضايا المعاصرة بقيم الصلاة مثل الانضباط والطهارة والصلة بالله وختاما يمكن القول أنّ نتائج ومقاصد الصلاة التمكينية، تتمثل في تحقيق الاستقامة الفردية التي تُثمر الاستقامة الجماعية، مع ترسيخ الهوية الإيمانية للأمة في مواجهة الدوبان الحضاري، وكذلك تحقيق الاتصال المستمر بالله تعالى، الذي يمد العاملين في الدعوة بالقوة والثبات، فإقامة الصلاة في الأمة علامة على نضجها العقدي واستحقاقها لسنن التمكين

-إيتاء الزكاة باعتبارها نظامًا تشريعيًا لتحقيق العدل الاجتماعي:

أمّا الزكاة فهي الوجه الاقتصادي للتمكين العقدي، إذ تُترجم الخضوع لله في ميدان المال، وتُظهر أن السيادة في النظام الإسلامي لله وحده لا للمال ولا للهوى، وقد جعلها القرآن الكريم قرينة الصلاة، في أكثر من موضع، للدلالة على وحدة الإيمان والسلوك الاجتماعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ البقرة/43.

فإيتاء الزكاة من أهم مظاهر العبودية المالية التي تعبّر عن صدق الإيمان، ورسوخ العقيدة في قلب المسلم، إذ تمثل الزكاة بُعدًا تشريعيًا ذا أثر عقدي، واجتماعي واقتصادي، لأنها تمثل ركيزة في تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وتوازن العلاقات بين طبقات المجتمع، فهي تُعيد توزيع الثروة بما يضمن التكافل، وتُحرّر النفوس من الشحّ والطمع، وتربط بين عبادة الله وخدمة الإنسان، فالزكاة في مفهومها التمكيني ليست مجرد إخراج للمال، بل هي وسيلة لإقامة مجتمع مؤمن متكافل، يقوم على مبدأ العبودية لله في المال كما في الروح، وهي أيضًا شرط في

استمرار التمكين.

وفي المقابل فإنّ الشح داء عظيم، جاءت الزكاة لمداواته تعبيدا لطريق التمكين، لأن الإسلام من خلال دعوته يريد تربية النفوس، وتهذيبها وزرع حب الخير، وقيم البذل والعطاء، حتى تتخلق بأخلاق الله، " فالإنسان إذا تطهر من الشح والبخل، واعتاد البذل والعطاء، ارتقى من حضيض الشح الإنساني، واقترب من أفق الكمالات الربانية، فإن من صفات الحق تبارك وتعالى؛ إفاضة الخير والرحمة، والجود والإحسان دون نفع يعود عليه تعالى، والسعي في تحصيل هذه الصفات بقدر الطاقة البشرية تخلق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية"¹

ـ التلازم بين إقامة الصلاة والزكاة في تحقيق التمكين الدعوي:

إن اجتماع هاتين الفريضتين في نصوص الوحي يدل على تكاملهما في بناء الأمة؛ فالصلاة تُزكي النفوس، والزكاة تُزكي الأموال، وكلاهما يحقق الاستقامة الفردية والاجتماعية، والتمكين في مفهومه الدعوي؛ لا يتحقق إلا بتربية الأفراد والمجتمعات، على هذا التوازن بين العبادة والمعاملة، بين حق الله وحق الخلق، وهو ما يُنشئ النموذج الحضاري المتكامل للأمة الممكّنة.

وقبل الخوض في الحديث عن إقامة فرض الزكاة، باعتباره ثاني الأهداف العقدية، والتشريعية لسنن التمكين في الدعوة إلى الله تعالى، والتي نصت عليها الآية القرآنية: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41، تجدر الإشارة إلى مدى التلازم الوثيق؛ الذي يجمع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة في ثنايا القرآن الكريم بصفة عامة، باعتبارهما ركنين عظيمين من أركان الإسلام، ويشكلان دعامة أساسية من دعائم التمكين.

ومن أمثلة هذا التلازم الوارد في كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ البقرة/43، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ البقرة/277، وجاء في موضع آخر: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء/162، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ المائدة/12 وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التوبة/71، وغيرها من الآيات.

¹ - يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1973، ج2، ص862.

فتجدر الإشارة إلى أنّ "الزكاة قُرنَت بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعاً، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما، ثم إنّ ذكر الصلاة في كثير من الآيات يجيء مقروناً بالإيمان أولاً، وبالزكاة ثانياً، وقد يقرن الثلاثة بالعمل الصالح، وهو ترتيب منطقي، فالإيمان أساسٌ وهو عمل القلب، والعمل الصالح من حيث الجملة دليل صدق الإيمان، وهو عمل الحس، وأول عمل يطالب به المؤمن الصلاة، وهي عبادة بدنية، ثمّ الزكاة وهي عبادة مالية"¹.

وبناء على ما سبق، فإن إيتاء الزكاة مظهر تتجسد فيه أسمى وأقوى معاني التمكين، للدين وللدولة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي شاهد على ذلك، فلما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة الإسلامية، وظهر مانعو الزكاة قال: (والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها)².

ومن هذا المنطلق فإن إقامة الزكاة، تمثل غاية عقدية وتشريعية في مشروع التمكين الدعوي المعاصر، إذ لا يمكن الحديث عن نهوضٍ دعوي أو حضاري، دون أن يكون لها حضورٌ فعلي في الواقع، فكل مشروع لا يُقيم فريضة الزكاة، التي تحقق العدالة الاجتماعية، فهو تمكينٌ ناقصٌ فاقدٌ لروحه الإيمانية.

ولعله من المفيد الإشارة للبعد العقدي لإيتاء الزكاة، الذي يتمثل في كونها أيضاً؛ تجسّد مظاهراً من مظاهر التوحيد والعبودية، لأنها إعلان عن مصدر هذا المال؛ فهو مُلك لله تعالى، وأن الإنسان مستخلف فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ النور/33، وهذا يؤكد أن إخراج الزكاة طاعة لله، لا مئة فيها للبعد، بل خضوع لمقتضى العبودية، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ الحديد/7. فالمال مال الله تعالى، والإنسان مستخلف عليه في هذه الأرض، ومأمور ببذله وإعطائه للغير بحكم الزكاة.

أضف إلى ذلك، فإن الزكاة اختبار لعقيدة العبد في القدر والرزق، فهي برهان على الثقة بوعده الله، والتجرد من التعلّق المادي.

ومما لا شك فيه، فإن البعد التشريعي والاجتماعي لإيتاء الزكاة، يظهر من خلال كونها نظام مالي تشريعي متكامل، شرعها الله لتنظيم الثروة وتوزيعها، وتحقيق العدالة الاجتماعية، ومنع التكسب المالي، فالزكاة ليست مجرد عبادة مالية، بل تشريع يرمي إلى تحقيق التكافل الاقتصادي والاجتماعي، زد على ذلك فالزكاة وسيلة لتقوية البنية المجتمعية، فتعيد التوازن بين طبقات المجتمع الواحد، وتغرس روح التكافل والتراحم، مما يُعزز وحدة الأمة، وهي

¹ - حمد بن حمدي الصاعدي، دعائم التمكين، المكتبة الشاملة، ص80.

² - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، ج 2، ص105، رقم1399.

شرط أساسي من شروط التمكين، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ التوبة/103، "ففي إيتائها تطهير المال من حق الفقير الذي وجب فيه، وتطهير لنفس الغني من آفة الشح ورذيلة البخل، وتطهير لنفس الفقير من الحقد والكراهية"¹ فهي طهارة للنفس، وتربية لها على حب الغير، وغرس معاني البذل والعطاء، مع الرحمة والشفقة بالآخرين، وتركيز للمجتمع.

ومن زاوية أخرى فإن للزكاة بالغ الأثر في تحقيق إنسانية الفقراء وبيان كرامتهم، ببذل العطاء لهم حتى يكونوا أعضاء فاعلين، وأفراداً ناجحين مؤثرين في المجتمع وهذا هو هدف التمكين، الذي يسمو لبناء شخصيات تتمتع وتعيش بكل كرامة، فتقوم بكل الواجبات وتمارس كافة الحقوق، وإن هذه الكرامة حق مكفول لكل إنسان بصفته فقط إنسان، ومصدر ذلك هو الله تعالى الذي قال في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء/70، فلا يجوز لأي فرد من الأغنياء أن ينتقص أو يمس بكرامة أي فرد من الفقراء، فيذله ويهينه أو ينتقص من حقوقه وحرياته، فكما يجب الإنسان العيش الكريم لنفسه، فهو لغيره أولى وأحق، مصداقاً لقوله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)².

وعلى هذا الأساس، تعتبر الزكاة تعبيراً عملياً عن الكرامة الإنسانية، التي يُراد تحقيقها عند التمكين، وهي ارتفاع بالإنسان من دركات المادة إلى درجات الحرية والاستخلاف التي من أجلها خلقه الله، وهذا ما أشار إليه الطيب برغوث بقوله أن: "الإنسان بما زوده الله من استعدادات فذة، وحباه به من تكريم وتفضيل، تأهل ليحتل مركزاً عظيماً في الوجود، يمنحه مقام الصدارة والسيادة في الأرض، وجعله خليفة يسخر مكنوناتها، ويستمتع بخيراتهما، طاعة لله وشكراً له، واضطالعا بهذه الأمانة العظيمة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن تحملها، وحملها الإنسان"³ وفي هذا الإطار فإن إيتاء الزكاة، بمثابة ركيزة لتحقيق سنن التمكين، كيف لا؟ وإن إيتاء الزكاة علامة على الإيمان والعمل الصالح، وهما كما أكدنا آنفاً من أبرز شروط التمكين؛ الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، والزكاة من أعظم الأعمال الصالحة التي تظهر صدق الإيمان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الحج/41.

¹ - أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها... ومعالمها، مرجع سابق، ص196.

² - رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ج1، ص12، رقم:13.

³ - الطيب برغوث، منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، مرجع سابق، ص264.

فالزكاة شرط في استحقاق التمكين بعد الاستخلاف، وهذا ما أشار إليه رمضان خميس الغريب، بقوله: "والفقير يشعر بكفالة المجتمع الذي يعيش فيه، إذ يشعر بوجود مجتمع يتولى رعايته ويقف إلى جانبه في مواجهة الفقر وشدة الحاجة، فلا يُترك فريسة للعوز أو الانعزال، فالمجتمع المتضامن يعزز أفرادَه، ويمدّهم بأسباب القوة، ويوجههم نحو مسارات الكفاية والاستغناء، ومع شيوع هذه الروح في الوسط الاجتماعي، تسود الطمأنينة ويترسخ الإحساس بالأمان، وهما أساسان يولّدان روح المبادرة والإقدام، ونتيجة لذلك تتماسك قوى الأمة، ويشتد عودها، وتعلو مكانتها بين الأمم، فيستقر تمكينها، ويثبت أمنها، وتنتهي لها الظروف المثلى لحمل رسالة الله وبثّها في الأرض وفق منهجه القويم"¹.

أضف إلى ذلك فإن إيتاء الزكاة تحقق سنة العدل الاجتماعي، فلا تمكين لأمة يسودها الفقر والظلم الاقتصادي، والزكاة هي الأداة الربانية لضمان العدل المالي، والتوازن الاجتماعي، وبها يُرفع الحقد الطبقي، وتُبنى الثقة المتبادلة بين أبناء المجتمع المسلم، فإيتاء الزكاة لمستحقيها سلاح عظيم؛ لمحاربة الفقر والتسول، فتؤدي بذلك إلى زوال الطبقة بين الناس، ما يعني بذلك زوال التفرقة والتمييز بينهم، وتحقيق المساواة بين المسلمين، لأن إخراجها هو إعادة توزيع للمال، والثروة بشكل عادل.

وفي الأخير فإن إيتاء فريضة الزكاة، يولّد سنة البركة والنماء، قال تعالى: ﴿يَمَحِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾ البقرة/276، فإيتاء الزكاة يجلب البركة والنماء في المال والمجتمع، وهو من أسباب دوام النصر والتمكين، وبما لا يدع مجالاً للشك فإن "النقص الظاهري عند إخراج الزكاة، وراءه زيادة حقيقية؛ زيادة في مال المجموع، وزيادة في مال الغني نفسه، فإن هذا الجزء القليل الذي يدفعه يعود عليه أضعافه، من حيث يدري أو لا يدري... والله يؤتي من فضله ما يشاء لمن يشاء"².

ولا يفوتنا أن ننوّه أيضاً، بجملة من التجليات الدعوية المعاصرة لإيتاء الزكاة، إذ تُسهم أولاً في بناء الشخصية الدعوية، لأن الداعية الذي يحرص على إخراج الزكاة، يكون قدوة في الصدق والإيثار، ويجسد معاني التضحية والبذل في سبيل الله، مما يجعله ذلك عبداً مخلصاً لله، متحرراً من سلطان المال، كما يجب على الدعوة المعاصرة أن تُعيد للزكاة مركزها في الخطاب الدعوي، بوصفها وسيلة لإصلاح النظام المالي والأخلاقي للأمة.

ويمكن تفعيل ذلك من خلال؛ نشر الوعي بأحكام الزكاة ومقاصدها وربطها بالمشروعات التنموية الدعوية استخدام مؤسسات الزكاة في دعم العمل الدعوي والاجتماعي

¹ - رمضان خميس الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 68-69.

² - يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، مرجع سابق، ج 2، ص 870-871.

وختاماً يمكن القول أنّ نتائج ومقاصد الزكاة التمكينية، تتمثل في ترسيخ الإيمان والتجرد من المادية، وكذا تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى تمتين الروابط الأخوية والتكافل داخل الأمة، مع استجلاب البركة والزيادة في الموارد، والمساهمة في إعداد قاعدة مالية صلبة، تدعم مشاريع التمكين والدعوة

وخلاصة القول مما سبق، يتبين لنا أن إيتاء الزكاة فريضة ذات بعد عقدي وتشريعي واجتماعي، تجمع بين عبودية القلب وعدالة التشريع، وبين الطهارة الفردية والإصلاح المجتمعي، فهي وسيلة لتزكية النفوس، وتطهير الأموال، وتقوية الروابط الاجتماعية، التي تمهد للتمكين الإيماني والحضاري للأمة، وحين تُؤدى الزكاة حق أدائها، يُرفع البلاء، وتُفتح أبواب النصر والتمكين كما وعد الله تعالى عباده المصلحين.

وبالتالي يتبين لنا أن إيتاء الزكاة، مظهر عظيم من مظاهر التمكين لدين الله، فبناء دولة الإسلام القوية الظاهرة، في شتى المجالات بين باقي الأمم، مطلب لا يتحقق بإقامة عبادة دون أخرى، أو في ظل التخيير بين ركن وآخر، لأن عاقبة ذلك سقوط الهيبة، وزوال الهيمنة التي تعني غياب التمكين.

ومجمل القول في الأهداف العقدية التشريعية السابقة، هو أن هذه الأهداف تمثل البنية التحتية للتمكين الدعوي، إذ بدونها يفقد العمل الدعوي روحه ومرجعيته، ويغدو تمكيناً مادياً بلا مضمونٍ إيماني. فالتمكين سنّة ربانية لا تُستجلب إلا بتحقيق الإيمان والعمل الصالح، وإقامة الدين بفرائضه؛ في القلوب والمجتمعات ومن هذه الفروض؛ إقامة فرض الصلاة، كمظهر عقدي ومنطلق للتمكين، وكذلك إيتاء الزكاة كنظام تشريعي لتحقيق العدل الاجتماعي.

-المطلب الثاني: الأهداف الاجتماعية والحضارية :

تُعَدّ سنن التمكين من القوانين الإلهية التي تضبط مسيرة المجتمعات في التاريخ، وتبين الأسباب الحقيقية لنهضة الأمم وسقوطها، وهي سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/ 62، ويُقصد بسنن التمكين تلك القوانين الربانية التي تُمهّد للمؤمنين سبل النصر والاستخلاف، متى ما التزموا بشرائط الإيمان، والعمل الصالح والإصلاح الاجتماعي، وإذا كانت الأهداف العقدية والتشريعية تشكل الجذر الإيماني لهذا التمكين، فإن الأهداف الاجتماعية والحضارية تمثل ثماره الواقعية في حياة الأمة؛ إذ تُترجم القيم الإيمانية إلى واقع إنساني راقٍ، يعبر عن نضج المجتمع المسلم في تعامله مع ذاته ومع الآخر.

وتجدر الإشارة بداية إلى أن الأهداف الاجتماعية، هي المقاصد التي تتجه إلى إصلاح المجتمع، وبناءه على قيم العدل والتكافل والتركية، بما يهيئ بيئة صالحة لقيام الدين، واستمرار الدعوة، أما الأهداف الحضارية فهي الغايات التي ترمي إلى بناء الإنسان؛ القادر على الإسهام في نهضة الأمة، وإقامة الشهود الحضاري، وفق قيم الإسلام ومقوماته الروحية والمعرفية والعمرانية، وبالتالي فالتمكين الاجتماعي والحضاري هو مظهر من مظاهر التمكين الشامل، الذي وعد الله به المؤمنين العاملين بمنهجه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41.

وتمشيا مع ما تم ذكره، فإن أهداف سنن التمكين الاجتماعية والحضارية عديدة؛ منها تحقيق العدل الاجتماعي، الذي يُعدّ من أعظم مقاصد الإسلام، وأحد أبرز معايير التمكين، فلا يُمكن الله لأمة يشيع فيها الظلم أو الفساد. وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ النحل/90، فالعدل

الاجتماعي من أهم سنن التمكين، إذ به تصان الحقوق وتُحفظ الكرامة الإنسانية، هو حجر الزاوية في بناء المجتمع المتناسك، إذ يحقق المساواة بين أفرادها، ويمنع احتكار الثروة أو السلطة، ويجعل الولاء للحق لا للأشخاص أو الفئات، والدعوة المعاصرة مطالبة بإحياء قيم العدل والمساواة، وإزالة مظاهر الظلم الاجتماعي والتمييز.

أضف إلى ذلك، فإن ترسيخ مبدأ التكافل والتضامن والتراحم، واحد من أبرز الأهداف الاجتماعية لسنن التمكين، حيث تسعى لإقامة مجتمع متعاون متراحم، تسوده الأخوة الإنسانية والروابط الإيمانية، فالتكافل قيمة تمكينية، تُسهّم في تحقيق الأمن الاجتماعي، وتمنع التفكك الطبقي، الذي يقود إلى الضعف والانقسام.

ولا يفوتنا أن ننوّه بهدف محوري، مفاده بناء الإنسان الحضاري، فمن أهم مقاصد التمكين إعداد الإنسان المؤمن؛ الذي يجمع بين العبادة والعمران، وبين القيم والإنجاز، لأن الحضارة الإسلامية قامت أولاً على بناء الإنسان الصالح قبل بناء المؤسسات، فالتمكين الحقيقي يبدأ ببناء الإنسان الذي يعي رسالته ويؤدي دوره في عمارة الأرض، والدعوة المعاصرة مدعوة لتكوين الشخصية المسلمة، المتوازنة والقادرة على التغيير والبناء.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ إحياء القيم الأخلاقية والاجتماعية، هي العمود الفقري لسنن التمكين وبناء الحضارة، ومن دونها ينهار أي تمكين، ومن أبرز هذه القيم؛ الأمانة والصدق والإحسان والمسؤولية، فهي التي تحفظ للمجتمع تماسكه وتُعطي مكانته بين الأمم، والعمل الدعوي في هذا المجال يعتبر تجسيدا لسنة الإصلاح الاجتماعي، وانتشار هذه القيم يُسهّم في تحقيق هدف الأمن والاستقرار، فلا يمكن أن يتحقق التمكين في أجواء الخوف أو الاضطراب، لأن الأمن شرط أساسي لبناء الحضارات. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام/82، فالأمن الاجتماعي والسياسي، والاقتصادي هو أحد مظاهر التمكين في الأرض.

وتأسيساً على ما سبق، فإن تفعيل هذه الأهداف الاجتماعية والحضارية، يخلف آثاراً على تمكين العمل الدعوي، حيث يتحقق التوازن بين الإيمان والعمل، فالدعوة تصبح أكثر واقعية وفاعلية، عندما تُترجم القيم الإيمانية إلى مشروعات اجتماعية ملموسة، كما تعزز مصداقية الدعوة في المجتمع، إذ يصبح الداعية قدوةً عملية في الإصلاح والبناء، ويتحصن المجتمع من الفتن والانقسامات، من خلال إشاعة روح التعاون والتكافل، زد على ذلك إرساء دعائم حضارة راشدة، قائمة على الأخلاق والعلم والعدالة الاجتماعية.

وبعد هذه النظرة الشاملة لجملة الأهداف الاجتماعية والحضارية لسنن التمكين، نقف على أبرز مظهر وأعظم شعيرة، من شعائر الإسلام، والتي تمثل ركناً من أركان الإصلاح الاجتماعي والحضاري في الأمة، وتعتبر آلية تُترجم قيم الدين إلى واقع حي، فتربط بين الإيمان والعمل، وبين العقيدة والسلوك، إنها شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تعتبر هدفاً اجتماعياً حضارياً لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، باعتباره أداةً إصلاحية تُعالج الانحراف، وتُعيد للمجتمع توازنه الحضاري والأخلاقي، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران/110، " فظاهر من تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في الآية على الإيمان بالله الذي لا يتقدم عليه شيء في هذا الدين، أن لهذا الأمر أهميته القصوى في ميزان الإسلام، بل كأنما يُراد أن يُقال في الحقيقة، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخلاصة الحقيقية، أو الترجمة الحقيقية لهذا الدين في عالم الواقع، فهو الأداة لبشرية التي اختارها الله لتمكين الحق وإزهاق الباطل، وتغيير المنكر وإقامة حياة الناس في الأرض بالقسط"¹.

وكما أكدنا آنفاً، أنّ من شروط التمكين للدعوة الإسلامية؛ العمل الصالح، فمن الأهمية بمكان على الدعاة خاصة، وهم ورثة الأنبياء والرسل؛ ممارسة العمل الصالح في دعوتهم، ومن جملة هذه الأعمال الصالحة التي يسمو إليها الداعية في عمله الدعوي، كما أشرنا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد صرّحت الآيات القرآنية بهذه الشعيرة؛ كواحدة من أهداف التمكين الاجتماعي الحضاري، قول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج/41 فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مجرد واجبٍ فردي، بل هو منهج حضاري شامل لإصلاح المجتمع، وإقامة قيم

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص102.

العدالة والكرامة والوسطية.

ومما لا شك فيه، فإن أمر الدعوة إلى الله تعالى، ملازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لشدة الترابط بينهما لأن "العلاقة بين الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علاقة وثيقة، وإن الارتباط بينهما ارتباط قويّ، فكلاهما وجهان لشيء واحد، هو الإسلام، فالدعوة إلى الله حثّ الناس على الدخول في دين الله طوعاً، والإيمان بشرائعه، وتطبيقها اعتقاداً وقولاً وعملاً ظاهراً وباطناً"¹، فيكون بذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحدى الوسائل والأساليب التي يستعين بها الداعية لتمكين الإسلام في النفوس وتطبيقه في السلوك، "فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أعظم وسائل الدعوة إلى الله، وبدونه تتجمد الدعوة، وتنسحب من ميادين الحياة، كما حدث للأديان الأخرى، وهو صمام أمن المجتمعات الإسلامية، وبتعطيله والتفاعس عنه يضمحل الدين ويضعف في قلوب العباد، وتعم الفتن، وتموت الفضائل وتنتشر الرذائل ويستشري الفساد في الأرض".²

فهي تفيد بذلك وجوب تطبيقها داخل المجتمع المسلم، باعتبارها صمام الأمان له، ومؤشراً دالاً على بلوغ حال التمكين واستمراره، بنشر مبادئ الإسلام وقيمه، لأن المعروف "اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر ما ينكر بهما"³، وجاء في تعريف هذه الشعيرة: "الأمر بالمعروف هو الإرشاد إلى المارشد المنجية، والنهي عن المنكر الزجر عما لا يلائم في الشريعة، وقيل الأمر بالمعروف: الدلالة على الخير، والنهي عن المنكر: المنع عن الشر، وقيل: الأمر بالمعروف إشارة إلى ما يرضي الله من أفعال العباد وأقوالهم، والنهي عن المنكر تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة وهو ما لا يجوز في دين الله تعالى".⁴

وانطلاقاً من هذه التعريفات "فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو الحارس الأمين الدائم الذي يراقب المجتمع المسلم، فيسد نوافذ الشر والبدع، حتى تصل إلى ذلك التجمع الذي مكّنه الله في الأرض، وأسبغ عليه نعمه وأنقذه من هوة الشرك إلى نور الإسلام، ومن الاضطراب والفرقة، إلى التماسك والوئام والمحبة، في الله ومن أجل الله... فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالسياج الواقي من الأشرار، والدرع الحامي من الأخطار، والمعالم الدائم الاستمرار، الحاث على خير الأعمال، الناهي عن قبح القول والأعمال"⁵.

¹ - جامعة المدينة العالمية، أصول الدعوة وطرقها، ج1، ص89.

² - المرجع نفسه، ص90.

³ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص331.

⁴ - الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص16.

⁵ - حمد بن حمدي الصاعدي، دعائم التمكين، المكتبة الشاملة، ص91-92.

أضف إلى ذلك، فالتعريفات تُظهر جليا الأهداف الاجتماعية الكبرى؛ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي في مجملها تسعى لتشكيل قوة هائلة، داخل المجتمع المسلم، وممكن السر في هذه القوة أن مصدرها وأصلها؛ يعود لقوة الإسلام وتعاليمه، وأهدافه الاستراتيجية التي تقف على كل نقاط الضعف، والخلل والانحراف المتواجدة في المجتمع، فتعمل على إصلاحها لتحقيق مستوى راق من الاستخلاف، على الأرض في شتى مجالات الحياة، الفردية والاجتماعية، الأسرية والثقافية السياسية والاقتصادية، وذلك للحفاظ على سلامة المجتمع، وحمايته من أهل الباطل والمنكر والفساد.

وإن من جملة الآثار التي تحقّقها؛ إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق الأخوة الإيمانية، والتكافل الاجتماعي، أين تنتشر معاني المحبة والمودة، والتأييد والنصرة بين المؤمنين، وتختفي كل مظاهر الحقد والعداوة والبغضاء، التي لا تزيد النفس إلا وجعا ومرضا، وهذا بدافع العقيدة الإيمانية، والرابطة الأخوية المباركة ثماؤها على الفرد والمجتمع، "فتنمية حب الإنسان لأخيه الإنسان المؤمن، قاعدة ترتكز عليها الحاسة الاجتماعية في الإنسان، ونلمح من هدي النبي ﷺ كيف آخى بين المهاجرين والأنصار في الله، أخوة سجلت في وثيقة مكتوبة، نقش في قلب كل مؤمن، حتى بلغ بهم الحال أنهم كانوا يتوارثون بمقتضى هذه الأخوة، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنفال/ 75¹ فالمؤمنون متعاونون يأمرون أهلهم وأقاربهم وأحبّتهم وإخوانهم في الله بالمعروف، وكل الأعمال الصالحة محبة لهم، وينهون عن المنكر، وكل الأعمال الخبيثة والزيلة، رحمة وشفقة وخوفا عليهم، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتِمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة/ 71.

فالأخوة الإيمانية وصف يوجب ويدفع نحو الإصلاح، الذي يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤد الألفة والمحبة بينهم، وهي منّة عظيمة أنعم بها الله على خلقه، سنة ماضية في الوجود، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/ 63.

ولا يفوتنا أن ننوّه بهدف آخر من الأهداف الاجتماعية للأمر بالمعروف، وهو التكافل الذي يجمع المؤمنين فيما بينهم، عند الاجتماع للقيام بهذه الشعيرة، فيحكم الترابط والتعاون بينهم، عند السعي لإفشاء الخير والبر والتقوى، والاجتهاد في ترك المنكر والنهي عن الباطل والحرام، فالأمة التي تمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي أمة متماسكة تربطها رابطة المسؤولية الجماعية.

¹ - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ج 1، ص 56.

وإن هذه الأهداف تظهر بجلاء ووضوح في المجتمع، في حال "تمكّن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرفَ الناس قيمته وتأثيره في المجتمع، تقويماً وردعاً وتوجيهاً وإصلاحاً، فهذه الحالة كفيلة بإسعاد المجتمع، وإبقاء تعاليم الدين وإظهارها، وصلاح العيش وتحقيق الأمن، ولذا انتدب الله الأمة المسلمة لتخصص طائفة منهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فيكونون عنوان سعادة المجتمع"¹.

ولعل من نافلة القول التأكيد على هدف ترسيخ العدل، ومنع الظلم الاجتماعي، في مجموع هذه الأهداف، لأن قوام التمكين الحقيقي هو تطبيق قاعدة العدل، التي تمثل ذروة الأخلاق الفاضلة في النظام الاجتماعي الإسلامي" فالمجتمع الذي يشيع فيه العدل يُحس أفراده بالاطمئنان على حقوقهم، فيحرصون على بقائه ورد الأعداء عنه، لأن القانون يكون مع الحق وإن كان ضعيفاً، لا مع المبطل وإن كان قوياً، وبعكس ذلك، إذا شاع الظلم ونَدَرَ العدل، أحس الأفراد بالقلق، وزال عنهم الاطمئنان والاستقرار، وكان ذلك إيذاناً بدمار هذا المجتمع"²، وإن الأمر بالمعروف هو دعامة أساسية لتطبيق هذا العدل، في المؤسسات والعلاقات الاجتماعية، وهو أيضاً وسيلة لحماية الهوية الدينية والاجتماعية، وتحقيق التوازن المجتمعي، ففي ظلّ تحديات العولمة والانفتاح الثقافي، تصبح هذه الفريضة وسيلة لحفظ هوية الأمة، وثوابتها الأخلاقية والفكرية، وتُعيد توازنها في مواجهة تيارات التحريف والانحلال.

ومما لاشك فيه فإن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أداة التوازن المجتمعي، والاعتدال الذي به تمضي سفينة الحياة، وبدونه لا يستقر مجتمع، ولا تنهض أمة فهو صمام الأمان والعاصم من التردّي والهوى"³، فبدونه يشيع الفساد في المجتمع، ويستغرق الناس في ممارسة الشهوات والملذات واتباع الأهواء، فيكون ذلك سبباً للأوجاع والأمراض، وانتشار الجرائم والانحرافات، التي تأذن بخراب العمران، فإن مناط تحقيق التوازن في المجتمع هو الحرص على شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تزيد من تماسك المجتمع وتحقيق أعلى مراتب التمكين .

ومجمل القول، فإن قيام الدعاة بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ تحصل الكثير من معاني القوة والقدرة، وأيضاً القدوة والمنزلة، بسبب الاجتهاد في صلاح النفس، والسعي لإصلاح الغير، فيكون هنالك "شد ظهر المؤمن وتقويته ورفع عزيمته، وإرغام أنف المنافق... فإن المؤمن يقوى ويعتز، حينما ينتشر الخير والصلاح، ويُوحد الله لا يشرك به، وتضمحل المنكرات على إثر ذلك، بينما يخنس المنافق بذلك ويصغر، ويكون ذلك سبباً

¹ - أحمد الشهري، عوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين، مرجع سابق، ص 66.

² - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص 111.

³ - رمضان الغريب، سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 70.

لحسرتة وضيق صدره، لأنه لا يجب هذا الأمر ولا يشتهي ذبوعه بين الخلق"¹.

ونقطة أخرى وجب الإشارة إليها كذلك، في معرض الحديث عن أهداف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كهدف تمكيني، وهي جملة الأبعاد الحضارية له، فحيثما تعطلت هذه الشعيرة والفريضة، تعطل الإصلاح وانتشر الفساد، وتراجعت الأمة عن موقعها الحضاري، ومن هذه الأبعاد أنه يساهم في بناء الوعي الحضاري للأمة، فالأمر بالمعروف يوقظ في الأمة وعيها برسالتها الحضارية، ويجرّرها من السلبية واللامبالاة، ويُعيد إليها روح المسؤولية، وبهذا تتحول الأمة من متلقية إلى فاعلة، ومن متأثرة إلى مؤثرة في مسار التاريخ الإنساني.

وفي هذا الإطار أيضاً، يتحقق للأمة الشهود الحضاري، من خلال قيامها بوظيفة الإصلاح الشامل، عبر الدعوة إلى الخير والعدل، وهذا الشهود الحضاري يتحقق حين تتحول هذه الفريضة، إلى مشروع إصلاح عالمي يُبرز رحمة رسالة الإسلام وعدالته، في الواقع الإنساني.

وبالرجوع للنصوص القرآنية نجد أن الله تعالى شرف الأمة الإسلامية بشرف ووسام الخيرية، الذي استحقته وحازته بكل جدارة واستحقاق، فكانت أمة شاهدة حضارياً على باقي الأمم، بسبب قيامها وحرصها على أداء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران /110.

"فالأمة المسلمة ليست كأية أمة، ولا ينبغي لشعوبها أن تكون رعية كأية رعية، تُساق فتنساق، وتُوجه فتتوجه، إنها أمة صاحبة رسالة وحاملة أمانة، اختارها بين الأمم، وأرسل فيها أفضل الرسل، وأنزل إليها أحسن الكتب، وخصها بأفضل شريعة وكلّفها بأسمى رسالة"²، قال القرطبي: "تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير، وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سبباً لهلاكهم"³.

ونختتم ببعد حضاري أخير، لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الإسهام في إصلاح الإنسانية بصفة عامة، وذلك من خلال كون هذه الفريضة، لا تقتصر على المسلمين فقط، بل تشمل دعوة البشرية إلى الخير العام، ونبذ الظلم والفساد، فهي مبدأ إنساني عالمي يعيد التوازن الأخلاقي للحضارة المعاصرة، فالتمكين إذن لدعوة الإسلام هدفه؛ إشاعة أصليين عظيمين متلازمين هما: الأمر والنهي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما

¹ - جامعة المدينة العالمية، أصول الدعوة وطرقها، مرجع سابق، ج1، ص85-86.

² - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص533.

³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج4، ص173.

شرط اتّصاف هذه الأمة بوصف الخيرية، وتعتبر أداةً للإصلاح والتغيير والتجديد نحو الطليعة لأنها " وظيفة تشترك بها الأمة، في إدارة دفة الحكم بهذه الرقابة الشعبية الممنوحة لها، بحكم إيمانها بالله ورسوله، ومعنى ذلك أن يقف كل فرد في الأمة الإسلامية، على ثغرة في الدولة؛ يقظاً فلا يؤتى قبله، وبذلك تسد كل منافذ الشر، فلا تحب رياح الفتنة، فيصير الجو بهذه اليقظة مناسباً لنهضة الأمة واستثمار طاقاتها في تربية صالحة، من ديمقراطية هي أعلى ما يتصوّره بشر".¹

ومن زاوية أخرى فإن إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤثر سلباً على التمكين، فتختفي مظاهر الأخوة والتكافل الاجتماعي، التي تجمع المؤمنين بعضهم ببعض، فيقع الاختلاف والتناحر حيث يتحول المجتمع إلى فرق وشيع تتنازعها الأهواء والشهوات، ما يجعل المجتمع المسلم بذلك عرضة للانفكاك، والانهيار أمام المنكرات، وصور الفساد المتنوعة، كما ينتشر الغل والحقد والحسد، وتُمَيّز زوال النعم، والكراهة والبغض والتناحر الذي يدمّر الفرد ويزيد المجتمع فتكاً، وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى ذلك بقوله: " إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتّسع الخرق، وخرت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد".²

وإنّ ما يدل على ارتباط الفرقة والاختلاف، بترك شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ماجاء في كتاب الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/104، أعقبها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران/105، ويصدق هذا في حال بلاد المسلمين وما نعيشه من تفرق وتمزق وشيوع للفساد، بسبب ترك شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد صوّر سيد قطب؛ تأثير الأمر بالمعروف على انحسار المنكر، وتضييق دائرته فقال: " إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين، فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشرور والمنكر، أن يصبحا عرفاً مصطلحاً عليه، وأن يصبحا سهلاً يجترأ عليه، كل من يهم به، وعندما يصبح فعل الشر، أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً، تقف الجماعة كلها دونه، وتوقع العقوبة الرادعة عليه، عندئذ ينزوي الشر،

¹ - محمود محمد عمارة، فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، دار السلام العالمية، جامعة أم القرى، دط، دس، ص 65-66.

² - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 2، ص 494.

وتنحسر دوافعه، ويتماسك المجتمع فلا تنحل عراه، وعندئذ ينحسر الفساد في أفراد أو جماعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة ! وعندئذ لا تشيع الفاحشة، ولا تصبح هي الطابع العام!¹.

واستنادا لما سبق فإن نصيب الداعية إلى الله من التمكين في دعوته مرهون بقدر نصيبه من الأخذ بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بهما قوام الدين، واستمرار التمكين" فالدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فلا ينهى عن منكر إلا ويأمر بمعروف يغني عنه، كما يأمر بعبادة الله سبحانه وينهى عن عبادة ما سواه، إذ رأس الأمر شهادة أن لا إله إلا الله²

وتأسيسا على ذلك فإن بلوغ النجاح والفلاح، واستحقاق الخير والنصر والتمكين كان مناط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول أبو حامد الغزالي: " ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى: " وَلْتَكُنْ أَمْرٌ وَظَاهِرُ الْأَمْرِ الْإِيجَابُ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حضر، فإذا قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون؛ عمّ الحرج كافة القادرين عليه لامحالة"³.

وفي هذا الإطار، يؤكد القرآن الكريم من خلال قصص الأولين، وتاريخ السابقين؛ أن الاستغناء والتغافل عن أداء هذا الواجب والمطلب الشرعي، يؤدي إلى انكسار شوكة المسلمين، وزوال قوتهم واستحقاق جملة من الوعود الربانية؛ المتمثلة في اللعن والطرده من رحمة الله، ونزول الحزي والعذاب والعقاب عليهم، كما كان حال بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ المائدة/78-79.

فالملاحظ والمتأمل للآيات القرآنية، يجد أن سنن الله في خلقه وفي المجتمعات ثابتة لا تتغير، ومطرّدة لا تحابي فردا على آخر، فمن سننه تعالى أن يسلط الله عقوباته، على المجتمعات التي تتخلف وتقصّر، في أداء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أن المنكر إذا أعلن في مجتمع ولم يجد من يصدّه، فسوف يشتد عوده وتظهر سلطته، ويصبح دليلا على تمكّن أهل الباطل وقوتهم، وبالتالي يتحقق لأهل المنكر الظهور، ويستساغ المنكر في النفوس، ما يُنبئ بانحسار المعروف واضمحلاله في القلوب، لتكون النتيجة بذلك استحقاق العذاب الإلهي والهلاك الشامل.

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج2، ص947-948.

² - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط7، 1999م، ج2، ص126.

³ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج2، ص495.

ومثال ذلك ما حدث لقوم لوط عليه السلام، الذين خالفوا الفطرة الإنسانية، فأحدثوا منكرا عظيما تمثل في ممارسة الشذوذ الجنسي، قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ العنكبوت/27-29، فأصابهم الله بألوان من العذاب منها الخسف والقلب في الأرض، والأخذ بالصيحة، كما أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ هود/82-83، وقال: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ الحجر/73-74.

وتأسيسا على ما سبق، فإن الدعوة المعاصرة مطالبة بتجديد فقه فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممارستها بأسلوب حضاري يوازن بين الثوابت والمستجدات، بعيدا عن الغلو والتشدد، مع اعتماد لغة الرحمة والحكمة والرفق، مصداقا لقوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" النحل/125، وبالتالي تبني منهج الوسطية في الممارسة الدعوية.

وكذلك تحويل مبدأ الأمر بالمعروف إلى مؤسسات، تُعنى بالتربية الأخلاقية، والإعلام التوعوي والعمل المدني، فالإصلاح الجماعي المنظم أكثر أثرا في تحقيق مقاصد التمكين، مع توظيف الوسائل الإعلامية الحديثة، في نشر القيم ومواجهة المنكرات الفكرية والسلوكية، بأساليب مؤثرة ومنفتحة، تراعي فقه الواقع وتوازن بين المصالح والمفاسد، "إذا تعارضت المصالح والمفاسد فيما يأمر به، أو ما ينهى عنه نظر؛ فإن كان فيما يقوله أمرا ونهيا مصالح أعظم من المفسدة التي تحصل في أمره ونهيه، وجب عليه الأمر والنهي، وإن كان العكس أي المفاسد أعظم لم يجب عليه، بل قد يحرم"¹

وختاماً يمكن القول، أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس مجرد فريضة فردية، بل هو مشروع اجتماعي حضاري، يستند إلى سنن التمكين، فمن خلاله تُبنى الأمة على قيم العدل والتكافل والإصلاح، وتتحقق أهليتها للشهود الحضاري والقيادة الإنسانية، وفي عصر تتعدد فيه التحديات الفكرية والاجتماعية، يُصبح تفعيل هذه الشعيبة من أولويات العمل الدعوي المعاصر، بشرط أن يُقدّم في إطار متوازن، يجمع بين اللين والحكمة والرحمة، مع الثبات على القيم والانفتاح على واقع العصر ومستجداته.

¹ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص480-481.

وخلاصة القول مما سبق بيانه، يتضح لنا أن أهداف سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، تمثل رؤية شاملة ومتكاملة لنهضة الأمة، فهي تجمع بين الثوابت العقدية والتشريعية؛ التي ترسخ الإيمان وتطبق العدل، وبين المتطلبات الاجتماعية والحضارية، التي تبني مجتمعات مزدهرة وقوية.

ومن أبرز النتائج المستخلصة في ذلك ما يلي:

- إن أهداف سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، لا يمكن فصل بعضها عن بعض، فبناء الفرد الصالح وإصلاح المجتمع، وتحكيم الشرع وإسعاد الناس، كلها حلقات مترابطة في سلسلة التمكين، ويتطلب تحقيق هذه الأهداف جهدا دؤوبا، ومنهجية واضحة، تستفيد من كل الوسائل المتاحة، مع الالتزام بالقيم الأصيلة، لاستعادة الأمة مكانتها الريادية وشهودها الحضاري بين باقي الأمم.

- تركز الأهداف العقدية التشريعية على إقامة الصلة بالله تعالى، من خلال العبادات والشرائع التي تزكي النفس، وتهذب السلوك، وتهيب المؤمنين لحمل رسالة الاستخلاف، وأبرز مظاهرها في العمل الدعوي المعاصر، إقامة الصلاة كغاية عقدية تشريعية، تجسد في المجال الدعوي منهجا لبناء الفرد المؤمن، الذي يشكل نواة المجتمع الممكن.

- إن إيتاء الزكاة يمثل هدفا تشريعا إصلاحيا، يُحقق التوازن الاقتصادي، ويمنع الاحتكار ويعزز روح التكافل الاجتماعي، وفي الواقع الدعوي تُسهم مؤسسات الزكاة في ترسيخ مفهوم العدالة الاجتماعية، كشرط للتمكين الحضاري.

- تتجه الأهداف الاجتماعية الحضارية إلى إصلاح المجتمع، وإحياء القيم الإيمانية في السلوك الجماعي، لتتحول العقيدة إلى واقع حضاري، ويرتكز هذا الجانب أساسا؛ على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم مظاهر التمكين الاجتماعي، لأنها تضمن استمرار الإصلاح الذاتي والجماعي، وهي آلية حضارية لتصحيح المسار الأخلاقي والاجتماعي، وتحقيق الرقابة المجتمعية القائمة على المسؤولية والتناصح.

المبحث الثالث: التحديات الداخلية والخارجية أمام تفعيل سنن التمكين:

تُعد سنن التمكين في الأرض التي بيّنها الله تعالى في كتابه منهجا إلهيا لاستخلاف العباد، وإقامة دين الله تعالى، غير أن العمل الدعوي المعاصر يواجه مجموعة من التحديات، التي تعيق تحقيق سنن التمكين المنصوص عليها في المنهج الإسلامي، فتمنع تحقق الوعد الإلهي.

هذه السنن هي القوانين الربانية التي تحكم مسيرة الدعوة، نحو النصر والتأثير الحقيقي، وتشمل الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التدرج، التغيير، التدافع...، ومع ذلك فإن الواقع الحالي يظهر فجوة كبيرة بين هذه المبادئ السامية والتطبيق العملي، مما يستدعي تحليلا للتحديات الداخلية والخارجية التي تواجه الدعاة والمؤسسات الدعوية.

وعليه سنقف في هذا المبحث على حملة التحديات، والتي يمكن تقسيمها إلى تحديات داخلية وأخرى خارجية، وتفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: التحديات الداخلية:

وهي التحديات المتعلقة بالدعاة أنفسهم وبنية العمل الدعوي، وتعد من أخطر المعوقات لأنها تؤثر على البنية الأساسية للعمل وتُضعف من قدرته على المواجهة الخارجية، وتتمثل في:

1- الخلاف والفرقة: إن التمزق والتنازع داخل الصف الدعوي، هو من أكبر معوقات التمكين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال/46.

فالتنازع والاختلاف والتناحر أسباب للضعف والهوان، والدعوة التي تريد الرفعة والتمكين، لا بد لها أن تعمل على نبذ الفرقة والخلاف، لأنهما يشكلان مرضا خطيرا ينخر جسد الأمة، ويضعف قوتها ويعطل مسيرة الدعوة، "فضعف العلاقات الأخوية بين المؤمنين عامة، وبين الدعاة خاصة، مما أساء نظرة بعضهم إلى بعض، فجرّأهم على إصدار الحكم على غيرهم بالكفر أو التضليل أو التبديع... ففرّق صفوفهم، وباعد بين قلوبهم وأفكارهم، وخالف بين مواقفهم... وإساءة فهم الخلاف بين المسلمين، والغفلة عن طبيعته وأسبابه مما فرّق الصفوف، وجعل من الإخوة المتعاونين، أعداء متشاكسين، وعمّق في نفوس الدعاة الفردية والأنانية، وأقام الحواجز النفسية بسبب الانتماءات، وأشاع روح العصبية والحزبية"¹

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 358.

وتأسيسا على ما تقدم، تجدر الإشارة إلى أن هذا الخلاف والفرقة، تنعكس في مظاهر عدّة أبرزها؛ تفرق الجماعات والتنظيمات الدعوية، مع تباين في المناهج والرؤى، مما يؤدي إلى تشتت الجهود وتنازع الكلمة، وكذلك اختلاف في المنهجيات والوسائل التي تخدم أولويات العمل الدعوي، فيظهر التحزب والانتماء الضيق والاختلاف في الفتاوى والاجتهادات، التي يتحول من خلالها الخلاف إلى خلاف شخصي وتبادل للاتهامات.

وقد يستمر "اختلاف الفقهاء من ألف عام ويزيد، يقسم المسلمون طوائف متباعدة، ويأبى الرجل أن ينظر إلى أخيه شزراً في قضية علمية خفيفة الوزن ! وربما رفض الصلاة خلفه، وتنضم إلى هذا الخلاف الفقهي قضايا شخصية ومنفعية، تخص هذا أو ذاك، فإذا الإخاء الإسلامي يذوب والخصومات الخبيثة تضرب، وينشغل المسلمون بعضهم ببعض"¹.

ومما لا شك فيه، فإن هذا الاختلاف يعني وقوع الصراع على مواقع القيادة والريادة، مما يؤدي إلى التناحر وإضعاف الثقة بين الدعاة والقادة.

وتأسيسا على ذلك فإن التمكين في الأرض سنة إلهية، لها شروطها ومقدماتها، والخلاف والفرقة شؤم وعذاب كما وصفها محمد الغزالي بقوله: "الخلاف شؤم والفرقة عذاب ! ولم أر مصداق ذلك في شيء، كما رأيته في تاريخ الأمة الإسلامية، وإن المطارق التي جعلتها تجثو بين أيدي أعدائها، كانت من الداخل لا من الخارج"² تعطل هذه السنة من خلال إهدار طاقة الأمة، فبدلاً من توجيه الطاقات لمواجهة التحديات الخارجية والأعداء، تُهدر الطاقات في صراعات وخلافات داخلية وجانبية، ما يُسهم في تفويت فرص التمكين، لأن التمكين يحتاج إلى قوة جماعية متماسكة، كما تضعف القدرة على المواجهة، لأن الأمة المتفرقة أسهل اختراقاً من قبل الأعداء، وأقل منعة في مواجهة المخططات المعادية، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال/46.

هذا وغيره يؤدي إلى تشويه صورة الدعوة والدعاة، فالناس ينفرون من الدعوة عندما يرون دعايتها يتنازعون ويختلفون، تحت غلاف دعوي، فيظنون أن هذا هو الإسلام، مما يُفقد الدعوة مصداقيتها وجاذبيتها، فتتعطل سنن التمكين التي ترتبط بوحدة الكلمة وائتلاف الصف، "فالمسلمون في نصف قرن فتحوا نصف الدنيا، ولكن بوحدة الكلمة، والتحام الصف، ووضوح الهدف، مع متانة العقيدة، وفي الانقسام، بل وبالاستعانة بالعدو، قلب الله

¹ - محمد الغزالي، الوحدة الثقافية بين المسلمين، مرجع سابق، ص 39.

² - المرجع نفسه، ص 38.

عَزَّهِمْ ذُلًّا وَغَنَاهُمْ فَقْرًا، وَقَوَّاهُمْ ضَعْفًا، وَأَمْنَهُمْ تَشْرَدًا وَنَزْوَحًا"¹.

وتأسيسا على ما سبق، فالخلاف والفرقة تؤدي إلى الضعف والهزيمة وانكسار شوكة الدعاة، وهدم صفهم الذي يصفه الله تعالى بالبنيان المرصوص، في قوته وصلابته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ الصف/4.

وفي الختام يمكن القول أنّ الخلاف المذموم والانقسام الدعوي آفة تدمر مشاريع التمكين من جذورها، وهي من أعظم ما يعيق العمل الدعوي المعاصر، والعلاج لا يكون إلا بالعودة إلى المنهج الرباني الذي أمر بالوحدة ونهى عن التفرق، وغرس معاني الأخوة الإيمانية، والتحلي بأداب الاختلاف، فالدعوة التي تريد التمكين في الأرض، لا بد أن تبدأ بتمكين روح الوحدة في قلوب دعااتها وأبنائها، وتدوَّب أسباب الفرقة بينهم، حتى تكون بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

2- ضعف التخطيط والتنسيق: إن غياب الرؤية الاستراتيجية واضحة المعالم، وعدم ضبط ووضع أهداف مرحلية وواقعية، والعمل الارتجالي العشوائي، الذي لا يحسب للمخاطر والعواقب، عقبات حقيقة تعرقل سير العمل الدعوي، وإن هذا الضعف في التخطيط يترتب عليه أيضا خلل على مستوى؛ ترتيب الأولويات وتشتت في الجهود، فيتقدم ما حقه التأخير ويتأخر ما حقه التقديم، كالخوض في صراعات هامشية وإهمال القضايا الجوهرية لبناء الأمة، "فمن المشكلات الخطيرة التي ابتلي بها العمل الإسلامي المعاصر، تخلف العقلية التنظيمية عن المستوى الذي يفرضه الشرع، ويتطلبه العصر، وكثير ممن ابتلوا بهذا المرض يحاولون تلمس مبررات شرعية لارتكاسهم التنظيمي هذا، والمقصود بتخلف العقلية التنظيمية عدم استيعابها للأصول والقواعد التنظيمية، وخروجها عن منطق الأولويات، وبالتالي القيام بالممارسات الكيفية التي قد تكون متصادمة مع أبسط أبجديات التنظيم"²

وإن الكثير من المبادرات والأعمال الدعوية تفتقر إلى التخطيط العلمي والاستراتيجي، مما يؤدي إلى تكرار الأخطاء، وتكريس الرداءة الفكرية بسبب؛ "غياب المراجعة والتقويم والافتقاد لاستراتيجيات المحافظة على المنجزات، ففي كثير من الأحيان نجد المؤسسات الدعوية تقدم أنشطة وإنجازات، ولكنها لا تجعل محطات لمراجعة ما حققت لتحافظ عليه، وما أخفقت فيه لتتجنبه وتتجاوزها، أو نجدها تثنى الإيجابيات وتضخمها، ولا تنتبه للسلبات التي تقع فيها، ولا شك أن غياب هذا السند الوظيفي الهام والحيوي

¹ - شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، مرجع سابق، ص 109.

² - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص 169.

(المراجعة والتقييم) كانت له مضاعفات خطيرة أهمها:

- تكريس الأخطاء والرداءة الفكرية، وتوريثها للأجيال.

- تكريس الرداءة على مستوى الأداء أو فقه الإنجاز، وما ينجر عنه من هدر للطاقات.

- تكريس ظاهرة الاستئفاف أو البداية الصفيرية المزمّنة، بسبب جهل وتجاهل نقطة النهاية للجهد السابق

للاطلاء منه، فالمراجعة ضرورية لفرز ما هو إيجابي مما هو سلبي¹

وبالتالي فغياب المراجعة والتقييم المنهجي، يمنع الاستفادة من التجارب السابقة لتصحيح المسار، وقلة

التخطيط أو انعدامه في العمل الدعوي، يعني العشوائية في تحديد الأهداف وأساليب العمل المناسبة،

إنّ ضعف التنسيق بين المؤسسات الدعوية وقلة التعاون فيما بينها، يؤدي إلى تضارب الرؤى وتشتت

الجهود، فتقع الاختلافات والصراعات بين هذه المؤسسات الدعوية، رغم اتّحادها في الهدف والغاية، وهذا ما

ينعكس طبعاً على التقليل من الفعالية الكلية للعمل الدعوي، وهذا ما جعل محمد الغزالي ينسب للأمة الهزيمة،

بسبب تراكم هذه التحديات والمشكلات بقوله: "وما أشهد في سير الأولين والآخرين أمة؛ هزمت نفسها كالعرب

المعاصرين، لقد هزمتهم بلاذة الفكر والشعور، وسوءات التخطيط والتنفيذ، وفوضى الفرقة والعصيان والتسيّب،

وهيئات أن تتبدل حالهم إلا وفق سنن الله"²

3- الجمود الفكري والاجتهادي:

بلا شك، يُعد الجمود الفكري والاجتهادي أحد أبرز المعوقات، والتحديات الداخلية التي تواجه تطبيق

سنن التمكين، في العمل الدعوي المعاصر، فعندما تهملان أو تطبقان بشكل معكوس، تُؤديان إلى شلل في

الدعوة وتعطيل طاقاتها، لعدم مواكبة مستجدات العصر، وعدم القدرة على تقديم إجابات مقنعة للتحديات

الفكرية المعاصرة، " فالجمود آفة من آفات الفكر الحركي " المؤطّر"، وهو عائق من العوائق الداخلية في الحركة

الإسلامية، ومن مظاهره الجمود على شكل معين في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى صور معينة في

الدعوة، وعلى مراحل معينة في الوصول إلى الهدف، ومن حاول تغيير أو تعديل جملة هذه الأشكال والوسائل

والصور والأفكار، قوبل بالرفض الشديد، أو الاتهام والتنديد"³ بسبب " التعصب البليد، والتحزب السيئ، وتحول

¹ - الطيب برغوث، استراتيجية الثقافة في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع، الجزائر، ط1، 1993، ص6.

² - محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، القاهرة، دط، دس، ص127

³ - يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، 1990، ص121.

الحرية الفكرية إلى فوضى واسعة، ما جعل العلماء يتوجهون إلى إغلاق أبواب الاجتهاد، وضبط الأفهام الكثيرة في مذاهب أربعة، ولكن علاج الحرية الواسعة يكون بتنظيمها لا بمصادرتها¹، لأن إغلاق باب الاجتهاد يؤدي إلى عدم القدرة على وضع رؤى دعوية متكاملة، بسبب التوقف عند فهم تراثي معين للنصوص الشرعية أو الواقع، واعتباره خط النهاية التي لا يمكن تجاوزه.

وجدير بالذكر أن التقليد الذي أصاب العقل المسلم بالوهن والشلل، هو عامل أدى به إلى الإعراض والغفلة عن الوعي السني، ولهذا نجد أن القرآن الكريم " ربط الجمود وموت المنطق بالتقليد الأعمى، الذي تراكم في العقل الجمعي السلبي للكفار في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف/23²، ومن هذا المنطلق ظهرت حركات باسم العمل الإسلامي تفننت في الملتصقات والشعارات، فبعضهم يسمي نفسه السلفي، الأصولي، جماعة المسلمين، أنصار السنة... وضاعت أفق كل جماعة، فلم تلاحظ من الإسلام وهو بحر ذاخر، إلا زاوية ضيقة، ولم يفهموها حتى حق الفهم، ولم يضعوها في إطارها مع بقية الزوايا، التي تشكل هيكل الإسلام ككل، ف وقعت بذلك المفارقات التي أدت إلى الفرقة والاختلاف³، ورفض أي قراءة جديدة أو تفسير معاصر.

ولعلها أعظم جناية يجنيها الجمود عند " تفریق وتمزيق نظام الأمة، وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف، وتفرق المذاهب والشيع في الدين، وهذا الجمود في أحكام الشريعة جر إلى عسر، حمل الناس على إهمالها، بعد أن كانت تسع العالم سماحة"⁴، فالجمود تحجير للعقل وواد للفكر النقدي البناء.

وفي الإطار ذاته فإن الجمود الاجتهادي يعني التوقف عن ممارسة الاجتهاد في استنباط الأحكام للمستجدات، والحوادث والنوازل المعاصرة، والاكتفاء بتراث الأقدمين فقط، مع أن الواقع يتغير ويتطور باستمرار، وهذا يتطلب التجديد الذي يعني " العودة للمنابع والأصول عودة كاملة صافية، ودعوة للثبات على الحق، وترك التقليد الفاسد القائم على الاتباع والمحاكاة على غير بصيرة، ومن هنا يتبين أن التجديد عملية إصلاحية محافظة، وليست عملية تحريبية متفلتة"⁵ والمرونة في التكيف مع هذه المستجدات، وفق نظرة مقاصدية ترتب الأولويات، والأهداف الشرعية الكبرى.

¹ - محمد الغزالي، الوحدة الثقافية بين المسلمين، مرجع سابق، ص 100.

² - رشيد كهوس، الفكر السني وآفاق النهوض الحضاري، موقع مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية: <https://cutt.us/nnmU0>

³ - رؤوف شلي، الدعوة الإسلامية التجربة. الأخطاء. الحل، مرجع سابق، ص 298-299.

⁴ - محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مرجع سابق، ص 141-144. بتصرف

⁵ - محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2004، ص 14.

كما تجدر الإشارة إلى مظاهر الجمود الفكري والاجتهادي، في العمل الدعوي المعاصر، أين يتم الخلط بين الثوابت والمتغيرات، واعتبار كل ما قاله السابقون من مسائل فرعية، واجتهادات تاريخية؛ ثوابت لا تقبل المراجعة، فيه تقدس أقوال الرجال على حساب فهم النصوص ومقاصدها، ويكون النظر إلى كل تجديد أنه بدعة وضلال.

أضف إلى ما تقدم، فإن هذا الجمود الفكري والاجتهادي، يسبب ضعفا في التأصيل للقضايا المعاصرة، "لأن تطور الحياة، وتحدد الأحداث، واختلاف الأحوال يطالعا بقضايا حديثة، وأوضاع اجتماعية لم يعرفها القدماء من المشرعين الإسلاميين"¹، أين يظهر العجز عن تقديم إجابات، شرعية مقنعة ومعاصرة لقضايا العصر الجديدة، بسبب الاكتفاء بالمصطلحات والمفاهيم السابقة، والخوف من الاجتهاد الذي تكون نتيجته الانفصال عن فقه الواقع، وتحليله بمنظورات قديمة، لا تتناسب مع نوازل المجتمعات الحديثة، فيكون التشخيص خاطئا والدواء غير مناسب.

فلا مناص من القول أن ابتعاد الخطاب الدعوي عن قضايا الواقع المعاش، وعدم القدرة على التكيف مع المتغيرات الاجتماعية والثقافية، يجعله غير مؤثر في الجمهور، فالدعوة التي لا تتحدث عن هموم الناس ومشكلاتهم اليوم تفقد مصداقيتها وتأثيرها، وهذا ما يستدعي "على كل عالم متمكن من الدين، متعمق في الدراسات العربية والإسلامية، أن يقترح ما يناسب العصر من آراء دينية، على أن تكون مستمدة من المصادر الإسلامية الكبرى، معززة بالبرهان والدليل"²

ومما لا شك فيه فإن التمكين في الأرض ليس هبة أو معجزة، بل هو سنة إلهية مرتبطة بتحقيق شروطها وأسبابها، والجمود يعطل هذه السنن من عدة وجوه؛ أولها يعطل سنة الابتلاء والتمحيص، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت/2، فالابتلاء يكشف مواطن القوة والضعف، أما الجمود الفكري يمنع الدعوة من استخلاص الدروس من الابتلاءات، لأن العقل المجد لا يحلل الأسباب الحقيقية للهزائم ولا يطور آليات للتعامل معها، فيكرر الأخطاء.

زيادة على ذلك فالجمود يعطل فقه الحضارة أو علم السنن الإلهية" ذلك بأن غلبة الجمود الذي ران على العقل الجمعي للأمة، ففرقها مذاهب ومزقها شيعا، وأوقعها فيما وقع فيه من سبقها من الأمم التي تنكب هدي السنن، فتفرقت شذر مذر، فضعفت واستكانت وذهب ريجها، فأدى بها ذلك إلى الاشتغال بالجزئيات والأمور الهامشية، والقضايا الفرعية على حساب الكليات والقضايا الأصولية، ومنها الفقه الأكبر، فقه الحضارة أو علم

¹ - محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، مرجع سابق، ص278.

² - محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، مرجع سابق، ص278.

السنن الإلهية الذي لم يعط بالعناية اللائقة"¹.

ومن أمثلة هذه السنن التي يعطلها الجمود؛ سنة الأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/60، فكما أكدنا آنفا فإن القوة ليست مادية فقط، بل هي أيضاً قوة في الفكر، وقوة في المنهج، وقوة في التنظيم، وفي المقابل فإن الجمود يحرم العمل الدعوي من تطوير مناهجه وأساليبه، فيظل يستخدم أدوات قديمة لا تنفع لمواجهة تحديات معقدة، مما يفقده الفاعلية والتأثير.

كما يعطل أيضاً سنة التغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/1، فالتغيير يبدأ من تغيير المفاهيم والأفكار والموروثات الخاطئة، أما الجمود فيعمل على تجميد العقلية، ومنعها من مراجعة نفسها وتقويم اعوجاجها، وبالتالي يمنع التغيير الحقيقي من الداخل، وهو المدخل الأساسي للتمكين.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الجمود يعطل سنة التدافع، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة/251، فالتدافع الفكري والحضاري يتطلب أدوات عصرية وفهماً عميقاً للواقع وللخصم، بينما الجمود يجعل الدعاة يعيشون في معزل عن العصر، فيفقدون القدرة على المواجهة الفكرية الفعالة، ويصبح تدافعهم هزياً غير مؤثر.

وبما لا يدع مجالاً للشك فإن الجمود الفكري والاجتهادي، سببه ضعف التكوين والتربية الروحية والعلمية الفكرية للكوادر الدعوية، مما ينتج عنه أفراد غير مؤهلين بالقدر الكافي للدخول في نطاقات دعوية متنوعة، يؤدي هذا الأمر إلى انفصال التنفيذ والتطبيق عن التصور الصحيح للدعوة، ويحد من الابتكار والتجديد.

وفي الختام يمكن القول أن الجمود الفكري والاجتهادي، هو بمثابة القيد للعقل والروح، وهو عدو سنن التمكين، فالله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والتغيير يبدأ من تحرير العقل من قيود التقليد والغلو، وإطلاق طاقة الاجتهاد لمواكبة سنن الله في الكون والحياة، فالعمل الدعوي الذي يريد التمكين في الأرض، لا بد أن يكون شجاعاً في مراجعة تراثه، جريئاً في فهم واقعه، مبدعاً في تقديم حلوله، مستعينا بالله، متوكلاً علي.

وتأسيساً على ما سبق بيانه في جملة التحديات الداخلية، لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر يمكن القول أن:

جملة هذه التحديات والمعوقات الداخلية الذاتية، يستغلها الخارج أيضاً ويضخمها، فالخلاف والفرقة مثلاً يبعث على ضعف التماسك الداخلي (سنن الاختلاف)، حيث يستفيد الأعداء من الخلافات الداخلية بين

¹ - رشيد كهوس، الفكر السنني وآفاق النهوض الحضاري، موقع مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية، مرجع سابق.

العاملين في الحقل الدعوي، فيضعف التناصر والتكامل بينهم، وضعف التخطيط والتنسيق (سنن الأخذ بالأسباب) يؤدي إلى عدم وضوح الرؤية وغياب التخطيط العلمي، مما يجعل العمل الدعوي عرضة للردود الخارجية المفاجئة، أما بالنسبة للجمود الفكري والاجتهادي، فمآله الانهزامية النفسية والتبعية الفكرية (سنن التدافع)، حيث يشعر بعض الدعاة بالدونية تجاه الحضارة الغربية المتطورة.

المطلب الثاني: التحديات الخارجية:

وهي التحديات المتعلقة بالبيئة المحيطة بالعمل الدعوي، سواء على المستوى المحلي أو الدولي، وتأتي من قبل الأعداء لتعرقّل العمل الدعوي وتمثل في:

1-الهجمة الفكرية والثقافة الغربية:

تعدّ الهجمة الفكرية والثقافية من أخطر التحديات التي تواجه العمل الدعوي في العصر الحديث، حيث تسعى المنظومات الغربية إلى نزع المرجعية الإسلامية واستبدالها بالنموذج المادي الغربي، وعبر وسائل الإعلام العالمية والفضاء المفتوح، توجّه هذه الهجمات الفكرية التي تروّج للعلمانية، وتنشر قيمها الغربية المادية، "وتحاول دمج العالم كله في نسق واحد؛ فكري وثقافي وسياسي واقتصادي، بحيث لا تكون هناك خصوصيات، أو موارث أو ثوابت لشعب من الشعوب، والدمج بهذه الطريقة يتأبى عليه أصحاب الثقافات الأصيلة، والهويات المستقلة كالمسلمين"¹، الذين تتصادم قيمهم الإسلامية مع هذه الثقافة الغربية، والتي تنشر الشبهات حول الثوابت الشرعية، وتضخّم الخلافات الفقهية لزرع الشك في صفوف المسلمين.

وإن تاريخ هذه الهجمات كان منذ فجر الإسلام ثمّ "توسعت دوائر الغزو الفكري اليهودية النصرانية التبشيرية والاستشراقية، مرافقة للتحركات الإسلامية التي قامت بها الدول النصرانية ضد العالم الإسلامي، وأخذت وسائل هذا الغزو تتنامى وتتكامل، وتجري فيها تعديلات وتبديلات نُبّهت عليها التجارب، وساعدت عليها الوسائل الحضارية الحديثة، حتى أخذت نضجها الشيطاني في القرن العشرين ميلادي"²

ومما لاشك فيه فهي تؤثر على الشباب المسلم، حيث يتعرض يوميًا لمحاولات تفكيك الهوية عبر هذه القيم الفكرية الغربية، التي يصوّرها الفن والإعلام الهابط، والموضة ونمط الحياة الاستهلاكي الغربي، لفرض النموذج الغربي في التفكير، والحكم على أنه النموذج الوحيد الصالح، "فعن طريق الماسونية مثلاً وصل بعض المنحرفين إلى بعض

1 - محمد بن شاكِر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مرجع سابق، ص 90.

2 - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، مرجع سابق، ص 29.

المراكز، بحيل يهودية لخدمة أغراض خبيثة، وعن طريق الماسونية أشعلت حروب وفتن وانطلقت تيارات مخربة، منها الضياع والانحراف والضلال، منها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو اجتماعي، وهي تهدف إلى حرب الدين، وتعمل على نشر الإلحاد والكفر والفساد"¹، وتعتبر هذه الهجمة الفكرية واحدة من مكاييد الأعداء المستمرة، فمكر الأعداء المستمر بالمسلمين، وكيدهم لهم وتخطيطهم الدائم للقضاء على الدعوة الإسلامية، هو سنة من سنن الله الثابتة في هذه الحياة، ومعلم من معالم الصراع بين الحق والباطل، في تاريخ الدعوة"²، ولعل سلاح القومية كان من أخطر أنواع الأسلحة التي عمل أعداء الإسلام على توجيهها لضرب وتفتيت وحدة المسلمين، كونها استطاعت أن "تفرّق المسلمين إلى قوميات شتى، وتعود بهم إلى الأصول الأولى التي كانوا عليها، قبل أن تجمع بينهم الوحدة الإسلامية الكبرى، مما يؤدي بذلك إلى زيادة فجوة الشقة بينهم، وتعميق الفقرة، وترسيخ قواعد السدود بترسبات تصطنعها العصبية القومية"³ وناهيك عن تنوع أساليب الأعداء وقوة وسائلهم المادية في مواجهة الدعوة والدعاة، ورغم ذلك يجب مواجهة هذه الموجة دون انغلاق، مع تقديم بديل حضاري إسلامي جذاب وفعال.

2- الحرب الإعلامية العالمية:

يشكل الإعلام اليوم أداة ضغط قوية على الوعي المجتمعي، وقد سخّرت قوى عالمية لتشويه صورة الإسلام والدعوة، من خلال "بعث الرعب في نفوس المسلمين، والرّهبة في قلوبهم تجاه هذا العدو، الذي يصدر صورة ضخمة لوسائله وأدواته وأسلحته، وتعظّم حال برامجها وتخطيطاتها، فتنسب كل حدث صغير أو كبير لتدبيرها، مما يزيد بذلك الوهن والضعف، والخضوع لهذه القوة التي لا تقهر، وحقيقة الكثير من ذلك أنها من باب الدعاية والإعلام، لإرهاب الأعداء"⁴. لم تعد الحرب الإعلامية مجرد دعاية أو توجيه رأي عام، بل تحولت إلى فعل استراتيجي، هدفه تشويه الصورة الذهنية للإسلام والدعاة، وتصويرهم بالإرهاب والتطرف والرجعية، ومن خلالها أيضا يتم صناعة الرأي العام، وتحريضه ضد أي مشروع إسلامي، كونها تحتكر المنصات الإعلامية الكبرى، فتعمل على الحد من تأثير المنصات الإسلامية، نظرا للتفوق التكنولوجي والإعلامي للخصوم، الذي يجعلها تسيطر على الفضاء الرقمي، ويعطيها قوة في فترة المحتوى الإسلامي، ناهيك عن انتشار الذكاء الاصطناعي والإعلام التفاعلي، الذي يُستثمر أحيانا لنشر الإلحاد والانحلال.

1 - أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها... ومعالمها، مرجع سابق، ص 231.

2 - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 367.

3 - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص 334-335.

4 - علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، فقه الواقع بين النظرية والتطبيق، شركة النور، فلسطين، ط3، 1420هـ، ص 66.

وجدير بالذكر أن هذه الحرب الإعلامية، تعيق وتعرقل شروط التمكين الرئيسية، لأنها تقف عقبة أمام شرط الإيمان والعمل الصالح مثلاً، فعندما تشوّه صورة الإسلام يصبح الإسلام في نظر الشباب مرادفاً للتخلف، ويصبح العمل الصالح عملاً مشبوهاً، مما يثبط الهمم وينقّر الناس عن الانخراط في سلك الدعوة، كما تشكّل عقبة أمام شرط الصبر والجهاد، أين يتم تصوير الصبر على أنه استسلام، والجهاد بمعناه الشامل (جهاد النفس، جهاد الدعوة، جهاد البناء)، على أنه عنف وإرهاب، وهذا يحرم الأمة من أدوات التمكين الأساسية وهي الصبر والثبات والجهاد بأنواعه.

هذا وغيره يؤكد لنا التحدي الذي تواجهه سنن التمكين في العمل الدعوي، لأن هذا التشويه يعيق انتشار الرسالة ويثير الشبهات حول أهدافها، ما يجعل مهمة الدعاة أكثر صعوبة في كسب ثقة الجمهور، وتوجيه الرأي العام، وعلى الرغم من ذلك فهي ترشد للسعي نحو مواكبة هذه التكنولوجيا، وتسخيرها للدعوة بدل أن تكون أداة لطمسها.

وفي الختام يمكن القول أنّ الحرب الإعلامية العالمية، هي اختبار حقيقي لصدق الدعاة في سيرهم على نهج الله، وهي ليست نهاية المطاف، بل هي دافع لإعادة اكتشاف سنن التمكين وتطبيقها بشمولية.

3- الأنظمة الاستبدادية والتضييق على الدعوة:

قبل الإشارة لهذه الأنظمة الاستبدادية، نرجع إلى العوامل المؤدية إلى ظهور هذا النوع من الأنظمة، وهو ما نعيشه في واقعنا الحاضر من استعمار جديد، فبعد الاستعمار العسكري المباشر، ظهر استعمار ناعم يقوم على السيطرة الاقتصادية والتبعية السياسية، وهذا الأمر يعطل استقلال القرار الدعوي، ويجعل كثيراً من المؤسسات الإسلامية مقيدة أو مرتحنة للخارج، ما يجعل بعض الأنظمة العربية والإسلامية، تحاصر الجمعيات الدعوية وتتحكم في المساجد والخطب، وتلاحق الدعاة أمنياً لمجرد نشاط دعوي سلمي.

ومن هذا المنطلق فالكثير من الأنظمة العربية والإسلامية تضع المساجد تحت وصاية وزارة الأوقاف أو الأجهزة الأمنية، ويتم تعيين الأئمة والخطباء وفق ولائهم السياسي، لا وفق علمهم أو كفاءتهم الدعوية، ويُفرض عليهم نصوص جاهزة تحد من حرية الكلمة الدعوية.

ولا يفوتنا أن ننوّه بالتضييق القانوني والإداري، من خلال سنّ قوانين تحدّ من حرية تأسيس الجمعيات الإسلامية والمدارس القرآنية، مع اشتراط تراخيص معقدة لممارسة أي نشاط دعوي، والعمل على غلق الجمعيات أو حلّها بتهم مثل "الإخلال بالنظام العام" أو "التطرف".

أضف إلى ما تقدم الملاحقة الأمنية والاعتقالات، لرجال الدعوة أو نفيعهم ومنعهم من الخطابة لمجرد نقدهم للفساد أو الظلم، بالإضافة إلى الرقابة على الخطب، والندوات، وحتى الدروس الدينية الخاصة، مما يخلق بذلك جوا من الخوف والرقابة الذاتية لدى الدعاة، فيضعف أثرهم وفعاليتهم.

ومما لا شك فيه فإن هذه الممارسات من شأنها تشويه صورة الدعوة والدعاة، لأن هذه الأنظمة المستبدة، وهي "في حقيقتها حركات عالمية؛ كالصهيونية والحركة الماسونية والحركة الشيوعية، والحركة التبشيرية الصليبية، ومثل هذه الحركات العالمية ذات القدرات والإمكانات البشرية والمادية والفنية الهائلة، لا يمكن بل لا يجوز مواجهتها إلا على نفس مستواها، وبنفس وسائلها، وخلاف ذلك يعني التراجع والاندثار"¹، إذ تسعى هذه الأخيرة إلى توظيف الإعلام لتقديم الدعاة على أنهم "متطرفون" أو "رجعيون" معادون للتنمية والتقدم، وهذا كله لأجل عزلهم عن الجماهير وتشويه رسالتهم الدعوية الإصلاحية، فيتم إفراغ الدين من مضمونه، لأن الدعوة تتحول إلى مجرد طقوس شكلية؛ خطب عن الصبر، الأخلاق الفردية... ومنع أي خطاب دعوي يتناول قضايا العدالة، الحقوق، أو مقاومة الفساد، وبذلك يُفَرِّغ الإسلام من جوهره التغييري والتمكيني، ليصبح أداة طاعة للسلطة.

وبناء على ما سبق، فإن الأنظمة الاستبدادية تعرقل سنن التمكين في العمل الدعوي، من خلال غياب الحرية الذي تعطل مبدأ الشورى والعدل، وهما من شروط التمكين، كما أن حجب الكلمة الحرة يمنع الوعي، ويجعل الأمة تعيش حالة من الانقياد السلبي، كما تُسهم في إضعاف الدعوة المنظمة، ما يؤدي إلى ضعف التربية الإيمانية والفكرية التي هي أساس التغيير.

إن الأنظمة المستبدة تحارب الكلمة الصادقة، وتفرغ الدين من محتواه الإصلاحي، وتصادر دور العلماء والدعاة، لتبقي الشعوب في حالة من الضعف والتبعية، ومع ذلك، فإن سنة الله في التغيير باقية، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ الحج/40، أي أن هذه المعينات تبقى عارضة وزائلة، بينما الدعوة الحقّة تبقى متجددة ما دام هناك من يحملها بصدق.

وتأسيسا على ما سبق بيانه في جملة التحديات الخارجية، لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر يمكن القول أنّ التحديات الخارجية جزء من سنن التدافع والابتلاء، فالطريق إلى التمكين طويل وشاق، ولكنه محفوف بوعود الله تعالى النافذة، ونصره المؤزر، فالنصر من عند الله تعالى، بشرط حسن الأخذ للأسباب وصدق التوكل والصبر على الطريق، مع فهم الواقع ووحدة الصف، يتحقق الوعد الإلهي وتزول المعوقات، ويتمكن الدين ويكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص216.

وأخيرا يتبين لنا من خلال هذا المبحث، أنّ تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر يواجه منظومة متشابكة من التحديات الداخلية والخارجية، تُعيق تحقق الشروط الإلهية للتمكين في الواقع.

فعلى الصعيد الداخلي، يعاني العمل الدعوي من مشكلات بنيوية وفكرية عميقة، أبرزها الخلاف والفرقة التي تُضعف وحدة الصف وتبدّد الجهود، وكذلك ضعف التخطيط والتنسيق، الذي يُفقد العمل الدعوي فعاليته الاستراتيجية، إضافة إلى الجمود الفكري والاجتهادي، الذي يعطل حيوية الفكر الدعوي، ويمنعه من مواكبة المتغيرات. المعاصرة.

أما على الصعيد الخارجي، فتقف في وجه الدعوة عقبات جسيمة، في مقدمتها الهجمة الفكرية والثقافية الغربية، التي تستهدف المرجعية الإسلامية، والحرب الإعلامية العالمية التي تسعى لتشويه صورة الدعوة وتقويض مصداقيتها، إلى جانب الأنظمة الاستبدادية التي تمارس التضييق على الحريات الدعوية وتمنع الإصلاح المجتمعي.

ثم إنّ مواجهة هذه التحديات تقتضي من الدعاة والمصلحين؛ فهم سنن الله في التغيير والتمكين؛ فهماً واقعياً متوازناً، يجمع بين الإصلاح الداخلي وبناء الوعي، وبين الحذر من المؤثرات الخارجية، فالتمكين وعدّ إلهي مشروط بالإيمان والعمل الصالح ووحدة الكلمة، وبذلك فإنّ طريق التمكين يبدأ من إصلاح الذات الدعوية، وتحسينها بالعلم والبصيرة، وتنظيم الجهود في مواجهة التحديات الخارجية، لتظلّ الدعوة راية هدى وإصلاح، تُسهم في نخضة الأمة واستعادة دورها الحضاري.

المبحث الرابع: أثر فقه سنن التمكين في ترشيد العمل الدعوي المعاصر.

يُعد فقه سنن التمكين إطاراً فكرياً وعملياً مستمداً من القرآن والسنة، يهدف إلى ترشيد العمل الدعوي المعاصر، من خلال فهم القوانين الإلهية التي تحكم تمكين المؤمنين، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وهو ليس مجرد نظريات بل منهج عملي لبناء القوة، وتحقيق السيادة في مختلف جوانب الحياة، ويتعامل مع القوانين الإلهية والسنن الكونية التي تحكم تقدم الأمم وازدهارها، وإن العمل الدعوي يواجه تحديات ومتغيرات سريعة، مما يستلزم منهجاً رشيداً يستمد قوته من أصول الشريعة الإسلامية، وهنا يبرز فقه سنن التمكين كمركز أساسي.

نشير بداية إلى أن فقه سنن التمكين هو ذلك الفهم العميق والوعوي المستنير بالسنن الإلهية، لأن "الفقه في لغة القرآن ليس هو الفقه الاصطلاحي، بل هو فقه في آيات الله، وفي سننه في الكون والحياة والمجتمع"¹ والقواعد والنواميس الكونية والشرعية التي تحكم قيام الدول والحضارات، ونهوض الأمم وسقوطها، وتمكين الدعوات وانتشارها، وهذه السنن ليست مجرد أحداث عشوائية، بل هي قوانين ثابتة وضعها الله تعالى لتدبير الكون وشؤون، وهو ليس مجرد سرد لتاريخ التمكين، بل استقراء للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وسير الخلفاء الراشدين، واستخلاص الأسباب والمقومات والمعوقات التي تؤدي إلى التمكين، أو تحول دونه.

ومن هذا المنطلق، فإن "العلم بالسنن والتعرف عليها، هو أول درجة من درجات حسن التعامل معها، وهذا ما يسميه فقهاء الدعوة وروادها " فقه السنن الإلهية" ويمثل أول شرط منهجي للتعامل مع هذه السنن تعاملًا رشيدًا، تُستنبط على ضوء القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية"²، وبالتالي فإن هذا الفهم يعطي للدعاة منظورا واقعا، يدركون من خلاله أن النصر والتمكين ليس مجرد أماني وأوهام، بل هو نتاج عمل وإعداد دؤوب، يلزمه صبر وثبات ويقين بأن النصر من الله تعالى، يقدره لمن يشاء من عباده.

وجدير بالذكر أن هذا الفقه يربط بين الأسباب الكونية والشرعية، ويُستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية، ويتناول الجوانب الروحية والعقدية، والأخلاقية والتربوية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية والعلمية كعناصر متكاملة، وإن جملة الآثار المترتبة عن فقه سنن التمكين، تبقى حبيسة قيد شرط أساس، هو مفتاح تشكّل هذه الآثار؛ هو الفقه والفهم الصحيح العميق لهذه السنن الإلهية، التي لا تتبدل كسنة الابتلاء، سنة الأخذ بالأسباب، سنة التغيير، سنة التدرج، سنة التدافع...

¹ - يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مرجع سابق، ص 27.

² - رمضان خيس الغريب، مفهوم السنن الربانية، مرجع سابق، ص 133-134.

يعتبر فقه سنن التمكين بوصلة إرشادية للعمل الدعوي المعاصر، حيث يسهم في ترشيده وتوجيهه بشكل يحقق أقصى فاعلية وتأثير، ويوجه الدعاة نحو عمل ممنهج وواقعي، ولعل أبرز مظاهر ترشيد العمل الدعوي المعاصر، من خلال فقه سنن التمكين تكمن في الآتي:

المطلب الأول: الأثر التربوي البشري:

ومضمون هذا الأثر يتمثل في بناء الكيان الداخلي للإنسان، والذي يتحقق من خلال:

1- تنمية القدرات الداخلية بالتربية الإيمانية:

فجدير بالذكر أن فقه سنن التمكين، يؤكد على أهمية التربية الإيمانية والأخلاقية للفرد والمجتمع، كركيزة أساسية للتمكين، فدون إصلاح الأفراد وتقوية إيمانهم، لا يمكن تحقيق التمكين الخارجي للأمم والمجتمعات، فهو يحرص على تعزيز الجانب التربوي والتزكوي، لبناء شخصية الداعية وتمكينه داخليا، قبل السعي لتمكين الدين في المجتمع، إذ يجب أن يكون الداعية مؤهلا وممكنا إيمانيا ونفسيا وسلوكيا.

وفي هذا الإطار نجد النبي ﷺ يصف هذه التربية الداخلية الإيمانية؛ بالجهاد الأكبر، والهزيمة العسكرية سببها الأساس غياب هذه التربية، إذ "يبدأ الانهزام العسكري بالانهزام الروحي والنفسي قبل المعركة، يبدأ بضعف الإيمان، وبالتالي الانهزام أمام الشهوات، ولهذا كان النبي ﷺ يقول بعد عودته من غزواته إلى المدينة المنورة: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى)"¹

وتماشيا مع ما تم ذكره فإنّ هذا البناء الروحي العقدي، يشكل حجر الأساس في مشروع الدعوة التغييرية، فهو يشكل "هدفا استراتيجيا محوريا، تبنى عليه جميع سياسات المجتمع وتوجهاته، وتتوقف عليه فعالية أفراد، ويكون أن نتأمل الدلالة الإحصائية لمفردة "الإيمان" ومشتقاتها التي تكررت أكثر من "1062" مرة في القرآن الكريم"².

أضف إلى ما تقدم فإن الإيمان قوة دافعة، لتحقيق مشيئة الله تعالى وخلافة الأرض وعمارتها، بالخير والعدل والإصلاح، ودفع كل مظاهر الظلم والفساد والانحراف، فتتركى النفس وتنمو نحو الإصلاح والإعمار والفعالية والإثمار، فيسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، ولهذا أرشد فقه سنن التمكين إلى هذه النقطة المهمة، كعنصر جوهري في بناء المنظومة الفكرية والقيمية السلوكية للإنسان، لأداء مهمته الاستخلافية العمرانية في الأرض.

¹ - شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، مرجع سابق، ص 16.

² - الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، مرجع سابق، ص 246.

وبما لا يدع مجالاً للشك فإن هذا الفقه موجه للإنسان المسلم المعاصر، الذي لا يحتاج في حقيقة الأمر إلى عقيدة وإيمان جديد، بقدر ما هو بحاجة ماسة إلى أن يرجع لهذا الإيمان فعاليته وقوته الإيجابية وآثاره الاجتماعية، إذ هو "لم يتخل مطلقاً عن عقيدته، فلقد ظل مؤمناً، وبعبارة أدق ظل مؤمناً متديناً، ولكن عقيدته تجردت من فعاليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة"¹

بالإضافة إلى البناء الإيماني العقدي الداخلي، يشجع فقه سنن التمكين على الإعداد العلمي والفكري، الذي يتم من خلاله إصلاح عالم الأفكار وتنقية العقل من كل الموروثات الفاسدة، وبالتالي التوجه نحو فهم الوحي والاستفادة من وسائل الإعلام التكنولوجية في جميع المجالات، الشرعية والدنيوية، ويدعو هذا الفقه إلى ضرورة البناء المهاري والتقني الذي يتطلبه الواقع العصري، لضمان استمرار العمل الدعوي، ورفع كفاءته وزيادة تأثيره.

وأخيراً يمكن القول أنّ التحديات المتنوعة التي يواجهها العمل الدعوي، توجب على القائمين عليه استراتيجية أساسية لإحداث التغيير، التي تكون من خلال بناء القدرات الداخلية، لاعتبارها أساس البناء الخارجي للمجتمع.

2- الصبر والثبات والمصادقية:

إن الصبر والثبات والمصادقية من الآثار الجوهرية، والثمار العملية لاستيعاب فقه سنن التمكين، فهي ليست مجرد فضائل أخلاقية وأسباب معنوية لتحقيق التمكين في العمل الدعوي، بل هي شروط لبقاء واستمرار وقوى دفع حقيقية على طريق التمكين، وإن فهم سنن التمكين كإبتلاء، التدافع، الأخذ بالأسباب، التدرج... لا يمنح الداعية معلومات فقط، بل يغيّر نظرتة للطريق نفسه، مما ينعكس هذا مباشرة على اكتسابه لصفات الصبر والثبات والمصادقية.

بداية تجدر الإشارة إلى أن الصبر ثمرة فهم لسنة الإبتلاء، والتدرج وطول الأمد في تحقيق النتيجة، فقه سنن التمكين يشير إلى أن هذا الأخير ليس عملية تلقائية عشوائية، بل هو عملية تاريخية تمر بمجموعة من المراحل بين الضعف والقوة، وإن كل مرحلة تحتاج زمناً ووقتاً محدداً، وهذا الفهم يولّد الصبر على بطء النتائج، فالداعية الذي يفهم أن بناء الأمة وإصلاحها أمر يحتاج إلى عقود، لا ييأس عندما تتأخر النتائج والأهداف، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود/49.

¹ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص54.

كيف لا يصبر وهو يعلم ويدرك أن طريق النجاح وطريق الدعوة محفوف بشتى أنواع المحن والابتلاءات، التي تختبر النفوس وتصلقها وتقوي العزائم، فيكون الصبر خيارا لا ثاني لهما ومفتاحا لبلوغ التمكين، الشيء الذي يعزز روح المثابرة وعدم اليأس لدى الدعاة، ويدفعهم لتقييم برامج الدعوة وتعديلها وفقا للظروف المتغيرة، وتأسيسا على ما سبق فالصبر يصبح استراتيجية عمل وليس مجرد فعل عاطفي للألم.

ومن جهة أخرى فإن الثبات ثمرة فهم سنة التدافع والابتلاء أيضا، لأن التدافع والصراع بين الحق والباطل سنة ماضية، وانتصارات الباطل المؤقتة وموجات التشويه للدعوة، عقبات طبيعية لهذا الطريق، وإن هذا الفهم يولد الثبات الفكري أمام الشبهات والمكائد، فالداعية يدرك يقينا لا شك فيه أن هجمات المشككين، وتشويههم للمشروع الإسلامي هي جزء من معادلة التدافع، فيثبت ثباتا فكريا وثباتا نفسيا، أمام كل الضغوط والاعراض المادية التي تكون فخاخا للانحراف عن المنهج الرباني الصحيح، لأن الثبات يمثل التزاما راسخا بالمبادئ والأهداف، تجسدها رؤية واضحة ومشروع أصيل، يرشد إلى عواقب الأمور على المدى البعيد، ويزيد من قوة الإرادة والتصميم على مواصلة المسيرة.

بالإضافة إلى ما سبق فإن فقه سنن التمكين يرشد إلى المصادقية في الخطاب الدعوي، كأساس لبلوغ أقصى درجة من التأثير، وهذه المصادقية تعني مطابقة الأقوال بالأفعال، والصدق في كافة التعاملات، وهي الحجر الأساس في بناء الثقة مع المجتمع وجلب التأييد والتأثير للرسالة الدعوية.

فعندما يعلن المشروع الدعوي أنه يسعى لإقامة العدل مثلا، فيجب عليه أن يطبق هذا العدل داخل مؤسساته وأفراده، ومع أتباعه وخصومه، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" الصف/2.

ويدخل ضمن هذه المصادقية كل معاني الشفافية والوضوح، والاعتراف بالخطأ الذي يرفع من هذه المصادقية ويقود إلى التمكين، مع تحقيق نتائج عملية تثبت فعالية هذا العمل الدعوي الذي لا يقتصر على الخطابات فقط، وهذا الفقه يشدد على أثر هذه المصادقية، في أن يكون الداعية قدوة عملية في شتى المجالات.

وتأسيسا على ما تم ذكره فإن الصبر والثبات والمصادقية، ليست مجرد فضائل أخلاقية، بل هي أسس راسخة لفقه سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، فالصبر يجهز الداعية لتحمل التحديات، وتقبل التدرج في النتائج، والثبات يضمن له الاستمرار على الحق والمبادئ مهما كانت الظروف، والمصادقية تبني جسور الثقة مع المجتمع وتجعل الرسالة الدعوية ذات تأثير حقيقي ومستدام.

وختاماً يمكن القول أنّ فقه سنن التمكين أرشد إلى الثالث المتكامل للتمكين؛ من صبر وثبات ومصداقية، ودون فهم لهذه المعاني يصبح الصبر ضعفاً، والثبات جموداً، والمصداقية شعاراً، ولكن بفقهها تتحول هذه القيم إلى قوة دافعة ومنظمة، تجعل العمل الدعوي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء، تتحمل العواصف والمحن، لتثمر على مدى الزمن تمكيناً واستخلافاً على الأرض.

3- الاستفادة من التاريخ والتعامل مع التحديات:

إن التاريخ ليس مجرد أحداث منفصلة أو مجرد صدف، بل هو مسار تحكمه سنن ثابتة يمكن تلمسها والاستفادة منها، ولهذا يُرشد فقه سنن التمكين إلى دراسة التاريخ، وضرورة إعمال العقل لفهم الوقائع التاريخية، وتسخيرها لاستكشاف السنن الواردة في قصص الأنبياء والأمم السابقة والمصلحين الأولين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف / 111، "فإن القرآن الكريم حين يذكرنا بقصص السابقين، وكيف جرت عليهم سنن الله في قيام الحضارات وازدهارها أو سقوطها وانهارها، فإنّ ذلك كان على سبيل الدعوة إلى استلهام الهدايات السُنّية من التاريخ؛ ليكون تاريخ الإنسان مجالا رحبا لعمل العقل المسلم، ليتعرف منه سنن النهوض والسقوط، فيعي العبرة السُنّية من تاريخ الأمم"¹، وإن هذه القصص تُعد تجارب بشرية تاريخية تكشف أبعاد الحركة التاريخية، دراستها لا تعني التغني بالماضي، بل لفهم كيفية تحقيق التمكين، باستكشاف أنماط التمكين المتكررة، ومعرفة أسباب التخلف والسقوط الواردة.

وفي هذا السياق، يوجه القرآن الكريم إلى دراسة تاريخ الحضارات دراسةً سنّية، حيث تؤكد الآيات الكريمة - سواء بصيغة الأمر أو الاستفهام - على أهمية السير في الأرض للاستنباط السنّي والاعتبار بالأمم السابقة، وقد حث الله تعالى رسوله ﷺ على توجيه قومه لتوظيف التاريخ كمنهج حضاري قادر على إنتاج أداءٍ فعال وأصيل ومستمر، وتحقيق الإنجاز الاستخلافي وفق منهجية نقدية.

وقد عبر القرآن عن هذا المنهج عبر أسلوب التذكير بأيام الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إبراهيم/5، مما يؤكد أن دراسة التاريخ تمثل مصدراً للعبوة والعظة، وتُعد ركيزة منهجية في بناء الرؤية الحضارية².

وتأسيساً على ما سبق، فإن فقه سنن التمكين يحوّل نظرنا للتاريخ من كونه مجرد سرد للأحداث والوقائع، إلى مخبر سنّي يكشف عبر وسنن الأمم والحضارات السابقة، للاستفادة منها والاعتبار بها، واستثمارها في تحديد

¹ - رشيد كُهّوس، معالم فقه السنن الإلهية في المشروع الفكري لطله جابر العلواني، مرجع سابق، ص 246.

² - عزيز البطيوي، سنن العمران البشري في السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 173.

عوامل النصر وتجاوز عوامل الهزيمة، مما يُسهم في فهم مواضع الخلل والخطأ، التي أدت إلى تأخر الأمم والجماعات السابقة، فيجعلهم يتجنبونها ويتفادون أسبابها وعواملها، فالتاريخ عبر ودروس وجب الوقوف عندها، لاستلهاهم وأخذ العبر والفوائد المفيدة منها، وهو ما أكد عليه مالك بن نبي في نظرة الانسان للتاريخ بقوله: "وإنَّ نظرتنا إلى التاريخ يجب ألا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب، بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة، وحينئذ نعلم أن الأسباب الاجتماعية والتاريخية كلها تصدر عن سلوكنا، وتنبع من أنفسنا ومن مواقفنا حيال الأحداث والأشياء، وهذا ما يحدد وظيفة الإنسان الاجتماعية والتاريخية، بحيث يكون ذو فعالية"¹

إن مواجهة تحديات الأمة اليوم، تكون من خلال تشخيص جذور المشكلة، والعمل على معالجتها من جذورها الأصلية، انطلاقاً من الفقه بهذه السنن، ففي حال وجود عدوان خارجي كالاحتلال مثلاً، وجب تجنب رد الفعل العاطفي بالغضب، أو اليأس أو العنف غير المنظم، لأن فقه هذه السنن يرشد إلى بدائل أخرى، تفيد بضرورة التعامل مع هذا الاحتلال كسنة اختبار وتمحيص، وجب التركيز فيها على بناء المناعة الداخلية، بتقوية الإيمان ووحدة الصف الداخلي، ولزوم العمل بسنة الأخذ بأسباب القوة، لاستثمار هذه المحنة وتغيير الأوضاع وتوجيهها لدفع الاحتلال ومغالbته، ففقه سنن التمكين يحول التاريخ من أحداث ووقائع إلى خريطة عمل توجّه العمل الدعوي نحو التأثير والفعالية، ويقلب التحديات من عقبات إلى درجات نحو الاستثمار والصعود والرقى، فتخرج الأمة من حال اليأس والارتجال إلى حالة الأمل والعمل المنظم الواعي.

وتأكيداً لما سبق يمكن القول أن هذه القراءة التاريخية العميقة، تُسهم بشكل ملحوظ في بناء رؤية منهجية واضحة للعمل الدعوي، بعيداً عن التكرار السلبي لأخطاء السابقين، فالتعلم من القصص القرآنية الماضية مفتاح التقدم في الحاضر والمستقبل، وإن القرآن الكريم يكرّر ذكر القصص القرآني لغايات ومقاصد مختلفة، لكنها في النهاية تخدم المقصد السنني، "ففي كل كرة يورد قصة ما عادة ما يسوقها للاستدلال بها على سنة من سننه التاريخية، ويورد معها تضمينات سننية أخرى كأن تكون سنة نفسية أو اجتماعية أو شرعية، فيبقى المحور الرئيس هو الاستدلال بالقصص كنموذج تطبيقي على السنن التاريخية"².

ولهذا كان الغزالي كثيراً ما يلفت النظر إلى توجيهات القرآن وتنبهاته، من خلال القصص القرآني، لما يحفل به من حقائق ووقائع وأحداث تكثف أخبار الأمم السابقة، فهو يسوق عوامل الرفعة والهبوط، والبقاء والزوال على أنها سنن كونية لا تتخلف، طُبّقت على المستقدمين وتطبّق على المستأخرين، لأن الحقائق الاجتماعية التي تربط بين الأحياء، كالحقائق المادية التي تربط بين عناصر الأرض والسماء"³

¹ - مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 125-126.

² - عادل عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص 238.

³ - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 183-184.

المطلب الثاني: الأثر الفكري الاستراتيجي:

ويتحقق هذا الأثر من خلال:

1- وضوح الرؤية والتخطيط الاستراتيجي:

إن فقه سنن التمكين من شأنه أن يعزّز فكرة التخطيط الاستراتيجي للعمل الدعوي، وهو ما يسهم في وضوح الرؤية كونه جسّد الفهم العملي لسنن التغيير والبناء، و" التخطيط للدعوة يُراد به وضع الخطط والنُّظُم لها، ويقابله الفوضى والارتجالية فيها، وقد يكون التخطيط كاملاً أو قاصراً، متقناً أو غير متقن، ولأهمية التخطيط في الدعوة جعل الله لكل أمة شريعة ومنهاجا تسير عليه، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة/48، والمنهاج هو الطريق الواضح والخطة والنظام"¹ فالتخطيط للعمل الدعوي الذي يرشد إليه فقه سنن التمكين لا يحدث تلقائياً، بل عبر خطوات مدروسة بشكل منظم ودقيق بعيداً عن العشوائية، التي قد تؤدي إلى إهدار الجهود، مما يساعد ذلك في تحقيق الأهداف والتركيز على الأهداف الكبرى، لترتيب الأولويات وتركيز الجهود على الأهداف، التي تحقق أكبر أثر في المجتمع، ولهذا وصفه الصلابي بقوله: "التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل"²، ويمكن القول إن " التنظيم من أقوى عوامل نجاح الحركات، فكم من حركات سياسية وحزبية نجحت بفضل التخطيط الواعي، والتنظيم الدقيق، وأخرى فشلت بسبب الفوضى والارتجال، وإن طبيعة الإسلام نفسها تأبى أي شكل من أشكال الفوضى والارتجال"³

بالإضافة إلى التخطيط فإن وضوح الرؤية يحدّد الاتجاه ويوحّد الجهود، فيمنع تشتت الطاقات وتفرقها، فالجميع يعمل لتحقيق هدف مشترك، ومن خلالها أيضاً يُعرف العدو من الحليف، من يعترض المشروع الحضاري للأمة ويسعى لإلغائه، ومن يتعاون معها لبلوغ أهداف مشتركة على المستوى العام، هذا بالإضافة إلى الثبات في وجه التحديات، لأن الرؤية الواضحة المستقاة من الوحي، تمنح الدعاة مناعة ضد موجات اليأس والإحباط، وحملات التشويه لإدراكهم غاية هذا الصبر والتحمل.

ومن زاوية أخرى فإن التخطيط الاستراتيجي، هو الجانب التطبيقي التنفيذي العملي للرؤية الواضحة، حيث يتم فيه تحليل نقاط القوة والضعف، وبيان الفرص والتهديدات التي تعرقل العمل الدعوي في ضوء سنن الله،

1 - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 306-307.

2 - علي محمد الصلابي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 326.

3 - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص 75.

ومن خلال فهم طبيعة المرحلة ومتطلباتها، يتم في هذا التخطيط الاستراتيجي؛ تحديد الأهداف المرحلية والنهائية، "ولقد حدّد النبي ﷺ هدفه من الهجرة، وهو مغادرته هو وأصحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشر دعوة الإسلام في بيئة جديدة، تتطلع إلى رسالة رب العالمين وتدافع عن المؤمنين وتدفع عنهم الأذى"¹، فالتخطيط الاستراتيجي تكون أهدافه محدّدة قابلة للقياس، يمكن تحقيقها لأنها واقعية ومرتبطة بزمان، "وإن ما أنجزته الدعوة في مكة، يحتل موقع الأرضية القاعدية بالنسبة للأهداف الاستراتيجية الكبرى للرسالة الإسلامية، بدونها يصير كل جهد بناءً على غير أساس، لا يمكنه أن يتم، ناهيك عن أن يطمح إلى الصمود والتأثير والتألق"².

وبعد هذه المرحلة تليها مرحلة التخطيط الاستراتيجي للوسائل والطرق، التي من شأنها تحقيق هذه الأهداف، مع وضع آليات التقييم والمتابعة، ليكون الدعاة مرّنين في خططهم وقادرين على التكيف مع المتغيرات، وهذا يمكنهم من وضع خطط دعوية متناسبة، لتجنب الاندفاع العاطفي غير المدروس.

وبما لا يدع مجالاً للشك، فإن هذا التخطيط يسهم في تمكين العمل الدعوي، كونه يحوّل الرؤية إلى واقع ملموس، ويستشرف المستقبل ويتعامل معه بفاعلية، مع توفير الموارد البشرية والتمويلية وتوزيعها بكفاءة حسب الأولويات، دون إغفال قياس الأداء وتصحيح المسار، في مدى تحقيق الأهداف وتحديد مواطن الخلل لمعالجتها.

وبالتالي ففقه سنن التمكين يطالب ببناء رؤية استراتيجية واضحة للدعوة، لا تقوم على مجرد ردود الفعل أو العمل العشوائي، بل على أسس شرعية متينة وفهم عميق للسنن الإلهية، وهذا يتطلب تخطيطاً دقيقاً، وتحديد أهداف واضحة، وتقييماً مستمراً للمسار الدعوي، الذي يكون من خلال اعتماد آليات تقيّم هذه الخطط والبرامج، مما يضمن تحسين الأداء وتصحيح المسار عند الحاجة.

وخلاصة القول فإن العمل الدعوي الذي يروم التمكين، وجب عليه تبني ثقافة وضوح الرؤية والتخطيط الاستراتيجي، لأنهما المنهج الذي ينظم الجهد والطاقة، والطريق الأقصر لتحقيق التمكين المنشود في العمل الدعوي.

2- تأصيل المنهج الشرعي والرجوع إلى السيرة النبوية:

يقدم فقه سنن التمكين إطاراً مرجعياً شرعياً متيناً، يضمن أن يكون العمل الدعوي متوافقاً مع مقاصد الشريعة الإسلامية، ويحوّل دون الانجراف نحو مفاهيم خاطئة أو أساليب غير مشروعة، لأنه يميز بين الثوابت والمتغيرات، إذ يمكن هذا الفقه الداعية من فهم سعة الشريعة وتكييفها مع مختلف الظروف، فيميّز بين الأصول الكلية والثوابت التي

¹ - المرجع السابق، ص 333.

² - الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، مرجع سابق، ص 462.

لا تتغير، وبين الوسائل والأساليب التي يمكن أن تتطور وتتغير لتتوافق مع مستجدات المكان والزمان.

فبالإضافة إلى القرآن الكريم كمصدر رباني أساسي، وهو مشكاة هذه السنن، يقدم فقه التمكين السنة النبوية كمنهج عملي، لتجسيد سنن التمكين في واقع البشر، لاستلهاام النموذج الأمثل والمتكامل لتطبيق هذه السنن بأعلى درجة من الكفاءة، "وإنّ الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدّث عن أشرار الساعة والفتن التي ستصيب الأمة وخراب العمران، ليس الهدف منها إشعار المسلم باليأس والقنوط؛ فهي توجد في العقل المسلم الوعي الكامل على السنن الإلهية المتنوعة التي تحكم حركة هذا الوجود، فإذا ما تعرضت الأمة لإصابة ما بمقتضى سنة من تلك السنن، فعليها أن تواجه ذلك بتسخير سنة مقابلة مناسبة توقف أثر تلك السنة أو تبطله، كالقوانين التي تحكم قضايا الأمراض والأدوية"¹.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية مصدران أساسيان لاستنباط مختلف القواعد والمبادئ والأصول التي ترشد العمل الدعوي، وتوضح كيفية بناء الأمة والتعامل مع التحديات، وفق المنهج القرآني والهدي النبوي لقدوتنا محمد ﷺ، الذي جرّب شتى أنواع الاختبارات والتحديات، في سبيل بناء دولة الإسلام.

وبما لا يدع مجالاً للشك فإنّ الدليل النقلي من كتاب وسنة من أعظم الأدلة على ثبوت هذه السنن، وفاعليتها لكونهما يمثلان المرجعية العليا المؤطرة للفكر والعقل الإسلامي، وحينما نتحدث عن الدليل النقلي من كتاب وسنة؛ إنّما نعني بذلك كل ما أشار إليه القرآن من أدلة وبراهين وقصص، وأمثال وحكم وأحكام، مما يدل على معنى وفحوى السنن، سواء فهم ذلك صراحة كأن يرد بالفاظ السنن المعهودة في القرآن، أو أن يرد بما يشير إلى سننيتها بكل أنواع الدلالة كدلالة السياق وغيرها"².

ولا مناص من القول أنّ هذا التأصيل يمنح الدعاة ثقة في منهجهم، ويحميهم من الانحراف والابتداع أو اتباع الأهواء، كما أنّه يعزّز الوحدة بين المسلمين والدعاة، من خلال الالتزام بالمرجعية الشرعية الواحدة، وفي المقابل يقدم هذا الفقه أيضاً إطاراً للتعامل مع واقع الأقليات المسلمة وكيفية الحفاظ على هويتها ونشر دعوتها في بيئات غير إسلامية، من خلال التركيز على البناء الداخلي والتعايش السلمي والعمل الدعوي الرشيد.

وتأسيساً على ما سبق فإنّ التأصيل الشرعي، هو تجسيد لمبدأ الالتزام بالمنهج الرباني أولاً، وبالهدي النبوي ثانياً، والعمل الدعوي إذا استند إلى هذين الركّنين، ضمن السلامة من الانحراف والفعالية والاستمرارية، من خلال

¹-رشيد كُهوس، معالم فقه السنن الإلهية في المشروع الفكري لطفه جابر العلواني، الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 109، ربيع 1446هـ/2025م، ص246

² - عادل عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص146.

ضمان هوية العمل الدعوي المميزة، فالتمكين الحقيقي هو الذي يسير علة نهج النبوة، ويستلهم حكمة الوحي، ويستفيد من سنن الله في تحقيق مقاصد الشريعة.

وختاماً يمكن القول أنّ فقه سنن التمكين يؤدي إلى تأصيل المنهج الشرعي في العمل الدعوي المعاصر من خلال، توفير رؤية استراتيجية ومنهجية عمل واضحة سليمة وبعيدة عن كل الانحرافات، وتوجيه تربوي وسلوكي للداعية، مما يجنب العمل الدعوي الانحراف عن مقاصده الشرعية، ويُعينه على تحقيق أهدافه بكفاءة، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الفقه يعلم الدعاة الموازنة بين الثبات على المبادئ والمرونة في التعامل مع الظروف.

المطلب الثالث: الأثر التطبيقي التنفيذي:

وتبرز مظاهر هذا الأثر من خلال:

1- التدرج في العمل والاستعانة بالأسباب:

يوضح فقه سنن التمكين أهمية التدرج في تحقيق الأهداف، وأن التمكين عملية تحتاج إلى مراحل وجهد متواصل، مع عدم استعجال النتائج، أسوة بالمنهج القرآني الذي بيّن حقيقة خلق السماوات والأرض، التي دامت ستة أيام، وهو القادر عز وجل أن تكون في لحظة واحدة، وكذلك المنهج النبوي الشريف الذي تدرج في بناء الدولة الإسلامية وفي تشريع الأحكام والعبادات، ناهيك عن عالم الإنسان والحيوان والنبات الذي نلاحظ مراحل التطور والنماء فيه، كدلالة قاطعة على سنة التدرج في الكون.

وبناء على ذلك فإن طريق الدعوة إلى الله تعالى، وإقامة دينه بين العباد أمر يحتاج إلى التدرج، ولا يمكن لمشروع دعوي أن يبلغ التمكين بمعنى القوة والتأثير والاستقرار، إذا تجاهل التدرج لأنه فقهٌ بالمرحل التي أرشد إليها فقه سنن التمكين، وأوضح أن هذا التمكين لا يحدث ويتحقق بين عشية وضحاها، بل هو رحلة متعاقبة المراحل، لكل مرحلة طبيعتها وأهدافها ووسائلها.

فالحكمة التربوية تقرّر "مبدأ التدرج كمنهج أساسي في عملية التغيير الاجتماعي، نظراً لطبيعة النفس البشرية التي لا تقبل التكاليف دفعة واحدة، ولا تستطيع التخلي عن العادات الراسخة والمألوفات فوراً، وإنما يتم تهيئة الأفراد لقبول المستجدات عبر عملية تدريجية، يتم فيها الانتقال من القديم إلى الجديد بشكل مرحلي. وعليه، فإن أي محاولة لإعادة بناء المنظومة القيمية والحضارية -بعد فترة من الغياب- تتطلب الالتزام بمنهج التدرج، فما تهدّم على مدى عقود لا يمكن إعادة بنائه في فترة وجيزة، وما غاب قرناً من الزمان لا يُستعاد في سنوات قليلة، مما يؤكد أن الحماس -رغم أهميته- لا يُغني عن الفقه المنهجي والقدرة على التخطيط طويل المدى"¹.

¹ عبد الله الزبير عبد الرحمان، من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، مارس-أفريل 1997، كتاب الأمة، العدد 56، ذو القعدة 1417هـ، السنة 16، ص 119.

وجدير بالذكر أن نضرب مثالا كمظهر من مظاهر التدرج في منهج الدعوة النبوي، أين تدرج النبي ﷺ في بناء الشخصية المسلمة، في مرحلة الدعوة السرية التي كانت نواة صلبة للدعوة، ثم تدرج بعدها لدائرة أوسع، عند الجهر بالدعوة، أين انتقل إلى مرحلة المواجهة العلنية، وكذلك كان الحال "التدرج" في المرحلة المدنية، التي استغرقت عشر سنوات، فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها، لم يجعل "الطفرة" تحل محل "التدرج"، ولا "الثورة" تحل محل "الإصلاح" في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام، فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع، تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقم كامل الشريعة، وللواقع الذي لا بد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة"¹، وكانت مرحلة التربية والتأسيس بالمدينة مرحلة عامرة بالتدرج أيضا، من خلال التشريعات المتجددة التي تبني الشخصية المتوازنة.

فلا مناص من القول أنّ فقه سنن التمكين يوجّه إلى التدرج في العمل، كونه يضمن استدامة هذا العمل، فالبناء المتدرج يشيد كيانا قويا متينا، عكس البناء السريع الهش الذي ينهار بأول عاصفة، كما يحافظ على الطاقة ويجنّب الإحباط، لأن تحديد أهداف مرحلية قابلة للتحقيق، يؤدّد دافعا مستمرا لبلوغ الهدف النهائي الكبير، كما يجبر التدرج القيادة الدعوية على دراسة الواقع وترتيب الأولويات، فيقدم الأهم على المهم، والأساسي على الثانوي. ومن ناحية أخرى يعلم هذا الفقه أن التمكين ليس معجزة، تنزل من السماء على قوم كسالى عاجزين، بل هو نتيجة حتمية للأخذ بالأسباب مع التوكل التام على مسبب الأسباب، في "الاعتماد الكامل على الله والثقة بكفائته لعبده مع مباشرة العبد للأسباب المشروعة أو العادية التي جعلها الله مفضية إلى مسبباتها"²، فالتمكين يتطلب شمولية الأخذ بالأسباب؛ المعنوية والمادية العلمية والعملية، وليس فقط الدعاء والعبادة، مما يرشد بذلك الدعاة إلى ضرورة التوازن، بين الجوانب الروحية الإيمانية والعملية.

وتأسيسا على ما سبق فإن هذا الفقه يقضي على المفاهيم المغلوطة التي تربط النصر والتمكين بالجهد البشري المجرد أو التمني، ويؤصل أن كلاهما نتيجة لمجموعة من الأسباب الشرعية والكونية التي يجب الأخذ بها، وكما أكدنا آنفا في شروط التمكين، فإن الإعداد المادي والإعداد المعنوي بكل متطلباته، سبيل لتحقيق التمكين وبلوغ الرقي والتداول الحضاري بين الأمم.

وتأسيسا على ما سبق، فإن العمل الدعوي المعاصر يجب أن يكون مبنيا على أسباب القوة المادية، وأسباب التنظيم والإدارة، وأسباب العلم والمعرفة، ليكون أكثر تأثيرا وقدرة على الصمود والمنافسة، ولا يتحقق

¹ - محمد عمارة، سنة التدرج في الإصلاح، www.elsonan.blogspot.com، تاريخ الولوج: 2023-10-10.

² - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص32.

ذلك إلا بالسعي لتطوير القدرات الفردية والجماعية، واستخدام أفضل الموارد المتاحة، وتقديم العمل بأعلى جودة ممكنة، كما يشمل إخلاص النية لله تعالى مع حسن التوكل والدعاء، وصدق القصد في الدعوة والتغيير، وكلها أسباب تولّد الثقة والجدية، والتوكل الذي يبارك الجهود لتؤتي ثمارها.

وختاماً يمكن القول أنّ التدرج في العمل والاستعانة بالأسباب، ركنين أساسيين من أركان فقه سنن التمكين في العمل الدعوي، فهما يعبران عن الفهم العميق للسنن الإلهية التي تحكم حركة التغيير والبناء، يجعل هذا الفقه من التدرج خريطة زمنية لرحلة العمل الدعوي، والأخذ بالأسباب هو الوقود الذي تُقطع به هذه الرحلة، من جمع بينهما أصاب التمكين الحقيقي، مستفيداً من سنن الله في الوجود بعيداً عن الاستعجال والعشوائية، قريباً من الريادة والقيادة الحضارية.

2- التمكين الجماعي والعمل المؤسسي:

يرشد فقه سنن التمكين إلى أهمية العمل الجماعي والتعاون لتوحيد الجهود، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ المائدة/2، ومنع التشتت والفرقة بين كل الأفراد لتحقيق التمكين، وهذا من الآثار الحضارية والاستراتيجية الأكثر وضوحاً لاستيعاب فقه سنن التمكين.

سنن التمكين الجماعي تصحّح مفهوم العمل الفردي، فتؤكد على أهمية العمل المؤسسي والجماعي، الذي يعبر عن الانتقال من مرحلة الدعوة الفردية إلى مشروع حضاري منظم، يوجّه الدعاة إلى أهمية العمل الجماعي وضرورته في بناء عمل منظم ومتناسق، يجمع بين الجهود الدعوية لتكون ثمرة طيبة لها بالغ التأثير والفعالية.

فاجتماع الكلمة وتظافر الجهود واستمرارية العمل؛ أمور لا يضمنها إلا النهج الجماعي المؤسسي، وقد أشار البيانوني إلى أن مضمون العمل الجماعي الذي يقوم على ثلاثة أسس هامة؛ هي التخطيط والتنظيم، والتطبيق والتنفيذ، والمتابعة لذلك كله، أقدر على الوصول إلى التخطيط الكامل، وعلى التطبيق الصحيح للخطط، وعلى المتابعة لكل من التخطيط والتطبيق، من العمل الفردي الذي يقصر تخطيطه، ويصعب تطبيقه ومتابعة الفرد له¹

وكما أكدنا آنفاً فإن الفرقة والتمزق من أبرز معيقات التمكين في العمل الدعوي، بينما الوحدة والجماعة من سنن الله تعالى في النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران/103، فالعمل وفق هذا المبدأ يكون هدفه تمكين الجماعة الحاملة للمشروع الدعوي، وليس تمكين الأشخاص، كما يتم

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 336-337.

توزيع الأدوار حسب تنوع المهارات لتحقيق التكامل، لأن الطريق إلى التمكين طويل، ويصعب على شخص واحد أن يتقن ويتفنى في جميع المجالات؛ التربوية والإعلامية، السياسية والاقتصادية...، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا العمل الجماعي يشكل قوة ضاغطة، يمكن من خلالها تحقيق العديد من المكاسب التي لن يقوى على تحقيقها العمل الفردي.

ولا يفوتنا أن ننوه بآثار هذا العمل المؤسسي والجماعي، الذي يضمن استمرارية العمل واستدامة الجهود، خلاف العمل الفردي الذي يموت بموت الشيخ أو الداعية، فالمؤسسات قادرة على تأسيس قواعد وأسس تسهم في استمرار العمل، وفق التخطيط الاستراتيجي طويل المدى، ودراسة المشاريع وتوزيع الموارد بكفاءة، مما يحقق بذلك فقه سنة التدرج والأخذ بالأسباب.

وفي هذا الإطار فإن فقه سنن التمكين يشجع على بناء المؤسسات الدعوية، والتربوية والاجتماعية التي تخدم أهداف الدعوة وتسهم في بناء المجتمع وفق رؤية التمكين، فلها دور حيوي كبير في نشر الدعوة بفاعلية وتأثير، وهذه المؤسسات سواء كانت مساجد أو مراكز إسلامية، أو جمعيات خيرية أو مدارس قرآنية، يمكنها أن تكون حجر الأساس في بناء مجتمعات قوية ومترابطة، توفر الدعم الروحي والاجتماعي، وتسهم في تحقيق التمكين الشامل، وتكون هذه المؤسسات القوية ذات الهيكل المتين درعا وحصنا منيعا، لتحمل الضربات ومواجهة شتى أنواع التحديات.

ومما يعضد هذا الاتجاه في العمل الجماعي، " الانتصارات التاريخية التي تبدو أنها من تحقيق الفرد القائد والمعجزة، أو الظاهرة الكاريزمية، في حقيقتها انتصارات للجماعة والمجتمع الذي أنتج هذا الفرد، وأتاح له فرصة القيادة، حتى القرآن الكريم وهو يتحدث عن النبي ﷺ، يشير بشكل لافت دقيق إلى أن النبي ﷺ ما كان له أن يصنع ما صنع، وهو الذي يتحرك وفق أرضية سننية صلبة؛ لولا أن الله أيده بهذه الطائفة والثلة من الصحابة كموارد بشرية إيمانية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال/ 62، ما يعني أن الانتصار في صورته النهائية إنجاز جماعي تشاركي".¹

وزيادة على ذلك فقد كان العمل النبوي نموذجا، وبذرة أولى للعمل الجماعي المؤسسي في جوهره، فبيعة العقبة كانت تأسيسا لأول جماعة سياسية، ووثيقة المدينة كانت دستوراً مؤسسيا ينظم العلاقات بين جميع مكونات الدولة الجديدة، بالإضافة إلى توزيع النبي ﷺ للمهام على صحابته، حسب تخصصاتهم؛ كتاب الوحي، القادة

¹ - عادل عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص 223.

العسكريون، المعلمون، السفراء "فقد بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين -بيعة العقبة الأولى- أول سفير في يثرب، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مصعب بن عمير العبدى ﷺ".¹

ومما لا شك فيه فإن توظيف الوسائل الإعلامية، والتقنية الحديثة في العمل الدعوي، واحدة من الضروريات التي يحتملها عصر التكنولوجيا والاتصالات الراهن، ومن شأن هذه الوسائل أن توفر أدوات قوية لبناء خطاب دعوي مجتمعي، على مستوى هذه المؤسسات، ليصل تأثيره إلى شرائح واسعة وفئات مختلفة من الأفراد، فتسهم بذلك في تعزيز الفهم الصحيح للإسلام وقيمه.

وخلاصة القول مما سبق، فإن غياب الفهم السليم للعمل الجماعي المؤسسي في العمل الدعوي، يجعله سلسلة من الجهود الفردية المتقطعة، التي تأثر مرات وتفشل أخرى، بينما يتحول هذا العمل الدعوي إلى مشروع حضاري متكامل، في ظل هذه الجماعة والمؤسسة التي تعطي له رؤية واضحة، وهيكل تنظيمي متين، وآليات عمل محكمة تستوعب مختلف الطاقات، وهو بهذا يكون أهلا لحمل أمانة التمكين في الأرض وتحقيق الاستخلاف.

ومجمل القول من هذا المبحث، فإن فقه سنن التمكين يمثل نقلة نوعية في العمل الدعوي المعاصر، من العشوائية والعاطفية إلى المنهجية والاستراتيجية، حيث يصبح فهم القوانين الإلهية الحاكمة للصعود والهبوط، منطلقا لبناء مشروع دعوي فاعل ومستدام، فيصبح هذا العمل الدعوي قادرا على فهم التاريخ وتحويله إلى خريطة طريق، وتحويل التحديات إلى فرص للنمو والتطور، وبناء نماذج جذابة تقدم الإسلام كحل لمشكلات العصر، لأنه يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

وبالتالي فإن فقه سنن التمكين ضرورة ملحة للعمل الدعوي المعاصر، فهو بمثابة بوصلة ونور يهدي العمل الدعوي، ويحوّله من جهود مشتتة مبعثرة إلى مشروع حضاري متكامل ومنهجي، باعتباره يستند إلى الرؤية الشرعية ويسعى لتحقيق الأهداف الكبرى للأمة، فهذا الفقه منارة تهدي الدعاة في طريقهم، وميزان يزنون به أعمالهم، كي لا تميل إلى كفة الخسران والضياع.

وبما لا يدع مجالا للشك، فإن هذا الفقه يمثل إطارا فكريا وعمليا لا غنى عنه لترشيد العمل الدعوي في عصرنا الحاضر، فهو يوفر للدعاة منهجية شاملة، تجمع بين الأصالة الشرعية والواقعية، إذ يمكن الدعاة والمؤسسات الدعوية من بناء استراتيجيات أكثر فاعلية، توجه جهودهم نحو بناء مجتمعات قوية ورائدة، من خلال فهم هذه السنن الإلهية، والأخذ بالأسباب، وتطوير الخطاب وفق متطلبات الواقع.

¹ - صفى الدين المبارك كفوري، الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص 167.

وختاماً فإن الفقه بسنن التمكين يضمن أن تكون الجهود الدعوية مثمرة وفعّالة، فيحقق العمل الدعوي تأثيراً مستداماً، ويسهم بفعالية في تحقيق النهضة المنشودة للأمة، وتمكين دين الإسلام في الأرض وفق مراد الله تعالى.

ولعله من المناسب أن نقف في نهاية هذا الفصل، الذي كان تحت عنوان مقومات تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، على خلاصة جامعة لما ورد فيه، إذ أنّ تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر يمثل إطاراً منهجياً لاستعادة الدور الحضاري للأمة، من خلال وعي عميق بالسنن الإلهية التي تحكم حركة التاريخ، ولا يتم هذا التفعيل إلا بترسيخ مقوماته الأساسية، والتي قسّمناها إلى أربعة مباحث.

تناول المبحث الأول جملة الشروط المعنوية والمادية لتفعيل سنن التمكين، فمن الناحية المعنوية، تُعد قوة الإيمان والعقيدة الصحيحة حجر الزاوية في بناء الشخصية الدعوية القادرة على حمل الرسالة، مقترنة بالعمل الصالح الذي يُترجم هذا الإيمان إلى واقع عملي، مع الصبر على المشاق والتقوى التي تكون وقايةً وروحاً تسري في كل خطوة.

ولا غنى عن تكامل هذه الأسس المعنوية مع الشروط المادية العملية، وأهمها إعداد القوة الشاملة بجميع تجلياتها المادية والفكرية، وإعداد القيادات الربانية المؤهلة علمياً وعملياً، والسعي الحثيث لتحقيق الوحدة والتكامل بين جهود العاملين، لأن التمكين لا يتم في ظل الفرقة والشقاق.

ويمتدّ تأثير هذا التفعيل ليشمل أهدافاً عقديّة وحضارية سامية، تضمنها المبحث الثاني؛ وتتجلى الغايات العقدية في إقامة الفرائض كالصلاة التي تمثل المنطلق الروحي للتمكين، والزكاة كنظام تشريعي يحقق العدالة الاجتماعي، بينما تبرز الأهداف الحضارية في ترسيخ مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لتحقيق المساواة والعدل، وتعزيز التكافل الاجتماعي، وبناء الإنسان الحضاري القادر على تحقيق رسالته، والعطاء لغيره.

غير أن الطريق إلى التمكين لا يخلو من عقبات وتحديات، تأتي من الداخل والخارج على حد سواء، فمن أبرز التحديات الداخلية تنامي ظاهرة الخلاف والفرقة التي تفتت الجهود، وضعف التخطيط والتنسيق، والجمود الفكري والاجتهادي الذي يعيق مواكبة مستجدات العصر، أما التحديات الخارجية فتشمل الهجمة الفكرية والثقافية التي تستهدف مقومات الأمة، والحرب الإعلامية المشوّهة، فضلاً عن ضغوط الأنظمة الاستبدادية التي تُضيق على حركة الدعوة، وهذا ما كان ضمن المبحث الثالث في الفصل.

وأخيراً، جاء المبحث الرابع ليؤكد أن فقه سنن التمكين له آثارٌ بالغة في ترشيد العمل الدعوي المعاصر، تظهر على المستوى التربوي البشري في تنمية القدرات، وتربية الجيل على الصبر والثبات والمصادقية، وعلى المستوى الفكري الاستراتيجي، إذ يُسهم في وضوح الرؤية والتخطيط المحكم، وتأسيس المنهج الشرعي بالاستناد إلى السيرة النبوية، كما ينعكس هذا الفقه إيجاباً على الجانب التطبيقي التنفيذي، من خلال اعتماد التدرج في العمل، والاستعانة بالأسباب، والانتقال من العمل الفردي إلى التمكين الجماعي والعمل المؤسسي المنظم.

الفصل الرابع:

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومجالات التمكين في عملها الدعوي

المبحث الأول: التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبأهدافها

المبحث الثاني: مجال التمكين الديني "العقدي" في العمل الدعوي للجمعية

المبحث الثالث: مجال التمكين الاجتماعي "الثقافي" في العمل الدعوي للجمعية

المبحث الرابع: مجال التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية

يُعد الحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من الأمور التي حظيت ولاقت الكثير من الاهتمام

والشهرة، -فهي خير جمعية أخرجت للشعب الجزائري، في أشد أوقات المعاناة من ويلات الاستعمار^(*)، الفرنسي وسياساته-، والدليل على ذلك كثرة الصحف والبحوث والكتب والمؤلفات التي خرجت من رحم الجمعية من جهة، ومن جهة أخرى جملة الإصدارات والبحوث المعروفة لها، من قبل مؤرخين معاصرين وغير معاصرين، فنجد من تناولها بالبحث من الجانب التاريخي، ومن الجانب الأدبي، وآخر من الجانب الديني التربوي، وهناك من تناولها أيضا على المستوى السياسي، وكذا الجانب الاجتماعي الإصلاحية الدعوي؛ وهو مجال ومدار حديثنا لتماشيه مع مضمون الدراسة.

فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعتبر واحدة من أكبر الحركات الإصلاحية الدعوية على مرّ تاريخ المجتمع الجزائري، لكثرة الأهداف والبرامج التي رسمتها واستطاعت بلوغها والقيام بها في ظل واقع استعماري طويل مرير، غاصب مليء بشتى أنواع العقبات والضغوطات التي مارسها على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الأساسية؛ دينا ولغة، تاريخا وثقافة، وكذلك بالنسبة أيضا لجملة الأعمال التي حققتها والتي لانزال نتلمّس تأثيرها في واقعنا.

فجدير بالذكر أن نشاطها كان على علاقة مباشرة بالواقع، الذي يعيشه المواطن الجزائري؛ دينيا، ثقافيا واجتماعيا وحتى سياسيا، إلا أنّ المنهج العلمي يتطلب منا التعريف بالجمعية، والإحاطة بالسياق التاريخي لنشأتها، وإبراز الأهداف التي جاءت لتحقيقها، مع بيان مجالات التمكين التي استطاعت تجسيدها في واقع المجتمع الجزائري، وتفصيل ذلك كالآتي:

(*)-الاستعمار: تعبير أُطلق على استيلاء شعب بالقوة العسكرية على شعب آخر، لنهب ثرواته، واستغلال أرضه، وتسخير طاقات أفراد له لصالح المستعمرين، ويرافق ذلك اتخاذ مخططات تحويل هذا الشعب عن دينه، ومفاهيمه، ومبادئه، وأخلاقه، وسلوكه الفردي والاجتماعي، إلى ما عليه دولة الشعب الغالب المستعمر.

انظر: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص54.

المبحث الأول: التعريف بجمعية العلماء المسلمين وأهدافها

في ظل التحديات الاستعمارية، برزت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كمنارة علمية، وصرح إصلاحي شامخ، مثلت ضمير الأمة الجزائرية وهويتها الإسلامية والعربية، تلك الجمعية التي أسسها كوكبة من علماء الجزائر الأفاضل، لم تكن مجرد مؤسسة دينية تعليمية فحسب، بل كانت مشروعاً نهضوياً شاملاً، ومقاومة فكرية وروحية في وجه سياسات التغريب والطمس الثقافي التي انتهجها المستعمر الفرنسي.

حملت الجمعية على عاتقها أمانة الحفاظ على دين الأمة ولغتها وتاريخها، مجسدة في ذلك مقولة مؤسسها الخالدة: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، فسعت بجهد متواصل إلى ترسيخ هذه المقومات في وجدان الشعب، من خلال بناء المدارس ونشر العلم، وتنقية العقيدة من البدع والخرافات، وإحياء روح الوطنية الصادقة، ولقد كانت أهدافها تجسيدا عمليا لسنة الأخذ بالأسباب في تمكين العمل الدعوي والإصلاحي، وفيما يلي تفصيل وبيان ذلك:

المطلب الأول: التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

إن التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يستدعي الوقوف على سياقها التاريخي، وظروف نشأتها، والعوامل الاجتماعية المؤثرة فيها، وهذا ما وقفنا عليه في هذا المطلب وصولاً إلى التعريف بها، مستعينين في ذلك بالآراء الموالية والموافقة لما صدر عن الجمعية، دون الوقوف على اختلافات المؤرخين حول مرحلتها التأسيسية، والبداية الحقيقية للتفكير في تأسيسها، وبناء على ذلك فقد اختلفوا في المؤسس الحقيقي لها، رغم أن التوجه الكبير يميل في اعتبار الشيخ عبد الحميد ابن باديس المؤسس لفكرة جمعية العلماء المسلمين.

وجدير بالذكر، أن ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان ضرورة وحاجة، نادى بها كل صاحب فطرة سوية وقلب سليم، نحر الجهل عظامه وقبع الفقر والمرض جسمه، ما جعل الأبصار تُشدّ إلى بريق الأمل الذي سطع به هذا الحصن العلمي، والمنارة الفكرية التربوية، كونها تسعى للحفاظ على هوية الأمة الجزائرية، وإصلاح أوضاع المجتمع وتقويمه على المنهج القرآني.

وتأسيساً على ذلك فإن المرحلة التأسيسية لنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أكثر مراحلها التاريخية حساسية، وذلك راجع لطبيعة الظروف التاريخية والاستعمارية السائدة في الجزائر حينها، وقد ساهم في نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عوامل وأسباب متعددة ومختلفة، أشار إليها إبراهيمي والمتمثلة في:

- نوازع جزئية محدودة أحدثتها في النفوس المستعدة الأحاديث المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام عبده، ويضاف إلى هذا العامل قراءة المنار على قلة قرائه في ذلك العهد، وإطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية وابن القيم والشوكاني، فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية.

- الثورة العلمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس(*) بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي كان ييثرها في نفوسهم الطاهرة النقية؛ الإعداد البعيد الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، ثم زحف من أولئك التلاميذ كتيبة جرارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة إلى جامع الزيتونة لتكتمل معلوماتها، فكانوا جنود الإصلاح اليوم وقادته وألويته المرفوفة وأسلحته النافذة.

وإن هذا العامل يعتبر في الأساس نواة لحركة الإصلاح الديني بالجزائر؛ لأنه ارتبط بدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة فقد بدأ عام 1912م يدرس بالجامع الكبير، ولكن منعه ابن الموهوب من ذلك فتوسط له أبوه الذي كان موظفا رسميا لديها، فانتقل إلى الجامع الأخضر في بداية شهر جمادى الأولى 1332هـ الموافق أبريل 1914م، ثم انقطع عن التدريس فترة ليحج بيت الله الحرام ويزور مصر وغيرها من بلاد المشرق ليتعرف على علمائها ويتلقى عليهم العلم، وكانت عودته إلى الجزائر قبيل الحرب الأولى ثم عودة الإبراهيمي والعقبي إذانا بالانطلاقة الكبرى لحركة الإصلاح¹، وفي ذلك يقول مالك بن نبي "ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت تلك ساعة اليقظة"².

- التطور الفكري الفجائي الذي خرج به الجمهور من ثمرات الحرب العظمى، ومن آثار ذلك التطور انحطاط قيمة المقدسات الوهمية في نظر كثير من الناس.

(*) - هو الشيخ عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس، وأمّه زهيرة بنت علي بن جلول، وينتسب ابن باديس إلى أسرة عريقة وكبيرة اشتهرت بالعلم والجاه، تميز عبد الحميد بن باديس بنبوغه وذكائه فضلا عن حبه للعلم والمعرفة منذ الصغر، حيث أتم حفظ القرآن الكريم وهو في عمر ثلاثة عشر سنة، لقد عرف عن الشيخ عبد الحميد بن باديس أنه علم من أعلام المجاهدين في المغرب العربي الكبير، ورائد من رواد النهضة العربية الإسلامية الحديثة، وداعية مجتهد ومصلح إسلامي كبير، وكانت له آثار عديدة ومعظمها نشر في الصحافة الوطنية والإصلاحية أو بصحافته المستقلة، وأبرزها مجلة الشهاب وجريدة البصائر وبعض الكتيبات الدرر الغالية في آداب الدعوة، والعقائد الإسلامية ومبادئ الأصول، توفي الشيخ يوم الثلاثاء 16 أبريل 1940 إثر تعرضه لمرض مفاجئ وقصير، فنعت الجزائر كلها، وحزن على فقده محبوه، وعارفو فضله ومكانته في العالمين العربي والإسلامي، ودفن في مسقط رأسه بمدينة قسنطينة، التي خرج جماهيرها في وداعه وفية لرائد ومصلح ومرب ومعلم وداع حكيم. انظر: عمار بن مزوز، عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل، الجزائر، ط2، 2015، ص11-16

1 - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1997م، ج4، ص37.

2 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص20.

- عودة فئة من أبناء الجزائر البررة المخلصين من الحجاز مهد الإسلام الأول ومنبت الدعوة إلى الحق ومبعث الإصلاح الإنساني العام، بعد أن تلقوا العلم هناك بفكرة إصلاحية ناضجة متخمرة.¹

ومن خلال هذا العرض للسياق التاريخي والاجتماعي، حول نشأة جمعية العلماء المسلمين التي أشار إليها الإبراهيمي، يمكن تقسيمها إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية، تفصيلها كالآتي:

-العوامل الخارجية لنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: والمتمثلة في:

- تأثير الشخصيات السياسية: ومن أبرزها تأثير الشيخ محمد عبده، خاصة بعد زيارته للجزائر سنة 1903، والتقاءه بعلمائها تاركاً جملة أفكاره التي خلّدها تلاميذه أمثال رشيد رضا، كما أكد رجال الجمعية في أكثر من مناسبة تأثرهم بدعوة الشيخ محمد عبده حيث يقول أحدهم " لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الشيخ محمد عبده"²، ويقول الشيخ محمد خير الدين - وهو من الأعضاء المؤسسين للجمعية في مذكراته "...والحركات التحررية في بعض بلدان المشرق العربي مدينة لحركة الإصلاح الفكري والديني التي قادها موقظ الشرق جمال الدين الأفغاني ومن بعده الإمام محمد عبده ثم تلميذه رشيد رضا، ولم تكن هذه الحركة بعيدة عنا، بل كان مددها متصلاً ببلادنا"

- تأثير كتب ومجلات ومنشورات العلماء المصلحين: أمثال كتب ابن تيمية، وابن القيم، ومجلة المنار التي يشرف عليها رشيد رضا، والتي كانت محل توجس وخوف من قبل الجزائريين الذين خافوا منعها وعرقلة دخولها من طرف السلطات الفرنسية كونها تتطرق إلى الأمور السياسية، ولهذا نجد اعتراف الشيخ عبد الحميد بن باديس بفضل الشيخ محمد رشيد رضا ومجلة " المنار " عليه.

فيقول " نشرنا ما يلي من تفسير حجة الإسلام محمد رشيد رضا من آخر جزء أصدره عن مجلة المنار اعترافاً له بفضل السبق إلى نشر هداية القرآن على المسلمين بمجلة شهرية كانت قدوتنا فيما ننشر من مجالس التذكير"³ ولم تقتصر الاستفادة من الشيخ رضا على موضوع تفسير القرآن فإن ما كان يكتبه الشيخ محمد رشيد رضا في المنار وغيرها قد أوضح الإسلام للمسلمين ولغيرهم وبين لهم الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم

¹ - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، دط، دس، ص 37-38.

² - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 47.

³ - ابن باديس، الشهاب، ج 7، أكتوبر 1935، ص 11

إصلاحا وهداية وبيانا ودفاعا كلها من آثاره"¹

- تأثير الأحزاب السياسية الأوروبية وآثار الحرب العالمية الأولى: فقد كانت الأحزاب السياسية الأوروبية نموذجا حيا في واقع المجتمع الجزائري أين "أخذ المسلمون الجزائريون في الاستئناس بمختلف المؤسسات والأحزاب الأوروبية، حينئذ كيف لا يتطلعون هم أيضا تحت غطاء الدين إلى تكوين تشكيلة من شأنها أن تدهش الإدارة من حيث أهميتها الاجتماعية وصيتها الشعبي؟"²

وفي إطار التأثير لا يفوتنا أن ننوه بآثار الحرب العالمية الأولى؛ والتي شارك فيها الجزائريون أين تعرفوا على جملة أفكار ومفاهيم جديدة ساهمت في تبلور الحركة الإصلاحية، ومن جملتها مثلا المساواة، الحرية، تقرير المصير والاستقلال.

أما بالنسبة للعوامل الداخلية لنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

فقد كان لها وافر النصيب في نشأة جمعية العلماء المسلمين ومنها العوامل الإيجابية والسلبية نذكر منها:

- الثورة التعليمية التي أحدثها ابن باديس: من خلال تقديم الدروس وإلقاء الخطب، وعقد حلقات لطلب العلم الشرعي بعد عودته من تونس والمشرق العربي، والتي كانت بمثابة إشعاع روحي وعقلي لخريجي العهد الجديد من أبناء المدرسة الباديسية.

- القابلية لإنشاء جمعية إسلامية أو حزب ديني: تتجسد فيها معاني الأخوة والوحدة الإسلامية التي أكدت عليها النصوص القرآنية والنبوية، باعتبارها أساسا وسيلا للإصلاح والتغيير وتحقيق النصر والتمكين، حيث تتجمع فيه الجهود وتتكاثر لبلوغ غايات عظيمة وأهداف فرضها الواقع الاجتماعي المفروض، ولا يتأتى ذلك إلا داخل صرح يجمع القلوب ويوحد الصفوف.

فكانت "فكرة إنشاء تجمع إسلامي أو "حزب ديني" ليست بغريبة على الوعي الإسلامي، فهي لا تستند على التراث الثقافي فحسب، بل أولا على معطيات قرآنية وتعاليم الرسول ﷺ. فالمسلمون يتصورون أنفسهم جميعا "كحزب الله" حسب التعبير القرآني، فحتى وإن كانوا متفرقين اجتماعيا، وخاضعين للانفصال السياسي، فهم دائما يتطلعون إلى أن يصبحوا "حزب الله" هذا الذي يوعد بالنعيم في الدار الآخرة"³، وبذلك تعززت فكرة

¹ - ابن باديس، الشهاب، ج9، ديسمبر 1935م، ص510.

² - علي مزاد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، 1925-1940 ترجمة: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، ط خاصة وزارة المجاهدين، 2007، ص146.

³ - علي مزاد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، 1925-1940، مرجع سابق، ص145.

إنشاء جمعية دينية ثقافية لدى الإصلاحيين الجزائريين.

- الصحافة العربية الإصلاحية في الجزائر: والدور الذي لعبته في تحضير الرأي العام أوائل العشرينات¹، منها: صحيفة: الجزائر، ذو الفقار لعمر راسم، المنتقد، ثم الشهاب لابن باديس.

أما بالنسبة للعوامل السلبية فقد كان لها أيضا الدور البارز في نشأة ج ع م ج والتي تجلت فيما يلي:

- الطرق الصوفية والمرابطين المنحرفين: الذين شوهوا الدين الإسلامي وأبعدوه عن ماهيته الحقيقية وجوهره الأساس، فكانوا أيادي هدامة للدين، وباسمه تخدم الأغراض والأهداف التي يسطرها الوجود الاستعماري.

- الدعوات الاندماجية: التي ظهرت مع بعض المثقفين المتفرنسين المتغربين، الذين حاولوا سلخ الشعب الجزائري عن هويته.

- الضغط الذي مارسته فرنسا ضد الدين الإسلامي: وخاصة بعد إصدارها لقانون يقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة، ما يعني بذلك بسط السيطرة والهيمنة المطلقة على كافة النواحي؛ الدينية منها والسياسية والثقافية والاجتماعية.

وتأسيسا على ما سبق فإن السياق التاريخي لنشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ بالرجوع إلى وثائق الجمعية ومصادر بعض علمائها، ومن بينهم محمد البشير الإبراهيمي، الذي صوّر لنا فكرة التأسيس التي انطلقت في لقاءات الحجاز، حيث اجتمع مع رفيقه ابن باديس في المدينة المنورة، أين لبثا بها ثلاثة أشهر يلتقيان يوميا من بعد صلاة العشاء حتى أذان صلاة الفجر، يدرسان ويناقشان أوضاع الجزائر، ويخططان لكيفية إصلاح هذه الأوضاع، وتحقيق نهضة فيه على مستوى مجالات عدة، فقال: "كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تديرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تترأى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931"² كما بقيت الاتصالات واللقاءات مستمرة حتى بعد عودتهما إلى الجزائر.

¹ - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985، ص92.

² - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج5، ص278.

ومما لا شك فيه فإن تأخر تأسيس الجمعية في هذا الوقت، علامة من علامات تطبيق مبدأ الواقعية، أو مراعاة لفقهِ الواقع الذي يدعو لإنشاء وإعداد الجيل المتعلّم، الذي يغرس فيه عبد الحميد بن باديس أفكاره الإصلاحية والتعليمية، فيشدوا عضده ويكونوا سندا في تمكين عمله الدعوي الجماعي فيما بعد، وهذا ما جعله حريصا على التعارف والاجتماع بأكبر عدد من العلماء المصلحين في رحلاته ومراسلاته لهم داخل القطر الجزائري، لحمل أعباء الدعوة وتكوين قاعدة صلبة ينطلق منها الإصلاح.

وإن هذا التأجيل لا يعني بحال من الأحوال إلغاء المشروع، لأن الفكرة استوطنت في العقول أين تم التخطيط لميلاد جمعية منطلق دعوتها الإصلاح الديني وتحقيق الوحدة الإسلامية، وبث أنفاسها عبر أقطار التراب الوطني الذي تعشّشت فيه مظاهر الفساد الديني والاجتماعي والسياسي والثقافي...، وعبر عن الحدث الشيخ الإبراهيمي (*) بقوله: "زارني الأخ الأستاذ عبد الحميد بن باديس - وأنا بمدينة سطيف أقوم بعمل علمي - زيارة مستعجلة في سنة أربع وعشرين ميلادية فيما أذكر. وأخبرني بموجب الزيارة في أول جلسة أنه عقد العزم على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة العاصمة العلمية"¹

ولكن مشروع جمعية الإخاء العلمي تعطل ولم يتجسد في الميدان هو الآخر إلا بعد سنوات وهذا ما أقره الإبراهيمي بقوله "فقد فشلنا في تأسيس جمعية الإخاء العلمي ظاهرا وفيما يبدو للناس ولكن تلك المحاولات لم تذهب بلا أثر في الجمعيات العلمية الجزائرية حتى كان من نتائجها بعد أعوام جمعية العلماء المسلمين"²

وجدير بالذكر أنّ هذا الفشل كان نقطة انطلاق، لأن تدهور الظروف والأوضاع الاجتماعية والدينية بالجزائر شكل نقطة إنذار للعلماء كافة بضرورة التفكير في حل فعال يخرج الأمة من ذلك الوضع المتردي، ولأجل ذلك أصدر ابن باديس سنة 1925م نداءً إلى العلماء المصلحين قائلا لهم: "أيها السادة الأدباء المؤيدين

(*) - وُلد في قرية رأس الوادي بولاية سطيف عام 1889م. تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه حيث أتم حفظ القرآن الكريم على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي، في عام 1911م، قام برحلة علمية إلى الحجاز مروراً بمصر، حيث أتاح له إقامته القصيرة فيها التواصل مع عدد من أعلام الفكر والأدب فيها. استقر لاحقاً في المدينة المنورة حيث تتلمذ على يد كبار علمائها، ودرس علوم التفسير والحديث والفقهِ واللغة العربية وآدابها، إضافة إلى اطلاعه على علوم المنطق والحكمة.

تمثل نقطة التحول في مسيرته في لقائه بالإمام عبد الحميد بن باديس خلال موسم الحج عام 1913م، حيث وضعاً معاً الأسس لحركة الإصلاح في الجزائر. عاد إلى الوطن عام 1920م حاملاً مشروعاً نهضوياً، وانضم إلى جهود ابن باديس في قسنطينة قبل أن يستقر في مدينة سطيف حيث أسس مدرسة ومسجداً كمؤسستين تربويتين رائدتين. انظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص9-10.

1 - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص41.

2 - المرجع نفسه، ص42.

للإصلاح، المتواجدون في مناطق متفرقة مختلفة في الجزائر، هلموا، اتحدوا، وتعاونوا وأسسوا حزبا وثيقا(حزب ديني محض)، من أجل تنقية الدين من الشوائب والبدع التي لحقت به من السذج والجاهلين، وذلك بالرجوع إلى المصادر القرآنية، وأحاديث الرسول، وتقاليد القرون الثلاثة الأولى، نحن نتمنى أن يقبل كل شخص هذا الاقتراح، وأن يليي نداء العلماء مؤيدي الإصلاح الذين يؤيدون هذه الصحيفة، وأن يغادروا أفكارهم القديمة، وإذا حصلنا على شهادة استحسان وقبول عدد كاف، سنشرع في تكوين الحزب، والله الموفق" ¹

وقد لاقى هذا النداء استجابة واسعة من مختلف شرائح المثقفين الإصلاحيين، أين تمت استضافتهم في نادي الترقى الذي يعتبر الحاضن الأول لجمعية العلماء المسلمين في بداية التأسيس، كون هذا النادي يهدف إلى "مساعدة الأعمال التمدينية التي تقوم بها فرنسا وذلك بالسعي إلى تثقيف مسلمي الجزائر علميا واقتصاديا واجتماعيا ولذلك فالجمعية تبذل كل مجهوداتها للوصول إلى مايلي:

- نشر التعليم العام والتعليم الصناعي.

- مساعدة التجارة والصناعة والفنون.

- مد يد الإعانة للفقراء.

وقد انعقدت الصلة بين العلماء وبين النادي منذ تأسيسه ففي 19 صفر 1346هـ الموافق 18 يوليو 1927م² كان الشيخ عبد الحميد ابن باديس ضيفا على النادي لإلقاء محاضرة بعنوان: "الإجماع والنادي عند العرب"، ثم إن مؤسسي النادي سرعان ما استدعوا الشيخ الطيب العقبي ليكون محاضرا دائما في النادي، وكأنهم أرادوا أن يكون للعاصمة عالمها كما كان الشيخ بن باديس في قسنطينة³

وبما لا يدع مجالا للشك فإن هذا النداء والاجتماع قد أسفر عن آثار طيبة في توحيد صفوف العلماء المسلمين الجزائريين؛ بدور بارز من الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي روج لهذه الفكرة، والتي تجسدت بالفعل في 05 ماي 1931م، حيث يقول الشيخ البشير الإبراهيمي عن ميلاد الجمعية مايلي: "تكوّنت في شكلها القانوني أواسط عام 1931 ميلادية، وكأن الله جعلها تنقيصا للاستعمار، فقد كان نشوان بخمرة الفرح مرور مائة سنة على استقراره في الجزائر، وقد مضى السنة التي قبلها في مهرجانات صاحبة دعا إليها العالم، فما لبى إلا قليل، فما

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، 1925-1940، مرجع سابق، ص 120

² - الشهاب، عدد 108، 4 أغسطس 1927.

³ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن-الطفل-ترجمة: مروان قنواقي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1969، ص 327.

دخلت السنة الثانية حتى فوجئ بتكوين جمعية العلماء، في غمرة من ابتهاج الأمة بهذا المولود الجديد...¹

وقد حضر حفل التأسيس 72 عالما وطالب علم، من مختلف أنحاء القطر الجزائري بدعوة من اللجنة التأسيسية، وعلى رأسها عمر إسماعيل، وكان الاجتماع يهدف إلى وضع القانون الأساسي للجمعية، فعيّنوا للرئاسة المؤقتة أبا يعلى الزواوي، وللكتابة محمد الأمين العمودي الذي تلا القانون فأقرته الجمعية بالإجماع.

وفي المساء من نفس اليوم أعيد الاجتماع لانتخاب الهيئات الإدارية، طبقا للقسم الثالث والفصل السابع من القانون الأساسي لاختيار الأعضاء وهم: عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، ومحمد الأمين العمودي، ومبارك الملي، وإبراهيم بيوض، ومولود الحافظي، ومولاي بن شريف والطيب المهاجي، والسعيد الياجوري، وحسن الطرابلسي، وعبد القادر القاسمي، ومحمد الفضيل الورتلاني، وحددت لهؤلاء مهمة اختيار المهام فيما بينهم، وتم سن القانون الأساسي للجمعية وانتخاب الهيئة الإدارية وانتخب ابن باديس غيايبا² للرئاسة والإبراهيمي نائب له وللكتابة العامة محمد الأمين العمودي ولمساعدته العقبي والأمانة المالية للملي والأستاذ إبراهيم بيوض مساعد له.³

وبصدد غيايبه يقول ابن باديس: "...لكنكم بتواضعكم وسلامة صدوركم، وسمو أنظاركم، جئتم بخلاف اعتقادي في الأمرين، فانتخبتموني وأنا غائب"⁴

وفي اليوم الثاني الموافق لـ 06 ماي 1931 عقدت الهيئة الإدارية أول جلسة بنادي الترقى برئاسة محمد البشير الإبراهيمي، وقد حضر الاجتماع كل الأعضاء ماعدا الأستاذين، عبد الحميد بن باديس وحسن الطرابلسي، وتم خلال الجلسة إعادة النظر في القانون الأساسي، وأقر بالإجماع، وقرر ترجمته للغة الفرنسية للمصادقة عليه، وفي اليوم الثالث عقدت الهيئة الإدارية بحضور عبد الحميد بن باديس، وعرضت عليه لائحة الأعمال السابقة.⁵

1 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4، ص164-165.

2 - في غياب ابن باديس ترأس اللجنة التأسيسية السيد عمر إسماعيل الذي كانت له ثقة بالفرنسيين، ويعد من زعماء الزوايا، وهذا حتى لا تحوم عليهم الشبهات، وفي رواية لخير الدين يؤكد أن ابن باديس أباح له وللملي بسر، وهو أنه سيتغيب عن الاجتماع متعمدا، حتى يكون مدعو وليس داعيا ودائما لإبعاد الشبهات أنظر: الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة، العدد 87، مرجع سابق، ص23.

3 - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دس، ص101-102.

4 - محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، العدد 87، ماي-جوان 1985، ص23.

5 - الشهاب، مرجع سابق، ص341.

وكان الناس أمام هذا الصرح الجديد فرقا ثلاثة: فريق استراح لها وتفاعل بها ورآها خيرا وبركة على المجتمع الجزائري، وفريق توجس منها خيفة وتشاء منها ورآها شرا عليه، ضم المعمرين والطرقين، ودعاة الاندماج والتجنس، وفريق توسط الفريقين الأولين؛ تحير لم ير الحق حقا فيتبعه ولم ير من هذه الجمعية باطلا فينكره¹، لأن حدث تأسيس الجمعية كان النواة الأولى والباعثة للأمة الجزائرية، فهو حدث تاريخي أدى لتغيير أوضاع الجزائر على مستويات عدة منها الدينية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية وحتى السياسية.

وبعد الانتهاء من التنظيمات الإدارية في الجمعية وتوزيع المسؤوليات على أعضاء مجلسها الإداري، تقدمت بطلب رسمي للحصول على ترخيص من الإدارة الاستعمارية، فجاءت الموافقة بصورة سريعة من عمالة العاصمة، ويرجع ذلك القبول حسب ما ذكره أحمد الخطيب إلى عدة عوامل منها:

الاحتفال المئوي لاحتلال الجزائر وما رافقه من استفزاز لعقيدة الجزائريين، وبالتالي جاء الترخيص لجمعية العلماء كخطوة معتدلة من طرف فرنسا لتهدئة الشعب الجزائري ومنعه من الاحتجاج.

- وجود شخصية معتدلة هو "جان ميرانت" على رأس مديرية الشؤون الإسلامية، والذي يُشهد له تسامحه مع الحركات الإسلامية²

وبعد هذا العرض للسياق التاريخي لنشأة الجمعية، نقف على تعريف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

حيث جاء في قانونها الأساسي ما ينص على أنها: جمعية إرشادية تهذيبية، وأنه لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض، أو تتدخل في المسائل السياسية، وجاءت بقصد محاربة الآفات الاجتماعية، تدعوا إلى الأخوة الإسلامية بين المسلمين وحفظ القوانين والحقوق بين جميع الأجناس وتمجيد الإسلام واللغة العربية³.

وبالتالي نفهم من هذا أن جمعية العلماء المسلمين إسلامية في سيرها وأعمالها، في شكلها ومضمونها، لأنها تسعى للوعظ والإرشاد وتقويم السلوك من الزيغ والانحراف وفق نهج القرآن الكريم والسنة النبوية، بالإضافة إلى الحفاظ على اللغة العربية لأنها لسان حال الفرد الجزائري في التعبير عن حقائقه وأحواله والمطالبة بحقوقه وحياته، وعلى هذا الأساس صيغ شعار الجمعية المعروف: "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا".

¹ - محمد المبلي، الشيخ مبارك المبلي (حياته العلمية ونضاله الوطني)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 2001، ص215.

² - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص99.

³ - إبراهيم مياشي، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، دط، 2010، ص176.

وهناك تعبير آخر، حول تعريف الجمعية مفاده؛ أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حركة إصلاحية سلفية من جهة، ولكنها من جهة أخرى؛ تعبير لحركة قومية تعارض كل سياسية، تنادي بإدماج الجزائر في فرنسا، وتطالب بالمحافظة على صبغتها الإسلامية والعربية، كما كانت تناضل في السر والعلانية في سبيل تنظيم الشعب كي ينهض لمقاومة الاستعمار من أجل تحرير الوطن وضم الجزائر إلى الأسر العربية.¹

والملاحظ على هذا التعريف أنه تعريف جامع يشمل جملة الأهداف الدينية والاجتماعية والسياسية التي سطرها الجمعية، وذلك بالسعي للإصلاح على ضوء المنهج السلفي الإسلامي، ثم رفض سياسة الإدماج التي تجرد الأمة وتطمس ملامح هويتها وحضارتها وتاريخها وثقافتها، دون أن ننسى الهدف الأساسي من كل هذه الجهود السابقة وهو تحقيق استقلال الوطن وتحريره من قمع المستعمر وسطوته.

وخلاصة القول فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي جمعية دينية إصلاحية برزت للوجود في الخامس 05 ماي سنة 1931م، هدفها غرس القيم والأخلاق الفاضلة لصالح الفرد أولا ثم صلاح المجتمع ثانيا؛ بكافة شرائحه صغارا وكبارا، رجالا ونساء، مستغلة بذلك شتى الوسائل مسجدا ومدرسة، نادي وصحيفة... ليكونوا بذلك حصنا منيعا في وجه المستعمر وسياساته الفاسدة-التجهيل، الإلحاد والتنصير، الفرنسة، الإدماج-، لاسترجاع سيادة الوطن واستقلاله والحفاظ على عروبه وإسلامه، فالتحذت لذلك شعارا مفاده: "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، إعلانا بذلك عن مقاصد الجمعية وكلياتها الضرورية الثلاث التي تسعى للحفاظ عليها وهي على الترتيب: حفظ الدين، حفظ اللغة وحفظ الوطن.

المطلب الثاني: أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

نجد أن معظم الباحثين يقصرون أهداف الجمعية على تنقية الإسلام وتصفيته من شوائب البدع والخرافات، ثم التأكيد على التعليم باللغة العربية وبناء الشخصية الجزائرية، وبالتالي إعادة الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري ونشر الإصلاح على كافة الأصعدة، وهذا ما عملت وحرصت عليه الجمعية ووجهت له نشاطها.

فكان الإصلاح بمعانيه الواسعة ومجالاته المتعددة حقل عمل ركزت الجمعية جهودها فيه، من خلال توفير كافة الشروط اللازمة لإعادة تكوين وبعث إنسان جزائري بصورة جديدة يتخلى فيها عن كل رواسب الاستعمار ومخلفاته الفاسدة، وفي المقابل يتحلى بكل الفضائل والآداب والأخلاق التي تحفظ دينه ولغته ووطنه.

¹ - رابح تركي عمامرة، عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 2009، ص99.

وهذا ما جاء من أهداف من خلال قانونها الأساسي على لسان رئيسها عبد الحميد بن باديس في الفصل الرابع قوله: "القصود من هذه الجمعية هو نشر الدين الإسلامي على وجهه الصحيح البعيد عن كل بدعة، ومحاربة كل ما يجرّمه صريح الشرع كالخمر، والميسر والآفات الاجتماعية الأخرى، ومحاربة الجهل، والبطالة، والإسراف، وكل منهي عنه بطبيعته من طرف الدين والأخلاق الفاضلة"¹

وهو ما لخصه أيضا في قوله: القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة الإسلام وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا.²

ومن هذا المنطلق فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية دينية لأن القائمين عليها، والمبادرون بتأسيسها منذ البداية أعلنوا في نشاطهم هذا التوجه للإصلاح الديني العقائدي، بعدما تيقنوا أن التأخر والتخلف الحضاري الذي يعيشه المجتمع الجزائري سببه تفشي البدع والخرافات، وجملة الانحرافات والموروثات العقدية الضالة، والدين وحده سبيل لتهديب النفوس وتربيتها وتحميلها وبعث الحياة فيها، لأنه غذاء الروح الذي تحتاجه، وأساس كل فضيلة وبالدين تتشكل الأخلاق والمبادئ التي تعيد للأمة مجدها وحضارتها.

وفي هذا الإطار نجد أن تصريحات الإبراهيمي تعبّر عن أهداف الجمعية كونها جمعية علمية دينية تهذيبية، أي أنها تهدف إلى نشر العلم، وإحياء الدين وتهذيب المجتمع.

وقد شرح هذه الأهداف بقوله: "فهي بالصفة الأولى (علمية) تعلم وتدعو إلى العلم، وترغب فيه وتهمل على تمكينه في النفوس بوسائل علنية واضحة لا تستر، وهي بالصفة الثانية تعلم الدين والعربية لأنهما شيئان متلازمان وتدعو إليهما وترغب فيهما وتنحو في الدين منحاهما الخصوصي، وهو الرجوع به إلى نقاوته الأولى وسماحته في عقائده وعباداته، لأن هذا هو معنى الإصلاح الذي أسست لأجله ووقفت نفسها عليه، وهي تعمل في هذه الجهة أيضا بوسائل علنية ظاهرة... وبمقتضى الصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حضّ الدين والعقل عليها لأنها من كمالهما، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبح الدين اقترافها وذم مقتريها، وسلكت في هذه الطريق أيضا الجادة الواضحة... وبهذه الصفة تعمل لترقية فكر المسلم بما استطاعت، وترشده إلى الأخذ بأسباب الحياة الزمنية، وتريه ما يتعارض منها مع الدين وما لا يتعارض... فالجمعية، أداة من أدوات الخير والصلاح، وعامل لا يستهان به من عوامل التربية الصالحة وتهذيب النافع، وعون صالح لأولي الأمر على ما

¹ - القانون الأساسي لجمعية العلماء، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة (الجزائر)، دط، دس.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1930-1945)، مرجع سابق، مج3، ج3، ص89.

يعملون له من هناء وراحة، تشكر أعماله ولا تنكر"¹

ولهذا أشار عبد الحميد بن باديس لأهداف الجمعية بهذا الصدد: "نقول من الآن أن الجمعية لا يجب أن تكون إلا جمعية هداية وإرشاد لترقية الشعب من الجهل والسقوط الأخلاقي إلى أوج العلم ومكارم الأخلاق في نطاق دينها وهداية نبيّها الأمي الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق"²

وتماشيا مع ما سبق ذكره؛ فقد أشار عبد الكريم بوصفصاف أن برنامج جمعية العلماء المسلمين يشمل هدفين أساسيين: أولهما آني والثاني بعيد المدى.

الأول: هدف آني: -أي قريب المدى- ويتمثل في تصفية الدين الإسلامي مما علق به من شوائب، ومحاربة جمود الزوايا وإحياء اللغة العربية، ومعالم التاريخ القومي والإسلامي، وإنشاء المدارس والمساجد الحرة وفصل الدين الإسلامي عن الحكومة وتوعية وتثقيف الشعب الجزائري صغيره وكبيره، وتربية الشباب تربية عربية إسلامية، ومحاربة الآفات الاجتماعية بكل أنواعه والوقوف ضد كل محاولة مسح الشخصية الجزائرية ومحو معالمها التاريخية.

أما هدفها الثاني وهو هدف بعيد المدى: فكان استرجاع الاستقلال وتكوين دولة عربية إسلامية وقد اتضح ذلك في مناسبات متعدّدة برز فيها قادة الجمعية بتفكير بعيد النظر إلى المستقبل.³

ولعل أهم تعبير لهذه الأهداف ما ذكره ابن باديس بقوله: "العروبة، والإسلام، والعلم، والفضيلة هذه أركان لقضيتنا، وأركان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية كما كانت تفقهنا في الدين، وتنيرنا بالعلم، وتخلّقنا بالأخلاق الإسلامية العالية والفضيلة، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا، وتربطنا بوطنيتنا العربية الإسلامية..."⁴

وعليه يتبيّن أن أهداف الجمعية لم تكن منحصرة في اتجاه واحد حسب ما صرحت به الجمعية؛ كونها جمعية إصلاحية ذات طابع ديني تهديبي وأخلاقي، تعرّف الجزائريين بدينهم الذي يحث على الاستقامة والبعد عن كل أشكال الانحراف والجريمة، وتعلّمهم اللغة العربية باعتبارها رمزا للهوية والشخصية الجزائرية، وهذا مما لا يتعارض مع السياسة الفرنسية، ولكن حقيقة هذا الأسلوب ماهو إلا غطاء لستر الأهداف الحقيقية التي ترمي لتحرير البلاد

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص199.

² - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج4، ص55.

³ - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2009، ص100-101

⁴ - الشهاب، مج13، سنة1973، ص20.

واستعادة سيادتها ومكانتها العربية الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد بن باديس: "لابد من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة"¹

وإنّ منطوق هذا الكلام لا يعني أن السياسة لم تكن من بين أهداف الجمعية، فقد اتفق مؤسسوها الأوائل على إخفاء البعد السياسي الثوري، الذي كانوا يهدفون إليه من وراء المقاصد الدينية والثقافية، وعملوا لها جهارا ونهارا، فأعمالهم تقوم أساسا على التربية والتعليم، ومحاربة الآفات الاجتماعية، وإحياء القيم الإسلامية العربية، وأنّخذوا لذلك برنامجا واضحا (الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا)، مملا يصعب فهمه، وإدراك مغزاه على أحد، فكان هدف الجمعية في المجال الديني الاجتماعي هو بعث نهضة دينية فكرية تقوم أساسا على القرآن والسنة النبوية، وفي المجال السياسي تهدف إلى بعث شخصية وطنية أصيلة لا تتأثر بالتيارات الشرقية ولا الغربية المعروفة.²

وخلاصة القول ونحن بصدد تحديد أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نقول أنّ الجمعية كانت لها جملة أهداف ومساعي غاية في الأهمية تأسست من أجلها وقاومت لتحقيقها، وقد جعلناها تتمحور حول النقاط التالية:

- إحياء الدين الإسلامي وتنقيته من شوائب البدع والخرافات التي لصقت به، بفعل فاعل وهي الطرق الضالة والزوايا المنحرفة، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية والمرجعيات الأساسية للجمعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

- العمل على تنقية العقل الجزائري وتحريره من قيود الجهل، والجمود والتبعية، وغربلته من الأفكار الدخيلة على الفكر الإسلامي الصحيح، وفي المقابل نشر الوعي وتنوير هذه الملكية باستخدام الوسائل المتاحة من صحف الجرائد والمجلات، دروس ومواعظ المدارس والمساجد، محاضرات النوادي.

- توحيد صف أبناء الشعب الجزائري تحت راية العروبة والإسلام؛ وذلك بتعليمه أصول الدين الإسلامي واللغة العربية، لتكوين جيل مثقف من أبناء هذه الأمة الجزائرية المسلمة، جيل ينبض بالفعالية والتأثير والطاقة الإيجابية، فلا تحركه نوازع القومية ولا عواصف الطائفية.

¹ - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 119.

² - محمد الصالح رمضان، "جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي، مجلة الثقافة، العدد 83، السنة الرابعة عشر، سبتمبر - أكتوبر 1984، ص 3.

- التركيز على فئة الشباب بتعليمهم وتوعيتهم لإعداد شخصية جزائرية مؤهلة للرد على دعاة الفرنسة والاندماج والتجنيس حاضرا واستعدادها للقيادة والنضال والثورة مستقبلا، وكذا الحرص على تجنيد التلاميذ المتعلمين والمتخرجين من جامع الزيتونة لتعليم أبناء الشعب الجزائري. ولطالما استهدف المستعمر هذه الفئة وأراد طمس شخصيتها وإلغاء هويتها، وسعى لذلك بشتى الطرق ولكن جمعية العلماء المسلمين كانت له بالمرصاد.

- المطالبة باسترجاع أوقاف الإسلام المنهوبة، وكذا المساجد والمعاهد لإعادة استخدامها في تربية النشء وتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم.

ولذلك فمن الأهمية بمكان القول أنّ أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بادئ الأمر دينية تهذيبية بحتة، حيث أعلنت أن الهدف الأساس من هذا الصرح الإصلاحى والمناصرة العلمية هو إصلاح حال العباد وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، بمواجهة الشعوذة والطرقية والقضاء على جملة الخرافات والبدع التي تنشرها الطرق الصوفية المنحرفة.

وبالتالى العمل على تصحيح العقيدة الإسلامية وتثبيت أصولها في النفوس، وكذلك الدعوة إلى مكارم الأخلاق، ومحاربة جملة الرذائل والآفات الاجتماعية، للسمو بفكر المسلم وترشيده، نحو التعبير عن أصالته الذاتية وعن شخصيته وقوميته الإسلامية، ما يُسهم بذلك في التحرر والتخلص من ريق الاستعمار وجبروته.

وخلاصة القول فإن مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي نادى به وسعت لتحقيقه لم يكن ليخرج إلى النور ويكتب له هذا القبول؛ لولا استنارة فكر الجزائريين بالعلم والدين، وتطهير نفوسهم من أدران الطرقية والخرافات، وتحسين أخلاقهم بالتزام القيم وترك المنكرات، وتصويب أعمالهم ونيّاتهم في شتى المجالات، وبمختلف الوسائل والإمكانات، منها التعليم وإنشاء المدارس، دروس الوعظ والإرشاد في المساجد تنظيم اللقاءات والمحاضرات في النوادي، وكذلك عبر الصحافة، والمشاركة في التجمعات العامة...، فكانت الدواء في التخلص من داء المستعمر الغضال الذي فتك بالأمة، والمدبّر لإفشال مخططاته الاستراتيجية التي تضرب مقومات الشخصية الجزائرية.

المبحث الثاني: مجال التمكين الديني "العقدي" في العمل الدعوي للجمعية.

أدركت جمعية العلماء المسلمين أهمية أعمال، واحتواء المنهج السنني الرباني في الدعوة إلى الله تعالى، مع ضرورة تسخير مناهجه، لتمكين هذه الدعوة في النفوس والعقول، وتحرير المجتمع الجزائري من أغلال التخلف والسقوط قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ النساء/26، فلا معنى لهذا المشروع الإصلاحي الدعوي، الذي يسعى لتحقيق نهضة حضارية للأمة الجزائرية خاصة، والعربية الإسلامية عامة إذا ما غابت عنه ملامح البعد السنني البناء.

وقبل التفصيل في هذا المجال، فإن السؤال المنهجي المهم الآن، بعد معاينة الجمعية لأوضاع المجتمع الجزائري هو: ما هي مجالات التمكين التي سعت الجمعية من خلال عملها الدعوي إلى بلوغها؟ لأن هذا يساعدنا إلى حد بعيد، في تقييم الجهد المبذول من قبل الجمعية، لبلوغ الأهداف الاستراتيجية التي كانت تسعى لتحقيقها بمنهجية سننية.

وفي إطار الإجابة عن هذا السؤال، نقول أن الجمعية سعت بكل الجهود وفق منظور سنني للخروج من أزمة واقعية، فرضها المستعمر الغاصب كي يستعيد المجتمع الجزائري عافيته، فتعددت بذلك ميادين ومجالات سنن التمكين عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حسب واقع المجتمع وتغييراته، وطبيعة المرحلة التي يعيشها، فمنها المجال الديني العقدي والمجال الثقافي الاجتماعي، وحتى المجال السياسي، ما جعل الجمعية تعمل لإيجاد الحلول المناسبة لمختلف هذه المشاكل والقضايا.

ففي المجال الديني العقدي؛ وهو بداية اهتمام الجمعية، أدركت مدى ضرورة الاهتمام بالعقيدة وترسيخها في النفوس، فكانت الركيزة والانطلاقة في عملها الدعوي نحو التغيير والإصلاح، وفي المجال الثقافي الاجتماعي عملت على مقاومة الجهل والامية، وسعت نحو تنوير العقول الناشئة بالتربية والتعليم، وكذا محاربة الآفات الاجتماعية ونشر القيم والمبادئ الفاضلة، وتوسيع دائرة الاهتمام بفئة الشباب والمرأة، التي تعد من أكثر الفئات تأثيرا على المجتمع، كما نجد الجمعية قد عملت على بلوغ التمكين السياسي من خلال عملها الدعوي، بالرغم من أن قانونها الأساسي ينص على عدم الخوض في الأمور السياسية، لكنها خاضت في العديد منها كالتصدي لسياسة التجنس ومقاومة الإدماج وغيرها.

وعلى هذا الأساس أدركت جمعية العلماء المسلمين، الأهمية القصوى التي يحتلها الدين والعقيدة في حياة الأفراد بصفة عامة، وحياة الجزائريين بصفة خاصة فقد جعلته من أولى خطواتها، وانطلاقة لمشروعها الدعوي في

عملية التمكين له، وكان أولوية من الأوليات التي أُفرغت له كافة الجهود والاهتمامات، باعتباره ركيزة لصلاح ما سيعقبه من مجالات.

فالدين وأساسه العقيدة سر الحياة وغذاء الروح، هو سبيل لتعرّف الإنسان على ذاته ومصيره، وله تأثير على النفس إذ يجعل صاحبه في أمن وطمأنينة واستقرار نفسي، ما يدفعه للاستقامة والبعد عن الانحراف والجريمة، ناهيك عن جملة الآثار التي يخلّفها الدين على المجتمع؛ أين تسود معاني الأخوة والتعاون، الصلاح والإصلاح، وكذا تحقق الأمن في المجتمع، "فالعقيدة ضرورة من ضروريات الحياة، تلازم الإنسان في كل مكان لا يمكن العيش بدونها سواء كانت حقا أو باطلا، توجه سلوكه وتضبط غرائزه وتنظم حياته، وهي عبارة عن مجموعة من القضايا والمسائل التوفيقية الغيبية الحقّة المسلمة بالعقل، والسمع، والفترة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا".¹

المطلب الأول: إحياء الإسلام الصحيح وفصل الدين عن الدولة

سبق في تعريفنا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الإشادة إلى كونها جمعية دينية، وهو ما نص عليه قانونها الأساسي، فمن الطبيعي أن عمل الجمعية منذ البداية كان مركزا على العقيدة الإسلامية، في مجال التمكين الديني، للرجوع بالدين إلى ما كان عليه من صفاء ونقاء في القرون الأولى، مع التركيز في دعوتها على الدين لرد الاعتبار والنهوض بالقرآن الكريم كواجب ديني حتمي، والذي يُسهم في خلق مجتمع بتفكير جديد، خالي من رواسب الماضي البغيض، ومن هذا المنطلق سعت الجمعية لتعريف المجتمع الجزائري بالإسلام الصحيح، دين الإنسانية والهداية.

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن أساس مشروعها الإصلاحي يتمثل في تصحيح العقيدة الإسلامية، معتمدة في ذلك على الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد أكد عبد الحميد بن باديس أن "الإسلام دين الإنسانية الذي لا نجا لها، ولا سعادة إلا به، فقال: "الإسلام دين الإنسانية الذي لا نجا لها ولا سعادة إلا به، وأنّ خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته، فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها، وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له، ونعمل من أجله".²

1 - أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، دار الشهاب، باتنة، ط1، دس، ص 19.

2 - الشهاب، ج10، م12، جانفي 1937، ص425.

واتساقاً مع هذا التوجه، أوضح محمد خير الدين أن انتساب الأعضاء للجمعية يعني؛ "التعاهد على تنفيذ المرامي التي ترمي إليها، وأصول هذه المبادئ هي إحياء الإسلام الصحيح بإحياء الكتاب والسنة" واعتمدت الجمعية القرآن الكريم مصدراً أساسياً، مؤكدة أن "طريقة الاستدلال على وجود الله وصفاته لا تكون إلا بالقرآن"¹.

فجمعية العلماء كان منهجها واضح المعالم في تثبيت عقيدة الشعب الجزائري، باعتمادها على القرآن الكريم كمصدر ودستور لذلك، وهو ما أكدت عليه بالقول: "فمن مبادئها التي عملت لها بالفعل لزوم الرجوع إلى القرآن في كل شيء، لاسيما ما تعلق بتوحيد الله، فإن الطريقة المثلى هي الاستدلال على وجود الله وصفاته، وما يرجع إلى الغيبات لا يكون إلا بالقرآن، لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله، وإثبات ما ثبت له، ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا بآية قرآنية محكمة، فالمؤمن إذا سولت له نفسه المخالفة في شأن من أمور الآخرة، أو صفات الله فإنها لا تسوّل له مخالفة القرآن"².

ولم يكن عمل الجمعية موجهاً لتعليم دين جديد، بل كان دعوة للرجوع إلى الأصول النقية للإسلام، كما أشار لذلك مالك بن نبي، فإن المشكلة ليست في تعليم المسلم عقيدة يملكها، بل في "ردّ هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي"³.

لأجل ذلك سعى رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إلى إعادة الدين إلى مكانته الحقيقية، كمنهج حياة شامل، مؤكدين على تجاوز المظاهر الشكلية والطقوس التقليدية، إلى بلوغ التأثير العميق في سلوك الأفراد والمجتمع، وفي هذا الإطار، قام رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس بتأليف "رسالة العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية" لتصحيح المفاهيم العقدية وتقديم صورة الإسلام الصافية، وتحقيق هذه الصورة بالرجوع إلى القرآن الكريم، في شؤون الحياة كلها، معتبرة إياه المرجعية الأساسية في حل الخلافات والاسترشاد به في كل الأزمات، وفي هذا الصدد أبرز محمد البشير الإبراهيمي الآثار السلبية المترتبة على البعد عن الهداية القرآنية، مشيراً إلى أن "ما أضاع المسلمين ومزّق جامعتهم إلا بعدهم عن هداية القرآن، وعدم تحكيمه في مختلف شؤون الحياة، فهو السبيل في معترك الشهوات ليكسر شرتها، وفي مفارق سبل الحياة ليهدي إلى أقومها، وفي أسواق المصالح والمفاسد ليميز هذه من تلك، وفي مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها، وفي شعب الأحكام ليقطع فيها

¹ - الشهاب، العدد 28، ماي 1926.

² - عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مطابع الكيلاني، القاهرة، دط، دس ص 10.

³ - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 1986، 1، ص 54.

بفصل الخطاب، وإن ذلك كله موجود في القرآن بالنص أو بالظاهر أو الإشارة"¹.

وخلاصة القول فيما سبق، فإن جمعية العلماء المسلمين كان لها دور بارز في تناول القضايا، والمواضيع المتعلقة بالتمكين الديني العقائدي، لعملها الدعوي أمام المجتمع الجزائري، فبيّنت أن ما حلّ بالأمة من خطوب ومهالك، كان سببه البعد عن دين الله وكتابه علما وعملا، ولا خلاص من هذا الحال إلاّ بالرجوع إلى الدين الصحيح والتمسك بالعقيدة الصحيحة، لأن دين الإسلام هو الدين الحق الذي اختاره الله لخير أمة أخرجت للناس قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/19 وهو دين الفطرة الذي نادى به جميع الأنبياء والرسل قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ آل عمران/85.

وفي المقابل تعد مسألة المطالبة بضرورة فصل الدين عن الدولة، مطالبة مشروعة من قبل جمعية العلماء المسلمين في مجال التمكين الديني، وذلك باعتبار أن هذه القضية واحدة من أهم انشغالات الجزائريين منذ بداية الاستعمار الفرنسي، الذي استولى على كافة المؤسسات الدينية الإسلامية وما يتصل بها من مساجد ومدارس قرآنية وأوقاف، وكذا التحكم في رجال الدين والأئمة والعلماء المسلمين الجزائريين، وممارسة الضغط والترهيب عليهم والعرقلة لأعمالهم، وفي المقابل العمل على تسيير الوظائف الدينية بما يتماشى ويتوافق وأهواء هذا المستعمر وطلباته. وتجدر الإشارة إلى أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في مرحلتها التأسيسية لم يظهر في قانونها الأساسي، المطالبة بمسألة فصل الدين عن الدولة صراحة، ولكنها عندما تحررت من الطرقية وأعوان الإدارة، جعلت من هذا المطلب غايتها الرئيسية، ويظهر ذلك من خلال جملة المطالب التي تقدمت بها الجمعية إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في جوان 1936 بالجزائر العاصمة، وقد جاء فيها ما يلي: "تُسَلِّم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر، لما يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة"².

لكن الحكومة الفرنسية رفضت بالتأكيد مطلب استقلال الدين الإسلامي، وعدم التدخل في شؤون المسلمين عن الإدارة الاستعمارية، لكن جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس وبعد تسليم الرئاسة إلى البشير الإبراهيمي، وبعد انقضاء سنوات العالمية الثانية من جريدة البصائر التي نذرت نفسها وبرئيسها للخوض في هذه القضية؛ قضية فصل الدين عن الدولة، فكان أن قدم تقريرا إلى الحكومة الجزائرية في 5 أوت 1944 ووضعت فيه قضية فصل الدين عن الدولة في رأس مقاصدها، وبيّنت جمعية العلماء مقاصدها من تقديم التقرير فيما يتعلق

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق ج4، ص226.

² - البصائر، مرجع سابق، العدد 24، 19 جوان 1936، ص2.

بالشؤون الدينية بما يلي: "نحن الآن باسم الدين وباسم الأمة، متمسك بعبارة فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الجزائرية، ونريد تطبيقها على الكيفية الآتية:" أولا فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الجزائرية فصلا حقيقيا، بحيث لا تتدخل في شيء من شؤونها، لا ظاهرا ولا باطلا، في أصوله ولا في فروعه."

ثانيا: تسليم ذلك كله إلى أيدي الأمة الإسلامية صاحبة الحق المطلق فيه، وتقرير سلطتهم على أمور دينهم تقريرا فعليا خالصا لا التواء فيه، وإنما يتحقق ذلك ويصير نافذا بما يأتي:

- أ- تشكيل مجلس إسلامي أعلى مؤقت بعاصمة الجزائر يتركب من:
 - 1- بعض العلماء الأحرار المعترف بعلمهم وأعمالهم للدين الإسلامي.
 - 2- وبعض أعيان المسلمين المتدينين البعيدين عن المناصب الحكومية.
 - 3- وبعض الموظفين المتدينين، بشرط أن يكونوا أقل من النصف، ويتسلم هذا المجلس جميع السلطة التي كانت للحكومة في الشؤون الدينية.
- ب- من أهم أعمال المجلس أن يتولى تشكيل جمعيات دينية بالطرق الممكنة انتخابا أو تعيينا، وله أن يكتفي بما يراه صالحا من الجمعيات الدينية السابقة.

- ج- فإذا تمت تلك التشكيلات انعقد مؤتمر ديني في المجلس الأعلى ورؤساء الجمعيات الدينية وبعض أعضائها البارزين، وفي هذا المؤتمر يوضع النظام العام للمستقبل طبق قانون الفصل.
- د- كل ما يقرره هذا المؤتمر يعتبره قانونا نافذا يجب الخضوع له، ولا ينقصه إلا مؤتمر سنوي آخر.
- هـ- بعد انعقاد المؤتمر الأول ينحل المجلس الأعلى المؤقت وتنتخب الجمعيات الدينية مجلسا على النظام السابق وإلى المدة التي يقررها المؤتمر.

- و- يملك المجلس الإسلامي الأعلى المنتخب السلطة التنفيذية لمقررات المؤتمر الدينية السنوي، أما السلطة التشريعية فيملكها المؤتمر وليس للمجلس الأعلى إلا تقديم الإرشادات ووضع التقارير والدفاع فيها أمام المؤتمر.
- وتناولت بعد ذلك مطالب جمعية العلماء، داعمة إياها بالضغوط الشعبية والبرلمانية والدينية، محاولة التأثير على موقف الحكومة الفرنسية، التي مالبت أن أصدرت قانون 20 سبتمبر 1947 الذي وضع نظاما خاصا للجزائر، جاء في مادته 56 مايلي: "إن استقلال الديانة الإسلامية مؤمن في نظر الدولة أسوة بالأديان الأخرى، وذلك في إطار ما ورد في قانون 9 ديسمبر ومرسوم 27 سبتمبر 1907"¹.

¹ - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 193-194.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذا القانون لم ير النور، وبقي مجرد حبر على ورق، ما أثار بذلك رجال جمعية العلماء وعلى رأسهم البشير الإبراهيمي، الذي نشر سلسلة في جريدة البصائر عن مسألة فصل الدين عن الدولة، تأكيداً منه وإصراراً وعزيمة في تحقيق هذا المطلب، ومن زاوية أخرى لينير بذلك الرأي العام الجزائري، ويفضح الإدارة الاستعمارية وسياساتها في التماطل وعدم الاستجابة لهذا المطلب، وهو مظهر من مظاهر التدخل والسيطرة الاستعمارية على الشؤون الإسلامية الهادفة لضرب الدين والقضاء عليه، حيث قال: "فلتعلم هذه الحكومة السائرة على منهج لا يتبدل، في احتكار أمور ديننا، أننا سائرون على منهج لا يتبدل في المطالبة بحقنا الديني والطبيعي، وفي التظلم منها والتشجيع عليها، وأنا لها بالمرصاد"¹.

وخلاصة القول فإن قضية فصل الدين عن الدولة تعد قضية محورية، وخطوة للتخلص من التبعية السياسية والثقافية، والتمسك بها لتحقيقها، يعني تحقيق الأمة لذاتها، بحفظ دينها، والتحرر من سلطة اليد الاستعمارية في تقرير شؤون المسلمين الدينية وما يتصل بها من مؤسسات كالمساجد والأوقاف، واستقلال القضاء الإسلامي، والأعياد والمناسبات الدينية كالحج، وإنشاء معاهد دينية، لتخريج رجال الدين وتوليهم مناصب كالأئمة والمفتين، ومعلمي القرآن...

المطلب الثاني: محاربة الطريقة وحركة التبشير المسيحي

شكّلت الطرق الصوفية والزوايا مؤسسات دينية واجتماعية بارزة في التاريخ الجزائري، أدّت أدواراً متعددة في الحفاظ على الهوية الإسلامية واللغة العربية. "وقد سجّل التاريخ مشاركة فاعلة لبعض هذه الطرق في مقاومة الاحتلال الفرنسي، حيث برزت الطريقتان القادرية والرحمانية من خلال مشاركة قادتهما في ثورة 1870-1871"².

وتعرّف الطريقة عند الصوفيين بأنها: "الطريقة الخاصة التي يمتاز بها نوع من الناس، وتكون لهم رؤية معينة ومنهج للوصول إلى الحقيقة المطلقة"، أما الزوايا فهي: "مدرسة دينية ودار لضيافة الغرباء وتعتبر مركزاً لمشايخ الطرق الصوفية، مخصصة للعلم والثقافة العربية الإسلامية في مراحل الدراسة، وتعرّف أيضاً على أنها مركز للنشاط الديني ومدارس ولاجئ دينية وبيوت لعمل الخير"³.

وفي هذا الإطار فقد مثلت الطرق الصوفية، إحدى الركائز المجتمعية الهامة، التي ساهمت في الحفاظ على القيم الدينية والأخلاقية، كما اضطلعت بأدوار ريادية في مختلف المجالات، غير أن واقع هذه الطرق شهد تبايناً

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص73.

² - رابح تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس - فلسفته وجهوده في التربية والتعليم -، مرجع سابق، ص97.

³ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص237.

ملحوظاً، حيث انخرط بعضها في خدمة الإدارة الاستعمارية، بينما انصرف آخرون إلى نشر الممارسات الشعائرية المشوبة بالشعوذة، مما أسهم في إضعاف الهمم وكبح جماح حركة الجهاد.

ويعزى هذا الانزياح إلى السيطرة الواسعة التي مارستها الطرق الصوفية، على المشهد الديني والاجتماعي خلال القرن التاسع عشر، "حيث وصل عدد الزوايا في الجزائر إلى 349 زاوية، وبلغ عدد المريدين ما يقارب 295.000 مريد، وقد أدى انتشار ظاهرة التحول الطريقي حتى بين صفوف الفقهاء المعارضين

للصوفية؛ إلى ترسيخ حالة من الجمود الفكري، وانتشار البدع، وتكريس ثقافة الاستسلام للقدر، وأصبحوا إذا سئل أحدهم عن حاله أجاب: " نَأْكُلُ الْقُوْثَ وَنَسْتَتِي فِي الْمَوْتِ " وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت إلى تعطيل الفكر وشلّ جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى"¹، فكان هذا النوع من الطرق الصوفية المنتشر في الجزائر والمعاصر للجمعية، أين كثرت فيها أعمال الجاهلية الأولى من البدع والخرافات، وتقديس الأولياء، وتعظيم القبور والنذر والذبح لها.

وتأسيساً على ذلك فقد كان من أبرز القضايا التي اهتمت بها الجمعية، وعارضتها بشدة في مجال التمكين الديني؛ الطريقة أو المرابطية، والتي جاءت نتيجة تدهور الوضع الديني وانتشار الجهل بين الجزائريين، أين أصبحت تقام الحفلات الدينية باسم الأولياء الصالحين تحت الموسيقى الصوفية والرقص، ناهيك عن زيارة القبور ومنح الهدايا لرؤساء هذه الجمعيات الطريقة وتقديسهم، ما أسفر عن انتشار واسع لمظاهر الفساد من الجهل والبدع والخرافات.

وبما لا يدع مجالاً للشك، فإن الجمعية حاربت هذه الطرق الصوفية، وانتقدت جملة الممارسات المغلوطة، فعلى سبيل المثال نجد أن رجال هذه الطرق نسبوا لأنفسهم من الأوصاف والمهام؛ ما يشبه عقيدة المسيحي المحرّفة المعروفة "بالتوسط والتحليل والتحرير" فكذلك الحال بالنسبة للمرابطين الذين "مثّلوا أنفسهم كمختارين من قبل الله لأداء مهام روحية استثنائية، مدّعين امتلاك قوى خارقة تُميّزهم عن عامة البشر. وقد انتهجوا سياسة تنصيب أنفسهم كوسطاء بين المؤمنين وربهم، وفرضوا مذهبهم كشرط أساسي لتحقيق السعادة الدنيوية والنجاة في الآخرة"².

وبالتالي شكلت هذه الطرق ورجالها عائقاً للجمعية، وخطراً كبيراً على الشعب الجزائري، الذي التقى عليه استعمار مركب؛ الأول مادي ظاهري معروف؛ هو المستعمر الفرنسي، والآخر استعمار روحي خفي؛ والمتمثل في الزوايا والطرق الصوفية التي ألصقت بالدين شوائب الجهل والبدع والمنكرات، فشوهت الإسلام بدعوى الدين، لأنها تدعو إلى التقليد الأعمى واتباع الآباء والأجداد، وتعظيم رؤساء الطرق والزوايا، والركون لأفكار المشايخ وخرافاتهم

¹ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، مج 1، ص 18.

² - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 330.

وهذا الفكر أصبح سائدا في المجتمع الجزائري، أين أصبح الناس يعتقدون أن هذه الممارسات والطقوس، مما جاء به الإسلام وأقره، فكان لابد من تغيير الأفكار الخاطئة، وتحريك النفوس الساكنة بالعلم والمعرفة.

وفي هذا السياق، يؤكد مالك بن نبي أن الزوايا المنحرفة قد أسهمت في ترسيخ ممارسات وثنية ضمن المجتمع الجزائري، رغم الانتساب الظاهري للإسلام، "فحتى عام 1925، كانت الجزائر -رغم إسلامها- تتبع ممارسات وثنية تمارس في الزوايا، حيث كانت تتجه النفوس اليائسة للتماس البركات وجلب التعاوي".

ويلفت بن نبي إلى أن ظهور الفكر الإصلاحية أدى إلى تحطيم هذه المعتقدات، حيث "انطفأت نيران الزردة (الفتة)، وتراجعت حمى الدراويش، وتحررت الجماهير من الممارسات التي استمرت لقرون، متضمنة الرقص على دقات الطبول وابتلاع العقارب والمسامير وسط أجواء من الخرافات والأوهام"¹.

ومما لا شك فيه، فإن تغيير الأفكار وإزالة المعتقدات الراسخة في الذهنيات ليس بالأمر الهين اليسير، مما صعب مهمة الدعوة عند الجمعية، لنزع هذه البدع والخرافات التي تثبتت الطرق الصوفية ورجالها، الذين تقلدوا وسام القدوة الحسنة، في أعين أبناء المجتمع الجزائري، ناهيك عن المكانة الكبيرة والمرموقة التي يحظى بها رجال هذه الطرق الصوفية، في نظر المستعمر الذي شجع على عبادة الشيوخ وتقديسهم، وجعل من رجال هذه الطرق والمدارس الصوفية يدا له، وسندا معينا لبلوغ أهدافه السامة، في القضاء على الدين وإبعاد المسلم الجزائري عن كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن هذه الطرق قد تمكنت من عقول أتباعها ومريديها، فعمقت فيهم روح التواكل والركون، وأضعفت دوافع العمل والجهاد، حتى غدت سببا في تشييط الهمم عن الاستعداد لمقاومة المستعمر الغاصب. وقد روجت هذه الطرق لفكرة مؤداها أن الوجود الاستعماري في الجزائر قضاء محتوم وقدر لازم، يجب التسليم له والصبر عليه، بل جعلت طاعته من طاعة ولي الأمر.

وانسجاما مع هذا الواقع، وجدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفسها أمام تحدٍ بالغ التعقيد في مسارها الدعوي، إذ رأت أن مقاومة الاستعمار، لا يمكن أن تتحقق ما لم يُحرر الوطن فكريا وروحيا من هذا الفكر الطرقي المنحرف، الذي اتخذ لنفسه موقع "التمثيل الرسمي" للإسلام في أذهان العامة، ومن ثم مضت الجمعية في مشروع إصلاحي شامل، يقوم على تثقيف الشعب، وتعليم الناشئة تعليما صحيحا من خلال المدارس، والمساجد، والنوادي، حيث تولت تصحيح العقائد، ومناقشة الانحرافات العقدية، وإرساء أسس الوعي الديني السليم، باعتباره المدخل الضروري لمحاربة البدع والخرافات، والرد على مختلف الأباطيل والضلالات.

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 28.

وقد لخص عبد الحميد بن باديس رؤيته لهذه الطرق الصوفية بقوله: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كله على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ، إلى ما هنالك من استغلال، ومن تجميد للعقول وإماتة للشعور وغير ذلك من الشرو".¹

وفي إطار مواجهة هذه الانحرافات، ألّف الشيخ مبارك الميلي كتابه "رسالة الشرك ومظاهره" الذي سلط فيه الضوء على جملة من الانحرافات العقديّة لدى الطريقيين، ومن أبرزها؛

- ادعائهم الوساطة بين الله وعباده في قبول التوبة

- تنصلهم من التكاليف الشرعية وتسهيل اتباع الأهواء

- نشر ثقافة الجمود الفكري واستغلال جهلة الناس لاستدرار الأموال

- اعتمادهم على الخرافات والمنامات في تشكيل معتقداتهم"²

وكرد فعل على هذه الممارسات، أصدر عبد الحميد بن باديس جريدة "المنتقد" (*) سنة 1925، التي مثلت نقداً صريحاً لمنهج الطريقيين القائم على شعار "اعتقد ولا تنتقد"، وقد حاول بعض المنتسبين للصوفية -ممن تربطهم علاقات مع الإدارة الاستعمارية- السيطرة على الجمعية، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل، حيث انسحبوا سنة 1932، وأعيد انتخاب ابن باديس رئيساً بالإجماع، مما مهد لسيطرة تيار الإصلاح على توجهات الجمعية"³.

وخلاصة القول أنّ الجمعية ورجالها قاومت الطرقية الضالة والزوايا المنحرفة بكل الأشكال، لتحقيق التمكين الديني في نفوس وعقول الأفراد، باعتبارها علة من علل الفساد المدمرة للإنسان الجزائري، فقد كانت أداة طيعة للاستعمار في استغلال العوام، وتجميد عقولهم، الأمر الذي جعل علماء الجمعية المصلحين يشرحون للرأي العام زيف الترهات والأباطيل المنافية للإسلام، ويكشفون تواطؤ بعض أولئك الرؤساء والشيوخ، مع الحكّام الاستعماريين أعداء الإسلام وخصومه.

¹ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج3، ص33.

² - مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، ط3، 1982م، ص 271-273. (بتصرف)

(*) - صدرت سنة 1925 لصاحبها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي جريدة سياسية تهذيبية انتقادية شعارها: "الحق فوق كل واحد،

والوطن قبل كل شيء"، تمثل لسان حال نخبة الشباب الجزائري، وكانت تصدر بمدينة قسنطينة، شديدة اللهجة توجه الانتقاد للغدارة

ولضلالات وبدع رجال الطرق الصوفية التي أحدثوها في الدين الإسلامي، وكانت أسبوعية ولم يصدر منها سوى 18 عددا فقط، ثم أغلقتها

الإدارة الاستعمارية. انظر: رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص141.

³ - خالد النجار، ابن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية في الجزائر، ص27.

وأما بالنسبة لمحاربة حركة التبشير المسيحي، فبعد احتلال الجزائر، كتب اتفاق جزائري فرنسي في 5 جويلية 1830، وقد تعهدت فيه فرنسا بأن لا تتعرض للدين الإسلامي، ولا لعقيدة الجزائريين، فقد ورد في المادة الخامسة من الاتفاق: "إن الدين الحمدي سيبقى معمولاً به كما كان سابقاً، إنه سيبقى على ما هو عليه وأن حرية أهل البلاد مهما كانت طبقتهم ستبقى محترمة، وأن دين هذا الشعب وممتلكاته وتجارته وصناعاته بالإضافة إلى نسائه ستبقى محترمة"¹، ولكن سرعان ما ظهرت نوايا فرنسا الخبيثة وأهدافها الحقيقية من هذا الاحتلال، حيث أعلن الكاردينال لافيغري عن سياسة تنصيرية واسعة النطاق حدّدها بقوله: "علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية، مهذا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدينة، منبع وحيها من الإنجيل، وتلك هي رسالتنا"².

وبذلك اعتبر الاحتلال الفرنسي هذه الخطوة إزاء الجزائر نصراً صليبيّاً جديداً ضد المسلمين، فبذلت الكنيسة جهوداً كبيرة لمحاربة الإسلام، ومحاولة نشر المسيحية واستمالة الجزائريين إليها؛ إما دخولا فيها أو خروجاً من دين الإسلام، ليبقى هذا الأخير معلقاً تائها في زيغ وضلال، وهذا ما يصطلح عليه بالتبشير، فهو "تعبير أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها، لتنصير الشعوب غير النصرانية، ولا سيما المسلمون، ثم تحوّل هدف التبشير داخل الشعوب المسلمة إلى غاية التكفير، وإخراج المسلمين عن دينهم، ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين"³.

وفي المقابل سعت جمعية العلماء المسلمين من خلال عملها الدعوي، في مجال التمكين الديني إلى وقف حركة التبشير المسيحي، باعتبارها تسعى لاجتثاث الجزائريين من جذورهم الدينية، وكذا المساس بمقدساتهم الإسلامية؛ من مساجد وزوايا ومدارس وأوقاف إسلامية، والتي تدل على استهداف دين الإسلام وضرب مقومات الشخصية الوطنية، واستبدالها بعناصر الثقافة الغربية من لغة فرنسية، ودين مسيحي، عادات أجنبية....

وإن أول من فتح أبواب حركة التبشير والتنصير في الجزائر هو هذا الكاردينال لافيغري مستعينا في ذلك بجمعيات تمولها دول غنية، مجهزة من خيرة الرهبان والراهبات والأطباء والجراحين والمدرسين، هؤلاء المعلمين الذين يقدمون للطلبة من أبناء المسلمين معلومات محشوة بكثير من المغالطات تتضمن "أكاذيب وأضاليل وتشويهات متعمدة للحقائق عن الرسول محمد ﷺ، وعن القرآن الكريم وعن الحديث النبوي الشريف، وعن التاريخ

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ج2، ط4، 1992، ص423.

² تركي رابح عمارة، الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط2، 2009، ص81.

³ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، مرجع سابق، ص53.

الإسلامي، وعن مقاصد الشريعة وأحكامها، وعن كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين عرباً أو غير عرب"¹. فتجدر الإشارة مما سبق، أن حملة التبشير والتنصير استغلت بدرجة كبرى، أوضاع الشعب الجزائري المزرية، والتي آلت إليها بسبب طغيان المستعمر وسياساته؛ في نهب خيرات الفرد وثروات الوطن، حيث كان يفتقد لضروريات الحياة والعيش البسيطة، ما جعل من المستعمر يتخذ هذه الأسباب طريقاً لولوج عالم التبشير بالدين المسيحي، مقابل التخفيف من وطأة هذه الظروف وشدةها، فقد "استمر النشاط التبشيري في أداء وظائفه المعتادة المتمثلة في رعاية الأيتام والفقراء بهدف استقطابهم وتنصيرهم، وفتح المدارس الخاصة بهم، إضافة إلى إصدار الصحف والمجلات التابعة للجمعيات التبشيرية، ففي مدينة قسنطينة، على سبيل المثال، صدرت صحيفة بعنوان *الصدى الكنسي لقسنطينة وعناية*، وقد نشرت في أحد أعدادها صلاة يومية جاء فيها "وأقدم إليك صلواتي من أجل اتحاد كل الكاثوليك ومن أجل محاربة الإسلام"، كما شمل النشاط التبشيري إنشاء مراكز تعليمية وصحية، إلى جانب الزيارات الميدانية التي كانت تقوم بها المبشّرات إلى بيوت المسلمين، حيث يوزّع الأدوية مجاناً على النساء العربيات، ثم يعدن ومعهن بعض الفتيات الصغيرات لضمّهن إلى مراكز التبشير"².

فالتبشير يعد سبيلاً للسيطرة السياسية والروحية، لذا حاولت فرنسا القضاء على كل ما ليس نصرانياً، لإظهار النصرانية في مظهر الديانة الإنسانية، وهذا ما يعلل تحملها على الدين الإسلام، الذي تعتبره خطراً عليها، لذلك عملت على إتباع كل السبل للحدّ من انتشاره، وكانت الجمعية تنظر إلى التبشير على أنه: "نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح، ومولود من مواليد القوة الطاغية التي تسمى كل ما ترضى عنه من الأعمال المنكرة حرية الدين أو حرية الفكر، وإنه أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني، وشكل كهنوتي دفعته أولاً ليكون رائدها في الفتح وقائدها في الاستعمار.

وعلى هذا الأساس، كانت الجمعية ترى النجاح النسبي للتبشير في الجزائر مقارنة بغيرها من الأقطار نتيجةً لتداخل عدة عوامل منهجية واجتماعية، "فمن الناحية الزمنية، يمثل تقادم عهد النشاط التبشيري عاملاً مهماً، أتاح تراكم الخبرات وبناء الاستراتيجيات، كما أسهم الدعم الاستعماري المباشر في توفير الحماية السياسية والمؤسسية لهذه الحركة، وفي الإطار الاجتماعي، وجد التبشير بيئة خصبة في ظل انتشار الأمية والفقر، مما زاد من قابلية المجتمع لتأثره بالدعوات التبشيرية، كما ساهمت بعض الممارسات الطرقية غير المستنيرة، عن وعي أو غير وعي، في تمهيد الطريق للتبشير من خلال إضعاف الوعي الديني الأصيل، وأخيراً

¹ - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، مرجع سابق، ص 81.

² - مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، مرجع سابق، ص 39-40.

يُعتبر غياب المقاومة الفعالة من قِبَل علماء الدين، قبل ظهور جمعية العلماء عاملاً حاسماً في توسيع هامش حركة التبشير، حيث مثل الصمت الرسمي تجاه هذه الظاهرة، إحدى الثغرات التي استغلها العاملون في الحقل التبشيري¹.

وتأسيساً على ذلك، استناداً إلى ما تقدّم، بذل علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جهوداً بالغة في مواجهة الاستعمار وصدّ حركاته التنصيرية، من خلال تعبئة المجتمع الجزائري وإعداده فكرياً وثقافياً، باعتبار الإنسان محورَ المعركة وأساسَ التحرّر، وقد تحقّق ذلك عبر برامج الوعظ والإرشاد، ومسارات التربية والتعليم التي هدفت إلى صون مقومات الشخصية الجزائرية، القائمة على الإسلام والعروبة، وفي هذا السياق، كان ابن باديس يؤكد أنه لا يمكن تصوّر مستقبل للجزائر، إلا في إطار هويتها العربية الإسلامية، باعتبارها ركنين أصيلين من أركان شخصيتها، أما الركن الثالث فهو الجزائر نفسها بوصفها وطناً جامعاً وكياناً مستقلاً².

وبناءً على هذا الأساس كانت كافة نشاطات الجمعية، موجهة بدرجة أولى للحفاظ على دعائم الشخصية الجزائرية، التي تقوم على ركيزتين أساسيتين هما الإسلام والعروبة، لما كان يتهددها من مخاطر التنصير وآثاره، فأصدرت بذلك الكثير من المقالات في صحفها التي تحدّر من الشرك والإلحاد، وتقف في وجه التنصير صراحة أو تلميحاً.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه الإبراهيمي في مقال مطوّل بعنوان: "الأديان الثلاثة في الجزائر" قوله: "جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكن وهذا للتمكين، ... لقد كان استعماراً دينياً مسيحياً عارياً؛ وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرّماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشديد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشعّ بالحقد وتفور بالانتقام"³.

ومّا يجدر التنبيه إليه أنّ الخطاب التوعوي الذي قدّمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-بما تضمّنه من كشف لحقيقة السياسات التبشيرية والتنصيرية الموجهة ضد الشعب الجزائري-والذي نُشر عبر صحف الجمعية ومدارسها ونواذيرها، ومساجدها المنتشرة في مختلف مناطق الوطن شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، قد أسهم بفاعلية في توجيه الوعي الشعبي توجيهاً عربياً إسلامياً راسخاً، وقد ترتّب على هذا الجهد الواسع أثر بالغ في تحقيق التمكين

¹ - سجل مؤتمر جمعية العلماء، مرجع سابق، ص 55-56.

² - رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1969، ص 255.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج 3، ص 80.

الديني، من خلال إحباط مخططات التنصير، والقضاء على سياسته التي جعلها الاستعمار الفرنسي إحدى أبرز أولوياته، منذ الأيام الأولى لاحتلال الجزائر.

وفي ختام ما تقدّم عرضه ضمن المجال الديني العقدي لنشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يتبيّن أنّ هذا المجال أدّى دوراً محورياً في تحقيق التمكين الدعوي، فلم يكن الطرح العقدي لدى الجمعية مجرد تلقين للنصوص أو تكرار للمفاهيم التقليدية، بل مثّل مشروعاً إصلاحياً متكاملًا يهدف إلى ترسيخ الوعي التوحيدي السليم، وتحرير الفرد والمجتمع من مظاهر الخرافة والجمود والتبعية وقد اضطلع هذا المجال بجملة من الوظائف الأساسية أبرزها؛ تصحيح العقيدة وفق منهج القرآن الكريم وهدى أهل السنة والجماعة، ومواجهة مظاهر البدع والانحرافات العقدية، إلى جانب تحرير الوعي الديني عبر ربط العقيدة بمفاهيم الهوية والكرامة والحرية، كما عملت الجمعية على كشف مخاطر النشاط التبشيري المسيحي، بما جعل التوحيد قاعدةً صلبة للمقاومة ضد الاستعمار.

وقد أسهمت هذه الجهود مجتمعة في تشكيل شخصية إسلامية واعية، قوامها قيم العزة والاستقامة والمسؤولية والإصلاح، الأمر الذي منح المشروع الدعوي للجمعية قدرةً أكبر على التأثير والصمود، في وجه التحديات الاستعمارية والفكرية. لا ريب أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سحّرت جملة من الآليات لتفعيل المجال الديني العقدي، كان أبرزها شبكات المدارس المنتشرة في مختلف مناطق الوطن، والتي تولّت تعليم فئات واسعة من المجتمع، إلى جانب إحياء حلقات الدروس والمواظع والخطب الموجهة.

كما اضطلعت صحف الجمعية بدورٍ مهم في نشر المقالات العقدية، والدعوة إلى الالتزام بالمنهج الصحيح، ومواجهة مظاهر الشعوذة والانحراف، بما في ذلك الطرق الصوفية المتطرّفة والحركات التبشيرية. وإلى جانب ذلك، وضعت الجمعية مناهج شرعية واضحة للتعليم الحر، تُرسّخ الفهم السليم للدين وتبني الوعي العقدي الرشيد.

وفي ضوء هذه الجهود، تبين أنّ المجال الديني كان له أثر حاسم في تمكين العمل الدعوي؛ إذ أسهم في بناء قاعدة إيمانية صلبة، موحّدة وجامعة للشعب الجزائري، شكّلت درعاً عقدياً مكّن الجزائريين من مواجهة محاولات الدوبان الثقافي. كما أفرز هذا البناء العقدي جيلاً حمل لاحقاً لواء الثورة بثباتٍ وبقين، الأمر الذي يؤكد أنّ العقيدة كانت الركيزة الأساسية للتمكين، ومنها انطلق المشروع الإصلاحي والاجتماعي والسياسي للجمعية.

المبحث الثالث: مجال التمكين الاجتماعي والثقافي في العمل الدعوي للجمعية.

يمثل كل من المجال الاجتماعي والثقافي مجالات منفصلة عن بعضها البعض، والمتضمن في العمل الدعوي للجمعية يجد لكل مجال جملة أبعادٍ وقضايا ترتبط به وتعالجه، ولكننا فضلنا الجمع بينهما، باعتبار أن الجمعية في عملها الدعوي عالجت القضايا الاجتماعية للمجتمع الجزائري، وبرز تركيزها بشكل كبير وواضح في المجال الثقافي، وهو ما نص عليه قانونها الأساسي، باعتبارها جمعية تثقيفية، فالعلم سلاح للعقل، وهو لبنة أساسية في معرفة الإنسان ما يحتاجه المجتمع، من إصلاح في مختلف المجالات، ولهذا أعطت الجمعية التمكين الثقافي أولوية في برنامجها نحو التمكين الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي..

ومن هذا المنطلق فالمجال الاجتماعي والثقافي، يعتبر حقلا خصبا لتمكين العمل الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين، والتي تعد من الحركات الأكثر انخراطا في الحياة الاجتماعية، لتمسكها بالطابع الديني الذي يوجب عليها معالجة القضايا الاجتماعية، وقراءة المجتمع قراءة متفحّصة، لوصف الدواء وإيجاد طرق إصلاحه وفق المنهج الإسلامي، فالعلاقة بين التمكين الديني "العقدي"، والتمكين الاجتماعي "الثقافي" علاقة تكاملية، لأن سعي الجمعية لإصلاح دين الفرد ومعتقداته من جهة، هو صلاح للأسرة والمجتمع بثقافته من جهة أخرى، فصالح المجتمع مرهون بصلاح الأفراد، "ومن الأمور الثابتة في الأدبيات الإصلاحية أنه لا يمكن أن يحصل الإصلاح الديني والأخلاقي الحقيقي دون صقل جيد وعميق للظروف الثقافية الخاصة بالمجتمع الإسلامي"¹ كما لا يفوتنا أن ننوّه إلى أن قانون الجمعية الأساسي ينص على إصلاح المجتمع ومقاومة كافة مظاهر الانحراف والفساد المنتشرة.

انطلاقا من الظروف والأوضاع السائدة في المجتمع الجزائري، عمدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جاهدة إزاء هذا الوضع المزري؛ من انتشار للأمية تحت سياسة التجهيل، وتفشي الآفات الاجتماعية، وتهميش لفئة الشباب وتحقير للمرأة، إلى محاربة الجهل والامية، ونشر العلوم والمعارف، وفتح أبواب التعليم، وأيضا السعي للقضاء على جملة الآفات الاجتماعية المتفشية، بالحث على فعل الفضائل وترك الرذائل، وكذا السعي للاهتمام بالشباب فهم عمود المجتمع وأساس نجاحه، وإشراك المرأة في عملية الإصلاح، فهي نصف المجتمع، والمسؤول عن تخريج النصف الآخر من هذا المجتمع، ويمكن تفصيل ذلك من خلال مجموعة من النقاط نعرضها كمظاهر للتمكين الاجتماعي والثقافي، والتي تبرز من خلال ما يلي:

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 409.

المطلب الأول: محاربة سياسة التجهيل والأمية:

تجيب الإشارة انطلاقاً أن المجتمع الجزائري قبل دخول فرنسا كان شعباً مثقفاً ومتعلماً، يعرف فنون الكتابة وأبجديات القراءة، وقد كان التعليم حراً واسع الانتشار عبر ربوع الوطن، وهذا ما أفاد به تصريحات وكتابات الفرنسيين أنفسهم "فقد كتب الجنرال فالري سنة 11834 قائلاً بأن "كل العرب (الجزائريين) تقريباً يعرفون القراءة والكتابة، حيث هناك مدرستان في كل قري"، وفي تقرير إلى نابليون الثالث، كتب الجنرال دوهوتبول سنة 1850 بأن الدراسات الإسلامية كانت في وضع مزدهر نسبياً عشية الاحتلال، أما الأستاذ إيميري الذي درس طويلاً الحياة الجزائرية في القرن التاسع عشر، فقد أشار إلى أنه كان في قسنطينة وحدها قبل الاحتلال خمسة وثلاثون مسجداً تستعمل كمراكز للتعليم، كما كان هناك سبع مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب، ويدرس فيها أساتذة محترمون لهم أجور عالية، أما بخصوص المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون يحضرها 1350 تلميذ¹، فكانت هذه ملامح الحياة الثقافية للجزائر.

كما تُجمع المصادر التاريخية على أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر انتهج سياسة ممنهجة قائمة على "إفقار المجتمع وتجهيله، تماشياً مع الاستراتيجيات الاستعمارية الرامية إلى ترسيخ الهيمنة وإطالة أمد السيطرة، وقد تجلّى ذلك من خلال مصادرة الأراضي والممتلكات والثروات الوطنية، مما أدى إلى تهميش واسع النطاق وتحويل شرائح مجتمعية عريضة إلى وضعية تشبه اللجوء الداخلي، ولم يقتصر أثر هذه السياسة على الجانب الاقتصادي فحسب، بل امتد ليحدث تشويشاً في البنية الثقافية للمجتمع، فتحت وطأة الظروف المعيشية الصعبة، لينصرف الهمّ الفردي والجمعي نحو تأمين الحاجات الأساسية، على حساب الاستثمار في المعرفة والارتقاء الفكري، مما أدى إلى إضعاف الحراك الثقافي وتأجيل قضايا التنمية الفكرية، لصالح الأولويات المعيشية العاجلة، وبذلك، يمكن القول إن السياسة الاستعمارية نجحت -من خلال الربط بين العامل الاقتصادي والثقافي- في خلق بيئة طاردة للعلم والمعرفة، ساهمت في تعطيل مسارات التطور الحضاري الطبيعي"².

ولقد كان هدف المستعمر من فرض سياسة التجهيل على الجزائريين، بشتى الطرق والأساليب لتكوز بذلك عملية طمس هويته سهلة بسيطة، فينسلخ عن كل ما يربطه بوطنه وأرضه ومن أمثلة ذلك محاربة اللغة العربية الفصحى والمحلية، واستبدالها باللغة الفرنسية كلغة رسمية، إغلاق الزوايا والمدارس والمؤسسات التعليمية، وتبديل مجال خدمتها لصالح المستعمر ومخططاته، ناهيك عن الحصار والتضييق الذي لاقاه العلماء والمدرسون من

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، مرجع سابق، ج2، ص60-61.

² - يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830-1954م، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، دط، 2007، ص59.

نفي وسجن وحتى القتل، من خلال إجبارهم على ترك ثقافتهم ومنعهم من طلب العلم وبذله للغير.

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة التجهيل التي انتهجتها فرنسا في الجزائر، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تُعدّ ركيزة أساسية من ركائز الاستعمار الثقافي، حيث استهدفت بشكل منهجي النخب العلمية والدينية رداً على دورها المحوري في قيادة المقاومة الشعبية.

وقد تمثلت هذه السياسة في إغلاق المؤسسات التعليمية التقليدية (المدارس، الجوامع، الزوايا) التي شكلت نواة المنظومة التعليمية الجزائرية، واستبدالها بنظام تربوي مستورد قائم على الأسس الفرنسية والمسيحية، خُصص بشكل رئيسي لأبناء المستوطنين.

في المقابل، واجه المجتمع الجزائري هذه السياسة عبر مقاومة سلبية تمثلت في؛ الإعراض الجماعي عن التعليم الفرنسي، حفاظاً على الهوية العربية الإسلامية، حيث رأى أن هذا النظام التعليمي يهدد كيان الأجيال الناشئة ويقطع صلتهم بترائهم الحضاري¹.

ومن زاوية أخرى، أولت الإدارة الفرنسية عناية خاصة لمنع انتشار تعليم اللغة العربية، معتمدة قرارات كان لها أثر بالغ السوء ووقع عميق على مشاعر المسلمين عموماً والعرب خصوصاً، "فقد تضمّنت بعض هذه القرارات تصنيف اللغة العربية لغةً أجنبية داخل وطن عربي هو الجزائر، وهو إجراء جسّد ذروة السياسات الاستعمارية الهادفة إلى تفكيك الهوية اللغوية والثقافية.

وقد تولّى صغار الموظفين والإداريين مهمة تنفيذ هذه القرارات، فتمادوا في التضييق والتعسف، حتى وصلت الممارسات إلى حدّ جرّ معلمي اللغة العربية إلى المحاكم كما يُقَاد المجرمون²، في مشهد يعكس حجم الاستهداف المنهجي للغة العربية ومكانتها في المجتمع الجزائري.

وقد كثّفت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من جهودها للتضييق على الناشطين في تعليم اللغة العربية، من خلال جملة من القوانين والتشريعات المقيدة، ومن أبرز هذه الإجراءات "القرار الصادر عن الحاكم العام الفرنسي بتاريخ 24 ديسمبر 1904م، الذي نصّ على منع أي معلم جزائري من فتح مدرسة لتعليم العربية، إلا بعد الحصول على ترخيص من عامل العمالة، أو من الضباط العسكريين في المناطق الخاضعة للحكم العسكري. أضيف إلى ما تقدم، فإن القرار فرض شروطاً صارمة على من يُمنح هذا الترخيص، من أهمها:

¹ - تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية، مرجع سابق، ص 83-84.

² - محمد خير الدين، مذكرات، مؤسسة الضحى، الجزائر، ط2، 2002، ج2، ص28.

- حصر التعليم في تحفيظ القرآن الكريم دون التوسع في أي علوم أخرى.

- منع شرح آيات القرآن الكريم، ولا سيما الآيات المتعلقة بالجهاد.

- حظر تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها، وكذلك تاريخ وجغرافية العالمين العربي والإسلامي.

- الالتزام بالولاء للإدارة الاستعمارية والخضوع لتوجيهاتها دون استثناء.

منع المدارس المرخص لها من استقبال الأطفال الذين يزاولون تعليمهم في المدارس الفرنسية أثناء ساعات الدراسة، حتى في القرى التي تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن تلك المدارس¹، وهذا يعكس بوضوح جملة التدابير القمعية للسياسة الاستعمارية، الهادفة إلى شلّ التعليم العربي الإسلامي وإضعاف مقومات الهوية الوطنية.

وتأسيساً على ما تقدم، فقد اتخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الإصلاح الفكري والثقافي مدخلاً لتحقيق التمكين المجتمعي، مستندةً في ذلك إلى استراتيجية تعليمية شاملة، تهدف إلى بناء الشخصية الجزائرية الواعية، وقد تجسّد هذا المشروع عبر إعادة إحياء المؤسسات التعليمية التقليدية وتطويرها، حيث مثل التعليم العربي الحر أداةً للتحرر الفكري وبديلاً عن النظام التعليمي الاستعماري².

ويمكن تقسيم المسار التعليمي للجمعية إلى مرحلتين رئيسيتين:

1- المرحلة التأسيسية 1931-1940:

تميزت هذه الفترة بالتركيز على البناء المؤسسي والتأسيس النظري، حيث انطلقت الجمعية بمشروعها التعليمي عبر فتح المدارس الحرة غير الخاضعة للإشراف الحكومي، مع الاستفادة من المساجد كفضاءات تعليمية موازية. وقد جمعت هذه المرحلة بين التعليم المدرسي المنظم والتعليم المسجدي الشعبي، في محاولة لتغطية مختلف الشرائح المجتمعية.

2- مرحلة التوسع 1941-1956:

شهدت هذه المرحلة تحولاً كمياً ونوعياً في المشروع التعليمي، حيث بلغ الذروة عام 1944 بتأسيس ثلاث وسبعين مدرسة في عام واحد، وقد تطور هيكل التعليم ليشمل ثلاثة مستويات: الابتدائي، والثانوي، وإيفاد البعثات العلمية، مما مثل نقلة نوعية في بناء المنظومة التعليمية المتكاملة³، وهذا ما يؤكد لنا محورية هذا المشروع

¹ - يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، مرجع سابق، ص 61.

² - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 412.

³ - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 198.

التعليمي كإطار للتمكين الحضاري، ساهم في صياغة الهوية الوطنية وتأهيل الكوادر المحلية، مما مهد لاحقاً للمشاركة الفاعلة في المشروع التحرري الجزائري.

ولا يفوتنا أن ننوه بامتداد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في مجال التعليم إلى الجزائريين المقيمين بفرنسا، أين كانت الجهود حثيثة لربطهم بدينهم الإسلامي، ولعنتهم العربية ووطنهم الأصلي، فقامت بتأسيس النوادي للقيام بمهمة الدعوة والتعليم، الوعظ والإرشاد، ومن الرجال الذين أسندت لهم هذه المهمة وكانوا وفوداً لممارسة نشاطها الدعوي: الفضيل الورتلاني، العيد صالح، وحمزة بوكوشة وغيرهم، وقد تحدث هذا الأخير في افتتاح نادي التهذيب "باولان رون" عن أهداف النادي قائلاً: "إن جمعية العلماء لا تريد إهمالكم وترككم سدى، وإن فارقتم الجزائر فهي لحقتكم إلى فرنسا وأسست لكم النوادي الذي ما هو إلا مسجد لمن أراد الصلاة، ومدرسة لمن أراد التعليم، وناد لمن أراد سماع الوعظ والإرشاد".¹ فكانت بذلك هذه النوادي همزة وصل مثمرة للاتصال بالجزائريين في الخارج.

وختاماً يمكن القول، أن السياسة الاستعمارية القائمة على التجهيل المنهجي، والمتمثلة في الإجراءات التشريعية والإدارية الفرنسية الهادفة إلى طمس الهوية العربية الإسلامية في الجزائر، قد فشلت في تحقيق أهدافها أمام المشروع الإصلاحية الذي قادته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وقد اعتمدت الجمعية منهجاً إصلاحياً متوازناً جمع بين الفهم العميق لخصوصيات المجتمع الجزائري، والتوظيف الأمثل للإمكانيات المتاحة، حيث طورت نظاماً تعليمياً حراً تدرج من التعليم التقليدي إلى مؤسسات تعليمية متكاملة تواكب الأساليب التربوية الحديثة.

وشكّل هذا المشروع التعليمي ثورةً ثقافيةً حقيقيةً، أسهمت في تعزيز الوعي المجتمعي وتشكيل جيل جديد قادر على حمل مشروع النهضة، مما يمثل مؤشراً جوهرياً على نجاح التمكين الثقافي الذي حققته الجمعية على المستوى الاجتماعي، وأثبت قدرة العمل الدعوي المنظم على مواجهة سياسات التغريب وإعادة بناء الهوية الحضارية.

¹ - البصائر، العدد 108، 14 صفر 1357-15 أفريل 1938.

المطلب الثاني: محاربة الآفات الاجتماعية وإصلاح الشباب والمرأة:

تعد الآفات الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجزائري، مرضاً عضالاً أصاب الأمة وأقعدتها في دائرة التخلف والانحطاط، نتيجة البعد عن فهم الدين الإسلامي، والجهل بطبيعة أحكامه وتعاليمه التي توصي بالتزام الآداب والفضائل، وتنهى عن الرذائل والمفاسد، التي تعد من جملة الآفات الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع الجزائري.

ومن مجموع هذه الآفات الاجتماعية التي سهرت الجمعية على محاربتها، لتحقيق التمكين الاجتماعي في عملها، فساد الأخلاق وشرب الخمر، وارتكاب الرذائل والمنكرات والبدع، وارتداد مواطن الفسق والفجور والمحرمات، ناهيك عن جملة الآفات الاجتماعية الجديدة التي استحدثها المستعمر كالفحشاء، والتقليد والطرقية والإلحاد والتنصير - وهو ما أسندناه إلى المجال الديني -.

وجدير بالذكر أن الجمعية عملت على تكثيف أساليب التوعية والإرشاد، الموجهة إلى كافة شرائح المجتمع من الشباب والكهول والنساء والشيوخ، عن طريق الكتابات والمقالات، الموجهة للعلماء والأئمة المصلحين أنفسهم، من باب التذكير لما يتطلبه المجتمع من إصلاح وتوجيه، فكان الحديث عن مختلف الآفات والأمراض الاجتماعية التي مست المجتمع الجزائري، ومن هذه المقالات ما كان مضمونه كالآتي: "فمن أمعن النظر في كتب التاريخ يجد أن سبب ارتقاء الأمم إلى أوج الكمال، وذرورة المجد إنما هو العلوم والأخلاق، ولكننا مع الأسف الشديد أرى شبابنا - إلا قليلا منهم - ليس لهم من العلوم والأخلاق حظ ولا نصيب، فأكثرهم لا هم له إلا التأنق في الملابس وتقليد الأجانب، في عاداتهم السيئة لا في مدينتهم الحقة، لا يرتادون إلا مواطن الفسق والفساد، ولا يتساجلون إلا النكت السخيفة التي تشين المروءة وتخدش الكرامة"¹.

وتماشيا مع ما تم ذكره في منهج الجمعية العلاجي للمجتمع الجزائري، فقد حاربت الآفات المنتشرة وعلى رأسها آفة الخمر التي تعد من أمهات الآفات الاجتماعية، أين يغيب العقل ويُحجب عن التفكير، فيكون ذلك سببا للوقوع في العديد من الآفات الاجتماعية الأخرى ككثرة النزاع والخصام، إفشاء السر، إتلاف المال والثروة، الوقوع في الزنا والسرقة والكذب والحرابة والطلاق... ناهيك عن المشاكل واضطرابات العيش بصفة عامة.

فقد كتبت الجمعية على صفحات جرائدها ومجالاتها العديد من المقالات التي تبين مضر الخمر وعواقبه على الصحة الجسمية والعقلية، لاحتوائه على سموم قاتلة تهلك العقل، وتذهب الجسد ومن ذلك مقال بعنوان: "أخطار الخمر" جاء فيه أن "هذه المادة السامة تأخذ في تمديد الشرايين وأنابيب الدم في الوجه، وهذا يؤدي بالطبع إلى

¹ - خليفة بن عمار، "هل لشبابنا حظ من العلوم والأخلاق الفاضلة"، البصائر، العدد 3، 17 جانفي 1936، ص3.

فقدان حرارة الجسم الداخلية بانتشارها في الفضاء، وبناء على ذلك يكون تعاطي الكحول من عوامل إضاعة حرارة الجسم الضرورية، ولكن السكير يحتج ويقول: إنني بمجرد ما أتناول الكحول أشعر بالدفء، وزيادة الحرارة في جسمي، ونحن نقول له يا مغرور إن ذلك الدفء ناشيء بسبب خطير، وهو ورود الدم الساخن من دواخل ذاتك إلى ظواهرها، وبتكرار هذا الورود تلتهب أجزاء الجسم، وإذا كان مركز الالتهاب عضوا رئيسيا كالرئتين مثلا، فإن السكير يكون عرضة لمرض السل الخبيث، ولهذا ينتشر هذا الداء العضال بين السكارى¹

ولاقَت هذه الخطابات تأثيرا سلوكيا من قبل أفراد المجتمع، ودليل ذلك "نتائج الإعراض عن الخمر الملموسة، والتي ضجّ لها تجار الخمر وتنادى بائعوها بالويل والثبور وتعالَت أصواتهم بالتذمر، كما تعالت أصوات مشايخ الزوايا وسدنة القبور. وبالجملة فقد وقفت الجمعية من جميع الرذائل المتفشية في الأمة الجزائرية - من خمر وفجور، ومسارعة في الإيمان الفاجرة، وترك الصلاة وشهادة الزور - موقف الخصم الجبار، وحملت عليها، وما زالت تحمل حملات صادقة شكرها لها المنصفون؛ وإن قلّ من شأنها المعسفون"².

ومن جملة الأمراض التي تعد من الآفات الاجتماعية التي وقف عندها علماء الجمعية، آفة ومشكلة الطلاق في المجتمع الجزائري وآثارها الوخيمة التي تتسرب إلى الأسرة فتفككها، وتُعرض أفرادها لمشاكل وأزمات نفسية، خطاب الإبراهيمي الذي أكّد فيه على ضرورة حفظ شريعة الله وأحكامه، وحماية الأسرة بالحفاظ على الميثاق الغليظ بين الزوجين بقوله: "أيها المسلمون إن عقدة الزواج عقدة متينة وعهد مؤكد يحافظ عليه الأحرار ويتلاعب به الفجار، وإن العصمة امتياز لرجالكم مالم تطغوا فيه وتظلموا.... أيها المسلمون إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وأن أباه يُشقيه أولا ويَشقى به أخيرا... إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارا ولا تنفع بهم كبارا، إلا إذا نشأوا متقربين في أحضان الآباء والأمهات، متلقين لدروس العطف والحنان، من قلبين متعاطفين لا من قلب واحد"³، فهذا تأكيد من رجال الجمعية وعلمائها على ضرورة حفظ الأسر وعدم تشتت شملها بالتهاون في مسألة الطلاق، ضمانا بذلك لبناء مجتمع سليم ومتوازن لا تنخره هذه الآفات والعِلات.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فالجمعية حاولت جاهدة لبلوغ التمكين الاجتماعي بتحسين الفرد الجزائري من شتى أشكال الآفات الاجتماعية التي تفقده قوته، وإحساسه بمسؤوليته تجاه مجتمعه، فعملت على ربطه بالمساجد، والدروس، والمواعظ، والانخراط بالجمعيات التي أثّرت جهودها في تكوين جيل مثقف ملتزم بالأخلاق والآداب

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، أخطار الخمر، الشهاب، ج8، ص9، ص351.

² - سجل مؤتمر جمعية العلماء، مرجع سابق، ص57.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، من مشاكلنا الاجتماعية، البصائر، العدد 7، 19 سبتمبر 1941، ص3.

الإسلامية الفاضلة، وهذا ما أعلن عنه البشير الإبراهيمي بقوله: "وإذا رجعنا إلى الأخلاق أيها الإخوان، وجدنا نجاح الجمعية ظاهراً في جمهرة من الأخلاق الفاضلة غرستها في نفوس الأمة الجزائرية، فجمعية العلماء هي التي علمت الأمة خلق التضحية في الصالح العام، وخلق الصبر ومطاولته، وخلق القصد في الاعتقاد والتفكير وخلق الاعتماد على النفس، وخلق الصراحة في القول والجراة في الرأي والكلام إلى ما يتصل بهذه الأخلاق من فروع ولوازم"¹.

وكان لجمعية العلماء دور بارز في مواجهة هذه الآفات الاجتماعية، من خلال ترشيد اهتمامها في العمل الدعوي لإصلاح المجتمع، بالبحث عن أسباب العلة التي أدت لهذا الانحطاط والتخلف، فقد كانت على علم ودراية بكل القضايا الاجتماعية، التي تسعى لحلها بمنطلق كونها حركة دينية؛ تهدف لبناء المجتمع الجزائري المسلم وفق مبادئه وأصوله الصحيحة، التي تبث على التزام الأخلاق الفاضلة في درب تملأه الآفات والانحرافات.

ومن أمثلة هذا النوع من المقالات "فالأخلاق الفاضلة هي التي تكبح جماح النفس عن غوايتها وتردها إلى سبيل هدايتها، والأخلاق الفاضلة أعظم مذكر للأمة بمجدها الغابر، ومنقذ لجدها العاثر، وباعث لقوميتها التي تستطيع بها أن تعيش كاملة محتفظة بكيانها في الوجود، ضاربة بسهم مع الأمم الحية في الرقي والعرفان باستعمال العقل الذي كرم الله به بني الإنسان، ولزاما على من يحاول بعث أمة من مرقدتها وحشرها في زمرة الأحياء، أن يرجع بها إلى قوميتها وأخلاقها الحسنة، والأخلاق الحسنة من كمال الأخلاق"²، فالأمة بلا أخلاق كالشجر بلا أوراق، والأمة ميّنة فإذا تحلت بالأخلاق أُعيد بعثها وبان كيانها وملاحم نهضتها.

ولهذا كان تركيز الجمعية للقضاء على الآفات الاجتماعية في عملها الدعوي التريغيب في التحلي بجملة الأخلاق والآداب والقيم الفاضلة التي رغب الإسلام في التحلي بها، مع بيان حسن الجزاء والنعيم في ذلك. وفي المقابل الترهيب والتحذير من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة، وبيان سوء المصير والعقاب الذي يُختم به على من وقع في جملة الأفعال الذميمة، وكان المبدأ في ذلك قانون التحلية والتخلية أي التحلي بالصفات الأولى والتخلي عن الثانية.

فلا مناص من القول أن صلاح المجتمع أو فساد مرهون "بركيزتين؛ الأولى هي التحلي بالفضائل، التي جاء بها الإسلام، على أي مستوى من مستويات العمل والسلوك، بل مستويات العمل والترك، بالنسبة للفرد والبيت، والمجتمع والأمة كلها، والركيزة الثانية هي التخلي عن الرذائل والشور والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من المحرمات أو السلبيات التي تؤدي إلى إشاعة الشر والفساد، أو الانحلال والتخلخل في العلاقات الاجتماعية بين

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص286.

² - حمزة أبو كوشة، "الأخلاق"، البصائر، العدد 3، 22 شوال 1354-17 جانفي 1936، ص8.

الناس"¹، فمتى انتشرت الفضيلة في المجتمع اهتدى أفرادها إلى الطريق السوي المستقيم، ومتى استفحلت الرذيلة كثرت الجرائم والانحرافات، واضطرب نظام المجتمع وأمنه، وإن مصدر ودستور هذه الأخلاق والفضائل هي ما نص عليه القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ الذي بُعث متمما لمكارم الأخلاق، وأيضا سيرة السلف الصالح، "الأداة الوحيدة للأمة الإسلامية كي تبلغ وضعها مرضيا هي ممارسة الفضائل التي أمتت للإسلام الانتصار في بداياته، وما صنع السعادة الأخلاقية وانتصار الأجيال الإسلامية الأولى ليس سوى احترامها لتعاليم القرآن ووفائهم لدروس الرسول ﷺ، والمحاكاة الذكية والورعة لأحسن السلف"².

هذا ما جعل من علماء الجمعية ورجالها يدعون عبر دروسهم ومقالاتهم ومحاضراتهم إلى ضرورة التحلي بأخلاق القرآن وقيمه، والاقتداء بهدي المصطفى ﷺ وفعله، والاعتبار بقصص السلف الصالح وآثارهم، لأنها أساس إصلاح المجتمعات وتحقيق سعادتها، وأمنها واستقرارها، كما حثوا على الابتعاد عن الأخلاق الذميمة وحذروا من عواقبها، ومن أمثلة ذلك النهي عن صفة العُجب لأنه باب للكِبَر والتحذير منها باعتبارها أساس الرذائل في قوله: "تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل، والعجب هو أساس الرذائل، فأول الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك، ومن لم يكن معجبا بنفسه كان بدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق، والتنزه عن نقائصها"³.

وخلاصة القول فإن منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتحقيق التمكين الاجتماعي، في باب محاربة الآفات الاجتماعية كان منهجا دينيا سلفيا فعّالا، عماده كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وعمل السلف الصالح منهم، والذي يدعو لنشر الفضائل والمكارم وتهذيب المجتمع، والتخلي عن الرذائل ومحاربة المفسد وفق قاعدة "درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة"، فهي خير جمعية أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، سعيها منها في إقامة المدنية الإسلامية في الجزائر، والعودة بها إلى العصر الذهبي للأمة الإسلامية، مع مراعاة فقه الواقع الذي يعيشه الفرد الجزائري، وما تتطلبه الحياة المعاصرة من مراعاة لفقه الأولويات، وهذا مما حث عليه الإسلام ولم ينكره.

وفي هذا الإطار أيضا، نجد اهتمام الجمعية بإصلاح الشباب والمرأة كبيرا، حيث تعتبر فئة الشباب والمرأة من أكثر الفئات حيوية وفاعلية في أي مجتمع من المجتمعات، فهي رمز الحياة وركن من أعظم الأركان التي تبنى عليها الأمم نخضتها وتطور بها حضارتها، فلا يخفى على عاقل مدى تأثيرهم الشباب وإسهامهم في رقي مجتمعاتهم وبلوغ

¹ - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، مرجع سابق، ج1، ص479-481. بتصرف.

² - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص353.

³ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج1، ص677.

أسمى درجات التقدم والتحضر بين باقي الأمم، وهذا ما جعل جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تتوجه لهذه الفئة الحيوية المؤثرة بعملها الدعوي لتحقيق التمكين الاجتماعي، وذلك من خلال إحاطته بمنظومة تربوية تعليمية تهذيبية، ترمي بضرورة تعليم وتثقيف الشباب، وربطهم بدينهم ولغتهم لمواجهة الآفات الاجتماعية المنتشرة في مجتمعهم، فالشباب في نظر الجمعية بريق أمل ساطع وسط ظلام حالك، -أحدثه المستعمر الغاصب- ولذلك تقول فيه:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب.

خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب.

فالشباب ذخر المجتمع وطاقته في سبيل بناء مجد الأمة وحضارتها، وقد أدركت الجمعية أن إصلاح الشباب هو المدخل لإصلاح المجتمع، فركزت جهودها في التغيير على الإصلاح والبناء الفردي للشباب، بتعبئة ثقافية عربية إسلامية تحرّر النفس من ذل الجهل والجمود وهوان التبعية والتقليد، فتسليح الشباب بالثقافة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والمبادئ والقيم الإسلامية الراقية، سبيل لتحقيق التمكين للمجتمع بنهضة وصلاح شبابها.

أما بالنسبة لحال الشباب الجزائري فقد كان يعيش ظروفًا قاسية وأوضاعًا مزرية، اجتمعت فيه سياسات المستعمر وسمومه القاتلة، فكان همّ الشباب الأكبر اتباع شهواته وإشباع غرائزه، حالّ يسود فيه الجهل بالعقيدة الإسلامية وأصولها ما يعني انتشار المحرمات والاستغراق في المنكرات وغيرها الكثير من الآفات الاجتماعية التي أشرنا لها سابقًا، وقد صوّر هذا الحال رئيس الجمعية بقوله: " ولم يكن يومذاك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته، وتاريخه، ومجده، وقبح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء -إلا منه-أمله، وحقره في نفسه تحقيرًا، وإلاّ شباب أكلته الحانات والمقاهي والشوارع، ومن وجد العمل منه لا يرى نفسه إلاّ آلة متحركة في ذلك العمل لا همّ له من ورائه في نفسه، فضلًا عن شعوره بأمر عام، وإلاّ شباب حفظه الله للإسلام والعروبة، فأقبل على تعلمها، لكنه تعلم سطحي خال من الروح، (وإلاّ شباب) لا يعتز بماض، ولا يألم لحاضر، ولا يطمح لمستقبله، اللهم إلا أفرادًا قلائل جدا هنا وهناك"¹

ومن هذا المنطلق فقد جعلت الجمعية قضية الشباب في مقدمة اهتماماتها، إدراكًا منها بأنّ الشباب طاقة معطلة تحتاج إلى قيادة وإعادة توجيه، لذلك وجهت جهدًا كبيرًا للقيام على هذا المشروع من الناحية الاجتماعية والثقافية والدينية، "لأنهم كانوا يرون فيهم أمل الجزائر ومستقبلها الزاهر، فتسليح الشباب بالثقافة الصحيحة

¹ -عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج4، ص364-365.

والأخلاق القومية والوطنية الصادقة، والتشبع بالمبادئ الإسلامية سيقودهم فيما بعد إلى النهوض والإصلاح، ولقد خص ابن باديس الشباب عناية خاصة، ويتجلى ذلك من خلال الدروس التي كان يلقيها يومي السبت والأحد، وتنظيمه ضمن هياكل شبابية كالجمعيات سواء كانت موسيقية، أو كشفية أو إصلاحية¹

"فالنوادي مثلا كانت مفتوحة لجميع الناس، ولكنها كانت مجعولة أساسا لنيل تعاطف الشبيبة قصد التأثير عليها تأثيرا أخلاقيا وثقافيا، وكانت نشاطات هذه النوادي المتنوعة موجهة لتحسيس روادها بمحاسن الإسلام واللغة العربية"² أما بالنسبة للكشافة " فقد خدمت غايات الإصلاحيين بتمكينهم من القيام في جو من الشرعية بتكوين نخبة خاصة يمكن أن ينظر إليها مواطنوهم كملمح أولي لما سيكون عليه الجيش الوطني المستقبلي،...الكشافة في المنظور الإصلاحي كمدرسة للتربية الإسلامية والوطنية. وبوصفها كذلك كان عليها أن تساهم لا في تدعيم العمل الثقافي والاجتماعي للحركة الإصلاحية فحسب، بل وبخاصة في تزويد الشبان بوعي جاد بشخصيتهم العربية الإسلامية"³.

فكانت هذه النوادي والجمعيات الكشفية المنتشرة بمثابة حصن يتكون فيه الشباب عقائديا وثقافيا وأخلاقيا وحتى سياسيا، للقيام بواجبه اتجاه خالقه أولا، ثم نفسه ومجتمعة ووطنه ثانيا.

وبما لا يدع مجالا للشك، فإن الجمعية قد أدت دورا قياديا في بلوغ التمكين الاجتماعي، حيث أخرجت شباب الجزائر من أحوال الجهل والخمول والتبعية والشقاء، إلى معالي الفضائل والعلوم والأخلاق، محققة غايات الرقي والتطور في نسيج البناء الاجتماعي، كما شجعت على الاقتداء بتاريخ الرجال الأحرار، واستحضار ماضيهم الحافل بأعجاد النصر والبطولات، وهذا ما يستدعي الفخر والاعتزاز، خاصة بعد طغيان التقليد والاتباع الأعمى لأصحاب المدنية الغربية، من قبل الشباب الجزائري.

فكان من جملة هذه النداءات: " يا شباب الجزائر: سر في بساتين الحياة وعرج على تاريخك الماجد، وقبّل صفحات رجالك وانظر إلى آثارهم تجد ضالتك المفقودة وحياتك الموقودة، وكن حازما عبقريا ولا تكن غرا تستهويك المظاهر ويغرك السراب فتطغى حيويتك على شبابك وشبابك على فضيلتك، فتصبح من الغاوين تضرب رقبتك بسيفك، وتنزع روحك بيدك ويسلم جسدك الناعم الجميل - وقد أضعفته بنفسك- للأسود والحشرات فيقتسمونه طعاما سائغا ورزقا هنيئا لم يدفعوا فيه ثمنًا"⁴

1 - شهرة شكري، الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 14.

2 - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 378.

3 - المرجع نفسه، ص 381-382.

4 - بلقاسم بن ارواق، " إلى الأدب أيها الشباب"، البصائر، العدد 5، 6 ذي القعدة 1354، 31 جانفي 1936، ص 4.

وخلاصة القول أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سعت لبلوغ التمكين الاجتماعي من خلال حرصها على إصلاح فئة الشباب وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، تقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال، فكان التعليم في المساجد والنوادي والجمعيات محركاً لنهضة دينية ثقافية أخلاقية.

ومن زاوية أخرى، أبدت الجمعية اهتماماً شديداً بمكوّن آخر من مكونات المجتمع وهو المرأة، حيث كانت قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعاني الجمود والركود والحرمان، مسلوقة الحقوق والحريات، بسبب جملة العادات والتقاليد الفاسدة، مع الفهم الخاطئ للدين، ما جعل من قضية المرأة الجزائرية ودورها في المجتمع تثير جدلاً واسعاً في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث تم تناول هذا الموضوع على منابر الوعظ والدرس، وفي حال اللقاءات والاجتماعات، وأيضاً على صحف الجرائد والمجلات.

"فموضوع المرأة من المواضيع الحساسة خصوصاً في المجتمع الجزائري، وإن تناول المواضيع التي تتعلق بهذا الشأن أو التطرق لمشاغلها ليس بالأمر اليسير، فكان في غاية التحفظ والاحتشام، وقد التمس هذا التحفظ في جريدة البصائر التي كانت قليلاً ما تتناول المواضيع المتعلقة بالمرأة إلا القليل منها مثل التحدث عن قيمة المرأة في المجتمع، والتحدث عن حجابها وحشمتها مما يتماشى مع عقلية الجزائريين في ذلك الوقت، والتركيز على تعليم المرأة وخروجها إلى المساجد، لسماع الوعظ والإرشاد الذي أصبح قضية العصر، فإن خروج المرأة بعدما كانت لا تتخطى حدود جدران البيت الأربع، قد أثارت جدلاً كبيراً بين رجال الإصلاح الداعمين إلى تعليم المرأة في حدود العفة والاحتشام، وبين الذين يقولون في ذلك أنه غلو في الدين، وأن دور المرأة يكون في الإنجاب والتربية وخدمة الرجل فقط".¹

وبناء على ذلك فقد توجهت جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتحقيق التمكين الاجتماعي في الاهتمام بالمرأة، وإدخالها مجالس التعليم باعتبارها شقيقة للرجل وشريكة معه في التكليف قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل/97، فالمرأة مكوّن وقطب أساسي لنهضة المجتمع وصلاحيته، وإهمالها طريق للتخلف والفساد. فالمرأة كالمضغة في جسم الإنسان، إذا صلحت صلح المجتمع كله وإذا فسدت فسد المجتمع كله.

فكان اهتمام الجمعية بالمرأة للنهوض بها نحوها يخدم الفكرة الإصلاحية، ويساهم في نجاح المشروع التربوي لتحقيق التمكين الثقافي في المجتمع الجزائري، وتُعد نظرة الجمعية لتمكين المرأة من تعليمها وتنقيفها مبنية على

¹ - بوسعيد سومية، الفكر الاجتماعي الإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2019، عدد 45، مج 23، ص 675.

الفلسفة القائلة: "أن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدبّر الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما من رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت، بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن"¹

فلا مناص من القول، أن هذا ما دفع بالجمعية أن تدعو لضرورة تعلم المرأة تعلمًا يليق بطبيعة أنوثتها، ويحفظ دينها وأخلاقها، ويساعدها على القيام بوظيفتها الاجتماعية، وهي رعاية الأسرة، وتربية الأبناء تربية صالحة، فيكونوا ثمرة طيبة في المجتمع، فالمرأة خلقت لحفظ النسل وتربية الإنسان في أضعف أطواره وحمله وفصاله ثلاثون شهرا، فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها وتربيتها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ولا نصف امرأة، فالتى تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها"². وبالتالي فالعلم ليس حاجبا لتقلد المرأة كافة المهام الفطرية المنوطة بها داخل أسرتها، بل إنه يسهم في إعادتها للقيام بوظيفتها الاجتماعية، وتنشئتها لأفراد أسرتها بكل فخر واعتزاز.

ومن زاوية أخرى فإن دعوة الجمعية لتعلم المرأة الجزائرية تعلمًا دينيًا عربيا، تُعدّ حصانة لها من الوقوع في خطر التعليم الأجنبي ودعوات التحرر الموجهة للمرأة، التي تصرفها عن دينها، وتفسد أخلاقها وتلغي حيائها، وتفسخ عروبته، قال ابن باديس: "تعليم البنات تعليمًا يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن، فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا-عليهن الرحمة-خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها"³، وفي الإطار ذاته فقد وجه المستعمر الغاشم جهودا كبيرة من أعماله التبشيرية للتأثير على المرأة "فأسسوا جمعيات نسائية؛ كجمعية الشابات المسيحيات، ومدارس للبنات، وشجّعوا على التعليم المختلط، وإقامة الأندية النسائية والمخيمات الكشفية، لكسر الحواجز بين الذكور والإناث، والتغلغل عن طريقها لداخل الأسرة المسلمة، لبث السموم التي تُملئها عليهم مهماتهم التبشيرية"⁴

كما لا يفوتنا أن نصف حال المرأة الجزائرية في فترة الجمعية، فهي إما محرومة أصلا من التعليم فلا تُجيد من الكتابة والقراءة شيئا، وإما متعلّمة تعلمًا سطحيًا أجنبيًا، يسعى لطمس معالم دينها وعروبته، شخصيتها، عاداتها وتقاليدها-وهي سياسة استعمارية مدروسة، تفتح مدارس للبنات المسلمات بهدف الطعن في الدين، وتحقير العربية والتجريد من الشخصية الإسلامية، وفتح أبواب التحرر والتنصير عليها.

¹ - ابن باديس، الشهاب، ج8، مج 11، غرة شعبان 1354هـ-نوفمبر 1935م.

² - رابح تركي عمامرة، عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية، مرجع سابق، ص175.

³ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج3، ص471.

⁴ - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص72-73.

وجدير بالذكر أن الجمعية قد سطرت في برنامجها التربوي التعليمي فئة البنات منذ تأسيسها، وهو ما أشار إليه البشير الإبراهيمي بقوله: "أما الفجر الصادق لتعليم الفتاة فهو يبتدئ من سنة 1931م، أي منذ اثنتين وعشرين سنة، يوم تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإحياء العروبة والإسلام بالقطر الجزائري، ومغالبة الاستعمار عليهما، وخطت خطواتها المشكورة في التعليم العربي الإسلامي على نظم عصرية..... ولهم اليوم نحو مئة وخمسون مدرسة عربية حرة تحتوي على نحو خمسين ألف تلميذ من بنين وبنات، ولهم معهد ثانوي يحتوي على ألف وخمسمائة تلميذ"¹، وما يزيد في الترغيب نحو تعلم المرأة قرار ابن باديس، فعندما أسس جمعية التربية والتعليم نص قانونها الأساسي على أن تعليم الإناث مجاني "سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها، وذلك تشجيعاً لهن على الإقبال على الدراسة والمواظبة عليها"²، وكان من حرص الشيخ ابن باديس ورجال الجمعية على تعليم المرأة أنه كان يسعى شخصياً في الاتصال بالمواطنين عبر أقطار الوطن الجزائري، وكذا علماء الجمعية بحث الناس وتشجيعهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم.

وبالإضافة إلى ذلك خصص دروساً للنساء في المسجد الأخضر وغيره من المساجد في قسنطينة، لتلقي الوعظ والإرشاد، والتفقه في أمور الدين والدنيا، وكان الحضور لافتاً مما أدى إلى نفاذ المساحة المخصصة بالمسجد للنساء، دلالة بذلك على الإقبال الواسع والتأثير الكبير الذي خلفته هذه الدروس على عقل وقلب المرأة الجزائرية. ولم تقف الجمعية عند هذا الحد بل إنها سعت بعد إنهاء بعض التلميذات دراستهن في مدرسة جمعية التربية والتعليم بقسنطينة فكر في إرسالهن ببعثات طلابية علمية إلى سورية، فبعث رسالة بخط يده في أوت 1938 إلى رئيسة مدرسة

"جمعية دوحة الأدب للبنات" معبراً عن رغبته في انضمام مجموعة من البنات للدراسة هناك، وكان مضمون الرسالة الآتي: "فاسمحي لي يا سيدي أن أتقدم إلى حضرتك بهذا الكتاب عن غير تشرف سابق بمعرفتكم، غير ما تربطنا به الروابط العديدة المتينة التي تجمع بين القطرين الشقيقين، الشام والجزائر. يسرك يا سيدي أن تعرني أن بالجزائر نهضة أدبية تهذيبية تستمد حياتها من العروبة والإسلام غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي، ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها مجلة الرابطة العربية رغبت أن ترسل بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية، فهي ترغب من

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4، ص266.

² - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية، مرجع سابق، ص330.

حضرتمكم أن تعرّفوها بالسبل إلى ذلك. تفضلي سيدتي بقبول تحيات الجمعية وإخلاصها والسلام¹ ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية ووفاته هو في شهر أفريل 1940 عطل المشروع وأجهضه.

وخلاصة القول أن جمعية العلماء المسلمين قد جعلت الاهتمام بفئتي الشباب والمرأة، باعتبارهما عمود الإصلاح وأساسه في تحقيق وبلوغ التمكين الاجتماعي للأمة وإصلاح أوضاع الشاب الجزائري، الذي أنساه المستعمر وطمس معالم دينه، وعروبته وتاريخه وثقافته، وحاول التأثير عليه بأبواق المدنية الزائفة والحضارة الغربية البائسة.

وبالنسبة للمرأة فقد استطاعت الجمعية أن تخرجها من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، رغم كل التحديات والمعارضات، والعوائق الاجتماعية المشهودة آنذاك؛- والتي كانت مؤسسة على فهم خاطئ للدين، وتمسك بعادات وأفكار متشددة، في عالم وبيئة ذات طابع ذكوري- فسعت لتعزيز مكانة المرأة ورفع حجاب الجهل عنها، بفتح أقسام خاصة لتعليم البنات بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، كما أمر بتطبيق هذا الفعل وتعميمه في كل مدارس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، وما هذا العمل إلا سعي لضمان المرأة حقا من حقوقها الأساسية في التعلم، وهو أول واجب ديني أمر به الله تعالى عباده، فكان أول ما نزل من الوحي "اقرأ" في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/1-5، فكان هذا التعليم نابعا من ثوابت الأمة ومصادرها، فحقق كل احتياجاتها وتساؤلاتها، وأسهم في بناء شخصيتها أولا وبناء مجتمعها وإصلاحه ثانيا.

وفي نهاية المجال الاجتماعي الثقافي لتمكين الجمعية عملها الدعوي، يتبين بوضوح أن هذا المجال طان إطارا لترميم النسيج الأخلاقي للمجتمع، فهو مجال يهتم بإصلاح المجتمع سلوكيا، وأخلاقيا وتربويا، لإيجاد بيئة صالحة لظهور التمكين، وفي هذا الإطار فقد أدى المجال الاجتماعي وظائف عملية فعّالة، من خلال إحياء الأخلاق والقيم والمبادئ الفاضلة، الصدق، العدل، الأمانة، المسؤولية، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين الأفراد، أين انتشرت روح التعاون ودعم الفقراء، ونشر ثقافة التضامن، بالإضافة إلى محاربة الانحرافات الاجتماعية، من جهل ومخدرات، وعادات سيئة، وجاهدت جهادها الكبير لتقوية الروابط الأسرية، وإصلاح هذه اللبنة التي تُعد نواة بنائية للمجتمع، فصالح الأسرة يعني صالح المجتمع، وفسادها يعني ركوده وتخلفه.

وكما أكدنا آنفا، فالجمعية اتخذت جملة آليات تخدم هذا المجال، كتفعيل دروس الوعظ والإرشاد في المساجد يوميا، وتنظيم حملات للإصلاح الاجتماعي، وفتح الباب والتشجيع على تعليم النساء والفتيات، وأيضا تأسيس

¹ - يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط1، 2001، ص27.

المدارس الحرة التي خلقت بيئة مجتمعية جديدة، وفتح النوادي لعقد الملتقيات وإلقاء المحاضرات ومجالس الصلح. وبما لا يدع مجالا للشك، فإن المجال الاجتماعي كان له الأثر العميق في التمكين، من خلال إعادة تشكيل المجتمع وفق قيم الإسلام ومبادئه الصحيحة، وتكوين مجتمع قوي ومتماسك رغم السياسات التفريقية الاستعمارية المتنوعة، واسترجاع روابط الأخوة والمحبة والتكافل، وإعطاء القيمة للمرأة والشباب، كونهما الطاقة المحركة للأمة، فالتمكين الاجتماعي عند الجمعية كان مشروع إعادة المجتمع من الداخل، ليكون مؤهلا لنهضة شاملة.

وفي المقابل نجد أن المجال الثقافي، كان سبيلا لتمكين الهوية العربية الإسلامية، لأنه المجال الذي يركز على حماية الهوية اللغوية، والفكرية والحضارية للمجتمع الجزائري، وبناء الوعي التاريخي والثقافي المقاوم، ولعل أبرز وظائف هذا المجال، تمثلت في تمكين اللغة العربية، باعتبارها جزءا هاما ومحوريا من هوية الأمة، وكذا مواجهة مشاريع التغريب والتجهيل والفرنسة، التي سعى إليها المستعمر، وأضف إلى كل ما تقدم أنها ساهمت في تعزيز الوعي التاريخي، لكي يدرك الشعب ماضية وأصالته.

ولا مناص من القول، أن المجال الثقافي لعب دورا كبيرا في تمكين العمل الدعوي للجمعية، انطلاقا من حماية الهوية الجزائرية من الذوبان، وخلق رأي عام واعي ومقاوم، وتشكيل طبقة من المثقفين المصلحين، وهذا يعني أن المجال الثقافي كان خط الدفاع الفكري، الذي حفظ كيان الأمة الجزائرية في وجه الاستعمار.

المبحث الرابع: مجال التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية.

اهتمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عملها الدعوي بالتمكين الديني وأولته أهمية بالغة، وكذا التمكين الثقافي والاجتماعي، ولكنها في المقابل لم تُهمل المجال السياسي، فكان سعيها للتمكين السياسي أحد اهتماماتها الخفية التي مارسها بطريقة تُبعد عن نفسها التهمة والريبة، والدليل على ذلك أن القانون الأساسي للجمعية، يصرّح بأنها لا تخوض في المجال والأمور السياسية، بل إن مجالها منحصر في إطار ديني تنقيفي محض.

وفي هذا الإطار سارت الجمعية على خطى خفية لبلوغ التمكين السياسي في عملها الدعوي، باعتبارها الجمعية التنظيمية الوطنية المسموح لها بمزاولة نشاطاتها فيما يحدده لها قانونها

وإن مجموعة من رجال الجمعية المتشبعين بالروح الوطنية بادروا في الحث على إشراك الجمعية في الحياة السياسية، رغم وجود بعض المعارضين للخوض في هذا الميدان بحجة أن "جل الإصلاحيين يحددون ذواتهم كرجال دين لا يُخفون خشيتهم (وحتى كرههم) من الشأن السياسي، سواء كان ذلك من باب القناعة الشخصية أو من باب الحيلة والحذر والمهارة التكتيكية، فإن الزعماء الإصلاحيين الكبار كانوا يوحون بأن الانشغالات السياسية غريبة عن حركتهم وبأنهم هم أنفسهم لا ينشدون سوى إصلاح أخلاق ودين المسلمين الجزائريين".¹

وجدير بالذكر أن تحقيق التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية، انطلق من تحرير عقل الفرد لتسهيل تحرير الوطن، بمعنى أن جهود الجمعية في نشر الدين الإسلامي الصحيح، ونشر الثقافة العربية الإسلامية، وإعادة اللغة العربية إلى مكانتها، ومحاربة الآفات والمنكرات الاجتماعية المنتشرة، كانت في طياتها مزوجة بمناهضة الاستعمار، والرغبة في الحرية والاستقلال.

فلا مناص من القول أنّ الحركة الثورية بحاجة إلى تعبئة دينية، فكرية ثقافية متينة، لأن العلاقة بين العمل السياسي والعمل الفكري علاقة متكاملة وثيقة، يتأثر فيها كل طرف بالآخر، فما كان للثورة المسلحة أن تنجح وتحقق مكاسبها دون أبعادها الدينية الثقافية الاجتماعية، ولا وجود لنهضة دينية إسلامية، أو ثقافية أخلاقية في غياب النهضة السياسية التي تحتمها ساحة الميدان.

على الرغم من أن الجمعية لم تمارس السياسة بمفهومها الاستعماري، لكنها أدرجتها ضمن الأهداف الاستراتيجية المنشودة، نظرا لجملة الأوضاع المزرية التي تعيشها الجزائر من وطأة المظالم والانتهاكات الاستعمارية، التي أدخلت جمعية العلماء المسلمين باب السياسة في مناقشتها وعرضها لقضايا ومسائل محورية، تزيد من وعي

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 473.

المواطن الجزائري وإدراكه لحالته، ما يجعله يطالب بحقوقه وحياته المسلوبة، والسعي لرفع أشكال الظلم والمعاملة الطويلة.

ولقد صرح ابن باديس بأن الولوج إلى عالم السياسة ليس أمراً محرماً، بل قد يكون باباً لتحقيق التقدم والتمدن للأمة، فقد ألقى محاضرة سنة 1936 يقول فيها: "كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، فقد يرى بعضهم أن العلماء يقتصر دورهم على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين كل النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجد" فالعلاقة التي تجمع العلم بالسياسة علاقة تلازم وترابط شديد، ما يلزم العلماء ورجال الدين الخوض في الأمور والمسائل السياسية، وعدم الاكتفاء بالأمر التعبدية.

ولعلّه من الأهمية بمكان أن نتعرف على منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في معركتها النضالية للدفاع عن هوية الشخصية الجزائرية، والتي ترسم لنا مظاهر التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية، حيث برزت ملامح هذا المنهج في الكثير من النقاط: كمواجهة الإدارة الفرنسية وقراراتها التعسفية، الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي والمساهمة فيه، مقاومة سياسة الاندماج والتجنيس، دعم الثورة والمطالبة بالحرية والاستقلال، وغيرها الكثير من القضايا التي يطول بحثها في حال التفصيل فيها، ويمكن بيان ذلك من خلال مجموعة من النقاط نعرضها فيما يلي:

المطلب الأول: المشاركة في المؤتمر الإسلامي 7 جوان 1936م:

يُعد مطلب عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري والمشاركة في فعالياته، مع مجموعة الأشخاص والأحزاب والهيئات السياسية، من أبرز الأعمال والأحداث السياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا بإجماع صريح من طرف الباحثين في الشأن السياسي للجمعية، "وقد انعقد بالعاصمة في السابع من يونيو سنة 1936، ويعتبر أول تجمع من نوعه في الجزائر، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمعاً تشترك فيه كل الاتجاهات وتمثل فيه مختلف الطبقات وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور"¹.

وتجدر الإشارة إلى واضح فكرة هذا المؤتمر، والتي ينسبها البعض إلى أن أول من أطلق الدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي، هو عبد الحميد بن باديس، الذي تأثر بأخبار "المؤتمرات الإسلامية المنعقدة خلال العشرينات والثلاثينات، من ذلك مؤتمر الخلافة الإسلامية الذي انعقد في القاهرة، والمؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس،

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، مرجع سابق، ج3، ص 151.

ومؤتمر مسلمي أوروبا الذي انعقد في جنيف¹، بالإضافة إلى الأوضاع السياسية المتدهورة آنذاك، حيث عقد اجتماع "نظرا لتدهور الحالة العامة في الجزائر، والبلبل السياسية السائدة، واختلاف الأحزاب والهيئات الوطنية وتشتتها، رأيت أن أدعو إلى مؤتمر إسلامي جزائري جامع، يجمع الشمل ويوحد الصف، ويحدد الهدف لأن المرجع في أمور الأمة يعود إلى الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات والندوات التي تفحص فيها الأمور وتحصص النتائج، والإجماع أصل من أصول تشريعنا الإسلامي، فلماذا لا نعمل به في السياسة؟ لهذا جمعتمكم لأستطلع رأيكم، وأطلب منكم الموافقة على توجيه الدعوة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إلى مثقفي العربية والفرنسية والنواب والأحزاب، وكل من يهمه أمر البلاد والعباد من الطوائف والمنظمات الوطنية"².

ولعل أبرز ما يهمننا في انعقاد المؤتمر الإسلامي، جملة المطالب التي سطرها الجمعية، لتحقيق التمكين السياسي، والتي يمكن تقسيمها حسب رأي البشير الإبراهيمي إلى: "أن المطالب الجزائرية تنقسم إلى قسمين: قسم لا يختلف فيه نظر لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة كانت تعامل بها الجزائر بصورة استثنائية كحرية القول والفكر والكتابة والاجتماع والتنقل والتعليم العربي والمساجد وكرفع القوانين الاستثنائية الشاذة وقسم يحتاج دقة في النظر وهي الحقوق السياسية، وأشد مسائل هذا القسم تعقيدا مسألة النيابة في البرلمان"³.

وفي هذا الإطار جاء في مجلة الشهاب مقال بعنوان "حقوق الأمة الجزائرية التي تطلبها من الأمة الفرنسية-النيابات- اللغة العربية-والدين الإسلامي، وكان ملخص مطالب جمعية العلماء في المؤتمر الإسلامي الجزائري يتمثل في جزأين، مطالب فردية عن طريق ابن باديس تناولها باسمه، تضمنت الحق في المساواة بين الجزائريين المسلمين والأوروبيين في المجالس النيابية، وإلغاء المعاملات الخاصة مثل قانون الأهالي، ومطالب تقدم بها باسم جمعية العلماء، أبرزها فصل الدين عن الدولة، وتحرير اللغة العربية من خلال التعليم الديني واللغة العربية، وتحرير القضاء من خلال قضاء شرعي على أساس العدل والمساواة، واستحداث مدارس لتكوين القضاة الشرعيين، أما المطالب العامة، فقد تم تقديمها إلى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم وتمثلت في:

-إلغاء كل القوانين الاستثنائية المطبقة على المسلمين.

-إلحاق الجزائر بفرنسا وإلغاء الولاية الجزائرية، ومجلس النيابات ونظام البلديات المختلطة.

-المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، مرجع سابق، ج3، ص 151.

² - محمد خير الدين، مذكرات، مرجع سابق، ج1، ص 227-228.

³ - البصائر، العدد 23، 12 جوان، 1936، ص2.

-الإصلاحات الاجتماعية.

-الإصلاحات الاقتصادية.

- الإصلاحات السياسية: وتمثلت في: إعلان العفو السياسي، توحيد هيئة الناخبين في سائر الانتخابات، إعطاء الحق لكل ناخب في ترشيح نفسه، النيابة في مجلس الأمة"¹

ولا يفوتنا أن ننوّه بالانتقاد الذي وُجّه للجمعية كونها شاركت في مؤتمر يتعارض مع مبادئها، وأهداف سعى إليها رجالها، كونه يدعو إلى ارتباط الجزائر بفرنسا بالإدماج والتجنيس، لكن" الثابت أن جمعية العلماء بقيت مصرّة على موقفها في معارضة الدمج الذي تعتبره محو للشخصية القومية، وقد فرقت الجمعية في تبريرها لموافقتها على اللاحق، بين الجنسية القومية والجنسية السياسية، فالجنسية القومية في تعريف الجمعية هي مجموعة المقومات والميزات التي يتمتع بها شعب معين، وتشتمل على اللغة التي يعرب بها ويتأدّب بأدائها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات، وبالتالي فإن الأمة الجزائرية تتمتع في نظر جمعية العلماء بجميع المقومات والمميزات لجنسيتها القومية، فمن المستحيل إضعافها فيها فضلاً عن إدماجنا أو محونا"²

وتأسيساً على ذلك فإن قبول الجمعية وموافقتها في إلحاق الجزائر بفرنسا، كان من باب استفادة المواطنين الجزائريين وضمّانهم جملة الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون، باعتبار أن السياسة الممارسة من قبل المحتل تفرض على الجزائريين، وتُلزمهم بمجموعة الواجبات الفرنسية دون منحهم للحقوق، فكان منبر المؤتمر الإسلامي باباً للدفاع عن قضية الحقوق السياسية، واسترجاع الحريات المقيّدة.

ولكن فشل المؤتمر في تحقيق مطالب المؤتمر الإسلامي ومراميه، بعد جملة التسويات والمماطلات الاستعمارية، دفع باللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي إلى عقد المؤتمر الثاني خلال شهر جمادى الأولى 1356هـ (9-11 جوان 1937)، حيث كان موقف المؤتمر لا يزال قوياً فأعلن تمسكه بمطالب المؤتمر الأول، كحد أدنى وأضاف إلى ذلك "أنه لا يمكن أن يوجد تحت ظل النظام الديمقراطي الكيل بمكيالين، والوزن بميزانين بين سكان بلاد واحدة، لذلك فالمؤتمر يطلب:

¹ - الشهاب، ج4، مج12، جويلية 1936، ص210-213.

² - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 248.

- أن يقع إعلان عفو خاص بسرعة لتطوى صفحة المظالم الصارخة التي اقترفت تحت ستار القانون.

- أن يحذف من القانون الجنائي كل نص يخص الأهالي.

- أن تقع مراقبة العدلية الجزائرية مراقبة دقيقة، حتى يتحقق سلوك مسالك العدل مع الجميع دون محاباة¹

ومن زاوية أخرى، فعلى الرغم من كل المعوقات التي واجهت المؤتمر نحو تجسيد أهدافه على الميدان، إلا أنه يعد أكبر تجمع جزائري ضم مختلف الاتجاهات داخل الحركة الوطنية، وهذا الفشل كان دافعا لعلماء الجمعية ورجالها إلى رفع المشعل لإحياء الإسلام، وتصحيح العقيدة المنحرفة، والدفاع عن اللغة العربية بإنشاء المدارس والنوادي، لنشر الفكر والوعي الإسلامي الصحيح، وكشف الستار عن مسألة الإدماج التي كانت مجرد حبر على ورق، وهذا ما تفتن له علماء الجمعية ابتداءً.

وتأسيسا على ما سبق فإن أبرز النتائج التي تمخض عنها انعقاد المؤتمر الإسلامي، وتُظهر ملامح التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية هو ظهور حركة الإصلاح الوطني في القطر الجزائري، وهي نتيجة عملية لجهود جمعية العلماء المسلمين، التي عملت على توحيد صف أبناء الجزائر، وإجماعهم الصريح على جملة المطالب التي تحقق وحدتهم الوطنية، في جو من الانتفاضة على فرنسا وقوانينها الجائرة، وخاصة عند المطالبة بجملة الحقوق السياسية، التي اعتبرتها غير متوافقة مع القوانين الفرنسية، وهو ما ينطبق على معارضة البرلمان لمشروع بلوم فيوليت^(*)، كون المواطنة الفرنسية لا تتناسب مع الحالة الشخصية الإسلامية.

وخلاصة القول فإن المؤتمر الإسلامي كان حدثا بارزا في الجزائر، شدّ اهتمام وحماس الكثير من الجزائريين، كونه سار في مسار الاتجاه الإصلاحي، لتمكين العمل الدعوي سياسيا من خلال تحقيق تقارب الاتجاهات السياسية الوطنية، وخلق تفكير وحدوي اجتمعت فيه الكلمة من كل عناصر الأمة وأحزابها لتحقيق أهداف موحدة، حول المطالب الوطنية للجزائريين، كالنيابة في البرلمان، المساواة الفرنسية الجزائرية في الحقوق مثلا، كما ربط فكرة الإدماج بالحق في التمسك بالأحوال الشخصية العربية الإسلامية.

لكن المؤتمر سرعان ما اندثر وتلاشى أمام الوعود الفرنسية الكاذبة في تحقيق مطالبه، إلا أنه مكن الجمعية من الظهور بالمظهر الإصلاحي سياسيا، فكان لها دور كبير في انتشار الوعي السياسي لدى الشعب الجزائري،

¹ - الشهاب، ج 6، م 13، جمادى الثانية 1356هـ - أوت 1937م.

^(*) - مشروع وضعته حكومة الجبهة الشعبية في 1936، وينص على إصلاح مستوى التعليم، والقيام بإصلاح زراعي، وتأمين نفس الحقوق والواجبات التي للفرنسيين لبعض الجزائريين، بما فيها الحقوق السياسية الممنوحة للفرنسيين، دون أن يغيّر ذلك في أحوالهم الشخصية، أو حقوقهم المدنية، ... أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ج 3، ص 18.

الذي غمرته أحاسيس ومشاعر الوحدة، فأصبح المؤتمر بذلك عنوانا لاتحاد الأمة الجزائرية وقوتها، لأنها جمعت آراءها على ما فيه مصلحة العباد والبلاد، كما كان أيضا رمزا للمطالبة بأهدافهم الحيوية، فتوحدت كلمتهم لافتكاح حقوقهم، وفتح أعينهم على قضايا لم يعرفوها من قبل، فكانت بذلك جمعية العلماء المسلمين تمارس السياسة باسم الدين، وتعمل على تكوين الأجيال لهدف بعيد.

المطلب الثاني: محاربة سياسة التجنس والإدماج ودعم الثورة التحريرية:

أدرك المستعمر الفرنسي أن وجوده في الجزائر لن يطول ولن ينجح، إلا إذا أحكم وضع سياسات واستراتيجيات من شأنها تعميق هذا الوجود وتحقيق الأهداف المرجوة، وهو ما دفع به إلى سن مجموعة قوانين لضم الشعب الجزائري ودخوله في فرنسا، بتطبيق ما يسمى سياسة التجنس والإدماج، التي حاولت من خلالها القضاء على الهوية العربية الإسلامية.

ولهذا نجد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سعت لتمكين عملها الدعوي سياسيا، من خلال وقوفها ضد قانون التجنس بالجنسية الفرنسية، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للشخصية الجزائرية، فالتجنس هو "الدخول في جنسية جديدة، هي جنسية العنصر الغالب، والاندماج فيها مع التنازل عن القومية واللغة والتاريخ والتقاليد، وقبول ما يتبع ذلك التجنس والاندماج من أخلاق جديدة، ويعتبر التنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي شرطا أساسيا في إعطاء الجنسية الفرنسية للمتجنس"¹

ومن هذا المنطلق فسياسة فرنسا لتجنس الجزائريين هي محاولة لتعميم الصبغة الفرنسية على كامل أقطار المعمورة، وبالتالي قطع كل الروابط التي تجمع الجزائر بدينها، ولغتها وثقافتها وانتمائها، فتذوب الجزائر وتنصهر كليا في لغة وثقافة وحضارة هذا المستعمر الغاصب، الذي "كان باب التجنس قد فتحه مرسوم 1865 بشروط، من بينها التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، والدخول تحت طائلة القانون الفرنسي في قضايا الزواج والطلاق والإرث، وقد فسر المعاصرون ذلك بأنه تخل كامل عن العقيدة الإسلامية وأنه ارتداد عن الدين"².

وهذا ما دفع بجمعية العلماء المسلمين إلى أن تُصدر فتوى تقضي بكفر من تجنس بالجنسية الفرنسية، "فقد أصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس فتواه المشهورة ضد التجنس سنة 1938، فأثارت رعب الفرنسيين ولم يغفروا له ذلك الموقف الذي كان له أثر كبير لا في الجزائر وحسب ولكن في تونس ومراكش أيضا، سيما أن الفتوى

¹ - رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 438.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1998، ج 1، ص 470-471.

صدرت عشية الحرب العالمية الثانية، حين كانت فرنسا تبذل المساعي للحصول على ولاء الجزائريين (وجميع مسلمي المغرب العربي) لها عالميا¹

وفي الإطار ذاته أصدرت الجمعية كتابات عديدة للتبديد بسياسة التجنيس، منها ما أورده العربي التبسي قائلا:
إن فرنسا تعمل جهدها لإبادتنا وإدماجنا ومحونا من الحياة كشعب ذي خاصيات، وأمة ذات ميزة، وإنه لمن العجب حقا أن تقوم فرنسا بتجنيسنا، محو إنساني كامل، في وقت تمنع فيه القوانين الدولية إبادة أنواع الحيوانات والطيور²

ولعل النقطة التي أفاضت الكأس لولوج الجمعية إلى المجال السياسي هو أن "النقاش الواسع حول مسألة منح الحقوق السياسية للمسلمين كان يستهوي العقول، فشرع الاصلاحيون بأنهم معنيون أكثر من غيرهم، ذلك أن القضية الكبرى لتلك اللحظة كانت تقوم على معرفة ما إذا كانت المواطنة الفرنسية جديدة بأن يضحى المسلمون بقانونهم الشخصي من أجلها، لم يكن بمقدور الاصلاحيين أن يظلوا غير مباليين بمثل هذه المسائل الخطيرة، وكانت هذه نقطة انطلاق التزامهم السياسي التام"³.

وجاء هذا الفعل نتيجة الشعور بعظمة الواجب والمسؤولية التاريخية في التعامل مع الأحداث ومسايرتها، وتحقيقا للتمكين السياسي في عمل جمعية العلماء المسلمين الدعوي، أين تتحقق مصلحة البلاد والعباد بجلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم، حيث انطلقت جرائدهم ومجلاتهم للتوعية والتعريف بهذه السياسات، وفي المقابل التهيب والتحذير منها، والعمل على تعزيز الثقة بمقومات الشخصية العربية الإسلامية، ومن أمثلة ذلك قوله: "إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، وهذه الأمة تاريخها الحافل بجلال الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقيها، بما فيها من حسن وقبح شأن كل أمة في الدنيا"⁴

وجدير بالذكر أن الجمعية أرادت الحصول على الجنسية السياسية الفرنسية مقابل الاحتفاظ بالجنسية القومية بكل ميزات ومقوماتها، والتي تعني في منظور الجمعية ومفهومها: "أن يكون لشعب ما لشعب آخر، من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية، مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات اشتراكا في القيام بها،

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 471.

2 - رابح تركي، التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 15.

3 - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 480.

4 - عبد الحميد بن باديس، "كلمة صريحة"، الشهاب، مج 12، ج 1، أبريل 1936، ص 46-47.

لظروف ومصالح ربطت مابينهما"¹ .

لكن السياسة الفرنسية تدرك أن المطالبة بهذا النوع من الجنسية السياسية مع المحافظة التامة لجميع مميزات ومقومات الشخصية العربية الإسلامية، تشكّل خطرا كبيرا عليها فلا يمكن بحال من الأحوال الموافقة والمصادقة على هذا المطلب الذي شدّ اهتمام الجزائريين كثيرا، زيادة على ذلك فإن فرنسا تسعى جاهدة للقضاء على هذه المقومات وطمسها من الوجود.

وفي هذا الإطار يمكننا القول أنّ توجه الجزائريين نحو التجنس بالجنسية الفرنسية، ليس قناعة أو تأثير وإعجابا، بقدر ما هو هروب من واقع اجتماعي صعب، وأوضاع مزرية فرضتها السياسة الاستعمارية، وفي المقابل فتحت باب الإغراءات المادية والامتيازات السياسية، والوعود الكاذبة في تحصيل الكثير من الحقوق للمتجنسين المتخلين عن أحكام القانون الشخصي.

وقد كانوا في بادئ الأمر لا يمثلون إلا نسبة قليلة من أبناء الجزائر الذين استطاع الاستعمار إغراءهم واستقطابهم باستخدام سياسة التجهيل التي فرضتها، أو تعاليم التبشير والتنصير التي نشرتها، ناهيك عن تربية وتعاليم المدارس اللاتينية الأجنبية التي اتبعتها،" غير أنه غداة الحرب العالمية الأولى، تسارعت حركة التجنيسات بشكل بيّن انطلاقا من 1930... حيث بلغ إيقاع التجنيسات حينذاك مستوى مخيفا، مما توجب على الصحافة الإصلاحية تنبيه الرأي العام الإسلامي، وهاهو توفيق المدني يوجه صرخة استغاثة: "نحن بين الحياة والموت"²، فمسألة المسلمين المتجنسين بالجنسية الفرنسية أخذت توجهها خطيرا وانتشارا واسعا، لأنه أصبح حديث الساعة بين أفراد المجتمع.

وتأسيسا على ما سبق، فإن الجمعية من خلال عملها الدعوي في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والمجلات، - وخاصة من الفتوى الصادرة عن عبد الحميد بن باديس باقتراح من لجنة الفتوى حول حكم التجنس - ، أبدت وأعربت عن رفضها القاطع لكل قرار من شأنه المساس بالشخصية العربية الإسلامية، أو إضعاف كيائها الجزائري، وبالتالي رفض قانون التجنس وكل السبل المؤدية إليه، كالدعاية التي ينشرها المتجنسون لإدخال وجر إخوانهم إلى دائرة التجنس.

¹ - عبد الحميد بن باديس: "الجنسية القومية والجنسية السياسية"، البصائر، العدد 58، 12 مارس 1937، ص 1.

² - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 491-192.

ونحن بصدد تحديد مساعي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتحقيق التمكين السياسي في عملها الدعوي، نجدها فتحت باب التسامح والتعايش السلمي اتجاه هؤلاء المتجنسين، تطبيقاً للآية القرآنية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة/256، كونهم ينتمون إلى الجزائر وتجمعهم صلات وقرابات بالجزائريين، مع إبقاء الحكم الشرعي وفتوى التجنس قائمة، "كما لم يفت الإصلاحيين أثناء حملتهم ضد التجنس التشديد على حالة الدونية التي هم عليها" المواطنون الفرنسيون ذوو الأصل الأهلي"، مقارنة بأحط متجنس فرنسي ذي أصل أوروبي¹

وبما لا يدع مجالاً للشك فإن السبب الأساسي لمواجهة الجمعية سياسة التجنس، هو أنهم تناولوها من زاوية دينية تتمثل في تحقيق مقصد ضروري من مقاصد الشريعة الإسلامية هو "حفظ الدين"، ولأن هذه السياسة تستدعي الرفض والتنازل عن أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، والتخلي عن الكرامة والثقافة العربية، وهو ما يتعارض مع حقيقة الأمة الجزائرية وجوهر هويتها، فهي أمة لا يسهل إضعافها أو طمس معالم هويتها وحضارتها، لأنها شديدة التمسك بدينها ولغتها وثقافتها، ولا يمكن بحال من الأحوال محو آثارها أو تجنيسها بالجنسية الفرنسية "فللأمة الجزائرية جميع المقومات والمميزات للجنسية القومية وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أنها من أكثر الأمم حفاظاً على هذه الجنسية القومية، ومن المستحيل إضعافها أو إدماجها في جنسية أخرى أو محوها".²

ومن زاوية أخرى عارضت الجمعية كذلك سياسة الإدماج بشدة، رغم موافقتها ومطالبتها بها كما أشرنا سابقاً، وهذا الرفض سببه "أن ظاهر الإدماج غير باطنه، فظااهره هو تحقيق التماثل بين الدولة المستعمرة والدولة الأصل، كما لو كانت مجرد امتداد للثانية، فالتشريع واحد، والنظم واحدة، والمالية واحدة، والاقتصاد واحد، حتى الجيش والشرطة كلاهما واحد في البلدان اللذين صارا بلداً واحداً، بفعل الاندماج".³

أما باطن الإدماج فهو سعي المستعمر إلى إدماج أرض الجزائر وممتلكاتها بفرنسا، وإقصاء السكان الأصليين وحرمانهم من كل الحقوق. وهذا ما يتناقض مع المعنى السياسي للإدماج الذي يعني "جعل الجزائريين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً فرنسيين يتمتعون بالحقوق السياسية الفرنسية التي يتمتع بها الفرنسيون داخل بلادهم وخارجها، ويتلقون التعليم الذي يتلقونه، ويرفون إلى الوظائف العامة بالطرق ذاتها التي تخولها القوانين الفرنسية كما

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 494.

² - الشهاب، ج 12، مج 12، فيفري 1937، ص 505.

³ - رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 63.

أن لهم نفس الميزات الاجتماعية¹، لكن المستعمر الغاشم أراد إذابة الجزائريين بدينهم ولغتهم وتاريخهم وثقافتهم وحضارتهم العربية الإسلامية في الكيان الفرنسي، ليتم القضاء تدريجيا على شخصيتهم القومية، ما يسهل بذلك دوام استعمارهم.

ولعله من المفيد التأكيد على عمل جمعية العلماء المسلمين في إبطال فكرة الإدماج من خلال جملة الدروس والمحاضرات والمقالات المنشورة، التي تزيد من وعي الفرد الجزائري بخطورة هذه السياسة وآثارها من جهة، ونشر الثقافة الإسلامية العربية، وبث روح الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي في نفوس الجزائريين من جهة أخرى.

وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "حاربت جمعية العلماء سياسة الاندماج، في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس، ودعائه المقاويل حتى قهرتهم وأخرستهم، وقطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل بابا من العذاب".²

فالإدماج امتداد لسياسة التجنيس، ونتيجة حتمية من نتائجه، لأن أغلبية المتجنسين أرادوا أن ينضموا ويدخلوا تحت جناح فرنسا كليا، وهو ملمح من ملامح مخططاتها في التدرج نحو القضاء على الإسلام والعروبة للأمة الجزائرية العربية المسلمة.

ولا يفوتنا أن ننوه بجهود الجمعية على المستوى الخارجي للوطن أيضا، أين تنبه رجال الجمعية وعلماءها من خطر التحلل المحدق بالجزائريين المقيمين بفرنسا، أين يساعد في ذلك جملة العوامل والظروف الاجتماعية المحيطة بهم، فيندمجون في دين غير دينهم، ويتجنسون بجنسية غيرهم، مما يعني ضياع أعداد هائلة من أبناء الأمة الجزائرية العربية المسلمة، فانتخبت جمعية العلماء المسلمين لهذه المهمة أحد رجالها العلماء وهو الفضيل الورتلاني الذي قام "بمحاربة الإدماج والتجنيس في الخارج وجمع المسلمين هناك على هداية الدين، وشهامة العرب وأثوبهم معنى الإصلاح الذي شع نوره في الجزائر، وفتح في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات النوادي المنظمة للاجتماع والتخاطب بالعربية، وإلقاء المحاضرات للكبار والدروس التعليمية للصغار، وأمدته جمعية العلماء المسلمين بطائفة من المعلمين والمحاضرين"³

كما صدرت الكثير من المقالات الصحفية لصد ومقاومة سياسة الاستعمار الادمجية، بكل جرأة في إثبات قومية الجزائر العربية، بمحاربة العنصرية التي أخذ الاستعمار يغذيها لبعث الفرقة بين أفرادها، وقد جاء بهذا

¹ رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص 112-113.

² - البصائر، العدد 4، 29 أوت 1947، ص 1.

³ - المرجع نفسه، ص

الصدد:" إنّ هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا، ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها، وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معيّن هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة"¹

وخلاصة القول فإن الاحتلال الفرنسي منذ دخوله للجزائر، عمل على تملك الأرض وإخضاع العباد، بانتهاج سياسة التجنيس والإدماج، فكان لزاما على الجمعية إيجاد منهج لتمكين عملها الدعوي سياسيا من خلال الرفض القاطع لسياسة التجنيس وصد المتجنسين، وقطع الطريق على دعاة الاندماج، لإنشاء جيل واعى رافض لسياسة التجنيس ولا يقبل الدمج مع أي أمة أخرى، فكان سلاح الجمعية التوعية والتحذير من أفكار استعمارية، تسعى لطمس ومسح هوية الشعب الجزائري، وتجريده من دينه ولغته وحضارته، وتحويله إلى شعب فرنسي شكلا ومضمونا وبالتالي الاستلاء على الجزائر أرضا وشعبا.

أضف إلى ما تقدم، فإن دعم الثورة التحريرية التي اندلعت في الفاتح من نوفمبر، وإعلان ميلاد جبهة التحرير الوطني ممثلا رسميا لكفاح الشعب الجزائري، يُعد صورة من صور بلوغ النضال السياسي إلى مرحلة متقدمة من النضج، لخروجه من دائرة التخطيط إلى التجسيد على أرض الواقع، الأمر الذي جعل من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعيش أزمة داخلية بين أعضائها-بسبب غياب رئيسها البشير الإبراهيمي الذي سافر إلى المشرق، ونائبه العربي التبسي الذي قصد بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج-، حيث انقسموا إلى شقين؛ الأول بقيادة جيل الشباب المتعطش والمتلهّف للعمل الثوري، والشق الثاني بقيادة جيل الشيوخ المتحفظ والمتخوّف من العمل الثوري.

ومن هذا المنطلق فجمعية العلماء المسلمين لم تكن على علم ودراية بتوقيت اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954م، كغيرها من التيارات السياسية في الجزائر، ما أدى إلى اختلاف مواقف الأحزاب والجمعيات الجزائرية القائمة آنذاك بين مؤيد مساند، ومعارض مخالف، ومتحفظ محايد، وهذا ما ذكره الورتلاني عندما وصف لنا حوادث الليلة اليلاء كما سماها بقوله:" فلقد كانت الطلقات الأولى التي بشرت باندلاع الثورة مفاجأة كبرى بالنسبة لمسيرى كافة التشكيلات السياسية المعروفة في البلاد.

لاسيما وأنّ معدي الثورة حرصوا على التحلي بالسرية التامة طوال فترة التحضير لها، وجمعية العلماء كانت في طليعة التشكيلات السياسية والهيئات الثقافية والاجتماعية التي وجدت نفسها صبيحة الاثنين من الفاتح

¹ - الشهاب، ج 1، مج 12، 1936، ص 45-46.

نوفمبر 1954 معبرة عن دهشة الجمعية وعن الحالة النفسية التي كان عليها أعضاؤها.¹

وبناءً على ما سبق، فالجمعية كانت متفاجئة باندلاع الثورة، بسبب السرية التامة التي حرص عليها قادة الثورة، باعتبار أن الدعوة للمقاومة وحمل السلاح في وجه المستعمر، يُعد ضرباً من الخيال وبمثابة عملية انتحارية أمام القوات الفرنسية المدججة بأنواع السلاح الفتّاكة، هذا ما جعل الكثير من الأحزاب السياسية والجمعيات التي تعمل على تحسين الوضع الاجتماعي والثقافي والسياسي للجزائريين كجمعية العلماء المسلمين تصاب بالتردد والشك، وتقع في حيرة ودهشة، وهو ما أدى بالحكم عليها حول موقفها ودورها من ثورة نوفمبر 1954، كونها كانت مهادنة للمستعمر تسير في ركاب شرعيته، متخاذلة معارضة للثورة والثوار الذين ورطوا الشعب في مغامرة فاشلة لا يُحمد عقبائها، رغم التسليم بدورها الفعّال في ميدان التربية والتعليم وإنشاء المدارس والحفاظ على المقومات الأساسية للأمة الجزائرية.

وتجدر الإشارة أننا لا نقف على هذا الرأي، فنبحث في مؤيديه وجملة حججهم التي يقدّمونها، بل إنّنا نقف في الطرف المقابل، حيث نركّز البحث حول مظاهر تأييد الثورة التحريرية في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين، تحقيقاً للتمكين السياسي بذلك، فنقول أن موقف الجمعية من اندلاع الثورة لم يتحدد بصفة رسمية، رغم كونها من السباقين للدفاع عن مقومات الشعب الجزائري، ومن المهتمين باستقلال الوطن وحرية أفرادها، وخير دليل على ذلك شعارها، الذي اتخذته منهجاً في عملها الدعوي: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، فخدمة الوطن ركن أساس وألوية من أولويات الإصلاح في عملها الدعوي، وقضية تحرير هذا الوطن واستقلاله مرهونة بعاملين أساسيين هما: العروبة والإسلام، فهي من أعدت الرجال وكوّنتهم، وزرعت فيهم قيم ومبادئ الوطنية الصادقة .

ولعلّ خير دليل لعمل الجمعية الدعوي نحو تحقيق التمكين السياسي سلسلة البيانات التي أذيعت باسم مكتب جمعية العلماء المسلمين بالقاهرة حيث أصدر الإبراهيمي بيانا بمعية الورتلاني في اليوم الموالي لاندلاع الثورة في 02 نوفمبر 1954، وهو ما يثبت ولاءها وتبنيها للثورة منذ الأيام الأولى من انطلاقها، حيث " أذيع من القاهرة أوائل الأسبوع الثالث من هذا الشهر، ولما أمضى ميثاق الثورة في فيراير 1955 بعد شهرين من نشوبها كان اسم رئيسها فيمن أمضاه في القاهرة، ومن ذلك اليوم كانت الجمعية في قيادة الثورة من المشاركين، أما في الوطن فلا يمكن أن يكون الإعلان، وإنما يكون العمل وهو وحده الذي يفيد"²

¹ - محمد الفضيل الورتلاني، حوادث الليلة الليلاء، البصائر، العدد 76، ص 173.

² - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945، مرجع سابق،

وفي السياق ذاته صدر البيان الثاني في 03 نوفمبر 1954م وهو مقال للفضيل الورتلاني تبنته جمعية العلماء المسلمين من خلال مكتبها بالقاهرة، بعنوان: إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت، بقاء أو فناء، ومما جاء فيه: "حيّاكم الله أيّها الثائرون الأبطال، وبارك في جهادكم وأمدّكم بنصره وتوفيقه، وكتب ميّتكم في الشهداء الأبرار، وحيّكم في عباده الأحرار....أيها الأحرار الجزائريون، أيها المكافحون في جميع أقطار المغرب العربي اعملوا أنّ الجهاد للخلاص من هذا الاستعباد، قد أصبح اليوم واجبا عاما مقدّسا فرضه عليكم دينكم، وفرضته قوميتكم، وفرضته رجولتكم، وفرضه ظلم الاستعمار الغاشم الذي شملكم، ثمّ فرضته أخيرا مصلحة بقائكم، لأنكم اليوم أمام أمرين: إمّا حياة أو موت، إمّا بقاء كريم أو فناء شريف".¹

كما أصدر مكتب الجمعية بالقاهرة "بيانا آخر في 11 نوفمبر 1954م بعنوان: "أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر" يبرز أهمية الثورة التي شملت الجزائر كلّها شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، نقلا عن العدد 292 من جريدة البصائر الموافق لـ 05 نوفمبر 1954".²

ثم أضاف بيانا آخر في 15 نوفمبر 1954م تحت عنوان: "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد: نعيذكم بالله أن تتراجعوا" حدّر فيه الشعب الجزائري عن التراجع عن الثورة أو الاستسلام لفرنسا" لأن فرنسا لن تبقي لهم شيئا يخافون عليه، لا أمل ولا عرض ولا حرمة ولا ثروة ولا دين، فجزء يسير من مصائب المستعمر الفرنسي كان يفرض على الجزائريين الثورة منذ مدة طويلة، وهذه الفرصة الأخيرة والتراجع عنها يعني العبودية الأزلية للشعب الجزائري"³

وتمشيا مع ماتم ذكره، نستنتج أن جمعية العلماء المسلمين كانت من المؤيدين لثورة الفاتح نوفمبر، رغم بعض الكتابات الغير متخصصة، والتي تدّعي أن الجمعية تأخرت في هذا الانضمام والتأييد إلى سنة 1956 دون حجج وبراهين ثابتة، بل إن مستندها في ذلك أن الجمعية ليست حزبا سياسيا، وأنها كانت تمقت فكرة الحزبية. ولكن في حقيقة الأمر "إن جمعية العلماء وإن لم نطلق عليها صفة الحزب فإن أعمالها كانت سياسية وعدم إطلاق لفظ أنها حزب هو خوف أعضائها من فرنسا بعدم إعطائهم الترخيص والاعتراف، وبالتالي يذهب جهدهم هباء ويبقى العلماء مشتتين ويصعب جمعهم واتحادهم".⁴

¹ - الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط، 2009 ص 170-171.

² - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج5، ص 41

³ - المرجع نفسه، ص33.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ج3، ص145.

وبالتالي فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال عملها الدعوي في الخارج، قد كان لها مواقف مشرفة، وآثار طيبة في دعم الثورة التحريرية وتأييدها، حيث سعى رجالها لجعل قضية الثورة الجزائرية قضية رأي عام دولي، تتناولها وسائل الإعلام العربية والإسلامية المختلفة، وكان على رأسهم البشير الإبراهيمي الذي بذل كل الأسباب، التي من شأنها جلب الدعم المادي والمعنوي لإنجاح الثورة التحريرية وكسب المناصرين لها، فلا تكاد تخلو كتاباته عن الحديث في الثورة والدعوة لإنجاحها.

أما على المستوى الداخلي للوطن، فقد تجلّى موقف الجمعية المساند للثورة، من خلال بيان المؤتمر السنوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اجتماعها العام يوم السابع 07 جانفي 1956 بعنوان "الاستعمار مسؤول عن كل شيء"، وهم بيان يُبرز تبني المؤتمر السنوي للجمعية في الداخل للثورة، ويحمل الاستعمار مسؤولية ما يحدث في الجزائر، وقد وقّع البيان كل من توفيق المدني والعربي التبسي.¹

كما لا يفوتنا أن ننوّه بالعمل الدعوي المساند للثورة من قِبل قادة الجمعية، وعلمائها على المستوى الداخلي أيضا، أين نجد الكثير منهم كأمثال الفضيل الورتلاني، العربي التبسي، محمد الميلي، أحمد توفيق المدني.... لم يتأخروا في مساندة الثورة منذ الوهلة الأولى، على الرغم من تأخر موقفها الرسمي لسنة 7 جانفي 1956 والذي كان بسبب التثبت من القائمين على الثورة، حتى لا يندفع أبناء الوطن على مصير مجهول، ونتائج لا يُحمد عقباه، وهذا ما أوجد في صفوف رجال الجمعية تباين مواقفهم بين مؤيد ومعارض، لكن سرعان ما التفوا حول الثورة وباركوها وشاركوا في أعمالها، وهذا يدل على مظهر آخر من مظاهر التمكين السياسي للعمل الدعوي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما أنّ إعلان جمعية العلماء المسلمين انضمامها للثورة رسميا، يعتبر إضافة مهمة وحدثا كبيرا لاستمرار الثورة وفعاليتها.

ونفتح القوس هنا من باب التمثيل لا الحصر -لأن المجال لا يتسع ويطول بذكر كافة المشاركات والأعمال، التي قام بها أبناء الجمعية ورجالها لمساندة وإنجاح الثورة التحريرية- لنماذج من أعمال الدعوة التي مارسها رجال الجمعية، لتحقيق التمكين السياسي من خلال مساندتهم للثورة حيث كان لهم باع طويل في العمل الثوري على المستويين الداخلي والخارجي.

فنطلق من رئيسها محمد البشير الإبراهيمي الذي كان في الخارج، ويعتبر لسانها الفصيح للتعبير عن توجهاتها رغم بُعد الجغرافي، خاصة من مجموع البيانات التي أصدرها منذ اندلاع الثورة كما أشرنا لها سابقا،

¹ - اليوم الخالد في تاريخ النهضة الجزائرية، البصائر، العدد 56، 1956، ص124.

"فكان قلما ثوريا لامعا إلى أن اعتبر من أوائل الزعماء الذين احتضنوا الثورة حينما اندلعت وحثوا الشعب على الالتفاف حولها"¹، كما كانت أحاديثه "عبر أمواج إذاعة صوت العرب تصل إلى المسامع بلهجة مؤثرة وبصورة منتظمة، أما مقالاته فكانت تتوارد على كبريات المجالات الفكرية آنذاك كمجلة "الرسالة" للأستاذ الزيت، ومجلة "المسلمون"، وقد أحرزت تلك الأحاديث والمقالات نجاحا كبيرا، تمثلت في كون القضية الجزائرية قد أصبحت من اهتمامات وسائل الإعلام العربية والإسلامية المختلفة"²

وثنى التمثيل برجل الجمعية الثاني، العربي التبسي الذي تولى رئاسة الجمعية بسبب غياب البشير الإبراهيمي حيث كانت "كل مواقف الجمعية وبياناتها الرسمية المنشورة في جريدة الجمعية "البصائر" اللسان المركزي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حول الثورة ومقالات جريدة البصائر التي تنشرها تأييدا ومساندة للثورة التحريرية المباركة، ودعوة الشعب الجزائري إلى الالتحاق بالثورة، كانت جميعها تصدر تحت مسؤوليته المباشرة بالإضافة إلى رئيس تحرير الجريدة، الأستاذ أحمد توفيق المدني الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين"³

ونتم بنموذج أحمد توفيق المدني الذي شغل عدة مهام منذ اندلاع الثورة لأوان مغادرته الجزائر، حيث كان أداة وصل بين مركز القيادة بالعاصمة، وبقية جهات المعركة والقيادات الفرعية، فكان يستعمل في مهمته العديد من المجاهدين، أمثال حمزة بوكوشة، أحمد سحنون، الجيلالي الفارسي، مصباح الحويذيق، وغيرهم من رجالات الجمعية، بالإضافة إلى ساطور الخياط، الذي كان يزودهم بالوسائل السرية داخل بدلات وألبسة مختلفة.

وزيادة على ذلك برز المدني كقلم جراح على صفحات البصائر، حيث يقوم بنشر الوعي الوطني عند قيام الثورة ومع تزايد نشاط الثورة داخليا وخارجيا، "تلقى أحمد توفيق المدني دعوة من جبهة التحرير الوطني للالتحاق بوفدها الخارجي بالقاهرة، للنضال بالقلم واللسان وبذل المساعي المختلفة لنشر الدعوى وجمع المال والسلاح، واتصل به المجاهد عبان رمضان" حينها موضحا له بأن الجبهة تشعر بنقص كبير بين صفوف وفدها الخارجي، وطلب منه الالتحاق"⁴.

وكان لإتقان أحمد توفيق المدني اللغة العربية والفرنسية مع قدرته على التأليف والكتابة التاريخية، الممزوجة بالحس الوطني وإثبات الهوية العربية الإسلامية للجزائر، دور كبير في دعم الثورة الجزائرية، إذ ألف كتاب "هذه هي

1 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج5، ص17.

2 - رابح تركي، الشيخ البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 87، ص228.

3 - رابح تركي، جمعية العلماء المسلمين التاريخية ورؤساؤها الثلاثة، مرجع سابق، ص245.

4 - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات مع ركب الثورة التحريرية)، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2010، ج3، ص147.

الجزائر" بالقاهرة عام 1957م، وجعله تعريفا بتاريخ الجزائر وثورتها، وهو من كتب السياسة الإعلامية¹. وبناء على ما سبق ذكره، فإن مسيرة رجال وأبناء جمعية العلماء المسلمين كانت مسيرة حافلة بالإنجازات، متميزة بالنضال المبكر لصالح وطنهم، وهويتهم الإسلامية العربية، وقضايا المسلمين الجزائريين كافة، حيث جمعوا بين العمل الصحفي الإعلامي، والعمل السياسي، وأيضا العمل الدبلوماسي خلال الثورة التحريرية، من أجل تمكين العمل الدعوي الذي سطرت الجمعية أهدافه، وهذا ما أكسب الثورة الجزائرية مزيدا من الدعم والنجاح في مسيرتها.

فلا بدّ من التأكيد على أن مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت فعّالة لتحقيق التمكين السياسي من خلال عملها الدعوي، أين التحمت ماديا مع جبهة التحرير الوطني في التزامها بالتعليم والتنقيف، وبتث الوعي في عقول الأفراد لنسف البدع والخرافات التي تخيم على العقيدة الصحيحة للجزائريين، وفي المقابل كانت جبهة التحرير الوطني تُعدّ الشباب وتكوّنهم لميدان الجهاد في سبيل الله، من أجل تحرير الوطن.

ومن هؤلاء الرجال الذي سطوروا أسماءهم بماء من ذهب "السيد إبراهيم مزهودي الذي حضر مؤتمر وادي الصومام برتبة رائد، وكواحد من أقرب مساعدي الشهيد يوسف زيعود، والسيد محمد مبارك الملي الذي جند قلمه لخدمة المقاومة الجزائرية ومن بعدها "المجاهد" اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، والشيخ أحمد حماني، والشيخ الطاهر حراث، والشيخ بركاني عبد الرحمان، وغيرهم ممن سارعوا لتلبية نداء الفاتح من نوفمبر 1954².

ونحن بصدد الحديث عنهم، تتجسد لنا معاني التمكين السياسي التي مارسوها من خلال عملهم الدعوي؛ حيث كانت أهدافهم تسعى إلى غرس معاني وقيم الروح الوطنية في الشخصية الجزائرية، بتصحيح عقيدته، وتعليمه اللغة العربية، وتعريفه بالتراث العربي الإسلامي الأصيل، ما يعني أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شكلت أرضية صلبة ومتينة للثورة، حيث تشكلت عليها ملامح النضال السياسي والعسكري الذي مارسه جيل الثورة، فقد قدمت لها مختلف فئاتها منهم العالم والعامل، والأستاذ والطالب الذين التحقوا بصفوف الجبهة للنضال، فداء لتحرير الوطن وتمكين استقلاله.

وخلاصة القول أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان لها موقف واضح وصريح في رفض المحتل، وإنكار كل أفعاله الهمجية وسياساته الاستغلالية، وأنها كانت ترمي لهدف استقلال وحرية الوطن، وما السبيل في ذلك إلا بالثورة على المستعمر، والجهاد هو سبيل إخراجه ما توفرت شروط ذلك، فكانت كثيرة النداء في عملها

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011، ص 421-422.

² - محمد خير الدين، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، مرجع سابق، ج 2، ص 185.

الدعوي بضرورة تكوين جيل المستقبل المنشود، الذي يتولى زمام الأمر في تكوين جيل مثقف واع يقود البلاد نحو الحرية والاستقلال بكل قوة وفعالية.

كيف لا؟ وإن أفكار عبد الحميد بن باديس بقيت ممتدة محفورة في القلوب والأذهان، تدعو لتحقيق هذا الهدف البعيد، حيث كان يؤمن إيماناً جازماً أن الاستقلال حق وجب التمتع به، وفي ذلك يقول: "إن الاستقلال حق طبيعي، لكل أمة من أمم الدنيا، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والحضارة... وستصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر".¹

وتأسيساً على ما سبق يمكن القول، أنّ المجال السياسي، في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين، لا يعني العمل الحزبي، بل هو البعد الوطني التحرري في دعوة الجمعية، والذي يهدف إلى توعية الشعب بحقوقه، والدفاع عن شخصية الأمة، ورفض الاندماج في النظام الاستعماري، ومن أبرز وظائف هذا المجال هو التوعية السياسية بحقوق الجزائريين وواجباتهم، بالإضافة إلى كشف مخططات الاستعمار ومواجهته فكرياً وثقافياً، دفاعاً عن هوية الأمة الجزائرية وكيانها السياسي.

ولعل أبرز آليات التمكين السياسي في تجربة الجمعية، مجموع المقالات الوطنية المنتشرة في صحف الجمعية، والتي تفضح سياسة التجهيل والطمس، وكذلك الخطابات الوعظية ذات البعد الوطني، الذي يتقدم لإلقائها بكثرة ابن باديس والإبراهيمي، مع تحالف الجمعية الفكري مع الحركة الوطنية، دون الانخراط الحزبي، وهذا مما أسهم في إحياء الروح الوطنية، عبر تمجيد تاريخ الأمة ورموزها الإسلامية.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية المجال السياسي في تمكين العمل الدعوي للجمعية، من خلال تعزيز الوعي الوطني الجمعي لدى الشعب الجزائري، وإحياء الروح التحررية في المجتمع، الأمر الذي ساهم في تشكيل قاعدة فكرية وسياسية، ساهمت في قيام الثورة التحريرية فيما بعد، لأن ربطت دعوتها بالإصلاح الشامل، وجعلتها قوة تغيير حقيقية.

ولعله من المناسب أن نقف في نهاية هذا الفصل، المعنوّ بـ: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومجالات التمكين في عملها الدعوي، على خلاصة جامعة لما ورد في مباحثه الأربعة؛ التي جسّدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كنموذج فريد في تاريخ العمل الدعوي والإصلاحي، حيث استطاعت أن تضع أسس التمكين في شتى المجالات وسط ظروف استعمارية صعبة.

¹ - الشهاب، ج3، جوان1936،

تناول المبحث الأول التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي تأسست عام 1931م في لحظة تاريخية حاسمة، كونها جمعية دينية إصلاحية هدفها غرس القيم والأخلاق الفاضلة، لإصلاح الفرد أولاً ثم صلاح المجتمع ثانياً، وقد اجتمعت عوامل في نشأتها؛ منها الداخلية وتمثلت في الثورة العلمية التي أحدثها ابن باديس بدروسه الحية، وعودة أبناء الجزائر من المشرق العربي، بالإضافة إلى الصحافة العربية الإصلاحية في الجزائر، وتمثلت العوامل الخارجية في التأثير بالشخصيات وكذا منشورات العلماء المصلحين في العالم العربي الإسلامي، وما خلفته آثار الحرب العالمية الأولى.

أضف إلى ذلك انتشار الطرق الصوفية المنحرفة، والدعوات الاندماجية ضمن السياسة الاستعمارية الفرنسية التي سعت إلى طمس الشخصية الجزائرية، وممارسة الضغط على الدين الإسلامي بشكل واضح، وقد تبنت الجمعية أهدافاً إصلاحية شاملة، ارتكزت على إحياء الإسلام الصحيح، والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، ومقاومة سياسة التفرقة والجهل.

وفي المبحث الثاني، دار الحديث حول أولى مجالات التمكين في العمل الدعوي للجمعية، وهو مجال التمكين الديني والعقدي، حيث نهضت الجمعية بدور محوري في تصحيح العقيدة ومحاربة الانحرافات العقدية، وسعت إلى إحياء الإسلام الصحيح المجرد من الشوائب والبدع، مع التأكيد على أن الإسلام دين ودولة، مما مثل رفضاً صريحاً لمحاولات فصل الدين عن الحياة العامة، كما وجهت الجمعية جهودها لمحاربة الطريقة المنحرفة التي شوّهت الإسلام الحنيف، ووقفت سداً منيعاً في وجه حركات التبشير المسيحي التي استغلت حالة الفقر والجهل لنشر عقيدتها

أما على الصعيد الاجتماعي والثقافي، فقد أولت الجمعية عناية فائقة لمحاربة سياسة التجهيل والأمية، فأنشأت المدارس الحرة في مختلف أنحاء الجزائر، ونظمت حلقات تعليم الكبار، وساهمت في تعليم المرأة وتحريرها من الجهل. كما وجهت جهودها الإصلاحية لمحاربة الآفات الاجتماعية المنتشرة، مثل الفقر والبطالة والرشوة، وسعت إلى إصلاح الشباب من خلال ربطهم بهويتهم الإسلامية وتربيتهم على القيم والأخلاق، وهذا ما كان مضمون المبحث الثالث.

وفي مجال التمكين السياسي، وهو ما ورد في المبحث الرابع، برز دور الجمعية في المشاركة الفاعلة في المؤتمر الإسلامي في 07 جوان 1936م، الذي مثل منصة للمطالبة بحقوق الجزائريين السياسية والثقافية، كما شنت الجمعية حملة واسعة ضد سياسة التجنس والاندماج، التي هدفت إلى تزويد الهوية الإسلامية للجزائريين، وربطتهم بالدولة الفرنسية، وعندما اندلعت الثورة التحريرية، وقفت الجمعية إلى جانبها، من خلال دعمها بالفتاوى والمشروعية، وشحذ همم الشباب للانضمام إلى صفوفها.

وبالتالي فقد شكلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مدرسة إصلاحية شاملة، تجسّد فيها فقه السنن الإلهية في مجالات التمكين المختلفة، حيث جمعت بين الإصلاح العقدي والنهوض الاجتماعي والمقاومة السياسية، مما جعلها رافداً أساسياً من روافد النهضة الجزائرية المعاصرة، وترك إرثاً إصلاحياً يستحق الدراسة والاستفادة.

الفصل الخامس:

دراسة تطبيقية لتجليات سنن التمكين
في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تعتبر الأمة الإسلامية من أعظم وخير الأمم التي عاشت الريادة والقيادة الحضارية، على سائر الأمم بفضل رسالتها السماوية المتميزة، وأهدافها المنظّمة لحياة الأفراد والمجتمعات، فهي رسالة صالحة لكل مكان وزمان، قادرة على حل مشكلات الحياة، وتحقيق الأمن والرخاء، ومواكبة كل التطورات، ما جعل من جمعية العلماء المسلمين تقتدي بأمتها الإسلامية، فتتخذها مرجعا ومنهلا، لإيجاد الحلول المناسبة في معالجة واقع أمتها المرير، للخروج من أزمة فرضها المستعمر الفرنسي.

وكما أكدنا آنفا فإن سنن التمكين التي شرعها الله في الأنفس والأفراد والمجتمعات، سنن إلهية جارية مستمرة، لا تبدل ولا تتخلف قال تعالى: " وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " الأحزاب/62، وإن فقهاء من العلوم المطلوبة للمسلمين في مسار صناعة التاريخ، وتغيير الأفراد والمجتمعات بكل فعالية، لتحقيق الاستخلاف الحضاري والبناء العمراني، وهو ما دفع بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ باعتبارها حركة من حركات الإصلاح والتغيير، إلى تبني هذا المنهج السنني الثابت، للخروج بالمجتمع الجزائري من حيّز الضعف، إلى حيّز القوة، برفع مشعل الدعوة والإصلاح، وبناء المجتمع الجزائري.

وفي هذا الإطار انطلقت جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العمل الدعوي علي يد نخبة من علماء الجمعية ورجالها، وفق منهج سنني منظّم في عملية الإصلاح والتغيير، مدركة بذلك أن الحل للخروج من أزمة الواقع الذي يعيشه المجتمع الجزائري، لن يكون بالدعاء والأمانى والأحلام، وأنّ هذا الحال منوط بسنن ربانية لا تبدل ولا تتحول، فمن رعاها وأدرك قيمتها ظفر بالسعادة والعزة والمنعة، في الدنيا وفاز بالرضا والدرجات العليا في الآخرة، ومن غفل عن قيمتها ولم يحسن تسخيرها والتعامل معها، لحقه ما لحق الأمم السابقة من معاناة وهلاك، وضعف وهوان واستحقاق للعذاب والعقاب، قال تعالى: " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " آل عمران/ 137.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فإن العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها على يد عبد الحميد بن باديس، كان ولا يزال يستمد رؤيته ومنهجيته من فهم عميق لسنن الله تعالى في الكون والحياة والمجتمعات، وقد تجلّى الارتباط والتداخل بين هذه السنن في مسيرة الجمعية بشكل واضح، مما شكّل نسيجاً متيناً أطر حركتها الإصلاحية.

وهو ما يقودنا للقول بأن الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين شكّلت مسرحاً كبيراً، تجسّدت على خشبته مجموعة من سنن التمكين، المتجسدة في برنامج عملها الدعوي، وهو ما دفعنا للوقوف على نماذج من هذه السنن التي ظهرت ملامحها جلية وبصورة لافتة في ثنايا حركتها الدعوية، ومن أمثلة تلك السنن؛ سنة الابتلاء، سنة الأخذ

بالأسباب، سنة التغيير، سنة التدرج، سنة التدافع، وسنة التداول، وستتناول هذه السنن بالدراسة والبحث لتكون نموذجا لدراسة واستقراء غيرها من السنن الإلهية الحاضرة في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

كما تجدر الإشارة والتنبيه، إلى أن هذه السنن قد تم تناولها في الفصل الثاني تحت عنوان سنن التمكين الكبرى وأثرها في العمل الدعوي وهي: سنة الابتلاء، سنة الأخذ بالأسباب، سنة التغيير، سنة التدافع، وهي سنن تدور في حقل التمكين، وترتبط به ارتباطا وظيفيا، في علاقة تكاملية تلازمية، بحيث لا يتحقق تمكين دون تفعيل وإعمال الجملة هذه السنن التي تعتبر سُنَنًا وَلِبَنَاتٍ أساسية لبلوغ مدارج التمكين ومسالكه.

ومما لا شك فيه فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد انطلقت في عملها الدعوي الإصلاحية من إدراك وفهم عميق لسنن الله تعالى الكونية والاجتماعية، حيث استثمرتها وعملت بها لتغيير وتمكين الأمة الجزائرية، فمثلت سنة الابتلاء صافرة البداية ضمن سلسلة سنن التمكين، وهي تعتبر المحك الحقيقي لتمحيص المؤمنين وصقل شخصياتهم، وإعدادهم لحمل أعباء التمكين، وأظهرت سنة الأخذ بالأسباب محوريتها في سنن التمكين، ذلك أن الإعداد المادي والمعنوي مركز الثقل في مشروع التمكين، لأن الإسلام دين يدعو إلى العمل والاجتهاد واستغلال كافة الطاقات والامكانيات في سبيل نشر دعوة الإسلام، وكان لسنة التغيير مع التدرج حضور لافت ضمن سلسلة هذه السنن، حيث مستت الجانب العقدي والفكري وأيضا الجانب السلوكي.

أما بالنسبة لسنة التدافع المستمر بين الحق الجزائري والباطل الفرنسي، فقد كانت لها آثار بارزة على واقع المجتمع الجزائري؛ عند مواجهة التحديات والثقة بوعده الله في نصرة من ينصره، لتظهر سنة التداول كثمرة للسنن الإلهية السابقة، مدركة أن المد والجزر من طبيعة الحياة، فصبرت في مراحل الضعف، واستثمرت مراحل الانفتاح لبلوغ القيادة والريادة الحضارية.

ولا مناص من القول أنّ هذا الفقه لسنن التمكين، هو سبب وسر توازن العمل الدعوي واستمراريته، وفيما يلي تفصيل وبيان لتجليات سنن التمكين في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

المبحث الأول: تجليات سنة الابتلاء في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

إن ابتلاء الأمم بالبأساء والضراء، واختبار الأفراد والجماعات في الحياة الدنيا سنة من السنن الإلهية العظيمة، والتي تدل على حكمة الله ومشيئته وإرادته في خلقه، ويُشكل مفهوم سنة الابتلاء بُعداً أساساً ومحورياً في مسيرة أي عمل دعوي وإصلاح، لاسيما في سياق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت سنوات عملها الدعوي ليست مجرد فترات من المشاكل والصعوبات، بل كانت نشأتها وتطورها في خضم تحديات كبيرة؛ أبرزها الاحتلال الفرنسي للجزائر.

لقد تجلت سنة الابتلاء في مسيرة الجمعية كقوة دافعة وشكلت معالم منهجها، منذ تأسيسها في 5 ماي 1931، الذي كان استجابة للظروف القاسية التي فرضها المستعمر، مروراً بمراحل صراعها للحفاظ على الهوية الدينية واللغوية والثقافية للشعب الجزائري، لأن هذا الابتلاء "هو لب حياة الإنسان، وهو الذي يجعل لحياته معنى، ولوجوده غاية، والابتلاء يقتضي أن تكون هناك مادة يُختبر فيها الإنسان، ليظهر مدى التزامه في مجالات حياته المختلفة؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية..."¹، فكانت جملة هذه الابتلاءات محطات أساسية لتمحيص الإيمان، وتقويته وصقل العزم عند رجال الجمعية، وتأكيد صدق دعوتهم، وصقل قدراتهم القيادية والإصلاحية للقائمين على الدعوة، التي عاشت واقعا مريرا من الابتلاءات والحن.

وفي هذا الإطار فقد كانت مسيرة جمعية العلماء المسلمين حافلة بالابتلاءات، التي اختبرت صدق إيمان أعضائها وصلابتهم، وهو ما تجلّى في مواقفهم ومقاومتهم لخطط الاستعمار الفرنسي، وسياساته التغريبية الشرسة، وقد ظهرت هذه السنة في عمل الجمعية من خلال عدة جوانب، شكلت كل واحدة منها اختباراً لقدرة الجمعية على الصمود والثبات لتحقيق أهدافها، وكانت هذه الجوانب متداخلة، حيث أسهمت كل منها في صقل تجربة الجمعية وتقوية عزيمتها، أمام أعنى أنواع الحن ما جعل مسيرتها بروقتها تجسيدا حيا لسنة الابتلاء، وفيما يلي أبرز تجليات ذلك:

¹ - محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص 57.

المطلب الأول: الابتلاء بالسلطة الاستعمارية:

واجهت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها سنة 1931م، حربا شاملة من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي، التي رأت في عملها الدعوي الإصلاحي خطرا على وجودها، فكانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تضغط على الجمعية، بفرض قوانين وقيود صارمة، على مختلف أنشطتها الدعوية الإصلاحية ووسائلها التعليمية، في حين نجد الجمعية حاولت اتخاذ كافة التدابير الوقائية اللازمة لصمد هذا الابتلاء، "وهو التحدي الكبير الذي يواجه كل الدعوات والحركات، فيهددها بالإضعاف والانحراف، إن لم تأخذ التدابير الوقائية اللازمة للحيلولة دون ذلك، والتاريخ البشري مليء بالتجارب التي تمكنت من تحقيق انطلاقات كبرى ومكاسب مهمة، سرعان ما تلاشت وأخذت مسارب أخرى سارت بها، بعيدا عن منطلقاتها وأهدافها"¹.

ومن المناسب أن نستهل الحديث عن هذا الاستعمار الفرنسي، الذي شكّل أول وأعظم وأكبر ابتلاء للشعب الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين، هذا الاستعمار الذي جمع كل صفات الاستبداد والظلم والجشع والاستغلال والسيطرة للمجتمع، ما أفقده بذلك أبسط معالم الإنسانية، فكان بلاءً عظيمًا على العالم كله، وقد عبّرت الجمعية عن مناهضتها ورفضها وكرهها الشديد لهذه السلطة الاستعمارية، في الكثير من المواقف منها ما جاء في قول ابن باديس: "إننا نفرّق بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية، في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيدها، لأننا نتيقن كل اليقين إن كل بلاء العالم هو من هذه، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك ! فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر، ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر"².

وبالتالي فالاستعمار الفرنسي هو الابتلاء الأكبر، وهو التحدي الأبرز والأشد، الذي واجهته الجمعية منذ تأسيسها، فقد سعت السلطات الاستعمارية جاهدة لطمس الهوية الجزائرية، ومواجهة الجمعية بكل الوسائل والأساليب.

ويمكن القول أنّ إغلاق مدارس الجمعية، كان واحدا من أبرز صور ومظاهر الابتلاءات التي اختبرت بها الجمعية، وهو ابتلاء يكشف في حقيقته عن صراع بين مشروعين؛ الأول مشروع تحريري إصلاحي بقيادة علماء الجمعية، لتغيير الأمة وبنائها حضاريا، والثاني مشروع استعماري يهدف لطمس هوية الشعب الجزائري وتجهيله.

إن إصدار أوامر الإغلاق الإداري المتعسف لمئات المدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين، في

¹ - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص14.

² - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج، ص406.

جميع أنحاء الجزائر باستخدام ذرائع إدارية واهية، كان بمثابة محنة قاسية عاشتها الجمعية، وهي ترى رأي العين غاية المستعمر واستراتيجيته في إرجاع الجزائريين إلى مربع الجهل والأمية، وبعد أن بدأت ثمرة هذه المدارس في تحريج جيل واع بدينه ولغته وتاريخه تظهر، فكان قانون 8 مارس 1938 "ضربة قاسية لعمل الإصلاحيين المدرسي، وتجلت هذه الضربة في توقيف الانتشار الثقافي للحركة الإصلاحية وانحسار التعليم العربي الحر في الجزائر،... كما ثبتت المتاعب الإدارية أكثر فأكثر جهود العديد من المعلمين الإصلاحيين، الذين لما كانوا على جهل بخبايا الإجراء، لم يوفقوا في تقديم جميع الوثائق المطلوبة للحصول على الرخصة التي تمكنهم من فتح مدرسة عربية حرة جديدة، أو الترخيص الذي يمكنهم من مواصلة التدريس في المدارس العربية الموجودة سلفاً"¹

فلا مناص من القول أنّ نشاط الحركة التعليمية للجمعية، قد تذبذب بعد قرار إغلاق المدارس الحرة التي لا تتمتع برخصة عمل، كما يمنع فتح أي مدرسة حرة دون شروط قاسية، وهو ما دفع عبد الحميد بن باديس للتعليق على هذا القرار بقوله: "أن الهدف من هذا القانون الذي يرى فيه الوالي العام هو تنظيم، وأن القانون جرى به العمل بفرنسا منذ 52 سنة، فليس هو بالشيء الجديد، لكننا نطلب من الوالي: حرية تعليم الدين ولغة الدين، وأن مقاومة الإسلام ولغة الإسلام هو الدليل على أن الأمة مستهدفة"²

ولعل صورة واحدة من صور الابتلاء العديدة التي عاشها أفراد الشعب الجزائري، تكشف حجم المحنة القاسية التي عاشتها الجمعية معهم أيضاً، "ففي ماي 1939م أعلنت الحكومة الفرنسية عن غلق مدرسة التربية والتعليم بقرية" اغيل علي بن عباس"، وغلق المكتب، وتشيتيت التلاميذ بواسطة البوليس السري، وأحالوا المعلمين أمام محكمة التأديب، بعد أن روعت التلاميذ في أقسامهم، وانتزعت الألواح المدرسية، والكراريس من أيديهم، وكإحصائية كانت تضم هذه المدرسة أكثر من ألف بين تلميذ وتلميذة"³

ومما لا شك فيه فإن جملة هذه القوانين والقرارات التعسفية، كانت من أصعب الابتلاءات والحن التي واجهتها الجمعية، لأنها شكّلت عوائق لنشاطها الثقافي، لكن سرعان ما تحول هذا الاختبار إلى دافع يعزّز ثبات الجمعية ويوحّد صفوفها لتطوير آليات العمل الدعوي، لمواجهة هذه المستجدات.

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 415.

² - عبد الحميد بن باديس، "حول مقاومة التعليم الإسلامي العربي قرار 08 مارس ومنع الرخص"، البصائر، السنة الثالثة، العدد 114، 20 ماي 1938م، ص 1-2.

³ - محمد الحسن الورتلاني، "للعبرة والتاريخ"، البصائر، السنة الرابعة، العدد 164، 05 ماي 1939م، ص 8.

وهنا تجدر الإشارة إلى عمل عبد الحميد بن باديس ورجال الجمعية، في تحريك الرأي العام ضد هذا الابتلاء الذي مسّ أهم مؤسسات عملها الدعوي، فوجه ابن باديس رسالة إلى النواب الجزائريين بالعمالات الثلاثة، متحدثا فيها عن المضايقات التي يتعرض لها التعليم العربي، وما لحقه من تعطيل للمدارس، كمدرسة تلمسان بعد قرار 08 مارس، طلب منهم وضع اليد في اليد لمقاومة هذا القرار الجائر بطرق قانونية، ومن واجب كل الجزائريين الدفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي.¹

وزيادة على ما سبق، فقد امتدّ الابتلاء ليشمل رجال الجمعية وعلماءها ومعلميها، فهم قادة المعركة الفكرية ووقود حركة الإصلاح، فكان تضيق الخناق عليهم وسجنهم وتغريمهم، بتهمة التعليم دون رخصة، هدفا مباشرا لإخماد الصوت الإصلاحي وإضعاف المقاومة من جذورها، وإحداث ترهيب نفسي ومادي لرجالها، وكسر إرادتهم وتكسيم أفواههم، فقد " بلغت قضايا المحاكمات للمعلمين بتهمة التعليم سبعة وعشرون قضية، حكم في جميعها بالتغريم والحبس...وفي واحدة منها بالسجن والتغريم المضاعف"²، وقد واجه هذه الابتلاءات أيضا رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس، فكانت من أبرز محطات الابتلاء التي مرّت بها الجمعية اعتقاله وسجنه لفترات قصيرة بتهم مثل التحريض ضد السلطة، أو إثارة الفتنة... وكذلك نفية لآفلو.

وبما لا يدع مجالا للشك فإن سنن الله ثابتة لا تتغير ولا تبدل، لأن الثبات على الحق سبيل ووعد إلهي للنصر والتمكين، فقد كان ابتلاء غلق المدارس والتشديد في قوانين تأسيسها، والتضييق على معلميها، عاملا للتجديد بكل فعالية، أين انتقل التعليم من المدارس إلى الزوايا المعتدلة والبيوت والمساجد والنوادي، كما غرس الاضطهاد والقمع الفرنسي في نفوس الجزائريين روح المقاومة والصمود، فلم تُثن كل هذه الإجراءات القمعية من عزيمة الجمعية، بل زادت إصرارا على مواصلة رسالتها.

هذا وغيره يؤكد لنا محورية سنة الابتلاء في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لأن ابتلاء الجمعية بإغلاق مدارسها ومضايقة علمائها كان اختبارا لإيمانها وصدقها، أثبتت نجاحها في هذا الاختبار نجاحا باهرا لأنها حوّلت المحنة إلى منحة، وأثبتت أن قوة الفكرة تهمد أعنى قوى البطش والطغيان، فساهمت بذلك في الحفاظ على إرث ابن باديس الفكري والتعليمي، ونقله للأجيال اللاحقة.

¹ - عبد الحميد بن باديس، "كتاب مفتوح إلى النواب الجزائريين الأحرار بالعمالات الثلاثة، البصائر، السنة الثالثة، العدد 110، 22 أبريل 1938م، ص3.

² - البشير الإبراهيمي، "التقرير الأدبي لجمعية العلماء المسلمين"، البصائر، البصائر، السنة الرابعة، العدد 172، 15 أكتوبر 1951، ص3.

ونحن بصدد تحديد مظاهر الابتلاء بالسلطة الاستعمارية، تجدر الإشارة إلى فرض هذه السلطة لسياسة المنع والمصادرة المتكررة لصحف الجمعية مثل " السنة النبوية المحمدية-13 عددا من 10 أبريل إلى 03 يوليو 1933، الشريعة النبوية المحمدية-07 أعداد من 17 يوليو إلى 28 أوت 1933، الصراط السوي- 17 عددا من 11 ديسمبر 1933 إلى 8 يناير 1934، وهذه الصحف الثلاثة التي أصدرتها جمعية العلماء تباعا في ظرف سنة واحدة، كانت تُعطل بقرارات من السلطة الفرنسية بالجزائر، وآخرها صحيفة " الصراط" جاء المنع عليها متبوعا بمنع جمعية العلماء من إصدار أية صحيفة لها، وباسمها إلى إشعار آخر"¹، وغيرها من المنابر الإصلاحية التي عُطّلت، كونها تحمل مشعل الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائر، فكانت هذه الصحف خاضعة لرقابة السلطات الاستعمارية، لأنها اعتبرت تهديدا مباشرا لمصالحها ومشروعها التجهيلي.

ومن هذا المنطلق فقد كانت المصادرة المتكررة لصحف الجمعية، مظهرا حيا لسنة الابتلاء في عملها الدعوي، لأنها محاولة لخنق صوتها الإعلامي، وحرمان جمهور القراء من وصول أفكار الجمعية الإصلاحية، فقد عرفت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الفترة الممتدة ما بين 1931م إلى 1935م نوع من الابتلاء الصحفي مصدره السلطة الإدارية للمستعمر، وكان أول من جاهر بمحاربة الحركة الإصلاحية عامة، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خاصة وناصبها العداء، ووضع الخطط الجريئة لحربها محولا القضاء عليها، هو مدير الشؤون الأهلية "م. ميرانت"²، فمحاربة صحف الجمعية بمصادرتها أو فرض غرامات مالية باهضة عليها، وتشديد الرقابة ومنع الطبع والنشر لصحفها، ومحاولات كانت في الحقيقة اختبارا لإيمان الجمعية وثباتها، وإصرارها نحو الاستمرارية في نشر الوعي من خلال عملها الصحفي، " فحين أنشأت الجمعية صحيفتها الأولى " السنة النبوية" سنة 1933م أوقفتها الحكومة بقرار من وزير الداخلية، وقيام الشرطة بحجز الأعداد الموجودة في السوق، فأعادت تأسيس جريدة أخرى في نفس السنة في 7 جويلية 1933م باسم " الشريعة المحمدية"، وصودرت بدورها في نفس السنة في 20 أوت 1933م، ثم أسست جريدة " الصراط السوي" في 11 سبتمبر 1933م وأوقفت في جانفي 1934م"³.

وتماشيا مع ما تم ذكره، نقول أنه على الرغم من شدة الابتلاء الذي تعرضت له الجمعية في منابرها الإعلامية، إلا أن تلك الإجراءات القمعية لم تحقق للاستعمار أهدافه، بل على العكس من ذلك، فقد تحولت المحنة إلى منحة، وسجلت صحف الجمعية تاريخا نضاليا مشرفا، ساهم في الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية،

- محمد الحسن فضلاء، البصائر، العدد 1، 27 ديسمبر 1935، ص ب.1

2 - الطيب العقبي، " ماذا يلاقي المصلحون؟ جمعية العلماء المسلمين وحكومة الجزائر"، البصائر، العدد 50، 7 جانفي 1957، ص 2.

3 - محمد خير الدين، مذكرات، مرجع سابق، ج 1، ص 299.

فقد بيّنت إصرار الجمعية وعزمها حيث واصلت النشر عبر صحف أخرى، وزادت هذه الصحف المصادرة قيمة وقدرا عند الشعب الجزائري، الذي تأثر بها فأصبح يتسابق لقراءتها خفية.

كما يمكننا أن نعتبر هذه المحنة دليلا واضحا، على صحة وسلامة المشروع الإصلاحي الذي تقوده الجمعية، حيث أدركت مبكرا أن التعليم والإعلام؛ هما أداتان أساسيتان للصمود في وجه الابتلاءات الاستعمارية من جهة، ومن أخرى تبين مدى خطورة هذا المشروع في وجه المستعمر الفرنسي، الذي عمل على محاربة مدارسها وصحفها بكل شراسة، لتتكشف بذلك وتزول كل أقنعة فرنسا، وادعاءاتها الحضارية في حرية الرأي والتعبير، التي تزجها بأقصى أنواع القمع والتضييق في مستعمراتها.

وجدير بالذكر أن هذه المحن والابتلاءات، قد اختبرت صلابة أعضاء الجمعية وإيمانهم بفكرتهم، فلم تنحرف إلى العنف رغم القمع، ولم تتنازل على مبادئها وثوابتها رغم الاغراءات، بل ظلت متمسكة بدعوتها السلمية الإصلاحية، وعلى الرغم من المخاطر التي كانت تحيط بقادتها، لم تزد هذه المحنة الجمعية ورجالها إلا قوة وعزيمة، كما عززت من استمرارية رسالتها وتأثيرها على المدى البعيد بكل ثبات ويقين.

ولعله من أبرز القواعد الدعوية التي يقرّها القرآن الكريم، ضرورة إدراك سنة الابتلاء للدعاة في دعوتهم، لقوله تعالى: "مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ" آل عمران/179، فسنة الله تعالى تقتضي وقوع البلاء والشدة، فلا يتحقق النصر والتمكين إلا بذلك، ولما أدركت الجمعية حقيقة هذه القاعدة، كان الثبات على مبدأ الحق سبيلها، والصبر على قضاء الله تعالى وأمره وكيلها.

المطلب الثاني: الابتلاء بالخصوم والانقسامات الداخلية:

لم تقتصر الابتلاءات على التحديات الخارجية من الاستعمار وخصومه، بل شملت أيضا صراعات وانشقاقات داخلية، تمثلت في اختلافات الرأي بين أعضائها حول كيفية التعامل مع الاستعمار، وخاصة من قبل بعض رجال الطرق الصوفية، ومناقشة فكرة تحرير الأرض هل تأتي قبل تحرير الإنسان، وهو ما أثار توترا وانقسامات في صفوف الجمعية، لأن هذا النقاش يعكس الابتلاء في تحديد مسار الدعوة الأمثل، وكيفية الموازنة بين الأهداف الروحية والأهداف الوطنية، "فانطلاقا من ماي1932، بادر الممثلون المرابطون وغير الإصلاحيين، المستبعدين من اللجنة المديرة ل ج ع م ج إلى إشعال فتيل المعارضة والعداء حيال الجمعية الإصلاحية الباديسية، هذا العداء تجلّى في تشكيل جمعية خصمة ل ج ع م ج ج¹، عُرفت باسم "جمعية علماء السنة" وكانت فرع منفصل عن

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص173.

جمعية العلماء المسلمين، وهو ما أثر على فعالية الجمعية بادئ الأمر وأبطأ من وتيرة توسعها الإصلاحي، لكن سرعان ما تحولت هذه الخلافات والصراعات؛ إلى أداة ساهمت في تمحيص الصفوف وتحديد أولويات العمل الدعوي، ما أكسب الجمعية وزادها بذلك خبرة في إدارة التنوع وتوحيد الجهود والأهداف الإصلاحية.

وتماشيا مع ما تهم ذكره فقد وثق الإبراهيمي نقطة الابتلاء هذه، والتي كانت مكيدة مدبرة لاستخلاص الجمعية من أيدي المصلحين، وجعلها لصالح الطريقة العلوية، فقال: "...لم يقف العلويون أذناهم عند حد ذلك الهجوم، الذي كان أوله كيدا وآخره فضيحة، بل جمعوا أمرهم وشركائهم، وقرروا في اجتماع تولى كبره رئيسهم الأكبر أحمد بن عليوة(*)، محاربة جمعية العلماء بكل وسيلة وبكل قوة، وتقاسموا على ارتكاب ما يحل وما يحرم في هذا السبيل، وانفتقت لهم الحيلة بإرشاد بعض أذئاب الإدارة على تأسيس جمعية طريقية في معناها وحقيقتها، حلولية في باطن باطنها، علمية في ظاهرها وما يراه الناس منها، ليوهموا العامة أنهم يحاربون العلم بالعلم، لا العلم بالجهل، فبثوا في الزوايا وعبيدها دعوة جامعة إلى تكوين هذه الجمعية، التي وصفوها بأنها جبهة قوية تقف في وجه الإصلاح، وتنازل جمعيته وجهاً لوجه وداراً لدار، بعد أن لم يبق أمل في إسقاطها بالحيلة، أو الاستلاء عليها بالمكر"¹

وجدير بالذكر أن معارضة الطرق الصوفية المنحرفة للجمعية، كان ابتلاءً عميقاً واجه الجمعية طوال فترة عملها الدعوي، حيث شنت حملات تشويه عليها؛ تكفرها وتتهمها بالخروج عن الدين، ونشرت الكثير من الاتهامات والأكاذيب عليها، حقداً بذلك على جمعية العلماء المسلمين التي قامت "بكشف مخازيهم وحيلهم الشيطانية، وتنفير الناس منهم وتحذيرهم من إفكهم وباطلهم، فهناك تقوم قيامتهم ويبادرون بالويل والثبور، ويقاومون بما لا يخرج عن طريقتهم في التضليل ودس الدسائس"².

كما اجتهدت هذه الطرق الصوفية أيضاً في تحريض السلطة الاستعمارية، -التي اعتبرتهم رعاياها الأوفياء- لإثارة الفتن داخل المجتمع الجزائري ضد الجمعية العلماء المسلمين، ليكونوا بذلك يداً واحدة في وجه مشروع

(*) هو الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة (1867-1934م) ولد بتلمسان في تاريخ غير متفق عليه، أخذ التصوف عن الشيخ محمد البوزيدي، وتصدر بعده لعمارة زاوية شيخه، ثم استقل وأسس زاوية خاصة به في مستغانم، وأخريات في معسكر وغلزيان، والجزائر ووهران وزواوة، اشترى مطبعة للزاوية، وأسس صحفاً كانت تنشر نشاطه، كما كانت تدافع عن الزاوية ضد مخالفيها أو منتقديها، منها صحيفة "لسان الدين" و"البلاغ الجزائري" الأسبوعية، وكان الشيخ ابن عليوة في مقدمة المدافعين عن الزوايا وصيانة عقائد أهل السنة عند ظهور المتطرفين، وهو يقصد بذلك رجال الإصلاح والحركة الباديسية عموماً، والمعروف عنه أنه ساند الحركة الإصلاحية في بدايتها، وتأسيس جمعية العلماء، ثم انضم للحركة المنفصلة عنها، والمتمثلة في جمعية علماء السنة سنة 1932، ولم يلبث الشيخ أن توفي بعد ذلك بستين، وماتت جمعية علماء السنة في نفس الفترة. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج4، ص126-128. بتصرف.

1 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مرجع سابق، ص59.

2 - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص27.

الجمعية الاصلاحية، لأنها اعتبرت دعوة جمعية العلماء المسلمين تهديدا واضحا، لنفوذها وهيمنتها الواسعة على المجتمع الجزائري، ما أسفر بذلك عن صراعات فكرية واجتماعية بين الطرفين، غذتها سياسة "فرق تسد" الاستعمارية، التي تسعى لتفرقة أبناء المجتمع الجزائري وزعزعة وحدتهم بأي شكل من الأشكال.

لكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، لأن هذا الابتلاء رغم مرارته إلا أنه كان باب شهرة ورواج لصيت دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحية، "فلقد ساهمت أزمة 1932، بإحداثها جلبة حول الحركة الإصلاحية، في إعطائها شهرة أكبر، وخرج ابن باديس وأصدقاؤه منتصرين من محنة ربيع 1932 بعد أن أفلت بأعجوبة من هاوية التهلكة"¹.

وفي المقابل أيضا نجد أنه "بعد تحوّل جمعية العلماء المسلمين إلى تنظيم إصلاحي خالص، نتيجة انسحاب ممثلي الطرق الصوفية، لم يتوقف رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس عن السعي لتحقيق المصالحة وكسب ودّ واحترام كبار رؤوساء البيوت الصوفية. وقد تجلّى ذلك من خلال سلسلة من الجولات والزيارات الميدانية في عام 1932م، التي لم تكن تهدف إلى المجاملة فحسب، بل كانت تروم تقديم شروحات معمقة حول منهجية الجمعية ومواقفها، والعمل على توضيح الرؤى وتبديد سوء الفهم في إطار من الحوار الموضوعي والبناء"².

وفي الأخير يمكن القول أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدركت أن امتداد دعوتها، ونشر رسالتها والتمكين لها، لا يمكن أن يتحقق في جو التنازع والفتن واختلاف الكلمة، ما جعلها تعمل في ابتلاءها بالخصوم والانقسامات الداخلية، على جمع الكلمة وتخليص الصف المؤمن ممن لا يصلح للعمل والإصلاح، وممن يشكل وجوده ضررا وتفريقا للصف وتوهينا للقوى.

فالدعوة إلى الله تعالى توجب غربلة الصفّ وتخليصه من كل من لا يصلح للعمل والمواجهة، والدعوة إلى دين الحق، وهذا الفهم يدل على وعي الجمعية السني واستحضارها لدروس القرآن الكريم المبثوثة فيه، فالابتلاء الذي أصاب المؤمنين في غزوة أحد، وما حلّ بهم من غلبة العدو عليهم، كان لأجل التمييز بين الخبيث والطيب، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران/140-141.

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص158.

² - مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رسالة ماجستير، معهد أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1996-1997م، ص275.

كذلك هو الحال في صفوف جمعية العلماء المسلمين التي تخلصت من رجال الطرق الصوفية المنحرفين، وتمحّص فيها الخبيث من الطيّب، لأن وجود المنافقين في الصف لا يزيد الجماعة إلا فرقة وضعفا واختلافا، وخاصة أن أصحاب هذه الطرق كانوا أداة طيّعة للمستعمر والعدو الفرنسي لإيقاع جمعية العلماء المسلمين وإضعافها، فكانوا وبالا ومحنة على العمل الدعوي للجمعية، لكنها نجحت في هذا الابتلاء ومضت في طريق الدعوة بكل قوة وثبات.

المطلب الثالث: الابتلاء بالفكر المنحرف (التغريب والانحلال):

تعد الأفكار المنحرفة التي روّج لها المستعمر الفرنسي واحدة من صور الابتلاء التي عاشها المجتمع الجزائري، ما دفع بجمعية العلماء المسلمين إلى حمل قضية الدفاع، ضد هذا المشروع الاستعماري الذي يهدف إلى تفكيك الشخصية الجزائرية، وخلق شعب منفصل عن جذوره لتسهيل السيطرة عليه، ومن مظاهر الابتلاء بهذا الفكر المنحرف، سياسة التغريب والانحلال التي جعلها المستعمر من أبجديات مشروعه الاستعماري، وكانت اختبارا عظيما لإيمان وصدق واستراتيجية الجمعية، وميدانا لتمحيص قوة دعوتها وصبر أتباعها.

بدأ هذا الابتلاء بسعي المستعمر لسلخ الشعب الجزائري من مقوماته الشخصية وتغييب هويته بالكامل، ليتحول الفرد الجزائري من مسلم عربي، إلى فرنسي مسلم وبعدها إلى فرنسي فقط، عبر محاربة اللغة العربية لغة القرآن الكريم، التي تشكّل وعاء أساسيا للهوية، وتشويه التاريخ وتزييف حقائقه، بفكرة مفادها أن الجزائر أمة متخلّفة واحتلال فرنسا لها جاء بدعوى تحضّرها، وكانت الدعوة إلى الاندماج بمثابة مسخ للهوية، لأن الجزائري يصبح وقتها فرنسي مسلم، ما يعني تخلّيه عن الهوية الوطنية القومية، واكتفائه بالهوية الدينية الشكلية، فقد عمل هذا المستعمر الفرنسي " في مئة سنة على محو آثار الإسلام من النفوس، بقتل أخلاقه المتينة وعقائده الصحيحة، وعلى محو عزة العروبة من النفوس، ومحو بياضها من الألسنة والقرائح، وقد كاد ينجح، ولو نجح لَنَمَّ له ما يريد بعد مئة سنة أخرى من فرنسة الجزائر وجعلها مسيحية الدين لاتينية الجنسية"¹

كما تجدر الإشارة أيضا إلى مقاصد هذا المشروع الاستعماري، الذي شكّل ابتلاءً على مستوى حسّاس جدا، لأنه هدف إلى تفكيك الأسرة، ونشر الانحلال الأخلاقي فيها، من خلال تشجيع الرذائل وفتح أبواب الحانات للدعارة، وشرب الخمر والفجور، لإفساد الشباب الجزائري وإلهائه عن قضايا وطنه، وهذا ما انعكس على الأسرة الجزائرية التي تجرّدت من قيمها الأسرية وأخلاقها الإسلامية، والدليل على ذلك أنّ " شبابنا قد فقد التوجيه

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4، ص88.

الصالح، فسأت تربيته الاجتماعية، وأنخط مستواه الأخلاقي فتتكب طريق الحياة الحقّة وتخبط في معترك الحياة، لا تهديه فيه إلا حواسه وشهواته"¹.

وبما لا يدع مجالاً للشك، فإن المستعمر أراد أن ينخر الأمة في لبناتها الداخلية، وهذا ما يجعل الابتلاء أعظم والمواجهة أشد وأخطر، ما يعني أن مواجهة الجمعية لهذا الابتلاء لم يكن سهلاً، لأنها كانت بصدد مشروع استعماري يهدف إلى طمس الهوية وتجهيل الشعب وإضعاف أخلاقه، فتسلّحت للردّ على هذا المشروع بمشروع نهضوي مضاد هدفه بناء الإنسان الجزائري المسلم الواعي وتعليمه، ببناء المدارس الحرة والمساجد، وتوعية الأفراد عبر خطب ودروس المساجد وإصدار الصحف والمجالات، ليكون هذا الخطاب الإسلامي الصحيح جزءاً من الابتلاء والتمحيص.

وكما أشرنا آنفاً فقد قامت الجمعية بمشروعها الدعوي النهضوي-التعليمي، التربوي، الإعلامي- في ظروف بالغة الصعوبة، تمثلت في فقر المجتمع وقلة موارده المالية، وكذا منع الحكومة الاستعمارية للتعليم العربي ومناهجها، إضافة إلى الملاحقات الأمنية للمعلمين والخطباء، ابتلاءات تعكس ضخامة التحدي مقابل قلة الإمكانيات، لتكون هذه الظروف دليلاً على صدق التوكل على الله وبُعد النظر، ووضوح الرؤية مع قوة الإرادة، التي صنعت جيل الثورة التحريرية.

وتماشياً مع ما تم ذكره، فقد كان على جمعية العلماء المسلمين مواجهة سياسة التغريب، كمشروع استعماري منظم يسعى إلى طمس الهوية الإسلامية والعربية للأمة الجزائرية، ونشر الثقافة واللغة الفرنسية لتفكيك الأسرة الجزائرية، وطمس معالم دينها وقيمها، وكان هذا الابتلاء تحدياً يفرض ضرورة بناء البديل الإصلاحي، وسط هذه الموجة الفكرية الجارفة، فأنشأت الجمعية المدارس الحرة والمحاضرات والنوادي والصحف، لنشر العلم الصحيح واللغة العربية ومقاومة الانحلال الأخلاقي.

فكانت دعوة جمعية العلماء المسلمين صريحة لتكاتف الجهود، نحو القضاء على هذه العلل والأمراض التي أصابت المجتمع، للنجاح في هذا الاختبار والخروج بأقل الخسائر، ولهذا صبّت الكثير من النداءات لتحريك الجانب الوجداني والعقلي نحو تحقيق ذلك، ومن أمثلتها: "يا قوم إن الدواء كل الدواء في رأي المصلحين الاجتماعيين، هو أن نعد إلى أنفسنا فنفحصها فحصاً جدياً، حتى نكشف أدواءنا بأنفسنا، ونعالجها بأنجع أدويتها بأنفسنا، نأتي على معاشنا نحسنها ونقومها، نأتي على أوضاعنا البالية وتقاليدنا الثقيلة نستبدلها بما يوائم الحياة الحاضرة، في

¹ - باعزير بن عمر، "الرقى الاجتماعي"، البصائر، العدد 68، 21 فيفري 1949، ص2.

صرامتها وقوتها وجمالها، ولا يتنكر لديننا وصالح تقاليدنا وعاداتنا، وذلك باستحداث ثورة داخلية، تجعل بالتربية والتعليم وحسن التوجيه"¹

وبالتالي فلا مناص من القول، أن التغريب والانحلال لم يكن مشروعاً بسيطاً، يمكن القضاء عليه بسرعة، بل كان معركة تراكمية استغرقت عقوداً من الزمن، كان الابتلاء في الصبر على الأذى والتحديات المتجددة أولاً، والثبات والاستمرار في العمل رغم كل الضغوط والمغريات ثانياً، وعدم العجلة أو اليأس من تأخر النتائج ثالثاً، مؤهلات قادت الجمعية للنجاح في ابتلاء الجمعية ضد مجموعة الأفكار المنحرفة التي فرضها المستعمر، فحفظت الجمعية هوية الأمة وأعدت جيلاً مؤمناً صدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة/24.

والعصارة التي يمكن استخلاصها بعد دراسة تجليات سنة الابتلاء في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين هي:

- سنة الابتلاء في سياق العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هي مجموعة التحديات التي واجهت الجمعية منذ تأسيسها، خاصة تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، والتي شكّلت جزءاً لا يتجزأ من مسيرتها الدعوية والإصلاحية، هذه الابتلاءات لم تكن عوائق فقط، بل كانت محفزات لتطوير منهجها وتعزيز صمودها.

- أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدركت حقيقة سنة الابتلاء في عملها الدعوي، كونها تشكّل أول قانون مؤثر على حركة الاستخلاف والتمكين، فكانت مسيرتها المفعمة بالابتلاءات والتحديات تقف شاهداً على أن الصمود والإيمان الراسخ هما مفتاح استمرارية أي عمل دعوي وإصلاحي، لأنها استطاعت أن تحوّل المحن والابتلاءات التي اعترضت طريقها إلى فرص بناء وعمل فعال، لتترك إرثاً غنياً من النضال والصبر والثبات، يُلهم الأجيال القادمة في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

- كانت سنة الابتلاء محكاً حقيقياً برهنت الجمعية من خلاله على صدق الدعوة، فالدعوة التي لا تواجه محناً وتكاليف هي دعوة هشة سهلة الكسر والاندثار، وبرهنت على ثبات الرجال الذين أنجبته المدرسة الباديسية، فكانوا كالجبال الرواسي ضد عواصف المستعمر الفرنسي، وأثبتت هذه السنة خروج التجربة الإصلاحية التعليمية؛ من طورها النظري إلى التطبيق العملي في أصعب الظروف، فانتقلت من فكرة إلى مشروع نخضة للأمة الجزائرية، ما أسهم في الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري الإسلامي العربي.

¹ - محمد المنصور العسري، "صور من مجتمعنا الحاضر"، البصائر، العدد 66، 7 فيفري 1949، ص 6.

-وجدير بالذكر أن ثبات جمعية العلماء المسلمين على مبادئ الإسلام الصحيحة وأصوله المتينة، مع الصبر على المكارِه والحن التي حلت بها، هما جوهر نجاح أي دعوة، فهذه الصفات يتمكن الدعاة من مواصلة طريق الدعوة رغم الصَّعاب والعراقيل، وبها تتقوى شوكتهم في وجه الظلم، لأن الابتلاء هو فرصة أخرى لإعادة النظر في أساليب الدعوة ووسائلها، بُغية تطويرها لتكون حلولاً مناسبة للتحديات الجديدة، فتصبح الدعوة بذلك أكثر تأثير وفعالية ومرونة.

- مما لا شك فيه فإن كل الابتلاءات التي واجهتها جمعية العلماء المسلمين، كانت نتيجة مباشرة للضغط التي فرضتها السلطة الاستعمارية، من خلال فرضها لجملة قوانين وقرارات تعسفية تعيق نشاط ومسيره العمل الدعوي للجمعية، ومن أبرز هذه القوانين اختباراً؛ قانون غلق مدارس الجمعية، وتضييق الخناق على علماء ومعلمي الجمعية، في أداء وظيفتهم، وإلاّ فالاعتقال والسجن والغرامة مآله، كما امتدت يد التضييق أيضاً إلى منابر الجمعية الإصلاحية، فمنعت وصارت صحفها، لكن الجمعية في المقابل أدركت أنّه من قواعد الدعوة إلى الله تعالى، سنّته التي تقتضي وقوع البلاء والشدة، فلا يتحقق النصر والتمكين إلا بذلك، ولما أدركت الجمعية حقيقة هذه القاعدة، كان الثبات على مبدأ الحق سبيلها، والصبر على قضاء الله تعالى وأمره دليلها.

- ومن زاوية أخرى فإن دائرة الابتلاء قد توسعت، لتخط رحالها على أسرة جمعية العلماء المسلمين، أين وقعت خصومات واختلافات داخلية، بين رجالها حول التعامل مع المستعمر، وهو ما أسهم في تمحيص وغرلة صفّ الجمعية، وتحديد أولويات عملها الدعوي، الذي قضى بتخليص الصف المؤمن، ممن لا يصلح للعمل والإصلاح، وممن يشكّل وجوده ضرراً وتفريقاً للصف وتوهيناً للقوى، والكلام هنا يعود على رجال الطرق الصوفية المنحرفة، الذين اعتبرهم المستعمر رعاياه، فكانوا أداة طيعة له ضد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

- إن ابتلاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالفكر المنحرف الذي صدره المستعمر الفرنسي الغاشم، كان في حقيقته مشروعاً استعمارياً هدفه طمس الهوية، وتجهيل الشعب الجزائري وإضعاف أخلاقه، بتطبيق سياسة التغريب والانحلال الأخلاقي، الذي يؤثر تأثيراً مباشراً على لبنة حساسة من لبنات المجتمع؛ هي الأسرة، فيفكّكها ويجزّدها من قيمها ومبادئها.

وفي الختام يمكن القول، أن تجليات سنة الابتلاء في دعوة الجمعية كانت دليلاً عملياً على سنة الله في خلقه، وإن النصر والتأييد يأتيان بعد الصبر والثبات على الحن والاختبارات، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت/2-3، فسنّة الابتلاء ليست عقاباً، بل هي اختبار إلهي يبيّن أن المحنة ضرورة في صناعة

التمكين، وهي سنة ماضية تجري على كل من يحمل رسالة إصلاح، فلا يُمكن للدعاة إلا بعد أن يثبتوا صدقهم ويتحملوا تبعات الدعوة، لأن الابتلاء يمحص الصف ويكشف المخلصين من المدّعين.

وكما أكدنا آنفاً فإنّ الجمعية خضعت لسلسلة من المحن المتتابة، تمثلت في قمع الاستعمار الفرنسي لأنشطتها التعليمية والدينية، وإغلاق عشرات المدارس الحرة، وكذا منع الصحف والجرائد، ومنع صدور بعض أعداد البصائر والشهاب، بالإضافة إلى ملاحقة رجال الجمعية، واعتقال بعض الدعاة الذين رفضوا الانصياع للسياسات الفرنسية، فكان تضيق الإدارة الاستعمارية على المساجد والنوادي واضحا، هدفه منع الانتشار الدعوي، وتشويه صورة الجمعية واتهامها "بالتحريض" أو "الرجعية الدينية" لتقليل تأثيرها على الشعب، لكنها نجحت في تخطي كل ذلك بصبرها وإخلاصها في عملها.

وفي الختام فإن الدروس السننية الكبرى المستفادة من سنة الابتلاء، هي أن الابتلاء شرط للتمحيص، ولولاه لامتألت الصفوف بالدعاة الموسميّين، كما أن المحنة تُكسب الدعوة عمقا شعبيا، فقد تعاطف الشعب مع الجمعية بسبب صمودها، وإن الصمود أمام الابتلاء يضاعف شرعية الحركة الدعوية، ويجعلها مرجعا أخلاقيا للأمة، وإن مواجهة هذه الابتلاءات يكون بالصبر والمثابرة، نحو تحقيق الأهداف الدعوية، وكل هذه الشدائد تحمل في طياتها دروسا وجب أخذ العبرة منها، لتقوية البناء الدعوي وتطوير الأساليب الدعوية، والدرس الأخير مفاده تحديد النوايا، فالابتلاء يذكر بأهمية الإخلاص لله تعالى في كل الأعمال.

المبحث الثاني: تجليات سنة الأخذ بالأسباب في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

قبل التفصيل في تجليات ومظاهر هذه السنة، تجدر الإشارة إلى علاقة سنة الأخذ بالأسباب، بباقي سنن التمكين، فقد أشرنا سابقا إلى مدى ارتباطها وتلازمها لبعضها البعض، وهو ما أكد عليه عبد الكريم زيدان بالقول: "فسنة الله في الأسباب تشغل مساحة كبيرة جدا من سننه الأخرى، وقد لا أكون مغاليا إذا قلت إن السنن الأخرى تقوم على سنته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سنّة الله في الأسباب وليست سننا مستقلة، وإن أفرادها بالذكر وبأسماء خاصة بها إنما هو لإبرازها ولفت النظر إليها لمعنى خاص بها، وتبقى مع ذلك قائمة على سنة الله في الأسباب، ومعتمدة عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة"¹

اتّسمت رؤية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للمنهج الإصلاحي بوضوح، في تبنيها لسنة الأخذ بالأسباب، "انطلاقاً من إدراكها كسنة إلهية عامة في الخلق والكون، لا تختص بها أمة دون أخرى، وقد ارتكزت فلسفة الجمعية على مبدأ وجوب سير المسلمين على منوال غيرهم في اتخاذ الأسباب والتواصل مع السنن الكونية، مع الاحتفاظ بخصوصيتهم المنهجية المستمدة من الإخلاص لله واتباع المنهج الرباني.

فقد رأت الجمعية أن العقيدة الإسلامية توجب على المسلم الأخذ بالأسباب المادية التي أودعها الله في الكون، مع اليقين بأنها مرتبطة بمسبباتها بحسب السنن الإلهية، غير أن هذا الأخذ لا يعني التوجه إليها بالعبادة أو الاعتقاد في استقلاليتها بالفعل، بل يظل التوكل على الله والتوجه إليه هو الأساس، في إطار توازن يجمع بين فعل الأسباب المادية والتوكل على مسببها الحقيقي"².

وبما لا يدع مجالا للشك، فقد أدركت الجمعية نظام الله في الحياة، فلا شيء في هذا الكون يقع صدفة؛ وما يراه الناس في بعض الأحيان يحدث صدفة فهو نظير الجهل بسبب حدوثه، وجهلهم بالسبب لا يعني عدم وجوده، لذلك فالإنسان مسؤول على كافة أعماله التي يقوم بها، هذا ما دفع بالجمعية إلى ترك الكسل والتمني في بلوغ الغايات وتحقيق الأهداف، واعتمدت على ربط الأعمال بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، وهو منهج قرآني أصيل يحث على الممارسة العملية لسنة الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة، والعمل على استقصاء تلك الأسباب لبلوغ

¹ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص33.

² - مجدي عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص154، بتصرف.

المراد منها، والوقوف على أسباب التردّي لتوفير سُبل الخلاص والمنفعة، ولهذا تحولت النظريات والخواطر والأفكار التي كانت تراود مؤسسي الجمعية وعلمائها، إلى سلوك وواقع مشهود في إجراء وإحداث التغيير.

اتجهت مساعي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عملها الدعوي، نحو اكتشاف سنن الله في الأفراد والمجتمعات، وسعت لتسخيرها في أعمالها الإصلاحية لبلوغ السعادة والفلاح، وتحقيق مصالح الشعب الجزائري، بجلب المصالح لأفراده ودرء مفسد المستعمر الفرنسي عنهم، فكان محور جهودهم الإصلاحية يسير وفق هذا المنهج السنني، وعلى رأس قائمة هذه السنن الظاهرة والفاعلة في ذلك؛ سنة الأخذ بالأسباب، كيف لا؟ وإن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً وهو رسول الله ﷺ، فقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد.

وبالتالي لم تكن سنة الأخذ بالأسباب مجرد رأي نظري، لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل كانت منهج عمل شامل طبقته في كافة ميادين عملها الدعوي الإصلاحي، وأوضحت ذلك حتى من خلال خطاباتها، ومن ذلك قولها " فالأمة الإسلامية بأسرها مأمورة بإعداد القوة وبالاشتراك في هذا الإعداد، كل حسب ما في استطاعته، فأولو الأمر ملزمون بإعداد القوة الحربية، ورجال السياسة مكلفون بإعداد القوة السياسية، ورجال الدين مطالبون بإعداد القوة المالية، ورجال المال مأمورون بإعداد القوة المالية، ورجال العلم مأمورون بإعداد القوة العلمية، ولا تعد الأمة ممثلة لهذا الأمر إلا إذا قام كل فرد فيها بواجبه نحو إعداد القوة"¹ ويمكن تلخيص هذه التجليات في عدة محاور أبرزها مايلي:

المطلب الأول: إعادة فتح وبناء المدارس لإصلاح التعليم، بوابة سنة الأخذ بالأسباب:

من المناسب أن نستهل في حديثنا عن نماذج تجليات سنة الأخذ بالأسباب عند جمعية العلماء المسلمين ؛بفتح وبناء المدارس لإصلاح التعليم، باعتباره الوجه الحضاري الأول لكل أمة من الأمم، فصلاحه يعني صلاح المجتمع، وفساده يعني فساد المجتمع وتراجع، ولا مناص من القول أن سعي الجمعية لتربية أفراد المجتمع الجزائري بتعليمهم العلم النافع طريق تملؤه صعوبات وعراقيل كثيرة، كرّستها سياسات المحتل التي أغلقت المدارس والمعاهد والمساجد، وعرضت جملة منها للهدم، وحولت أخرى إلى كنائس ومستودعات عسكرية، ومجمّعات تخدم مصالح الإدارة الفرنسية، وكان هذا الفعل يهدف تجهيل أفراد المجتمع الجزائري، ونشر الأمية بين كافة فئاته، ما جعل جمعية العلماء المسلمين تبادر بتطبيق سنة الأخذ بالأسباب من خلال برنامجها الدعوي في التربية والتعليم، لتذليل وإزالة كل

¹ - عبد الباقي سرور نعيم، الإسلام وموقفه إزاء المدنية الحاضرة، الشهاب، العدد 26، السنة الأولى، 13 ماي 1926م، ص507.

العوائق والموانع، التي تحول دون تحقيق هذه الغاية، فالأمة الجزائرية تعيش وتتخبط في حالة من الجهل والأمية المركبة، في الكثير من مسائل الدين العقدي والعملية والأخلاقية، حيث خالط الصواب الكثير من الخطأ، والعبادة خالطها أنواع من البدع والخرافات، فوقع اللبس بين الناس بين ماهو من الشرع والدين، وماهو من العُرف والتقاليد.

وجدير بالذكر أن الجمعية أدركت أهمية سنة الله الثابتة في الأخذ بالأسباب، من خلال مراعاتها في أمورهم الدنيوية التي تحقق مشروعها الإصلاحي الثقافي، فسارعت لنشر هذا العلم الصحيح، مستعينة في ذلك بمجموعة وسائل تظهر فيها سنة الأخذ بالأسباب واضحة جلية، فقد استغلت الثالوث الحيوي (المسجد، المدرسة، النادي) لتحقيق أهدافها، إذ أن مرحلتها الأولى التي امتدت من 1931-1940م "كانت هذه المرحلة مرحلة نشاط ثقافي وإعلامي كبيرين قامت بهما الجمعية، تعريفًا بمبادئها ومحاولة نشر دعوتها بين المواطنين وإقناعهم بمجدواها، وفي هذه المرحلة أسست عددا من المدارس والمساجد والنوادي في أهم المدن والقرى الجزائرية"¹ أما في المرحلة الثانية والممتدة من 1940-1950م " فقد كانت فترة الانطلاق الواسع للجمعية في مجال بعث النهضة التعليمية ونشر التعليم العربي الحر، وتكوين المدارس وإقامة النوادي، وتأسيس المساجد والمعاهد الكبيرة(معهد عبد الحميد بن باديس)².

وتأسيسا على ذلك فقد سعت الجمعية لخطوة جديدة في الأخذ بالأسباب، نحو فتح مدارس موازية ومنافسة للمدارس الفرنسية المنتشرة، وقد جاءت هذه الخطوة إدراكا من الجمعية بأن صلاح التعليم أساس كل إصلاح وهو ما اشتهر على لسان مؤسسها الأول عبد الحميد بن باديس حيث قال: " لن يصلح المسلمون إلا إذا صلح علماؤهم، لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه ولغيره، ولن يصلح التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله، وموضوعه، في مادته وصورته"³.

ولا يفوتنا أن ننوه بمساعي الحركة التعليمية التي نشرتها جمعية العلماء المسلمين، وتأثيرها الكبير لمدارس عمّت ربوع الوطن الجزائري، فقد كانت بديلا عن التعليم المنحرف المنتشر في المدارس الفرنسية، والمزاحم لها في نشر الإلحاد والتنصير، والفساد والانحلال الأخلاقي عبر مؤسساتها التعليمية الرسمية لضرب وتشويه صورة الإسلام، وكان من ثمرة أعمال سنة الأخذ بالأسباب "تسجيل 70 مدرسة وقسم أو قسمين (باستثناء بعض المؤسسات الإصلاحية الكبيرة التي تتكون من عدة أقسام مثل ما هو موجود في العاصمة وقسنطينة وتلمسان) بالنسبة للفترة

¹ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 209.

² - المرجع نفسه، ص 213.

³ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، مج 1، ص 101.

1934-1935، وبناء على هذا الأساس، يمكننا الخلوصل إلى عدد متوسط: مائة قسم وحوالي 30000 تلميذ من الجنسين،... ذلك أنه ابتداء من 1931، وبدفع من جمعية العلماء، برزت مدارس ابتدائية عربية حرة في كل الأماكن من الوطن¹.

وفي إحصاء عدد المدارس المنتشر نجد أن هناك "عوزا لإحصائيات دقيقة عن عدد هذه المدارس من وثائق الجمعية، ولكن الوثائق الفرنسية كانت تحصر على ذكر عدد مدارس الجمعية فبناء على إحدى هذه الوثائق فقد بلغ عدد المدارس القرآنية عام 1924م 55 مدرسة، وارتفع هذا العدد عام 1936م إلى 130 مدرسة، حتى بلغ في شهر يونيو 1939م؛ 350 مدرسة عدا المدارس التي لم تحصل تصريح بعد"².

وتماشيا مع ما تم ذكره، فقد عملت الجمعية على تطبيق سنة الأخذ بالأسباب، عند مباشرة عملها الدعوي في الميدان باستحضار الأسباب المادية "فتح المدارس" للذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية، وذلك من أجل الإعداد العلمي المعرفي، والتفقه في الدين، لتشكيل قوة معنوية صلبة تعينها على خدمة أهدافها الاجتماعية، الثقافية الحضارية، وكانت البوابة لذلك فتح أبواب التعليم التي أوصدها المحتل الغاشم، فالعلم الصحيح مفتاح العمل السليم، وبالعلم يتم القضاء على البدع والخرافات، وجملة الأهواء والشهوات، وبالعلم استطاعت الجمعية ذم التقليد الأعمى للأباء والأجداد، ومحاربة الغلو والتطرف، وكذا غلبة الأفكار والموروثات، من الفكر الفرنسي الدخيل عليها؛ بسياسة التجنيس، والفرنسة والإدماج، والتبشير والتنصير، والتي باتت تجذب شرائح وفئات مختلفة من أبناء الجزائر، الذين أصبحت عقولهم مستباحة من قبل المحتل الغاصب.

وبالتالي فالجمعية بذلت كل ما في وسعها من أسباب لنشر التعليم بكافة أنواعه، كما سعت لتعميمه بشتى الوسائل والطرق، إيماننا منها بأن أسباب النجاح في فك عزلة الجهل والغلو الفكري، لن تتأتى إلا بالسعي وراء مسبباتها، فاعتبرت إصلاح التعليم مدخل وأساس كل إصلاح للمجتمع الجزائري، من خلال ربط هذا التعليم؛ بالتربية والأخلاق، والعقيدة الصحيحة، أي ربطت بين الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، لتؤسس بذلك لإصلاح عملي تطبيقي تسري آثاره في كل أرجاء المعمورة.

وخلاصة القول مما سبق؛ فإن سنة الأخذ بالأسباب عند جمعية العلماء المسلمين كانت حاضرة وبقوة في عملها الدعوي، أين شكّلت الحركة التعليمية مجالا خصبا لربط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها، فكانت هذه الحركة سببا لإنشاء قوة معنوية مشعة فكريا، ربّت أجيالا من المجتمع صغارا وكبارا رجالا ونساء، على قيم الإسلام

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص 413-414.

² - مازن حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 95-96.

ومبادئه، للحفاظ على الشخصية والهوية العربية الإسلامية، في طريق قيادة المجتمع مستقبلا وإخراجه من مستنقعات الجهل والتخلف الحضاري، وقد كان هذا الجهد التعليمي تجسيدا حيا للأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، لبناء قاعدة معرفية راسخة للمجتمع الجزائري.

المطلب الثاني: إعادة فتح وبناء المساجد لدفع بلاء الزوايا؛ أخذ بالأسباب:

حاربت الجمعية بعض الزوايا والطرق الصوفية، التي كانت تشوّه عمدا أحكام الإسلام وتعاليمه، بما يخدم مصالح وأهواء رجال الزوايا والطرق الصوفية، الخاضعة لدعم المستعمر وامتيازاته، فكانت تنشر هذه الزوايا ألوانا وأنواعا من البدع والخرافات التي تطعن في العقيدة الإسلامية الصحيحة وأحكامها، كالسحر والشعوذة، والتوسّل عند الأضرحة والطواف حول القبور، والتعلق بالأموات، والتوكل على غير الله والخوف من سواه.

كما لا يفوتنا أن ننوّه على دور هذه الزوايا والطرق الصوفية في تكريس الفهم الخاطئ لقانون السببية، حيث جعلوه مدخلا للتوكل وحدوث الخوارق والرضا بالقضاء والقدر؛ الذي يعني إسقاط الأسباب، وقد جعلوا الاحتلال الفرنسي قضاء الله وقدره الذي يجب التسليم له والرضا به، والقاعدة الثابتة تقول أنه لا يجوز إسقاط الأسباب بحجة الإيمان بالقضاء والقدر، والتوكل على الله لا يمنع الأخذ بالأسباب" فالؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله تعالى وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها، إن الذي ينشئ النتائج -كما ينشئ الأسباب- هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن.. واتخاذ الأسباب عبادة بالطاعة، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب، لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها"¹

وعلى هذا الأساس سعت الجمعية لتخليص عقول أبناء المجتمع الجزائري، من مخلفات ورواسب هذا التصور للمفهوم الطرقي الصوفي الخاطئ، وتصحيح الفهم للعقيدة الإسلامية بصفة عامة، ولعقيدة القضاء والقدر بصفة خاصة، وكان من تدبير الجمعية في الأخذ بالأسباب استغلال المسجد لنشر دروس الوعظ والإرشاد الديني، التي وصفها الإبراهيمي بقوله: "الوعظ الديني هو رائد جمعية العلماء إلى نفوس الأمة، جعلته مقدمة أعمالها، فمهد واستقر، وذل الصعاب، وألان الجوامح، وعليه بنت هذه الأعمال الثابتة من إصلاح للعقائد، ونشر للتعليم، ومنه جنت كل ما تحمد الله عليه من نجاح، والوعظ الديني هو الذي حركت به جمعية العلماء المهمم الراكدة، وشدت به

¹ - سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج3، ص1478.

العزائم الواهية، واجتثت به الرذائل الموبقة، فكان هو معينها على غرس الإصلاح الديني، وتثبيت جذوره، وامتداد أصوله وفروعه"¹

ونحن بصدد الحديث عن دور المسجد وأهميته في إبطال فكر الزوايا المنحرف، تجدر الإشارة إلى الجامع الأخضر الذي اتخذته الجمعية كسبب مادي في بلوغ مقاصدها، فكان "الجامع الأخضر في قسنطينة، المركز الأول الذي انطلق منه التعليم الإصلاحية المسجدي في الجزائر، وكان التدريس فيه يمر بأربعة مراحل، والمواد التي كانت تدرّس فيه: التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، الأدب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، محفوظات، ومطالعات، ودراسة الإنشاء، الحساب، الجغرافيا، التاريخ، أما الكتب التي كانت معتمدة في ذلك الوقت، فهي: الموطأ، أقرب المسالك، الرسالة، الأجرومية، من ديوان الحماسة، من ديوان المتنبي، مقدمة ابن خلدون.

وبالإضافة إلى الجامع الأخضر كانت هنالك مساجد أخرى في تبسة، وسطيف، وتلمسان، ومازونة، وغيرها يتعلم فيها عدد كبير من الطلبة الكبار في المستوى الثانوي على الطريقة والكتب والأسلوب المعروف في الجوامع الإسلامية الكبرى، كالأزهر، والزيتونة والقرويين"²

وبناء على ما سبق، فإن جمعية العلماء المسلمين سخرت المسجد ليكون سببا في إعداد نوع من أنواع القوة؛ هي القوة المعنوية الروحية للأمة الجزائرية، والتي تمثلت في بناء وتخرج قاعدة إسلامية صلبة، قادرة على حمل راية الدعوة وأداء الرسالة.

ومن زاوية أخرى فقد كانت دروس تفسير القرآن الكريم؛ من ضمن مجموع النشاطات المسجدية التي يقوم بها علماء الجمعية ورجالها، فكان تفسير ابن باديس أو "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" من التفسير التي وقفت وقفات سننية في تفسير القرآن الكريم، حيث تحدث عن السنن الإلهية الحاكمة في الكون، والموجهة لسير الاجتماع الإنساني، وحركة التاريخ، وكان لسنة الأخذ بالأسباب وضوح بارز من مجموع تلك السنن التي تحدث عنها، فأشار إلى أن كل المسببات لها أسباب: كاهلدى والضلال، النصر والهزيمة، التخلف والتقدم، دخول الجنة والنار، وهكذا...

فالله تعالى قد ربط بين الأسباب ومسبباتها خلقا وقدرًا، بمشيئته وحكمته لتهتدي بالأسباب إلى مسبباتها، ونجتنبها باجتناب أسبابها، وعرض لجملة من الآيات التي ينطبق عليها مبدأ السببية واخترنا منها من باب التمثيل

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مرجع سابق، ص314.

² - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي، مرجع سابق، 208-209.

قوله تعالى: "كُلًّا مُدَّ هُوْلَاءِ وَهُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا" الإسراء/20.

قال: "وقد أفادت الآية أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ - بإذن الله - إلى مسببه، سواء أكان برا أو فاجرا مؤمنا أم كافرا، وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مُشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا: فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقبة بالعلوم والصنائع؛ لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها، بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب"¹.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فقد بين ابن باديس أن سبب تقدم وتأخر الأفراد والمجتمعات ليس الدين والإسلام، بل إن الأخذ أو الترك لهذه الأسباب هو المسؤول عن ذلك، فهذا النموذج وغيره الكثير من دروس التفسير كانت بابا لمعالجة مشاكل المسلمين، وتضميد جروحهم من كتاب الله وسنة نبيه، وفهم السلف الصالح وفق نسق سنني منهجي منظم.

وبما لا يدع مجالا للشك فإن الجمعية استطاعت أن تجاهد الزوايا جهادا سننيا محكما، بمحاربة أباطيلها وخرافاتها حيث " خمدت نيران أهل الزردة، وزالت عن البلاد حمى الدراويش وتخلصت منها الجماهير، بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام"².

وقد ظهرت هذه النتيجة على إثر إحداث سنة الأخذ بالأسباب؛ فقد تعاملت الجمعية مع هذه الزوايا والطرق الصوفية ابتداء، وكانوا من رجال الجمعية وعلمائها تطبيقا لمبدأ الأخوة والمشاركة والتعاون الجامع بين المسلمين، وهذا أصل من أصول الجمعية الأخلاقي، لكن سرعان ما أفصحت عن تعارضها مع المنهج الإصلاحية السنني، المعتمد في العمل الدعوي للجمعية، ما أدى بذلك إلى نزاعات وخلافات أسفرت عن " عزل هذه الطرق الوفية عن الشعب، فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الخيانة، ففقدت سلطانها على الشعب، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر، بل غدت عبئا عليها"³، فقد حاربت الجمعية هذه الطرق الصوفية والزوايا فحاصرتها، وشلت حركتها بسلاح العلم والقرآن في المدارس والمساجد أخذا بسنة الأسباب.

¹ - عبد الحميد ابن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 59.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 28.

³ - المرجع نفسه، ص 83.

وخلاصة القول فإن سنة الأخذ بالأسباب كان لها حضور قوي، في المنهج السنني الذي اتبعته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويتجلى ذلك في كونها جعلت واجب دفع بلاء الزوايا على رأس أولويات عملها الدعوي، فبنت المساجد وأعدت فتح بعضها، لتكون حصونا منيعة للإعداد المعنوي، وفيها نشأ جيل قرآني بأبعاد منظومة تعليمية قيمية متكاملة، ليصبح في الأخير درع حصانة ووقاية منيع، ضد مؤامرات الغزو الفكري الدخيل عليها، وجبرية الفكر الصوفي وعقائده القدريّة، ولتثبت الجمعية في الأخير نظرية مفادها أن السيادة والقيادة ليست رهيبة الأمان والأحلام، أو الانتماء لأمة الإسلام، بل إن مردّ ذلك كله هو الفهم والتطبيق لسنة الأخذ بالأسباب.

المطلب الثالث: نشر النوادي والجمعيات لزرع الفضائل ودرء المفاسد؛ أخذ بالأسباب:

رغم ما حقّقه المدارس والمساجد من آثار طيبة وفعالة على مستوى أفراد المجتمع الجزائري، إلا أن الجمعية لم تتوقف عن العمل بسنة الأخذ بالأسباب لبلوغ أهدافها على مستوى جميع شرائح وفئات المجتمع، فعملت على تفعيل النوادي "كوسيلة أخرى من وسائل الثالوث الحيوي، في إعداد القوة المعنوية، وإن هدفها لم يتم تحديدا على إعطاء الشبان تكوينا إسلاميا، بل تزويدهم بإطار اجتماعي يجدون فيه جوا ثقافيا وأخلاقيا مفعما بالإسلام والعروبة"¹.

ومن هذا المنطلق فقد شكّلت هذه النوادي مراكز لتوعية الشباب، وملاأ أوقات فراغهم بما ينفع من نشاطات كالرياضة، الرسم، المسرح، الموسيقى...، وتزويدهم بالثقافة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى كونها كانت سببا في بناء الشباب لروابط وعلاقات تجمعهم، في ظل مجموع المستجدات الطارئة على المستوى الديني، الاجتماعي، والسياسي للمجتمع الجزائري، فشكّلت بذلك هذه النوادي حاجزا وقائيا في حماية الشباب من الانحراف والفساد الأخلاقي.

وبهذا نستطيع القول أنّ سنة الله في الأخذ بالأسباب، قد شغلت مساحة كبيرة في العمل الدعوي للجمعية، حيث أخذت تبذل كل ما في وسعها من أسباب لحماية وكفالة فئة الشباب، -باعتبارها من أهم وأكثر الفئات حيوية وفاعلية وتأثيرا في مجتمعاتها-، تحت جناحها من هجمات المستعمر الفرنسي الشرسة، التي تستهدف إيقاعه في شباك الغواية والمحرمات، وإدمان الشهوات والمنكرات.

وإن سبب فتح النوادي لاستقطاب فئة الشباب، قد نتجت من فقه الجمعية لواقع المجتمع الجزائري، أين لاحظت غياب هذه الفئة من ساحات المدارس والمساجد، " فقد كانت طبقات الأمة ثلاث: صغار تضمهم

¹ - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر 1925-1940، مرجع سابق، ص378.

المدارس الابتدائية، وكبار تجمعهم المساجد، وشبان تحتطفهم الأزقة وأماكن الخمر والفجور، لهذا أرادت أن تقوم بواجبها الديني معهم، فلم تجدهم لا في المساجد ولا في المدارس لتبليغ دعوتهم الدينية ونشر العلم إلا في النوادي، فكان من واجبها أن تنشّط النوادي لتقوم بمهمتها التهديبية¹، وما هذا إلا ضرب من ضروب مجازاة الجمعية للسنن الجارية، فإذا ما رغبت في بلوغ نتيجة ومقصد محدّد اتخذت الأسباب المؤدية إليه، فكانت لا ترى ثغرة من الثغور إلا وجّدت لها من الأسباب ما يسد ذلك، تبذله في سبيل إحساس الفرد الجزائري بكيانه ووجوده، أمام هذا المستعمر الغاشم الذي أراد إلغاء الهوية وطمس الثقافة العربية الإسلامية بشتى الطرق والأساليب، وأخذ يطرح كبديل أفكار الحضارة الغربية وسياساتها كالفرنسة، الإدماج، التنصير...

كما لا يفوتنا أن ننوّه بجهود جمعية العلماء المسلمين في تأسيس نوادي، وتشجيع جمعيات مثل "جمعية الشباب الفتي" التي تأسست عام 1936م وهدفها إحياء الفن الموسيقي العربي، والفن التمثيلي، وكان من نشاطها التمثيلي الدعوة إلى الأخلاق العالية وكبح شهوات النفس، والتجنب للأمراض الفتاكة كالخمر والميسر والقمار والتزوج بالأجنبيات²

وفي هذا الإطار يمكن القول أنّ أهداف جمعية العلماء المسلمين من إعمال هذه السنة، وتفعيل النوادي والجمعيات، كان لتحقيق الإعداد التربوي السلوكي بدرجة أولى، على الإعداد العلمي المعرفي، أين سعت لتربية نفوس الشباب على الفضائل والمكارم والآداب الحسنة، ودرئها عن المفاصد والفواحش والأخلاق السيئة.

وفي الختام يمكن القول أنّ عمل الجمعية لم يقتصر على التعليم والتربية فقط، بل امتد ليشمل التنظيم الاجتماعي والشبابي، فقد أسست أندية ثقافية وتثقيفية للشباب، وانتشرت لها شعب في مختلف أنحاء الجزائر، هذه الأنشطة التنظيمية كانت تهدف إلى تعزيز الروابط الاجتماعية، وغرس الروح الوطنية والدينية في نفوس الشباب، وتفعيل دورهم في المجتمع، هذا النهج يعكس اعتماد الجمعية على آليات دعوية غير سياسية في ظاهرها، لكنها كانت فعّالة جدا في بناء اللحمة المجتمعية وتعبئة الطاقات، وهو مثال على الآخذ بالأسباب التنظيمية.

— كما تجدر الإشارة والتنويه قبل غلق قوس تجليات سنة الأخذ بالأسباب في تمكين العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إلى أن هذه النماذج كانت فقط من باب التمثيل وليس الحصر، لأن تتبع واستقراء هذه السنة يظهر على كافة مجالات العمل الدعوي للجمعية؛ سواء العقدي الديني، الاجتماعي الثقافي، السياسي، فلا تكاد تخطو الجمعية خطوة في طريق الدعوة والإصلاح، إلا أبصرنا سنة الأخذ بالأسباب قائمة مقام الركن

¹ - رابع تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، مرجع سابق، ص 208.

² - مازن صلاح مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1939، مرجع سابق، ص 165.

الأساس في ذلك.

ومن هذا المنطلق فليس فتح المدارس لإصلاح التعليم، وبناء المساجد لدفع بلاء الزوايا، وبناء النوادي والجمعيات لزرع الفضائل ودرء المفساد، هي الأسباب الوحيدة التي اتخذتها الجمعية كأسباب لتمكين عملها الدعوي، وخير دليل على ذلك نشاطها وعملها الإعلامي، الذي لم نكشف عنه، فقد كان أيضا مظهرا من أبرز مظاهر تجسيد هذه السنة، حيث كانت جرائد وصحف الجمعية همزة وصل بينها، وبين الشعب الجزائري في تبليغ الدعوة ونشر الفكر الإصلاحية، لكننا ارتأينا توظيف العمل الإعلامي للجمعية في سنة أخرى ضمن سلسلة سنن التمكين الحاضرة في لعملها الدعوي.

سعت الجمعية لبذل كافة الجهود في ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، وعند تنفيذ العمل الدعوي لاحظنا وجود التخطيط الدقيق للعمل الدعوي، فرغم جملة الصعاب والعقبات التي واجهتها من قبل المستعمر الفرنسي إلا أنها أخذت بجملة العوامل التي تحيط بها واستثمرتها لتحقيق الأهداف والغايات المنشودة، وخلاصة القول مما سبق يمكن القول أن:

تأكد لنا محورية سنة الأخذ بالأسباب، في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهي لم تحقق أهدافها في إصلاح التعليم من فراغ، بل كان ثمرة ومحصلة جملة من الأسباب، استعانت بها الجمعية لتجسيد هذه الأهداف، عبر كافة الوسائل والطرق، التي من شأنها تعميم هذا العلم والوعي، فشاركته عبر منابر حُطِب الوعظ والإرشاد في المساجد، وعبر صفوف المدارس والجمعيات والنوادي، وكان كل ذلك في أسلوب واعظ، يجمع بين الترغيب والترهيب، ويخاطب العقل والوجدان، خطابات تتوجه بها الجمعية إلى كل فئات المجتمع الجزائري؛ من النخبة المثقفين، أو المهنيين والتجار والفلاحين، وكذا الشباب والطلاب، الكبار والصغار، دون أن ننسى المرأة، فقد تم إشراكها في صفوف التعليم ودروس الوعظ للتفقه، وكان لكل فئة من هذه الفئات خطابا يناسب احتياجاتها، ويعالج همومها ومشاكلها، ويقترح حلولاً لها.

كما أدركت الجمعية أن دائرة التخلف والضعف الحضاري الذي لحق المجتمع الجزائري مكمناه؛ انقطاع الصلة بين الأسباب والمسببات، فالنتائج والمقدمات ليست مرتبطة تماما ببعضها البعض، ناهيك على أن إهمال سنة الأخذ بالأسباب، وبسط روح التواكل جهل بحقيقة الدين والدنيا، فالله تعالى سخر لعباده سنة الأخذ بالأسباب، وأمرهم بحسن التعامل معها، والإعداد المادي والمعنوي لتحقيقها هو سبيل النهوض من هذه العثرات، وتجاوز كافة العقبات.

أضف إلى ذلك، فإن تطبيق سنة الأخذ بالأسباب سبيل لتشكيل قوة مادية أو معنوية، وقد ظهرت للجمعية هذه القوة، من خلال تكوين طاقات بشرية، وكوادر قيادية يملأها التفكير والحس الجماعي، الذي يهتم بالآخر اهتماما كبيرا، فشكّلت بذلك قاعدة صلبة متينة لحمل الدعوة وتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فإن المسار الأمثل الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين بوضوح في عملها الدعوي، هو المسار الوسطي الذي يجمع بين السعي الجاد في الأسباب، والتوكل الصادق على الله، هذا التوازن يعني أن يبذل الإنسان أقصى جهده في الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية المشروعة، مع إيمانه الراسخ بأن النتائج بيد الله وحده، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على فهم عميق للجمعية، حيث تربط بين العمل الدنيوي والعبادة، وتجعل من السعي جزءا من التوكل، وهذا منهج يضمن عدم الوقوع في شرك المبالغة في الاعتماد على الأسباب، أو التقاعس عن العمل بحجة التوكل.

فلا مناص من القول، أنّ العمل على اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب شرعي، ولكن لا يعني ذلك دائما حصول النتيجة، لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمرا ضروريا وهو من باب استكمال سنة الأخذ بالأسباب.

وفي المقابل، فإن كل عمل أو جهد مبذول-من طرف أفراد أو جماعات-ارتبط بتسخير وتطبيق سنة الأخذ بالأسباب، إلّا وضمن هذا العمل استمراره وتوسعت مجالاته وآفاقه، وقويت فعاليته ومنجزاته، وهذا ما استوعبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال عملها الدعوي، المؤسس على فهم كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وفقه الواقع الزماني والمكاني للمجتمع الجزائري بكافة إمكاناته وتحدياته، لإعادة استنهاض الأمة الجزائرية وإخراجها من أزمتها الحضارية، بتفعيل سنة الأخذ بالأسباب.

فكانت بداية سنة الأخذ بالأسباب مواجهة العقبات والصعوبات الداخلية، العقدية والفكرية أين نمت جملة أفكار فاسدة كالطرقية، والتقليد الأعمى، ناهيك عن الأفكار الوافدة مع المحتل الفرنسي؛ كالتنصير والفرنسة والإدماج، فكانت هذه الصعوبات بحاجة إلى مواجهة متواصلة، وجهود ضخمة من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لدحضها والكشف عن حقيقة أثرها.

أضف إلى ما تقدم، فقد اتخذت الجمعية المدارس، والمساجد والنوادي منابر إعلامية، لتبليغ جملة الدروس والمواعظ والخطب، التي تجسّد واقع المجتمع الجزائري، رغم الحصار المضروب عليها في إيصال كلمة الحق، وترصد

جملة الأمراض والمفاسد التي نخرت عمود المجتمع، ومن ذلك محاربة الطرقية والصوفية المنحرفة، الدعوة للتحرر من التقليد الأعمى للآباء والأجداد، العمل على تصحيح العقيدة الإسلامية، والعودة بالدين إلى أصوله الأولى، وكان المدخل الرئيسي في ذلك محاربة الجهل والامية، بفتح مدارس ومساجد لتعليم البنين والبنات، وقد كان هذا بوابة جمعية العلماء المسلمين في مشروع العمل الدعوي والإصلاح الشامل.

وتأسيسا على ما سبق، فإن سنة الأخذ بالأسباب أكدت أن التمكين جدّ وعمل، وليس أمنية وحلم، فالنجاح الدعوي لا يتحقق بالتمني، بل بالعمل المؤسسي والعلمي، لأن التوكل على الله لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، بل إن الإعداد والتخطيط وبذل الجهد، جزء لا يتجزأ من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال/60، وإن جمعية العلماء أدركت هذه السنة مبكرا، واستخدمت وسائل ذات تأثير فعال في زمانها.

وكما أكدنا آنفا، فإن بناء المساجد وفتح مؤسسات تعليمية راسخة، شملت المدارس الحرة والمعاهد والكتاتيب، حتى بلغ عددها المئات، وإنشاء صحافة قوية شكّلت العقل الإصلاحي الجزائري، وإعداد معلمين ودعاة مؤهلين تلقوا تكوينًا علميًا ومنهجيًا، بالإضافة إلى توحيد المناهج التربوية، واعتماد رؤية تعليمية واضحة، وعمل مؤسسي تنظيمي يقوم على مركزية المكتب الوطني والفروع المحلية، كانت دعائم قوية لتجسيد سنة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، في تمكين عملها الدعوي.

وأخيرا فإن الدروس السننية الكبرى، الاستفادة من سنة الأخذ بالأسباب انطلاقا من عمل الجمعية، تتمثل في أن التمكين نتيجة حتمية لحسن التخطيط الاستراتيجي، بوضع خطط عمل واضحة، ومراحل متدرجة لتحقيق الأهداف الدعوية، وبرهنت الجمعية أن المؤسسة الدعوية أقوى من الجهد الفردي مهما بلغ، ما يستدعي بناء المؤسسات القوية في مجال التعليم والإعلام، في حاضرننا لضمان استمرارية الدعوة.

وفي الختام يمكن القول أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قدّمت نموذجا فريدا وعميقا لتطبيق سنة الأخذ بالأسباب في العمل الدعوي والإصلاحي، من خلال منهجها الوسطي الذي يجمع بين السعي لجاد والتوكل الصادق على الله تعالى، وإن هذا المنهج لا يزال مصدرا لإلهام للمسلمين في كل مكان، داعيا إلى العمل والبناء والعلم مع التوكل على خالق الأسباب والمسببات.

المبحث الثالث: تجليات سنة التغيير في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

من الحقائق الثابتة التي وقفت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العمل الدعوي، ضرورة تغيير حال المجتمع الجزائري، حيث أدركت أن هذا التغيير للواقع المعيش، حاجة وضرورة ملحة تنادي وتسعى إليها مختلف الشرائح والفئات، وهذا "يستلزم تظافر القوى الإسلامية في مسيرة واحدة، ضمن خطة واحدة، لدحر القوى الجاهلية عن موقعها، وتحقيق قوامه الإسلام على المجتمع؛ فكرا وسلوكا ونظاما"¹ ولكن ما يراد تغييره بكفاءة وفعالية عالية، لا بد أن يكون عبر منهج سديد ودقيق؛ يذلل الصعاب ويداوي الأمراض، ويعالج كافة المشكلات المستعصية، وهو ما كان ماثوثا في سنة الله الثابتة في التغيير.

ومن المناسب أن نستهل الحديث عن سنة التغيير، باعتبارها منهجا منضبطا، يحكم كافة مراحل الدورة الانجازية للفعل المراد تغييره واستبداله، ما يسهل بذلك ترشيد العمل الدعوي في تحديد المقاصد والأهداف، وتجنب التيه والضلال في انتقاء الوسائل والأساليب، وبالتالي الإحاطة والدراية بالواقع المراد تغييره وفق خطة مدروسة ونظام دقيق قائم على معرفة سنة الله في التغيير، فقها واستثمارا وتفعيلا.

وفي هذا الإطار فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدركت أن استرجاع الأمة الجزائرية قوتها ومجدها وبريق حضارتها، يوجب عليها خوض غمار سنة التغيير؛ التي كانت محركا ودافعا لأنفسهم، نحو العمل الصحيح الهادف، وفقا لمقتضيات سنن الله في التبديل والتحويل من السيئ إلى الحسن، ومن حياة الذل والقهر إلى حياة العز والتمكين، ومن التبعية الدليلة للكفرة الفرنسيين، إلى القيادة والاستقلالية تحت الراية الوطنية.

وتأسيسا على ذلك فإن المتأمل في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يدرك أنها من أبرز النماذج العملية التي جسدت هذه السنة الإلهية في واقع عملها الدعوي، كونها آمنت أن التغيير الجذري لا يكون برفع السلاح ولا بكثرة الشعارات، بل يكون من خلال الاهتمام بمقومات هذا التغيير التي حصرناها في تغيير العقيدة، وتغيير الإنسان ثم فهم واقع الأفراد والمجتمعات، تمهيدا لنهضة شاملة وتمكين لدين الإسلام، وأحكامه في المجتمع، ما يعكس بذلك وعيا عميقا بسنة الله في التغيير عند جمعية العلماء المسلمين.

وعليه يمكن القول، أنّ صناعة التغيير الاجتماعي للمجتمع الجزائري، قد تحققت بفعل الجهد الرسالي الدعوي المنظم، والممارس على مستويات مختلفة من قبل الجمعية، بهدف إحداث نقلة نوعية لحال الفرد الجزائري، تواكب التحولات والتطورات الجارية، تمهّداً لنهضة المجتمع الجزائري وإصلاحه، وفق هذا المنهج السنني القرآني

¹ - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص 76.

الأصيل.

ومما لا شك فيه فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد أحسنت فهم الوضع الاجتماعي السائد، لتحديد نقاط التغيير المطلوبة من خلال العمل الدعوي الذي ركّزوا فيه على:

– تفعيل التغيير المحوري للإنسان:

إن بناء الإنسان والاعتناء به؛ عقديا وفكريا، وخلقيا وسلوكيا شرط مهم، وركيزة أساسية لضمان فعالية الإنجاز وإحداث التغيير، فالإنسان هو الحقيقة الكبرى والدائرة الأوسع التي يجب أن يدور حولها مشروع التغيير، كما أشرنا سابقا باعتباره مقوما جوهريا في سنة التغيير لتمكين العمل الدعوي، ذلك أن "الفكر الحضاري الذي لا يواجه مشكلة الإنسان ذاته، فإنه فكر مازال يدور في دوامة الجزئيات المسكنة التي لا تغير الإنسان جذريا، لأن الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني"¹

ومن هذا المنطلق استوعبت جمعية العلماء المسلمين أن التغيير هو فعل الإنسان وإرادته، والقدرة عليه تعد واجبا، وهو سنة من السنن الإلهية التي دل عليها المنهج القرآني؛ أين تقتزن فيه إرادة الله بإرادة الإنسان في التغيير، فالنفس البشرية هي ساحة التغيير التي تتغير فيها جملة المعارف، والأفكار والمعتقدات لتوجّه الأفعال، والسلوكيات وفق مقتضى المنهج الرباني، "فالجمعية آمنت بأن الشعب الجزائري لن ينجو من الاستعمار، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذه، وبأن الاستقلال لن يتحقق عن طريق الكلمات الأدبية، أو الخطابية الحماسية، بل بتغيير نفس الفرد الجزائري، ليحمل معنى الرجل المسلم الجزائري بكل معانيها، وكان أساس هذا التغيير الإيمان العملي الصادق بأن النجاح في بناء الفرد الواحد، هو نجاح في بناء مجتمع كامل"².

أضف إلى ما تقدم، فإن مالك بن نبي أيضا؛ اعتبر تغيير النفس سبيلا ممهدا لإشراق نهضة حضارية كبرى، فقال "وإنها لشرعة السماء: غير نفسك، تغير التاريخ ! وعلى هدى هذه الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري من النفس، هادفا في جوهرة إلى تغيير الإنسان، فبعث فيه روحا وثابة، أشرقت معها بوادر النهضة الكبرى، وكان الانطلاق الرائع للضمير الشعبي فيما قبل عام 1936 في انسجامه، واطراده، وحماسه، هو ملحمة الفكرة الإصلاحية التي توجّه المؤتمر الإسلامي المنعقد في ذلك العام"³

وانطلاقا من هذا الأساس ننوّه بأن الخطاب القرآني ركّز على لفظة " النفس " بدل الإنسان في عملية التغيير

¹ – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 174.

² – مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 210-211.

³ – مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 32.

من قوله تعالى " حتى يَغَيِّرُوا ما بأنفسهم " وليس يفهم منه بحال توجه خطاب التغيير إلى جزء مخصوص، أو بعض موسوم من كَلِيَّة الإنسان، لأن القرآن الكريم إذ يخاطب الإنسان بالتغيير في "نفسه" فإنه يقصد إلى تحقيق تغيير عميق متأصل، لا يُقصر على الدعاوي والأُماني، بل يكون تغييرا نابعا من قرارة الإنسان، منبثا من عمقه، متغلغلا في صميمه، محتلجا لوعْيه ووجدانه، قارا في باطنه، وهو بذلك يعبر عن التغيير الحقيقي المطلوب ذلك الذي يؤثر في تغيير الواقع جريا على اطراد سنة التغيير، لا ما يقع من المحاولات والتجارب لتغييرات سطحية، عابرة غير مستمرة، قائمة على الجزاف والعبثية، منطلقة من التردد والارتياب والارتباك، الغير مدروسة مسبقا، ولا مخطط لها سلفا¹

وبما لا يدع مجالا للشك فإن تطبيق سنة التغيير في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين كان وفق خطة مدروسة ونتيجة السير على منهج دقيق، توطئه مرجعية الرؤية القرآنية في التغيير للإنسان، الذي يعد محور المشروع التغييرى نحو التمكين الحضاري، فقد "كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون أقرب هذه الحركات إلى النفوس، وأدخلها إلى القلوب، إذ كان أساس منهاجهم الأكمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/11.

فأصبحت هذه الآية شعار كل من ينطرح في سلك الإصلاح في مدرسة "ابن باديس" وكانت أساسا لكل تفكير، فظهرت آثارها في كل خطوة، وفي كل مقال، حتى أشرب الشعب في قلبه نزعة التغيير فأصبحت أحاديثه تتخذها شرعة ومنهاجا، فهذا يقول: لابد من تبليغ الإسلام إلى المسلمين، وذاك يعظ: فلنترك البدع الشنيعة البالية التي لطخت الدين، ولنترك هذه الأوثان، وذلك يلح: يجب أن نعمل، يجب أن نتعلم، يجب أن نجدد صلتنا بالسلف الصالح، ونحيي شعائر المجتمع الإسلامي الأول....وكان هذا صادرا عن عقيدة قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره، ليدكر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهية².

وتأسيسا على ما تقدم فقد سعت الجمعية لتحقيق تغيير مثمر فعال للإنسان، _ لكن قبل التفصيل فيها تجدر الإشارة أن الفصل السابق، والموسوم بمجالات التمكين في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيه بيان وتفصيل لأبرز مظاهر التمكين التي حققتها الجمعية في الدعوة على المستوى الديني، الاجتماعي والسياسي، وهي في معظمها تدل دلالة واضحة لتجسيد سنة التغيير في العمل الدعوي للجمعية، لكننا في هذا المقام نسعى لإبراز تفاصيل ومعالم هذه السنة، والتي كانت على مستوى عدة مجالات وميادين أبرزها كالتالي:

المطلب الأول: التغيير العقدي "الروحي" كعنصر في المشروع التغييرى للإنسان في العمل الدعوي للجمعية.

¹ - عمر قلالش، فقه السنن الإلهية واستثماراته في النهوض الحضاري للأُمم - سنة التغيير أنموذجا، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج 16، ع2، السداسي الأول، 2024، ص211.

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، 1986، ص25.

من المعلوم أن العقيدة أساس الدين وركيزته، والدعوة إلى الله تعالى تبليغ لهذا الدين ونشره، وعلى أساس هذا التلازم كانت العقيدة من أبرز المسائل المهمة التي قدّمتها جمعية العلماء المسلمين في مشروعها التغييري للإنسان ضمن عملها الدعوي، وذلك بتصحيح عقيدة الجزائريين وتنقيتها من شوائب الجهل والشرك والخرافة والبدع، فكان قانون الجمعية الأساسي يؤكد على ضرورة تصحيح العقيدة الإسلامية للإنسان وفق المرجعية الثابتة في الكتاب والسنة، كشرط لازم في انطلاق تطبيقها لسنة التغيير وسيورتها نحو تمكين العمل الدعوي، فجاء في قانونها الأساسي ما يؤكد ذلك على النحو التالي: "والعقيدة الحقّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة، فإذا عرضنا أكثر عقائد النَّاس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأَيّ سبيل نسلكه لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإن التأثير يكون قليلا، لأن النفوس قد اضطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفِطْرَ قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام، فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تُقَرِّب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات، وصَفَتْ الفِطْرُ من ذلك الشُّوب سَهْل تلقين العقيدة الصحيحة وتلقّتها الأمة بالقبول"¹

وفي السياق ذاته تتضح سنة التغيير في العقيدة من خلال تصدي جمعية العلماء المسلمين لجملة البدع والخرافات والأفكار الضالة التي تسوّفها الزوايا ورجال الطرق الصوفية المنحرفة، التي شكلت بدورها استعمارا روحيا مؤثرا وجاثما بكل جنوره على عقيدة الجزائريين، وهو ما حمل بجمعية العلماء المسلمين أن توجّه عملها الدعوي نحو "الاستعمار الروحي الذي يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب، المتغلغلون في جميع أوساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار المادي عن رضا وطواعية من أجل تجهيل الأمة لتلا تفيق بالعلم، وتفقيرها لثلا تستعين بالمال عاى التحرّر، فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير البدء بمحاربة الاستعمار الثاني لأنه أضرّ خطرا وأهون دفاعا"².

ومما لاشك فيه فإن قضية البدع والخرافات قد شاعت وانتشرت بين الأفراد، فسيطرت على العقول والقلوب، وجعلت منهم أشخاصا كسالى متواكلين، الأمر الذي جعل رجال الجمعية يسارعون إلى تغيير هذا الحال بتقرير العقيدة الصحيحة، وإبطال هذه البدع والخرافات بالأدلة والمصادر الأصلية لتثبيت العقيدة الإسلامية؛ وهي القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذا ربطهم بحياة ومنهج السلف الصالح علما وعملا، وما كانوا عليه في عهد النبوة والقرون الثلاثة الأولى لتحقيق الاتفاق والاجتماع، وزوال الاختلاف.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص86.

² - المرجع نفسه، ج1، ص69.

كما برزت سنة التغيير العقدي أيضا في العمل الدعوي للجمعية من خلال الرد على الطرق الصوفية عبر صحف ومجلات الجمعية؛ بالتعرض لخطورة بدعهم خاصة منها الغلو في الولي، واتخاذ آلهة من دون الله، كما عاب على الصوفية استغلال الناس ماديا عن طريق الولاية والكرامات، وكذا بناء القبب والقبور وزيارتها للتبرك والطواف، فكلها خرق وضرب ومحدثات في العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصولها، كما أشار إلى ذلك أبو يعلى الزواوي بقوله: "وبالجمل إن محدثات المتصوفة كثيرة فلا نرضاها ولا يرضونها، فإذا كانت عن جهل فقد بينها من قبلنا، وتبين نحن ما استطعنا فيلزم الامتنال للشرعية، وإذا كانت عن عمد وضلال فتتبرأ كما تبرأ الذين من قبلنا، وعليه نقول أين للسادة المتصوفة القول بالقطب والغوث والديوان وتصرف الأولياء الأموات؟؟؟ فليأتوا بحديث صحيح عنه ودليل من الكتاب والسنة والأثر والشرعية في القرون الثلاثة الأولى وخير القرون، ومن أين لهم الرقص والتصفيق-المكاء والتصدية".¹

كما نجد أن الجمعية سعت لتغيير هذا الحال أيضا بالنصيحة والموعظة الحسنة، وفتح باب الدعوة لإشراك رجال الطرق الصوفية، في التغيير والإصلاح والتجديد، وقد تميز "منهج علماء الجمعية بالصدق والإيمان، لكونهم علماء دين أولا، وتقديرهم لمهنتهم التغييرية، ثم إرادتهم القوية في أدائها ثانيا، فقد كان حديثهم هو الحديث عن العقيدة الإسلامية، وكانت لغتهم تنبعث من منطق الإيمان الراسخ، إلى منطق الفطرة السليمة"² التي تتأثر وتستجيب لكل شيء فطر عليه الإنسان.

وفي هذا الإطار أيضا حاربت الجمعية لتغيير واقع المجتمع الجزائري عقديا حركة التبشير المسيحي والإلحاد، والتي حلت ضيفا ثقيلا على الجزائر مع بداية الاحتلال، بقيادة رجال الدين المسيحي الفرنسي، حيث باشرت مهامها تحت وصاية المستعمر الفرنسي، فعمدت إلى الاستلاء على الأوقاف، وهدم المساجد والمدارس وتحويل بعضها إلى كنائس، لمحو الدين الإسلامي واستبداله بالمسيحية، أو جعل الجزائري شخصا ملحدا تائها دون دين أصلا، لكن الجمعية كانت لهذه الحركة بالمرصاد حيث بذلت جهودا كثيفة من خلال العمل الدعوي المنظم للحفاظ على الدين واللغة، حيث "كان لجمعية العلماء الآثار المحمودة في مقاومة الإلحاد بما يتيه رجالها من حقائق الدين، وبما يشرحه في دروسهم ومحاضراتهم من مطابقته للعقل، واتفاقه مع قضايا العلم ومسايرته للحياة

¹ - أبو يعلى الزواوي، الإسلام الصحيح، تقديم: أبو القاسم سعد الله، منشورات الخبر، الجزائر، دط، 2008، ص103.

² - مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص256.

المدنية، وبما أرشدوا إليه الآباء من رعاية الأبناء والظهور أمامهم بمظهر القدوة الصالحة في الدين والخير والفضيلة"¹ كما لا يفوتنا أن ننوّه بأبرز وسائل الجمعية لحفظ مقصد التغيير العقدي في مشروع تغيير الإنسان، أين استعانت بعدة أساليب لتحقيق ذلك من أبرزها؛ الدروس الحية التي كانت تقدّم في حُطَب ومواعظ المساجد، وأيضا الدروس العقدية الحاضرة في المدارس والنوادي الثقافية، بالإضافة إلى جملة المقالات التي نُشرت على صفحات الجرائد والصحف، أين كان لها من الأثر الواضح في تصحيح العقيدة الإسلامية للشعب الجزائري، لقول الإبراهيمي: "الحق أن هذه الآثار الجليلة كلها راجعة إلى المقالات التي نشرتها صحف الإصلاح والدروس والمحاضرات التي مازال يلقيها دعاة الإصلاح المنتشرين في القطر، ولما كان الحق بيّنا في نفسه سهل على الداعين إليه بيانه والاستدلال عليه ونقض الشبهات القائمة حوله، وإن اختلفت مراتب المدعويين في سرعة التلقّي بالقبول"²

وبما لا يدع مجالا للشك فإن الجمعية تصدّت لعقيدة جديدة اسمها "القابلية للاستعمار"، والتي جعلت من فرنسا قدرا محتوما وجب التسليم والرضا به، وهذا ما جعل مالك بن نبي يؤكد محورية النفس اتجاه القابلية للاستعمار، وما تحمله هذه النفس من ذل ورضا وقبول واستسلام؛ سبب مباشر للاستعمار ذلك أن "الاستعمار ليس من عبث السياسيين، ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها، التي تقبل ذل الاستعمار، والتي تمكّن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل المستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار، ولا يتحول كابوسه عن الشعب بكلمات أدبية أو خطابية، وإنما يتحول نفسي، يصبح معه الفرد شيئا فشيئا قادرا على القيام بوظيفته الاجتماعية، جديرا بأن تحترم كرامته، وحينئذ يرتفع عنه طابع "القابلية للاستعمار"، وبالتالي لن يقبل حكومة استعمارية تنهب ماله، وتمتص دمه، فكأنه بتغيير نفسه قد غير وضع حاكميه تلقائيا إلى الوضع الذي يرضيه"³

وجدير بالذكر أن الحديث عن التغيير في العقيدة الإنسانية كملمح من ملامح سنة التغيير عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ليس حديثا عن شعارات أو شكلية، بل كانت عبارة عن مضمون وبرنامج سني حضاري متكامل، موضوعه يتمحور حول بناء الإنسان بناءً داخليا عقائديا؛ روحيا ونفسيا، وهذا البرنامج صنع فرقا واضحا وأثرا يمكن قياسه داخل المجتمع الجزائري، أين تغيرت فيه عقيدة الفرد الجزائري، من عقيدة تلطخت

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص195.

² - المرجع نفسه، ج1، ص284.

³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص31.

بشوائب الشرك والجهل والخرافة والبدع والمنكرات، إلى عقيدة صحيحة سليمة جوهرها توحيد الله والتصديق الجازم بأركان هذه العقيدة وأصولها، وتنقية الدين بإماتة كل البدع والخرافات والأوهام الدخيلة عليه، وهو ما أسهم في إعادة بناء الشخصية الإسلامية لدى الفرد الجزائري الذي يُعد ركيزة التغيير، بتحويل عقيدته من حال خاطئة إلى حال صحيحة، تخلت عن مظاهر الشرك والبدع وظلام الجهل وذل التبعية والتقليد والانغماس في الشهوات والمحرمات، لتتحلى بمظاهر التوحيد والإيمان العميق والعبودية لله، بوعي دقيق وفكر سليم، يبعث على التزام الطاعات ومكارم الأخلاق.

وتماشيا مع ما تم ذكره فإن تغيير العقيدة الفاسدة المنحرفة، بإعادتها إلى صورتها وبريقها وجوهرها؛ بمثابة الدواء الشافي لإحداث كل تغيير فعال على المستوى الشخصي للأفراد عند جمعية العلماء المسلمين، ذلك أن الجمعية آمنت بضرورة التكوين العقائدي في بناء شخصية إسلامية متزنة، تكون قاعدة صلبة في انطلاق عملية التغيير، ومحاربة الفساد والتدهور والفتور الذي يعيشه المجتمع الجزائري بسبب فساد وتدهور العقيدة لدى الفرد الجزائري المسلم.

وبهذا الصدد يقول ابن باديس: "الذي نوجّه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق؛ فالباطن أساس الظاهر"¹، فإذا ما تحقق للفرد الاستعداد الداخلي للتغيير العقدي، أمكن تحقيق التغيير على مستويات وجوانب عديدة لإنجاح العمل الدعوي، ولهذا فقد كانت الجمعية ترسم وتخطط وتنظم لإصلاح المجتمع الجزائري وتغييره، بناء على إصلاح النواة والبذرة الأولى وهي الفرد وتغيير عقيدته، فالتغيير العقدي يشكل حجر الأساس في برنامج سنة التغيير، لأنه المحرك لإحداث التغيير الفكري الثقافي أولا، والتغيير السلوكي العملي ثانيا.

إن سنة التغيير عملية متكاملة الأطراف سعت جمعية العلماء المسلمين لتحقيقها في العمل الدعوي، لتأسيس مجتمع فاضل تحكمه مبادئ الإسلام وقيمه الفاضلة، "ونحن نكون بسطاء جدا لو ظننا يوما ما أن الاستعمار عندما يُعدّ حقائبه ويرحل عن بلد يستعمره، يترك المكان وراءه وبكل بساطة نقيًا سليما...ولكنه على الدوام ودون استثناء، يترك وراءه الطابور الخامس، طابور خدامه القدامى، وهنا تبدأ وتستعاد مأساة البلاد التي غادرها الاستعمار ظاهريا، ذلك أن بقايا العهد الاستعماري لا تبقى مجرد (كومة) يحوها مرور الوقت ويفتتها شيئا فشيئا، إن هذه (الكومة) المتروكة في المكان المغادر ستعود إليه لتصبح بسرعة (كلا منظما)، وذلك بتأثير إرادة منظّمة لا تضيق أبدا وجهتها. وهي ستصبح ثانية أخطبوطا متعدد الأرجل، يملك أرجلا محلية، ورأسا مفكرا

¹ - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، ج1، ص339.

في الخارج، ولابد عندئذ من ثورة ثقافية تفصل أرجله الرخوة عن رأسه المتين الذي يفكر¹.

وتأسيسا على ما سبق نخلص إلى جملة تجليات سنة التغيير العقدي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جعلته فاتحة عملها الدعوي نحو التغيير، والتي تتمثل في:

تغيير العقيدة الفاسدة بتنقيتها وتصحيحها، وتصفية الدين من كل شوائب الشرك، والجهل والبدع والخرافة، لإقرار التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والدعوة إلى فهم الدين من أصوله الثابتة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وفهم السلف الصالح.

تغيير نظرة الجزائريين للزوايا والطرق الصوفية المنحرفة، بكشف بدعها وشركياتها كالتوسل بالأضرحة، وتعظيم الأولياء وتقديسهم، وكذا النذر والذبح لهم، والخوف والحلف والاستعانة بغير الله تعالى، ودحض شبهات وأفكار الغلو والتطرف، والتعصب والتقليد الأعمى بالدليل الشرعي والعقلي.

تغيير اتجاه المقتنعين بالدين المسيحي، المعجبين والمفتونين بإغراءات حركة التبشير إلى الوجهة الصحيحة، من خلال الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى، لامتنال قيم الدين الإسلامي ومبادئه العليا.

ولقد أكد تجلي مظاهر سنة التغيير في المجال العقدي الإبراهيمي بقوله: "أصبح المنتسبون إلى الإصلاح ولو من العامة يخلصون في عباداتهم وإيمانهم ونذورهم وأدعيتهم، ونبذوا كل ما كانوا عليه من عقد فاسد أو قول مُفترى، أو عمل مُبتدع في هذه الأبواب كلها، وأصبحوا يفرّقون بين السنّة والبدعة، والمشروع وغير المشروع، ويعتقدون أن الإنسان مجزيٌّ بعمله رهينٌ بكسبه، وليست هذه النتيجة بالأمر اليسير"²

المطلب الثاني: التغيير الفكري "الثقافي" كعنصر في المشروع التغييري للإنسان، في للعمل الدعوي للجمعية.

يمكن القول أن مشروع التغيير الفكري عند جمعية العلماء المسلمين كان من أنجح مشاريعها، في تحقيق تغيير واضح للفرد الجزائري، من خلال الجهود المبذولة لتربية وتعليم الجزائريين صغارا وكبارا، كونها تأسست لهذا الهدف فهي جمعية تعليمية تربية، تسعى لنشر العلم ومحاربة الجهل والأمية لما لها من آثار سلبية على المستوى الفكري للأمة، "فأكبر جناية تجنيها الأمية على الأمم هي القضاء على التفكير... والتفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمة سموا وإسفافا، ومحال أن يسمو تفكير الأمي لأن فكره في قفص من أميته"³

1 - مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، ط4، 2005، ص56-57.

2 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص284.

3 - المرجع نفسه، ص202.

وتماشيا مع ما تم ذكره يتضح بجلاء الفهم العميق للجمعية وإدراكها لضرورة البناء الفكري الثقافي السليم، في برنامج البناء والتغيير للإنسان، وتحقيق الإصلاح والتجديد وبلوغ التمكين الحضاري، ذلك أن "نجاح عملية التجديد الحضاري للأمة والإنسانية، مرتبط بصفة جذرية بالتحول النوعي العميق في المنظومة الثقافية للإنسان المسلم بصفة خاصة، والإنسان المعاصر عامة، على طريق الوعي السنني المتكامل... فمضغة الانطلاق المحورية في عملية البناء والتغيير الحضاري، هي العالم الثقافي المسؤول عن منح الفرد الوعي العقدي والتسخيري والاستخلافي عبر وسائط، والمنهج والسنن التي تمنح فعالية الأداء الحضاري... وعليه فإن أي إهمال أو تهميش أو تجاوز للبعد الثقافي في تحليل وتفسير ومواجهة ضعف وقصور الأداء الحضاري للأمة يعتبر انحراف عن مركز ثقل العملية التغييرية الحقيقي"¹

فلا مناص من القول، أن الجمعية لعبت دورا بارزا في التغيير الفكري للإنسان الجزائري، من خلال سعيها لنشر العلم ومحاربة سياسة التجهيل والأمية المنتشرة، بتأسيس وبناء المدارس المختلفة لكل الفئات، وقبلها "اتبه ابن باديس للتعليم في المساجد والكتاتيب لتوفرها أولا، ولرسوخ إيمانه بأن المسجد في الإسلام لا يقتزن بالصلاة لوحدها، بل هو مكان للعلم والتعليم، وبناء المسلم وتكوينه وتحويله، من الجاهلية إلى الحضارة في المسجد، ناهيك عنه ﷺ الذي اتخذ من بيت الله مسجدا للعبادة والصلاة، ومدرسة ومعهدا وجامعة تخرج منها؛ الأئمة والقضاة والقادة والدعاة من جيل الصحابة الكرام"².

فهذا يؤكد لنا محورية سنة التغيير الفكري عند الجمعية، منذ البدايات الأولى من خلال اهتمامها بالمساجد، التي تحولت إلى مراكز إشعاع فكري، تحولت من كونها مكان صلاة وعبادة، وإلقاء خطب ومواعظ ودروس، لتصبح أيضا بوابة ومنارة للتعليم والتعليم القرآني، زوادها فئات المجتمع الجزائري كافة رجالا ونساء، كبارا وصغارا، كما امتد نشاط الجمعية ومشروعها التغييري في جانبه الفكري إلى خارج الوطن نحو جالية المهاجرين الجزائريين بفرنسا، حيث أسست لهم المدارس والنوادي وبعثت المرشدين والمعلمين لتعليم أبنائهم، إدراكا منها لأهمية التعليم الديني في سبيل مقاومة التغريب.

أما المرحلة الثانية لتحقيق هذا التغيير الثقافي، فنجد أن الجمعية ركزت على التعليم في المدارس العربية الإسلامية الحرة، لإعداد جيل جديد متشبع بقيم الإسلام ومثله العليا، و متمكن من اللغة العربية وقواعدها، وهو ما يجسد بذلك مظهر التغيير الفكري لثقافة الفرد الجزائري، فقد "جاء الدور الثاني لجمعية العلماء، وهو دور التربية

¹ - الطيب برغوث، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية- تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي"، دار قرطبة، ط1، 2004، ص 15-18.

² - مفيدة بلهامل، وسائل الإتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 224-225.

الإسلامية والتعليم العربي الابتدائي الحر، المعتمد على المبادئ العربية وآدابها، ومبادئ التاريخ الإسلامي والتربية الإسلامية الصالحة... فللجمعية الآن بل للأمة الجزائرية أكثر من مائة وخمسين مدرسة ابتدائية حرة رغم الاستعمار الفرنسي، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ من أبناء الأمة الجزائرية، بنين وبنات يدرسون مبادئ لغتهم وآدابهم وأصول دينهم وتاريخ قومه"¹

وبالتالي فالمدارس كانت موطن اكتساب العلم، والعلم سبيل بناء الأفكار وتغييرها وطريق نحو تحرير العقول والأوطان. لقول الإبراهيمي: "مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جلية فالمبدأ هو العلم، والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسراً، حتى إذا تم منه شيء اليوم، ضاع غداً لأنه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من أول يوم نشأتها بتحرير العقول والأرواح، تمهيدا للتحرير النهائي"²

كما لا يفوتنا أن ننوه بدور الجمعية في فتح النوادي، واتخاذها كوسيلة للتعليم والتهديب وإلقاء المحاضرات والدروس، بالإضافة إلى المدارس والمساجد، وذلك لزيادة نشر الوعي الفكري، وإحداث التغيير الثقافي للجزائريين، فكانت النوادي بذلك وسيلة لتوعية الشباب والمسلمين وتنقيفهم، بتبادل الأفكار ومناقشة المستجدات وتقييمها، ومنبرا توجه منه الجمعية رسائل الإصلاح والتجديد والتغيير، ولهذا الغرض تم إنشاء عدة نوادي وعلى رأسها نادي الترقى.

ولعله من المفيد التنويه إلى اهتمام الجمعية بفئتين أساسيتين من المجتمع، في تجسيد مشروع التغيير الفكري الثقافي للفرد الجزائري هما: "الشباب والمرأة" وذلك لما لهما من فعالية وقوة تأثير في بناء المجتمع، فالشباب الجزائري في نظر الجمعية قوة وطاقمة معطلة، وجب إحيائها وبعثها من جديد، بواسطة الدورات العلمية لتحصيل العلم النافع، وإشراكه في النوادي الثقافية، الرياضية والكشافية، كما غيرت الجمعية نظرة الناس للمرأة؛ بكسر كل القيود السابقة في سبيل إخراجها من سجن الجهل والأمية إلى نور العلم والمعرفة، فشاركت الرجل الحق في التعلم، وخصّصت الجمعية للنساء حلقة مجانية لطلب العلم، تشجيعاً وإدراكاً لحيوية هذا التعليم وأثره على الفرد والأسرة والمجتمع، فهي نصف المجتمع والمسؤولة عن تخريج النصف الآخر، من خلال مسؤوليتها الاجتماعية في التنشئة الأسرية للأبناء، لقول الإبراهيمي: "المرأة المسلمة يجب أن تتعلم وأن تتهذب... وإلزامية تعليمها يعود إلى أن

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1971، ص29.

² - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4، ص343-344.

الإسلام جعلها مغرسا للنسل، وغارسة للخصائص فيه ومتعهدة له بالسقي، وكل هذا لا يتم إلا بالعلم، وإذا كانت تربية النحل والدود تفتقر إلى العلم، فكيف لا تفتقر إليه تربية الإنسان؟ فإذا جهلت المرأة أتعبت الزوج وأفسدت الأولاد وأهلكت الأمة"¹

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الدور المحوري للوعي السنني الوقائي، في مجال التغيير الفكري، حيث أنه "إذا لم تتم الحماية للمحتوى الفكري والثقافي للتغيير، والمحافظة على منجزاته الثقافية والاجتماعية والحضارية المحققة، ولم يتوفر له شرط الاستمرارية التاريخية، فإنه يكون تغييرا فاشلا لا محالة، ولهذا يعد هذا المدخل من أهم وأخطر مداخل عملية التغيير والإصلاح والتجديد الذاتي أو الاجتماعي والحضاري، وأي منظور كوني أو رؤية كونية في فلسفة التاريخ والحضارة، لا تستوعب هذا البعد المحوري في حركة التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري، فإنها تكون رؤية غير سننية منقوصة"²، وهذا ما تحقق في العمل الدعوي للجمعية حيث توحدت الجهود تحت مظلة واحدة، ما أسهم في مضاعفة تأثيرهم وحمى جهودهم من التشتت والزوال.

وتأسيسا على ما سبق نخلص إلى جملة تجليات سنة التغيير الفكري "الثقافي" عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جعلته من أولويات مهامها في العمل الدعوي نحو التغيير، والتي تتمثل في:

-أدركت الجمعية أن التغيير الفكري يحتاج إلى علم وعمل، فبادرت إلى إنشاء المدارس الحرة لنشر العلم الشرعي وتعليم اللغة العربية، لتكون حصنا منيعا في وجه سياسة التجهيل والأمية المنتشرة، كما ضمت هذه المدارس فئات المجتمع الجزائري المختلفة، كبارا وصغارا رجالا ونساء، فكان التعليم عند الجمعية محركا رئيسيا للتغيير الفكري، حوّل الأفكار الإصلاحية إلى ثورة ثقافية غيّرت وعي ومسار المجتمع الجزائري.

-التغيير الفكري عند جمعية العلماء المسلمين كان مستندا إلى المنهج الإسلامي الوسطي، ويتميز هذا التغيير بالتوازن بين الحفاظ على الثوابت الإسلامية ومواكبة مستجدات العصر، فصنعت الجمعية بذلك جسرا بين تدريس العلوم العصرية مع الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية.

-التغيير الفكري للفرد الجزائري كان منتشرا حتى في المساجد والنوادي، التي كانت محطات لطلب العلم النافع، وكان للشباب أولوية ورعاية خاصة في مشروعها التغييري الإصلاحي، لأنه الأمل في صناعة مستقبل مشرق، شباب واع متعلم ومتدين، قادر على مواجهة الغزو الثقافي لأفكار المستعمر الغاشم، كالتجنيس والإدماج، وكان للمرأة أيضا حظ وافر من الاهتمام، فتم إشراكها في التعلم بإنشاء مدارس خاصة للبنات، خلافا لما كان

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4، ص50.

² - الطيب برغوث، التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن، برج الكيفان، الجزائر، دار النعمان، ط1، 2017، ص83.

عليه وضع المرأة وحالها سابقا.

-وفي الختام يمكن القول أنّ الجمعية استطاعت أن تحقّق تغييرا فكريا ثقافيا للأمة الجزائرية، من خلال التعليم الذي استخدمته فرنسا كأداة استعمارية، فحوّلتها الجمعية إلى سلاح تحرير؛ تحررت فيه العقول من الخرافة، وبه تشكّل الوعي بالهوية العربية الإسلامية، فوُلد جيل جديد من المقاومين المثقفين.

المطلب الثالث: التغيير السلوكي "العملي" كعنصر في المشروع التغييري للإنسان في العمل الدعوي للجمعية:

تناولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مجال التغيير السلوكي، بوصفه محورا أساسيا في مشروعها الإصلاحي، انطلاقاً من قناعة راسخة بأن "أفعال الإنسان وتصرفاته تمثل القوة المحركة الفعلية لتحولات المجتمعات وتغير الحضارات، وقد انبنى منظور الجمعية على أن سلوكيات الأفراد وأخلاقهم ليست كيانات جامدة بلا تأثير، بل هي أدوات فاعلة في إعادة تشكيل الواقع الاجتماعي، تبعاً لطبيعتها الخيرة أو الضارة، فهي التي تقود دفعة التطور الإنساني في إطار ما منحه الله للإنسان من إرادة وطاقة وقدرة على الاختيار، مما يجعلها العامل الحاسم في تحديد مسار الأمم ومصائرهم"¹.

وهو التغيير في حقيقته يمثّل ثمرة التغيّرين السابقين وأثرا ناتجا لهما؛ التغيير "العقدي" و "الفكري"، بمعنى أن تصحيح العقيدة ومحاربة البدع والخرافات، وإحياء دور العلم والتعليم، يولّد نتائج سلوكية محمودة عند الإنسان، وهذا ما ينعكس إيجابا على المجتمع، ذلك أن استقامة السلوك أو انحرافه له ارتباط وثيق بصلاح المجتمع أو فساده، فكلما شاعت الفضيلة وسادت القيم والآداب كلما اهتدى أفراد المجتمع واستقامت سلوكياتهم، وكلما سادت الرذيلة والمنكرات غاب نظام المجتمع وانعدم الأمن والاستقرار فيه.

من المناسب أن نستهل الحديث عن التغيير السلوكي الذي حقّقته الجمعية من خلال إحياء الأخلاق والفضيلة بين أفراد المجتمع الجزائري، فركزت جهودها على غرس السلوكيات القويمة والأخلاق الفاضلة، نظير ما يعانيه المجتمع من فساد وتميّع واخلال خلقي، كرّسه المستعمر وعمل على ترسيخه واستمراره، فغيّرت الجمعية من خلال عملها الدعوي جملة هذه السلوكيات السلبية، وحلت محلها جملة الفضائل والقيم والأخلاق الفردية والجماعية، فجعلت من الصدق والأمانة مفتاح التعامل بين الناس في القول والعمل، ومن العفة والحياء أساسا لغض البصر وحفظ الأعراض ومحاربة الفواحش، ودعت إلى التعاون والتضامن والتكافل بين الأفراد؛ بالتشجيع

¹ - محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص143.

على إيتاء الزكاة والترغيب في إخراج الصدقات ومساعدة الفقراء والمساكين لبناء مجتمع متكافل يجسد معنى التضحية في سبيل الصالح العام.

وزيادة على ذلك شجعت الجمعية على قيمة وخلق الصبر والثبات، لمواجهة المحن والاستعمار الغاصب، ورغبت في ضرورة العدل بين الأبناء ذكورا وإناث، - ما فسخ المجال لتعليم المرأة- كما عززت الجمعية لتغيير سلوك الإنسان أخلاق العمل والإنتاج بدل الكسل والتسول والخمول، فحثت الشباب على تعلم الحِرَفِ والمِهَن، والإقبال على الزراعة والصناعة والاعتماد على النفس بدل الخضوع لذلّ المستعمر وجبروته.

وقد أكّد هذا التغيير الإبراهيمي بقوله: " وإذا رجعنا إلى الأخلاق أيها الإخوان، وجدنا نجاح الجمعية ظاهرا في جمهرة من الأخلاق الفاضلة غرستها في نفوس الأمة الجزائرية، فجمعية العلماء هي التي علمت الأمة خلق التضحية في الصالح العام، وخلق الصبر عليه ومطاولته وخلق القصد في الاعتقاد والتفكير، وخلق الاعتماد على النفس، وخلق الصراحة في القول والجرأة في الرأي والكلام إلى ما يتصل بهذه الأخلاق من فروع ولوازم"¹، وبالتالي فقد أحدثت الجمعية تغييرا سلوكيا جذريا على الفرد الجزائري؛ عبر تحويل هذه الفضائل من فضائل فردية، إلى مشروع ونظام أخلاقي مجتمعي سائد، فكانت هذه الأخلاق كالمُدافع في وجه المستعمر الغاشم.

وبناء على ما سبق فإنّ انتشار الأخلاق والفضائل، كان بمثابة سلاح لمقاومة الانحطاط، ومظاهر الانحراف وفساد الأخلاق التي زرعها المستعمر الفرنسي (كنشر الحانات، القمار، الرشوة...)

أثمرت جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تحقيق التغيير السلوكي على مستوى أفراد الشعب الجزائري، حيث خرّجت جيلا مستقيما ملتزما بقيم الإسلام وأخلاقه ومبادئه الفاضلة، جيلا سطعت عليه آثار التربية الإسلامية الصحيحة بوضوح، جيلا ارتسمت فيه خطة الإبراهيمي مع ابن باديس في تربية النشء، حيث تتمحور هذه الخطة على التغيير السلوكي العملي أكثر من التغيير الفكري الثقافي، وذلك " بأن لا تتوسع للفرد في العلم، وإنما نربيّه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعدناه من تلامذتنا"².

وبالتالي فالجمعية ركزت على التربية كأساس في بناء الإنسان الرسالي، الذي يصلح كي يُصلح، ويتغير لكي يُغيّر، ذلك أن " التربية تعدّ الركيزة الاجتماعية الأساسية في تشكيل الإنسان، وتأهيله لخوض مسارات الحياة المختلفة، من خلال تهيئته بجملة من الشروط الموضوعية، التي تمكّنه من الارتقاء والتحصّر، والقدرة على التأثير في

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1، ص286.

² - المرجع نفسه، ج5، ص280.

محيطه وزمانه. وهي عملية شمولية تستوعب مختلف أبعاد الكيان الإنساني؛ العقلية والنفسية والجسدية والاجتماعية، في تكامل متوازن يرقى بالفرد إلى مستوى التمكين الحضاري، ومن ثم تُفضي العملية التربوية إلى إكساب الإنسان طاقة تسخيرية عالية تتمثل في قوة الفكرة، وصلابة الإرادة، وامتلاك أدوات الفعل الحضاري، وتنمية القدرات المكتسبة، فضلاً عن تمكينه من التكيف الاجتماعي الفعّال والسلس¹.

كما لا يفوتنا أن ننوّه بالتغيير السلوكي الذي أحدثته الجمعية من خلال تمهيد الطريق للثورة، فعلى الرغم من كونها ليست مفجرة الثورة عسكرياً، إلا أنها أنجزت المهمة الأصعب؛ بإيقاظ وعي الشعب الجزائري لرفض الاستعمار، وكشف زيف شعاراته وفضح جرائمه وسياساته، كما غيّرت الإنسان البسيط لإنسان ثوري واعٍ، عبر التعليم في المدارس، أين تحرّرت العقول من التبعية الفكرية للاستعمار، وصنعت قاعدة شعبية تؤمن بالاستقلال، وخير دليل على ذلك شعار الجمعية القائل: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا".

أضف إلى ما تقدم، فإن حُطِب رجال الجمعية التي كانت تُلقى عبر أقطار الوطن، كانت مصدر تكوين وتوعية للرأي العام الجزائري، " فقد كانت منها الخطبة الدينية كوسيلة للتعبئة الروحية، والخطبة الرسمية كوسيلة لتأهيل الكفاءات وتدريبها، بينما ساهمت الخطبة السياسية في توعية العامة بقضاياهم، وتاريخهم وأجنادهم وتحليل قضايا ومناقشتها"²، ومن نماذج هذا النوع الأخير من الخطب، خطابات ابن باديس مثلاً التي كانت توقظ الأمة، للمطالبة بحقوقها في الاستقلال، كما تحوّل مفهوم الجهاد، من مفهوم مجرّد إلى فريضة وطنية ضد الاستعمار، لقوله: "قلّب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السجل الأمين هل تجد أمة غلبت على أمرها أو نُكبت بالاحتلال ورُزئت في الاستقلال ثم نائل حريتها منحة من الغاصب وتنازلاً من المستبد ومنّة من المستعبد، اللهم كلا ! فما عهدنا الحرية تُعطى وإّما عهدنا الحرية تُؤخذ، وما عهدنا الاستقلال يُمنح ويوهب إنّما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة والتضحية، وما رأينا التاريخ يُسجّل بين دفتي حوادثه خيبة للمجاهد، إنّما رأيناه يسجّل خيبة للمستعبد"³، وبالتالي فقد كانت كلمات الجمعية نداءً صريحاً للحرية ودعوة لتحقيق الاستقلال وتغيير ظروف وواقع المجتمع الجزائري.

وفي ختام بيان تجليات التغيير السلوكي العملي في المشروع التغييري للإنسان عند جمعية العلماء المسلمين أردنا الوقوف على "الصحافة" كوسيلة من أهم وأبرز الوسائل الحاضرة وبقوة في العمل الدعوي للجمعية، فقد

¹ - الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار النعمان، المحمدية، الجزائر، دط، 2019، ص 279-280.

² - مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 362.

³ - الشهاب، ج 3، م 12، جوان 1936، ص 168.

ساهمت في نشر أفكارها وبيان أهدافها ودافعت عن حقوق شعبها، فكانت وعاءً لحمل أفكار الجمعية الوطنية والإصلاحية والثورية، ومنبرا لرصد الواقع الجزائري، لاطلاع الناس عليه وإيقاظهم من غفلتهم، وتنبيههم لخطر العدو المستعمر، في محاولة لحل ومعالجة القضايا الهامة

لعبت صحافة جمعية العلماء المسلمين دورا هاما في تحقيق التغيير السلوكي العملي، فشكّلت بذلك ثورة على القلوب والعقول، لأنها لم تكن مجرد ناقل للأخبار، بل محرّكا عمليا للأفكار، "المنتبع لمشاريع جمعية العلماء منذ التمهيد لإنشائها، والمنتبع لصحافتها وعناوين مقالاتها، وفريق تحرير كل صحيفة منها، ثم مضامين ومبادئ مواضيعها، تشهد بالإجماع أن رجالها التزموا فكرا وعقيدة، ثم نشاطا وسلوكا يوميا، السير ضمن خطة محكمة المرجعية، واضحة المنهج، مرنة التعامل مع الخصوم والأعداء، صريحة الأهداف، التي تتمحور حول مقاومة الاحتلال الفرنسي، والقضاء عليه لاستعادة حرية الشعب الجزائري"¹.

ومثال ذلك دعوة هذه الصحف أفراد المجتمع، لاعتناق الإيمان العملي في كل العبادات، والمعاملات والأخلاق، زد على ذلك فقد كانت سلاحا نفسيا؛ كسر غُزلة الشعب عن أفكار التحرر والاستقلال، وكان لهذه الصحف دور في خلق وعي جماعي موحد، بين طبقات المجتمع المختلفة، وذلك لسهولة انتشارها ودخولها إلى كل البيوت، فكانت بمثابة مدارس متنقلة لدعوة الناس وتوجيه الرأي العام، من خلال مجموع المقالات الدينية، الثقافية، الاجتماعية والسياسية الهادفة، والتي تفضح أعمال ومنكرات رجال الطريقة المنحرفة، وتندّد بالوجود الاستعماري، وتفضح سياسات التذويب، وتدافع عن اللغة العربية والإسلام كأساس للهوية الوطنية، ولعل جرائد: المنتقد، الشهاب، البصائر... من أبرز جرائد الجمعية وصحفتها التي ساهمت في نشر رسالتها الدعوية في الإصلاح والبناء الحضاري.

وأخيرا يمكن القول، أن الصحافة لعبت دورا محوريا؛ في تحويل أفكار جمعية العلماء المسلمين إلى حركة إصلاح ومشروع تغيير شامل، من خلال التماسك الاجتماعي الذي وحد الصفوف ضد السياسة الفرنسية "فرّق تسد"، وفي مجال التعبئة الاقتصادية حيث نجحت حملات التبرع لبناء المدارس والمساجد، وكان لها أثر بارز في المقاومة السياسية؛ بإفشال مشروع "إدماج الجزائر بفرنسا"، وبالإضافة إلى ذلك نشرت الثقافة الجهادية عبر صحفتها؛ بتحويل الجهاد من مفهوم فردي مجرّد، إلى مشروع تحرير وطني.

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سعت لتغيير الإنسان الجزائري سلوكيا من خلال نشر القيم والأخلاق الفاضلة، كالصدق، الصبر، الكرامة، التضحية، التعاون، الأخوة الإيمانية،

¹ - مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 496.

التي كان بمثابة سلاح لمقاومة الانحطاط، ومظاهر الانحراف وفساد الأخلاق التي زرعها المستعمر الفرنسي كنشر الحانات، القمار، الرشوة... وهذا ما أسهم في صناعة إنسان جديد يرفض الظلم بسلوكه قبل سلاحه.

وهو مشروع شامل لتحرير العقل والروح والوطن، بالاستناد إلى فهم سنني عميق بآيات الله القرآنية، يجمع بين الأصالة ومواجهة تحديات العصر والاستعمار الغاصب.

وختاماً نخلص إلى جملة تجليات سنة التغيير السلوكي "العملي" عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أين حولت الجمعية أفكارها العقدية الثقافية إلى سلوكيات وأعمال ملموسة، من خلال عملها الدعوي نحو التغيير، والتي تتمثل في:

التغيير السلوكي للإنسان الجزائري في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين، كان من خلال نشر القيم والأخلاق الفاضلة، كالصدق، الصبر، الكرامة، التضحية، التعاون، الأخوة الإيمانية فكانت بمثابة سلاح لمقاومة الانحطاط، ومظاهر الانحراف وفساد الأخلاق التي زرعها المستعمر الفرنسي (كنشر الحانات، القمار، الرشوة...) وهذا ما أسهم في صناعة إنسان جديد يرفض الظلم بسلوكه قبل سلاحه.

التغيير السلوكي العملي للجمعية برز أيضا من خلال كونها ليست مجرد جمعية دعوية، بل كانت مؤسسة عملية لبناء الإنسان والمجتمع، وإعداد الأجيال لتغيير التاريخ، وهو ما تحقق باندلاع ثورة التحرير التي رأى قادتها أنهم يطبقون ما تعلموه في مدارس ابن باديس، فقد تحولت الجمعية من حركة إصلاحية دعوية إلى قوة ثورية فاعلة، مع الحفاظ على ثوابتها الفكرية، فالإيمان الذي زرعه في المدارس تحول إلى وقود للثورة، والأخلاق التي دعت إليها كالكرم والتوكل والشجاعة تجسدت في تضحيات شعبية، عكست الوعي السنني لسنة التغيير التي تحققت عمليا بسقوط الاستعمار، وكان هذا التحرر مستندا لعوامل استعادة الأمة قوتها من علم، ووحدة، جهاد.

التغيير السلوكي العملي لصحف وجرائد الجمعية، فقد كانت محركا عمليا حول الأفكار إلى مشاريع ميدانية، كالمدراس، النوادي، المؤتمرات، فالصحافة كانت سلاحا استراتيجيا هاما للجمعية، وتجسد من خلالها التغيير السلوكي لارتبطها ببرنامج عملي على مستوى المدارس، المساجد، النوادي، كما أنها تبنت لغة شعبية جعلت من القارئ شريكا لا مجرد قارئ متلقي، تطرح قضايا واقعه وانشغالاته وتطلعاته، وتسعى لحل مشاكله بشتى الأساليب والطرق.

والعصارة التي يمكن استخلاصها من تجليات سنة التغيير في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي:

-أنّ سنة التغيير عند جمعية العلماء المسلمين لم تكن مجرد تراكمات، لجهود في ميدان الوعظ والإرشاد، والنصح والإصلاح العقدي والفكري والسلوكي، بل كانت محصّلة فعل منهجي شمولي، وخطة متكاملة الوسائل والأسباب لتحقيق الغايات والأهداف المنشودة في المشروع التغيير، على مستوى الفرد والمجتمع، وذلك إدراكا منها أنّه "بقدر عجز المجتمع عن إحداث تجديد أصيل ومستمرّ في نظامه الثقافي - بمكوناته العقدية والفكرية والسلوكية - تتراجع قدرته على الرقيّ بوعيه وأدائه الحضاري، ويفقد التطابق مع سنن الله في الآفاق والأنفس، ومع مطالب الهداية والتأييد. يؤدي هذا العجز إلى معاناة المجتمع من الجمود والتكرارية والقصور عن الابتكار، وينتج عنه ضмор حيويته الاجتهادية والإبداعية، ومن ثمّ عدم قدرته على ملاحقة متطلبات الحراك الاجتماعي والحضاري المتسارع"¹.

ما يعكس بذلك رؤية جمعية العلماء المسلمين العملية والتطبيقية لحقائق القرآن وآياته، ومنهجها في بناء الأفراد والجماعات وفق قراءة سننية أساسها تفعيل سنة التغيير الحضاري، التي تهدف لتحويل وتحويل بيئة الفرد الجزائري من بيئة متخلّفة إلى بيئة حضارية متقدمة، يكون قائدا لها.

ولابد من التأكيد على أن تطبيق الجمعية لسنة التغيير كان تطبيقا عمليا واقعيا، لا يميل إلى المثالية لأنها حرصت على دراسة واستيعاب حالة وواقع حياة الفرد والمجتمع الجزائري، وسعت لفهم وتلبية احتياجاتهم ومطالبهم رغم تفاوت المدارك والمستويات العلمية لفئات الشعب الجزائري، فقد حاول ابن باديس "الاستفادة من كل فئات المجتمع، بما يخدم أهدافه، فكان يحاور المثقفين بالفرنسية ويستميلهم، ويسير إلى زوايا الطرق الصوفية ويناقش مشايخها، ويأخذ منهم التأييد المادي والمعنوي لدعوته، ويهادر الإدارة الاستعمارية، ويبيد التزامه بالقوانين المعمول بها، خاصة في المراحل الأولى للدعوة، ويجتهد في إعطاء حركته طابعا محليا واضحا قدر الاستطاعة، ليتجنب المضايقة.... وهذا لبيان مدى أهمية وضرورة الواقعية الحركية المنضبطة في تدعيم منجزات العمل الدعوي التجديدي"².

زد على ذلك فإن سنة التغيير برزت عند الجمعية من خلال دعوتها إلى تفعيل التغيير المحوري للإنسان، فكانت أولى محطات تغيير الإنسان "عقيدته" التي تعد لبّ التغيير وأساسه وجوهره، ثم تغيير "فكره" ليتغيّر بذلك في "سلوكه"، إدراكا منها أن الإنسان هو لبّ وأساس كل تغيير، وهو المدخل لتغيير المجتمع وإصلاحه، على عكس ما كان يراه بعض دعاة التغيير والإصلاح، بولوج عالم السياسة والمجالس النيابية تحت جناح الحماية الاستعمارية، كفيل لحفظ كرامة الشعب الجزائري، واسترجاع حقوقه المسلوبة.

¹ - الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، مرجع سابق، ص 150-151.

² - الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مرجع سابق، ص 275-276.

ونقطة أخرى نود الإشارة إليها، في معرض الكلام عن تجليات سنة التغيير في العمل الدعوي للجمعية، وهي الاستمرارية، فعلى الرغم من جملة العقبات والتحديات التي كانت تواجهها من قبل المستعمر الفرنسي الذي سعى لإفشال كل محاولة تغيير تقوم بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سواء كانت فردية أو جماعية، إلا أنها بقيت مستمرة مواصلة، تحمل راية التغيير عالية باستمرار لبناء الفرد والمجتمع الجزائري.

وتأسيسا على ذلك فقد أدركت الجمعية أنّ "التغييرات الثقافية والاجتماعية والحضارية الكبرى في التاريخ الإنساني، لا تصنعها السلوكات والأفعال المتقطعة والمنقطعة، بل هي باستمرار وليدة جهد منهجي بنائي مركز، تراكمي تكاملي مستمر أو متواصل، ولو كان قليلا، لأن القليل المركز المتواصل إلى القليل المركز المتواصل، يعطي الكثير المركز المؤثر في البناء الفكري والنفسي والروحي والسلوكي والاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة، مع مرور الوقت"¹، هذا ما جعل الجمعية تسعى باستمرار في بذل مجهوداتها، لتغيير الإنسان أولا ليكون مصدر إشعاع لتغيير جماعته، فكلما كان الفرد إيجابيا نحو فعل التغيير، كلما كان ذلك دافعا فعّالا لاقتداء الجماعة به.

كان جوهر التغيير العقدي إحياء الإسلام الصحيح والعودة بالدين إلى منابعه الأولى، لإنقاذ المجتمع من ضلالة وأوهام البدع والخرافات المتفشية، ومن ظلمات الجهل والتقليد الأعمى، وخطر التبشير ووسائله المغرية، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس، والنوادي وكذلك الأماكن العامة، وذلك خوفا منها على الانحراف العقدي للفرد الجزائري فهو سبب كل الانحرافات.

وبالإضافة إلى التغيير العقدي لأفراد المجتمع الجزائري، برزت معالم التغيير الفكري الثقافي في العمل الدعوي للجمعية، أين شرعت في إنشاء شبكة واسعة من المدارس والمعاهد لنشر التعليم العربي الإسلامي، ولتعليم اللغة العربية مجانا أو بأسعار رمزية للصغار والكبار، الرجال والنساء، وكان التعليم تعليما مكتيبا ومسجديا على كافة ربوع الوطن، لمحو ظلام الجهل والأمية، وتكوين جيل جديد متعلم مثقف وواعٍ، يكون ركيزة صلبة وأساسا ثابتا لخدمة مصالح الهوية الجزائرية، ولصد كل أنواع الشبهات والأفكار الغربية، وحتى يكون هذا الجيل جُنُدا قياديا مؤهلا لكل أنواع الإصلاح والتغيير، وبالإضافة إلى ذلك كان للتغيير الفكري تأثير في إعداد وتكوين العلماء الذين يوجهون الأمة في أمور الدين والدنيا، وبهذا التغيير تصبح الأمة قادرة على نيل حريتها واستقلالها.

عملت الجمعية أيضا على تفعيل التغيير السلوكي العملي من خلال عملها الدعوي، حيث باشرت برنامج التغيير بتنزيل القيم والأحكام والمبادئ الدينية على الواقع الاجتماعي للمجتمع الجزائري، مع ضمان الاستمرارية

¹ - الطيب برغوث، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 60.

فيه، لبلوغ مدارج الكمال والرقى الحضاري، وذلك بعد تحليل العقل من جملة الأفكار والاعتقادات المشوّهة والمقيّدة بالقيود العقديّة والأفكار المشوّهة، التي شلّت الفكر والبناء والتغيير

ومن الدروس السننية الكبرى، التي يمكن الاستفادة منها في خلال سنة التغيير في تجربة الجمعية، أنّ التغيير الداخلي شرط للتغيير الخارجي، وأن إصلاح الإنسان مقدم على إصلاح المؤسسات، ما جعل الجمعية تركز على التغيير العقدي والفكري والسلوكي لأفراد المجتمع، لتغيير الوعي الشعبي وبناء جيل متعلم وواعي، قادر على استعادة الهوية وتحقيق التقدم والتغيير.

ولا مناص من القول، أن التدرج في التغيير ضرورة تقتضيها مصلحة العمل الدعوي، وهو ليس نقيض الشمول، بل يعني ترتيب الأولويات في بلوغ الهدف التغييري، فبعد تعيين الهدف يتم " رسم الخطة وتحديد المراحل بوعي وصدق، بحيث تُسلّم كل مرحلة إلى ما بعدها؛ بالتخطيط والتنظيم والتصميم، حتى تصل العملية إلى مقاصدها المنشودة، وهذا يستغرق جهداً أكبر ووقتاً أكثر"¹، وهذا ما اتضح جلياً في منهج الجمعية التي آمنت بسنة التدرج والمرحلية؛ نظرياً وعملياً، لأنها في الأساس أعمال لأسباب التغيير والإصلاح، " فبالرجوع إلى المعطيات التاريخية للتغيير الاجتماعي الباديسي؛ والذي امتد على مدار سبع وعشرين سنة تقريباً، أي من سنة 1913 إلى 1940م، فإنه لم يكن على وتيرة واحدة، بل تنوع من مرحلة إلى أخرى، وما يستخلص من حياة ابن باديس الجهادية في العمل التغييري؛ يتبين أنه انتهج سنة التدرج والمرحلية، إدراكاً لأهمية هذه السنة في استمرارية العمل التغييري، والتمكن من الوصول إلى الأهداف المنشودة"².

وفي الختام يمكن القول أنّ سنة التغيير كانت سيّدة سنن التمكين، التي برزت في العمل الدعوي للجمعية منذ تأسيسها، حيث حوّلت الجمعية الدين من طقوس فردية إلى مشروع نهضوي شامل، جمع بين الإصلاح الديني العقدي، والمقاومة الفكرية لتصبح ركيزة أساسية في بناء المجتمع الجزائري.

¹ - مصطفى هادف، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص243.

² - مصطفى مخلوف، بدر الدين زواقة، " معالم الوعي السنني في المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس"، الشهاب، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، مج9، العدد1، مارس2023، ص525.

المبحث الرابع: تجليات سنة التدافع في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

كما أشرنا آنفا، فإن سنة التدافع تعني وفق الرؤية الإسلامية، ضرورة التفاعل والتزاحم والتواصل مع الغير، سواء في أوقات السلم أو حتى في الحرب، وهي سنة تمنع الوصول عند النزاع والصراع بين طرفين، إلى بلوغ درجات من الفساد والنفي والهدم، التي تضيع بموجبها مصالح الناس وحاجياتهم في الدارين، وبالتالي تتعطل مسيرة الحياة البشرية وتفقد توازنها.

ومن هذا المنطلق فسنة التدافع بديل لفلسفة الصراع والتصادم الحضاري الغربي، لأنها سنة توجّه طاقات الأفراد وتفاعلاتهم عند التدافع بمعيّار القيم والأخلاق الإسلامية العليا، لدرء المفسدات بمزاحمتها وتضييق دائرتها وطردها من البيئة الاجتماعية، وخير دليل على ذلك منهج الإسلام في التدافع مع الغير، في أوقات الحرب والنزاع؛ يوجب التحلي بأخلاقيات الحرب من حفظ لحقوق الأسرى، وتحريم التعدي على الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ الكبار، وضرورة حفظ الأرض العمران والشجر وغيرها، دلالة بذلك أن هذه السنة دينٌ ثابت ومنهج دقيق رسمه القرآن الكريم، باعتبارها سنة من سنن الله الثابتة في الاجتماع الإنساني.

وتماشيا مع ما تم ذكره، فقد كانت سنة التدافع عند جمعية العلماء المسلمين سنة حياة، للعمل الدعوي وليست صراعا سلبيا، بل محرّكا للتمكين والنهضة، " فكان الفساد هو أول مراحل الإصلاح، وتجلّى هذا الشعور بالعمل في عدة نواح من حياتها العامة، فتجلّى في الناحية الاقتصادية، بالدخول في ميادين الكسب التي كانت وقفا على غير المسلم الجزائري، وتجلّى في الناحية الأدبية، بتأسيس النوادي والجمعيات المختلفة وتجلّى من الناحية العلمية بإقبال على القراءة والتعلم باللغتين العربية، والفرنسية، وبالبذل على العلم والتغريب في سبيله، وتجلّى في الناحية الدينية بتشديد المساجد في القرى والإنفاق عليها من مال الأمة الخاص، وتجلّى من الناحية النفسية بالتفكير الجيّد المستقيم"¹.

وهذا يفسّر نجاح الجمعية في تحويل التحديات التي واجهتها، إلى أسس ثابتة لإحياء الأمة الجزائرية، ففي خضمّ واقع استعماري فرنسي، سعى بكل قوته لسلخ وطمس الهوية الإسلامية العربية للشعب الجزائري، برزت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كحصن منيع للمقاومة الفكرية والروحية، فلم يكن عملها الدعوي مجرد وعظ وإرشاد، بل كان تجسيدا حيا وعمليا لسنة التدافع، ذلك القانون الإلهي الثابت الذي يجعل من التدافع والتفاعل والتصارع بين الحق والباطل؛ أساسا لصالح المجتمعات واستمرارها، وبقدر ما يُحسن الإنسان التفاعل مع سنة

¹ - مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 239.

التدافع فهما واستثمارا وتوجيها، بقدر ما يتحقق له الدفع نحو التقدم، حتى الظهور والتفوق على الغير، وعليه فقد تجلت سنة التدافع في صور متعددة من خلال العمل الدعوي للجمعية، واستعراض هذه التجليات يُعزّز فهم الجمعية لشمولية هذه السنة، وأثرها في نشر الدعوة، وفيما يلي سنقف على عدّة نماذج تكشف تجليات سنة التدافع في العمل الدعوي للجمعية، والمتمثلة فيما يلي:

المطلب الأول: تدافع المرجعية الدينية بين الدين الإسلامي وحملات التبشير المسيحي:

من المناسب أن نستهل الحديث عن حقيقة العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الذي كان دعوة إلى الدين الإسلامي الصحيح النقي، القائم على أصوله الثابتة من القرآن الكريم والسنة النبوية وفهم السلف الصالح، فحاربت في المقابل البدع والخرفات والأفكار المنحرفة عن هذه المرجعية الدينية، التي تسببت في إضعاف المجتمع الجزائري وتحلّفه عن الركب الحضاري، وقد كان المستعمر الفرنسي واقفا بالمرصاد يدفع الدين الإسلامي وأهله، ويبعده عن كل مظاهر الحياة ليحصره في طقوس خاصة تنشرها الزوايا والطرق الصوفية المنحرفة، والمدعّمة من قبل السياسة الفرنسية، كونها تكرّس الخضوع والاستسلام للاستعمار تحت مسمى "القضاء والقدر" ووجوب "الطاعة لولي الأمر".

وبالاعتماد على هذه الركيزة يبقى الطريق مفسوحا أمام المستعمر، كي ييسّر بالمسيحية كدين بديل مخفوف بجملة امتيازات واغراءات مادية، فيبني الكنائس لتحويل المسلمين إلى النصرانية أو الكفر والإلحاد، بامتداد هذا النشاط التبشيري في الجزائر، لأن المشروع الاستعماري الفرنسي لا يهدف إلى الاحتلال العسكري والسيطرة على ممتلكات وخيرات المجتمع الجزائري فقط، بل كانت نظرتة أعمق واستراتيجيته أشمل، تمثلت في تنصير المجتمع الجزائري المسلم، وإطلاق سياسة التبشير في كامل ربوع الوطن، فقد "وضع أساس التبشير في الجزائر الكاردينال لافيغري وأسس مراكزه المهمة، ثم أتمت الجمعيات التبشيرية ما بدأ به، وهي جمعيات قوية يمدّها الأغنياء من المسيحيين (المتساحين) بالملايين من المال، ويمدّها رجال الكهنوت ونساؤه بالعمال؛ وتمدّها الحكومات (اللا دينية) بالمعونة والتأييد"¹، وكل هذه الجهود بُذلت لتشويه المقوّمات الثقافية والفكرية للفرد الجزائري، فحاربت الإسلام بداية من خلال حملتها الشرسة على المؤسسات الدينية من مساجد، وزوايا ومدارس، والتي أغلقتها وحولتها إلى كنائس ومراكز تخدم أهدافها الاستراتيجية.

¹ - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص 55.

لكن في المقابل وعملا بسنة التدافع، نجد أنّ جمعية العلماء المسلمين كان لها رأي آخر، فقد تحزّبت بكل ما أوتيت من قوة في هذا التدافع الديني، وهو "من أبرز المجالات التي كانت ولا تزال موضوعا للتدافع، سواء أكان الدين حقا أم باطلا، محفوظا أم محرّف، ربانيا أم بشريا، وقد تعددت مظاهر التدافع الديني، من دعوات سلمية، إلى غزوات فكرية أو حروب عسكرية، حتى أصبح التدافع الديني فنا من الفنون في كثير من الديانات، له ميزاته الخاصة، ورجالاته المتخصصة، ووسائله المتنوعة، وأبوابه المختلفة، وبطاناته المتعددة، وأبعاده القيمة والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، وهكذا".¹

وتأسيسا على ذلك فقد بذلت الجمعية مساعٍ حثيثة لدرء مفسدة التبشير التي لم تلق نجاحا واسعا مقارنة بجملة الأسباب والجهود المبذولة، "ويعزى الصمود الثقافي والديني للمجتمع الجزائري في مواجهة حملات التبشير إلى تمسكه الراسخ بقيمه الدينية، الذي شكّل عامل حماية ذاتي رغم انتشار الأمية والفقر، وقد تبنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها مقاومة التبشير ضمن أولوياتها، وإن واجهت تحديات لوجستية تمثلت في نقص الموارد المالية والتنظيمية، ومع ذلك نجحت الجمعية في توظيف المنابر الإعلامية، والمحاضرات العامة لتعبئة الرأي العام وتوعيته بمخاطر الحملات التبشيرية، مما أسهم في تحصين الهوية الدينية والتصدي لاختراقها".²

وفي الإطار ذاته يؤكد مالك بن نبي على أهمية الفكرة الدينية كمحور في عملية التدافع الحضاري، لأنه "سواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي، أو المجتمع المسيحي، أم كنا بصدد المجتمعات التي تحجّرت اليوم، أو اختفت تماما من الوجود، نستطيع أن نقرّر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، ومعنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلدّ مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي، الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود".³

وإن دور هذه الفكرة الدينية يتمركز حول دفع سلوك الإنسان من السلوك الغريزي إلى سلوك ذو بُعد روحي أخلاقي، "فالفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى "عملية شرطية" تُمثّل ما يُصطلح عليه في علم النفس الفرويدي بـ"الكبت"، وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية⁴، وبالتالي تظهر أهمية هذه الفكرة الدينية في تأثيرها على سلوك الإنسان وتوجّهه، لأداء وظيفته في التدافع الحضاري.

1 - محمد عمارة، "صراع القيم بين الغرب والإسلام"، سلسلة التنوير الإسلامي، نخضة مصر، العدد 9، 1997، ص6.

2 - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص56.

3 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، دط، 1989، ص56.

4 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص67.

ولا مناص من القول، أن الدين الذي دعت إليه الجمعية هو الدين الحق، دين الفطرة السليمة ذو المقاصد والغايات النبيلة، الذي حاولت أن تنقيّه من كل الشوائب والانحرافات التي طالته، ليكون محرّكا فعّالا لسلوك الإنسان داخل مجتمعه، ضد البدع والخرافات المنتشرة، فقد "مرت على الشعب الجزائري أحقاب متطاولة ساد فيها السيدان الجهل والخرافات، واستغلّهما الفريقان، الأمراء والرؤساء الروحيون، فعاشت الأمة الجزائرية طيلة هذه الأحقاب بين فكي الجهالة والفوضى الدينية؛ تتقاذفها أمواج من الفتن وتتدافعها أعاصير من الشرور، إلى أن قيّض الله لها من أبنائها رجالا علماء... درسوا علل الأمة وأدواءها وفحصوها بمسبار العلم والعقل، فوجدوا أصل دائها يرجع إلى أمرين خطيرين: تغلغل الجهل في أحشائها واستفحال الخرافات والأوهام في أدمغة أبنائها"¹

وتماشيا مع ما تم ذكره، فقد حاربت الجمعية الزوايا ومشايخ الطرق الصوفية التي تدعو إلى عقيدة الرضا والقابلية للاستعمار التي كانت منتشرة بين الناس، - حيث جعلوا من هذا الاحتلال أمرا واقعا لا بد من التعايش معه والقبول به، فهو قضاء وقدر من الله تعالى -، ما أدى إلى انقسام حاد في المجتمع، بين تيار إصلاحى واع، وتيار تقليدي خاضع، كما طالبت بفصل الدين عن الدولة، فكان هذا التصادم والتدافع شديدا، حيث تتحرّر المساجد والأوقاف الإسلامية من قبضة اليد الفرنسية، ويتحرّر رجال الدين الإسلامي وكذا القضاء الإسلامي من وصاية الحاكم الفرنسي، وتستقل شؤون الحج والعمرة من أي تدخل للحكومة الفرنسية.

ونفتح القوس هنا لنبرز كيف كانت نظرية التدافع عند مالك بن نبي ترتبط بشكل مباشر بمفهوم " القابلية للاستعمار" الذي حاربه الجمعية أيضا، حيث يرى أن المجتمعات التي تفتقد إلى ديناميكية التدافع وتخضع للجمود والتخلف تصبح مهتأة للاستعمار من الخارج، وفي المقابل عندما تواجه هذه المجتمعات التحدي الخارجي وهو "الاستعمار" فإنها تستجيب استجابة مناسبة لهذا التحدي، ما ينتج عنها بعد ذلك تحرير طاقة المجتمع وإعادة بناء نفسه على أسس جديدة وصحيحة، لقوله: " فقد يكون الاستعمار أثرا سعيدا من آثار تلك القابلية، لأنه يقلب حينئذ التطور الاجتماعي الذي أوجد المخلوق القابل، فهذا المخلوق لا يدرك قابليته للاستعمار إلا إذا استعمر، وعندئذ يجد نفسه مضطرا أن يتحرر من صفات أبناء المستعمرات، بأن يصبح غير قابل للاستعمار"²

هذا وغيره يؤكد لنا محورية سنة التدافع في العمل الدعوي للجمعية، فقد وجّهت أنظارها أيضا واهتمامها للمسجد كوسيلة لتحقيق سنة التدافع، بمزاحمة الزوايا المنحرفة من جهة، والكنائس ومراكز التبشير والتنصير من جهة أخرى، فعملت الجمعية على إحياء وظيفة المساجد وبعث دورها في واقع الحياة الاجتماعية، لإرساء تعاليم

¹ - أبي اليقظان، موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري، البصائر، السنة الأولى ديسمبر 1935 - جانفي 1937م، العدد 1، ص 5.

² - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 93.

الإسلام وقيمه، وتصحيح المفاهيم والأفكار الخاطئة والمنسوبة إليه، ومحاربة البدع والخرافات المنتشرة التي شكّلت حاجزا بين الأفراد ودينهم، فقد نافست الجمعية بشدّة الكنائس ومراكز التبشير المنتشرة، من أجل احتلال موقع ريادي قيادي فعّال يقود المجتمع الجزائري دون صراع أو مصارعة مع هذه الأطراف المتدافعة معه، وذلك لضمان استمرار نشاطها الدعوي دون عراقيل تحبسه، أو تؤخّر وتيرة عمله.

فكان من جملة مطالب الجمعية استقلال وتحرير المساجد عن الإدارة الفرنسية، حماية وحفظا للدين من أي استغلال بمعنى فصل الدين عن الدولة" فصلا حقيقيا لا مواربة فيه ولا تعمية ولا تضليل، وأن تنفض الحكومة يدها من الدين الإسلامي، وتبر ذمتها من أوقافه مع ممثلين للأمة تختارهم هي لا الحكومة، للقيام على الأوقاف بالعدل والإنصاف وتسلم لهم المساجد تسليما مطلقا، بحيث لا تتدخل فيهم بعد الآن في تعيين إمام ولا غيره"¹

أضف إلى ما تقدم فإن تحقيق مطالب الجمعية، يؤدي إلى تحرير الدين الإسلامي من الوصاية الاستعمارية، ودفع دعوات التبشير وأيدي التنصير في معركة التدافع بين دين الإسلام وحملات التنصير، والملاحظ أن الجمعية من خلال منهج عملها الدعوي ركزت على محور المدافعة الوقائية، لصدّ الفساد الديني الذي انتشر في ربوع الوطن، وأساس هذه المدافعة الوقائية في نظر الطيب برغوث هو "المدافعة لأجل إزالة العوائق أمام حركة التجديد والبناء، والسعي لإصلاح الخلل الحاصل في الأفعال البشرية"²، وبالتالي فمن النتائج المهمة لسنة التدافع، حرية المعتقد ووجود أماكن للعبادة، فلولا وجود أهل الحق من الجمعية المدافعين، لما بقيت حرية الدين وعبادة الله في الأرض.

وخلاصة القول فإن المتأمل لعمل جمعية العلماء المسلمين الدعوي، يلحظ بوضوح منطق التدافع المحكوم بالمنهج السني، أين تصدّت الجمعية بقوة حملات التبشير المسيحي، التي استغلت فقر وجهل ومرض الفرد الجزائري، الناتج عن سياسات المستعمر نفسه، وفندت الشبهات والأباطيل المنسوبة للدين الإسلامي، والمروّجة من قبل الزوايا والطرق الصوفية المنحرفة، فأرجعت للمساجد هيبتها ومكانتها ودورها في ترسيخ عقيدة التوحيد، وتحصين أفراد المجتمع من كل الأفكار الدخيلة، لتكون الجمعية بذلك كفة راجحة ضد سياسة التنصير وغصّة في خلق حملات التبشير التي شنتها الحكومة الفرنسية على المجتمع الجزائري.

وتأسيسا على ما سبق نخلص إلى جملة تجليات سنة تدافع المرجعية الدينية: بين الدين الإسلامي وحملات التبشير المسيحي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جعلته من محاور مهامها في العمل الدعوي نحو التدافع، والتي تتمثل في:

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، مرجع سابق، ص28.

² - الطيب برغوث، مدخل سني إلى النظرية الكلية في فقه العمران الحضاري في ضوء القرآن الكريم، دار النعمان، الجزائر، دط، 2017، ص97

-إن الوجود الاستعماري لفرنسا على الأراضي الجزائرية، قد شكّل تدافعا صراعيا، وهو النموذج الغالب على الرؤية الغربية في الحركات الاستعمارية المنتشرة، أين تشكّل صورة نمطية مشوّهة للطرف الآخر، الذي تعتبره عدوا وخطرا على وجودها، ففرنسا من أعداء الإسلام الذين يضمرون الكره الشديد، والحق الدفين للإسلام والمسلمين، وعقيدتها في التدافع للهيمنة والتصارع والتناحر مع الطرف الآخر لنفيته وإغائه.

- وكما أكّدتنا آنفا فقد كانت جهود الجمعية مركّزة حول محاربة الخرافات والطريقة المنحرفة من جهة، وعلى صدّ الكنائس وسياسة التنصير والتبشير من جهة أخرى، فالتدافع مع هذا المحتل الغاشم تدافع عقيدة، تدافع رسالتين؛ الأولى رسالة الإيمان التي يمثلها أفراد المجتمع الجزائري تحت قيادة جمعية العلماء المسلمين، والثانية رسالة التنصير والكفر التي يمثلها المستعمر الفرنسي، وبتدافع كلا هتين القوتين؛ قوى الخير وقوى الشر تبرز قوى وتنحصر أخرى، فظهر الدين الإسلامي رغم كثرة العقبات، وانحصر التنصير والتبشير رغم كثرة الامتيازات.

- وفي إطار التدافع الشامل بين الدين الإسلامي والتنصير المسيحي، بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، استعملت الجمعية آلية التواصل الجماهيري، من خلال الوعظ والإرشاد المباشر في المساجد، أين تُلقى الدروس المنتظمة في التفسير والحديث والفقه، وكذلك الخطب والمحاضرات العامة في النوادي الثقافية والساحات العامة، لنشر الدعوة الإصلاحية وحفظ الدين الإسلامي من كل تشويه وتحريف.

ومما لا شك فيه فقد أدرك رجال الجمعية أهمية العمل الجماعي وروح الفريق انطلاقا من سنة التدافع، فالدعوة لا يمكن أن تكون جهدا فرديا منعزلا، بل تتطلب عملا جماعيا منظما وروح فريق قوية، لأن التدافع يدل على ضرورة التنسيق بين أهل الحق للدفاع عن الدين ونشره بفعالية، لاستمرار الدعوة في وجه التحديات المتجددة، وهو ما أكّد عليه مالك بن نبي بالقول "أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي التي تَوْقُنُ بقاء المجتمع، وتحفظ له شخصيته، وأنها هي التي تنظم طاقاته الحيوية لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"¹، أما ارتخاء خيوط هذه الشبكة فمصييره أن تصبح الأمة "عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، فذلك أمارة على أن المجتمع مريض، وأنه ماض إلى نهايته"²

وخلاصة القول مما سبق، يمكن القول بأن الأسباب والدواعي الكامنة وراء التدافع بين المستعمر الفرنسي والمجتمع الجزائري بقيادة الجمعية متعددة، إلا أن هناك سببا جوهريا كامنا وراء هذا التدافع؛ ألا وهو صراع العقيدة والدين، فالصراع عقدي ولو تعددت صوره وأشكاله، لأن فرنسا أدركت أن هزيمة الجزائر عسكريا لا تكفي، ما دام

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ج1، ص82.

² - المرجع نفسه، ص42.

إسلامها حيا وفاعلا، فعملت على اختراقه وتشويهه وإماتته في القلوب، لكن الجمعية تحركت في عملها الدعوي لإحياء الإسلام الصحيح، الخالي من كل الشوائب والبدع، فقد كانت معركة تدافع بين مشروعين؛ مشروع إحياء الدين الإسلامي ضد إخماد مشروع التبشير المسيحي.

المطلب الثاني: تدافع الهوية "الجزائر العربية" في مواجهة "الجزائر الفرنسية"

إن التدافع بين الحق والباطل يعد من أوضح مظاهر ومجالات سنة التدافع التي صرح بها القرآن الكريم، ولقد تجلت هذه السنة بشكل عملي في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت بمثابة محرك أساسي لتمكين دعوتها، لأن فرنسا سعت وهي أهل باطل بكل ما أوتيت من قوة، وباستخدام شتى الطرق والأساليب (السلطة، النفوذ والمال، القوانين والقرارات....) لإقصاء الحق من المجتمع الجزائري، كي تخلو الساحة لهم ولباطلهم الذي امتد وتجدّر لمدة تجاوزت القرن، ولأن وجود الحق فيه إضعاف للباطل، -وهذا ما لم يرغب فيه المستعمر الفرنسي-، جند المستعمر كل قواه لبلوغ ذلك.

فكانت أولى خطواته في زرع الباطل؛ السعي لمحو الهوية الإسلامية والعربية للجزائر، من خلال سياسة التجهيل والفرنسة التي اعتمدتها وفرضتها على الشعب الجزائري، حيث فرضت اللغة الفرنسية في الإدارة والتعليم الرسمي، وحاربت اللغة العربية واعتبرتها لغة أجنبية، فكان رد فعل الجمعية وهي أهل الحق، مزاحمة هذا الباطل ومداغة سياسته؛ بإنشاء شبكة مدارس لتعليم اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي،-رغم الرقابة الصارمة عليها، والمضايقة الشديدة لمعلميها وطلابها- للحفاظ على هوية الأمة الجزائرية وبناء الفرد الجزائري المعترف بدينه ولغته وتاريخه، والقادر على النهوض بوطنه، فقد " درسوا مسارب الجهل إلى جسم الأمة، وكيف تكون مكافحتها، وأساليب العلم القديمة وكيف يكون إصلاحها، وحاجة الأمة إلى الفنون الحديثة وكيف يمكن جلبها، فساروا في هذا السبيل خطوات بعيدة، قاصوا ظل الجهل ونشروا أنوار العرفان، فتحوا المدارس في مختلف البلاد، وهذبوا أساليب التعليم، فكانت في الشعب الجزائري الذي كان مضرب الأمثال في الأمية والرتانة، نهضة علمية مباركة تضم بين أبنائها ثلة من العلماء الفطاحل، والخطباء المصاقع، والكتّاب المجيدين والشعراء الفحول"¹

وفي سياق سنة التدافع أيضا نجد علماء الجمعية ما فتئوا يدافعون عن عروبة الجزائر، ويؤكدون رسوخ اللغة العربية في المجتمع الجزائري دلالة بذلك على أولويتها في مشروع العمل الدعوي، فهي لغة دينهم وأحد مكونات

¹-أبي البقطان، "موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري"، البصائر، السنة الأولى ديسمبر 1935-جانفي 1937م، العدد 1، ص5-6.

شخصيتهم وأساس هويتهم،" فما دامت الشعوب الإسلامية على صلة وثيقة باللغة العربية، فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام وبالقرآن، وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى¹، مقابل مشروع الفرنسة الذي فرضه المستعمر على كافة المؤسسات والإدارات، لانتزاع اللسان العربي وتعويضه باللسان الفرنسي، وتغذية كذلك اللهجات الإقليمية العامية، لتكون لغات معتمدة فكثيرا ما أشاد الإبراهيمي وغيره بدور ومكانة اللغة العربية ومن ذلك قوله: "أيها لإخوان: لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهُم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا يعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته... لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون"²

كما تجدر الإشارة أيضا إلى ملمح التدافع، الذي برز على مستوى المساجد أيضا، فكانت بمثابة قلاع حصينة ومراكز إشعاع فكرية وتربوية، تُذيب جليد الجهل وتُثير ملكة العقل، وعلى مستوى النوادي الثقافية التي كانت منارات لإلقاء المحاضرات وعقد الاجتماعات، وعلى مستوى صحف الجمعية ومجلات "كالشهاب والبصائر" التي كانت سلاحا مدافعة الدعاية الاستعمارية، بتوعية الشعب الجزائري وكشف مخططات المستعمر الفرنسي، لإحقاق الحق وإظهاره وحصر الباطل الفرنسي وتضييق مساحته.

ولا مناص من القول أن المستعمر الفرنسي عمد إلى تفجير الشعب الجزائري ثقافيا وعلميا، ليكون فريسة سهلة الانقياد والخضوع، في صناعة فرنسي جزائري منسلخ الجذور، يمجّد تاريخ فرنسا ويحتقر ماضيه وتاريخه، فكان عمل الجمعية الدعوي حراكا واندفاعا للحث على العلم، باعتباره أقوى سلاح لدفاع الأمة عن وجودها وكيانها الحضاري، فلم يكن التعليم عندها مجرد تلقين للمعلومات بل كان عملا تحريرا، تمت من خلاله مقاومة ثقافة الاستسلام والمسخ بثقافة المقاومة والانتماء.

الأمر الذي يدل بذلك أنّ الجمعية في سنة التدافع، ركّزت على تقوية وتنمية قدرات الفرد الجزائري، لتنافس الطرف الآخر وتُعيق حركته وتقدّمه، ولهذا نجد أن مالك بن نبي يقرن نهضة الأمة الإسلامية باستعادتها لمكانتها ودورها القيادي من خلال تفعيل سنة التدافع، وذلك عبر إصلاح ذاتها داخليا، والخروج من حالة القابلية

¹ - عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، مرجع سابق، ص353.

² - محمد البشير الإبراهيمي، "العربية فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية"، الشهاب، فيفري 1939، مج15، ج1، ص11.

للاستعمار إلى حالة الفاعلية والإنتاج الحضاري، " فالفكرة الإسلامية لكي تقارع الأفكار الفعالة للمجتمعات المتحركة في القرن العشرين، عليها أن تستعيد فعاليتها الخاصة، أي أن تأخذ مكانها من جديد، وسط الأفكار التي تصنع التاريخ"¹.

ونحن بصدد بيان تجليات سنة التدافع في العمل الدعوي للجمعية، يلفت أنظارنا تدافع الوعي السياسي للأمة الجزائرية، في مواجهة سياسة الإدماج للمستعمر الفرنسي، الذي امتد بطشه لطمس الشخصية الوطنية الجزائرية، واعتبار الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، فهي مقاطعة تابعة له، بحيث تمنح بعض الجزائريين حقوقاً فرنسية، مقابل تخليهم عن هويتهم وأحوالهم الشخصية الإسلامية، فجاءت مدافعة الحق في شعار جمعية العلماء المسلمين الشهير؛ الذي يُعد الحاضن الرئيسي للهوية الوطنية، "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وهذا الشعار هو بمثابة إعلان للتدافع الوجودي، حيث ثبتت الأركان الثلاثة التي قام عليها كفاح الشعب الجزائري.

فقد أكدت الجمعية أن الأمة الجزائرية أمة قائمة بذاتها، لها تاريخها وكيانها الخاص بها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تندمج في فرنسا، فحاربت مشروع الإدماج، واعتبرته أعظم خيانة للدين والوطن، وفضحت كل أهدافه وخططه مما أدى إلى فشل هذا المشروع، ومن ذلك ما نشره ابن باديس في مقال تحت عنوان: "كلمة صريحة" جاء فيه ما يلي: "إن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصبح فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري"².

كما لا يفوتنا أن ننوه، بمآل وعاقبة هذه السنة التي أفصح عنها الوحي القرآني، إذ "قضت سنة الله تعالى في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والحق للباطل وأهله"³، قال تعالى: ﴿وَيَمْخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخْلِقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الشورى/24، فالباطل مهما تعاضم فهو إلى زوال وفناء واضمحلال، لأنه ضعيف وهش، وهذه حقيقة قرآنية أقرها القرآن الكريم في مقابل قوة الحق وثباته واستقراره، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة/32-33.

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص110.

² - عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، ج5، ص294.

³ - عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مرجع سابق، ص47-48.

إنّ الباطل قد يعلو حيناً من الدهر، لكنه زائل فاني لامحالة، عكس الحق الذي قد يختفي أحياناً، لكن مصيره إلى الظهور والبقاء والاستمرار، وهو ما تحقق في المجتمع الجزائري فعلى الرغم من امتداد عمر الباطل على يد المستعمر الفرنسي، بممارسة الظلم والجور والتفكير والتجهيل والاستبداد للإنسان الجزائري، إلا أن الحق ظهر وبان على أيدي جمعية العلماء المسلمين ورجالها، الذين رفعوا راية العلم عالية ونشروا الدعوة الإسلامية في ربوع الوطن.

ولعله من المفيد التأكيد على حقيقة هامة في سنة التدافع، كونها تقرّر أن الله تعالى لا يمكّن للباطل في هذه الحياة ليستعبد الناس، ولا يفسح له المجال ليسخر عباد الله لخدمته وتحقيق مآربه، بل إنه سبحانه يُقيم من أهل الحق من يقف في وجه الباطل، ويتصدى له في كافة معاركه، كما قيض الله جمعية العلماء المسلمين مدافعة لإخماد نار باطل المستعمر الفرنسي منذ تأسيسها، ومن أكثر القصص والنماذج تكراراً في القرآن الكريم، والتي تُبرز سنة التدافع قصة تدافع موسى عليه السلام مع فرعون، وهو تدافع بين الحق والباطل، بين إصلاح الأرض وإفسادها، فعلى الرغم من كسب فرعون وفوزه بفرض نفوذه وجبروته وطغيانه على قومه بالقتل وذبح الأبناء... إلا أن العاقبة كانت لكفة الحق على الباطل، والإيمان على الكفر، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تُلْقِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ نَحْنُ الْمُؤَلَّفِينَ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ الأعراف/ 115-119.

فهذه الآية من الشواهد الدالة على غلبة الحق وظهوره مقابل إبطال الباطل وإفناؤه، حيث يخبر الله تعالى أنه "أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، تأكل ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل"¹

ومما لا شك فيه فقد كان مجال سنة التدافع الثقافي بارزاً، من خلال سلسلة المدارس المنتشرة عبر أنحاء الوطن، والتي كانت تدافع بشكل مباشر المدارس الفرنسية عبر؛ مناهجها التي اعتمدت الجمعية فيها، تدريس اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه وأصوله، والتاريخ الوطني من منظور جزائري إسلامي، مقابل مناهج الفرنسة التي كانت تمجّد تاريخ فرنسا.

وبالإضافة إلى تدافع المناهج، أيضاً تدافعت الأهداف؛ فقد كان هدف الجمعية، بناء قاعدة صلبة وتكوين جيل يعتزّ بهويته "دينا، ولغة ووطنا"، مقابل هدف المدارس الفرنسية التي سعت لخلق جيل فرنسي اللسان والعقل والقلب.

¹ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج3، ص457.

أيقنت جمعية العلماء المسلمين أن التدافع ليس بالضرورة حربا بالسلاح، بل هو في جوهره معركة أفكار وأخلاق وسياسات، تروم إصلاح المجتمع ورفقته، فكان عملها الدعوي سلميا مع المستعمر الفرنسي بما يخدم مصالح المجتمع الجزائري، وهذا يدل على حُكمتها في التعامل وتركيزها على النقاط المشتركة، وتجنب الصراعات التي تعيق مسيرة الدعوة، ومما يعضد هذا الاتجاه أيضا مالك بن نبي؛ الذي اعتبر الاستعمار ليس مجرد احتلال عسكري سياسي، بل هو صراع فكري وثقافي يهدف إلى السيطرة على عقل الإنسان المسلم وإضعاف هويته، ونهضة الأمة الإسلامية تستلزم فهم آليات الديناميكية للتدافع الحضاري، والقدرة على إنتاج حركة إصلاح داخلي والتغلب على عوامل التخلف والقابلية للاستعمار، والتي تنتج بدورها عن غياب التفاعل الإيجابي والتدافع البناء، فالتدافع في نظره ليس مجرد قدر محتوم، بل هو مجال للعمل البشري لتحقيق الإصلاح والنهوض.

وتأسيسا على ما سبق نلخص إلى جملة تجليات سنة تدافع الهوية "الجزائر العربية" في مواجهة "الجزائر الفرنسية" عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جعلته آلية من آليات نجاح العمل الدعوي، حيث تمثل في: أكدت جهود جمعية العلماء المسلمين من خلال سنة التدافع، فعاليتها في الحفاظ على الهوية الإسلامية العربية للأمة الجزائرية، من خلال نجاحها الكبير في تعزيز تعليم اللغة العربية، وإحياء مكانتها كلغة وطنية ودينية، مقابل استراتيجية المستعمر الفرنسي الذي فرض اللغة الفرنسية وهُمّش اللغة العربية، وكان ذلك عبر التعليم في المدارس الحرة، المعتمدة على المناهج العربية الإسلامية، والتي زاحمت المدارس الفرنسية والمناهج الاستعمارية. ومن المناسب الحديث في تجليات سنة التدافع حول الهوية عن جهود الجمعية في إيقاظ ونشر الوعي الوطني، لتعزيز روح الانتماء إلى الوطن الجزائري، لمواجهة ومدافعة سياسات الفرنسة والاندماج التي تنادي لها السلطات الفرنسية لإذابة الشخصية الجزائرية.

وخلاصة القول مما سبق يمكن القول أنّ جمعية العلماء المسلمين آمنت بسنة التدافع، واعتبرتها وسيلة لحماية حق الشعب الجزائري من باطل المستعمر الفرنسي، فتجسّدت سنة التدافع في عملها الدعوي من خلال خوض منافسة فكرية ثقافية شاملة ضد المشروع الاستعماري، مدركة أن الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية وشخصيتها وخصوصيتها، حق وجب التمتع به ضد باطل المستعمر الفرنسي، وسياساته في تجهيل وفرنسة الأمة الجزائرية، التي تهدف إلى مسخ الهوية الإسلامية العربية للشعب الجزائري.

المطلب الثالث: تدافع منظومة قيم النهضة مقابل منظومة قيم الهيمنة:

إن التدافع والصراع الذي جمع بين الشعب الجزائري والمستعمر الفرنسي، لم يكن مجرد صراع عسكري سياسي، بقدر ما كان في جوهره أيضا تدافعا بين رؤيتين أخلاقيتين متعارضتين للعالم: الأولى رؤية إصلاحية نهضوية إسلامية تستهدف بناء الإنسان الصالح والمجتمع الفاضل، تحت قيادة جمعية العلماء المسلمين، والثانية رؤية استعمارية هيمنة تبرّر السيطرة والاستغلال تحت غطاء المهمة الحضارية، تحت إشراف المستعمر الفرنسي.

وانطلاقا من هذا الأساس، فقد منحت فرنسا لنفسها الشرعية الأخلاقية لتنوير الشعوب المتخلفة بالثقافة الغربية الفرنسية، لتلحق بركب الدول المتحضرة نظريا، أما من الناحية التطبيقية وعلى صعيد الأرض الجزائرية، فقد كانت تشجّع كل مظاهر الانحلال والفساد كشرب الخمر، الزنا، الاختلاط، القمار... كوسيلة لإلهاء الشباب الجزائري وضرب قيم الفضيلة والمثل العليا لديه.

فكان لجملة هذه الممارسات تعديل وتحجيم، من طرف جمعية العلماء المسلمين عملا بسنة تدافع الفضيلة والاستقامة، ضد الرذيلة والإباحية، فقد ركّزت جهودها لبناء الفرد الصالح، من خلال زرع قيم التعاون والتسامح، والفضيلة والعفة، والصدق والأمانة وحفظ الكرامة، للاستقامة والبعد عن كل مظاهر الانحراف الأخلاقي، التي يدعمها ويزيئها المستعمر الفرنسي.

وكما أكّدنا آنفا حرص المستعمر الفرنسي على نشر الإباحية، وتشجيع السلوكيات اللاأخلاقية في المجتمع الجزائري، بهدف إضعافه وتفكيك قيمه ومبادئه الإسلامية، سارعت خطى الجمعية إلى نشر الوعي الديني، وتعزيز منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية داخل المجتمع الجزائري، عبر مدارسها ومناهجها التي كانت بمثابة "مصانع أخلاقية" لتخريج إنسان صالح يكون نواة مصلحة لمجتمع فاضل، ناهيك عن حُطْب المساجد ودروسها، التي تغرس القيم في النفوس لتتجسّد في السلوك، مستشهدة على ذلك بهدي النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة، وقصص الصحابة والتابعين والعلماء الصالحين، ليكونوا قدوة حسنة يقتفى أثرها، وبديلا للنماذج والشخصيات الغربية التي يروج لها المستعمر الفرنسي.

وبالإضافة إلى ما سبق، كان النقد الأخلاقي المباشر الذي تشنّه الجمعية وسيلة للتدافع لديها، عبر المقالات والأعمدة الثابتة لصحفها، فهو أداة طيّعة لتشكيل رأي عام يرفض الانحلال ويتمسك بالفضيلة لمواجهة الظواهر اللاأخلاقية المنتشرة في المجتمع، وسنعرض أمثلة على ذلك منها؛ خطاب الجمعية الذي تتدافع فيه الكرامة والعزة الإنسانية ضد الإذلال والمهانة الفرنسية، فكان مفهوم العزة المستمد من الإسلام يعلو أنظار القراء وأسماعهم، لدفع

ورفض كل شكل من أشكال الإساءة والمهانة التي يمارسها المستعمر الفرنسي، عبر قوانينه التمييزية التي ترسخ الشعور بالنقص والمهانة والدونية، فليس الفقر والجوع أو المرض مبرراً لبيع الكرامة الإنسانية، "ولا شك أن المحافظة على الكرامة الذاتية البشرية يترتب عليها حتماً أن يحافظ الإنسان على حقوق كثيرة... فإننا نرى الذين يشعرون بكرامتهم ويقدرّون نفوسهم يحملون في صدورهم قسطاً كبيراً من الشجاعة، والصدق، والإخلاص، والإحسان، والكرامة، والصراحة... فينبغي أن يحاسب الإنسان نفسه كل يوم على عمله الشخصي، وأن يدافع عن كرامته الذاتية وأن لا يقبل بحال من الأحوال أن يتنزل عن حقه المشروع في حرية الرأي وحرية القول وحرية الفعل إلى أي شخص مهما كانت ثقته فيه، ومهما كانت منزلته رفيعة... فالكرامة هي سياج الأمم وإحدى وسائل رقيها وعظم سلطانتها، فالأمة التي اتحدت وجهه أبنائها وأصبحت الكرامة لهم خلقاً، تخطو في ميادين العظمة واتساع الملك، وتتطأطأ أمامها رؤوس الطامعين"¹

ومن أمثلة حفظ الكرامة التي دافعت الجمعية من أجل حفظها؛ سياسة ظاهرة التجنّس بالجنسية الفرنسية، التي اعتبرتها تخلي الإنسان الجزائري عن كرامة انتمائه الوطنية، وفي الأخير نحتّم بمثال التدافع حول أخلاق العمل، بين الإتيقان والاعتماد على النفس كوصايا من الجمعية، ضد الكسل والانتكالية التي ترغّب فيها الجهات الفرنسية، خاصة بعد مصادرتها للأراضي الفلاحية، وتدمير الحرف التقليدية، ما أدى للبطالة أو العمل بأجور زهيدة في صفوف جيش الاحتلال، وهو الشيء الذي كرس ثقافة الانتكالية على الزوايا والتسول، وقضى على روح المبادرة التي شجعتها الجمعية، فدعت إلى الكسب الحلال والاعتماد على الذات، مع الإتيقان في العمل نحو الإنتاج.

ومن نماذج القصص القرآني التي يمكن أن نضربها ونحن بهذا الصدد، قصة نبي الله لوط عليه السلام وتدافعه مع قومه، الذين أفسدوا الأرض بانحرافهم وانحلال أخلاقهم، وممارستهم للفواحش، فكان يدعوهم للعودة إلى الفطرة الإنسانية وترك المنكر، والتحلي بالقيم والآداب الفاضلة، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف/80.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من كل الجهود المبذولة، من قبل جمعية العلماء المسلمين إلا أنها اعتبرت سنة التدافع تذكيراً دائماً بأن النصر والتمكين لا يأتي بين عشية وضحاها، بل هو ثمرة معركة جهاد ومقاومة مستمرة، تتطلب صبراً ومثابرة دون يأس أو قنوط، وهو ما تحقق في مسيرة العمل الدعوي للجمعية، الذي كان عملاً إيجابياً مستمراً حول ترسيخ القيم والمبادئ الإسلامية العليا.

¹ - منصور فهمي، "الكرامة"، المنتقد، الخميس 17 ذي الحجة 1343 9 جويلية 1925، السنة الأولى، العدد 2، ص 10، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2008.

وإن هذا الصراع حول القيم الاجتماعية يعكس بوضوح سنة التدافع العميقة بين مشروع إصلاح ي تسعى للحفاظ على منظومة الأخلاق والقيم الإسلامية، وبين مشروع استعماري يسعى للقضاء على هذه المنظومة لإضعاف وإحلال الروابط الأسرية الاجتماعية فيه، وهذا ما جعل مالك بن نبي يدعو المجتمعات إلى ضرورة التغيير والإصلاح الاجتماعي لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال تراحم وتدافع الأفكار والقيم، وهذا التدافع يتطلب مقاومة الظلم والفساد، الذي خلفته آثار المدنية الغربية التي تلبس ملابسا تنكّرية لأن "شبابنا لينظرون إلى المدنية الغربية في يومها الحالي، ويضربون صفحا عن أمسها الغابر، حيث نبتت أولى بذورها، وتلون في تطورها ونموها ألوانا مختلفة، وما فتئت تتلون عبر السنين حتى استوت على لوئها الحاضر فحسبناها نباتا جديدا"¹

وجدير بالذكر أنه رغم الإمكانيات والامتيازات الهائلة التي يملكها المستعمر الفرنسي، والتي حشدها للتأثير على العقل الجزائري، إلا أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استطاعت أن تنافس وتسابق مخططاته الأخلاقية، حيث أفشلت جزءا كبيرا منها، مدركة بذلك أن المقاومة الأخلاقية يمكن أن تكون بنفس قوة تأثير المقاومة العسكرية، في تحصين المجتمع الجزائري وبناء منظومته القيمية.

وفي الختام يمكن القول أن نموذج التدافع القيمي الأخلاقي، الذي جسّدته جمعية العلماء المسلمين مثال صالح للاقتداء به في العمل الدعوي المعاصر، كونه يعكس التزاما عميقا بالمبادئ والقيم الإسلامية، مع المرونة في مواجهة التحديات، حيث ركّزت الجمعية على محاربة الآفات والسلوكيات اللاأخلاقية المنتشرة، وفي المقابل حرصت على تعزيز الأخلاق الفاضلة، لبناء مجتمع واع ومتحصن بالقيم والمثل الإسلامية العليا، ليكون قادرا على مواجهة الصعوبات والتحديات المعاصرة، فكان نموذج التدافع عند الجمعية لا يقتصر على الصراع، بل امتد ليشمل البناء والتطوير المستمر، وهو ما سهّل وضمن استمرارية رسالة الحق والخير في المجتمع.

وتأسيسا على ما سبق نخلص إلى جملة تجليات سنة تدافع منظومة قيم النهضة مقابل منظومة قيم الهيمنة: عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي ساهمت في فعالية نجاح العمل الدعوي، حيث تمثل ذلك في:

أنّ جمعية العلماء المسلمين استطاعت من خلال فهمها وفقها لقانون الله وسنته في التدافع، أن تحوّل المبادئ والقيم الأخلاقية من مجرد مواظ نظرية، إلى برنامج عملي ميداني فعال وبنّاء، لمواجهة المشروع الاستعماري الفتاك والهدّام، فلم يكن الصراع مجرد صدام وتراحم بين الأفكار، بل كان جهدا منظّما استخدمت فيه أدوات

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 89.

عملية ومنهجية لتفكيك منظومة الاستعمار الأخلاقية، وبناء منظومة قيمية بديلة، كانت حصنا منيعا ودرعا واقيا لأفراد المجتمع الجزائري.

وتُعد محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والقمار والميسر، وحفظ كرامة الفرد الجزائري من الذلّ والإهانة، وأيضا الترهيب من الكسل والحمول في العمل، من أهم نماذج التدافع القيمي الأخلاقي الذي تبنته الجمعية، ضد سياسات المستعمر الغاشم، فلم تكتف الجمعية بالدعوة إلى القيم والأخلاق والمثل العليا، بل سعت جاهدة إلى حصر وخنق كل الممارسات الإباحية المنافية لمبادئ الإسلام وتعاليمه، وعرض البديل الأخلاقي الإسلامي الصحيح، لتعزيز الالتزام بمنظومة القيم والآداب المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية وهدى السلف الصالح.

وكما أكدنا آنفا فإن التدافع بين جمعية العلماء المسلمين والاستعمار الفرنسي، كان صداما قيميا أخلاقيا بامتياز، حيث نجحت الجمعية في بناء خطاب أخلاقي مضاد للخطاب التحرري الإباحي، ولم يقتصر ذلك على المواعظ والخطب المسجدية، بل كان عبر مشروع عملي تمثل في مدارسها وصحفها ونواديها، التي كشفت نوايا وادعاءات المستعمر حول المهمة الحضارية الفرنسية، وعملت على بناء منظومة قيمية للمجتمع الجزائري؛ على أسس من الاستقامة والصدق والتعاون والكرامة والعمل، فشكّل هذا الجهاد الأخلاقي إرثا محوريا في فهم عمق المقاومة الجزائرية للمستعمر الفرنسي.

وتأسيسا على ما تقدم حول سنة التدافع وتجلياتها في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين نخلص إلى أن:

مفهوم "سنة التدافع" في الفكر الإسلامي يشير إلى حقيقة كونية أشار لها القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾** البقرة/251، فهي ضرورة إلهية لحفظ توازن الكون واستقامته، ومنع الفساد والاستبداد في الأرض، فهي ليست خيارا، بل سنة إلهية ثابتة مستمرة لأن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإنّ مدلول سنة التدافع يشير إلى كونها طريقة الله تعالى الثابتة، في توجيه الحراك والتفاعل بين أطراف متعدّدة القوى، في محاولة لتأثير كل طرف على الآخر، إيجابا أو سلبا لخلق التوازن بداية، ثم تحقيق رغبات الغالب منهما وإرساء قوانينه.

كما تُقدم سنة التدافع في القرآن الكريم إطارا شاملا لفهم ديناميكية الصراع؛ بين أنواع مختلفة من القوى منها، الإيمان والكفر، الحق والباطل، الخير والشر، وهي ليست مجرد ظاهرة عارضة، بل هي تصميم إلهي عميق يحفظ الأرض من الفساد، ويمكّن أهل الإيمان والحق والخير من أداء دورهم في مسيرة الإصلاح والبناء، ومقاومة كل

أشكال الظلم والفساد، كما تساعد الأفراد والمجتمعات على استيعاب طبيعة التحديات، وكيفية التعامل معها بوعي وبصيرة، والمساهمة الفعالة في عملية التغيير نحو الأفضل.

ولا مناص من القول أنّ جمعية العلماء المسلمين، تُعدّ مؤسسة إصلاحية رائدة في تاريخ الجزائر الحديث، وقد تجلّت سنة التدافع في عملها الدعوي بشكل لافت، حيث سعت إلى ترسيخ الدين الإسلامي، واللغة العربية والانتماء الوطني كمحاور أساسية في دعوتها الإسلامية، ولم يكن هذا التدافع مجرد مقاومة سلبية، بل كان منهجا إصلاحيا حركيا يهدف إلى بناء مجتمع واع ومتماسك في ظل التحديات والسياسات التي فرضها الاحتلال الفرنسي.

وفي هذا الإطار تعتبر السيرة النبوية الشريفة خير مثال تجسّدت فيه تجليات سنة التدافع، فمنذ بداية الدعوة الإسلامية واجه النبي ﷺ تحديات عظيمة تُعيق انتشار هذه الدعوة، فكان التدافع والتزاحم مريرا وشديدا بين قوى الشرك والباطل من أهل مكة، مقابل قوى التوحيد والحق التي نادّت بها رسالة الإسلام، وقد كان مآل هذا التدافع في النهاية الهجرة التي أفضت إلى نشر دعوة الحق وإقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة، إعلانا لقيام حضارة إسلامية عظيمة امتدت لقرون، تحقيقا لسنة الله الثابتة في إعلاء الحق وإزهاق الباطل.

وجدير بالذكر أنّ الجمعية أدركت طبيعة وحقيقة صراعها مع أهل الباطل الفرنسي، فأدّت واجبها في مدافعة هذا الباطل ودحره، من خلال وعيها الصحيح وفهمها السليم لما أودعه الله تعالى من سنن في هذه الحياة، بما في ذلك سنة التدافع، " فلا سبيل للإحاطة بمجال التدافع الحضاري، ما لم ندرك السنن التي شرعها الله لتحكم حركة الحياة وسلوك الأحياء، ذلك أن الفقه بالسنن هو الذي يحقق لنا الفرقان من إدراك المقاصد، وإبصار المخارج، وامتلاك الوسائل، ودخول حلبة الصراع بالمؤهلات المطلوبة"¹.

وهذا ما جعل الجمعية تحرص على الفهم الدقيق والشامل لاستراتيجية التدافع، وفق هذا المنظور السنني الذي وضعه الله في الاجتماع البشري، فالصراع بين الحق والباطل ليس معركة واحدة، بل هو جولات متعاقبة فقد تكون الغلبة للحق في إحدى جولاته، وقد ينتصر الباطل في أخرى، لكن العاقبة تكون للمتقين من أصحاب الحق.

ولعل من نافلة القول التأكيد على أن سنة التدافع لها مقاصد وغايات إلهية يجب فهمها وإدراكها، وهي بالأساس تتمحور حول كليتين؛ كلية الحق وكلية الباطل، فيتقدم الحق ليزهق الباطل وفق قانون الله في التدافع، حيث يزاحم الحق هذا الباطل فيدفعه للأسفل لتبقى الصدارة له، وقد كانت هذه الرؤية واضحة في استراتيجية عمل جمعية العلماء المسلمين، حيث كانت المدافعة لحق " الهوية الإسلامية العربية" ضد باطل " المشروع

¹ - عمر عبّيد حسنة، من فقه التغيير، مرجع سابق، ص 94.

الاستعماري الفرنسي".

إن قيام جمعية العلماء المسلمين بفريضة التدافع مع المستعمر الفرنسي في مجالات عدّة، دليل ومؤشر واضح لمدى وعيها بواجبها اتجاه دينها من جهة، وحرصها على حفظ مقومات الهوية الإسلامية العربية للمجتمع الجزائري من جهة أخرى، ناهيك عن فقهها لهذا المنهج السني التدافعي؛ كونه سبيل للصالح والفلاح، ودرء الفساد والهلاك، فاعتمدت في عملها الدعوي مجموعة آليات عملية، متكاملة ومنسجمة ومتوازنة، لتحريك المجتمع الجزائري نحو الأحسن والأفضل، فالمدرسة تُخرّج الشاب الواعي، والمسجد يُزكّي روحه، والصحيفة تشكّل فكره، والنادي يحتضن طاقاته، والتنظيم يوحد جهوده، وبهذا التكامل والتناسق والاستمرار في البناء استطاعت جمعية العلماء المسلمين أن تخوض مدافعة حضارية شاملة، - روحيا، ثقافيا، اجتماعيا وحضاريا- ضد الاستعمار الفرنسي، للمحافظة على وجودها وتوازنها.

من مظاهر تجليات سنة التدافع في العمل الدعوي للجمعية، تدافع المرجعية الدينية أي بين الدين الإسلامي والتبشير المسيحي، حيث كثّفت الجمعية جهودها لترسيخ العقيدة الإسلامية النقية، من جملة البدع والخرافات والأفكار المنحرفة للزوايا والطرق الصوفية من جهة، وكذلك مصادمة حملات التبشير والتنصير التي تستهدف فئات عديدة من المجتمع الجزائري من جهة أخرى، وكانت وسيلة التدافع المعتمدة؛ الوعظ الديني والإرشاد في المساجد والنوادي وتأسيس المدارس والكتاتيب القرآنية عبر أنحاء الوطن.

كانت الهوية الجزائرية ببعديها العربي والإسلامي؛ ساحة رئيسية لسنة التدافع بين جمعية العلماء المسلمين والاستعمار الفرنسي، الذي سعى لطمس مقومات الشخصية الجزائرية، من خلال فرض لغتها وثقافتها، والتحكم في التعليم، وفرض سياسة الاندماج والتجنيس، فكان منطق التدافع جليا في العمل الدعوي للجمعية، التي تصدّت لهذه السياسات باعتبار الدين الإسلامي واللغة العربية ركيزتين أساسيتين للهوية الوطنية، مع حرصها على تشكيل الوعي الوطني وروح الانتماء، لتحصين المجتمع الجزائري والحفاظ على جذوره الحضارية.

يمثل التدافع القيمي الأخلاقي بين منظومة النهضة بقيادة جمعية العلماء، ومنظومة الهيمنة برئاسة المستعمر الفرنسي، صفحة راسخة في تاريخ المقاومة الجزائرية، التي نجحت في صون المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، وبناء جيل صالح واع ومدرك لتاريخه وقيمه، وهذا ما نصّ عليه قانون الجمعية الأساسي، ضد محاولات المستعمر في فرض نمط حياة ومثل غربية لأخلاقية.

تبرز أهمية سنة التدافع في كونها صمام أمان يمنع طغيان قوى الشر والفساد، ومحركا أساسيا للتطوير

والتجديد والتمكين في المجتمعات، كما أنها تُسهم في تمحيص الصفوف وبناء شخصيات قوية ومجتمعات فعّالة تسير قُدماً لبلوغ أعلى مراتب الركب الحضاري.

وختاماً يمكن القول أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد خاضت مدافعة حضارية شاملة، جعلت من التربية والتعليم سلاحاً لبناء العقول، ومن الكلمة والإعلام منبراً لكشف زيف المستعمر، ومن تطهير الدين من البدع أساساً لتوحيد الصفوف، وبذلك تحولت دعوتها إلى مشروع مقاومة متكامل ضد المشروع الاستعماري في كل المجالات_ الدينية، الفكري الثقافية، الاجتماعية، السياسية_ مرسخاً بذلك حقيقة مفادها أن تحرير الأوطان يبدأ من تحرير الإنسان.

في ختام هذه السنة تجدر الإشارة إلى واحدة من السنن الإلهية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسنة التدافع، ألا وهي سنة التداول، التي تناولها القرآن الكريم كفعل دينامي حيوي هدفه تمحيص الجماعات البشرية، وبيان كيفية تنافس الحضارات وتفاعلها، لتتمكن من تحقيق أهدافها وغاياتها، فتشرق حضارة مع بداية أفول حضارة أخرى، لتعلن مكانتها الجديدة في سلم التداول والترقي الحضاري.

ومن هذا المنطلق فالتداول يُطلق على حركة صعود الحضارات وسقوطها، وميلاد الأمم ووفاتها، وتوالي وتعاقب القيادة لهذه الجماعات والثقافات البشرية، على مسرح الحركة الاستخلافية المفتوح على تجارب حضارية متواصلة، ما توفرت شروط هذا التداول وأهليته واستحقاقاته، فالتجربة البشرية في كل زمان ومكان مزيج من النجاح والفشل، من الصعود والنزول، من الانتصار والانكسار، فهي سنة من سنن الله في الاجتماع البشري، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/140.

وقد اعتبر الطيّب برغوث سنة التداول "مصباحاً نهائياً لحركة المدافعة الحضارية في عالم الشهادة؛ أي أنها تمثل المخرج النهائي لحركة المدافعة الحضارية، إذ إن الأفراد والجماعات البشرية جميعاً تمارس أشكالاً متعددة من التدافع الذاتي والثقافي والاجتماعي والحضاري، بما يفضي في النهاية إلى عملية المداولة الحضارية. فالمجتمعات تتفاعل داخلياً وفيما بينها سعيّاً إلى تحقيق حالة من التوازن الذاتي والاجتماعي المتكامل، وهو ما يؤهلها للانتقال إلى مراحل المنافسة والريادة الحضارية، باعتبارها آخر مراحل التطور الحضاري المنشود"¹.

وبالتالي فإن التدافع المستمر بين الأمم، حيث يسعى كل طرف إلى تحسين موقعه الحضاري، ينتج عنه التداول الحضاري، وهذه الديناميكية تضمن استمرار الحركة الحضارية وعدم وجود فراغ دائم، وهذا ما يعزّز من

¹ - الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، مرجع سابق، ص 57

فرص التمكين والظهور والنمو للأمة الجديدة.

أضف إلى ما تقدم فإن الغزالي يستثمر هذا الملمح السني في الدعوة إلى الله، حين يبذل البيان والتوجيه للمسلمين، إلى أسباب الظهور وشروط الانتصار وأهلية التداول الحضاري، إذ يرى أنّ سنة التداول الحضاري تُعد "مصدراً للتفاؤل الاستراتيجي لدى العاملين في حقل الإصلاح، حيث تفتح أمامهم آفاقاً للعمل المستمر، وتذيب مشاعر اليأس من نفوسهم حينما يدركون أن تغلب قوى الشر والإفساد هو حالة مؤقتة لا تدوم. وقد وجه القرآن الكريم المؤمنين إلى عدم الاستسلام للوهن والحزن في ظل هذه السنة الإلهية، مؤكداً أن العاقبة للمتقين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (139) **إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ** آل عمران/ 139-140، ومقرراً حقيقة التداول الزمني **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾** آل عمران/140.

فالامتحانات والابتلاءات تمثل محطات ضمن مسيرة التداول الحضاري، حيث تبقى السنن الإلهية - ومنها سنة التداول - وسائل تذكير وتحذير وإرشاد للأمة، تضمن استمرار حركة التاريخ وفق الحكمة الإلهية، وتؤكد إمكانية تحول موازين القوى لصالح الحق والخير¹.

ولا يفوتنا أن ننوّه بأن هذا التداول الحضاري له أسباب وبواعث، فلا يتحقق بعشوائية أو تلقائية، لأن المداولة الحضارية خاضعة لمسببات وقوانين ثابتة مطردة، وقد ذكر ابن خلدون ما يسمى بقانون "الشيخوخة والهرم" الذي يصيب الأمم والدول فينتقل الملك إلى غيرها، نتيجة أسباب وعوامل تؤدي إلى حتمية الهرم، مع اختلاف في أعمار هذه الدول والحضارات، في علامة من علامات التداول الحضاري الثابت، فيقول ابن خلدون: "قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبيّنا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها، وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني، والهرم في الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبدل"²

وفي هذا الإطار فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدركت أن تمكين العمل الدعوي، يحكمه بشكل مطرد لا يتخلف؛ معادلة المدافعة والتجديد، الأمر الذي جعلها تتدافع بقوة لطمس معالم المشروع الاستعماري الديني، الثقافي، الاجتماعي، السياسي، وفي المقابل بناء مقاومة فكرية تجسّد معالم الهوية الدينية والثقافية للأمة

¹ - هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص 189-190.

² - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، در الفكر، بيروت، ط 1، 1981، ج 1، ص 362.

الجزائرية، وتعزز الوعي الوطني لأبنائها، ذلك أن "حركة الاستخلاف البشري في الأرض تخضع لسنة المداولة الحضارية المستمرة، التي تنتظم وفق تفاعل ثلاثي المحاور: فاعلية التجديد الثقافي والاجتماعي، وكفاءة المدافعة الحضارية، وحيوية التداول الحضاري. ويشكل هذا النسق التفاعلي المنظومة الديناميكية المحركة لمسيرة الحضارة الإنسانية، حيث يولد التجديد الفاعل مدافعةً فعالة، وتنتج المدافعة الكفوة تداولاً حضارياً مستمراً.

هذه السنة الحضارية الجارية - بكل حلقاتها المتكاملة - تخضع لثبات السنن الإلهية التي لا تتغير ولا تتحول، كما يؤكد القرآن الكريم: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/ 43، مما يجعل حركة التاريخ خاضعةً لمنطق رباني ثابت في جوهره، متجدد في تجلياته¹.

ومن هذا المنطلق فإن مفهوم سنة التداول الحضاري؛ بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، يشير إلى حقبة زمنية من التفاعلات الثقافية والاجتماعية والصراع الهوياتي خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولم يكن هذا التداول تبادلاً حضارياً متكافئاً، بل كان صراعاً وتداً محورياً بين مشروع استعماري وآخر إصلاحية، في هذا التداول تحولت الأدوات الثقافية والتربوية إلى أسلحة نضالية ضد الاحتلال، مما أدى إلى تعزيز الوحدة الثقافية والهوية الجزائرية كبديل للحضارات الفرنسية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التطبيق العملي لسنة التداول، كان نتاج فهم سنني عميق ومتكامل لأعضاء الجمعية ورجالها، وعلى رأسهم مؤسسها ابن باديس الذي أشار إلى سنة التداول باعتبارها سنة إلهية كونية، فعمل لأجل تحقيقها انطلاقاً من القانون الإلهي الثابت الذي ينص على أن كل أمة لها أجلها، يسبقها أعمار مثل أعمار الأفراد في هذه الحياة، فأقرّ بأن: "الأمم تخضع - شأنها شأن الأفراد - لدورة حضارية ثلاثية المراحل، تبدأ بمرحلة النشوء والنماء التي تتميز باستجماع القوى والاستعداد للكفاح والتقدم، تليها مرحلة النضج والاكتمال حيث تبلغ الأمة ذروة قوتها ونفوذها، مستنفذة طاقاتها الكامنة في الانتشار والتوسع، وتنتهي الدورة بمرحلة الأفول والانحلال التي تنتهي إما بالزوال التام، أو فقدان السيادة والاستقلال، وهذه السنة الحضارية الجارية تشكل قانوناً عاماً تخضع له جميع الأمم، وإن اختلفت في مدد مراحلها كما تتفاوت أعمار الأفراد، مصداقاً للسنن الإلهية الثابتة في صعود الحضارات وهبوطها"².

1 - الطيب برغوث، الفلسفة القرآنية السننية للتاريخ والحضارة - سنن المدافعة والتجديد عند ابن خلدون، معلمة السنن الإلهية في القرآن الكريم، الكتاب الثاني، رشيد كهوس، دار الكلمة، مصر، ط1، 2020، ص104

2 - عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ص294.

وفي الأخير يمكن القول أنّ سنة التداول الحضاري مثّلت بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستعمار الفرنسي، فصلا حاسما في تاريخ الجزائر، حيث تجسّدت فيها معركة البقاء للهوية الوطنية، فلم تكن هذه الفترة مجرد صراع عسكري، بل كانت مواجهة ثقافية وفكرية عميقة، قادتها جمعية العلماء المسلمين بوعي وحكمة، من خلال جهودها الدؤوبة في التعليم والإصلاح الديني والدفاع عن اللغة العربية واستخدام الصحافة، فنجحت الجمعية بذلك في الحفاظ على النسيج الحضاري للأمة الجزائرية وتهيئة البذور لاندلاع الثورة التحريرية.

فجمعية العلماء المسلمين تحركت نحو تحقيق مداولتها الحضارية، انطلاقا من مرحلة الإقلاع الحضاري، مرورا بمرحلة التنافس الحضاري، التي سعت من خلالها إلى الافتكاك من تبعات التخلف والتبعية والاستضعاف التي فرضها المستعمر الغاشم، وصولا إلى مرحلة الريادة الحضارية والقيادة للمجتمع الجزائري، ومن شهادات تحقق هذه السّنة على أرض الجزائر ما جاء على لسان محمد الغزالي: "في أوائل احتلال الفرنسيين للجزائر أصدر الحاكم العام أمرا؛ بتحويل أكبر مساجدها إلى كاتدرائية! وتحركت فرق الجيش المستعمر إلى مسجد "كيتشاوة" فحولته إلى كنيسة، بعدما ذبحت أربعة آلاف مسلم استماتوا وراء أبوابه، يقاتلون الغزاة الصليبيين، ثم بعد قرن أدال الله للمسلمين، فاستعادوا مسجدهم وشقّ الأذان أجواز الفضاء مرة أخرى، يهتف بتكبير الله وتوحيده"¹.

والعصارة التي يمكن أن نستخلصها، من تجليات سنة التدافع في التجربة الدعوية للجمعية، أن التدافع سنة تحافظ على بقاء الحق، والتدافع بين الحق والباطل سنة إلهية مستمرة، وهي جزء لا يتجزأ من التمكين، وليس بالضرورة أن يكون التدافع صراعا عنيفا، بل يشمل أيضا المواجهة الفكرية والثقافية والاجتماعية، وإن جمعية العلماء المسلمين خاضت تدافعا مستمرا مع الاستعمار الفرنسي، وخططه التغريبية. وذلك بالحجة والبرهان، وبالصمود والثبات على المبادئ الإسلامية والعربية، هذا التدافع هو ما حفظ الهوية الجزائرية وأسهم في تحقيق استقلالها.

ومن الدروس السننية الكبرى المستفادة من سنة التدافع، هي ضرورة المواجهة بالحجة، من خلال التصدي للأفكار الباطلة والشبهات بالبراهين والأدلة الشرعية والعقلية، وإن العمل الجماعي ضروري لتوحيد الجهود وتنظيم الصفوف، لمواجهة التحديات الكبرى، مع الثبات على الحق وعدم التنازل عن المبادئ الأساسية للدين والهوية، فالدعوة التي لا تدافع عن الحق تموت هادئة بلا أثر، وإن الصراع الفكري والإعلامي أحد أهم ميادين الجهاد المعاصر.

وتأسيسا على ما تقدم بيانه في فصل تجليات سنن التمكين، في العمل الدعوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يتضح جليا الارتباط الوثيق بين سنن التمكين؛ سنة الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التغيير، التدافع، التداول،

¹ - محمد الغزالي، الحق المر، دار الهناء، برج الكيفان، الجزائر، دط، دس، ج 1، ص 110.

والتي شكّلت نسيجاً منهجياً متكاملًا، جسّد حكمة الله في سننه الكونية والاجتماعية، فقد تفاعلت هذه السنن في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تفاعلاً عضوياً، جعل من مسيرتها نموذجاً حياً لفقه السنن في الواقع.

إن تجليات سنن التمكين كما ظهرت في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تُقدم منهجية شاملة للنجاح والإصلاح، انطلاقاً من الابتلاء الذي يصقل النفوس، إلى الأخذ بالأسباب الذي يعكس الإرادة والعمل، ومروراً بالتغيير الذي يبدأ من داخل الإنسان، وصولاً إلى التدافع المستمر من أجل إعلاء كلمة الحق، وإن هذه السنن ليست مفاهيم منفصلة بل هي حلقات متكاملة في سلسلة واحدة، تؤدي إلى التمكين الشامل للأمة والمجتمع.

أضف إلى كل ما تقدم، فإن دعاة اليوم مخاطبون ومدعوون؛ لاستيعاب هذه الدروس السننية، لتطبيقها في سياقهم الخاص، مستفيدين بذلك من تجارب الماضي لبناء المستقبل المشرق، فالصبر على الحزن، والتوكل على الله مع اتخاذ الأسباب، والعمل على التغيير الإيجابي من الداخل، والثبات في مدافعة الباطل، هي كلها مقومات أساسية لتحقيق النصر والتمكين في أي دعوة إصلاحية.

فكانت سنة الابتلاء المحك الحقيقي للإيمان والعزيمة، وبرزت من خلال مواجهة الجمعية للسلطة الاستعمارية، ومضايقاتها المتكررة بالقوانين التعسفية، والتصدي للتشويه الإعلامي ومحاولات التفريق لضرب وحدة الصف للجمعية، فشكّلت سنة الابتلاء بذلك المنخل الذي يُفرز ويميّز الصادقين من المنافقين، ويصقل العزائم ويمحص القلوب، فالثبات تحت وطأة الابتلاء هو الشرط الأول لاستحقاق التمكين، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت/2، فثبات الجمعية تحت الابتلاء أثبت جدارتها لخوض مراحل التمكين التالية.

أما بالنسبة لسنة الأخذ بالأسباب فقد كانت الجسر بين الإيمان والنتيجة، فأنشأت الجمعية المدارس الحرة، وفتحت المساجد والنوادي، وأصدرت الصحف، لتكون جسراً تعبر من خلاله أفكار الجمعية إلى الواقع، فهي لم تكن تنتظر المعجزات ولم تكتف بالدعاء، بل سعت وجندت كل الأسباب المادية والمعنوية الممكنة، لتكون سنة الأخذ بالأسباب هي الترجمة العملية للثبات بعد الابتلاء، وهو الذي يهيئ الأرضية الخصبة لسنن التغيير والتدافع.

وقد شكّلت سنة التغيير القانون الحتمي للانتقال من الواقع إلى المأمول، حيث بدأ التغيير من الإنسان باعتباره حجر الأساس في الفعل التغيير، بتغيير ما بالنفوس من جهل وخمول وتكاسل، إلى علم وجهاد وتوكل، ثم انتقلت إلى تغيير الواقع الاجتماعي والسياسي، فغيرت الجمعية وعي الأمة وهويتها، مما مهّد الطريق لتغيير نظام الحكم الاستعماري، فلا مناص من القول أن التغيير هو؛ الثمرة المباشرة للثبات على الابتلاء والأخذ بالأسباب،

وهو سنة تراكمية بدأت بتغيير المنكر القلبي "الجهل"، وصولاً إلى تغيير المنكر الظاهري "الاستعمار"، وفق عملية تربوية متدرجة تحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/11.

كما تجدر الإشارة إلى سنة التدافع كواحدة من القوانين الإلهية التي تحكم حركة التاريخ، وكانت مظاهرها جليلة في الصراع والتنافس حول المرجعية الدينية، والهوية الثقافية والمنظومة القيمية، بين مشروع استعماري بقيادة فرنسا ومشروع إصلاحى بقيادة جمعية العلماء المسلمين، والجدير بالذكر أن سنة التدافع مثّلت الميدان العملي، الذي اختبرت فيه نتائج السنن السابقة.

فاليقظة ثمرة الابتلاء، والتنظيم ثمرة الأخذ بالأسباب، والإرادة الجديدة ثمرة التغيير، كلها تجمعت لتدفع بالحق ضد الباطل، والتدافع ليس صراعاً سلبياً للإبادة والفناء، بل هو لحفظ وجود الأمة وتمكينها تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة/251.

ونختتم بسنة التداول الحضاري التي تُعد ناموس الكون في تعاقب الأمم، فبعد تحقيق التمكين الجزئي بتحرير العقول والهوية، والمساهمة في تحرير الأرض، دخلت الجمعية ومعها الجزائر في مرحلة جديدة، فهناك تداول في الأدوار بين الأجيال، وتقلبات في المواقف السياسية بعد الاستقلال، وإن سنة التداول تذكّرنا بأن التمكين ليس حالة دائمة، بل هو محطة في رحلة الأمة، وهي سنة تربط العمل الدعوي بفقه المراحل، وعدم اليأس من الفترات التي تضعف فيها الشوكة، لأنها من سنن الله في خلقه قال تعالى: "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِهَا بَيْنَ النَّاسِ" آل عمران/140، ففهم هذه السنة يمنع الغرور عند التمكين، ويمنع القنوط عند الضعف.

وخلاصة القول مما سبق يمكن القول أن سنن التمكين في العمل الدعوي، لم تكن حلقات منفصلة، بل شكّلت دائرة نسيج حركي متكامل، فكان الابتلاء المدخل الذي اختبر الإرادة، والأخذ بالأسباب هو الاستجابة العملية للثبات بعد الابتلاء، أما التغيير فكان الثمرة المتراكمة للأخذ بالأسباب، والتدافع شكّل ميداناً لتحقيق التغيير وجني ثماره، وحقق التداول استمرارية هذه الدائرة عبر الزمن، ولتذكّر الأمة بأن التمكين يحتاج إلى تحديد مستمر، وهكذا قدمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجاً عملياً لفقه السنن، حيث ارتبطت هذه السنن في عملها الدعوي برباط وثيق، يجعل كل سنة منها مدخلاً للأخرى، وثمرتها في آن واحد.

المبحث الخامس: توصيات لتفعيل سنن التمكين في توجيه عمل الحركات والمؤسسات

الدعوة المعاصرة:

أكدنا آنفاً أنّ فقه السنن يُعدّ من أهمّ المرتكزات المعرفية، التي تحتاجها الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة في مسيرتها الإصلاحية، لما يوقّره من رؤية كلية وبوصلة منهجية، تُعين على فهم قوانين النهوض والارتقاء، وتكشف آليات السقوط وأسباب الإخفاق، وقد أبرزت الدراسة من خلال تحليل تجارب رائدة، وعلى رأسها تجربة -جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ أن غياب الوعي بالسنن، أو الاقتصار على فهم جزئي لها، كان من أبرز ما عطلّ مشاريع الإصلاح في الواقع الإسلامي، في حين أن استحضارها والالتزام بمقتضياتها يشكّلان ركيزة كبرى في صناعة التمكين الحضاري والدعوي.

وانطلاقاً من طبيعة السنن الإلهية باعتبارها قوانين ربانية عامة، ثابتة، شاملة، لا تحابي أحداً، فإن تفعيلها يقتضي تكاملاً بين ثلاثة مستويات من العمل مستوى منهجي معرفي: يُعنى ببناء العقل السني، وترسيخ القواعد الناطمة لفهم السنن في التفكير الشرعي والحركة الدعوية، وضبط أدوات التعامل معها نصاً وواقعاً، ومستوى تطبيقي عملي؛ يتجسد في السلوك الفردي للمسلمين والدعاة، باعتبار أن التمكين يبدأ من الذات المؤمنة الفاعلة التي تستوعب شروط النهوض وتحوّلها إلى ممارسات سلوكية في الواقع، ومستوى تنظيمي مؤسسي يتعلّق هو الآخر بتشديد البنى الدعوية، وضبط خططها وبرامجها، ورفع كفاءتها في التخطيط والإدارة والتأثير، بما يتيح لها الانسجام مع قوانين التغيير والتدافع والأخذ بالأسباب.

وقد أثبتت التجربة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن النجاح الدعوي والحضاري لا يتحقق إلا من خلال التكامل بين هذه المستويات الثلاثة؛ فقد جمعت الجمعية بين وضوح الرؤية المنهجية، وحسن تنزيل السنن في الوعي الفردي، وبناء مؤسسات قوية قادرة على التأثير والصمود، وهو ما مكّنها - رغم ظروف الاحتلال والابتلاء - من إحداث تحوّل حضاري واسع داخل المجتمع الجزائري، وإرساء معالم النهضة، وتعبئة الأمة لاستعادة كيانها وحقوقها.

ومن هذا المنطلق، تأتي هذه التوصيات الشاملة لتفعيل سنن التمكين، في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة، مصنّفةً ضمن ثلاثة مطالب رئيسة، تشمل توصيات منهجية لترسيخ فقه السنن؛ توصيات تطبيقية على مستوى الفرد والمجتمع؛ توصيات تنظيمية موجهة للمؤسسات الدعوية.

وتهدف هذه التوصيات إلى رسم خارطة طريق عملية، تساعد الحركات الإصلاحية على تحويل الوعي السنني إلى برامج واقعية، واستثمار التجارب التاريخية - وفي مقدمتها تجربة جمعية العلماء المسلمين - من أجل بناء مشروع دعوي متجدد، راشد، مُحْكَم الصلة بقوانين الله في الأنفس والآفاق، وقادر على صناعة التمكين الحضاري في عالم متغير.

المطلب الأول: توصيات منهجية لترسيخ فقه السنن:

يُعَدّ تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي، عملية معرفية قبل أن تكون عملية تقنية، ذلك أن السنن الإلهية والقوانين الاجتماعية لا تُؤثّر ثمارها إلا في إطار منهجي واضح، يُوجّه الحركة الدعوية نحو الفاعلية والتجديد، وتوفير الأسس المعرفية التي تعصم من العشوائية والارتجال، فسنن التمكين في المنظور الإسلامي، تُعد إطاراً منهجياً لفهم قوانين الله تعالى في الكون، وهي تحكم عملية النهوض والارتقاء بالأفراد والمجتمعات، كما أنها مستوحاة من نصوص الشريعة الإسلامية، وفي سياق العمل الدعوي المعاصر، يمكن لهذه السنن أن تكون بوصلة، تهدّي بها جهود الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة المبذولة، لنشر رسالة الإسلام وتعميق أثرها، وعلى إثر ذلك تقدم لها مجموعة من التوصيات، لترسيخ الوعي العام بفقه السنن، وذلك من خلال:

إدراج فقه السنن ضمن مناهج التأهيل الشرعي والدعوي، بحيث يتعرف الدعاة على السنن الحاكمة لمسار الدعوات؛ كسنة التغيير، سنة الابتلاء، سنة التدافع، سنة الأخذ بالأسباب، سنة النصر والهزيمة... إلى غير ذلك من السنن التي لا يستقيم العمل الدعوي بدونها، فلا يمكن تفعيل سنن التمكين في الدعوة، بمعزل عن فهم السنن الإلهية الربانية، المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا ما يقدم لها إطاراً منهجياً توجيهياً لكيفية بناء الدعوة وتعزيزها، فيجب على الداعية أولاً أن يدرس هذه السنن، ويحللها ليتمكن من تطبيقها بوعي في سياق العمل الدعوي.

وجدير بالذكر أن هذا الفهم تتضح الرؤية من خلاله، وتحدّد الأهداف، وتضمن التخطيط الاستراتيجي، لأنها ترصد الأهداف الاستراتيجية والمرحلية بوضوح، تُبنى على الأولويات الشرعية كالتوحيد أولاً ثم التشريع، استناداً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف/9.

ولا يفوتنا أن ننوّه بوصية الانتقال من الفهم الوعظي إلى الفهم القانوني للسنن، عبر ترسيخ أن السنن ليست مجرد مواظب إيمانية، بل قوانين حتمية تؤثر في نهضة المجتمعات، وأن مخالفتها سبب رئيس للتراجع والوهن،

وإن هذا الفهم من شأنه أن يسهم في تطوير الخطاب الدعوي ومناهجه، من خلال صياغة رسائل دعوية متجددة ومؤثرة، وبتصميم مناهج تركز على بناء الشخصية المؤمنة المتكاملة، مع التكيف وفق المتغيرات والمستجدات التي يفرضها الواقع، وذلك لزيادة الجاذبية والتأثير على شرائح المجتمع المختلفة.

كما ترشد أيضا هذه السنن إلى ضرورة التأصيل الشرعي والمفاهيمي، لأن استناد الحركات المعاصرة إلى الكتاب والسنة وفهم السنن الكونية، كمرجعية أساسية أولية في منهجها العملي، وتعمقها في فهم سنن الله في التغيير والتمكين، مثل التدرج، الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التدافع، النصر بعد الصبر... سبيل لحسن استثمارها وتوظيفها بكل فعالية، في العمل الدعوي، "وإن الحركة الإسلامية حيث تُحسن اختيار "المنهج" اللازم، لتربية العناصر المراد تربيتها بحيث تتوفر في مواد هذا المنهج فاعلية التأثير والتفاعل، وحين تتوفر "سلامة المقاصد" لدى المربين والمعلمين والمتعلمين، عند ذلك يمكن أن تتحقق ولادة الشخصية الإسلامية كما يريد الإسلام"¹.

وإن هذا التأصيل من شأنه أن يصبغ العمل الدعوي بخاصية المبدئية، فيلتزم أشد الالتزام بأحكام الإسلام، دون أي تنازلات خدمة في ذلك لهدف الإسلام والدعوة الأكبر، وهو تعبيد الناس لله رب العالمين، "فالمبدئية في العمل الإسلامي التزام كلي بمنطوق الإسلام قولاً وفعلاً، من غير ترخيص أو انحراف، ومن غير مسايمة أو تنازل، ومن غير تبرير للوسيلة التي توصل للغاية، فيكون الهدف من هذه الدعوة نبيل مرضاة الله"²، وتحقيق سننه وفق إرادته ومشئته.

أضف إلى ما تقدم فإن تطوير أدوات قراءة الواقع في ضوء السنن، واحدة من التوصيات المنهجية، التي تهدف إلى تعزيز قدرة العاملين في الحقل الدعوي على تحليل الواقع، وفهم موازين القوى، وسياقات التدافع، والظروف المؤثرة في سير الدعوة، ويكون ذلك من خلال اعتماد منهج المقارنة بين الماضي والحاضر في تتبع تجليات السنن؛ إذ إن السنن بطبيعتها تتكرر في التاريخ على أنماط متشابهة، كما يمكن أيضا إنشاء وحدات بحثية، داخل المؤسسات الدعوية تُعنى برصد الظواهر الاجتماعية والسياسية، وتقديم قراءات سننية تساعد في اتخاذ القرار.

ومما لا فيه فإن فهم الواقع وتحليل تحدياته، يضمن للدعوة نجاحها وفعالية تأثيرها، فلا يمكن لدعوة أن تنجح دون فهم عميق للواقع الذي تعيشه المجتمعات المستهدفة، والتي تركز على تحديد نقاط القوة والضعف وأبرز التحديات الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، التي قد تعيق انتشار الدعوة، والتي تكون في واقعنا من خلال إجراء دراسات مسحية شاملة للمجتمعات.

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص 167.

² - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص 154-155.

وتُعد القراءة السننية للتاريخ كذلك من أبرز التوصيات المنهجية، لفهم حركة التاريخ من منظور القوانين الربانية، فالسنن هي الإطار الحاكم لصعود الحضارات وسقوطها، من خلال تحليل التجارب الدعوية بمنهج سنني، والتي تكشف من خلاله أن احترام القوانين الإلهية، والاجتماعية هو الطريق إلى الفاعلية الدعوية، وأن غياب هذا المنهج يقود إلى الارتجال، فتكون هذه القراءة سبيلا للاستفادة من مسارات الإصلاح التاريخي، بالتركيز على مراحل التدرج، وتشكّل القيادة العلمية، وإحياء الهوية، والوعي المجتمعي.

المطلب الثاني: توصيات تطبيقية على مستوى الفرد والجماعة:

يتطلّب فقه السنن ترجمة عملية في السلوك الفردي والجماعي، بما يؤسس لبيئة صالحة للنهضة الدعوية، ويمكن للحركات الدعوية المعاصرة أن تستفيد من سنن التمكين الإلهية في بناء الفرد والمجتمع، وتبني المنهجية الواضحة والقيادة الرشيدة، في توجيه العمل الدعوي، من خلال تطبيق منهج شامل يجمع بين البناء الداخلي للفرد، والتنمية الخارجية للمجتمع، مع التخطيط الاستراتيجي الفعال في تحديد الرؤى والأهداف والقيادة الحكيمة، مستلهمة ذلك من النصوص الشرعية، والتجارب الإسلامية التاريخية والواقع المعاصر، والفهم العميق للسنن الإلهية كقوانين ثابتة للتغيير والبناء.

ولأن السنن الإلهية تُجرى آثارها عبر الإنسان، فإن أي مشروع للتمكين الحضاري لا يمكن أن يتحقق ما لم يبدأ من الفرد، باعتباره محور الاستخلاف وموضع الابتلاء ومحلّ التغيير، ولعل أبرز التوصيات التطبيقية المناسبة لذلك مايلي:

بناء الفرد بالتمكين الداخلي والتأهيل الذاتي، فكما أكدنا آنفا فإن التمكين يبدأ بالفرد كعنصر حيوي فعال، وكوحدة بناء أساسية في التكوين والتأهيل، ولهذا يجب على الحركات الدعوية المعاصرة التركيز على هذه الانطلاقة، لضمان صلابة القاعدة ونجاح تأثير الرسالة الدعوية، فتهدف من خلال هذا البناء إلى ترسيخ التربية الإيمانية العقدية، والقيمية العميقة، وهي تُشكّل الإعداد الباطني النفسي الروحي للفرد، أين يتجدّد الإيمان والوازع الديني، وتتعزيز معاني الإخلاص والصلة بالله تعالى، ويتعمق التوكل واليقين بنصر الله عز وجل، ولهذا نجد أن "منطق الأولويات يعتبر الجانب العقيدي أساسا لكل عمل، بل لا قيمة لأي عمل بدونه، ولهذا كان في موقع معتبر في كتاب الله تعالى، حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ النساء/48"¹

¹ - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص 46-47.

وبما لا يدع مجالاً للشك فإن هذه التربية الإيمانية العميقة، تنعكس إيجاباً على التمثيل العملي للمبادئ والقيم الإسلامية عند الداعية، الذي يجب أن يكون نموذجاً حياً لما يدعو إليه، بحيث تنعكس على أخلاقه، ومعاملاته شتى أنواع القيم، لأن الفعل أبلغ بكثير من القول، فالداعية الذي يدعو إلى الصدق وجب عليه التحلي به أولاً، والذي يدعو إلى العفو ينبغي أن يظهر عليه ذلك في مواقفه.

وإن بناء هذه القاعدة الإيمانية من شأنها ترسيخ الثبات الإيماني والصبر على الابتلاءات، لأن سنة الابتلاء من السنن الثابتة في طريق الدعوات، ولا ينجح فيها إلا من زوّد بإيمان راسخ، كما برز في صبر ابن باديس ورفاقه على التضيق الاستعماري.

وفي هذا الإطار فإن المنهج الإسلامي يتميز بجمعه بين التأصيل النظري والتطبيق العملي، في بناء الشخصية المسلمة، حيث يتجاوز صياغة المبادئ إلى ترجمتها إلى مناهج تربوية قابلة للتطبيق، وتُعدّ فترة التكوين النبوي نموذجاً مميزاً لهذا المنهج المتكامل، حيث انتقل المسلمون من مرحلة التأسيس النظري في دار الأرقم إلى مرحلة المواجهة العملية مع واقع المجتمع الجاهلي، فقد قادهم الرسول ﷺ في حرب فكرية شاملة ضد المنظومة الجاهلية، بهدف إعلان سيادة العبودية لله تعالى في الأرض، والخضوع الكامل لشرعه، وهذا الانتقال من التنظير إلى التطبيق يمثل سمة أساسية في المنهج النبوي لبناء الأفراد والمجتمعات¹.

ولا مناص من القول أنّ هذا السنن؛ تربي الأفراد على قيمة الأخذ بالأسباب، وتحسيد هذا المبدأ يكون في واقعنا المعاصر، من خلال توفير برامج تدريب وتأهيل في مختلف المجالات؛ العلمية، التقنية، المهنية، وهذا ما يُسهم في تشكيل الوعي بقضايا الأمة، وتعريف الأفراد بالتحديات التي تواجه الأمة، ودورهم في معالجة هذه المشاكل بكل صبر.

فالصبر والمصابرة على البلاء، واجب في طريق الدعوة المحفوف بالحن والصعاب، وعلى الداعية الثبات والتحلي بالصبر عند مواجهة هذه المشاكل، إذ يحظى مفهوم الصبر بمكانة محورية في المنظومة الإسلامية، ويُعد من أكثر القيم تكراراً في القرآن الكريم الذي أبرز منزلة الصابرين في "أكثر من مائة موضع، وقد أكملت السنة النبوية من خلال الأحاديث التي حثت على التحلي بهذه الفضيلة، وسردت نماذج عملية تصف هذا البناء من صبر الأنبياء والأولياء، وتُمثّل السيرة النبوية التجسيد الحي الأعلى لمفهوم الصبر، من خلال المواقف العملية التي عايشها الرسول ﷺ في مسيرته الدعوية. وفي هذا الإطار، يتحتم على الداعية أن يتبنى الصبر كمنهج عمل وسلوك، إذ

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص62.

يُشكل الركيزة الأساسية لتحقيق الاستمرارية والنجاح في مواجهة التحديات، وضماناً لاستدامة المسيرة الدعوية رغم تعاضم الصعوبات واشتداد المحن¹.

أضف إلى ما تقدم، فإن هذه السنن تغرس روح المبادرة بعد اتخاذ هذه الأسباب، وتنمي ثقافة المسؤولية الفردية وفق سنة التغيير، والتأهيل النفسي للأفراد، من خلال الحث على العمل الإيجابي والمساهمة الفعّالة في بناء مجتمعاتهم، وتحمل المسؤولية اتجاه أفعالهم الممارسة، بالإضافة إلى تنمية القدرات الذاتية وبناء الثقة بالنفس، عن طريق مساعدة الأفراد على اكتشاف طاقاتهم ومواهبهم، والعمل على تطويرها، لتعزيز ثقتهم بأنفسهم وتشجيعهم على المبادرة والإبداع، انطلاقاً من قدوات إسلامية ونماذج من التاريخ المعاصر الناجحة، لتكون نبراساً يهتدى به.

ومن ناحية أخرى، تنعكس توصيات سنن التمكين أيضاً على المجتمع، بتعزيز السلوك الحضاري فيه، ويكون هذا التمكين الخارجي بالعمل الجماعي المنظم، وتحويل الأفراد إلى كتلة مترابطة، من خلال التكافل الاجتماعي، والتنمية المجتمعية وتعزيز الروابط بينهم، وكلها آليات لتحقيق التمكين المجتمعي، حيث يتحقق التكافل الاجتماعي عبر؛ إنشاء ودعم جمعيات ومؤسسات العمل الخيري، التي تقدّم الإعانة والإغاثة للمحتاجين، وأيضاً من خلال الدعوة إلى تجسيد مبادئ التكافل الاجتماعي، التي أوصى بها الإسلام، ومن صورها التعاون، الزكاة، الصدقات، والأوقاف، أما بالنسبة للتنمية المجتمعية، فتتحقق من خلال إنشاء مشاريع تنموية، توفر فرص العمل وتحسّن الظروف المعيشية، وتعالج قضايا الفقر، البطالة، المشكلات الأسرية؛ كالعنف والإدمان...

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هذه التوصيات التطبيقية؛ تطال أيضاً رعاية الأسرة والاهتمام بها، كخلفية أساسية في بناء المجتمع، وإرساء معاني المودة والرحمة، والمعايشة بالمعروف داخلها، والسعي لحل النزاعات والإصلاح في حال وقوع خصومات في المجتمع، عبر لجان وجماعات مؤهلة للنصح والإرشاد، والقيام بشعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وتأسيساً على ما سبق، يتعزّز في المجتمع روح التدافع الإيجابي عبر تنمية الوعي بالقيم والهوية، وحماية الأسرة والمجتمع من موجات التغريب والانحلال.

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 303.

المطلب الثالث: توصيات تنظيمية للمؤسسات الدعوية:

إن العمل الدعوي المعاصر أصبح عمل مؤسسات، ولا غنى للمؤسسات عن نظام واضح، ورؤية استراتيجية، وهياكل قادرة على التعامل مع السنن بوعي وتخطيط، فالتمكين لا يتحقق إلا بوجود تنظيم فعال قادر على الاستمرار والتأثير، ومواجهة التحديات وتنسيق الجهود، ومن أبرز التوصيات التنظيمية للمؤسسات الدعوية المعاصرة ما يلي:

تطوير البنية التنظيمية للمؤسسات الدعوية، من خلال تبني رؤية استراتيجية بعيدة المدى منسجمة مع السنن الإلهية، تربط بين الإحياء العقدي، والتجديد العلمي، والبناء الحضاري، وكذا اعتماد التخطيط المؤسسي في البرامج الدعوية، والانتقال من العشوائية إلى العمل المعتمد على الدراسات والمؤشرات، وإنشاء لجان داخلية مختصة بفقه السنن، تساعد على توجيه القرار وتقييم الأداء.

وإنّ الدعوات الرافضة لمبدأ التنظيم في العمل الإسلامي، من منظور تحليلي، تشكّل عاملاً يعرّز استمرار حالة الضعف الهيكلي الذي تواجهه الأمة، وهذا الرأي يستند إلى حقيقة تاريخية مفادها، أن مصادر القوة وتحليلاتها لم تتحقق إلا عبر أطر تنظيمية محكمة، حوّلت الطاقات الفردية إلى فعل جماعي منظم، في مقابل الممارسات العشوائية التي تفتقر إلى التخطيط الاستراتيجي والرؤية الواضحة¹.

وفي هذا الإطار فإنّ التخطيط الاستراتيجي، من شأنه أن يساعد في تحديد الأهداف القريبة والبعيدة المدى، وربطها بسنن التغيير والنهضة، فيجب على المؤسسات الدعوية التخطيط المستقبلي والرؤية الواضحة، من خلال وضع استراتيجية متكاملة، "ولضمان فعالية التخطيط الدعوي وتحقيقه للأهداف المرجوة، لا بد من الالتزام بمجموعة من الضوابط والمعايير الأساسية، يأتي في مقدمة هذه الضوابط أن يُسند عملية التخطيط إلى ذوي الكفاءة والاختصاص من الخبراء في المجالات العلمية والعملية المتنوعة، لضمان شمولية الرؤية ودقة التنفيذ، كما يُشترط أن يكون التخطيط جماعياً، يستند إلى مبدأ الشورى وتكامل الآراء، لتحقيق المشاركة الواسعة وتجنب الآراء الفردية.

كما يجب أن يتسم التخطيط بالعقلانية والرؤية المستقبلية، بحيث يتجاوز ردود الفعل الآنية ويُراعي التحديات، والفرص المتوقعة على المدى البعيد، وينبغي أيضاً أن يكون التخطيط متوازناً، يحقق الانسجام بين المتطلبات الواجبة والموارد والإمكانات المتاحة، لضمان الجدوى والاستدامة، ويظل الشرط الأساسي أن يكون التخطيط منضبطاً بالأحكام الشرعية، والإطار الأخلاقي الإسلامي، مع الأخذ بالاعتبار الدروس المستفادة من

¹ - فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مرجع سابق، ص12.

التجارب السابقة والتحديات التي يفرضها الواقع"¹.

تُعد المؤسسات الدعوية ركيزة أساسية في نشر الوعي الإسلامي وتصحيح المفاهيم الشرعية، حيث تهدف من خلال برامجها المنظمة كالدروس والمحاضرات والدورات التعليمية إلى مكافحة مظاهر الجهل والأمية، وذلك باستغلال أدوات الإعلام الحديثة مثل مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية لبلوغ أبعد نطاق جماهيري ممكن، وفي هذا السياق، تبرز أهمية توظيف المساجد والمراكز الإسلامية، والمدارس كمراكز إشعاع ثقافي وتربوي، لقدرتها على الجمع بين التربية الشرعية الأصيلة ومتطلبات العصر الحديث، ما يجعل تعزيز دورها ضرورة ملحة، لترشيد الوعي الجماعي ومواجهة التحديات الفكرية والاجتماعية.

أضف إلى ما تقدم، فإن التدرج والمرونة، من التوصيات التنظيمية للمؤسسات الدعوية في ترسيخ فقه السنن، فالأخذ بمبدأ التدرج في الدعوة والتغيير، حيث تبدأ بمراحل وأهداف صغيرة ثم تتوسع لتحقيق الأهداف والمقاصد الكبيرة، من أبرز النقاط التنظيمية لنجاح عمل الحركات الدعوية المعاصرة، وضمان استمراريته، ولا بد من التأكيد أيضا على تطوير منهجيات مرنة، للتكيف مع المستجدات والمتغيرات التي يفرضها الواقع، دون التفريط في الثوابت والأصول.

فلا مناص من القول أنّ الإسلام يتميز " برؤية متوازنة تجمع بين مراعاة واقع الناس، والسعي الدؤوب لتغيير هذا الواقع والارتقاء به نحو كمال إنساني ممكن، فإذا كان من المقرر شرعاً أن التدرج في تطبيق الأحكام ومراعاة الظروف أصل منهجي تتخذه الشريعة، فإن الإسلام من ناحية المبدأ يرفض رفضاً قاطعاً أي محاولة لتبرير الواقع المنحرف أو تقنين انحرافاته.

ومن هذا المنظور، يظل الهدف الجوهرى للإسلام هو تحقيق تغيير إيجابي وتربوي في الواقع الإنساني، وهو مشروع استراتيجي لا ينبغي أن تحجبه المرونة الشرعية والإجراءات الواقعية التي تأخذ بعين الاعتبار ظروف الناس، بل يجب أن يبقى هذا الهدف حياً في الوعي الجمعي، وأن تظل غاية الارتقاء بالواقع الإنساني نحو الآفاق الحضارية الإسلامية -بما تتضمنه من قيم عالمية وإنسانية شاملة -أولوية دائمة للأفراد والجماعات والمجتمعات والأمة بأسرها"².

ولعل هذه التوصيات التنظيمية، تكون سببا في مساعدة الحركات الدعوية في تجنب القرارات العشوائية والارتجالية، وتجعل مسار العمل متسقا ومنظما، وإن المتأمل لهدي النبي ﷺ، يلحظ بوضوح حضور هذه المنهجيات التنظيمية، في مؤسسة الدعوة الأولى للإسلام، أين تدرج ﷺ في الدعوة؛ من الدعوة السرية إلى الجهرية،

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص 308.

² - الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مرجع سابق، ص 143.

وبعدها إلى الهجرة ثم بناء وتأسيس الدولة، مع تركيزه ﷺ، على خطط مرحلية قصيرة وطويلة المدى، تستهدف بناء فرد بالتعليم، وإيجاد هيكل قيادي واضح بالتنظيم، والعمل الجماعي لزيادة التأثير.

ومما لا شك فيه، فإن الأدبيات المعنية بالعمل الإصلاحي والدعوي، تُجمع على أن تحقيق الوحدة والتنظيم، إذ يمثل غاية محورية لهذه الحركات والمؤسسات، كما يعدّ التنظيم أحد أبرز عوامل نجاحها، استناداً إلى السنن الاجتماعية والشرعية، "فمن خلال التنظيم المحكم تتخطى المؤسسات الدعوية مشكلات العشوائية والارتجال، إذ يعد النظام آلية ضرورية لتحقيق الاستغلال الأمثل للطاقات وتوجيهها بصورة منتجة في مجال الدعوة، مما يرفع من احتمالات تحقيق الأهداف المرجوة"¹.

وعلى النقيض من ذلك، فإن افتقاد التنظيم يؤدي حتماً إلى تبديد الجهود، وضعف التوجه، وعليه تبرز الضرورة لإنشاء هياكل مؤسسية متكاملة، قادرة على توحيد الجهود وتنسيقها، بما يعزز التلاحم المجتمعي ويوحد الصفوف، في إطار رؤية دعوية موحدة، فعلى الرغم من وجود الاختلافات الدينية أو الفكرية، فهي تنبذ كل مظاهر الفرقة والاختلاف، وتحث على التنسيق والتعاون قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/2.

وفي إطار هذه التوصيات فإن تعزيز الحضور المجتمعي لهذه المؤسسات الدعوية، يلعب دوراً كبيراً في زيادة تأثيرها وضمّان ديمومتها، إذ تُعتبر المشاركة الفاعلة في الشأن العام والتعاون مع المؤسسات المدنية والاجتماعية مدخلاً أساسياً لتعزيز هذا الحضور، من خلال التعاون والانخراط في معالجة القضايا المجتمعية والمساهمة في حل المشكلات الاجتماعية، من خلال إقامة شراكات استراتيجية مع الجمعيات الخيرية، في المشاريع الإغاثية والتنمية، أو مع المؤسسات التعليمية في تصميم برامج تربوية هادفة.

"فالذي ينقص ليس الوسائل والكيفيات، بل هو التعاون الذي يتطلب تجاوز التحديات الذاتية التي تواجه العاملين في الحقل الدعوي، حيث يشكل غياب الإرادة الجماعية والأنانية المفرطة وعدم تقبل الرأي الآخر عوائق جوهرية. وعليه، فإن تعزيز قيم التعاون والتغلب على هذه المعوقات يستلزم إعلاء صوت الحكمة والتعقل في معالجة القضايا، والارتقاء بالإحساس الصادق بمصلحة الإسلام والدعوة، والمصلحة العامة للأمة فوق أي اعتبارات"².

1 - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص 463.

2 - الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مرجع سابق، ص 285-286.

ونقطة أخرى يُرشد إليها فقه السنن، لتوجيه الحركات والمؤسسات الدعوية، مفادها التنوع في الوسائل وتوظيف التكنولوجيا، لأن الحركات الدعوية المعاصرة مطالبة اليوم بالتجديد والابداع، والاستفادة من التقنيات الحديثة لمواكبة العصر، وتوظيف كافة وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، مع الحفاظ على أصالة أفكار الرسالة الدعوية، وتوسيع دائرة تأثيرها عبر التقنيات والأدوات الرقمية، كاستخدام منصات التواصل الاجتماعي والمنديات الرقمية والمنصات التعليمية، التي تتيح نشر المحتوى الدعوي المتنوع بسرعة وفعالية، ويجب أن يركز الدعاة على استخدامها للتفاعل المنتظم، والمستمر مع الجمهور، وتقديم محتوى جذاب وهادف يلبي حاجاتهم الفكرية والروحية.

وفي المقابل، يقوم جوهر الحركات والمؤسسات الدعوية على العنصر البشري، إذ تُعدّ سنن التمكين إطاراً موجهاً في إعداد القيادات الدعوية الرشيدة، وانتقاء الكفاءات القادرة على النهوض بأعباء التوجيه والإرشاد، فالقيادة ذات الكفاءة ليست مجرد موقع تنظيمي، بل هي عنصر حاسم في انتظام العمل الدعوي واستقراره، ولهذا يؤكد الباحثون "أنّ الموقع القيادي في أي حركة دعوية، موقع بالغ الحساسية؛ فإذا لم تتوفر في القائد خصائص القيادة الفاعلة ومهاراتها، فإن البنية القيادية تظل عرضة للاضطراب والاهتزاز، مهما بلغ القائد من تحصيل معرفي أو قدرة خطابية، وذلك لأن منطق الحركة الدعوية يختلف عن مجرد حسن القول والخطابة؛ فهي جهاز حركي متكامل، لا يُحسن إدارة مساراته وضبط إيقاعه، وتوجيه تفاعلاته إلا منطق التنظيم والتخطيط والانضباط المؤسسي"¹.

ولعل أبرز الخصائص القيادية والتي فصلنا فيها سابقاً، أن يكون القائد قدوة حسنة بما تحمله الكلمة من معاني وأوصاف، وهي "عامل أساسي وهام في عملية التربية... إنه لا يكفي للداعية أن يكون فقيهاً عالماً أو خطيباً لامعاً، بل لا بد وأن يكون فوق هذا ومعه؛ تقياً ورعاً عاملاً بعلمه، فإذا خالف العمل العلم مُنع الرشد وحُجب الهدى وانعدم الأثر"².

وقد أشار عبد الكريم زيدان إلى أصلين كبيرين، بهما يكون الداعية المسلم قدوة لغيره؛ هما "حسن الخُلُق، وموافقة العمل للقول، فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعي، وكانت سيرته الطيبة دعوة صامته إلى الإسلام، وإن فاته هذان الأصلان ساءت سيرته، وصارت دعوة صامته منفرة عن الإسلام"³.

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص 76.

² - المرجع نفسه، ص 149.

³ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مرجع سابق، ص 486.

ولا مناص من القول أن ضمان شفافية القرار الدعوي، وتوزيع المسؤوليات، وتحقيق الانسجام الداخلي للمؤسسات الدعوية، الذي يمثل شرطاً سننياً لنجاح أي مشروع إصلاح، سبيله تطبيق مبدأ الشورى، فسنن التمكين ترسخ بوضوح العمل بالشورى، كأحد مبادئ القيادة الإسلامية الرشيدة، انطلاقاً من قوله تعالى: **﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾** الشورى/38، وهذا ما يكفل ويضمن مشاركة الجميع في اتخاذ القرار، "فالشورى صفة أساسية من صفات النظام الإسلامي، وسمة أصيلة من سمات التشريع، وفي المقابل فإن الأمور التي ورد فيها نص فلا يمكن أن تكون محلاً للشورى، ولا موضعاً للاجتهاد"¹، بها تتشكل الروح الجماعية التي ركزت القيادة على بعثها، كروح تسري في العمل الدعوي، وتأكيد عوامل الاتفاق ووحدة الصف التي تُعد من أهم عوامل التمكين.

وجدير بالذكر أن هذه القيادة تحتاج إلى إعداد معنوي ومادي، ولهذا حرصت هذه السنن على تأكيد التكوين القيادي والهيكل التنظيمي، من خلال تأهيل قياداتها على أسس علمية وشرعية، وإنشاء هياكل تنظيمية واضحة تحدد الأدوار والمسؤوليات، ولأن القيادة الرشيدة أدركت قيمة الاستثمار في الأفراد، عملت على تفعيله، مدركة أن الثروة الحقيقية للحركة هي أفرادها، فعملت على تكوينهم وتأهيلهم علمياً وفكرياً وروحياً، ليصبحوا قادة وبنات المستقبل، ولا سبيل لذلك إلا بطلب العلم، فهو "يُكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم"²

وفي الختام فإن الحركات الدعوية المعاصرة، التي نجحت في توجيه عملها نحو التمكين، هي تلك التي تبنت منهجية واضحة مستلهمة من سنن الله الثابتة، حصرها الأساس بناء الفرد؛ إيماناً وأخلاقاً وعلمياً ومهارياً، وتكوين مجتمع قوي متماسك تسود فيه قيم الإسلام ومبادئه، بفضل القيادات الرشيدة المؤهلة، الأمر الذي مكّنها، أو سيمكّنها من ترك أثر إيجابي في مجتمعاتها رغم التحديات، من خلال وضوح الرؤية والهدف، البناء المنهجي، والواقعية والمرونة، واقتفاء أثر القيادة النبوية في بناء الأفراد وتوجيه العمل بروح جماعية وإيمان عميق.

وفي ختام جملة التوصيات المنهجية والتطبيقية والتنظيمية، الهادفة إلى تفعيل سنن التمكين في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة، يتبين أنّ تحقيق التمكين ليس نتاج جهود ظرفية أو مبادرات جزئية، بل هو ثمرة رؤية شمولية تجمع بين صفاء التصوّر، وسلامة المنهج، ورشادة الممارسة، وحسن البناء المؤسسي، فالتفعيل الحقيقي لسنن التمكين يقتضي ترسيخ الأسس العقدية والمنهجية، وتجويد الأداء التربوي والحركي، وتطوير أدوات التخطيط والتنظيم، بما يعزز فاعلية الخطاب الدعوي وقدرته على الاستجابة لتحديات الواقع ومتغيراته.

¹ - فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص 180.

² - محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مرجع سابق، ص 98.

كما يستلزم اعتماد هيكلية تنظيمية مرنة، وقيادات مؤهلة تتمتع بالكفاءة والوعي الاستراتيجي، قادرة على تحويل المبادئ إلى برامج عملية، والغايات الكبرى إلى خطط قابلة للتنفيذ، ومن ثم فإن مجموع هذه التوصيات يهدف إلى إرساء دعوة راشدة، تنسجم في جهودها مع سنن الله في الإصلاح والتمكين، وتنهض بدور فاعل في بناء مجتمع واعي، متماسك، ومتمسك بقيمه وأولوياته الحضارية.

ولعله من المناسب أن نقف في نهاية هذا الفصل الموسوم بـ: دراسة تطبيقية لتجليات سنن التمكين في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على خلاصة جامعة لما ورد في مباحثه الخمسة، فنقول:

أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تُعدّ نموذجاً سننياً متميزاً، في مجال العمل الدعوي والإصلاحي، حيث تجسّد فيها الوعي العميق بسنن التمكين الإلهية من خلال منهجية متكاملة استندت إلى مرجعية قرآنية واضحة. وقد أدرك مؤسسها عبد الحميد بن باديس حقيقة السنن التاريخية فجعل من مقولة "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" منهاجاً لإصلاح ديني ودنيوي متوازن، يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويربط بين النظري والتطبيقي.

دار المبحث الأول من الفصل حول تفاعل الجمعية مع سنن الابتلاء، بوصفها محطةً لصقل الهمم وتمحيص الصفوف، حيث حوّلت التحديات الاستعمارية إلى فرص للبناء والتغيير. كما أدركت سنة الأخذ بالأسباب فعملت على بناء المؤسسات التعليمية والإعلامية، مع التركيز على إعداد الإنسان الجزائري إيماناً وثقافياً، وكان هذا مضمون المبحث الثاني، أما المبحث الثالث فقد كشف عن تجلّي فقه السنة التغييرية في مشروع الجمعية الشامل، الذي استهدف إصلاح العقيدة والسلوك، ومحاربة البدع والخرافات، وبناء الشخصية المسلمة الواعية. وفي إطار سنة التدافع، قدّمت الجمعية نموذجاً للصمود والمرونة، حيث وازنت بين الثبات على المبادئ والتكيف مع المستجدات، محققةً توازناً حضارياً مكّنها من الحفاظ على الهوية الإسلامية في مواجهة محاولات الطمس والاستلاب، كمبحث رابع.

وقد أثبتت هذه التجربة أن التمكين الحضاري يتحقق عبر تفعيل تكاملي لسنن الابتلاء والأخذ بالأسباب والتغيير والتدافع، في إطار دورة إنجازية متكاملة الحلقات.

وتظلّ الدروس المستفادة من هذه التجربة تمثّل إراثاً منهجياً للحركات الدعوية المعاصرة، تؤكد أن النجاح مرهون بفقه السنن الإلهية، والجمع بين الإيمان العميق والعمل المنظم، والربط بين الإصلاح العقدي والبناء الحضاري، مما يضع أسساً رصينة لاستئناف دور الأمة الحضاري.

وعلى هذا الأساس خصّصنا المبحث الخامس لتوصيات تفعيل سنن التمكين في مسيرة الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة، كونها ضرورة منهجية تتطلب تبني رؤية متكاملة تبدأ بإرساء أسس فقه السنن الإلهية، ضمن مناهج التأهيل الشرعي والدعوي، وعبر إحياء المنهج القرآني في تدبر التاريخ والواقع، والاستفادة من التراث الإسلامي في فلسفة التاريخ، والانتقال من الفهم الوعظي إلى الفهم القانوني للسنن.

وعلى المستوى التطبيقي، يتعين بناء الفرد الرسالي عبر التأهيل الداخلي، الذي ترشد إليه برامج تربوية، تعزز قيم الإخلاص والعمل الصالح والصبر، مع التركيز على اختيار القيادة الرشيدة، وإصلاح البنى المجتمعية من خلال تفعيل التكافل الاجتماعي، وإقامة العدل وترسيخ العمل الجماعي المنظم، أما على الصعيد التنظيمي، فيجب تطوير البنى الهيكلية عبر تبني التخطيط الاستراتيجي، القائم على دراسات الواقع، وبناء هياكل مرنة قادرة على مواكبة المتغيرات، مع التنوع في الوسائل الدعوية وتوظيف التكنولوجيا الحديثة، ضمن منهجية تتسم بالتدرج والمرونة لضمان تحقيق الحضور المجتمعي الفاعل لهذه المؤسسات الدعوية.

خاتمة

الحمد لله الذي شرع لنا منهجاً واضحاً للتمكين في الأرض، وجعل النصر والاستخلاف ثمرة للعمل بسننه الثابتة، وقوانينه المطردة، التي ترتبط به ارتباطاً وظيفياً، في علاقة تكاملية تلازمية، بحيث لا يتحقق تمكين دون تفعيل وإعمال لجملة هذه السنن التي تعتبر سُنناً وَلِبَنَاتٍ أساسية لبلوغ مدارج التمكين ومساكنه، فلقد كشفت لنا دراسة سنن التمكين حكمة الله البالغة في إدارة شؤون خلقه، حيث جعل لكل مسبب سبباً، ولكل نصر شرطاً، وقد تبين من خلال هذا البحث، أن التمكين ليس أمراً اعتباطياً، بل هو نتيجة حتمية للالتزام بمنهج رباني متكامل، فسنة الابتلاء تمثل المحك الحقيقي لإيمان الدعاة، وهي المعيار الذي يفصل بين الصادقين والمنافقين، وقد أظهر البحث أن الابتلاء يُعدُّ المدرسة الحقيقية التي تخرِّجُ دعاةً أقوياء، قادرين على حمل الأمانة، ومواجهة المحن والتحديات، فالابتلاء في السياق الإسلامي يُعد اختباراً إلهياً يهدف إلى تمكين المؤمنين وتبيان صدق الدعوة، وهو ليس عقبة تعيق مسير العمل الدعوي، بل هو عملية تربوية تصقل النفوس، وتكشف عن أقوى عناصر الإخلاص والثبات على الحق في شخصية الداعية، لتمكين رسالته في قلوب وعقول المتلقين، بتحويل كافة التحديات إلى فرص من البناء والإصلاح والتغيير، أما سنة الأخذ بالأسباب فهي تذكرنا بالتوازن الشرعي، بين التوكل على الله، والقيام بواجب الأخذ بالوسائل المادية، إذ ترفع من كفاءة العمل الدعوي، وتجعله أكثر تأثيراً وانتشاراً، لأنها ليست مجرد تعاليم نظرية، بل هي منهج حياة متكامل يؤسس للنجاح والتمكين في شتى الميادين، وعلى رأسها العمل الدعوي، إنها دعوة للفرد والمجتمع الإسلامي للاستفادة من كل ما سخره الله في الكون، من علوم ومعارف وقدرات، لبذل أقصى الجهود الممكنة، مع ربط القلب بالله والتوكل عليه في كل صغيرة وكبيرة، هذا التوازن الفريد بين السعي الجاد والاعتماد الخالص على الخالق هو ما يمنح العمل الدعوي قوته، واستدامته، وقدرته على تجاوز التحديات وتحقيق أهدافه النبيلة، فالنصر والتمكين لا يأتيان بالتواكل والتكاسل، بل بالعمل الدؤوب والإيمان الصادق بأن الله مسبب الأسباب ومدبر الأمور. أما سنة التغيير فتشير إلى أن طريق التمكين يبدأ من الداخل، فالتغيير الحقيقي ينبع من تغيير النفوس، وهذا يؤكد مدى تأثيرها على التربية، والإعداد العقدي والفكري والسلوكي، و عليه كانت مقومات هذا التغيير السنني ثلاثة مقومات بنيوية متكاملة؛ أولها العقيدة الصحيحة التي تُعيد تشكيل النسق المعرفي والأخلاقي للداعية، وتحدد منظومة قيم تضبط سلوكه وممارساته، وتُكسبه هذه العقيدة القدرة على المبادرة، والثبات، وحسن الموازنة بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب، وهو ما يعزز فاعلية العمل الدعوي، أما المقوم الثاني فهو الإنسان الذي يمثل محور عملية التغيير وركيزة نجاحها، إذ لا يمكن تحقيق تحول دعوي دون إعداد فرد يمتلك الوعي الرسالي، والكفاءة العلمية والخلق الرفيع، وكل ضعف في بناء هذا الإنسان ينعكس مباشرة على هشاشة المشروع الدعوي، ويأتي فهم الواقع باعتباره المقوم الثالث، حيث يمكن الداعية من قراءة محيطه قراءةً موضوعية، وتشخيص تحدياته وفرصه، واختيار الوسائل المناسبة لهذا التغيير.

كما أثبتت سنة التدافع أن الصراع بين الحق والباطل سنة ماضية، لكنها في الوقت نفسه تضمن بقاء الحق وقوته، وتعمل على تنقية الصف الدعوي وتمحيصه من الضعفاء، وهي ليست صراعا دينيا فكريا اجتماعيا حضاريا، بل هي آلية لحماية الدعوة من الانحراف، وفرصة لابتكار أدوات دعوية جديدة، وتذكير بأن الباطل زائل مهما طال أمده، ففهم هذه السنة هو بمثابة مفتاح، يمنح الدعاة رؤية استراتيجية ويحوّل التحديات والعقبات التي تواجهها إلى سلّم لصعود درجات التمكين، أما سنة التداول فهي تبعث الأمل في نفوس الدعاة، وتذكرهم أن دوام الحال من المحال، وأن نصر الله آت لا محالة ما داموا مستقيمين على منهجه. وبالتالي يمكن القول أنّ سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، هي بمثابة خارطة طريق واضحة المعالم، لكل من يسعى إلى نشر الدعوة الإسلامية، فهي دعوة للعمل الجاد، والصبر الجميل والثقة المطلقة بالله، والأخذ بكافة الأسباب ليكون المسلمون أهلا للتغيير، وتحقيق وعد الله بالتمكين في الأرض، وولوج حراك التدافع والتنافس، لبلوغ القيادة والريادة الحضارية بين باقي الأمم، فهو تمكين يشمل تمكين العقيدة في القلوب، وتمكين الشريعة في الحياة، وتمكين الأمة في الواقع، وهو ليس غاية في ذاته، بل وسيلة لإعلاء كلمة الله وإقامة دينه، وتحقيق العبودية الخالصة له، ونشر الخير والحق بين الناس جميعا.

وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى نتائج بالغة الأهمية، تجلت في تحقق سنن التمكين الإلهية في مسيرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي مثّلت بدورها نموذجا فريدا للعمل الدعوي المنظم، القائم على فهم السنن الإلهية في التمكين، وكانت بدايتها سنة الصبر على الابتلاء التي تجسدت من خلال المحن المتتالية التي واجهتها الجمعية، بدءًا من مقاومة الاستعمار الفرنسي، ومرورا بإغلاق المدارس والنوادي ومصادرة الصحف، وانتهاء بسجن ونفي أعضائها ورجالها، فكان تضيق الإدارة الاستعمارية يهدف لمنع الانتشار الدعوي، وتشويه صورة الجمعية واتهامها "بالتحريض" أو "الرجعية الدينية" لتقليل تأثيرها على الشعب.

ولكن على الرغم من صعوبة الامتحان، إلا أن النجاح الذي حقّقته الجمعية في هذا الابتلاء، كان بسبب منهجها الحكيم لاتخاذ أسباب النصر والتمكين، من إخلاص لله تعالى في عملها الدعوي، مع الصبر على الأذى والتحديات، الثبات على المبادئ رغم الضغوط والمغريات، مع مرونتها في اتخاذ وسائل المواجهة، لتشكّل بذلك جوهر نضالها واستمرارية رسالتها في طريق الدعوة إلى الله تعالى، ليكون هذا الابتلاء مناخا طبيعيا لتصفية الصف، وتمحيص القلوب وبناء الشخصية الدعوية الصلبة.

كما تجلت سنة الأخذ بالأسباب عند الجمعية التي آمنت بمبدأ الشمولية في الدعوة والإصلاح، من خلال حرصها على تصحيح الجانب العقدي لأفراد المجتمع، بالإضافة إلى الجانب الثقافي التعليمي، وأيضا الجانب

السلوكي الأخلاقي، من أجل مواجهة كافة الانتكاسات الفردية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع الجزائري، تمهيدا لإحداث التغيير، والذي يكون بواسطة ما سنّه الله من أسباب في هذا الكون، واتخاذ الوسائل المادية والمعنوية التي تحقق تلك الغايات في بلوغ التمكين، وقد ترجم منهجها الوسطي الذي يجمع بين السعي الجاد والتوكل الصادق على الله تعالى، سواء على الصعيد التعليمي، الاجتماعي، أو حتى في مساندة حركة التحرر الوطني، أن النجاح والتمكين لا يأتي بالخمول والكسل أو الاعتماد الكلي على الوسائل والظواهر المادية وحدها.

بل إنّ التمكين هو نتيجة لتضافر الجهود البشرية مع الإيمان المطلق بقدرة الله تعالى وتوفيقه، التمكين جدّ وعمل، وليس أمنية وحلم، فالنجاح الدعوي لا يتحقق بالتمني، بل بالعمل المؤسسي والعلمي، لأن التوكل على الله لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، بل إن الإعداد والتخطيط وبذل الجهد، جزء لا يتجزأ من الإيمان.

أما سنة التغيير فقد تمثلت في المنهج الإصلاحي الشامل الذي انتهجته الجمعية، حيث بدأت بتفعيل التغيير المحوري للإنسان، قبل المطالبة بتغيير الواقع، فعملت على إحداث تغيير عقدي روحي، وتغيير فكري ثقافي، وتغيير سلوكي عملي، في هذا المشروع التغييري للإنسان، مدركة بذلك أنّ التغيير الداخلي شرط للتغيير الخارجي، وأن إصلاح الإنسان مقدم على إصلاح المؤسسات، ما جعل الجمعية تركز على التغيير العقدي والفكري والسلوكي لأفراد المجتمع، لتغيير الوعي الشعبي وبناء جيل متعلم وواعي، قادر على استعادة الهوية وتحقيق التقدم والتغيير.

كان جوهر التغيير العقدي إحياء الإسلام الصحيح والعودة بالدين إلى منابعه الأولى، لإنقاذ المجتمع من ضلالة البدع والخرافات المتفشية، ومن ظلمات الجهل والتقليد الأعمى، وخطر التبشير ووسائله المغرية، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس، والنوادي وكذلك الأماكن العامة،

وبالإضافة إلى التغيير العقدي لأفراد المجتمع الجزائري، برزت معالم التغيير الفكري الثقافي في العمل الدعوي للجمعية، أين شرعت في إنشاء شبكة واسعة من المدارس والمعاهد لنشر التعليم العربي الإسلامي للصغار والكبار، للرجال والنساء، تعليما مكتيبا ومسجديا على كافة ربوع الوطن، لمحو ظلام الجهل والامية، وتكوين جيل جديد متعلم مثقف وواعٍ، يكون جُنُدا قياديا مؤهلا لكل أنواع الإصلاح والتغيير.

أضف إلى ما سبق فقد عملت الجمعية أيضا على تفعيل التغيير السلوكي العملي، حيث باشرت برنامج التغيير بتنزيل القيم والأحكام والمبادئ الدينية على الواقع الاجتماعي للمجتمع الجزائري، مع ضمان الاستمرارية فيه، لبلوغ مدارج الكمال والرفي الحضاري.

وتجسدت سنة التدافع عند الجمعية من خلال جراكها وتنافسها، مع مشروع الاستعمار الفرنسي الذي

سعى إلى إلغاء المرجعية الدينية، وطمس الهوية الجزائرية العربية، وتغييب منظومة القيم النهضة، لكن جمعية العلماء المسلمين وقفت سدا منيعا أمام حملات التبشير المسيحي، وسياسة الفرنسة والإدماج والتغريب، وهذا دليل ومؤشر واضح لمدى وعيها بواجبها اتجاه دينها من جهة، وحرصها على حفظ مقومات الهوية الإسلامية العربية للمجتمع الجزائري من جهة أخرى، ناهيك عن فقها لهذا المنهج السنني التدافعي كونه سبيل للصالح والفلاح، ودرء الفساد والهلاك، فاعتمدت في عملها الدعوي مجموعة آليات عملية ومتكاملة، لتحريك المجتمع الجزائري نحو الأحسن والأفضل، فالمدرسة تُخرج الشاب الواعي، والمسجد يُزكي روحه، والصحيفة تشكّل فكره، والنادي يحتضن طاقاته، والتنظيم يوحد جهوده، وبهذا التكامل والتناسق والاستمرار في البناء استطاعت جمعية العلماء المسلمين أن تخوض مدافعة حضارية شاملة ضد الاستعمار الفرنسي.

كانت الهوية الجزائرية ببعديها العربي والإسلامي؛ ساحة رئيسية لسنة التدافع بين جمعية العلماء المسلمين والاستعمار الفرنسي، الذي سعى لطمس مقومات الشخصية الجزائرية، من خلال فرض لغتها وثقافتها، والتحكم في التعليم، وفرض سياسة الاندماج والتجنيس، فكان منطق التدافع جليا في العمل الدعوي للجمعية، التي تصدّت لهذه السياسات باعتبار الدين الإسلامي واللغة العربية ركيزتين أساسيتين للهوية الوطنية، مع حرصها على تشكيل الوعي الوطني وروح الانتماء، لتحصين المجتمع الجزائري والحفاظ على جذوره الحضارية.

وقد شكّل هذا التدافع صفحة راسخة في تاريخ المقاومة الجزائرية، التي نجحت في صون المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، وبناء جيل صالح واع ومدرّك لتاريخه وقيمه، وهذا ما نصّ عليه قانون الجمعية الأساسي، ضد محاولات المستعمر في فرض نمط حياة ومثّل غريبة لأخلاقية، الأمر الذي جعلها تتدافع بقوة لطمس معالم المشروع الاستعماري الديني، الثقافي، الاجتماعي، السياسي، وفي المقابل أسهمت في بناء مقاومة فكرية تجسّد معالم الهوية الدينية والثقافية للأمة الجزائرية، وتعزّز الوعي الوطني لأبنائها.

ولعل أبرز السنن التي تُعد مصبا نثائيا لحركة المدافعة؛ سنة التداول الحضاري التي شهدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي، وتشير إلى حقبة زمنية من التفاعلات الثقافية والاجتماعية والصراع الهوياتي خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولم يكن هذا التداول تبادلا حضاريا متكافئا، بل كان صراعا وتدافعا محوريا بين مشروع استعماري وآخر إصلاحية، في هذا التداول تحولت الأدوات الثقافية والتربوية إلى أسلحة نضالية ضد الاحتلال، مما أدى إلى تعزيز الوحدة الثقافية والهوية الجزائرية كبديل حضاري للمحاولات الفرنسية.

وختاما تؤكد دراسة هذا النموذج من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن التمكين الحقيقي للعمل الدعوي لا يتحقق بالتمني، بل هو نتيجة حتمية للتفاعل الواعي مع سنن الله الثابتة في الكون والمجتمع، وقد

قدمت الجمعية دليلا عمليا على أن الأمة التي تستوعب هذه السنن، وتعمل بها في واقعها، فإنها تحقق النصر والاستخلاف وعمارة الأرض، مهما بلغت قوة التحديات وعظمت الصعاب، فالتمكين الحقيقي للعمل الدعوي مرهون بالاستجابة لهذه السنن الإلهية، والتفاعل معها بوعي وفهم، لأنها ليست مجرد نظريات، بل هي منهج حياة يضمن تحقيق النصر والاستخلاف، وإقامة دين الله وشرعه في الأرض.

- أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة:

من خلال دراستنا لموضوع "سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجاً" انتهينا إلى جملة من النتائج أبرزها:

- أثبتت الدراسة أن سنن التمكين ليست نظريات مجردة، بل هي قوانين إلهية ثابتة تحكم حركة التاريخ والنهوض الحضاري، وتشكل أساساً منهجياً متيناً للعمل الدعوي.
- أكدت النتائج على الترابط والتكامل الوظيفي بين سنن التمكين، كالاتقاء، الأخذ بالأسباب، التغيير، والتدافع، حيث لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، بل تعمل في منهج سنني كنظام متكامل.
- توصلت الدراسة إلى أن فقه السنن يمنح العمل الدعوي مناعة ضد المثالية والارتجالية، ويؤسس لرؤية واقعية تقبل بالتدرج في اتخاذ الأسباب، وتحتمل الابتلاء كسنة حتمية.
- ومن جملة النتائج المتعلقة بالتطبيق العملي لسنن التمكين في نموذج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:
- كشفت الدراسة أن جمعية العلماء أدركت فقه السنن بشكل عملي، فتعاملت مع سنة الابتلاء (الاستعمار، التغريب، الانقسامات) لا كمحنة بل كمنحة لتمحيص الصفوف، وبناء القدرة على الصمود.
- برهنت الدراسة أن الجمعية طبقت سنة الأخذ بالأسباب تطبيقاً شاملاً ومتوازناً، لم يقتصر على الجانب الدعوي الخطابي، بل شمل بناء المؤسسات التعليمية، الإعلامية، الاجتماعية، التي شكلت البنية التحتية للتمكين.
- أظهرت النتائج أن الجمعية فهمت سنة التغيير فهماً صحيحاً، فبدأت بإصلاح الإنسان؛ عقيدة، فكاراً، سلوكاً، كمدخل ضروري وحتمي لأي تغيير في الواقع الخارجي، مما يثبت أنها سعت لتغيير "ما بالأنفس" قبل تغيير "ما بالآفاق".
- اتسم تعامل الجمعية مع سنة التدافع بالحكمة والواقعية، حيث ميزت بين التدافع الفكري والثقافي لصد حملات التغريب والتبشير، والتدافع السياسي والمجتمعي للحفاظ على الهوية، مع التركيز على تحرير العقول كمدخل لتحرير الأرض.

- ومن النتائج المتعلقة بالتوصيات الموجهة للحركات والمؤسسات الدعوية، لتفعيل سنن التمكين أوضحت الدراسة أن غياب الفقه السنني في بعض الأعمال الدعوية المعاصرة، يؤدي إلى ردود الأفعال، والعشوائية واليأس عند أول اختبار، بينما يغرس فقه السنن الثبات والتفاؤل الواعي، مع الفاعلية والاستمرارية.

- بينت النتائج أن نجاح أي مشروع دعوي معاصر مرهون بمدى تطبيقه لسنة الأخذ بالأسباب الشاملة، والتي لم تعد تقتصر على الوسائل التقليدية، بل تشمل اليوم التمكين الإعلامي، الاقتصادي...

- خلصت الدراسة إلى أن النموذج الجزائري يقدم دليلاً عملياً على إمكانية تحقيق التمكين حتى في أحلك الظروف، إذا ما وُجدت الإرادة مع الفقه والعمل المؤسسي المنظم.

- أبرز التوصيات :

إن دراسة سنن التمكين في العمل الدعوي، من خلال نموذج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ليست مجرد غاية أكاديمية فحسب، بل هي محاولة لاستخراج الدروس والعبر التي يمكن أن تسهم في إعداد بناء المشروع الحضاري للأمم، استناداً إلى قوانين الله الثابتة في الكون والمجتمع.

وفي ضوء ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، فإن الباحثة توصي بما يلي:

- إعداد دراسات متنوعة تُعنى باستنباط سنن التمكين في الحركات والأعمال الدعوية، وعقد ندوات متخصصة في دراسة سنن التمكين، من خلال التعريف بها، ودفع العاملين في مجال الدعوة للاستفادة منها وتوظيفها.

- إصدار نشرات تثقيفية متعلقة بالسنن الإلهية في الأفراد والجماعات، وإيصالها للدعاة في المساجد والمؤسسات التعليمية، لتعريف الناس بها وبيان مدى أهميتها، وجعل العمل التربوي والتعليمي (بناء الإنسان)، هو الأساس والمنطلق لأي عمل دعوي، لأنه الكفيل بإعداد الكوادر الصالحة وخلق القاعدة الشعبية الواسعة.

- ضرورة إدراج تحليل "السنن" في التخطيط الاستراتيجي للمؤسسات الدعوية، من خلال دراسة الواقع وتحليله باستخدام عدسة السنن (أين نحن من سنن الابتلاء؟ هل نأخذ بجميع الأسباب؟ ما طبيعة التدافع القائم؟

- تأسيس مراكز متخصصة لدراسة سنن التمكين، وتدريب الدعاة على فهم هذه السنن لتطبيقها، والعمل بها، فتكون مهمتها رصد الواقع وتحليله سننياً، واستشراف المستقبل، ووضع سيناريوهات للتعامل مع التحديات والفرص المتوقعة.

- ضرورة إدراج فقه السنن ضمن البرامج التدريبية للمؤسسات الدعوية، والبدء في مراجعة استراتيجياتها على ضوء هذه السنن، والتأكيد على مواكبة الوسائل الدعوية، للتطور التكنولوجي ووسائل الاتصال الحديثة، مع الحفاظ على الأهداف والمضامين، لإيصال الرسالة لأكبر شريحة ممكنة في المجتمع.

-دعوة الباحثين لمزيد من الدراسات التطبيقية حول كل سنة من سنن التمكين، "الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التغيير، التدرج، التدافع، التداول... وبحث علاقتها بمجال معين، أو التعمق في دراسة جوانب محددة من تجربة جمعية العلماء المسلمين، مثل: أثر المناهج التعليمية في مساجد الجمعية على تشكيل الوعي المجتمعي، أيضا تحليل تجربة الجمعية في مواجهة الاستعمار الفرنسي من منظور سنن التمكين، دور المرأة والشباب في مشروع الجمعية التمكيني.

-عقد مؤتمرات علمية متخصصة في مجال سنن التمكين، لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لدفع العاملين والباحثين في هذا المجال للكتابة والبحث عنها، والاستفادة من نموذج الجمعية كتجربة ناجحة، في مواجهة التطرف والعنف من خلال بناء خطاب ديني معتدل، ومنافسة الخطابات المتشددة.

-التأكيد على أهمية تبني منهج دعوي وسطي، يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويوازن بين الثوابت الشرعية ومتطلبات العصر، على غرار المنهج الذي تبنته الجمعية، والذي كان عاملا رئيسيا في قبولها وتمكينها.

-إجراء دراسات مقارنة بين نموذج تمكين جمعية العلماء، ونماذج لحركات ودعوات إسلامية أخرى، في العالم العربي والإسلامي.

-تفعيل سنن التمكين في مجالات حيوية، كمجال التربية والتعليم، في مجال بناء الشباب وتأهيل الكوادر، فتفعيل سنن التغيير مثلا يؤدي إلى الانتقال من البرامج الدعوية المجزأة، إلى مشاريع متكاملة تهدف إلى تغيير حقيقي في حياة الأفراد والمجتمعات، مثل مشاريع محو الأمية، وتمكين المرأة اقتصادياً، ومكافحة الآفات الاجتماعية...

-تصميم برامج تربوية تعيد بناء "الشخصية المسلمة المتوازنة" التي تجمع بين قوة العقيدة، وسمو الأخلاق، والوعي الفكري، والمهارة العملية، مع التركيز على غرس "فقه السنن" كجزء أساسي من ثقافته.

-إطلاق برامج متخصصة لإعداد القيادات الشابة التي تجمع بين العمق الشرعي، والفهم السنني، والمهارات القيادية والإدارية العصرية، وتحويل العمل الدعوي من العمل الفردي إلى العمل المؤسسي؛ القائم على الشورى والتخصص، مع وضع آليات واضحة لاتخاذ القرارات ومحاسبة القيادات.

-آفاق بحثية مستقبلية:

لتحقيق فهم شامل لسنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر، بالاستناد إلى نموذج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يمكن طرح آفاق بحثية متعددة أبرزها:

-بلورة نموذج نظري متكامل لفقه السنن في العمل الدعوي، يجمع بين الأصالة الشرعية والمنهجية العلمية المعاصرة، ودراسة مقارنة بين المناهج الدعوية المعاصرة في التعامل مع سنن التمكين، ثم تحليل الإشكاليات المنهجية في تطبيق السنن الإلهية ضمن السياقات الدعوية المختلفة.

- ومن الآفاق التطبيقية الميدانية؛ تقويم تجارب الحركات الدعوية في العالم الإسلامي في ضوء سنن التمكين، ودراسة نماذج ناجحة للتمكين الدعوي في المجتمعات المعاصرة.

-أضف إلى ذلك بناء مؤشرات قياس لمستويات تحقيق سنن التمكين في المؤسسات الدعوية، وتصميم أنظمة تقويم لأداء العمل الدعوي في ضوء السنن الإلهية، ومن الناحية التقنية دراسة توظيف التقنيات الحديثة في تفعيل سنن التمكين الدعوي، وتحليل تأثير وسائل التواصل في مشاريع التمكين الدعوي.

-ومن الآفاق الحضارية الاستشرافية في ذلك، دراسة مستقبل العمل الدعوي في ضوء سنن التدافع الحضاري،

وتحليل تحديات العولمة وأثرها على مشاريع التمكين الدعوي، والعمل على بحث آليات صناعة النموذج الحضاري الإسلامي المعاصر.

وإن هذه الآفاق تمثل إطاراً منهجياً لتطوير البحث في هذا الميدان، إذ يُمكن للباحثين والمؤسسات العلمية الاستفادة منها، في بناء مشاريع بحثية رصينة تخدم واقع العمل الدعوي المعاصر، ومن الآفاق التي تغطي الجانب التطبيقي الخاص بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مايلي:

-تقييم الأثر الاجتماعي والثقافي للعمل الدعوي، أي بيان الأثر طويل المدى للعمل الدعوي لجمعية العلماء على المجتمع الجزائري، وكيف ساهمت في بناء الهوية الوطنية والقيم الاجتماعية؟ وما هي الدروس المستفادة لتطوير العمل الدعوي الحالي؟

-تحليل تأثير الإعلام الرقمي والتقنيات الحديثة، أي كيف يمكن للتقنيات الرقمية، ووسائل التواصل الاجتماعي أن تكون أدوات للتمكين الدعوي؟ وما هي التحديات التي تفرضها هذه التقنيات على العمل

الدعوي المعاصر؟ ودراسة كيفية استغلال جمعية العلماء أو الحركات المشابهة لهذه الأدوات، مع تقييم أثر الدروس والمنشورات والمجلات في الرأي العام، كوسائل عاصرت عمل الجمعية الدعوي.

-دراسة مقارنة مع حركات إصلاحية أخرى، فيمكن إجراء دراسات مقارنة بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وحركات إصلاحية أخرى في العالم الإسلامي، لتحديد العوامل المشتركة التي أدت إلى تمكين هذه الحركات، والاختلافات في أساليبها ونتائجها.

-وفي هذا الإطار يمكن استشراف مستقبل العمل الدعوي، في ضوء تجربة الجمعية، من خلال تحليل التحديات المعاصرة وسبل مواجهتها، وكذا وضع سيناريوهات مستقبلية لتطوير العمل الدعوي.

-أضف إلى ما تقدم فإنه من الآفاق البحثية في المنهجية الدعوية، بحث ودراسة منهجية التجديد الدعوي لدى الجمعية، مع المتغيرات المعاصرة، انطلاقاً من تحليل آليات التكيف والتأقلم، ودراسة منهجية التعامل مع المستجدات الفقهية والاجتماعية النازلة، وكذا تحليل خطاب الجمعية وطرق تأثيرها، الواضحة في الخصائص اللغوية والأسلوبية في خطاب الجمعية، وتحليل منهجية الحوار والتفاعل مع مختلف التيارات.

إنّ هذه الآفاق البحثية تمثل إطاراً متكاملاً لتطوير الدراسات الأكاديمية المتخصصة، وتسهم في استخلاص الدروس المستفادة من تجربة الجمعية، بما يخدم تطوير العمل الدعوي المعاصر ويضمن استمراريته وفعاليته.

الفهارس

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	23	ل
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	30	169
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾	31	6
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾	86	49
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ" فجاء الرد: "تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (111) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾	-111 112	32
﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	151	92
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾	155	77
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	194	161
﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	195	125
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾	207	166
﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَلَيْسَ لِهَذَا الْمَلِكِ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾	247	156، 177
﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	249	50
﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾	250	92، 49
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى	251	123،

216، 362		الْعَالَمِينَ ﴿٢١٦﴾
290	256	﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
153	277	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
سورة آل عمران		
51	12	﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾
256	19	﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾
160	25	﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾
193	39	﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾
29	47	﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
256	85	﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾
181	103	﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾
206	104	﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
181	105	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾
157، 201	110	﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾
128	123	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
160	124	﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾
92، 150	125- 126	﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾

		الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
27	-137 138	﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾
140	139	﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
310	-140 141	﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾
49	147	﴿قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
33	152	﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾
50	160	﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ﴾
33	165	﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
124	179	﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾
191	186	﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾
121	251	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
سورة النساء		
119	6	﴿... فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ...﴾
23، 253	26	﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
374	48	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾

31	-123 124	﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾
158	131	﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾
سورة المائدة		
233	2	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾
146	5	﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
30	9	﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
106	18	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾
133	28	﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾
133	30	﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
228	48	﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
207	-78 79	﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾
157	79	: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾
87	105	﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
سورة الأنعام		
38	6	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا

		السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَازًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٦٠﴾
160	34	﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾
51	56	﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٦٢﴾
121	82	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٦٣﴾
سورة الأنعام		
53	133	﴿وَرُبُّكَ الْعَنِّي ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٦٤﴾
سورة الأعراف		
38	10	﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٦٥﴾
87	39	﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٦٦﴾
23	54	﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾
86	57	﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿١٦٨﴾
75	94	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿١٦٩﴾
56	105	﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٧٠﴾
130، 357	-115 118	﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) ... ﴿١٧١﴾
56، 160	-128 129	﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) ... ﴿١٧٢﴾
54، 53	129	﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾
56	137	﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ لَا يَخِفُونَ ﴿١٧٤﴾
71	168	﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٥﴾

سورة الأنفال		
23	38	﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾
181، 210	46	﴿وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
162	52	﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾
86، 90، 131، 327	60	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾
234	62	﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾
203	63	﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
39	-70 71	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) ...﴾
16	71	﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
203	75	﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
75	168	﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
سورة التوبة		
152	-25 26	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ...﴾
356	-32 33	﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) ...﴾
106	39	﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾
98	40	﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾
157	71	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

		﴿الْمُنْكَرِ﴾
197	103	﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾
98	105	﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
سورة هود		
161	49	﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
53	57	﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾
88	61	﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾
208	-82 83	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾
126	118	﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾
سورة يوسف		
ك، 39، 51	21	﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾
177	22	﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
86	47	﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾
42، 16	54	﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾
40	56	﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
158، 173	90	﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
8، 226	111	﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

سورة الرعد		
104، 116، 171، 216، 331	11	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
ل	14	﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾
120، 129	17	﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾
سورة إبراهيم		
227	5	﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
193	40	﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾
سورة الحجر		
208	-73 74	﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾
سورة النحل		
29	40	﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
25	97	﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
77، 174	125	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالنِّبَاتِ هِيَ أَحْسَنُ﴾
سورة الإسراء		
169، 121	70	﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾
ط، 23	77	﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

132	81	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾
سورة هود		
225	49	﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
17	87	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
33	89	﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمُ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾
سورة الكهف		
51	21	﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾
ك، 15، 94، 40	84	﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا إِنََّّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾
94	-89 92	﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾
40	-94 95	﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾
30	98	﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾
سورة مريم		
86	25	﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِيذْعِ النَّحْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾
56	40	﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾
54	59	﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾
سورة طه		
192	14	﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

سورة الأنبياء		
130	18	﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾
144، 189	25	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾
178	79	﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾
32	88	﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾
56	105	﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
سورة الحج		
87	10	﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾
48	15	﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾
119، 137	38	﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾
118، 121، 220	40	﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيَغٌ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
40، 147، 195	41	﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾
سورة المؤمنون		
191	2-1	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾
42، 16	13	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾
86	27	﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾
سورة النور		
196	33	﴿وَأَنَّهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

ك، 41، 146	55	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾
193	-55 56	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...﴾
سورة الشعراء		
131	-43 47	﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى اآَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) ...﴾
131	-65 67	﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ...﴾
49	-92 93	﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾
سورة النمل		
56، 179	16	﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾
سورة القصص		
57	5	﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾
16	57	﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾
41	57	﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِيطُ إِلَيْهِ فَمَرَأَتْ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
77	-76 78	﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) ...﴾
سورة العنكبوت		
-73، 314 369	2	﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

208	-27 29	﴿وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (28) ... ﴿
سورة الروم		
51	3-2	﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾
30	6	﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
سورة لقمان		
193	17	﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
سورة السجدة		
173، 313	24	﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ يَا مَعْرُوفُ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾
سورة الأحزاب		
57	27	﴿وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضُهُمْ وِدْيَارُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا﴾
23، 199	62	﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
سورة سبأ		
104	-15 17	﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ (15)﴾
سورة فاطر		
ط، 367	43	﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
سورة الصافات		
149	-171 173	﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُّونَ﴾
سورة ص		
78	-41	﴿وَادْكُزَّ عَبَدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ مِنِّي الشَّيْطَانُ أَنْصَبَ وَعَذَابٍ (41) ..﴾

	44	
158	44	﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
سورة فصلت		
64، 11	53	﴿سَرِّبْهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾
سورة الشورى		
87	30	﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾
49	41	﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾
سورة الزخرف		
107، 214	23	﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾
سورة الجاثية		
36	13	﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
71	33	﴿وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلََاءٌ مُّبِينٌ﴾
سورة الأحقاف		
39	26	﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
سورة الأحقاف		
49	4	﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾
سورة محمد		
49، 92، 72	7	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾
76	31	﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

سورة الفتح		
182	18	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّا لَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾
25	-22 23	﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (22) سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴿
ط	23	﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
سورة الحجرات		
120، 159	13	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
سورة الذاريات		
74	56	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾
سورة القمر		
128	12-9	﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) ...﴾
49	10	﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾
سورة الحديد		
199	7	﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾
سورة المجادلة		
50	21	﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
سورة الحشر		
28	2	﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾
49	40	﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
سورة الصف		

180 212	4	﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾
169 372	9	﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾
سورة التغابن		
76	15	﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
سورة الطلاق		
167	3	﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾
سورة الملك		
70 140	2	﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾
34	10	﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
سورة الحاقة		
88	24	﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾
سورة المزمل		
192	5-1	﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) فُمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا (2) ...﴾
سورة الإنسان		
70	2	﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
سورة المرسلات		
42	-20 22	﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾
سورة النبأ		
88	26	﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾

سورة النازعات		
130	24	﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾
سورة التكويد		
42	-19 21	﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾
سورة الليل		
34	10-5	﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾
سورة الشمس		
171	10-9	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾
سورة العلق		
280	5-1	﴿اِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اِفْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
سورة البينة		
148	5	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ﴾
سورة الزلزلة		
31	8-7	﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ "كقوله" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

ثانيا: فهرس الأحاديث الشريفة

الصفحة	طرف الحديث
113	...أما والله إنني أخشاكم لله، وأتقاكم له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّ سَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي
160	اتق الله واصبري
46	إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ
173	أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب
45	بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا فِي الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ
192	بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان
47	تَكُونُ النَّبُوءَةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوءَةٍ
46	رَبِّ أَعْيِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ
223	رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى
32	فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها
159	قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين،

26	لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي
46	اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَائِنِي هَذَا
98	ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟
75	مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ
183	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى
155	من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان
3	من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء
178	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
103	نعم إذا كثر الخبث
166	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي
196	والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها
47	وَاللَّهُ لَيَبْسُطَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَإِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ

ثالثا: قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

أولاً: الكتب

- 1- إبراهيم بن علي الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري - دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر-، دار الشروق، القاهرة، ط 4، 1989.
- 2- إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1، 1997م.
- 3- إبراهيم عبد الفتاح، القاموس القويم للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، ط 1.
- 4- إبراهيم مياشي، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، دط، 2010.
- 5- أحمد أبو شهاب، مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، شركة أبناء شريف الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ط 1، 1991.
- 6- أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 1987.
- 7- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985.
- 8- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2001م.
- 9- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط 7، 1999م.
- 10- أحمد بن عبد الله الكبير، القيادة الأخلاقية من منظور إسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، 2016.
- 11- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر- بيروت، ط 1، 1415هـ.

- 12- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، لبنان، دط، 1987.
- 13- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات مع ركب الثورة التحريرية)، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2010.
- 14- أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها...ومعالمها، مكتبة غريب، القاهرة، دط، دس.
- 15- أحمد محمد كنعان، أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
- 16- إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990.
- 17- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419.
- 18- أبو الأعلى المودودي، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، دار الفكر، بيروت، دط، دس.
- 19- أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، دار الشهاب، باتنة، ط1، دس.
- 20- بوعبيد صالح الازدهار، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، دار الكلمة، مصر، ط1، 2014.
- 21- جامعة المدينة العالمية، أصول الدعوة وطرقها، دط، 2008، ج1.
- 22- جمال الدين بن منظور الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414.
- 23- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، دط، دس.
- 24- جميلة المصري، درة اليقين في أسباب النصر والتمكين، دار البيان، الإسكندرية، دط، دس.
- 25- جودت سعيد، حتى يغيّروا ما بأنفسهم، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ط8، 1989.
- 26- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق: محمد بن عبد الملك الزغبى، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2011.
- 27- أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: فضلة شحادة، دار

الشروق، بيروت.

- 28-** الحبيب بن طاهر، فقه الصلاة على المذهب المالكي، مؤسسة بن عاشور، تونس، دط، دس.
- 29-** حذيفة تقي الدين الخطيب، التمكين أسسه وأساليبه - دراسة بلاغية تطبيقية-، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009.
- 30-** أبي الحسن الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط5، 1993.
- 31-** حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، دار الفضيلة، الرياض، دار الهدى النبوي، مصر، ط2، 2011.
- 32-** الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط4، 1997م.
- 33-** أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، 1955.
- 34-** حمد بن حمدي الصاعدي، دعائم التمكين، المكتبة الشاملة.
- 35-** خالد النجار، ابن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية في الجزائر، ص27.
- 36-** الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط1، دس، دار مكتبة الهلال.
- 37-** أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، دط، دس.
- 38-** رابع تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط2، 2009.
- 39-** رابع تركي عمامرة، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

- 40-** رابع تركي عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، 1969.
- 41-** راشد سعيد شهوان، تأصيل علم السنن الربانية، القسم العربي، عدد 15، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، 2008.
- 42-** رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، كلية أصول الدين، جامعة القرويين، تطوان، دط، دس.
- 43-** رمضان خميس الغريب، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، دط، دس.
- 44-** رمضان خميس زكي الغريب، سنة التمكن في ضوء القرآن الكريم، كلية المعلمين حائل، المملكة العربية السعودية، دط، دس.
- 45-** رمضان خميس زكي، سنة الله في إهلاك الأمم، ط1، 2014.
- 46-** رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية التجربة. الأخطاء. الحل، مطابع روز اليوسف، القاهرة، دط، دس.
- 47-** زين الدين أبو عبد الله الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999.
- 48-** سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقومات الداعية الناجح، دط، دس.
- 49-** سمير محمد حسين، بحوث الإعلام الأسس والمبادئ، عالم الكتب، دط، دس.
- 50-** سيد بن حسين العفاني، تثبیت أفئدة المؤمنین بذكر مبشرات النصر والتمكين، دار ماجد عيسري، دط، دس.
- 51-** سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط17، 1991.
- 52-** سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط12، 1406هـ.
- 53-** سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 1997م.
- 54-** السيد محمد الشاهد، موسوعة المفاهيم الإسلامية العالمية، القاهرة، ط1، 2000م.
- 55-** السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2011م.

- 56-** شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 2007.
- 57-** شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996.
- 58-** شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1979م.
- 59-** شيخ الإسلام ابن تيمية، الإيمان، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق-عمان، ط5، 1996م.
- 60-** شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز، دار الوفاء، ط3، 2005.
- 61-** صفى الرحمان المبار كفوري، الرحيق المختوم، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ط1، 2006، ص193.
- 62-** صلاح الخالدي، وعود القرآن بالتمكين للإسلام، منبر التوحيد والجهاد، دط، دس.
- 63-** طه بدوي، منهج البحث العلمي، المكتب العربي الحديث، مصر، د ط، دس.
- 64-** طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهدى، لبنان، ط1، 2003،
- 65-** الطيب برغوث، استراتيجية الثقافة في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينايع، الجزائر، ط1، 1993.
- 66-** الطيب برغوث، التكاملية المعرفية والحاجة إلى منظور سنني كوني متوازن، برج الكيفان، الجزائر، دار النعمان، ط1، 2017.
- 67-** الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة، المحمدية، الجزائر، ط1، 2004.
- 68-** الطيب برغوث، الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية، مركز الراية للتنمية الفكرية، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ط1، 2006.
- 69-** الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد، دار

قرطبة، الجزائر، ط1، 2004.

70- الطيب برغوث، مدخل سنني إلى النظرية الكلية في فقه العمران الحضاري في ضوء القرآن الكريم، دار النعمان، الجزائر، دط، 2017.

71- الطيب برغوث، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية-تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي، دار قرطبة، ط1، 2004.

72- الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1996.

73- عادل بن بوزيد عيساوي، فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، دط، 2012.

74- عاطف عبد العزيز الفيومي، المنهج السلفي معالم على طريق الدعوة والتمكين، مكتبة طريق المصلحين، ط1، 2010.

75- عبد الحليم ابن تيمية، العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار الأصاله، الإسماعيلية، ط3، 1999.

76- عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف: عمار الطالبي، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1997م.

77- عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مطابع الكيلاني، القاهرة، دط، دس.

78- عبد الحميد محمود طهماز، أسباب النصر في سورة الأنفال، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1992.

79- عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، در الفكر، بيروت، ط1، 1981.

80- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها التبشير - الاستشراق - الاستعمار، دار القام، دمشق، ط8، 2000م.

- 81- عبد الكريم الشامي، السببية ودورها في حياة المسلم، دار البيارق، بيروت-لبنان، ط1، 1996.
- 82- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931- 1945، عالم المعرفة، الجزائر، دط، 2009.
- 83- عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دس.
- 84- عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993.
- 85- أبو عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتي، ط1، 1994م.
- 86- عبد الله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، دار المنارة، جدة، ط2، 1992.
- 87- عبد الله بن محمد آل موسى، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، عالم الكتب، الرياض، ط1، 1985.
- 88- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1311هـ.
- 89- عزيز البطوي، سنن العمران البشري في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2018.
- 90- علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، فقه الواقع بين النظرية والتطبيق، شركة النور، فلسطين، ط3، 1420هـ.
- 91- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- 92- علي عبد الحليم، فقه الدعوة إلى الله، دار الوفاء، المنصورة ط1، 1990م.
- 93- علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، ط1، 2006م.
- 94- علي مرّاد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، 1925-1940 ترجمة: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، ط خاصة وزارة المجاهدين، 2007م.

- 95- عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1975.
- 96- عمار بن مزوز، عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل، الجزائر، ط2، 2015.
- 97- عمر عبيد حسنة، المنهج السنني أفق حضاري متجدد، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان، ط1، 2009.
- 98- عمر عبيد حسنة، على طريق الشهود، دار المكتب الإسلامي، بيروت، دط، 1422هـ،
- 99- فتحي يكن، أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط12، 1997.
- 100- فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط16، 1996.
- 101- أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، ضبطه وصحّحه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 102- الفضيل الورتلاني، الجزائر النائرة، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، دط، 2009.
- 103- فوزي سمارة، بشائر النصر في القرآن والسنة، مؤسسة الطريق، عمان، ط1، 2006.
- 104- الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، وزارة الأوقاف، مصر، ط3، 1996.
- 105- أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ"الزّاعب الأصفهاني"، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، دط، دس.
- 106- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط4، 1992.
- 107- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1998.
- 108- القانون الأساسي لجمعية العلماء، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة(الجزائر)، دط، دس.
- 109- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964.
- 110- ابن كثير، قصص ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف، القاهرة، ط1، 1968.

- 111- مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، دط، 1989.
- 112- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، 1979.
- 113- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن-الطفل-ترجمة: مروان قنواقي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1969.
- 114- مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، ط4، 2005، ص56-57.
- 115- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986.
- 116- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986.
- 117- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، ط5، 1986.
- 118- مبارك الملي، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، ط3، 1982م.
- 119- مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005.
- 120- مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 2006.
- 121- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.
- 122- محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1995.
- 123- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.
- 124- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1971.
- 125- محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، الدار السعودية، ط3، 1984.
- 126- محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، دط، 1984.
- 127- محمد الغزالي، الحق المر، دار الهناء، برج الكيفان، الجزائر، دط، دس، ج1.

- 128-** محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق، القاهرة، دط، دس.
- 129-** محمد الغزالي، الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، القاهرة، دط، دس، ص30.
- 130-** محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن؟، نهضة مصر، مصر، ط7، 2005.
- 131-** محمد الغزالي، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، نهضة مصر، مصر، ط6، 2005م.
- 132-** محمد المليي، الشيخ مبارك المليي (حياته العلمية ونضاله الوطني)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 2001.
- 133-** محمد أمخزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 2011م.
- 134-** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1973م.
- 135-** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، دط، 1978م.
- 136-** محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2000م.
- 137-** محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
- 138-** محمد بن شاكر الشريف، تحديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2004.
- 139-** محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007م.
- 140-** محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م.

- 141- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط، دار الفكر، ط2، 1978.
- 142- محمد خير الدين، مذكرات، مؤسسة الضحى، الجزائر، ط2، 2002.
- 143- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، المشتبه بتفسير المنار، دار المنار، مصر، ط2، 1937.
- 144- محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، ط3، 1988.
- 145- محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي، دار وائل، عمان، ط2، 1999.
- 146- محمد عتريس، المعجم الوافي لكلمات القرآن الكريم، مكتبة الأدب، القاهرة، ط1، 2006.
- 147- محمد علوش، أهمية الحوار في تحقيق التدافع، شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، دط، 2014.
- 148- محمد علي الصّلاّبي، سنة الله في الأخذ بالأسباب، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
- 149- محمد عمارة، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، 2007.
- 150- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، دط، 1364هـ.
- 151- محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، منبر التوحيد والجهاد: WWW.TAWHED.WS
- 152- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ت: مصطفى حجازي، سلسلة التراث العربي، الكويت، ط1، 2001.
- 153- محمد يسري، معالم في أصول الدعوة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2003، ص58.
- 154- محمود محمد حمودة، محمد مطلق عساف، فقه الدعوة وأساليبها، مؤسسة الوراق، عمان، الأردن، 2000.
- 155- محمود محمد عمارة، فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، دار السلام العالمية، جامعة أم القرى، دط.
- 156- مدحت كاظم القرشي، الاقتصاد الصناعي، دار وائل للنشر، الأردن، ط1، 2000.
- 157- مصطفى النجار، ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإنسانية، مفهوم مصطلح الشهادة على الناس في القرآن وأبعاده الحضارية، الرباط، 1996.

- 158-** مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط9، 1973.
- 159-** منذر الضامن، أساسيات البحث العلمي، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007.
- 160-** موفق الحمداني وآخرون، مناهج البحث العلمي-أساسيات البحث العلمي-جامعة عمان للدراسات العليا، عمان، ط1، 2006.
- 161-** يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط1، 2001.
- 162-** يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830-1954م، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، دط، 2007.
- 163-** أبو يعلى الزواوي، الإسلام الصحيح، تقديم: أبو القاسم سعد الله، منشورات الخبر، الجزائر، دط، 2008.
- 164-** يوسف القرضاوي، الحياة الربانية والعلم، دار الفرقان، ط1، 1996.
- 165-** يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، 1990م.
- 166-** يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1973.

ثانيا: الرسائل العلمية:

- 1-** حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، أطروحة دكتوراه، قسم كتاب وسنة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2003-2004.
- 2-** خالد الزهراني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، -دراسة موضوعية-، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2007.
- 3-** شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، أطروحة دكتوراه، قسم العقيدة، جامعة أم القرى، الدار العثمانية، مكتبة الرشد عمان، الأردن، 2004.
- 4-** عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم

- الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، تخصص كتاب وسنة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.
- 5- محمد إسماعيل سيد أبو سخيّل، الأبعاد التربوية لسنة الابتلاء في ضوء الفكر التربوي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية التربية، قسم أصول التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007.
- 6- مفيدة بلهامل، وسائل الاتصال عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رسالة ماجستير، معهد أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1996-1997م.
- 7- هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية - دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي -، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، تخصص دعوة وإعلام، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012-2013.

ثالثاً: المقالات والصحف:

- 1- مصطفى مخلوف، بدر الدين زواقة، "معالم الوعي السني في المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس"، الشهاب، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، مج9، العدد1، مارس2023.
- 2- <http://iswy.co> <https://ar.islamway.net/article> تاريخ الولوج: 2024/10/3.
- 3- أبي اليقظان، موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري، البصائر، السنة الأولى ديسمبر1935- جانفي1937م، العدد 1.
- 4- باعيز بن عمر، "الرقى الاجتماعي"، البصائر، العدد 68، 21 فيفري1949.
- 5- البشير الإبراهيمي، "التقرير الأدبي لجمعية العلماء المسلمين"، البصائر، البصائر، السنة الرابعة، العدد 172، 15 أكتوبر 1951.
- 6- بلقاسم بن ارواق، "إلى الأدب أيها الشباب"، البصائر، العدد 5، 6 ذي القعدة 1354، 31 جانفي 1936.
- 7- بوسعيد سومية، الفكر الاجتماعي الإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2019، عدد45، مج23.
- 8- حمزة أبو كوشة، "الأخلاق"، البصائر، العدد 3، 22 شوال1354-17 جانفي1936.

- 9- خليفة بن عمار، "هل لشبابنا حظ من العلوم والأخلاق الفاضلة"، البصائر، العدد 3، 17 جانفي 1936.
- 10- رابح تركي، الشيخ البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 87.
- 11- راشد سعيد شهوان، تأصيل علم السنن الربانية، مجلة القسم العربي، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان، العدد 15، 2008.
- 12- رشيد كهوس، الفكر السنني وآفاق النهوض الحضاري، موقع مركز الأمانة للأبحاث والدراسات العلمية: <https://cutt.us/nnmU0>
- 13- رشيد كُهوس، معالم فقه السنن الإلهية في المشروع الفكري لطف جابر العلواني، الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 109، ربيع 1446هـ/2025م.
- 14- الطيب العقبي، "ماذا يلاقي المصلحون؟ جمعية العلماء المسلمين وحكومة الجزائر"، البصائر، العدد 50، 7 جانفي 1957.
- 15- الطيب برغوث، الفلسفة القرآنية السننية للتاريخ والحضارة- سنن المدافعة والتجديد عند ابن خلدون"، معلمة السنن الإلهية في القرآن الكريم، الكتاب الثاني، رشيد كهوس، دار الكلمة، مصر، ط1، 2020.
- 16- عبد الباقي سرور نعيم، الإسلام وموقفه إزاء المدنية الحاضرة، الشهاب، العدد 26، السنة الأولى، 13 ماي 1926م.
- 17- علي الأمين عوض الله، "مفهوم وخصائص السنن الإلهية في ضوء القرآن الكريم"، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة أم درمان الإسلامية، الخرطوم، السودان.
- 18- رمضان خميس الغريب، صفات جيل التمكين في المنظور القرآني، حولية كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، العدد 18، ديسمبر، 2007.
- 19- عبد الحميد بن باديس: "الجنسية القومية والجنسية السياسية"، البصائر، العدد 58، 12 مارس 1937.
- 20- عبد الحميد بن باديس، "حول مقاومة التعليم الإسلامي العربي قرار 08 مارس ومنع الرخص"، البصائر، السنة الثالثة، العدد 114، 20 ماي 1938م.

- 21- عبد الحميد بن باديس، "كلمة صريحة"، الشهاب، مج12، ج1، أبريل 1936.
- 22- عبد الحميد بن باديس، "كتاب مفتوح إلى النواب الجزائريين الأحرار بالعمالات الثلاثة، البصائر، السنة الثالثة، العدد 110، 22 أبريل 1938م.
- 23- عبد الرحمان الجيلالي، أخطار الخمر، الشهاب، ج8، مج9.
- 24- عبد العزيز برغوث، "ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، إسلامية المعرفة، العدد 49، السنة 13، 2007.
- 25- عبد الله الزبير عبد الرحمان، من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، مارس-أفريل 1997، كتاب الأمة، العدد 56، ذو القعدة 1417هـ، السنة 16.
- 26- عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم، دراسة دلالية، مجلة آداب الرافدين، العدد 172، موقع الألوكة، 8 مارس 2022.
- 27- علي محمد الصلابي، نبى الله هود عليه السلام، www.alsalabi.com، تاريخ الولوج جويلية 2025.
- 28- عمر فالاش، "فقه السنن الإلهية واستثماراته في النهوض الحضاري للأمم" - سنة التغيير أنموذجا، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، مج 16، ع2، السداسي الأول، 2024.
- 29- فتحي يكن، "فقه سنة التمكين"، المجتمع، العدد 1249، 13 ماي 1997، الكويت.
- 30- كريمة بلعربي، "سنة الابتلاء والتمكين في القرآن الكريم- نظرات في الغايات والأهداف"- مركز تفسير للدراسات القرآنية.
- 31- محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، العدد 87، ماي-جوان 1985.
- 32- محمد البشير الإبراهيمي، "من مشاكلنا الاجتماعية"، البصائر، العدد 7، 19 سبتمبر 1941.
- 33- محمد البشير الإبراهيمي، "العربية فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية"، الشهاب، فيفري 1939، مج15، ج1.
- 34- محمد الحسن الورتلاني، "للعبرة والتاريخ"، البصائر، السنة الرابعة، العدد 164، 05 ماي 1939م.
- 35- محمد الصالح رمضان، "جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي"، مجلة الثقافة، العدد 83،

السنة الرابعة عشر، سبتمبر - أكتوبر 1984.

- 36- محمد الفضيل الورتلاني، "حوادث الليلة الليلاء"، البصائر، العدد 76.
- 37- محمد المنصور العسري، "صور من مجتمعنا الحاضر"، البصائر، العدد 66، 7 فيفري 1949.
- 38- محمد عبد الفتاح الخطيب، "قيم الإسلام الحضارية: نحو إنسانية جديدة"، كتاب الأمة، العدد 139، السنة 30، قطر، 2010.
- 39- محمد عمارة، "سنة التدرج في الإصلاح"، www.elsonan.blogspot.com، تاريخ الولوج: 2023-10-10.
- 40- محمد عمارة، "صراع القيم بين الغرب والإسلام"، سلسلة التنوير الإسلامي، نخضة، مصر، العدد 9، 1997.
- 41- مراد بلخير، "منظومة سنن المدافعة والتجديد في القرآن الكريم وأثرها في النهضة الحضارية"، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، مج 29، العدد 2، 2025.
- 42- منصور فهمي، "الكرامة"، المنتقد، الخميس 17 ذي الحجة 1343 9 جويلية 1925، السنة الأولى، العدد 2، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2008م.
- 43- "اليوم الخالد في تاريخ النهضة الجزائرية"، البصائر، العدد 56، 1956.
- 44- البصائر، العدد 108، 14 صفر 1357-15 أفريل 1938م.
- 45- البصائر، العدد 4، 29 أوت 1947م.
- 46- البصائر، العدد 24، 19 جوان 1936م.
- 47- الشهاب، العدد 28، ماي 1926م.
- 48- الشهاب، ج 1، مج 12، 1936م.
- 49- الشهاب، عدد 108، 4 أغسطس 1927م.
- 50- البصائر، العدد 23، 12 جوان، 1936م.
- 51- البصائر، العدد 4، 29 أوت 1947م.

- 52- الشهاب، ج 6، م 13 أوت 1937م.
- 53- الشهاب، ج 10، م 12، جانفي 1937م.
- 54- الشهاب، ج 12، مج 12، فيفري 1937م.
- 55- الشهاب، ج 3، م 12، جوان 1936م.
- 56- الشهاب، ج 4، مج 12، جويلية 1936م.
- 57- الشهاب، ج 13، سنة 1973، ص 20.
- 58- ابن باديس، الشهاب، ج 7، أكتوبر 1935، ص 11
- 59- الشهاب، ج 3، جوان 1936.
- 60- الشهاب، ج 3، جوان 1936
- 61- ابن باديس، الشهاب، ج 8، مج 11، نوفمبر 1935م.
- 62- ابن باديس، الشهاب، ج 9، ديسمبر 1935م.

رابعاً: فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: الإطار النظري والمفاهيمي لسنن التمكين	
المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية وأنواعها.	2
المطلب الأول: مفهوم السنن الإلهية لغة واصطلاحاً	2
المطلب الثاني: أنواع السنن الإلهية وسياقاتها	9
المبحث الثاني: مفهوم سنن التمكين وخصائصها.	15
المطلب الأول: مفهوم سنن التمكين وأبرز دلالاتها.	15
المطلب الثاني: خصائص سنن التمكين وسماتها.	22
المبحث الثالث: مصطلح التمكين في القرآن الكريم والسنة النبوية.	38
المطلب الأول: دلالة مصطلح التمكين في القرآن الكريم.	38
المطلب الثاني: دلالة مصطلح التمكين في السنة النبوية.	45
المطلب الثالث: الألفاظ المرادفة لمصطلح التمكين في النصوص الشرعية.	47
المبحث الرابع: أهمية فقه سنن التمكين في العمل الدعوي.	59
المطلب الأول: الأهمية النظرية والمعرفية.	59
المطلب الثاني: الأهمية العملية والوظيفية	62
الفصل الثاني: سنن التمكين الكبرى وأثرها في العمل الدعوي.	
المبحث الأول: سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي.	70
المطلب الأول: تعريف سنة الابتلاء وأهميتها.	70

76	المطلب الثاني: أنواع سنة الابتلاء وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
85	المبحث الثاني: سنة الأخذ بالأسباب وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
85	المطلب الأول: تعريف سنة الأخذ بالأسباب وأهميتها.
89	المطلب الثاني: أقسام سنة الأخذ بالأسباب وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
102	المبحث الثالث: سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
103	المطلب الأول: تعريف سنة التغيير وأهميتها.
106	المطلب الثاني: مقومات سنة التغيير وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
118	المبحث الرابع: سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
118	المطلب الأول: تعريف سنة التدافع وأهميتها.
126	المطلب الثاني: مظاهر سنة التدافع وأثرها في تمكين العمل الدعوي.
الفصل الثالث: مقومات تفعيل سنن التمكين في العمل الدعوي المعاصر.	
143	المبحث الأول: الشروط المعنوية والمادية لتفعيل سنن التمكين.
143	المطلب الأول: الشروط المعنوية الروحية.
163	المطلب الثاني: الشروط المادية العملية.
187	المبحث الثاني: الأهداف العقدية والحضارية لتفعيل سنن التمكين.
187	المطلب الأول: الأهداف العقدية والتشريعية.
199	المطلب الثاني: الأهداف الاجتماعية والحضارية.
210	المبحث الثالث: التحديات الداخلية والخارجية أمام تفعيل سنن التمكين.
210	المطلب الأول: التحديات الداخلية.
217	المطلب الثاني: التحديات الخارجية.
222	المبحث الرابع: أثر فقه سنن التمكين في ترشيد العمل الدعوي المعاصر.

223	المطلب الأول: الأثر التربوي البشري.
228	المطلب الثاني: الأثر الفكري الاستراتيجي.
231	المطلب الثالث: الأثر التطبيقي التنفيذي:
الفصل الرابع:	
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومجالات التمكين في العمل الدعوي للجمعية.	
239	المبحث الأول: التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبأهدافها.
239	المطلب الأول: التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
248	المطلب الثاني: أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
253	المبحث الثاني: مجال التمكين الديني "العقدي" في العمل الدعوي للجمعية.
254	المطلب الأول: إحياء الإسلام الصحيح وفصل الدين عن الدولة.
258	المطلب الثاني: محاربة الطرقية وحركة التبشير المسيحي
266	المبحث الثالث: مجال التمكين الاجتماعي "الثقافي" في العمل الدعوي للجمعية.
267	المطلب الأول: محاربة سياسة التجهيل والأمية.
271	المطلب الثاني: محاربة الآفات الاجتماعية وإصلاح الشباب والمرأة.
282	المبحث الرابع: مجال التمكين السياسي في العمل الدعوي للجمعية.
283	المطلب الأول: المشاركة في المؤتمر الإسلامي 7 جوان 1936.
287	المطلب الثاني: محاربة سياسة التجنيس والإدماج ودعم الثورة التحريرية.
الفصل الخامس:	
دراسة تطبيقية لتجليات سنن التمكين في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.	
303	المبحث الأول: تجليات سنة الابتلاء في مسار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
304	المطلب الأول: الابتلاء بالسلطة الاستعمارية.
308	المطلب الثاني: الابتلاء بالخصوم والانقسامات الداخلية.

311	المطلب الثالث: الابتلاء بالفكر المنحرف (التغريب والانحلال)
316	المبحث الثاني: تحليلات سنة الأخذ بالأسباب في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
317	المطلب الأول: إعادة فتح وبناء المدارس لإصلاح التعليم، بوابة سنة الأخذ بالأسباب.
320	المطلب الثاني: إعادة بناء المساجد لرفع بلاء الزوايا أخذ بالأسباب.
323	المطلب الثالث: نشر النوادي والجمعيات لزراعة الفضائل ودرء المفسدات أخذ بالأسباب.
329	المبحث الثالث: تحليلات سنة التغيير في عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
332	المطلب الأول: التغيير العقدي "الروحي" كعنصر في المشروع التغييري للإنسان، عند الجمعية.
336	المطلب الثاني: التغيير الفكري "الثقافي" كعنصر في المشروع التغييري للإنسان، عند الجمعية.
340	المطلب الثالث: التغيير السلوكي "العملي" كعنصر في المشروع التغييري للإنسان، عند الجمعية.
348	المبحث الرابع: تحليلات سنة التدافع في تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
349	المطلب الأول: تدافع المرجعية الدينية: بين الدين الإسلامي وحملات التبشير المسيحي.
354	المطلب الثاني: تدافع الهوية "الجزائر العربية" في مواجهة "الجزائر الفرنسية".
359	المطلب الثالث: تدافع منظومة قيم النهضة مقابل منظومة قيم الهيمنة.
371	المبحث الخامس: توصيات لتفعيل سنن التمكين في توجيه الحركات والمؤسسات الدعوية المعاصرة.
372	المطلب الأول: توصيات منهجية لترسيخ فقه السنن.
374	المطلب الثاني: توصيات تطبيقية على مستوى الفرد والجماعة.
377	المطلب الثالث: توصيات تنظيمية وإدارية.
385	الخاتمة
الفهارس	

393	أولاً: فهرس الآيات القرآنية
409	ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية
411	ثالثاً: قائمة المصادر والمراجع
428	فهرس الموضوعات
	الملخصات

الملخصات

ملخص البحث:

تتبع إشكالية هذا البحث من الحاجة الملحة لترشيد العمل الدعوي المعاصر وتنظيمه، في ظل ما يعانيه من تحديات معقدة، وتيارات متصارعة، تجعل من الضروري البحث عن أطر منهجية رصينة، تضمن له الفاعلية والاستمرارية، وفي هذا السياق؛ تبرز "سنن التمكين" كإطار نظري إلهي، يحمل إمكانيات منهجية هائلة، لكن التحدي يكمن في كيفية نقل هذا الفقه النظري، إلى حيّز التطبيق العملي.

لذلك تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية؛ الأول يتمثل في بناء إطار نظري متكامل لمفهوم سنن التمكين، -وعلى رأسها سنن الابتلاء، الأخذ بالأسباب، التغيير، والتدافع- وبيان علاقتها المتكاملة بالعمل الدعوي، أما الهدف الثاني فيتمثل في تحليل التجربة التاريخية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، للكشف عن تجليات هذه السنن في مشروعها الإصلاحي الشامل، ويأتي الهدف الثالث لاستخلاص آليات عملية وتوصيات ترشيدية للعمل الدعوي المعاصر، في ضوء الدروس المستفادة من النموذجين النظري والتطبيقي.

واعتمد البحث على منهجية متعددة المستويات، حيث استخدم المنهج الاستقرائي؛ لتتبع أعمال الجمعية في مختلف المجالات، كما وظّف المنهج التاريخي لرصد مسارها منذ التأسيس سنة 1931، مروراً بمراحل قوتها وتحدياتها وصولاً إلى تأثيرها الممتد حتى اندلاع الثورة مجسّدة بذلك سنن التمكين، من سنة الابتلاء وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التغيير.... وهكذا، وكان للمنهج الوصفي التحليلي حضور أيضاً، في دراسة الإطار النظري لسنن التمكين، وتحليل الأدوات والوسائل التي استخدمتها الجمعية، لتحقيق أهدافها وتقييم مدى فعاليتها، كما توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أبرزها؛ أن سنة الابتلاء تجلّت في مسيرة الجمعية، من خلال مواجهتها للسلطة الاستعمارية، والمحاولات المستمرة لطمس هوية الأمة، وهو ما عملت على تحويله إلى عامل تمحيص للصفوف، وصقل للهمم، كما تجسّدت سنة الأخذ بالأسباب في الاستراتيجية الشاملة للجمعية، التي جمعت بين الإصلاح العقدي عبر بناء المدارس والمساجد للتعليم، والإصلاح الاجتماعي عبر النوادي والجمعيات، والإصلاح الإعلامي عبر الصحف والمجلات.

ومثّلت سنة التغيير المنهج المتدرج، الذي سارت عليه الجمعية، حيث جعلت من الإنسان محور المشروع التغيير، فبدأت بالتغيير العقدي والفكري للأفراد، كمدخل ضروري للتغيير السلوكي والواقع الاجتماعي، واتّسم تعامل الجمعية مع سنة التدافع بالواقعية والحكمة، حيث دافعت عن المرجعية الدينية، والهوية العربية للجزائر، في مواجهة حملات التبشير المسيحي، وسياسة الفرنسة، وسعت لتحرير العقول والوجدان كتمهيد لتحرير الأرض.

الكلمات المفتاحية: سنن التمكين، العمل الدعوي المعاصر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

Research Summary

The problem addressed by this research stems from the urgent need to guide and organize contemporary da'wah work, given the complex challenges and conflicting currents it faces. This necessitates the search for sound methodological frameworks that guarantee its effectiveness and continuity. In this context, the "Sunan al-Tamkeen" (Law of Empowerment) emerges as a divinely ordained theoretical framework possessing immense methodological potential. However, the challenge lies in translating this theoretical jurisprudence into practical application.

Therefore, this study seeks to achieve three main objectives. The first is to construct a comprehensive theoretical framework for the concept of Sunnan al-Tamkeen—foremost among them the Sunnah of trials, taking the necessary steps, change, and striving—and to demonstrate its integrated relationship to da'wah work. The second objective is to analyze the historical experience of the Association of Algerian Muslim Scholars to reveal the manifestations of these Sunnahs in its comprehensive reform project. The third objective is to derive practical mechanisms and guiding recommendations for contemporary da'wah work, in light of the lessons learned from both the theoretical and applied models.

The research adopted a multi-level methodology, employing the inductive method. To trace the association's activities in various fields, the study employed a historical approach to monitor its trajectory from its founding in 1931, through its periods of strength and challenges, to its enduring influence until the outbreak of the revolution. This influence embodied the principles of empowerment: the principle of trial, the principle of taking the necessary steps, and the principle of change. The descriptive-analytical approach was also utilized in examining the theoretical framework of these principles of empowerment, analyzing the tools and methods the association used to achieve

its goals, and evaluating their effectiveness. The study reached several conclusions, most notably that the principle of trial manifested itself in the association's journey through its confrontation with colonial power and the continuous attempts to obliterate the nation's identity. This confrontation served as a catalyst for purifying its ranks and refining its resolve. The principle of taking the necessary steps was embodied in the association's comprehensive strategy, which combined doctrinal reform through the construction of schools and mosques for education, social reform through clubs and associations, and media reform through newspapers and magazines.

The year of change represented the gradual approach that the association followed, as it made man the focus of the change project. It began with the doctrinal and intellectual change of individuals, as a necessary entry point for behavioral change and social reality. The association's dealings with the year of struggle were characterized by realism and wisdom, as it defended the religious reference and the Arab identity of Algeria, in the face of Christian missionary campaigns and the policy of Frenchification, and sought to liberate minds and consciences as a prelude to liberating the land.

Keywords: Laws of Empowerment, Contemporary Islamic Work, Association of Algerian Muslim Scholars.

Résumé

Le problème abordé par cette recherche découle de l'urgence de guider et d'organiser le travail contemporain de da'wah, compte tenu des défis complexes et des courants contradictoires auxquels il est confronté. Ceci implique la recherche de cadres méthodologiques solides garantissant son efficacité et sa continuité. Dans ce contexte, le « Sunan al-Tamkeen » (Loi de l'Autonomisation) apparaît comme un cadre théorique d'inspiration divine, doté d'un immense potentiel méthodologique. Cependant, la difficulté réside dans la traduction de cette jurisprudence théorique en application pratique.

Par conséquent, cette étude vise trois objectifs principaux. Le premier est de construire un cadre théorique complet pour le concept de Sunan al-Tamkeen – au premier rang duquel figurent la Sunna des épreuves, des démarches nécessaires, du changement et de l'effort – et de démontrer son lien intrinsèque avec le travail de da'wah. Le deuxième objectif est d'analyser l'expérience historique de l'Association des Oulémas Musulmans d'Algérie afin de révéler les manifestations de ces Sunnas dans son projet de réforme global. Le troisième objectif est d'élaborer des mécanismes pratiques et des recommandations pour le travail de da'wa contemporain, à la lumière des enseignements tirés des modèles théoriques et appliqués.

La recherche a adopté une méthodologie multiniveaux, employant la méthode inductive. Afin de retracer les activités de l'association dans divers domaines, l'étude a eu recours à une approche historique pour suivre son évolution depuis sa fondation en 1931, en passant par ses périodes de force et ses périodes de difficultés, jusqu'à son influence durable jusqu'au déclenchement de la révolution. Cette influence incarnait les principes d'émancipation : le principe de l'épreuve, le principe de la mise en œuvre des mesures nécessaires et le principe du changement. L'approche descriptive et

analytique a également été utilisée pour examiner le cadre théorique de ces principes d'émancipation, analyser les outils et les méthodes employés par l'association pour atteindre ses objectifs et évaluer leur efficacité. L'étude a abouti à plusieurs conclusions, notamment que le principe de l'épreuve s'est manifesté dans le parcours de l'association face au pouvoir colonial et aux tentatives incessantes d'effacer l'identité nationale. Cette confrontation a servi de catalyseur pour purifier ses rangs et renforcer sa détermination. Le principe de la mise en œuvre progressive des mesures nécessaires s'incarnait dans la stratégie globale de l'association, qui associait une réforme doctrinale par la construction d'écoles et de mosquées, une réforme sociale par le biais de clubs et d'associations, et une réforme des médias par la presse écrite.

L'année du changement illustre la démarche graduelle adoptée par l'association, plaçant l'individu au cœur du projet de transformation. Elle débutait par l'évolution doctrinale et intellectuelle des individus, condition indispensable à l'évolution des comportements et à la transformation de la réalité sociale. Durant cette année de lutte, l'association se distingua par son réalisme et sa sagesse. Elle défendit le fondement religieux et l'identité arabe de l'Algérie face aux campagnes missionnaires chrétiennes et à la politique de francisation, et œuvra à la libération des esprits et des consciences, prélude à la libération du pays.

Mots-clés : Lois du renforcement (Sunan al-Tamkīn), action prêchée contemporaine, Association des Oulémas Musulmans Algériens.

Education and Scientific Research
Amir Abd-el-Kader University of Islamic Sciences Constantine



Faculty of Usul al-Din

Number Ordinal

Identification Number.....

Department Of Da'wah,
Media, and Communication
Specialty: Da'wah and Islamic Culture

**The Laws of Empowerment in Contemporary
Da'wah Work:
The Association of Algerian Muslim Ulama as a Model**

Thesis submitted for academic doctoral sciences/LMD in:
Specialty: Da'wah and Islamic Culture

Elaborated by the student
Berkani Nora

Supervised by Doctor.
Boufedah Badissi Wahida

The discussion jury members

Name and First Name	Function	Scientific Rang	Original University
Pr.Mofida Belfamel	Chairman	Pro	Emir Abdelkader University-Constantine
D/ Boufedah Badissi Wahida	Supervisor and Reporter	MCA	Emir Abdelkader University-Constantine
D/Habiba Elmanaa	Member	MCA	Emir Abdelkader University-Constantine
D/ Mohamed Seddik Kadri	Member	MCA	Université du martyr Hamma Lakhdar - El Oued
D/Fahima Ben Othmane	Member	MCA	Université du martyr Hamma Lakhdar - El Oued
Pr. Miqlaati sahraouie	Member	Pro	Université de Hadj Lakhdar - Batna 1

University year: 1446-1447h / 2025-2026